الأعمال الكاملة

للدكتور سيد عويس

المجلد الثانى

الطبعة الأولى يناير ١٩٩٩

عنوان الكتاب: الأعمال الكاملة للدكتور سيد عويس - المجلد الثانى

اسم المؤلف : د. سيد عويس

الناشر : مركز المحروسة للبحوث والتدريب والنشر

٤ش ٩ب المعادى - ت: ٣٧٥٢٠٣٣

المدير العام : فـريـد زهـران

تنفيذ : هشام صلاح مسئول الطباعة : محمد سعيد

رقم الإيداع : ٩٩/٢٣٦٨

الترقيم الدولى I.S.B.N:٨-٨-٠٠٨-٣١٣-٩٧٧



فهرس المجلد الثانى

تقديم المجلد الثانى

دأب سيد عويس عالم الاجتماع المصرى (١٩١٣ - ١٩٨٩ ميلادية) على أن يرصد شخصيات الناس وأنماط سلوكهم، والمواقف التى يواجهونها، والظواهر الاجتماعية التى تسود المجتمع المصرى، ومن خلال نظرات باحث علمي اجتماعى مصرى، بهدف تيسير سبيل المنفذين للعمل من أجل مواجهة العقبات التى تواجه التنمية الشاملة وتحقيق المستقبل المشرق لمصرنا الخالدة.

كما أكد على دور الباحث الاجتماعى فى الكشف عن العيوب والمزايا التى تتصل بالتغيرات الاجتماعية. وأن مهنتى الخدمة الاجتماعية، والبحث العلمى الاجتماعى توأمان تكادان أن تكونا متماثلتين. إذا ازدهرت إحداهما تزدهر الأخرى. ولا شك فإن عمل سيد عويس فى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، جعله ينظر إلى هذا المركز كأول مؤسسة اجتماعية كونت منذ إنشائها، ولا تزال تكون أجيالا من الباحثين العلميين الاجتماعيين.

وقد آمن على الدوام بسيادة العلم، ففى ضوئه يمكن لنا التعرف على ما هو كائن، حتى نستطيع أن نغيره، فى ضوء العلم أيضا، إلى ما يجب أن يكون، أى نغيره إلى الأفضل وإلى الأعظم وإلى الأقوى. كما وأن التفاؤل كان دينه دائما، على الرغم من الظروف التى واجهته فى حياته، وخاصة فى أواخر أيام حياته، وأهمها كبر السن، والتى تظللها ظلام عدم الوفاء الدامس.

وفى ضوء إيمانه الراسخ بالعلم، ودراساته العلمية للظواهر التى توجد فى المجتمع المصرى المعاصر، بدا له أن مصرنا الخالدة ما زالت مجهولة عند أبنائها وعند بناتها، وأن المعرفة الموضوعية لملامحها أصبحت مسألة فى غاية الأهمية. ولاحظ ما يكتب على هياكل السيارات والأتوبيسات واللوريات والعربات من كلمات وعبارات، أو يعلقونه بالإضافة إلى هذه الكلمات والعبارات، أو بدونها، من أشياء معينة درءاً للحسد أو طلباً للرزق أو رجاء الوقاية من المجهول ... وهى فى حقيقة الأمر تحمل هذه المركبات

العناصر الثقافية غير المادية وتعلن عنها حيثما تسير، وكأنها جهاز إعلامى شعبى من أجهزة الإعلام فى مجتمعنا المصرى المعاصر.

وفى إطار اهتمام سيد عويس بدراسة الظواهر الاجتماعية، لجأ إلى دراسة العنف الإنسانى دراسة علمية، باعتباره وليد الشعور بالعداوة فى المجتمع المصرى المعاصر. فتناول دراسة مفهوم "العنف" بقصد التعرف على معناه وعلى بعض أنماطه، وعلى بعض صور التعبير عنه، فلعل التعرف على هذه الأمور، وغيرها أن ييسر التعرف على ما يواجهنا من أمور بمفهوم "السلام".

وقد عني بالدراسات العلمية في مجال التنمية الاجتماعية، فقام بعمل دراسة علمية لإلقاء الضوء على أوجه نشاط جمعية الخدمات الاجتماعية بحي بولاق كمؤسسة اجتماعية منذ إنشائها عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٧٧. وحاولت هذه الدراسة بيان أدوار الجمعية فى المجتمع البولاقى، وأهدافها ومجالات عملها والأساليب التى انتهجتها لتحقيق أهدافها.

ويتضمن المجلد الثانى أربعة كتب، تناول سيد عويس فيها الدراسات التالية:

(١) نظرات باحث علمي اجتماعي مصرى.

(٢) هتاف الصامتين : ظاهر الكتابة على هياكل المركبات فى المجتمع المصرى المعاصر.

(٣) لا للعنف : دراسة علمية فى تكوين الضمير الإنسانى.

(٤) تجربة فى التنمية الحضرية المحلية : جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق فى ثلاثين عاماً.

نــظــرات

باحث علمى اجتماعى مصرى

الدكتور سيد عويس



الإهداء

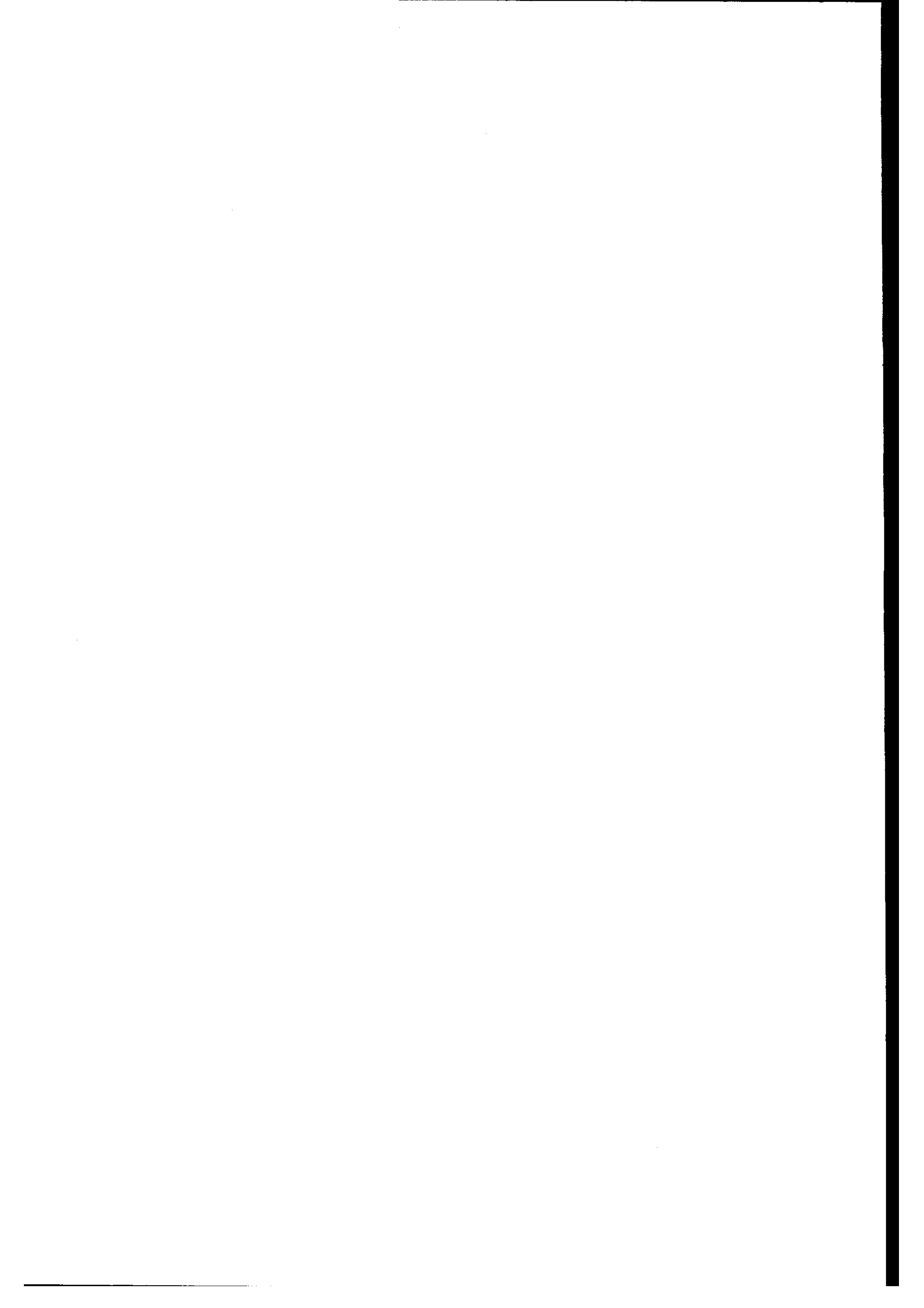
إلى الكادحين من أعضاء المجتمع المصرى المعاصر..

ذكورا كانوا أو إناثا..

أهدى الكتاب الحالى..

راجيا لهم جميعا المستقبل المشرق والعزة والمنعة.

سيد عويس



المحتويات

المقدمة

أرجو أن يغفر لى القارئ الكريم لأننى استعرت عنوان أحد كتب المغفور له الأديب الفنان "مصطفى لطفى المنفلوطى" الذى قرأته عندما كنت يافعا، أى منذ أكثر من خمسين عاما، ومازلت أعود إليه من حين إلى حين وقد بلغت سن الشيخوخة. صحيح لقد كان المنفلوطى أدبيا فنانا وكتبه كتابه المشار إليه فى هذا الضوء، وأنا أكتب "نظراتى" "فى ضوء كونى باحثا علميا اجتماعيا"، ولكننى أرى أن ما هدف إليه ذلك الأديب الفنان فى ضوء ظروف العصر الذى ولد فيه وعاش لا يختلف كثيرا عما أهدف إليه فى ضوء ظروف عصرنا المعاصر المصرى. فالهدف هو هو، أقصد أن يعى القارئ أدبيا وفنيا ما يجب أن يكون عليه المجتمع المصرى وذلك بأن يستتير أعضاؤه بما كتب. ذلك فى حالة الأستاذ المغفور له مصطفى لطفى المنفلوطى. وهدفى من كتابة نظراتى هو نفس الهدف وان استخدمت أسلوب الباحث العلمى الاجتماعى، أى وان أكدت على سيادة العلم الحديث والتكنولوجيا الحديثة وبخاصة ونحن سنواجه فى القريب القرن الواحد والعشرين، عصر الحضارة العالمية.

وأرجو ثانيا أن يعلم القارئ الكريم بأننى فى الكتاب الحالى لم أرغب أبدا فى أن أغلب مهنة البحث العلمى الاجتماعى فى ضوء مبادئها وشعاراتها وآدابها، فانا قد بدأت فى مجال عملى بتطبيق أحد فروع مهنة الخدمة الاجتماعية، فكنت أول أخصائى اجتماعى محترف فى ميدان خدمة الجماعة منذ حوالى خمسين عاما، وأننى إذ أفخر بهذه البداية واعتز بها اعتزازا كبيرا، لا يمكن ان أنسى أو أتناسى موضوعات الكتاب الحالى عن "نظرات إلى مفهوم العلم ومفهوم البحث العلمى الاجتماعى"، فقد مكثت أعمل فى هذا الميدان منذ أكثر من ثلاثين عاما. وكنت فى نفس الوقت أعمل فى ميدان الخدمة الاجتماعية متطوعا منذ عام ١٩٤٧ وحتى هذه اللحظة، لحظة كتابة هذه السطور.

وأرجو ثالثا أن تكون فى الكتاب الحالى الدروس الموضوعية لمن يأتى من بعدى سواء من يتخذ "ميادين مهنة الخدمة الاجتماعية" أو "ميادين مهنة البحث العلمى الاجتماعى" موقعا لعمله. لقد كرست حياتى من أجل

هاتين المهنتين، وقمت، مع غيرى من العاملين الجادين المخلصين فى معظم هذه الميادين، بكل نشاطاتى فيها مؤديا واجبى نحو مصرنا الخالدة بشرف. وآمالى التى أرنو إليها وأرجو أن تتحقق.. أن تزدهر مهنة الخدمة الاجتماعية فى المجتمع المصرى ازدهارا تستحقه عن جدارة ويستحقه هذا المجتمع عن جدارة أيضا على الرغم من أن القليل من بعض المتخصصين فى علم الاجتماع لا يزالون لا يعترفون بهذه المهنة كعلم اجتماعى "تطبيقى" حتى الوقت الراهن.

وأرجو رابعا ان يقوم المسئولون عن مهنة الخدمة الاجتماعية بالإسهام فى إثراء نظرياتها وقوانينها فى ضوء نتائج بحوث ودراسات تجرى فى كل ميدان من ميادينها. فأنا أرى والكثيرون معى يرون ما أرى، ورجائى أن يرى القارئ ما نرى، أن المهنتين : مهنة الخدمة الاجتماعية ومهنة البحث العلمى الاجتماعى توأمتان تكادان أن تكونا متماثلتين. إذا ازدهرت أحداهما تزدهر الأخرى. فعملى فى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية "يجعلنى انظر إلى هذا المركز، كأول مؤسسة اجتماعية كونت ولا تزال تكون أجيالا من الباحثين العلميين الاجتماعيين، على أنه مؤسسة اجتماعية متميزة، أنه بالنسبة لغيره من المؤسسات الاجتماعية الأخرى ومنها "الجامعة" مثلا أولى بالاهتمام وبالحرص على كيانه ومستقبله. وفضلا عن ذلك فأننا نلاحظ أن التاريخ العلمى الاجتماعى يسجل لهذا المركز مآثر عديدة وجليلة وبخاصة ما قام به على الرغم من بعض الظروف غير المواتية من بحوث ودراسات رائدة من المجتمع المصرى المعاصر".

وأرجو خامسا أن يؤخذ بالرأى القائل بأن المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية أن هو إلا مؤسسة اجتماعية متميزة، أو يجب أن يكون كذلك. ومن ثم فأننى أرى أن نعمل، والدولة تكون فى هذا السبيل القدوة الحسنة، على أن تكون نتائج بحوثه ودراساته ذات فعالية فى تغيير المجتمع المصرى المعاصر إلى ما يجب أن يكون أو ما يمكن أن يكون فى ضوء مبادئ هذا المجتمع وقيمه ومثله العليا. أى أن نسعى حثيثا لكى يكون للمركز فى ضوء نتائج بحوثه ودراساته وزن فى الاستراتيجية الاجتماعية التى

تسير، أو يجب أن تسير، على هديها الدولية. ومن ثم يكون لمهنة الخدمة الاجتماعية بالمشاركة مع غيرها من المهن التى تسهم فى التغيير الاجتماعى المقصود فى مجتمعنا، أى إرساء دعائم التنمية فيه والقيام بتنفيذ الإجراءات التى تحققها، الدور الحاسم.

وأرجو سادسا أن يتفضل القارئ، ويعيد النظر فيما سبق أن ذكرته عن بعض التجارب والخبرات فى كتاب "التاريخ الذى أحمله على ظهرى : دراسة حالة"، وبخاصة فى الجزء الأول منه (الأرض والبذور) الذى يدل دلالة قاطعة على ما لمهنة الخدمة الاجتماعية ومهنة البحث العلمى الاجتماعى من صلة وثيقة وبخاصة فى مجتمع نام كالمجتمع المصرى المعاصر.

واننى إذ أدعو ملحا إلى ذلك، أرجو أن يكون اختيار الذين سيعملون فى ميادين المهنتين من العناصر الرشيدة من شباب مصرنا الخالدة الذين يرون ان العمل من أجل المجتمع المصرى هو فى ذاته عمل إنسانى جليل. وعلى هذا فإن كوادر المختارين بعد أن يؤهلوا ويدربوا علميا وعمليا يجب أن يتوقعوا المعاملة التى تليق برسالتهم التى يعنى تحقيقها – بالتعاون مع كوادر المهنيين الآخرين الذين فى ظل استراتيجية قومية يواجهون مشكلات المجتمع المصرى وحاجاته العديدة – نهضة هذا المجتمع ورفعته. والمعاملة اللائقة التى أقصدها هى فى بساطة أن يعطوا بقدر ما يعطون وأن يكون ما يعطونه، ماديا كان أو معنويا، عطاء سخيا. أى أن اختيار الذين سيعملون فى ميادين المهنتين إذا كان اختيارا موفقا يشكل الأساس الأول الذى يجب أن يكون من عناصره الشعور بالانتماء لمصرنا الخالدة وللمهنة التى سيعمل فى ميادينها عضو الكادر بعد التدريب الكافي المنتظم والمتجدد، فالعمل فى ميادين الخدمة الاجتماعية أو فى ميادين مهنة البحث العلمى الاجتماعى يعتمد أساسا على العاملين فى هذه الميادين أو فى تلك الميادين، أى يعتمد على الخبرات وتجددها وليس بالضرورة على ما يحمله العاملون من مؤهلات عالمية كدرجة الماجستير أو درجة الدكتوراه مثلا. ولنا فى مهنة القضاء ومهنة الصحافة وغيرهما من المهن أسوة. فكم من أصحاب هذه المهن ممن لم يحصلوا على درجات علمية غير الدرجة الجامعية (الليسانس أو

البكالوريوس) كانت لهم اليد الطولى فى إرساء العديد من مؤسسات المجتمع المصرى. كانوا القادة المبرزين فى مواقع اعمالهم وفى غيرها مما أتيح لهم أن يعلموا فيها. وتاريخ مصرنا الحديث شاهد على ذلك.

وانني أرجو سابعا أن يتفضل القارئ الكريم بموافقتى على أن هذا الكتاب يهتم أول ما يهتم بالإنسان المصرى. ومن ثم نجد أن معظم فصوله تتضمن النظرات إلى حياة المجتمع المصرى فى ضوء تاريخه وإلى حياة المرأة المصرية وتكوين الأسرة المصرية وإلى حياة أطفالها ذكورا كانوا أو إناثا ثم الشباب.

وأرجو ثامنا أن يغفر لى القارئ الكريم تكرار حديثى عن بعض الأمور والقضايا، ومن بينها مثلا حديثى عن "نظرات إلى حياة المرأة المصرية"، علما بأننى ألفت كتابا خاصا عن المرأة المصرية المعاصرة فى عام ١٩٧٧، وذلك لأننى أرى أن الحديث عن المراة المصرية المعاصرة لا يمكن أن ينتهى. فهى كما قلت مرارا وتكرارا، كانت فى ضوء تاريخها، ولا تزال حتى الوقت الراهن، العمود الفقرى للأسرة وأن كيان الأسرة الصالح يتوقف، إلى حد كبير، على صلاحية المرأة كزوجة وكأم، ولم يكن الكتاب المذكور هو الكتاب الوحيد المنشور، فقد نشرت غيره من الكتب والبحوث والدراسات العلمية التى أجريتها أو قمت بالإشراف على إجرائها قد تتصل ببعض ما فى فصول الكتاب الحالى. ولكن يجب أن يتفضل القارئ الكريم بملاحظة أن جوانب موضوعات فصول هذا الكتاب، وهى تتناول فى الأغلب الأعم الإنسان المصرى، تتضمن بالضرورة جوانب أخرى. وهى فى الوقت نفسه تكمل العديد من موضوعات الكتب المنشورة ومضامين ما أجريته من بحوث ودراسات علمية أو قمت بالإشراف على إجرائها، وفى هذا الضوء نلاحظ أن التكرار، كما يعلم القارئ، من ناحية غريزى ومن ناحية أخرى منهجى وبخاصة إذا كان ييسر الشرح والإيضاح فعندئذ يكون محببا مقبولا.

وأرجو تاسعا أن يتفضل القارئ الكريم بموافقتى على أن المجتمع المصرى المعاصر يقف فى الوقت الراهن فى مفترق الطرق. وأننى اعترف بأنه ليس لدى صيغة معينة للوصول إلى المستقبل المشرق لمصرنا الخالدة. وذلك لأننى مجرد "باحث علمى اجتماعى مصرى" أحاول فى حدود طاقتى

ونتائج بحوثي ودراساتي التى قمت بإجرائها أو أشرفت عليها، أن أرصد شخصيات الناس وأنماط سلوكهم فى كل مكان وأرصد أيضا المواقف التى يواجهونها، أى أننى أقدم زادى للمفكرين الذين ييسرون للمنفذين على اختلاف مستويات سلطانهم وسلطاتهم العمل من أجل التغيير إلى ما يجب أو يمكن أن يكون عليه المجتمع المصرى المعاصر، أى من أجل تحقيق المستقبل المشرق لمصرنا الخالدة.

وأرجو عاشرا أن يسمح لى القارئ الكريم بأن أؤكد له أن الكتاب الحالى : "نظرات باحث علمي اجتماعى مصرى" قد كتب من أجل الاماطة عن لثلم الغموض السائد فى مجتمعنا المصرى المعاصر أو بعض هذا الغموض. وأن هدف أهدافه أن ييسر السبيل لمن فى يدهم قنوات التنفيذ وهم على بينه من الأمر من أجل الوصول إلى هذا المستقبل المشرق المنشود.

وأرجو حادى عشر أن يتفضل قارئ هذا الكتاب بملاحظة أننى قد اتخذت، فى بعض مضمونه، من رسالة "ايبور الحكيم المصرى القديم" المشهورة أسوة. تماما كما سبق أن ذكرت أن استعارة عنوانه كانت من عنوان أحد كتب المغفور له الأديب الفنان مصطفى لطفى المنفلوطى – وإذ أذكر ذلك أرانى مدينا للقارئ فى هذا المجال بأن ألخص مضمون الرسالة المشار إليها فيما يلى :

اننى أقصد بمفهوم "الحكيم" فى الكتاب الحالى هو كل من يتقن الأمور. والملاحظ أن "الحكمة" بكسر الحاء وسكون الكاف تعنى كل ما يمنع صاحبها أى الحكيم من أخلاق الأرذال، فرأس الحكمة كما يعلم القارئ، مخافة الله، ومن يخاف الله ينأى بالضرورة عن أخلاق الارذال ويتمسك ما استطاع إلى ذلك سبيلا بالأخلاق العالمية، أخلاق الصالحين الطيبين.

والحكيم المصرى القديم هنا هو الحكيم "أيبور" الذى كتب إلى الملك (فرعون) في عهده رسالة قيل أنه كتبها فى خلال الفترة التى انتهت فيها "الدولة المصرية القديمة"، وابتدأت 'الدولة المصريـة الوسطى"، حيث كانت الأحوال فى هذه الفترة غير مواتية إلى حد الرثاء والأسى – وقال بعض علماء الآثار المصرية الأخرين أن أيبور كتب هذه الرسالة فى نهاية الأسرة الثانية عشرة أى قبل غزو "الهكسوس" لمصر، حيث احتلوها لفترة حوالى

١٤٠ عاما بعد أن طردهم الفرعون العظيم "أحمس". ومهما يكن من الأمر فإن الأحوال التى كتبت فيها رسالة أيبور تدل دلالة صريحة فى ضوء الظروف الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى عاش تحت ظلالها هذا الحكيم – على أن الدولة المصرية فى شخص فرعون مصر فى ذلك الحين الذى لم نعرف اسمه، حيث أن الكاتب لم يذكره والذى كان هو الحاكم الأوحد فى البلاد ويعتبر إلها والمواطنون أو أغلبهم هم عبيده – قد أثارت غضب الحكيم أيبو فكتب رسالة دونما مبالاة لما كان يحتمل أن يحدث له. ومن ثم كانت مجازفته هذه وساما لخلود أسمه على مر الزمان. والاهتمام برسالته التى أصبحت وثيقة يتهافت على قراءتها وحل طلاسمها العلماء بقصد إيضاح معانيها.

وكان أول المهتمين بقراءة سالة أيبور وحل طلاسمها عالم الآثار المصرية القدير الإنجليزى "آلان. هـ. جاردنر" كان ذلك فى عام ١٩٠٩ حيث نشر ما وصل إليه تحت اسم "تحذيرات حكيم مصرى". وبعد مرور أكثر من ٥٠ عاما أعاد ترجمتها أحد مشاهير علماء الآثار المصرية وهو "و. فولكنر" الذى نشرها فى :

"Journal of Egyptian Archeology, Vol. 51 (1965)"

وفى ضوء التاريخ نلاحظ أن وثيقة أيبور قد كتبت منذ أكثر من ٤٠٠٠ عام أو منذ حوالى ٣٨٠٠ عام، أى منذ فترة طويلة عاشت مصر بعدها فى خلال فترات أخرى مجيدة كما عاشت أيضا فى فترات غير مجيدة آخرها الفترة منذ ٥٢٥ ق. م – ١٩٥٣ م أى طوال فترة ٢٤٧٨ عاما كان يحكم فى خلالها ويتحكم فى مصائرها حكام غير مصريين.

ولقدم وثيقة الحكيم أيبور التى كتبها على بردية وجدت أجزاؤها ممزقة، ومن ثم فقد تعذر التعرف على بعض الكلمات التى كانت مكتوبة عليها، نلاحظ مثلا أن بداية البردية قد فقدت من البلى، وهى الجانب الذى كان يحتوى على بيان الأحوال التى دعت ذلك الحكيم إلى الأدلاء بتحذيراته ونصائحه الواردة فى هذه الوثيقة، وإن كانت تلك الأحوال فى ظواهرها الرئيسية واضحة. فتراه يبدأ بإلقاء نظرة ثاقبة على نظم الحياة لأهالى وادى النيل فى ذلك الوقت، فيجد أن كل شئ قد آل إلى الفوضى، فالحكومة قد

وقفت حركتها تقريبا، وقوانين قاعة العدل قد ألقى بها ظهريا، فصارت تدوسها الناس بالأقدام فى المحال العامة، والفقراء يفضونها على قارعة الطريق".

ويقول الحكيم فى رسالته إلى فرعون "حقا ! لماذا تدور الدنيا كما تدور عجلة الفخار ! فاللص هو الآن صاحب الثروة، لماذا أطلقت الخادمات ألسنتهن، وعندما تتكلم السيدة يثقل ذلك على الخدم ؟ ! "حقا ! لماذا أصبحت الطريق غير محروسة، ويختبئ الناس بين الأشجار حتى يأتى الشخص الراكب فيأخذون منه أحماله ويسرقون ما معه، ولا ينال غير الضرب بالعصا ويقتل ظلما".

"انظر ! أن السيدات النبيلات أصبحن يجمعن فضلات الحصاد ! وأصبح النبلاء يعملون فى المصنع، وأصبح الذى لم ينم فى حياته على لوح من الخشب مالكا لسرير.. أنظر أن الذين كانوا يملكون الأثواب أصبحوا يرتدون الخرق، والذين كانوا ينسجون لأنفسهم، أصبحوا يملكون الملابس الثمينة".

"أنظر الآن ! لقد وصل بنا الأمر إلى الحد الذى جعل عددا قليلا من غير المسئولين يحرمون البلاد من الملكية. أنظر فإن أصحاب الحرف لا يقومون بأى عمل قط، وأعداء البلاد يفقدونها فى حرمتها".

"أنظر أن الذى يحصد المحصول لا يعرف عنه شيئا ومن لم يحرث الأرض يملأ أهراءه".

"أنظر ان الماشية قد تركت ضالة فى السبيل ولا يوجد أحد يجمعها ويلم شتاتها، فكل إنسان يأخذ لنفسه ما يسمه (بالكى).. والحروب الداخلية لا تأتى بضريبة.. ومائدة بيت المال الذى لا دخل له ؟".

"وفى الحق ! أن المتحلى يسير وهو مخزون لما حدث فى البلاد".

"وفى الحق أن العدالة موجودة فى البلاد باسمها فقط، وما يلقاه الناس حينما يلتجئون إليها هو العسف".

وفى الحق أن السرور قد مات ولم نعد نتذوقه بعد، ولا يوجد فى الأرض إلا الأنين الممزوج بالحسرات".

"وفى الحق أن كلا من العظيم والحقير صار يقول : ليتنى كنت ميتا. ويقول الأطفال الصغار : ليتنا لم يعلنا أحد ومتنا قبل هذا..، وفى الحق ان قلوب كل القطعان تبكى، والماشية تئن بسبب حالة البلاد".

وما سطرت ليس كل ما فى وثيقة أيبور الحكيم، وأرجو ان يكون كافيا لنجد أنه قد تأثر به وبغيره من وصول البلاد إلى هذا الدرك غير الرفيع.

ولعل لذلك يبدو واضحا عندما كان هذا الحكيم يقرع نفسه لأنه لم يسع من جهته لإنقاذ ذلك الموقف من قبل، وأنى له فى ضوء الظروف التى عانها وعايشها أن يفعل ذلك ويؤكد ما أقول قوله : "ليتنى رفعت صوتى فى ذلك الوقت، حتى كنت أنقذ نفسى من الألم الذى أنا فيه الآن، فالويل لى لأن البؤس عم فى هذا الزمان".

وأرجو ثانى عشر أن يكون القارئ الكريم قد لاحظ اهدائى الموجه إلى "الكادحين من أعضاء المجتمع المصرى المعاصر"، ذكورا كانوا أو إناثا، راجيا لهم جميعا المستقبل المشرق والعزة والمنعة. والملاحظ أنه لا يمكن التسليم بأن كل أعضاء المجتمع الراهن من الكادحين. فقد أفرز هذا المجتمع فى ضوء ظروفه الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة فئات أو طبقات تحاول أن تحل محل الفئات والطبقات الماضية. ونجد من هؤلاء المقاولين ومن يمارسون أعمال التجارة والذين يمارسون تجارة العملة الحرة أو يمارسون تهريب المخدرات بأنواعها وتجارتها وتوزيعها وأصحاب "البوتيكات" وبعض العمال الحرفيين.. إلخ.. وممن يحصلون على أموال الشعب وأقوات الملايين بالطرق الأخرى غير المشروعة ومن أهمها ارتكاب الجرائم غير المنظورة كجرائم الرشوة مثلا فضلا عن الاتجار بالأعراض ولعب الميسر وعرض الأفلام غير الأخلاقية.... إلخ. ويلاحظ أن معظم الجرائم غير المنظورة ترتكب فى "الشقق المفروشة" ويترك لارتكابها العنان بحجة رواج السياحة وغيرها من الأعذار التى لا تقرها قيم المجتمع المصرى الأصيلة ذات الأهداف الحميدة.

وأرجو ان يلاحظ القارئ الكريم أننى أقصد بمفهوم الكادحين الملايين من المصريين غير الأعضاء السابق أن ذكرت بعض فئاتهم. فهم أعضاء المجتمع المصرى الذين يعيشون فى الطبقة الدنيا والطبقة الدنيا العليا من أهل الريف ومن العمال غير الحرفيين ومن موظفى الدولة والمؤسسات فى الدرجات المنخفضة وبخاصة الذين تفشت فيهم الأمية الأبجدية او الأمية الوظيفية، ذكورا كانوا أو إناثا. أنهم أيضا جماهير المجتمع الذين لا يجدون المساكن اللائقة التى تأويهم وان وجدوها عاشوا فى الأكواخ معيشة غير آدمية أو عاشوا فى حيشان المقابر مع الأموات ولا يعرفون إذا ما ماتوا أين يعيشون !

ومهما يكن من الأمر فإن النظرات المدونة فى الكتاب الحالى تتضمن عدا المقدمة والخاتمة ما يلى :

أولا : نظرات إلى مفهوم العلم ومفهوم البحث العلمى الاجتماعى.

ثانيا : نظرات إلى حياة الإنسان المصرى المعاصر.

ثالثا : نظرات إلى حياة المرأة المصرية.

رابعا : نظرات إلى حياة الشباب فى مصر.

ولا يسعنى وقد أكملت النظرات التى يضمها الكتاب الحالى إلا أن اتقدم بالشكر الجزيل إلى أعضاء أسرتى : السيدة العزيزة حرمى وابنتى آمال وتيسير وأبنائى الأعزاء أحمد وسمير ومسعد، وإلى الأخ الأستاذ الفاضل فوزى عبد العظيم النجار، فقد كان لتشجيعهم لى ولتعاونهم الصادق الحافز الأكبر الذى يسر لى تحقيق ذلك.

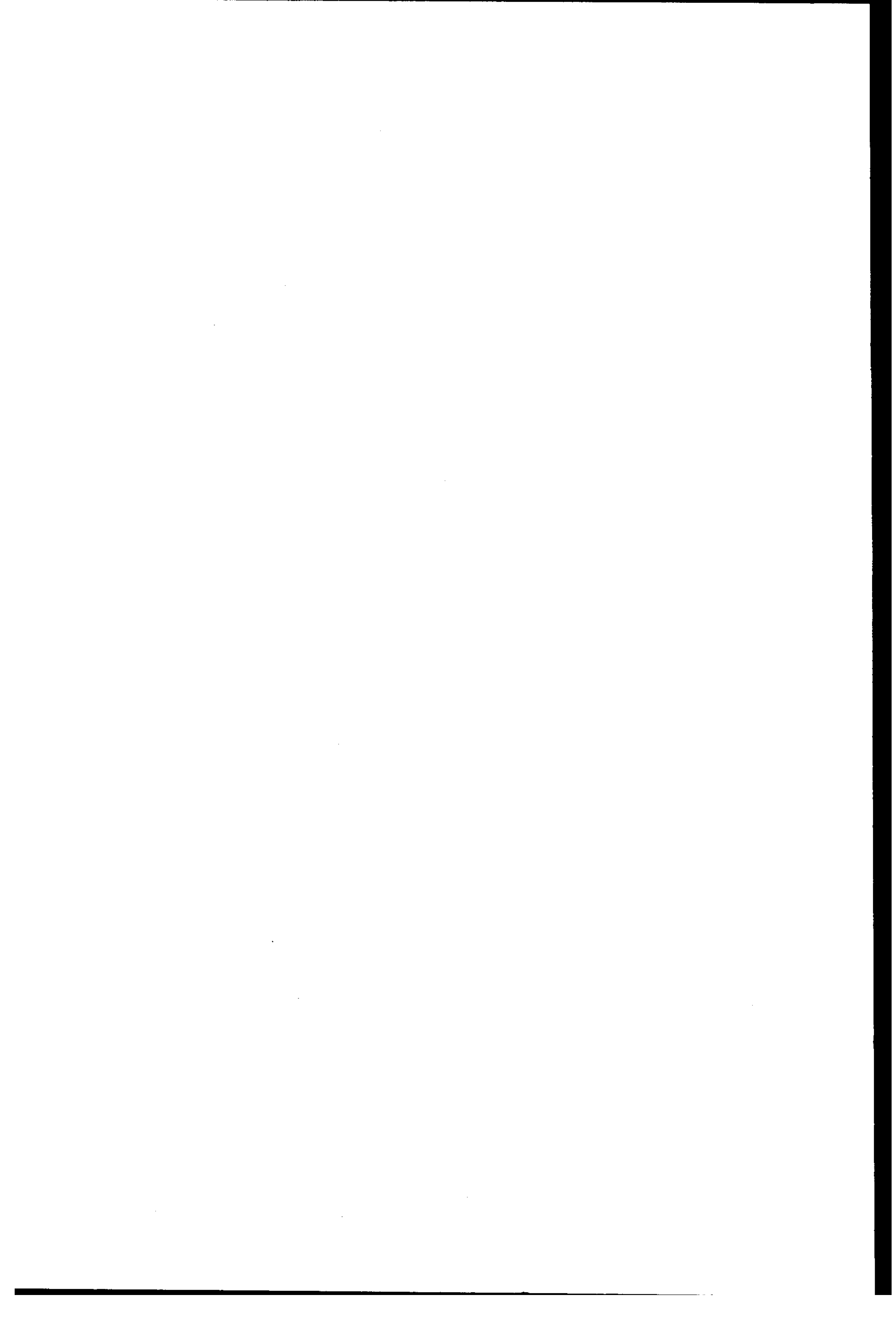
وأرجو أن تسمح لى السيدة الفاضلة الذا ثابت بتقديم أمنياتى الخالصة على ما قامت به وما زالت تقوم به من أريحية إنسانية لا استطيع أن أصفها. ورجائى الخالص أن يمن الله عليها بالصحة والعافية.

وأن انسى لا أنسى الجهد الكبير الذى بذله كل من الحاج محمد شوقى والسيدة الفاضلة حرمه فى عملية نسخ موضوعات النظرات التى يضمها هذا الكتاب على الآلة الكاتبة راجيا لهما التوفيق والسداد.

مصيف جمصة السياحى

فى شهر يوليو عام ١٩٨٧.

د. سيد عويس

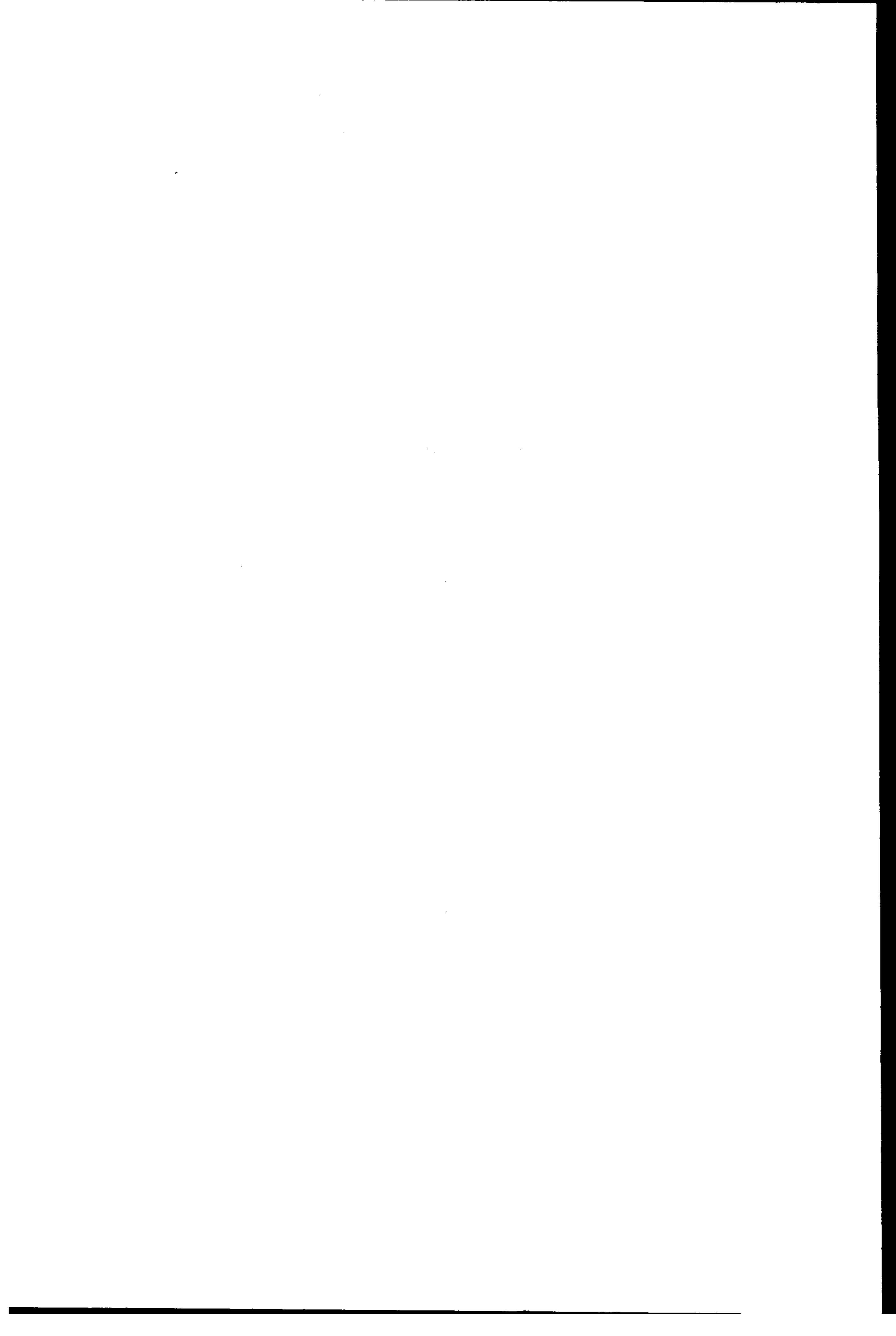


أولا :

نظرات إلى مفهوم العلم
والبحث العلمى الاجتماعى

* النظرة إلى مفهوم العلم

* النظرة إلى نشأة مهنة البحث العلمى الاجتماعى



أولا : نظرات إلى مفهوم العلم
ومفهوم البحث العلمى الاجتماعى

١- النظرة إلى مفهوم العلم

أصبح مفهوم العلم منذ عهد غير بعيد جزءا من الشعار الذى ترفعه الدولة فى جمهورية مصر العربية ألا وهو شعار 'العلم والإيمان'. والاهتمام بهذا المفهوم بمعنى أنه الخبرات الإنسانية المنتظمة، مرجعه إلى أننا نوجد فى عصر أصبح فيه العلم وسيلة مباشرة من وسائل الانتاج. أى أنه أصبح يتغلغل فى كل أمور الحياة. حياة الأنسان فى عصرنا الحالى. ومن حق هذا العلم فى هذا الضوء أن ينفرد بالحكم فى شئون الفكر، ومجتمعنا المصرى المعاصر كمجتمع نام يحتاج إلى العلم العصرى حاجته إلى الحياة. ويجب ألا يقف فى سبيل تحقيق ذلك محاولة تزييف معنى مفهوم العلم، أو المقارنة بين العلوم المادية والعلوم الإنسانية، أو محاولة تزييف نتائج العلم فى بعض المجتمعات.

فالمعروف أنه ليس كل متعلم عالما، وإن كان العالم يكون بالضرورة متعلما. فالعلم خبرات إنسانية، ولكنها خبرات إنسانية منتظمة يحصل عليها العالم عن طريق منهج معين هو المنهج العلمى. ومعلومات المتعلم هى خبرات إنسانية أيضا، قد تكون خبرات منتظمة أو خبرات غير منتظمة يحصل عليها المتعلم بالتلقين والحفظ أحيانا أو بالممارسة أحيانا أخرى. وشتان ما بين عالم الذرة أو عالم الاجتماع وبين عالم الدين، عالم الأزهر مثلا.

والمنهج العلمى، على عكس الحفظ والتلقين، يواجه ظواهر الطبيعة او ظواهر المجتمع مواجهة موضوعية. وهو إذ يفعل ذلك يكون دائما مهتديا بالشعار القائل "لاشئ يأتى من لا شئ". وهو يحاول دائما أن يكون منهجا لفهم الحياة بقصد تغييرها. ويسعى دائما إلى الإجابة عن السؤالين كيف ؟ ولماذا ؟ أى التعرف على العوامل التى تكون من وراء وجود هذه الظواهر

وعلى القوانين التى تحكمها، مع ملاحظة انه كمنهج لا يبحث أبدا ولا يهمه أن يبحث أبدا عن الإجابة عن السؤال لماذا ؟ على وجه الإطلاق، بل هو فى بساطة يدرس الظواهر المادية والإنسانية دراسة واقعية، أى يقوم بدراسة العلاقات بين الأشياء وقوانين حركتها الداخلية. فى ضوء الطبيعة والمجتمع، وليس فى ضوء بعض المبادئ المنطقية والعمليات العقلية فحسب.

ويلاحظ أن مفهوم "الخبرات الإنسانية المنتظمة" تعنى الخبرات التى تفسرها القوانين التى يكشفها الإنسان عندما يستخدم المنهج العلمى فى دراسة الظواهر مادية كانت أو إنسانية. فالعلم العصرى ليس فقط سجلاللآراء، ولكنه سجل لما تعين هذه الآراء الإنسان على ما يقوم به وهو يواجه ظواهر الطبيعة او ظواهر المجتمع مواجهة موضوعية.

ويقصد بالمواجهة الموضوعية الوصول إلى حقائق المادة أو حقائق المجتمع، أى إلى حقائق الوجود. والقدرة على هذا الوصول فى ضوء المنهج العلمى مكفولة، على الرغم مما قد يقال أحيانا بأن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى حقائق الإنسان لأن الإنسان مغاير جوهريا للطبيعة. ومن ثم فإن المنهج الذى يصلح لاستكشاف ظواهر الطبيعة لا يصلح لاستطلاع أحوال الإنسان. أن الواقع يدحض هذه الآراء. فالملاحظ ان الإنسان فى ضوء المنهج العلمى قد استطاع أن يعرف الكثير عن نفسه فى ميادين علوم النفس والاجتماع والاقتصاد وغيرها، وقد استطاع فى مجالات هذه العلوم أن يغير اتجاهات الناس وأن يعالجهم وأن يتحكم فى تصرفاتهم وأن يتسلط على معاشهم. وقد نجح فى كل ذلك نجاحا مرموقا. والعلوم الإنسانية تطبق الآن مناهج مشابهة لتلك التى تتبعها العلوم المادية، وقد نجحت فى هذا المجال نجاحا مرموقا. وأصبح التعاون بين العلوم المادية والعلوم الإنسانبة وثيقا فى سبيل تحقيق أهداف التنمية الشاملة للمجتمعات المتقدمة والنامية على السواء. والنتيجة المتوقعة لكل ذلك أننا نجد أن العلوم الإنسانية لا يمكن أن تقل شأنا عن العلوم المادية. واننى أرى أن تحقيق كل ذلك قد يتأكد إذا استمر اتجاه أهداف البحوث الإنسانية إلى الأهداف التطبيقية عن طريق الوصول إلى صورة كاملة عن المجتمع والحياة الاجتماعية ككل فى ضوء وضوح رؤيةنظرى يؤمن بالتغيير إلى الأفضل وذلك بقصد تحقيق التنمية الشاملة

لهذا المجتمع. وبهذا يتحقق إثراء خبراتنا الإنسانية المنتظمة فى هذا المجال الحيوى، أى إثراء النظرية بربطها بالتطبيق ربطا جدليا وتحقيق التنمية الشاملة للمجتمع جميعا.

وإذا لم يكن كل شخص متعلما بالضرورة عالما، فإن المجتمع المصرى المعاصر فى ضوء ظروفه التاريخية الحالية فى حاجة إلى المتعلمين وإلى العلماء على السواء. والملاحظ أن نسبة الأميين غير المتعلمين فى هذا المجتمع نسبة فادحة. فنسبة الأمية الوظيفية فى مجتمعنا تبلغ نحو٨٥٪ وربما تكون أكثر من ذلك. ومما يثير دهشتى أن هذه النسبة كانت هى نفس النسبة تقريبا عندما كنت يافعا. وقد بلغت الآن سن الشيخوخة وبقيت نسبة غير المتعلمين المصريين كما كانت منذ أكثر من خمسين عاما. وأننى أتساءل ولعل القارئ يتساءل أيضا عن عوامل بقاء هذه النسبة مرتفعة واستمرار هذا البقاء على الرغم من قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢ حتى الآن. أن الذين أرادوا ذلك لم يريدوا الخير أبدا لمصرنا الخالدة. ومع ذلك قد نجد بعضهم يرى أن يحرم الجماهير الأميين غير المتعلمين من حقهم الشرعى لكى يحكموا أنفسهم بأنفسهم لأنهم أميون غير متعلمين. وكأن ذنب ذلك يقع على كاهل الجماهير وحدهم. ولا يرى هذا البعض أن من حق الجماهير أن يقفوا ضد ذلك. فهم على الرغم من كونهم أميين غير متعلمين، إلا أنهم مواطنون يؤدون للوطنية على مر الزمان واجباتها. فالوطنية كما يعلم القارئ لا يمكن أن تحتكر، لأن الوطن وطن الجميع. ومن حق الأغلبية أن تأخذ من الأقلية عنوة مادامت تؤدى على الدوام واجباتها. ويكفيها شرفا الشهداء من بناتها وأبنائها الذين تقدمهم من أجل مصر فى الحرب وفى السلم على السواء(*) . وفى ضوء تطبيق المنهج العلمى يكون من المتيسر دراسة عوامل بقاء هذه النسبة المرتفعة على الرغم من مرور حوالى خمسة وثلاثين عاما على ثورة عام ١٩٥٢. وفى ضوء هذا المنهج أيضا يكون من المتيسر إيجاد

(*) يلاحظ أن نسبة السيدات اللاتى تكون حمى النفاس أو غيرها عاملا حاسما فى وفاتهن قد تفوق أن لم تساو على الأقل عدد من يموتون شهداء من الرجال فى الحروب.

الأساليب والوسائل التى تستطيع أن تواجه هذه المشكلة الاجتماعيـة الخطـيرة مواجهة فعالة.

ويلاحظ أننا نجد فى بعـض الأحيـان أن بعض النـاس يخشـون العلـم العصرى، ويظنون بالعلماء الظنون. فالذين عانوا من ويلات الحروب، مثلا، يودون لو أتيحت لهم الفرصة فيفترسوا العلماء الذين اخترعوا آلات الدمـار. وحتى فى وقت السلم نجـد أن صرعـى حـوادث السيارات أكثر مـن القتلـى بسبب جرائم القتل العمد مع سبق الإصـرار والترصد. ولا يمكـن أن نتوقـع واحدة من الأمهات التى قتل ولدها تحت عجلات إحدى السيارات التى يقودها أحـد هـواة جنـون السـرعة، أن تكـون فـى عـداد المعجبـات بالسـيارة أو بمـن اخترعها. وحتى بعض رجال الدين، نجدهـم لسـبب أو لآخـر يعتبرون العلم خطرا شديدا على الإنسانية.

ولكن يلاحظ أن التطبيق العلمى لا ينتج شرا دائما. ففى ضـوء العلم لا يمكن أن يكون شيئا مطلقا. ومن ثم فمن العـدل أن تسـجل للعلـم العصـرى آثاره ومآثره. ولمـن نسـتطيع ان نفعـل ذلـك، لأن السـجل حـافل، ونجـده فـى محيط العلوم المادية وفى محيط العلوم الإنسانية سواء كانت متعاونة بعضـها مع بعض فى سبيل تحقيق أهداف التنمية الشاملة فى المجتمعات الإنسانية، أو كانت غير متعاونة. ويكفى ما يلاحظـه أى شـخص عـادى من تـأثير البخـار وتأثير الكهرباء فضلا عن تأثير الطاقـة النوويـة وبنـوك المعلومـات وغيرهـا على الطبيعة وعلى شئون الناس فى كل بقعة من البقاع على وجه الأرض أو فى الفضاء فى وقتنا الحاضر، وما يرجى من تـأثير كـل ذلـك فـى المسـتقبل، مستقبل الطبيعة ومستقبل الناس. وإذا كان العلم العصـرى يدمـر العـدو، فإنـه يحمـى أيضـا مـن يقـاتل هـذا العـدو. وليـس بـالضرورة أن يكـون هـذا العـدو الإنسان فحسب. فربما يكون ميكروبا مؤذيا أو أثرا من آثار الطبيعة العاتيـة. وإذا كان العلم العصرى يستخدم فى وقت الحرب كسـلاح رهيـب فتـاك، فـإن بعض آثاره التى يصل إليها العلماء فى أثناء الحـرب تنقذ الأرواح فـى وقـت السلام. وإذا كان العلم العصرى فى بعض المجتمعات الرأسمالية المتقدمة قد انتج الحضارة الاستهلاكية المعاصرة، التى اختزلت الإنسان إلى بضاعة تنتج البضاعـة وتسـتهلك البضاعـة، وجعلـت منـه مسـتهلكا سـلبيا يفعـل الحـب ولا

ينفعل، والذى أصبح فى كنفها كلما ازداد شراؤه الكمى بامتلاك الأشياء ازداد فقرة النوعى من امتلاك الضجر له وابتعاد حلم السعادة الحقيقية المعاشة التى تجعل منه إنسانا كاملا لا إنسانا مشطورا على ذاته ومعزولا عن الآخرين الذين لم تعد علاقاته بهم "إلا علاقات بين أشياء - فإن ذلك لا يمكن أن يكون مرجعه إلى العلم العصرى، وحده، الذى عرف سر الطبيعة والمجتمع وأمكنه بطاعتهما أن يتسلط عليهما ويتحكم فيهما. أن ذلك مرجعه إلى ارتباط العلم بأيديولوجية معينه أو بفلسفة معينة. ولا يعيب العلم ذلك فالعلم يجب أن يكون بالضرورة للمجتمع. والمجتمعات متباينة، وأيديولوجياتها أو فلسفاتها السائدة متباينة كذلك. والعلم إذ يتعرف موضوعيا على ما هو كائن فى الطبيعة وفى المجتمعات لكى يفهمها، يحاول أن يغيرها إلى ما يمكن أن يكون أحيانا أو يغيرها إلى ما يجب أن يكون أحيانا أخرى. ويكون التغيير فى مجتمع العدالة الاجتماعية بالضرورة فى سبيل مصلحة الملايين، وفى مجتمع الرأسمالى يكون التغيير بالضرورة فى سبيل مصلحة حفنة من أعضاء المجتمع أو حكومة تحكم بأسم هذه الحفنة من الناس الذين لا هم لهم إلا أن يملأوا جيوبهم بالأرباح الوفيرة.

ولعلنا نحن المصريين فى ضوء ظروف مجتمعنا المعاصر أن تكون أولى الناس الذين يجب أن يستخدموا العلم العصرى. فنحن أولا نعيش فى بلد نام يحاول أن ينهض لكى يبنى نفسه ويجددها، ولكى يعمر ما خربته القوة الغاشمة والجشع والاستغلال. ونحن ثانيا قد صدقنا العلم العصرى. ونحن نبنى مدننا وجامعاتنا ومعاهدنا ومدراسنا ومصانعنا، وعندما بنينا السد العالى، وعندما بنينا جيشنا لكى نطهر به الأرض من أدران احتلالها - فصدق هذا العلم معنا. ونحن ثالثا نلاحظ فى ضوء البحوث والدراسات التى أجريت فى واقعنا الحى أن هناك أكثر من مصر أخرى غير تلك التى بنت هذا الصرح الشامخ من الانجازات الإنسانية العظيمة. فهناك مصر ثانية لا تزال تعيش فى رواسب الماضى البالية. ترى أهلها يعيشون فى الخرافات وتعيش فيهم الخرافات. أى أنهم يسيرون فى حياتهم على قواعد أو مبادئ سلوكية لا يحيدون عنها، وهى قواعد أو مبادئ سلوكية قد أكل عليها الدهر وشرب. ولكنهم يفعلون ذلك ويستمرون، وتبدو عليهم السعادة من أجل ذلك. تراهم يؤكدون مثلا فى أثناء كتب الكتاب أنه 'إذا وضعت حتة سكر تحت

لسان العروسة وبعدها وضعت فى كوب وشربه العريس يتفقوا ويتوفقوا معا". وتراهم يذكرون عن يقين أن الست العاقر "إذا طلعت السلم بالمندار (بالعكس) تقدر تحبل بعدها". ويتبرعون دون أن يسألهم أحد بالوصفات. فإذا تأخر أحد الأطفال عن التكلم قالوا على سبيل المثال "دق المياه فى الهون يخلى العيل اللى ما بيتكلمش يتكلم".

وترى هؤلاء الناس إذا ذكر أمامهم العلم العصرى كانت الصورة الذهنية له غير الصورة التى ذكرتها آنفا. كانت صورة تعكس محتوى "علم السيميا".

وهناك مصر ثالثة قد لا تعترف بالعلوم الزائفة السابقة علنا، وأن اعترفت بها ممارسة. وهى لا تعترف أبدا بالعلم العصرى لا علنا ولا ضمنا. والعلم عندها ولا علم غيره هو "العلم اللدنى".

وقد يرى البعض أن نتائج العلم العصرى غير كافية فهى لا تتصل بالحقيقة المطلقة بسبب. ونحن لسنا فى حاجة إلى الحقيقة المطلقة أن مجتمعنا المصرى المعاصر فى ضوء ظروفه الاجتماعية الثقافية والاقتصادية والسياسية لا يحتاجها. أنه يحتاج الحقيقة التى تيسر قطع دابر عدونا الماكر الغدار، والتى تيسر القضاء على الأمية وعلى البلهارسيا وعلى الجرائم وعلى تعاطى المخدرات وغيرها من المشاكل الاجتماعية. أن الحقيقة المطلقة لا تواجه هذه المشاكل الاجتماعية الخطيرة ولا تواجه غيرها مثل مشاكل الإسكان والمرور والنقل والهجرة الداخلية والصراع الثقافى بين الأجيال فضلا عن العصبية غير السوية والتعصب الذى لا يعنى الولاء.

وقد يرى آخرون أن العلم العصرى هو أفكار مستوردة، ونحن لكى نحيا منتصرين سعداء، يجب أن نلتصق بطين مصر الثقافى التصاق الطفل بثدى أمه. والملاحظ أن العلم العصرى قد بشر ببداياته علماء مسلمون أفاضل ابتداء من جابر بن حيان، أى منذ القرن الثامن الميلادى. وأن استيراد الأفكار من خارج نطاق الثقافة الإسلامية موضوع وارد. ويكفى أن نذكر فى هذا الصدد العصر الإسلامى الذهبى فى خلال المدة من القرن الثامن الميلادى إلى القرن العاشر الميلادى والترجمات لأمهات كتب الأغريق إلى اللغة العربية. كما نذكر الجهود التى بذلها علماء وفلاسفة

أفاضل من أجل ازدهار العلم والفلسفة من أمثال الكندى (مات فى عام ٨٧٣م). والفارابى (مات فى عام ٩٥١م)، والرازى (مات فى عام ٩٢٥م)، وابن سينا (مات فى عام ١٠٣٧م)، والبيرونى (مات فى عام ١٠٤٨م)، وابن رشد (مات فى عام ١١٩٨م).

وبالنسبة لمجتمعنا المصرى المعاصر فأننى إذ أسلم بأن محاولة التغيير الشاملة فيه يجب أن تميز بين النظم القديمة الأصيلة فى هذا المجتمع وبين النظم القديمة الدخيلة وبين النظم المستحدثة فإننى أرى انه مهما بدا الصراع بين القديم والمستحدث، فإن الوعى الموضوعى بهذا الصراع أمر ضرورى. فالملاحظ أن الأصيل القديم أن يتغير أو يتطور أو يعدل، وأن الدخيل القديم أو المستحدث فى ضوء المصالح الحقيقية لأعضاء المجتمع يمكن أن يكون كذلك، أى يتغير أو يتطور أو يعدل. فالمصريون قد غيروا لغتهم التى يتكلمون ويكتبون بها أكثر من مرة فى خلال تاريخهم القديم المستمر، واستبدلوا بدينهم دينا آخر مرة أو مرتين، وجمعوا بين القديم والحديث فى كثير من مظاهر حياتهم وألوان ثقافاتهم، واتصلوا بالعالم الخارجي واقتبسوا (استوردوا!) عن أهله وثقافاته فى الشرق والغرب على السواء. والمجتمع المصرى المعاصر فى الوقت الحاضر. وبخاصة، بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، يواجه ظاهرة التغير فى تراثه الاجتماعى بعناصره الثقافية المادية وغير المادية. ويسير فى سبيل تحقيق أهداف العدالة الاجتماعية على أرضه قدما على هدى ما قام به فى الماضى باستمرار من الأخذ والعطاء، والجمع بين القديم والجديد. فالجديد فى مجتمعنا لم يكن دائما لينسخ القديم. وإنما كان التوفيق بين القدم والجديد، وأن تسبب فى جعل بعض نظمنا الاجتماعية فى جملتها معقدة غاية التعقيد، هو القاعدة فى هذا المجتمع العريق.

وهناك مصر رابعة هى مصر "الفهلوة" أعضاؤها يدعون العلم على اختلاف أنواعه. فهم العلماء المصريون تارة، وهم العلماء المزيفون حفظة التراث المصرى الأصيل تارة أخرى، وهم العلماء اللدنيون الواصلون العارفون تارة ثالثة. ولعل وجود هؤلاء أن يكون مرجعه إلى ضعف العلماء العصريين فى الوقت الحاضر، ومن ثم إلى غلبة الآخرين. والتعرف على

أهل "الفهلوة" ليس صعبا. فأنت تجدهم الأشخاص الذين يبحثون باسمرار عن أقصر الطرق وأسرعها لتحقيق الأهداف الدنيوية والأخروية على السواء. وأنت تعرفهم عندما يتجنبون العناء والجد المطلوبين عادة فى اجتياز العقبات للوصول إلى تحقيق هذه الأهداف والغايات. تتراهم يتجنبون استخدام الوسائل الطبيعية لتحقيق هذه الأهداف والغايات، ويكون همهم ليس إنجاز العمل على أكمل وجه وإنما إنجازه وتحقيق أهدافه وغاياته حتى لا يقال عنهم أنهم عاجزون عن ذلك. ومن سمات هؤلاء أيضا ما نلاحظه عندما يعجزون عن تقبل الحقائق الموضوعية، أى عندما يعجزون عن تقبل الواقع وفقا لما تفرضه الظروف الحرجة من تصرف سريع، مما يضطرهم إلى إخفاء العيوب والفشل والنقائص بغية انقاذ المظاهر والحفاظ على ماء الوجه. انهم الادعياء الذين يعرفون كل شئ ويرون أن غيرهم لا يعرف شيئا. انهم الذين رفعوا فى يوم منكود شعار "أهل الثقة" أولا، ثم "أهل الخبرة أخيرا وآخرا" وكأن البلد بلدهم وكأن الوطنية مقصورة عليهم. والفهلويون فى كلمة هم الانتهازيون الملونون المتلونون المنافقون.

والاهتمام بالعلم العصرى لا يعنى مطلقا أن الحياة فى ظله ستكون جافة ولا يطبقها البشر. بل على العكس ستكون هذه الحياة فى ظله أكثر يسرا. فالإنسان عن طريقه سيكون أكثر حرية. فالحرية الحقيقية بمفهومها العلمى هنا تعنى القدرة على فهم الموقف الاجتماعى أو المواقف الاجتماعية التى يواجهها الإنسان فهما موضوعيا. أن قدرة الإنسان على هذا الفهم هى الحرية فى ذاتها. أى أن مجرد فهم الشخص منا للموقف الذى يواجهه يعنى حريته فى التصرف إزاءه، وأن مجرد عدم فهمه للموقف الذى يواجهه يعنى قيده بالاغلال، اغلال هذا الموقف. أى أن الحرية تعنى التسلط على الظواهر الطبيعية والظواهر الإنسانية. والمواقف الاجتماعية أن هى إلا مظهر من مظاهر الظواهر الطبيعية أو الظواهر الإنسانية أو أحداها. والتسلط على الموقف الاجتماعى يعنى فهم هذا الموقف.

ولا يحق للقارئ أن يتهمنى بأننى مع العلم العصرى على حساب الفن بأنواعه. لأن الفن بأنواعه أحد مصادر المعرفة الإنسانية غير المنتظمة. وهو مصدر هام يحتاج إليه الإنسان ما عاش. ولعل الفن الصادق أولى، فى

ضوء ظروف مجتمعنا المصرى المعاصر، بالرواج وبالغلبة. أن الفن الصادق بكل أنواعه نشاط إنسانى ينبع من الحياة ويصب فى الحياة وييسر مواجهة الحياة. أننى إذ أرفع شعار أن يكون العلم العصرى حكما أعلى فى شئون الفكر فى مجتمعنا المصرى المعاصر، أؤكد ان الفن الصادق بأنواعه فى ضوء إنسانيتنا ضرورة لا يمكن أن يستغنى عنها بحال. وإذا كان الاقتناء فى مجال الثروة والسلع المادية وما شابهها لا يمثل عندى أهمية إنسانية كبرى، فإن الاستغناء عن الفن الصادق بأنواعه يعتبر بحق إهدارا للإنسانية.

وإذا كان العلم العصرى كخبرات إنسانية منتظمة مصدرا من مصادر المعرفة الإنسانية، فإن الدين مصدر آخر لهذه المعرفة. وعلى الرغم من أن العلم العصرى يعمل فى ظل الشعار القائل "لا شىء يأتى من لا شىء" وفى ظل الشعار "لا شىء مطلق"، ويسعى دائما فى هذا الضوء إلى الإجابة على السؤالين كيف ؟ ولماذا ؟ فأنه من الملاحظ أن الوصول إلى النتائج فى نطاق العلم العصرى يحتاج إلى البرهنة الموضوعية، أما الوصول إلى النتائج الدينية فلا يحتاج إلا إلى الإيمان ولقد كان "نيقولا كوبر نيكوس" (١٤٧٣-١٥٤٣) أسقفا من أساقفة الكنيسة، وكان بطبعه شديد التدين، وكانت الكنيسة فى عصره تدعو إلى العقيدة الدينية التى تقتضى حينئذ أن تكون الأرض، موطن الإنسان، مركز الكون، وأن تكون كذلك ثابتة لا تتحرك. ولم تمنع كل هذه الأمور كوبر نيكوس من أن يكون باحثا موضوعيا رأى أن الشمس هى مركز النظام الشمسى. وعلى الرغم مما حدث للفيلسوف "برونو" (١٥٤٨ - ١٦٠٠) عندما جهر بقبوله للنظام الكوبرنيكى وعد ذلك منه خروجا وهرطقة على الكنيسة وحوكم فى عام ١٥٩٤ وحكم عليه وألقى فى غياهب السجن، وفى عام ١٦٠٠ حكم عليه بالموت حرقا - لم يمنع كل هذا "كبلر" (١٥٧١ - ١٦٣٠) و"جاليليو" (١٥٦٤ - ١٦٤٢) وغيرهما من أن يكونوا باحثين موضوعين. فالعلم العصرى يقتضى الموضوعية وإلا لا يكون علما. وهناك فرق بين أن يقول العالم العصرى "أنا أعرف" وبين أن يقول "أنا أشعر" أو "أنا اعتقد". أى أن قضية الموضوعية فى العلم تتعلق بالعلم نفسه، بقيمته أو بعدم قيمته. فالعالم العصرى أما أن يكون موضوعيا أو أنه لا يكون عالما. أى أنه إذا خلع رداء الموضوعية، عن رهبة أو عن رغبة، فقد خسر نفسه قبل أن يخسره العلم. أن الذين يزيفون الحقائق الموضوعية او

يشوهونها، عن رهبة أو عن رغبة، لا يمكن أن يكونـوا علمـاء عصريين أو يكونوا باحثين علميين عصريين، لأنهم فى بساطة أشخاص مزيفون.

وفى هذا الضوء نلاحظ أن العلم العصرى فى استطاعته أن يبحث الظاهرة الدينية، وأن الدين فى ضوء طبيعته لا يحاول دراسة الظواهر العلمية وما يتصل بها. فالعلم العصرى فى ضوء منهجية يواجه الظواهر المادية والإنسانية، ومنها الظاهرة الدينية، على السواء. فهو يدرسها، أى الظاهرة الدينية، فى المجتمعات البدائية وفى المجتمعات الزراعية وفى المجتمعات الصناعية المتقدمة. وهو يدرس هذه الظاهرة وهى فى عنفوانها ويدرسها وهى تخبو وتحتضر. ويدرس العلم العصرى آثار ظاهرة الدين فى التغير الاجتماعى وفى الميدان السياسى، كما يدرس الحركات الدينية فى الماضى السحيق وحتى وقتنا الحاضر.

وفى ضوء الظروف الاجتماعية الثقافية فى المجتمع المصرى المعاصر، نلاحظ أن الدين الإسلامى يلعب دورا خطيرا فى حياة الناس. ومن ثم فالعلم العصرى يهتم بهذا الدين اهتماما كبيرا. ان الدين الإسلامى فى مجتمعنا حقيقة لا يمكن التغاضى عنها، والعلم العصرى من أجل ذلك يلاحظ هذه الحقيقة ويدرسها دراسة موضوعية بقصد فهمها ومحاولة الإفادة من نتائج هذه الدراسة. وتدخل فى هذا النطاق ملاحظة موضوعات إسلامية شتى ودراستها. ومن هذه الموضوعات ما يكون تاريخيا مثل دراسة سير الشخصيات الإسلامية والغزوات ونشأة الخلافة. ومن هذه الموضوعات ما يكون اجتماعيا كمكانة المرأة فى الإسلام ومكانة الطفل فى الإسلام مثلا. ومن هذه الموضوعات ما يتصل بالفقه والشريعة والأخلاق والحكومة والمؤسسات الحربية وغيرها. وقد يكون الاهتمام بدراسة العلم العصرى فى ظل الإسلام موضوعا من الموضوعات كذلك.

ولأن الدين الإسلامى حقيقة ويلعب دورا خطيرا فى حياة المسلمين، فاننا نلاحظ أحيانا أن موقف العالم منه وبخاصة العالم الأمبريالى موقف عداء لأمراء فيه. والعلم العصرى يرى أن هذا العداء لا يمكن ان يكون موجها إلى الدين الإسلامى من أجل الدين الإسلامى فحسب، على الرغم من أن الغزو الاستعمارى للعالم العربى لم يعد للذاكرة ذكريات الحروب الصليبية

فحسب، بل أنه هو نفسه كان صليبيا وكان يتظاهر بذلك. وعلى الرغم من أنه من المعروف أنه عندما أحتل الفرنسيون سوريا زار الجنرال الفرنسي الغاصب قبر صلاح الدين قائلا : ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين - ذلك لأن هدف الاستعمار، كما يعلم القارئ، هو أولا وقبل كل شئ، أن يحقق احتكار السوق الوطنية كما يحقق تبعيتها للسوق الأمبريالية.

وإذا كانت الفلسفة تتأثر بالعلم العصرى فهى تؤثر فيه كذلك. فالفلسفة وبخاصة المادية، كما يعلم القارئ، تستند إلى هذا العلم، والملاحظ أن العلم العصرى مثله مثل أى إنسان، وهو يطبق المنهج العلمى، يعيش فى ظل فلسفة اجتماعية معينة. أى يكون له موقف تجاه الإنسان والعلاقات الاجتماعية والمجتمع والحياة بصفة عامة، ويكون هذا الموقف عادة من وراء ملوك هذا العالم عندما يحدد أهداف بحثه وعندما يختار موضوع بحثه وعند تفسير النتائج التى يستخرجها من هذا البحث. وقد تكون هذه الفلسفة بقصد التغيير، كما ذكرنا من قبل، من أجل مصلحة الملايين من أعضاء المجتمع، أو يكون هذا التغيير كما هو فى المجتمع الرأسمالى من أجل حفنة من أعضاء هذا المجتمع. والملاحظ أن سيادة فلسفة اجتماعية معينة فى مجتمع ما أمر متوقع. فالمجتمعات متباينة، ومن ثم فأن فلسفاتها الاجتماعية السائدة متباينة كذلك. وتأثر الباحث العلمى وهو يحدد أهداف بحثه وعندما يختار موضوعا من الموضوعات وعند تفسير نتائجه لا يمكن أن ينفى موضوعية هذا الباحث. لأن هذا أمر متوقع. والعبرة كل العبرة تكون فى موضوعية الحقائق المجموعة وتحليلها واستخراج نتائجها، وبخاصة فى محيط الظواهر الإنسانية، أو فى عدم موضوعية ذلك. فإذ كانت أهداف الباحث العلمى المعاصر أهدافا غير تطبيقية أى لا تهدف إلى تحقيق التنمية الاجتماعية فى المجتمع أو كان موضوع البحث لا يتسم بالشمول ولا يدرس ككل فى علاقاته المتداخلة والمشتركة مع الظواهر الاجتماعية الأخرى، وإذا كان الباحث العلمى لا يهتم بربط النظرية بالتطبيق، فأنه من الملاحظ أن ترجمة نتائج هذا البحث إلى برامج وإلى تشريعات والاستفادة منها فى التخطيط لا يمكن أن تتحقق.

ولعل ما قلته فـى هذه النظـرة سبق أن قلتـه قبل ذلـك فـى دراسـات أخـرى. وأرجـو المعذرة مـن القـارئ إذ أكـرر نفسـى. ذلـك لأن البعـض إذ يعترف باسهامات العلـم العصـرى وتـأثيره الإيجابى علـى الحيـاة الإنسـانية، يتمسك عـادة بآثـاره السـلبية المتوقعـة. وتـرى هـذا البعض يتشـدق فيضـرب الأمثلة إذ يرى أن العلم قد فشل فى محو ما يترتب على شيخوخة الإنسان أو أحزانه أو وحدته ويتناسى أمجاد علوم الطب الأساسية والتطبيقيـة فـى سـبيل الإقـلال مـن وفيـات الأطفـال الرضـع ورفـع سـن الحيـاة فـى محيط الرجـال والنساء فضلا عن التقدم الهائل ليس فقط فى مكافحـة أمـراض شـلل الأطفـال والدفيتيريا والتيفويـد والالتهـاب الرئـوى والسل وغيرهـا.. وغيرهـا بـل فـى الوقايـة منهـا ومـن غيرهـا. وقـد يـزداد تشـدق هـذا البعض فيذكـر أن العلـم العصرى لم يزل أحزان الناس وبخاصة إذا كان الحزن على عزيز فقد، كمـا لم يعمل فى سبيل انقـاذ بعـض أعضـاء المجتمـع مـن الوحـدة، والملاحـظ أن البعض الذى يتشدق بهذه الترهات قد قال ما قال على وجه الاطـلاق ودونمـا موضـوعية، أى دون أن يخصـص أى المجتمعات قد قصده.

٢- النظرة إلى نشأة مهنة البحث العلمى الاجتماعى

كان البحث العلمى، بمعنـاه الحديـث، فـى ميـادين العلـوم الاجتماعيـة ومجالاتها فى مصر حتى أوائل القرن الحالى مقصورا على العلماء الأجـانب فقد اهتم هؤلاء العلماء بدراسة المجتمع المصرى دراسة موضوعيـة لعوامـل سياسـية فـى معظـم الأحـوال. وذلـك بقصـد فهـم هـذا المجتمـع للاسـتفادة مـن إمكاناته ولاستغلال أبنائه.

ولعل المبعوثين المصرييـن الأوائـل قـد عرفـوا الكثـير عـن المجتمـع المصرى فى أثناء دراساتهم فى أوروبا ثم فى أمريكـا مـن بحـوث ودراسـات قام بها علماء أجانب أو من كتب تضم هذه البحوث والدراسات.

واقتصـر اهتمام المفكرين المصرين فـى تلـك الآونـة علـى الدراسـات النظرية الدينية والفلسفية والأدبية فى معظم الأحوال. ولم يتغير هذا الاهتمـام ألا بعد الحرب العالمية الأولى حين أنشئت الجامعة المصرية فى عام ١٩٢٥

التى خلقت نمطا من المناخ الثقافى أتاح لعدد قليل من المفكرين المصريين الاهتمام بالدراسات النظرية النفسية ثم بالدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية. وكان معظم الجهد المبذول فى هذا المجال هو جهد ترجمة بعض الكتب التى تتضمن هذه الموضوعات إلى اللغة العربية. وقد أنشىء فى كلية الآداب بالجامعة فى ذلك الحين قسم مستقل لتدريس علم الاجتماع، سار على نهج المدرسة الإجتماعية الفرنسية التى بدأها "أوجست كونت" فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأرسى قواعدها "أميل دوركايم" فى أواخر ذلك القرن وفى أوائل القرن الحالى. وقد أثرت هذه المدرسة فى طابع الدراسة فى هذا القسم.

ومنذ إنشاء الجامعة المصرية حتى عام ١٩٣٦ لم يتغير اتجاه المفكرين المصريين نحو الدراسات النظرية لعلوم النفس والتربية والاجتماع والانثروبولوجيا إلى الدراسات الواقعية التى تهدف إلى دراسة المجتمع المصرى إلا قليلا. فقد شذ عدد قليل منهم وأجروا بحوثا واقعية عن موضوعات تتعلق بهذه العلوم. منها دراسات إسماعيل القبانى فى علم التربية وعلم النفس، ودراسات يعقوب فام فى علم التربية ودراسات مصطفى عامر عن بعض مشاكل السكان فى مصر، ودراسات الأب عيروط اليسوعى عن الفلاحين المصريين التى نشرها بالفرنسية فى أواخر الثلاثينيات وترجمت إلى اللغة العربية فى أوائل الأربعينيات.

ولم تبدأ الجهود الجماعية التى كرست للبحث العلمى الواقعى فى ميادين العلوم الاجتماعية ومجالاتها فى مصر إلا بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦، عندما أنشئت الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية. ولعل القلق الذى كان يستحوذ على قوى المجتمع الخلاقة، ولعل وطأة الحاجة إلى إيجاد بعض الحلول فى سبيل مواجهة المشاكل الاجتماعية الصارخة فى ذلك الحين، فضلا عن توقيع المعاهدة - لعل كل ذلك قد أتاح الفرصة لبعض المفكرين المصريين لإنشاء هذه الجمعية. وكأن لسان حالهم كان يقول : "أن قوى الشعب الخلاقة قد استنفدت كلها فى ميدان السياسة. أما وقد حصلت البلاد على الاستقلال ! فقد آن الأوان أن توجه هذه القوى نحو القضاء على المشاكل الاجتماعية القائمة".

وقد ضم أول مجلس إدارة لهذه الجمعية بعض الساسة من المصريين وبعض العلماء والمفكرين منهم، فضلاعن بعض المفكرين الأجانب. واتجهت أهداف الجمعية نحو حل المشاكل الاجتماعية فى الريف وفى محيط العمال وفى محيط جناح الأحداث على هدى نتائج البحوث العلمية الواقعية فى هذه الميادين. واستخدمت فى سبيل ذلك أنماطا كثيرة من البحوث سواء كنت بحوثا طويلة الأمد أو بحوثا قصيرة الأمد. ومن هذه البحوث نجد البحوث المسحية كبحث مشكلة الفقر فى مصر فى عام ١٩٣٨، ومنها بحوث العمل الاجتماعى (Social Action Research) كبحث مشاكل الريف فى قريتى المنايل وشطانوف فى عام ١٩٣٩. فضلا عن بحوث دراسة الحالة كدراسة حالات الأحداث الجانحين التى كانت تعرض على محكمة الأحداث بالقاهرة فى عام ١٩٤٠ وما بعده. وبالإضافة إلى كل ذلك بعض البحوث الواقعية التى كانت تطلب من طلبة مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة، التى أنشئت فى عام ١٩٣٧، كشرط ضرورى للحصول على البكالوريوس فى الخدمة الاجتماعية من هذا المعهد.

والملاحظ أن العنصر الأجنبى فى هذه الجمعية، فى ذلك الحين، كانت له السيادة الفكرية على اتجاهات تحقيق أهدافها. ولعل الاتجاه نحو البحث العلمى، بمعناه الحديث، فى ميادين العلوم الاجتماعية ومجالاتها أن يكون مرجعه إلى سيادة هذا العنصر. مع ملاحظة ان البحوث والدراسات التى أجريت فى ذلك الحين قد تم إجراؤها على مدى الاتجاهات الغربية التى كانت سائدة وأهمها الاتجاهات الوضعية التى قصد بها البرهنة على أبدية الرأسمالية وتبرير وجودها. وكانت الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى فى ذلك الحين دعوة ملحة ! على أن تكون الجهود نحو هذا الإصلاح الاجتماعى، لكى تؤتى ثمارها، مبنية على دراسات متعمقة ودقيقة للظروف الاجتماعية، كما هى موجودة فى المجتمع المصرى فضلا عن المشاكل والمبادئ التى يجب أن تواجه، وأن الخطوة الأولى نحو الإصلاح الاجتماعى هى الدراسة الدقيقة للظروف الاجتماعية التى يقوم بها أشخاص قد تدربوا خصيصا لهذا الغرض، وأن يكون حماسهم للعمل لا يقبل أى شك.

ويعزز الرأى السابق ما انتهى عليه تقرير "بحث مشكلة الفقر فى مصر عام ١٩٣٨" عندما طرح السؤال عن الجدوى من إجراء هذا البحث إذا كانت نتائجه معروفة وشائعة. وكان الجواب على هذا السؤال أنه "كما أن دورة الأجيال الإنسانية تتكرر بلا نهاية، كذلك هذه النتائج الشهيرة الشائعة ستستمر فى هذه الدورة وهى متنكرة فى ثياب اللاهوت، أو فى ثياب الخرافات أو فى ثياب السياسة الخرقاء،أ و فى ثياب عدم تدخل الدولة فى الشئون الاقتصادية. والدراسة الحالية قد نجحت فى الكشف عن العناصر الشريرة وأبرزت شرها وخبثها ومقتها وتهديدها، بل نجحت فى الكشف عن عجزها الذاتى فى مواجهة القضاء عليها إذا عقد العزم على مكافحتها والقضاء عليها" !

وبالإضافة إلى أن اللجنة التى كانت تشرف على بحث مشاكل الريف فى قريتى المنايل وشطانوف قد وضعت فرضا معقولا تحاول اختباره وهو : أن حدوث أى تغير حقيقى إلى الأفضل يستدعى معاونة القرويين أنفسهم ويعتمد على رغبتهم فى هذا التغيير، أما إذا لم توجد الرغبة من جانب القرويين فلابد من العمل على إيجادها - فإن هذه اللجنة قد وضعت لنفسها أسسا وقواعد تسير على هديها، منها :

١- ان عمل المرحلة الأولى هو بمثابة تمهيد أولى للتجربة التى ستليه.

٢- أن اللجنة لا يمكن أن تتبع أية طريقة معينة للتغيير حتى تتم البحوث والدراسات نهائيا. فالظروف المحلية هى التى ستفرض دون غيرها التحسينات التى يمكن إدخالها فى القرية، كما ستقرر ترتيب أولويتها.

٣- أن المفروض أن التجربة التى تشرف عليها اللجنة هى تجربة علمية وعليه فلابد من الإقلال من التخمين بقدر المستطاع.

٤- أن اللجنة المشرفة على التجربة ستأخذ فى اعتبارها كل ناحية من نواحى النشاط الصحى والاقتصادى والتربوى والاجتماعى وكل ما من شأنه ان ييسر رفع المستوى العام فى القرية.

٥- ليس غرض اللجنة إنشاء قرى نموذجية. وإنما الغرض هو اكتشاف الصيغة الملائمة لإصلاح الحياة القروية والتى يكون من المتيسر اتباعها

فـي قـرى مصريـة أخـرى. ولا ينبغـى أن يظـن أن كـل مـا يعمـل فـى القريتين التجريبيتين فى الوقت الحاضر سيعاد عمله فى القرى الأخرى. فاللجنة ستعلم عن طريـق التجـارب بعـض الوسـائل غيـر الصـالحـة كمـا ستعلم بعـض الوسـائل الصـالحـة. ولا تتوقـع اللجنـة أن يكـون مـن الضرورى إنشاء مركز لرعاية الطفل ووحدة طبية فى كل قرية مصرية !

٦- وحتى تستكمل التجربة وتتحقق الخبرة الكاملـة عن كـل الظـروف، فأنـه من الضرورى الاهتمام بالقريتين التجريبيتين أكبر الاهتمام، الأمر الـذى لا يتوقع عمله فى جميع القرى المصرية.

٧- ولكى تتحقق أغراض التجربة، فانه من المتوقع إنفاق مبالغ كبـيرة نسبيا لا تكون هناك ضرورة لإنفاق مثلها بعد إجراء التجربـة، والملاحظ أنـه أرخص لنا أن نرتكب بعض الأخطـاء فـى قريتيـن اثنتيـن، مثـلا مـن أن نرتكب نفس الأخطاء فـى آلاف القرى المصريـة الأخـرى. وإذا عرفنـا الإجراء السليم فأننا سنوفر الوقت والمال عند تطبيق التجربة على مـدى أوسع. ومن المعلوم أن الشركات الكبيرة مثـل الشـركة العامـة للكهربـاء (General Electric) والشـركة العامــة للسـيارات (General Motors) تنفـق ملايين الـدولارات لاكتشـاف جهـاز بسـيط يمكـن بيعـه للجمهـور بقيمـة زهيدة لا تتجاوز السنتيمات !!

٨- لا يمكن أن نتوقع حدوث معجزة، أو أن نتوقع اكتشاف صيغة الإصـلاح فى وقت قصير.

٩- أن اللجنة على أتم استعداد لتحمل العمل الشاق مدة طويلة حتى تصل فى النهاية فى خلال الجيل الحالى، أن أمكن، إلـى نتـائج صـائبـه فـى ميـدان إصـلاح القرية المصـرية.

ولعل القارئ قد لاحظ انه على الرغم من الدعوة الحـارة إلـى إجـراء البحوث العلمية من أجل مواجهـة المشـاكل الاجتماعيـة الخطـيرة التـى كـانت تواجه مصر منـذ عـام ١٩٣٧ ومـا بعده!فـإن هـدف المواجهـة لـم يعـد غـير الاصـلاح واجراء بعض التحسـينات لـم يكـن الهـدف فـى ذلـك الحيـن التغيير

الجذرى. ويرجع ذلك، كما رأينا، إلى سيادة الاتجاهات الغربية غير التقدمية الواردة من البلاد الأوروبية والأمريكية وبخاصة التى تتجاهل "الصراع" بأنماطه وتتبنى فى نفس الوقت وجهة النظر ذات الجانب الواحد التى تدعو إلى تبرير وجود الوضع الراهن (الاتجاهات الوظيفية البنائية مثلا).

وبحوث دراسة الحالة التى كانت تجرى على حالات الأحداث الجانحين التى كانت تعرض على محكمة الأحداث بالقاهرة كانت لها نفس الأهداف، أى أهداف الإصلاح الاجتماعى ! فقد كان الغرض الأساسى من القيام بخدمات اجتماعية فى محاكم الأحداث هو معاونة القاضى فى وظيفته كمربى للأحداث وحام للطفولة، فيكون الأخصائى الاجتماعى بمثابة حلقة الاتصال بين القاضى وأسرة الحدث والحدث نفسه، وما بين هؤلاء المؤسسات المختلفة، سواء كانت حكومية أو أهلية، التى تعنى بالحدث لسبب أو لآخر. وكانت أهم الخطوات التى تتبع فى سبيل تحقيق هذا الغرض الأساسى ما يلى :

١- القيام ببحث دقيق لحالة كل حدث والبيئة التى يعيش فيها وعلاقة هذا كله بأعمال التشرد أو الأجرام التى تصدر عنه. ويشفع مثل هذا البحث الاجتماعى ببحث حالة الحدث الصحية والنفسية ولذا يكون فى متناول القاضى المعلومات الدقيقة التى يستنير بها فى فهم حالة كل حدث.

٢- اقتراح الحل الملائم لكل حالة تعرض سواء فيما يتعلق بالتربية أو المعالجة النفسية أو بتغيير بيئة الحدث أو بإلحاقه بإحدى المؤسسات التى تلائم حالته الخاصة.

٣- المساعدة فى تنفيذ العلاج المقترح وبوجه خاص مراقبة الحدث وأسرته اجتماعيا والتأثير الصالح فى كل منهما !

ويجب أن يلاحظ أن انماط البحوث والدراسات السابقة وأن كانت تجرى فى ظل اتجاهات غير تقدمية، فإنها - ما فى ذلك من شك - كانت بداية على الطريق. كانت هذه الأنماط من البحوث والدراسات محاولة لترشيد العمل الاجتماعى فى ضوء العلم، وتأكيد ضرورة هذا العلم فى مواجهة الرواسب البالية التى يزخر بها التراث الثقافى المصرى فى ذلك الحين، ثم

تهيئة أذهان المصرين لاقتحام البحث العلمي في ميادين العلوم الاجتماعية ومجالاتها.

واستمرت الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية تعمل في هذا الاتجاه. واعتبرت في ذلك الحين مركزا لتشجيع البحث العلمي الواقعي في محيط العلوم الاجتماعية وبخاصة علوم النفس والاجتماع والانترويولوجيا. وفي عام ١٩٤٢ أنشأت الجمعية مكتبا للبحوث الاجتماعية وكانت أهدافه القيام بإجراء البحوث الاستقصائية كبحث الملكية الزراعية وبحث أجور العمال الزراعيين مثلا. وكان أهم البحوث النفسية والتربوية والاجتماعية والانثروبولوجية التي أجريت منذ إنشاء الجمعية حتى قيام ثورة عام ١٩٥٢ قد قام بها مصريون كانوا أعضاء في الجمعية، أو مصريون من غير الأعضاء استفادوا من المناخ الثقافي الاجتماعي الذي خلقه وجود هذه الجمعية أو من الحقائق التي جمعتها أجهزة الجمعية كمكتب البحوث الاجتماعية أو مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الأحداث أو أحد المراكز الاجتماعية الريفية في قرى المنايل وشطانوف ثم العجايزة.

ومع ذلك فالملاحظ أن البحوث الواقعية التي أجريت في تلك الفترة كانت بحوثا قليلة. وكانت - كما سبق أن أوضحنا. في ضوء الأيديولوجية السائدة - كلها، تتجه نحو العلاج في معظم الأحيان، ونحو الوقاية في أحيان قليلة. وهي لم تتجه أبدا نحو التنمية الشاملة بمعناها الحديث. صحيح كانت بحوثا ودراسات رائدة وتهتم بالتطبيق ولكن أهدافها كانت محدودة وكانت الجهود التي تبذل في أجرائها متفرقة لاتضمها خطة واضحة المعالم.

وفي عام ١٩٥٥ ولدت مهنة البحث العلمي، بمعناه الحديث، في ميادين العلوم الاجتماعية ومجالاتها في مصر، حين أنشيء المعهد القومي للبحوث الجنائية. ولأول مرة في تاريخ البلاد أتيح للمصريين أن يمارسوا هذه المهنة في ميادين العلوم الجنائية : علوم القانون والاجتماع والنفس والعقاب والكيمياء والطبيعة والطب، فضلا عن العلوم الشرطية. ولأول مرة في تاريخ البلاد وجدت المؤسسة القومية التي تلم شعث الجهود المتفرقة التي كانت تمارس البحث العلمي في ميادين هذه العلوم ومجالاتها قبل ذلك. وفتح هذا المعهد منذ لحظة انشائه حتى تطوره إلى المركز القومي للبحوث

الاجتماعية والجنائية منذ عام ١٩٥٩ حتى الآن، ذراعية لكل من يجد فى نفسه الرغبة فى إجراء البحث العلمى، أو القدرة على ذلك، أو يجدهما معا.

وأصبح المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية منذ صدور قانون انشائه رقم ٢٢١ لسنة ١٩٥٩ يمارس البحوث العلمية الواقعية بأنماطها فى معظم ميادين العلوم الاجتماعية ومجالاتها. فبالإضافة إلى العلوم الجنائية المشار إليها نجد علوم الانثروبولوجيا والتربية والسياسة والسكان والإحصاء تعمل جنبا إلى جنب. وتعتبر البحوث التى أجراها المعهد القومى للبحوث الجنائية والمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية كلها بحوثا رائدة.

ويمكن أن يقال بحق أن المركز صاحب الفضل فى تطوير المدرسة الفكرية لعلم الاجتماع بعد ثورة ١٩٥٢. فمنذ انشائه قد نهج نهجا علميا فى تدريب باحثيه الجدد، واتاحة الفرصة لهم للتزود بالمعرفة على اختلاف ألوانها، وفى التفرقة بين الدراسات المكتبية التى تعتمد أساسا على المصادر العلمية المكتبية والوثائق والاحصاءات وبين البحوث الميدانية. وأصبح المركز بعد عام ١٩٥٩ أشبه بجامعة صغيرة للبحث العلمى. وأصبح يضم خمس وحدات لبحوث التصنيع، والريف، والرأى العام، والبحوث النفسية والتربوية، وللأسرة وذلك فى شعبة البحوث الاجتماعية، كما يضم أربع وحدات لبحوث السلوك الإجرامى، والأحداث، والعقوبة والتدابير الإصلاحية، وكشف الجريمة، فى شعبة البحوث الجنائية(*) .

ولعل ما كتب عن فلسفة المجلة الاجتماعية القومية وعن أهدافها التى أصدرها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، فى أول عدد لها فى شهر يناير عام ١٩٦٤، أى بعد صدور القرارات الاشتراكية فى شهر يوليو

(*) فى ضوء مشروع الهيكل التنظيمى لهيئة بحوث المركز يصبح الآن فى المركز. أربع شعب هى:

شعبة بحوث المجتمعات والفئات الاجتماعية، وشعبة بحوث مؤسسات وقوى التنمية الاجتماعية، وشعب بحوث الجريمة والسياسة الجنائية، وشعبة بحوث الجوانب الكيميائية البيولوجية للمشكلات الاجتماعية، وزاد عدد أقسام المركز إلى ١١ قسما فضلا عن المشروعات البحثية الكبرى.

عام ١٩٦١، ان يلقى الضوء، رسميا، على فلسفة المركز وأهدافه. فقد تساءل رئيس تحرير المجلة "ما هى الفلسفة التى تحملها هذه المجلة وما أهدافها؟" وكانت الإجابة على هذا السؤال فى ثلاث نقاط هى :

١- أن العلوم الاجتماعية، وقد أخذت بالأسلوب التجريبى فى وقت متأخر، أصغر سنا من العلوم الطبيعية. ونظرية المجتمع البشرى كما جاءت فى فكر الأغريق وغيرهم من القدماء تنتسب إلى عصر لم يكن الإنسان قد ألم فيه بعد بطرف مذكور من أسرار الطبيعة وكان لابد أن تحدث، أولا، نهضة فى العلوم الطبيعية تشحذ العقل البشرى وتفتح آفاقه، حتى يكتشف مناهج جديدة فى نظرية المجتمع.

لقد كان فلاسفة المجتمع يطمعون فى كشف معمياته وحل مشكلاته عن طريق التأمل والمنطق بغير أن يفتشوا عن الحقيقة الاجتماعية، بداءة فى "تربة المجتمع" وأنفاسه الحية. أن التطور الحديث فى مناهج البحث العلمى فى المجتمع قد طرح هذا الأسلوب التجريدى، أو قرن إليه، العمل الميدانى الذى أدخل تحولا فى معرفة الإنسان لنفسه وخلص هذه المعرفة من الكثير من الأفكار المسبقة والمضاربات الفكرية.

وإذا كنا نعلق على المنهج التجريبى فى دراسة المجتمع الآمال الكبيرة فإننا نود ألا ننسى ان المجتمع ليس علما محضا بل يعيش أيضا بالإنسانيات كالدين والأخلاق والفلسفة بكل ما يلابسها من القيم والمثل والانفعالات. وقد كانت هذه الصلة أوضح فى الماضى عندما كانت ذاتية العلوم الاجتماعية أقل وضوحا وعندما كانت العقائد الدينية والتقاليد الأخلاقية أشد ارتباطا بها وعندما كانت الفلسفة هى المرجع الأم لكل أبحاثها. وإذا كان العقل البشرى يسعد بالمنهج العلمى التجريبى الذى تتبناه العلوم الاجتماعية اليوم فإنه جدير بالا يقع فى خطيئة الانفصال التام، فى ادراك المجتمع إدراكا عميقا، جدير بالا يقع فى خطيئة الانفصال التام، فى إدراك المجتمع ادراكا عميقا، عن عالم الإنسانيات. أن المجتمع لم ولن يكون أبدا مادة بغير روح أو "أنبوبة اختبار" فى يد الباحثين يسلط عليها اللهب وينتظر كيف يكون التفاعل.

أن "المجلة الاجتماعية القومية" تسعى إلى النهوض بالمنهج التجريبى فى دراسة المجتمع من أجل إقامة بنيان قوى من الحقائق الاجتماعية دون أن تسعى إلى "ميكنة" المجتمع وتجريده من عناصره الإنسانية.

٢- ان المجتمع لن ينقسم أبدا بعدد العلوم الاجتماعية. أن المجتمع واحد. وعلم المجتمع واحد. أن علم الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية وعلم النفس وعلم الاقتصاد وعلم السياسة وعلم القانون وعلم التاريخ - كلها فى حقيقتها قطع متكاملة فى أسطول واحد يسعى إلى ضفاف الحقيقة الاجتماعية وموضوعها الإنسان فى المجتمع.

أن "كونت" هو القائل بأن الدراسة المتخصصة - حتى فى مجال العلوم الطبيعية - يجب أن تكون على صلة وثيقة مستمرة بالدراسة فى الميادين المجاورة. وأن المتخصصين الذين لا ينظرون إلى ما بعد حدودهم جديرون بأن يروا الأشياء فى نسب خاطئة ويحرمون أنفسهم من الاستبصار الذى يولده التقدم فى كل علم إذا قورن وقيس بالعلوم الأخرى. ولابد من التضافر بين العلماء وأن يتجهوا بجهودهم إلى أذابة الحدود الصناعية الفاصلة بين العلوم الاجتماعية عن طريق النظر المتبادل واستعارة المناهج وتنسيق النظريات والمشاركة فى البحث.

أن "المجلة الاجتماعية القومية" تسعى إلى تحطيم الحدود التقليدية بين العلوم الاجتماعية وتبادل الاتصال بينها. هذا الاتجاه هو طريق الأمل نحو علم المجتمع المتكامل الذى يتسع صدره لكل المعارف التى تتناول المجتمع الإنسانى.

٣- أن العلم لا يقاس إلا بمقدار أدائه لوظيفته الاجتماعية سواء كان علما طبيعيا أو اجتماعيا. وقد يثور الجدل فى مدى استعداد العلم الاجتماعى فى الآونة الحاضرة للقيام بما ينتظره وفى مدى كفايته كأساس للتكنولوجيا الاجتماعية. إلا أن هذا الجدل لا يخفى مع ذلك حقيقة بارزة وهى أن العلماء مواطنون أولا والمجتمع ينتظر من علم المجتمع، سواء بلغ أشده أو لم يبلغه أن يمد يد المعونة على قدر طاقته وفى حدود أمكاناته.

أن "المجلة الاجتماعية القومية" تسعى إلى تنمية التكنولوجيا بالاستعانة المنتظمة بنتائج البحث العلمي الاجتماعي في التخطيط الاجتماعي والسياسة الاجتماعية.

تلك كانت فلسفة المركز وأهدافه التي أعلنت رسميا في العدد الأول من المجلة الاجتماعية القومة في يناير عام ١٩٦٤. وأنني لا أعلق على هذه النقاط الثلاث، ويترك ذلك للقارئ. وأن جاز لي التعليق فأنه يلاحظ أن الاستعانة المنظمة بنتائج البحث العلمي الاجتماعي في التخطيط الاجتماعي والسياسة الاجتماعية لم يتم تحقيقها أبدا. وذلك لأن رأى المركز فيما يحال عليه من المسائل الاجتماعية، في ضوء قانونه، رأى استشاري. وأنه إذا وجد مستوى معين من التخطيط الإجتماعي في مصر فإن السياسة الاجتماعية غير موجودة ! وبالإضافة إلى ذلك فأننا نذكر أن ابن خلدون قد قال قبل ظهور مفكرى النظام الرأسمالي الاشتراكي، بوجوب اتخاذ "الاجتماع الإنساني" موضوعا لعلم مستقل. وسمى هذا العلم بأسم "علم العمران" (أى التساكن والتنازل في مصر، أو حلة للانس بالعشير واقتضاء الحاجات". وقال ابن خلدون عدة مرات بأن موضوع هذا العلم هو "العمران البشرى والاجتماع الإنساني". مع ملاحظة أن علم العمران عند ابن خلدون كان علما شاملا. لأنه يعتبر الحياة السياسية والاقتصادية والصناعية والعلمية من مظاهر الحياة الاجتماعية، وينظر إلى الأبحاث المتعلقة بها كفروع لعلم الاجتماع.

وعلى الرغم من إعلان فلسفة المركز وأهدافه رسميا فأن أعضاءه كانوا يعملون في ظل تخصصاتهم التي تعلن عن الخلفية النظرية التي تعتمد عليها هذه التخصصات أحيانا، أو لا تعلن عن هذه الخلفية أحيانا أخرى. واستمر المركز يعمل في ظل هذا المناخ الثقافي حتى واجه المجتمع المصرى هزيمة يونيو في خلال عام ١٩٦٧. وعاش أعضاء المركز أزمة هذه الهزيمة، وعانوا من ذلك معاناة كبيرة. وفي خلال عام ١٩٦٨ نشأ حوار مستمر في محيط أعضاء المركز حول بعض الأمور. وكانت أهم هذه الأمور ضرورة وضع سياسة علمية للمركز واضحة المعالم والأهداف حتى يسير على هديها في بحوثه ودراساته وغيرها من النشاطات الأخرى. وفي

خلال المدة من يوم ٢١ من شهر إبريل عام ١٩٦٩ حتى يوم ١٢ من شهر مايو عام ١٩٦٩ بدأ مجلس الخبراء بالمركز العمل فى شكل لجنة لإنجاز هذه المهمة. وقد جرت المناقشات على هدى مذكرات مكتوبة قدمها الأعضاء تعبيرا عن وجهات نظرهم.

وحول موضوع وضع "سياسة علمية للمركز" دارت مناقشت طويلة. فقد رأى بعض الأعضاء أن الموضوع المطروح على بساط البحث هو تطوير السياسة العلمية للمركز وليس وضعها. ويستند هذا الراى إلى بعض الحقائق التى يتضمن أهمها أن المركز منذ أن كان "المعهد القومى للبحوث الجنائية" فى عام ١٩٥٥، ومنذ أن أعيد تنظيمه وصار "المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية" كان يعمل فى ظل قانون، وكانت له أهداف ومجالات عمل، وكانت له انجازات ثمينة فى محيط باحثيه وخبرائه، وكانت له انجازات أخرى فى شكل البحوث التى قام بإجرائها والبرامج التدريبية التى أشرف عليها فضلا عن المؤتمرات والحلقات والندوات التى عقدها ودعا إليها واشترك فيها والمنشورات التى قام بنشرها.

فى هذا الضوء يرى هذا الراى أن المركز كانت له فعلا "سياسة علمية" بصورة أو باخرى، عمل المركز على هديها فى خلال المرحلة الماضية من عمره. ونحن الآن بصدد تطوير هذه السياسة ولسنا بصدد وضع سياسة علمية للمركز لأول مرة. ويبدو أن اللبس القائم بين الأعضاء كان مرجعه إلى أن إدارة المركز فى المرحلة الماضية من عمره قد احتفظت وحدها، أى دون اشراك العاملين فى المركز، بحق وضع هذه السياسة.

وقد تناولت مناقشات الأعضاء أهمية موضوع تطوير السياسة العلمية للمركز. وأكدوا بما يشبه الإجماع أهمية الدور الذى يمكن أن يقوم به المركز فى عمليتى التنمية والتطور الاجتماعى فى المجتمع المصرى فى ذلك الوقت وقد أبرزوا الظروف الهامة التى يواجهها المجتمع المصرى المعاصر ومنها ظروف التغيير الاجتماعى الثقافى الشامل السريع، والتحديات الخارجية والتحديات الداخلية ومنها حالة المجتمع منذ شهر يونيو عام ١٩٦٧، حيث يعيش المجتمع المصرى فى حالة اجتماعية نفسية غير عادية، وحيث تتضح جليا ضرورة مواجهة كل ضروب الانحراف والسلبية

التى سرت عدواها إلى كثير من مؤسسات المجتمع وذلك بدراستها وتحليلها ومحاولة الحد منها.

واستغرقت المناقشات حول مفهوم السياسة العلمية وقتا طويلا. وكان الإجماع ضد وضع تعريف معين للسياسة العلمية فى المرحلة الحالية. ولكن الإجماع كان مع تحديد أهم العناصر التى تتضمنها أو يجب أن تتضمنها السياسة العلمية بعامة، والسياسة العلمية للمركز بخاصة. وانتهى الأمر إلى الاتفاق على بعض العناصر، هى : وظيفة المركز، وأهداف المركز، والأيديولوجية التى يعمل فى ظلها المركز، ومناهج البحث الاجتماعى، ومجالات العمل بالمركز، وأخيرا وضع خطة علمية للمركز.

وفى ضوء طبيعة الدراسة الحالية فأنها تتضمن كل مادار حول موضوع "الأيديولوجية التى يعمل فى ظلها المركز" من مناقشات فحسب. ولعل ذلك أن ييسر الكشف عن الخلفية النظرية للذين اشتركوا فى هذه المناقشات. ومن ثم ييسر الكشف عن الخلفية النظرية السائدة التى توجد بين جنبات المركز" وهو معقل مهنة البحث العلمى فى ميادين العلوم الاجتماعية ومجالاتها فى مصر فى الوقت الحاضر.

تناول بعض الأعضاء موضوع الأيديولوجية التى يجب أن يعمل فى ظلها المركز، كموضوع أساسى، فى مذكراتهم ولم يتناول البعض فى مذكراتهم هذا الموضوع ! وتناول البعض هذا الموضوع فى مذكراتهم كموضوع ثانوى ! وفى أثناء المناقشة حاول الكثيرون أن يعرضوا آراءهم.

وقد لوحظ خلاف الأعضاء حول موضوع الأيويولوجية. قال بعضهم أن باحثى المركز عم بعض أعضاء مجتمعنا المصرى المعاصر. وهم إذ يعملون لا يمكن أن يعملوا فى فراغ أيديولوجى. فهم يعملون بالضرورة فى ظل مناخ ثقافى معين وفى ظل أوضاع ثقافية اجتماعية اقتصادية سياسية معينة وإسهام باحثى المركز فى ضوء تحقيق أهدافه، يجب أن يهتدى بقيم المجتمع المصرى ومبادئه ومثله العليا. أى يجب أن يكون هذا الإسهام فى ظل الأيديولوجية الاشتراكية العلمية التى اختارها مجتمعنا فى ذلك الحين.

وقال أحد الأعضاء أن وظيفة المركز وأهدافه ترتبط بموضوعين هامين. أولهما : الفلسفة الاجتماعية وهي موقف تجاه الإنسان والعلاقات الاجتماعية والمجتمع والحياة بصفة عامة - طبيعة كل منها وغايته - يتخذان صراحة أو ضمنا أساسا للفعل الاجتماعي وثانيهما : السياسات الاجتماعية، وهي برنامج لتحقيق الأهداف الاجتماعية التي تستتبعها الفلسفة الاجتماعية. ورأى هذا العضوان من الأمور الهامة التي يجب أن تناقش في هذا الصدد أمرين. أولهما : حرية الباحث الاجتماعي أو التزامه. والثاني : معيار المفاضلة بين السياسات الاجتماعية المختلفة. فالمناقشة الجادة في هذه الموضوعات ضرورة لأنها في ضوء نتائجها تحدد ما إذا كان جهد ما سيبذل والمسار الذي يسلكه. ولاحظ هذا العضو أنه ليس هناك ما يمكن أن نسميه فلسفة اجتماعية واضحة محددة المعالم، وبالتالي فإن الكلام في الالتزام صراع في غير ميدان، وتفضيل سياسة اجتماعية على أخرى لا يقوم على حجة مقنعة.

وذكر عضو آخر وهو يتناول هذا الموضوع أنه مما يؤثر بصورة لا تقبل الشك على مستقبل البحوث والدراسات هو انتماء الباحث إلى معتقدات وأيديولوجية خاصة مما يعرضه إلى نوع من القهر الإيديولوجي يمارس قوته على تصور الظواهر واختيار موضوعات البحث ومناهجها وأدواتها من جهة، وتجنب مصادمة المؤسسات التي تتبنى هذه المعتقدات والأفكار من جهة أخرى. وهو يرى أنه قد يتم ذلك على المستوى الشعوري أو اللاشعوري بالنسبة للباحثين العمليين، ومن ثم تصبح حرية البحث العلمي وحصانة الباحثين شرطا ضروريا لأية سياسة علمية يرتجى منها تحقيق الهدف من موضوعية البحث العلمي.

وقدم عضو آخر تعريفا لمفهوم الأيديولوجية من وجهة نظر أخرى. وهو يرى أن الاشتراكية العلمية هي أيديولوجية علمية وثورية وتقدمية للطبقة العاملة. وذكر هذا العضو أنه بينما تقف الاشتراكية العلمية في هذا الجانب، تقف الفلسفة المثالية التي تعتنقها البرجوازية وتسخرها للدفاع عن مصالحها الطبقية ضد جموع الشعب العامل في جانب آخر مختلف تماما. ولا سبيل بالتالي إلى أي لقاء بين الأيديولوجيتين. وقد أكد هذا العضو عند

التحدث عن موضوع حرية الباحث أنه موضوع على جانب كبير من الحساسية والأهمية. لأنه يرى أن أحد الأهداف الرئيسية للتحول الاشتراكى هو الحرية بمفهومها العلمى، وعدم الاكتفاء بالمفهوم المثالى الليبرلى فى هذا الصدد.ويرى هذا العضو التأكيد على احترام الحرية الشخصية للباحث بمعنى أن تكفل له الحرية التامة فى معتقداته ما دامت لا تتعدى هذه المعتقدات الدائرة الشخصية إلى محاولة تخريب البحث العلمى الاجتماعى، فى حالة تعرض أيديولوجيتة الخاصة مع أيديولوجية المجتمع. ويستند هذا الرأى، كما ذكر هذا العضو، إلى أن فى المجتمع الاشتركى يتم تمويل مراكز البحث العلمى عن طريق دولة الشعب العامل ومن غير المعقول أن يترك المجال لتمويل بحوث تخدم الثورة المضادة لمصالح الشعب العامل. وإذ يرى هذا العضو أن الفصل بين الأيديولوجية، على المستوى الشخصى، وتدخل الباحث فى توجيه البحث العلمى الاجتماعى مدفوعا بأيديولوجيته أمر واضح التعسف، يرى أن التطبيق السليم للاشتراكية العلمية يستطيع أن يتغلب على هذا الموقف بالتربية السياسية الحزبية والثورة الثقافية. وقد لاحظ هذا العضو ملاحظة بالغة الأهمية والخطورة معا. هى أن الباحث فى حدود انسجامه على نحو عام مع أيديولوجية المجتمع (فى مجتمع اشتراكى مثلا)، قد يتعرض أحيانا عند اختياره لمشكلة البحث وكذلك عند تفسيره للنتائج بالهجوم على عدد من المسئولين عن التطبيق الاشتراكى الذين قد ينحرفون. وقد يشكل هؤلاء مركزا من مراكز القوى فى المجتمع، الأمر الذى يعرض الباحث للاضطهاد. هنا يرى هذا العضو وجوب كفالة حرية الباحث تماما، وأن رأى أن هذا الكلام لا يعدو المستوى النظرى فى غيبة تنظيم سياسى فعال ورقابة شعبية حقيقية واعية على الأجهزة البيروقراطية.

ويلاحظ، فى ضوء ما سبق، أنه بالإضافة إلى ما أثير حول موضوع الأيديولوجية، أثيرت أيضا موضوعات الاشتراكية العلمية وحرية الباحث الاجتماعى والتزامه وحصانته وموضوعية البحث العلمى. وقد نوقشت كل هذه الموضوعات فى إسهاب. وأدلى كل عضو من الأعضاء الأخرين بدلوه. وقد ذكر أن الأيديولوجية المصرية تقدمية، فنحن نعمل فى المجال الاشتراكى لتحقيق مزيد من العدالة الاجتماعية. وأن الاشتراكية المصرية هى اشتراكية علمية لأنها فى الواقع الاشتراكية المؤمنة بالعلم. ونحن فى ضوء الواقع

المصرى ننشر الاشتراكية المعتدلة. ومن حق الدولة على المركز كمؤسسة من مؤسساتها التى تمولها وتشرف عليها أن تفرض عليها أيديولوجيتها. مع الأخذ فى الاعتبار أن المجتمع المصرى المعاصر فى فترة انتقال. وأن ما تقوم به الدولة فى هذا الشأن فى ظروفنا الحاضرة يعتبر أمرا مرحليا. ونحن كباحثين اجتماعيين يجب أن نكون ملتزمين لأننا نعمل فى ظل أيديولوجية المجتمع القائمة. أى أن الإطار الأيديولوجى يربطنا كما يربط المجتمع. وبالنسبة لحرية الباحث الاجتماعى وحصانته فأن الدستور والقانون يكفلان هذه الحرية وهذه الحصانة. وعن موضوع حرية الباحث الاجتماعى قيل أيضا أنه لا توجد حرية مطلقة. فإذا كان الباحث الاجتماعى قادرا على انتقاء أدوات البحث الذى يجريه، فإن آداب مهنة البحث العلمى الاجتماعى فى مجتمع معين قد تحول بينه وبين إجراء تجارب معينة على البشر.

ولعل القارئ أن يلاحظ أن ما وجد بين الأعضاء لم يكن مجرد خلاف عادى حول موضوع الأيديولوجية بل كان صراعا. ولعل ذلك أن يرجع إلى عدم وضوح الرؤية أمامهم. ولعل ذلك أن يرجع، كما قال أحدهم، إلى أنه ليس هناك ما يمكن أن نسميه فلسفة اجتماعية واضحة محددة المعالم. ذلك أن ارتباط العلوم الاجتماعية بأيديولوجية معينة أو بفلسفة اجتماعية معينة أمر ضرورى. ولا يعيب هذه العلوم ذلك. فالعلم، كل علم، يجب أن يكون بالضرورة للمجتمع. والمجتمعات متباينة، وأيديولوجياتها أو فلسفاتها الاجتماعة السائدة فيها متباينة كذلك. والعلوم، ومنها العلوم الاجتماعية تهتم بالتعرف موضوعيا على ما هو كائن فى المجتمع لكى يتم تغييره إلى ما يجب أن يكون. ويكون التغيير إلى ما يجب أن يكون فى المجتمع الاشتراكى، مثلا، بالضرورة، فى سبيل مصلحة الملايين. وفى المجتمع الرأسمالى يكون التغيير إلى ما يجب أن يكون، بالضرورة، فى سبيل مصلحة حفنة من أعضاء المجتمع أو حكومة تحكم باسم هذه الحفنة.

وعدم وجود أيديولوجية أو ما يمكن أن نسميه فلسفة اجتماعية واضحة محددة المعالم لا ييسر وجود سياسة اجتماعية واضحة المعالم والأهداف فى المجتمع. وإذا لم تكن السياسية الاجتماعية المبنية على أيديولوجية أو فلسفة اجتماعية واضحة محددة المعالم موجودة فكيف توجد

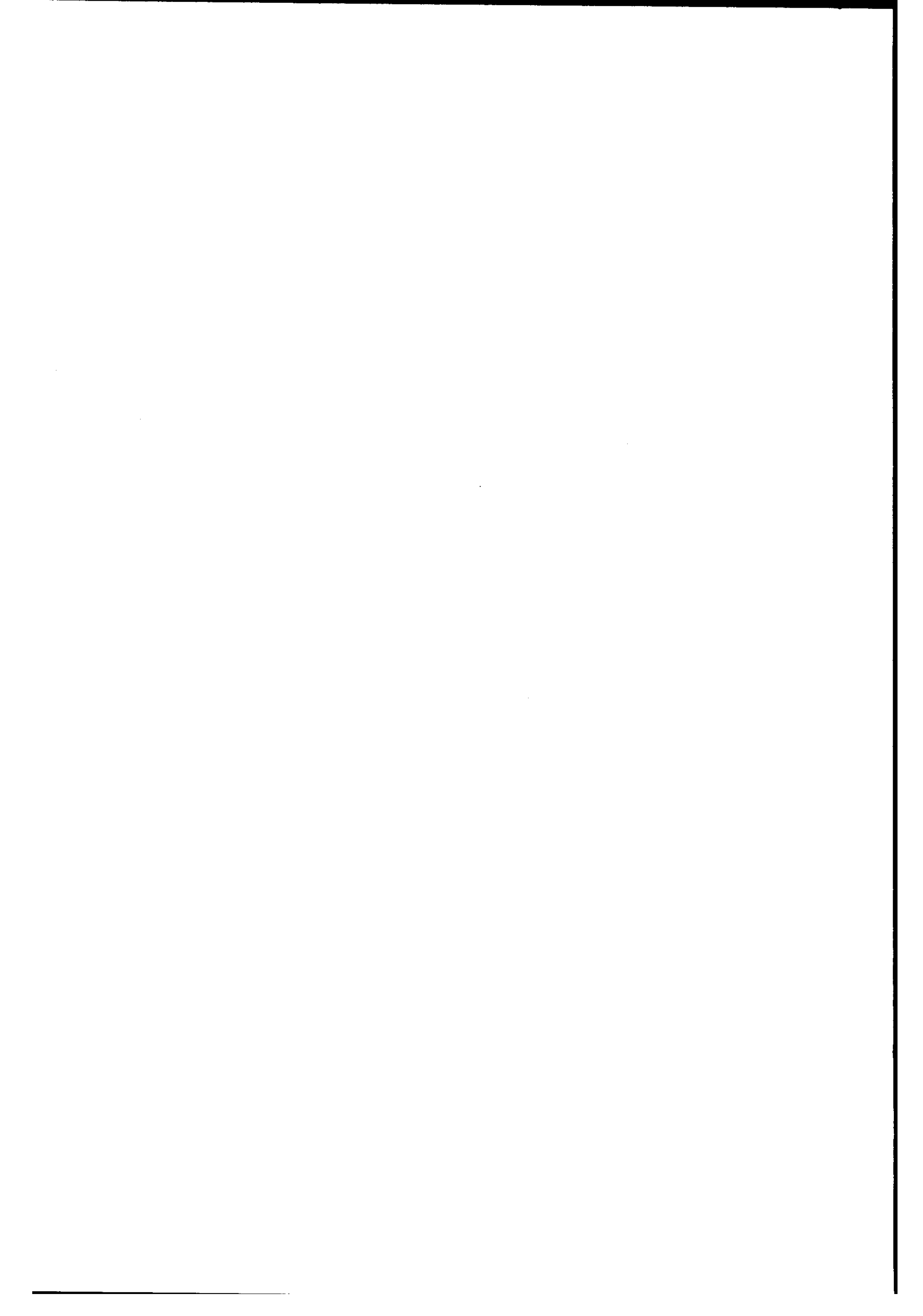
سياسة علمية للمجتمع المصرى واضحة المعالم والأهداف ؟ وإذا لم توجد هذه السياسة الأخيرة فكيف يهتدى أعضاء المركز أو إدارته أو هما معا إلى وضع سياسة علمية للمركز ؟ وبدون سياسة علمية للمركز كمعقل للبحث العلمى فى ميادين العلوم الاجتماعية ومجالاتها ستستمر معظم الجهود فى نطاق البحوث والدراسات فيه، تدور فى حلقة الموضوعات التقليدية المرتبطة أما باهتمامات أكاديمية بحتة أو بمشاكل اجتماعية جانبية أو جزئية. وستستمر قائمة الموضوعات الهامة لا تتطرق إليها جهود المشتغلين بالبحث العلمى فى ميادين العلوم الاجتماعية ومجالاتها، فى المركز أو فى خارج المركز. ومن الموضوعات نذكر على سبيل المثال لا الحصر "ملامح التركيب الطبقى للمجتمع المصرى" و"أوضاع الفلاحين والعمال، وبخاصة أوضاع عمال التراحيل، أو العمال الموسمين، والحرفيين". و"دراسات تقويمية عن عائد الخدمات العامة فى مصر.. الصحة والتعليم والنقل والعدالة" و"تحديات التنمية الاقتصادية الداخلية - كالأمية والجهاز الإدارى - والخارجية كالعلاقات الاقتصادية الدولية وتآمر الإمبريالية وإسرائيل".... إلخ، وستستمر الجهود التى كرست لدراسة بعض القضايا الاجتماعية تقف عند حدود وصفها دون محاولة تفسيرها فى إطارها التاريخى والاجتماعى. أما البحوث والدراسات التى اهتمت بالتفسير فتستمر فى الكثير من الأحيان أسيرة للتحليلات غير التقدمية كالوضعبة والوظيفية البنائية التى استنفدت قيمتها الأكاديمية حتى فى المجتمعات التى ظهرت فيها، وأصبحت قيمتها غير كبيرة فى تطوير ثقافة مجتمع فى حالة ثورة وفى تقديم فهم سليم لمشكلاته.

ويعنى استمرار هذه الأمور أو غيرها على شاكلتها، كما سبق أن أوضحنا عدم وضوح الرؤية عند الكثير من أعضاء المركز وغيرهم من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية فى مصر. ولعل وضوح الرؤية أن يكون موجودا عند بعضهم، ولكن هؤلاء لا يزالون أقل من القليل فى الوقت الحاضر. والأمل أن يتمسك هؤلاء بهذا الوضوح وأن يتماسكوا حتى يزداد عددهم ويستطيعوا عن وعى، تنقية العلوم الاجتماعية من الشوائب التى تثير البلبلة والحيرة وتنتج العقم فى معظم الأحيان.

ثانيا :

نظرات إلى الحياة الإنسان المصرى المعاصر

* النظرة إلى المجتمع المصرى المعاصر
* النظرة إلى مفهوم الشخصية المصرية
* النظرة إلى قدم المجتمع واستمراره
* النظرة إلى ظاهرة التغير الاجتماعى فى المجتمع المصرى
* النظرة إلى بعض العوامل الثقافية المعوقة للتغيير الاجتماعى



ثانيا – نظرات إلى حياة
الإنسان المصرى المعاصر

٣- النظرة إلى المجتمع المصرى المعاصر

فى ضوء خبراتى المتواضعة. وكلها خبرات ثقافية اجتماعية منتظمة اكتسبتها فى خلال الفترة من عام ١٩٣٨ حتى الآن– سأتحدث فى النظرة الراهنة عن المجتمع المصرى المعاصر. سأتحدث عن بعض ظواهره وعن بعض سماته، وعن بعض جماعاته كيف يعيش أعضاؤها حياتهم، وما آمالهم وآلامهم وأهم أهدافهم فى هذه الحياة ؟

والمجتمع فى بساطة هو جماعة من الناس (رجال ونساء وأطفال) يهدفون متعاونين أحيانا أو وهم فى صراع أحيانا أخرى، إلى تحقيق مصالح جوهرية (حفظ الحياة وحفظ النوع مثلا). ويعيشون فى بيئة جغرافية واحدة بصفة شبه مستمرة، فى ظل مناخ ثقافى اجتماعى معين.

والملاحظ ان المجتمعات الإنسانية مجتمعات شتى. وهى أيضا عديدة. أعرف ذلك، كما أرجو أن يعرف القارئ ذلك أيضا. فهى مجتمعات صغيرة، وهى مجتمعات كبيرة. وهى مجتعات بدائية، وهى مجتمعات قومية، وهى كذلك مجتمعات محلية.

ومن المجتمعات الإنسانية ما يعيش أعضاؤها فى تخلف، ومنها ما يعيش أعضاؤها فى مستوى حضارى متقدم. ومن المجتمعات الإنسانية ما يواجه ظاهرة التغير الاجتماعى السريع وكأنه يعيش فى ثورة اجتماعية عارمة، ومنها ما يكون معدل سرعة التغير الاجتماعى فيه أقل من هذا المستوى.

والملاحظ، أيضا، أن قوام المجتمع.. أى مجتمع.. هو الجماعات لا الأفراد. فالفرد لا يمكن أن يتصور أنه يعيش فى فراغ. فهو يعيش فى جماعة أو فى جماعات. وهذه كلها تعيش فى المجتمع. كل واحد فيها يبدأ

ظهوره فى المجتمع، أول ما يبدأ. فى أسرة عادية أو فى أسرة بديلة، أى فى جماعة. وهذه الأسرة تعيش فى حى فى المدينة، أى فى مجتمع محلى. أو تعيش فى ناحية من نواحى القرية. وهذا الحى أو المجتمع المحلى، يرتبط بغيره من الأحياء أو المجتمعات المحلية فى المدينة. وهذه القرية تتصل بغيرها من القرى. وما المدينة أو القرية ألا جماعات. جماعات ذات مصالح متآلفة أو ذات مصالح متنافرة، أو منظمات اجتماعية مثل المنظمات الدينية والتربوية والاقتصادية. وما المدينة أو القرية إلا جماعات قد تعيش فى طبقات، أو قد تحاول ألا تعيش فى طبقات. وما المدينة أو القرية إلا جماعات يظلل أعضاءها مناخ ثقافى اجتماعى معين. مناخ قوامه العقائد والقيم الاجتماعية والعادات والتقاليد والمثل العليا. وما المجتمع إلا مجموعة كل ذلك. جماعات تعيش فى مجتمعات محلية حياة جماعية، أى يعمل أعضاؤها فى جماعة. ويتعاونون ويتصارعون، ويظللهم مناخ ثقافى اجتماعى معين.

والملاحظ كذلك أن المجتمع المصرى مجتمع قديم. فعمره المكتوب هو نحو سبعة آلاف سنة. أما عمره غير المكتوب فلم يستطع إنسان حتى الآن أن يعرف بالضبط له عددا. وقد بنى هذا المجتمع فى خلال عمره الطويل حضارات عديدة أصيلة منها، دونما تفاخر أو تعال، أول حضارة إنسانية على وجه الأرض.

وقد عاش المجتمع المصرى القديم واستمر حتى الآن على الرغم من العاديات ومن الظلم ومن الألوان القائمة من البؤس التى قاساها، على هدى ما قام به باستمرار من الأخذ والعطاء، والجمع بين القديم والجديد. فالجديد فى مجتمعنا لم يكن دائما لينسخ القديم. وإنما كان التوفيق بين القديم والجديد وأن تسبب فى جعل بعض نظمه الاجتماعية فى جملتها معقدة غاية التعقيد، هو القاعدة فى هذا المجتمع العريق.

ولأن المجتمع المصرى مجتمع قديم ومجتمع مستمر، فأن محاولة فهمه أمر ضرورى. ذلك لأننا إذا فهمنا ما هو كائن أمكن ان نخطط لما يجب أن يكون أو ما يمكن أن يكون. ومع ذلك فأن محاولة فهم مجتمعنا أمر غير يسير. ولكنه أمر يمكن أن يتحقق. ولا يمكن تحقيق هذا الفهم إلا فى ضوء العلم. ولا يمكن أن نخطط لما يجب أن يكون أو يمكن أن يكون إلا فى

ضوء العلم كذلك. ولكى نفهم مجتمعنا، فى ضوء العلم، يجب أن ندرسه. ندرس بناءه وظواهره، ندرس قيمه ومثله العليا، ندرس عناصره الثقافية المعوقة، كما ندرس اتجاهات أعضاءه.. إلخ.

وفى ضوء كل ما سبق أرجو أن يتوقع القارئ أن تتضمن هذه النظرة فى حدود قدراتى وخبراتى، كل ما هو موضوعى وجاد، على أن يأخذ فى الاعتبار أن هذه القدرات هى قدرات شخص ذى تخصص محدود، وأن هذه الخبرات لا تقول كل شئ. لأنها لا تستطيع إلا أن تقول بعض الأشياء. فهى خبرات تتضمن بعض الانطباعات وبعض الحقائق وبعض الآراء.

واقصد بالانطباع مجرد الصورة الذهنية لبعض الأشياء سواء كانت أشياء مادية أو علاقات إنسانية أو أنماطا من السلوك البشرى. ويلاحظ قولى "بعض الأشياء" وعدم قولى "كل الأشياء" لأن هناك بالضرورة عملية اختيار. فأنا اختار من بين ملايين الأشياء التى أواجهها أشياء دون أشياء، والقارىء يفعل ذلك، وكل إنسان يفعل ذلك أيضا. وتتحكم فى عملية الاختيار هذه أمور عديدة. منها انتماء الشخص إلى طبقة معينة، ومنها الخبرة التى اكتسبها الشخص أى شخص، فكل شخص منا لديه خبرة ما، وهى خبرة غير ثابتة، بل هى فى تطور مستمر. وهذه الخبرة تبلور عادة موضوعات اهتماماتنا.

وإذا كان الانطباع مجرد صورة ذهنية لشئ مادى معين، أو لعلاقة إنسانية معينة، أو لنمط من أنماط السلوك البشرى - فإنه يلاحظ أنه ليس بالضرورة أن تكون هذه الصورة الذهنية موضوعية. فإذا كانت موضوعية فلا تكون العملية التى حدثت هى الوصول إلى انطباع، ولكن الوصول إلى حقيقة (Fact). فالحقيقة هى، فى بساطة الصورة الموضوعية للأشياء، سواء كانت أشياء مادية (ظواهر مادية) او علاقات اجتماعية أو أنماطا من أنماط السلوك البشرى (ظواهر إنسانية). فالصورة الموضوعية لشئ ما تعنى صورته الواقعية. أى أن مصدر الحقائق، كل الحقائق، يجب أن يكون الواقع المادى والواقع الإنسانى. ولابد أن القارىء قد لاحظ قولى "كل" و"يجب"، لأن بعض الحقائق لا يأتى من الواقع المادى أو من الواقع الإنسانى. ولعل القارىء أن يعرف الكثير من هذه الحقائق. وهى رغم خطورتها وخطرها لا

يمكن ان ترقى إلى الحقائق بالمعنى العلمى لهذا المفهوم، أقصد الحقائق العلمية (Scientific Facts). ويلاحظ أن الوصول إلى الحقائق العلمية ليس أمرا سهلا. ولكنه مع ذلك فى ضوء مستوى التراث الثقافى الإنسانى المعاصر، يكون فى متناول البشر.

وكل الحقائق العلمية عبارة عن ذاتيات متداخلة وديناميـة. وهى فى تغير مستمر. ويلاحظ أن درجة هذا التغير ليست متعادلة. فالتغير قد يكون سريعا فى بعض الأحيان، وقد يكون فى بعض الأحيان الأخرى بطيئا. وليس كل الحقائق العلمية حول سلوك الإنسان بالضرورة أن تكون حقائق اجتماعية. فالقول بأن لون شعر رأس ٣٠ ٪ من السكان من نوع معين هو مجرد حقيقة عن عدد كبير من الناس. ويقال نفس الشئ إذا ذكرنا انه توجد نسبة صغيرة من السكان من العنصريين المتطرفين. وتكون الحقيقة العلمية حقيقة اجتماعية على حد قول العالم الاجتماعى "اميل دور كايم" إذا كانت موجودة خارج عضو المجتمع وكانت تفرض عليه الزاما معينا، وأن كنت أفضل أن نقول إذا كان عضو المجتمع قد تمثل هذه الحقيقة ومن ثم تفوض عليه الزاما معينا.

وهنا أرجو أن يلاحظ القارىء أمرا هاما، هو : أن الحقيقة العلمية غير الحق. لأن هذا الحق هدف. وهو فى الواقع أسمى هدف يحاول الإنسان الوصول إليه. ونرى الإنسان يشقى فى سبيل ذلك كثيرا. ومع ذلك فأننا نراه لا يسعد عند الوصول إليه دائما. والشواهد الدالة على ذلك كثيرة، فى ضوء الوقائع التاريخية، فى الماضى، وحتى فى وقتنا الحاضر، أقصد ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين. ولعل ذلك يرجع إلى ان المجتمع الإنسانى لم يصل إلى مستوى النضج الاجتماعى المرجو. والناس فى هذا الموضوع، أى موضوع النضج الاجتماعى للمجتمع الإنسانى مذاهب. وهم يختلفون اختلافا كبيرا. فمنهم من لا يرى وصول المجتمع الإنسانى إلى مستوى النضج الاجتماعى المرجو أبدا. ومنهم من يرى ذلك حتما. وهو فى رأيى لابد واصل إلى هذا المستوى الذى يكفل لأعضائه ما يمكن ان نطلق عليه مفهوم "السعادة". وذلك عندما يشترك هؤلاء الأعضاء عن وعى فى السير إلى الأمام فى سباق مع الزمن لتحقيق العمل الإنشائى السلمى، ولتحقيق

الأهداف الإنسانية السامية. وعندما يرغبون فى النضال من أجل بلوغ هذا كله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

والحقائق العلمية، وحدها، توصلنا إلى الحق. وحقيقة واحدة عاجزة عن تحقيق هذا الهدف. ولكن لابد من مجموعة حقائق. ومع ذلك فليست كل مجموعة حقائ عملية موصلة الى الحق. فالحقائق العلمية يجب أن تكون منسقة بأسلوب منطقى معين حتى تساعدنا على الوصول الى الحق المنشود. فحقائق ظاهرة مادية معينة أو ظاهرة انسانية معينة، من غير هذا الأسلوب، لا تعنى شيئا. واقصد بهذا الأسلوب المنطقى الأسلوب الذى يطلق عليه المنهج العلمى.

والمقصود بالحق هنا، الحق العلمى (scientific rruth). ويتضمن هذا الحق العلمى بالضرورة القانون العلمى أى القانون الذى يحكم ظاهرة معينة أو عدة ظواهر معينة، سواء كانت هذه الظاهرة أو الظواهر مادية أو انسانية. والقانون العلمى هو أحد الأهداف الانسانية العصرية. يستطيع الانسان فى ضوئه أن يفسر الواهر التي يحكمها، كل الظواهر، انسانية كانت أو مادية. وفى ضوئه أيضا يستطيع الانسان أن يسيطر على هذه الظواهر. أى يوجهها لما فيه الخير أو عما فيه الشر. أى يوجهها من أجل عمليات التغيير الى الأفضل، التغيير أو التغيير الاجتماعى على السواء.

ولعل القارىء أن يكون له رأى آراء فى كل الذى كتبته قبل ذلك. ويحق لكل قارىء أن يكون له رأى فى كل الذى كتبته قبل ذلك، وفى كل الذى سأكتبه بعد ذلك فإذا اقتنع القارىء، مثلا، بما أكتب فإن مجرد اقتناعه يعتبر تعبيرا عن رأية. وحتى اذا خالفت آراء القارىء ما أكتب فهو يعبر عن طريق هذه المخالفة عن رأية. وتعنى الآراء فى الواقع القيام بعملية التفسير، تفسير كل شيء، ماديا كان أو غير مادى. واختلاف الآراء يعنى الاختلاف فى هذا التفسير. ويرجع الاختلاف الأخير الى اختلاف الطبقة التى ينتمى اليها كل شخص يحاول هذا التفسير، وإلى اختلاف خبراته. وخبرات الأشخاص غير ثابتة، بل فى تطور مستمر. والخبرات المنتظمة تعين على التفسير الأصح. والمقصود بالخبرات المنتظمة الخبرات التى تكون فى ضوء القوانيين العلمية، والنظريات العلمية، والخبرات الواقعية، أو ما يطلق عليها

أحيانا الخبرات التجريبية (Emrerical). وأسمى أنواع الخبرات المنتظمة هى التى تكون فى ضوء القوانيين العلمية. ومع ذلك فقد نجد أشخاصا يفسرون الأمور فى ضوء أية خبرة. وكثيرا ما يحدث هذا مع ما يتضمن من خطورة فى بعض الأحيان. ولكن العبرة، أخيرا وآخرا، فى أن يكون التفسير صحيحا. أى فى التأكد من صحة نتائجه وتحقيقها عمليا، والاستفادة من هذا التحقيق العلمى من أجل سعادة الإنسان. والأدهى من كل هؤلاء من يتخذون المنهج العلمى الحديث شعارا أو يتشدقون به ولا يعملون على هديه أبدا. بل على العكس تراهم يعوقون سيره إلى الإمام بحجة ضرورة الحاجة إلى بحوث ودراسات علمية تطبيقية. وإذ لا أوافق على ذلك فى ضوء ظروف مجتمعنا الاقتصادية والثقافية الاجتماعية والسياسية، فأننى أرجو والح فى الرجاء أن يهتم المسئولون فى شخص الدولة والمسئولون المنفذون على كل مستويات السلطة والسلطان بنتائج البحوث والدراسات العلمية الأساسية - فنحن فى سباق مع الزمن والعالم العصرى يسير قدما بخطى سرعه نحو التسلط على الطبيعة والمجتمعات الإنسانية عن طريق العلم الحديث والتكنولوجيا الحديثة التى لا نعرف عنها بسبب الظروف المشار إليها إلا القليل.

وأرجو أن يلاحظ القارىء الكريم معى أن الإنسان المصرى فى مجتمعنا المعاصر يختلف عن غيره من بنى البشر فى المجتمعات البشرية الأخرى. فهو ليس فقط كل من يولد فى مصر ويعيش ويترعرع تحت سمائها، ويكون آباؤه واجداده قد ولدوا فى مصر وعاشوا وترعرعوا تحت سمائها أو دفنوا تحت أرضها - بل هو أيضا كل من يتغذى على عناصر تراثها الثقافى الاجتماعى ويستوعب هذه العناصر ويهضمها ويتمثلها سواء فعل ذلك بقصد أو بغير قصد، أو تم له ذلك بوعى أو بغير وعى.

والإنسان المصرى فى هذا الضوء قد يكون ذكرا، وقد يكون انثى، كما بالضرورة شابا أو بالغا أو من المسنين. أى أن مفهوم الإنسان المصرى عندى هو اسم جنس يعنى كل هؤلاء حسب اختلاف مكاناتهم الاجتماعية وحسب تباين مستويات ثقافاتهم، أى سواء كانوا من أهل الريف أو من

العمال أو أعضاء من فئة أخرى من فئات القوى العاملة فى مجتمعنا المصرى المعاصر.

ولكى نعرف شيئا أو أشياء عن الإنسان المصرى المعاصر معرفة موضوعية، يقتضى ذلك أن نعرف موضوعيا شيئا أو أشياء عن شخصيته، أى عن عواملها التكوينية وعواملها النفسية والعقلية وعواملها الثقافية الاجتماعية. ولن يستطيع شخص واحد مثلى أن يفعل ذلك. فأنا أكرر وليعذرنى القارئ أننى شخص ذو تخصص محدود. وإذا كانت اهتماماتى الماضية وحتى الآن تحاول ان تعرف شيئا أو أشياء عن الإنسان المصرى المعاصر فإن كل ما عرفته لم يكن إلا أقل القليل. وأنا فى هذا لا اتواضع أو أحاول أن أفعل ذلك. ولكننى أذكر الحقيقة عارية. ذلك أن مفهوم "شخصية الإنسان المصرى المعاصر" يعنى مجموع السمات المشتركة الموجودة فى شخصيات الملايين من المصريين أصحاب الشخصيات أى الملايين من المصريين من غير الأطفال. فالأطفال فى المجتمع المصرى وفى غيره من المجتمعات الإنسانية. مجرد أفراد وشخصياتهم لم تتكون أو هى فى سبيلها إلى التكوين. وأنه لكى نعرفها موضوعيا، أقصد شخصية الإنسان المصرى المعاصر، لابد من تجنيد العديد من علماء الطب والطب النفسى والاجتماع والنفس الاجتماعى والأنثروبولوجيا وغيرهم وغيرهم لكى يقوموا على مر السنين بل على مر الأجيال بإجراء البحوث والدراسات العلمية العديدة عن هذه الشخصية.

ويكفى لكى أدلل على جدية هذه القضية أن أذكر هنا أمرا واحدا هو أن شخصية الإنسان المصرى المعاصر هى نتاج المجتمع المصرى منذ ان أصبح لهذا المجتمع وجود. أى منذ الماضى السحيق. وقد ذكرت من قبل أن هذا المجتمع هو مجتمع قديم ومستمر وبنى حضارات عديدة، منها دونما تفاخر أو تعال، أول حضارة إنسانية على وجه الأرض. وفى ضوء حقائق التاريخ نتبين أن المصريين قد غيروا الكثير من العناصر المادية وغير المادية. فقد جدد الزارع المصرى فى الحقل ادواته فى الزراعة والرى ونوع فيها على مر الزمان وقد جدد أنواع محصولاته فأضاف إليها نباتات جديدة من وقت لأخر. وقد جدد أنواع الحيوان المستأنس وأضاف إليها ما لم يكن

معروفا من قبل. وقد غير المصريون لغتهم التى يتكلمون ويكتبون بها أكثر من مرة فى خلال تاريخهم الطويل، واستبدلوا بدينهم دينا آخر مرتين أو أكثر وقد عاش المجتمع المصرى القدم واستمر حتى الآن، على الرغم من العاديات ومن الظلم ومن الألوان القاتمة من البؤس التى قاساها، محتفظا بروحه العالية، ومحتفظا بتماسكه وحيويته على الرغم مما ذكر فى (سفرحزقيال - إصحاح ٣٠: آية رقم ١٢ وآية رقم ١٣). ونجد أبناءه يحاولون، الآن صنع حياتهم من جديد، أى يغيرون من أنفسهم من جديد إلى ما يجب أن يكونوا عليه أو ما يمكن أن يكونوا عليه.

٤- النظرة إلى مفهوم الشخصية المصرية

كثر الحديث عن "الشخصية المصرية" منذ أن تفجرت ثورة عام ١٩٥٢ وازداد الحديث عن هذا المفهوم بعد عام ١٩٦٧، عام الهزيمة، واستمر هذا الحديث فى أثناء حرب أكتوبر المجيدة وحتى الآن. ومن الغريب أن كل من تعرض للحديث عن "الشخصية المصرية" لم يذكر أبدا ما المقصود بهذا المفهوم ؟ كان المتحدثون يتحدثون عن "الشخصية المصرية" أحيانا. وكانوا يتحدثون عن "الشخصية العربية" أحيانا أخرى. ولم يكلف واحد منهم نفسه فقام بشرح معنى هذا المفهوم ووضع النقاط على الحروف حتى تتضح الرؤية لمن يقرؤه أو يستمع له أو يسمعه. انهم لم يتهموا بهذا الشرح أبدا. ومع ذلك فقد اهتموا بتشريح هذا المفهوم الغامض. هكذا قالوا ولا يزالون يقولون.

ذكروا الكثير عن سلبيات "الشخصية المصرية"، كما ذكروا الكثير عن إيجابيات هذه الشخصية. قالوا مرة أن "الشخصية المصرية" اختل تكاملها الداخلى !، وقالو مرة أخرى أن "الشخصية المصرية" بدأت تصحو من سباتها الطويل. ودعوا عند معالجة هذا الموضوع، موضوع "الشخصية المصرية"، أن تكون النظرة "نظرة علمية متوازنة". ولم يكتفوا بالتحدث عن "الشخصية المصرية" أو بالتحدث عن "الشخصية العربية" ولكنهم ألفوا الكتب عن ذلك. وغالوا حتى انه قد جازف كاتبان فنشر أحدهما كتابا عن "ملامح الشخصية

المصرية فى العصر المسيحى"، وآخر عن "الشخصية العربية بين المفهوم الإسرائيلى والمفهوم العربى".

والملاحظ أن مفهوم "الشخصية" (Personality) كمعظم المفهومات الإنسانية له معان عديدة. له معان غير علمية، وله أيضا معان علمية. فمن المعانى الأولى نجد عند قدماء المصريين أن العناصر التى تكون الشخصية الإنسانية كانت عديدة. فهى فى مرة تتكون من ثلاثى يجمع فى وحدة كلا من "الكا" الذى يرى فيه البعض صورة غير مادية للجسم "صنو أو قرين"، و"الخو" أى الروح، و"لغات" أى الجسم. وهى تتكون فى مرة أخرى من ثلاثى آخر يجمع "الخايبت" أى الظل، مع "البا" أى الروح، و"السعحو" أى المومياء "الجثة المحنطة".

أما القلب الجسدى فقد كان يسمى "الحاتى"، وكان يفترض فيه أن يكون مقر الذكاء. أما روحه فيسمى "الآب". ويعنى الإرادة والشهوات. وكان ومن "الشرارة الحية" أو القوة المتحكمة يسمى "سخمم"، وكان الرمز "ران" يعبر عن الاسم الشخصى. ونجد فى التعبيرات "الشخصية الترابية والشخصية الهوائية والشخصية المائية والشخصية النارية" مصطلحات غير علمية تنتشر فى المناخ الثقافى المصرى. ومن المعانى غير العلمية للشخصية ما نلاحظ عند ممارسة السحر أو ما يشبه السحر. فالأسم الشخص فى الوقت الحاضر ومنذ الأزمان الماضية "الران"،، يطابق الروح، ومن ثم تكفل خدمات الروح عندما ينطق بالاسم. فالروح هى الاسم والاسم هو الروح. فإذا رغب الساحر فىالقيام بعمل ضد شخص ما، فأنه يستخدم أسمه وهو ينطق بتعويذاته السحرية الفعالة. ويتأثر الموتى كذلك كلما ذكرت أسماؤهم عند المتضرع لهم أو عند الشكوى إليهم والطلب منهم! وتطرد كذلك الأرواح الشريرة الذين يعرفون اسماءها. ونجدأن شارب القهوة يمكن إذا "فتح له الفنجان" التعرف على شخصيته لأنه ترك فى هذا الفنجان "نفسه"، وحتى "الأثر وهو ما يملكه الشخص من ملابس أو أدوات شخصية مستعملة يستخدمها الساحر أو يستخدم بعضها للتعرف على شخصية صاحب الأثر !

أما المعانى العلمية للشخصية فهى عديدة كذلك. فمنها المعنى النفسىأو الاجتماعى أو الثقافى. وترى النظرة العلمية لهذا المفهوم أنه يتصل

اتصالا وثيقا بأعضاء المجتمع، أى مجتمع. فكل عضو من الأعضاء هو فردله شخصية وقد يستثنى هؤلاء كما ذكرت من قبل - الأطفال فهم أفراد لم تتكون شخصياتهم بعد. والملاحظ أيضا أن مفهوم "الشخصية" يعنى ببساطة "جملة العناصر غير البيئية التى توجد فى سلوك الفرد". أى أن السلوك هو وظيفة تفاعل الشخصية مع البيئة. أى أن الأفراد يسلكون سلوكا مختلفا فى مجال ما قد يبدو موضوعيا أنه نفس البيئة. وإذا كان أطفال المجتمع أفرادا لم تتكون شخصياتهم بعد، فأن شخصية كل شخص تزداد نموا كلما نما جسميا ونضج عقليا وعاطفيا، وكلما نمت خبراته الاجتماعية، أى كلما ازدادت علاقاته الاجتماعية، واتسعت مجالاتها، أى كلما تعددت أدواره الاجتماعية التى يؤديها للمجتمع الذى يعيش فيه. ويعتمد تعدد الأدوار الاجتماعية على النمو الجسمى. والنضج العقلى والعاطفى، والعكس صحيح. وكلما ازداد تعدد الأدوار الاجتماعية عند شخص زادت مكانته الاجتماعية. وتقل مكانة الشخص الاجتماعية كلما قلت أدواره الاجتماعية التى يؤديها للمجتمع الذى يعيش فيه. وترجع قلة الأدوار عند شخص ما إلى عوامل عدة. منها المرض الجسمى أو النفسى أو العقلى، ومنها الشيخوخة والفشل الاجتماعى. ويلاحظ أن كل شخص فريد فى نوعه. فلا يوجدشخصان لهما نفس السمات، أقصد نفس السمات الشخصية. والأشخاص كالحيوان وكالنبات. وحتى كالجماد، مختلفون ومتباينون. والحيوانات كذلك. وأنواع النباتات كذلك، وحتى الذرات. نجد كل أولئك على اختلاف وعلى تباين. وأن وجد مع هذا الاختلاف والتباين فى محيط الإنسان والحيوان والنبات والجماد، تشابه، أى سمات متشابهة.

وفى ضوء ما سبق يلاحظ أن مفهوم "الشخصية" قد يعنى مجموع الأدوار التى تعد أجهزة التنشئة الاجتماعية فى المجتمع الفرد لها لكى يقوم بأدائها كما يتوقعها منه المجتمع الذى ولد فيهاويعيش. وقد يعنى هذا المفهوم المحددات التكوينية والاجتماعية الثقافية والنفسية العقلية لعضو المجتمع، وهذه المحددات تكون، فضلا عن تعددها، بالضرورة، دينامية. والاختلاف والتباين فى محيط الشخصيات الإنسانية يرجعان حتما إلى اختلاف وتباين الجهاز البيولوجى لكل فردواختلاف البيئة وتباينها التى يعيش فيها هذا الفرد وهو مزود بهذا الجهاز. والتشابه فى محيط الشخصيات الإنسانية يعزى

بالضرورة إلى العناصر المتناسقة البيولوجية والبيئية،فالكائن الحى يتحرك فى مجال يكون عادة محدودا بكل من الثقافة وبالظروف الاجتماعية والمادية التى يعيش فيها بحدود متناسقة نسبيا ولكنها عرضة لتغييرات لا حصر لها، ضمن نطاق الشكل العام، تنشأ من رد الفعل لخصائص المحددات التكوينية للكائن الحى ومن حدوث مواقف خاصة.

وإذ أرى أن مفهوم "الشخصية" هو مفهوم يختص بأعضاء المجتمع، كل أعضاء المجتمع حتى الأطفال الذين تكون شخصياتهم عادة فى دور التكوين، فإن مفهوم "الطابع القومى (National charcter) "قد يهتم عادة بمجتمع من المجتمعات وليس بعضو من الأعضاء أو بفرد من الأفراد أى أن مفهوم "الشخصية" يختلف عن مفهوم "الطابع القومى". والملاحظ أن المفهوم الأخير يعنى ببساطة "محاولة عزل الدوافع المشتركة بين أعضاء أحد المجتمعات الذين يشتركون فى نفس العادات أو فى نفس الثقافة، ووصف هذه الدوافع". والملاحظ أننا نلاحظ أن مفهوم"الطابع القومى" هو مفهوم الثروبولوجى. وأننا نجد أنه يستخدم فى بعض الأحيان استخداما فضفاضا لكى يعنى أن يكون مردافا لكل أنماط السلوك الثقافى المتعلم. ويعنى تطبيق هذا المعنى أن ارتباط "الطابع" بالثقافة هو بصورة عامة ارتباط بذاته. ومن الواضح أن مفهوما بهذا المعنى الشامل لن يسمح بجمع حقائق ميدانية دقيقة.

ويلاحظ أيضا وجود مفهوم آخر ظهر فى عام ١٩٣٩ هو مفهوم "نمط الشخصية الأساسية (Basic personality Type) "ويمكن أن نشرح معنى هذا المفهوم بوضوح إذا قلنا "حيثما توجد جماعة من الناس يعيشون فى نفس المكان ويكونون قد نشئوا تنشئة اجتماعية بنفس الطريقة، فأنهم يظهرون وننفس نمط الشخصية عندما يكبرون. وعندئذ يمكن أن نتحدث عن نمط الشخصية الأساسية فى هذه الثقافة".

والاهتمام بمفهوم "الطابع القومى" عند علماء الانثروبولوجيا الثقافية يرجع إلى أنهم قد تأثروا باهتمام علم النفس الدينامى بمرحلة تجارب الطفولة المبكرة وعمليات التنشئة الاجتماعية فى تحديد بناء الشخصية الإنسانية. وهم يفترضون أن أساليب تربية الأطفال تميل إلى أن تكون متشابهة فى محيط

الأعضاء فى مجتمع معين. ومن ثم فهى تنتج سمات سلوكية ثابتة نسبيا ويمكن التنبؤ بها عندما يصبحون أعضاء بالغين فى هذا المجتمع.

ومهما يكن من الأمر فأن محاولات التعرف على الأمم الأخرى عن طريق الآراء المبنية على القوالب المتجمدة(Stereotyped Views) ، كلها محاولات قديمة ومستمرة حتى الآن. والملاحظ أن المهتمين الأوائل بهذا الموضوع كانوا من علماء السياسة. أى أن علماء السياسة بدأوا إبراز هذا الموضوع، ثم تبعهم الانثروبولوجيون الثقافيون الذين طوروا مفاهيمه. وقد أدلى علماء النفس بدلوهم فى هذا الميدان. ومع ذلك فأننى ألاحظ أنه إذا كانت العلاقة المتبادلة لكل من الشخصية الإنسانية والثقافية والنسق الاجتماعى يتفق عليها الكثير من العلماء الاجتماعيين، فأنهم لا يتبنون مفهوما مثل مفهوم "الطابع القومى". وقد يرجع ذلك إلى عوامل عديدة، منها :

١- أن مفهوم "الأمة (Nation) "مفهوم غامض ولا يعنى بالضرورة أن يطابق معناه مفهوم "المجتمع" أو مفهوم "المنطقة الثقافيةCultural " area)، أو حتى مفهوم "الدولة المستقلة سياسياA politically " autonmous state). وإذا افتراضنا التجانس الثقافى فى محيط المجتمعات البدائية، فأن هذا التجانس لا يمكن تطبيقه على المجتمعات الصناعية، حيث نجد اختلافات عديدة تبعا للأقليم، ومحل الإقامة، واللغة والدين، والمكانة الاجتماعية، والمهنة. ومن ثم لا يمكن افتراض أن يكون مفهوم"الطابع القومى" شكلا جزئيا فالاختلافات فى داخل الأمم قد تكون أعظم من تلك التى بينها.

٢- أنه من الضرورى أن نحدد الفترة التاريخية التى تطبق فى خلالها فكرة "الطابع القومى". ذلك لأنه على الرغم من أن بعض السمات قد تبقى مستمرة نسبيا، فأن هذا لا يعنى انها تتغير بسرعة تحت ظروف معينة مثل نتائج حدوث ثورة اجتماعية أو نتائج حدوث استعمار أجنبى.

٣- أن الدراسات المتعلقة بموضوع "الطابع القومى" تتعرض دائما للنقد الشديد وبخاصة فيما يتعلق بمناهج البحث التى طبقت فيها. وأغلب هذه الدراسات تعنى بالتفسير بغير القيام بدراسات منتظمة ضابطة أو دراسات مفصلة مقارنة.

٤- وبالإضافة إلى ما سبق نلاحظ عدم الاهتمام الكافى بالتمييز بين الأبعاد النفسية للطابع القومى من حيث أنماط "الشخصية المنوالية"Model personality types)، والابعاد الاجتماعية لهذا الطابع من حيث الرموز والنماذج الثقافية. - (cultural symbls and patterns)من جهة - وبين الأبنية التنظيمية المميزة (characteristic Institutional structures) من جهة أخرى(*).

والملاحظ أن تعريف الطابع القومىبأنه مجموع أنماط السلوك الثقافى المتعلم يعتبر، كما سبق القول، تعريفا قاصرا ولا ييسر القيام بإجراء بحوث علمية سليمة. ومما يؤكد هذا القصور ويعززه عدم التمكن من التدليل على وجود سمات الشخصية المناظرة فى محيط السكان موضوع الدراسة.

ومع ذلك فمما لا شك فيه أننا نلاحظ الفرق واضحا جليا بين الروسى وبين الأمريكى وبين كل منهما وبين المصرى. وعلى الرغم من ذلك فمن الخطأ وربما من الخطر أن نقول أنه توجد شخصية روسية أو شخصية أمريكية أو شخصية مصرية. أن مفهوم "الطابع القومى" أو مفهوم "نمط الشخصية الأساسية" لا ثمرة فيه فى الوقت الحاضر. فهو من المفاهيم التى لا توجد عند قائليها أو المستمعين إليها أو سامعيها أية صورة ذهنية واضحة المعالم عنها. أى أنه فى ضوء كل ما سبق مازال مفهوما غامضا. ومع ذلك فنجد أن الداعين إلى مفهوم "الطابع القومى"، أو إلى مفهوم "نمط الشخصية الأساسية"، أو إلى مفهوم "الشخصية المنوالية" يرون أن هذه المفاهيم أو أحدها وبخاصة مفهوم "الطابع القومى" أنه على الرغم من الصعاب التى

(*) يقصد بأنماط الشخصية المنوالية تلك التى تظهر بأكبر قدر من التكرار فى المجتمع.

- والرمز هو الذى لا يكون مجرد شئ شخصى، وإنما لكونه ذا معنى مشترك فهو ينقل هذا المعنى. وقد يكون الرمز مرئيا أو مسموعا مثل الاشارات والعلاقات والشعارات والطقوس والكلمات والموسيقى.. إلخ.
- أما النماذج الثقافية فهى الهيئة التى تكون عليها السمات الثقافية والمركبات الثقافية التى تصنع ثقافة المجتمع فى زمن معين. أى هىلا تهتم بالأفعال المادية لعمل الأشياء بقدر اهتمامها بأساليب عمل الأشياء.
- ويقصد بالأبنية التنظيمية المميزة المعايير المنظمة لسلوك أعضاء المجتمع داخل بقية انساق المجتمع.

تواجهه والضعف فى أدوات البحث الميسورة، والاعتراضات عليه، فأن ذلك يجب ألا يثبط هممنا. ذلك أننا لازلنا نستطيع أن نتقدم بضع خطوات فى دراسة الطابع القومى وتحليله .. وهم يدعون أن فهم هذا الطابع القومى لمجتمعنا وللمجتمعات الأخرى على حقيقتها سوف ييسر الاسهام فى القضاء على أسباب سوء التفاهم وسوء التفسير التى قد تؤدى إلى إشعال الحروب ! ولعل القارئ أن يلاحظ أن نتائج هذا الفهم لا يمكن أن تكون مطلقة، أى لا يمكن أن تكون إيجابية بالمعانى السابقة. ذلك أن أعداء الشعوب وتجار الحروب ومن على شاكلتهم إذا استطاعوا أن يتعرفوا على مفهوم "الشخصية القومية" لشعب من الشعوب لن يستخدموا معرفتهم ألا فى سبيل تحقيق مصالحهم الخاصة التى لن تكون بالضرورة نفس مصالح هذا الشعب. أن أعمال الجاسوسية، والحروب النفسية، والإعلام السيء القصد، كل هذه تحاول استخدام "مضمون" الشخصية القومية لتحقيق المآرب الأنانية على حساب الآخرين. ومع ذلك فأننى أرجو أن يلاحظ القارىء قولى "إذا استطاعوا ان يتعرفوا" وهم فى ضوء غموض المفهوم ومثاليته وعجز استخدام المنهج العلمى السليم فى جمع الحقائق عنه، وغير ذلك مما سبق أن أوضحناه، لن يستطيعوا ذلك.

وفى ضوء ظروف مجتمعنا المصرى المعاصر نلاحظ أن الهدف الاسمى الذى يجب أن نراه ولا نرى غيره فى الوقت الحاضر هو التغيير إلى الأفضل. أى دراسة ما هو كائن لكى نغيره إلى ما يجب أن يكون أو ما يمكن أن يكون فى ضوء قيمنا ومبادئنا ومثلنا العليا، ولعل ذلك أن يتأتى إذا درسنا المناخ الثقافى الاجتماعى أو بعض عناصر هذا المناخ فى محيط فئة معينة من أعضاء مجتمعنا أو فى منطقة ثقافية اجتماعية معينة، وأننى أقصد بالمناخ الثقافى الاجتماعى السمات العامة للاتجاهات الثقافية الاجتماعية الشائعة وخصوصا تلك التى تثبت منها نسبيا. فتبلورت فى عادات اجتماعية مرعية "أعرف مثلا" وتقاليد وقوانين. نحن فى حاجة إلى هذه الدراسة العلمية حتى نستطيع أن نفهم الواقع فهما موضوعيا، ومن ثم نستطيع أن نواجهه أو نوجهه إذا اقتضى الحال ذلك أى ومن ثم نستطيع أن نغيره إلى الأفضل. أن استخدام المفاهيم الغامضة، مهما حسنت النيات، لا يجدى. ومفهوم "الشخصية المصرية" أو مفهوم "الشخصية العربية" فى ضوء العلم مفهومان غامضان

ولا يتركان أى أثر ذهنى واضح عند من يقرأ احدهما أو يستمع لـه أو يسمعه.

والملاحظ أن حرب ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ المجيدة قد اثبتت، ما فى ذلك من شك، أن كل ما كان يقال من أن الأعداء كانوا يعرفون "الشخصية المصرية"، أو "الشخصية العربية" لم يكن على أساس سليم. وقد أتضح أنهم إذا كانوا قد عرفوا عن المجتمع المصرى أشياء فأنهم لم يستطيعوا أن يعرفوا عنه أشياء أكثر. وحتى نحن المصريين المهتمين بدراسة مجتمعنا نلاحظ كل يوم أننا نتعلم أشياء جديدة عن هذا المجتمع القديم قدم الدهر المستمر استمرار الحياة.

ولكى اتجنب الغموض الذى شرحت الكثير من سماته آنفا فأننى اقترح مفهوما جديدا هو "مفهوم الذاتية الثقافية" ولعله من الضرورى أن أقوم بشرح هذا المفهوم كما تبينته فى النظرة الراهنة. وأبادر فأذكر القارىء الكريم بالمفاهيم التى سبق أن شرحتها آنفا. وقد لاحظت أنها وبخاصة مفهوم "الشخصية القومية" أو مفهوم "الطابع القومى" أو حتى مفهوم "الهوية" قد فرضت نفسها فى ضوء الظروف الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية العالمية، على المناخ الثقافى الاجتماعى العلمى المعاصر. فنحن نجد الكثير من المهتمين بشئون المجتمعات النامية خاصة والمجتمعات التى يقال عنها أحيانا "متجتمعات العالم الثالث" لا يهتمون فقط "كما ذكرت من قبل" بشرح أحد هذه المفاهيم حتى يتضح معناه بل يهتمون أيضا بالحفاظ على تثبيت معالم مضمونه كما يرون معنى هذا المضمون.

وقبل أن أبدأ أرى أنه يجب تذكير القارىء بأن "العلم العصرى" اليوم يزيد من طاقة "التكنولوجيا الحديثة" (وسائل وأدوات الإنتاج) ويفتح أمامها وسائل جديدة للأدوار، وأن التكنولوجيا الحديثة. تتيح للعلم تقنيات ووسائل تزيد من قدرته على ارتياد مجالات أفسح وأعمق. وقد أحدثت هذه العلاقة الدينامية تحولا عظيما فى تطور العلم الحديث عامة. ولعل أوضح مثال لحصيلة تلك العلاقة الوثيقة الفتوح العلمية التكنولوجية فى مجالات دراسات الفضاء وعلوم الفلك والذرة والألكترونيات (بنوك المعلومات) مثلا، وكانت نتيجة ذلك أن أصبح العالم الذى نعيش فيه فى الوقت الراهن يتقلص

ويتضاءل يوما بعد يوم وربما لحظة بعد لحظة. أى أننا نعيش اليوم فى عالم صغير ويزداد صغره يوما بعد يوم وربما لحظة بعد لحظة. وأصبحت المعلومات عن هذا العالم تكاد أن تكون متبادلة بين المجتمعات الإنسانية التى تعيش بين جنباته سواء كانت هذه المجتمعات نامية أم مجتمعات متقدمة، وذلك بفضل المواصلات السلكية واللاسلكية وغيرها مما استحدث من فتوحات علمية تكنولوجية كالأقمار الصناعية وغيرها. أى أن مجتمعات هذا العالم على تباين مستويات ثقافاتها قد أصبحت فى الوقت الراهن تكاد أن تكون مجتمعا واحدا من حيث الحاجة الماسة إلى المعلومات عنها حتى تتحقق النظرة الشاملة التى بغيرها لا يستطيع المجتمع المستغل أن يستغل أو المجتمع المستغل أن يتغلب على الاستغلال والقهر. أن الصراع قائم بين المجتمع الذى يعلم (المتقدم) وبين المجتمع الذى لا يعلم (النامى أو الذى فى حكم المجتمع النامى). والملاحظ أن المجتمع الذى يعلم فى مسيس الحاجة، لعوامل عديدة، لا تخفى على القارىء الكريم، ليعرف الكثير عن المجتمع الذى لا يعلم، والعكس صحيح !

ومن حق القارىء الكريم على أن أشرح معنى مفهوم "الذاتية الثقافية" الذى تبنيته فى هذه النظرة. وأبادر فأقول أن هذا المعنى هو نفس معنى مفهوم "الثقافة" السائدة فى مجتمع من المجتمعات الإنسانية. أى أن مفهوم "الذاتية الثقافية المصرية" هو فى حقيقة الأمر أهم السمات الثقافية السائدة فى المجتمع المصرى المعاصر ككل. أى ان مفهوم الذاتية الثقافية لا يمكن أن يعنى مجرد المعلومات التى نجدها فى "جواز سفر" لشخص مصرى، أو مجرد المعلومات التى نجدها فى "بطاقة شخصية" أو "بطاقة عائلية" لشخص مصرى. أنه أى مفهوم الذاتية الثقافية المصرية أكثر من ذلك وأعمق. أنه العقائد السائدة والقيم السائدة والمثل العليا السائدة والعادات والتقاليد السائدة فى المجتمع المصرى المعاصر جميعا، أنه يتضمن أساليب حياة المصريين المعاصرين وأساليب تفكيرهم واتجاهاتهم كذلك.

والملاحظ أن مفهوم "الثقافة" لا يعنى مفهوم "القومية"، وأن مفهوم "القومية" لا يمكن أن يعنى مفهوم "الشخصية القومية" وأن مفهوم "الشخصية القومية" لا يمكن أن يعنى مفهوم "الشخصية (الإنسانية)". وذلك لأن مفهوم

"الشخصية القومية". كما سبق أن ذكرت، مفهوم مشكوك فيه من الناحية العلمية ولا ييسر إجراء بحوث علمية سليمة، وأنه فى ضوء التجارب والخبرات المنتظمة نلاحظ أن استخدام هذا المفهوم لا ثمرة فيه فى الوقت الراهن. وفضلا عن ذلك نجد أن العديد من الكتاب يخطلون بين مفهوم "القومية" ومفهوم "الشخصية القومية" أى بين مفهوم "القومية العربية" "والشخصية العربية" على الرغم من أن حقائق التاريخ تؤكد على أن القومية العربية هى "حركة حديثة بدأت موضوعيا بثورة شبه الجزيرة العربية على الحكم العثمانى فى عام ١٩١٦، وكان من نتائجها قيام "جامعة الدول العربية" فى يوم ٢٢ من شهر مارس عام ١٩٤٥.

وأننى أرجو من القارىء الكريم أن يلاحظ معى ويوافقنى أيضا على أن الداعين المخلصين إلى "القومية العربية" فى ضوء الخبرات يرون أنها مازالت مجرد حركة، وأنه على الرغم من أن مفهوم "القومية" ظهر أول ما ظهر فى أوروبا الغربية، نجد من يتبنى المفهوم الأخير فى إخلاص جدير بالإعجاب. علما بأن العنصرين اللذين تقوم عليهما "القومية العربية" : العنصر المعنوى أو الشعورى والعنصر الموضوعى لم يتوافرا حتى الآن(*) .

وإذ أرى مؤمنا بأن مفهوم "الذاتية الثقافية" يعنى مفهوم "الثقافة" السائدة فى مجتمع من المجتمعات الإنسانية، فإن من حق القارىء على أن يعرف ما المقصود بالتحديد بمفهوم الثقافة السائدة ؟ والمقصود بهذا المفهوم ببساطة كل النماذج السلوكية البشرية التى تكتسب اجتماعيا، والتى تنقل اجتماعيا كذلك إلى أعضاء المجتمع البشرى عن طريق الرموز. ومن ثم فمفهوم الثقافة بمعناه الاجتماعي العلمي يختلف كثيرا عن معناه العام. فهو يتضمن كل ما يمكن أن يعلم عن طريق العلاقات الإنسانية المتداخلة، كما يتضمن اللغة والعادات والتقاليد والإنساق الاجتماعية جميعا. أى أن معناه يشمل أسلوب او أساليب الحياة للناس فى مجتمع من المجتمعات، أو فى

(*) يقصد بالعنصر المعنوى والشعورى هنا السمات الثقافية الواحدة. أما العنصر الموضوعى فيقصد به الاتفاق على الروابط الاقتصادية والسياسية والحرص على تحقيقها.

جماعة من الجماعـات. فالفلاح المصـرى الأمـى، مثـلا، شـخص مثقف فـى عاداته وتقاليده وخبراته. ومن ثم فأنه لا يجب استعمال مفهوم الثقافـة بمعنـاه الاجتماعى العلمى استعمالا محدودا يقتصر معناه على نوع معين مـن الثقافـة كما يستعمل فى اللغـة العامـة أو فـى التـاريخ أو فـى الآداب والفنـون. أى أن جماعـة المثقفيـن فـى المجتمـع أى مجتمـع هـم "الصفـوة" أو مـا يسـمون "بالانتلجنسـيا" أو "العقلانييـن" مـن أعضـاء المجتمـع كـالمفكرين والأدبـاء والفنانين والعلماء والأطباء وغيرهم ممن هم على شاكلتهم فحسب. ذلـك ان مضمون مفهوم الثقافة السائدة فى المجتمع الإنسانى. بمعنـاه العلمـى. يحتـوى على كل ما يعمل فى هذا المجتمع ومن يعمله وكل مـا يقـال فيـه ومـن يقولـه وكل ما يصنع فيه ومن يصنعه، ومتى يحدث هذا العمل أو هذا القول أو هـذه الصناعة وتحت أية ظروف.

٥- النظرة إلى قدم المجتمع المصرى واستمراره

لقد حاولت فى العديد من البحوث والدراسات العلمية التى أجريتها أو أشرفت عليها أن أؤكد قدم المجتمع المصرى واستمراره، أى استمرار الكثـير من سمات عناصره الثقافية وبخاصة فيما يتعلق بعاداته وتقاليده والألفاظ التى يتحدث بها المصريون وغير ذلك.

والملاحظ أن النظرة الحالية قد تناول موضوعهـا الكثـيرون. وانتهـى الأمر إلى أنه ما تجاوز المجتمع المصرى مرحلة الظلام العثمانى إلى مطلـع العصر الحديث فى القرن التاسع عشر، بـدأ المصريـون فـى تلمس تـاريخهم والشعور بقوميتهم. واستمروا يفعلون ذلك حتى وقتنا الراهن.

١- وكان هذا الشعور مـن أكبر علامـات الصحـوة وأن شـابه الصـراع بيـن اتجاهات ثلاثة هى :

- الاتجاه الفرعونى.
- الاتجاه الإسلامى.
- الاتجاه العربى.

٢- وقد ذكر بعضهم محاولا تحديد العلاقة بين القومية والتاريخ :

- ان قوميتنا عربية.
- وتاريخنا مصرى.
- وعقيدتنا إسلامية.

٣- ويرى البعض أنه ليس هناك تناقض بين هذه العناصر الثلاثة. ويرجعون ذلك إلى أن الإنسان المصرى المعاصر هو فى الواقع نتائج الحقائق التاريخية التالية :

أ- أن المجتمع المصرى مجتمع قديم. فقد استمرت الحياة على أرض مصر منذ أقدم الأزمان وعبر حضارات الفيوم ومرمدة (٥٥٠٠ + ٥٠٠ ق.م) وحضارات تاسا والبدارى ثم عصر الأسر الذى بدأ فى عام ٣٤٠٠ ق. م : الدولة القديمة(*) والدولة الوسطى (**) مرورا بالهكسوس وطردهم ثم ظهور الدولة(***) المصرية الحديثة وعصر الإمبراطورية المصرية، ومرورا بغزو الفرس لمصر فى عام ٥٢٥ ق.م وقد ظهرت فى أثنائه فترات متقطعة لأسرات وطنية (أسرات٢٨-٣٠)، ثم غزو الإسكندر الاكبر فى عام ٣٣٢ ق.م ثم حكم البطالمة، ثم غزو الرومان فى عام ٢٠ق.م (أى أن الأسرات الست والعشرين فى تاريخ مصر القديمة من ٣٤٠٠-٥٢٥ ق.م أى ٢٨٧٥ عاما(+). وقد بلغت عصور الاستقرار من الطول بحيث أنها يسرت للحضارة المصرية كلها وحدة معينة.

(*) ٣٤٠٠ - ٢٤٧٥ ق.م.

(**) ٢١٦٠ - ١٧٨٨ ق.م.

(***) ١٥٨٠ - ١٠٩٠ ق.م.

(+) ابسماتيك بن نخاو أسس الأسرة السادسة والعشرين ٦٦٣-٦٠٩ ق.م. بعد أن أعاد نوعا من الوحدة الوطنية وحرر البلاد من ربقة الأشوريين بمساعدة الجنود المرتزقة.

- هذه الأسرة آخر أسرة وطنية عصرها يمتاز بنهضة واضحة استمد نماذجه (فى الدين والفن والنقوش) من العصور الكلاسيكية للدولتين القديمة والوسطى.

ب- في عهد الرومان استمرت الهيمنة الرومانية مدة سبعة قرون بدأت في عام ٣٠ ق.م وانتهت في عام ٦٤٢ ميلادية.

أي أن المدينة اليونانية الرومانية قد عاشت في مصر ما يقرب من ألف عام (٣٣٢ ق.م - ٦٤٢ ميلادية).

جـ- ومنذ الفتح العربي في عام ٦٤٢ ميلادية عاشت مصر في ظل الخلفاء الراشدين ثم في ظل حكم الأمويين والعباسيين، ومرورا بالدولة الطولونية ثم الدولة الاخشيدية والدولة الفاطمية والدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية ثم البرجية حتى قتل "طومان باى" آخر سلاطين دولة المماليك البرجية، وبمقتله دخلت البلاد في عهد جديد، إذا أصبحت مصر تحت السيادة العثمانية في عام ١٥١٧ ميلادية.

د- وعانت مصر في خلال هذه الفترة من ضربات الحروب الصليبية، والمغول، وحكم المماليك فضلا عن الحكم العثماني الوضيع ومصادرات الاتراك وسلبهم ونهبهم، ثم واجه الشعب المصري الاستعمار الغربي منذ أن وصم هذا الاستعمار تركيا وسماها "الرجل المريض". أي منذ القرن الثامن عشر.

هـ- ثم تجرأت فرنسا عندما شن "نابليون" حملته ونزلت جيوشه بالإسكندرية في يوليو عام ١٧٩٨ ميلادية. ولم يهنأ "الفرنسيس" في مصر وعادوا يجرون أذيال الفشل في عام ١٨٠١ ميلادية.. ولم يلبث أن واتت الفرصة للإنجليز فاحتلوا البلاد في عام ١٨٨٢ ميلادية(*) واستمر الأخيرون أكثر من سبعين عاما بعدها استرد

- استمرت هذه النهضة (١٣٨ سنة فقط) لأنها كانت مصطنعة. ولم يكد يظهر قمبيز على أبواب بلوز (أقصى مصب للنيل شرقا) عام ٥٢٥ ق.م حتى سقطت كأنها بيت من الورق (جورج سارتون : "تاريخ العلم"، الجزء الأول، دار المعارف ١٩٧٦، صفحتا ٣٧٨-٣٧٩).
- كانت النزعة الوطنية الشديدة في ذلك الزمان مرتبطة ارتباطا غريبا بالضعف الحربي.

(*) يلاحظ أن التعسف والاستهتار من جانب الخديوي سعيد وحفر قناة السويس على دماء الفلاحين وفتحها كان في عام ١٨٦٩ م. ولعل هذا المناخ الثقافي الاجتماعي السياسي كان من عوامل إشعال الثورة العرابية في عام ١٨٨١ م أي بعد حفر القناة باثنتي عشرة سنة.

الشعب المصرى حقوق سيادته.ولأول مرة منذ عام ٥٢٥ ق.م حتى عام ١٩٥٣ ميلادية، حيث تعدد حكامه من غير المصريين، أصبح الحاكم حاكما مصريا.

و- والملاحظ أنه على الرغم من أن المدنية اليونانية الرومانية قد عاشت فى مصر ما يقرب من الألف عام، وأنه قد حدثت فى خلال هذه الفترة أحداث جسام، فأن الشعب المصرى فى ضوء أصالته الحضارية واجه هذه الأحداث فلم تمس ثقافته إلا قليلا.

ز- وقد تعلم الكثير من المصريين من كل الطبقات اللغة اليونانية وأطلقوا على أطفالهم أسماء يونانية، وقد سادت هذه اللغة على الرغم من محاولة اللغة اللاتينية أن تحل محلها. وقد بدأ المصريون فى عام ٦٤ ميلادية يعتنقون الديانة المسيحية وكان "انيانيوس" المصرى أول أسقف كرسه "مرقس الرسول".

ح- واستطاعت الديانة المسيحية أن تتغلغل فى روح شعب مصر. لأنها عندما دخلت إلى مصر لم تجد شعب مصر أرضا بكرا او صحراء جرداء لأن مصر كانت تعرف "أوزوريس" واستشهاده، ثم بعثه، كما تعرف شقيقته "إيزيس" قبل أن يطرق آذانها صوت البشارة المرقسية عن "الفادى المخلص "وأمه "مريم العذراء".

ط- وكما أخذت مصر فقد أعطت، وما أخذته لم يمس الأصيل الذى عندها فى قليل أو كثير بل بقى الأخير مع غيره عبر الأزمان جنبا إلى جنب. فرغم النير الرومانى مثلا تمكنت مصر من غزو غزاتها فى عقر عقولهم. ومنحت مصر رغم هوانها وضعفها السياسى العالم المتحضر آنذاك نبضه الروحى وعقيدته الدينية فضلا عن طمأنينته النفسية.

ى- وانتشار الديانة المسيحية وتغلغلها فى مصر لم يتما بسهولة وإنما تم ذلك بعد صراع جبار كان له ميدانان :

أولهمـا : الميدان الفكرى وقد قـامت بـالدور الهـام فيـه مدرسـة الإسكندرية اللاهوتية وعلماء المسيحيين وفلاسفتهم.

وثانيهما : كان فى ساحة الاستشهاد وقد قام عمليـا بهجـوم الوثنيين عام ٦٨ ميلادية علـى كنيسـة الأقبـاط شـرقى الإسـكندرية وقتلهم القديس "مرقص الرسول" بعد أن جروه بالحبال فى شوارع المدينة حتى مزقوا لحمه.

وكـان الـنزاع فـى أولـى صـوره نزاعـا بيـن المسـيحية والوثنيـة. ولكـن مـا أن نمـت المسيحية فـى مصـر حتـى أصبحت تمثل الشعب المصـرى كلـه تقريبـا، وظـل حكـام الرومان يمثلون الديانة الوثنية، وظهر عندئذ بوضـوح ان هـذا الـنزاع كـان فـى نفس الوقـت صراعـا بيـن شـعب وحاكميـه، أو بيـن أبنـاء وطـن ومسـتعمريه.ويلاحـظ أن الصراع بين عصر المسيحية وحكامهـا الرومـان وأن بـدأ منذ القرن الأول الميلادى فأنه لم ينته إلا بدخول العرب.

ك- وكان دخول العرب فرصة مواتية أحدثت تغييرا لا يمس السياسة وحدها ولكن يمس الدين أيضا. وكـانت النتيجـة المتوقعـة اتجـاه مصـر نحـو الشـرق والاتصـال بشـعوب الشـرق، بعـد أن كـانت صلاتهـا الحضاريـة (الثقافيـة) مقصورة على الغرب أو بعبارة أدق على الحضارة (الثقافة) الاغريقية.

ل- وجاء مع دخول العـرب الديـن الإسـلامى. ومثلـه مثـل الديانـة المسـيحية عندما دخلت إلى مصر فى عام ٦٤ ميلاديـة، لـم يجـد هـذا الديـن فـى شـعب مصـر أرضـا بكـرا أو صحـراء جرداء. لأن مصـر كـانت تعـرف الوحدانيـة العالمية قبل أن يغزو أرضها جيـش عمـرو بـن العـاص. لهـذا لمـا احتضنـت مصـر تعاليم هذا الدين تمثلت رموزه وأسراره الشبيهة أشـد الشـبه بمـا كـانت تعى من رموز وأسرار.

فالتاريخ يذكر أن آخر ملوك الأسرة الثامنـة عشـرة "أمنحتـب الرابـع" (حوالى ١٣٧٥-١٣٥٠ ق.م) كان "أول الموحدين"، فقد دعا إلى دين وحدانية جديد. وغير اسمه إلى "اخنـاتون" إشـارة إلـى اعتناقـه ذلك الديـن كمـا سـجل

حماسه فى أناشيد أشهرها "عبادة الملك اخناتون والملكة نفرتيتى للقرص"، أى قرص الشمس آتون اسم الإله الواحد. وهذه الانشودة كما قال "جيمس هنرى برستد" فى كتابه "فجر الضمير"، أقدم انشودة توحيدية حقيقية فى عالم الأدب، وفى بعض أجزائها ما يدعو إلى مقارنتها بالمزمور رقم ١٠٤ من كتاب العهد القديم (آيات ٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦).

والملاحظ أن إصلاح "اخناتون" وهو نوع من الإصلاح الدينى قد سبق نظيره الأوروبى الذى دعا إليه "مارتن لوثر" بسبعة وعشرين قرنا(*) .

م- ولم يجىء مع دخول العرب الدين الإسلامى وحده، ولكن غزت اللغة العربية البلاد. وابتداء من القرن التاسع الميلادى أخذت اللغة العربية تناهض اللغة القبطية. وحلول اللغة العربية محل القبطية سبقه انتشار العربية كسلعة للتخاطب بين أعضاء الشعب وأصبحت العربية لغة الدواوين ثم صارت لغة التعليم. وقد جاء القرن الثالث عشر والعلماء القبط يؤلفون فى اللاهوت باللغة العربية. مما يدل على أنها كانت لغة العلم السائدة وكان يفهمها أغلب سكان مصر، ويتكلم بها أغلب سكان الوجه البحرى.

ن- وظلت اللغة القبطية لغة التخاطب فى الوجه القبلى حتى القرن السابع عشر. وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر انتهى الكلام باللغة القبطية، ولكنها بقيت لغة الكنيسة تستخدم فى الصلوات وقراءات الكتب المقدسة، ويعرفها بعض الأفراد من الأقباط فى الأديره أو المدن عن طريق اتصالهم بهذه الصلوات واهتمامهم بها.

س- والملاحظ أنه على الرغم من أن اللغة القبطية قد اختفت أمام اللغة العربية إلا أن ذلك لم يحل دون أن تضفى ملامحها الشخصية على اللغة

(*) يرى الأستاذ الدكتور سيد كريم فى مقاله الرائع عن "كتاب الموتى بين عقيدة التوحيد السماوية" المنشورة فى مجلة الهلال عدد رقم ٦ شهر يونيو عام ١٩٨٧ أن أول رسالة أو كتاب سماوى بعد "اخناتون" كانت توراة "سيدنا موسى" والتى كشف بعض المؤرخين أن بعض صفحاتها تشترك فى الصيغة والمضمون مع رسائل اخناتون وهو ما أدى بـ"فرويد" إلى الادعاء بأن اخناتون ما هو إلا موسى عليه السلام رغم أن موسى قد ولد بعد موت اخناتون بمائة وستين عاما (صفحتا ٩٣-٩٤) .

العربية وأن تصبغها بصبغة جعلت اللغة العربية فى مصر تظهر بمظهر خاص يختلف عنه فى الأقطار العربية الأخرى. تماما مثلما ظلت الكثير من العناصر الثقافية المصرية القديمة حية حتى الآن فى مصر.

ع- ولعل من مظاهر السمات الثقافية المصرية المستجدة، ما نلحظه فى أسماء المدن المصرية، فبالرغم من اختفاء الأسماء المصرية القديمة مدة سيادة اللغة اليونانية (حوالى تسعة قرون)، ورغما من فرض أسماء يونانية على المدن المصرية، فأن الأسماء المصرية لهذه المدن لم تلبث أن ظهرت ثانية بعد دخول الحرب(*)

٤- وفى ضوء ما سبق نلاحظ أن :

- المجتمع المصرى المعاصر هو مجتمع قديم ومستمر، أى أن ثقافته (حضارته) قديمة ومستمرة.

- والقدم والاستمرار صفتان للثقافة المصرية الأصلية الآتية من الماضى السحيق والتى نشأت فى الغالب فى البيئة الطبيعية الأصلية.

(*)الملاحظ أن اسم هليوبوليس (مصر الجديدة الآن)هو اسم أغريقى وقد انشئت فى ٤٢٤٠ ق.م أما الاسم الفرعونى لهليوبوليس فهو "أون" (عين شمس).

- وهى أول جامعة فى العالم انشئت فيها وقد تتلمذ على أيدى علمائها الكثير من أساطين الأغريقى فى العالم، فى العلم والفلسفة والفقه والرياضيات والآداب، ومنهم طاليس الملطى (ولد فى عام ٦٢٤ق. م) وفيثاغورس (ولد فى عام ٥٣٠ ق.م) وأفلاطون (ولد فى عام ٤٢٧ ق.م).
- فيثاغورس تعلم على يد طاليس ثم ذهب إلى مصر ومكث فيها ما لا يقل عن اثنى عشر عاما يدرس الفلك والهندسة والأسرار الكهنوتية.
- المعلوم أن أفلاطون قد اعتمد على التراث المصرى القديم فى صياغة الفضائل الأساسية وهى:
  - الحصافة.
  - والعدل
  - والاعتدال (ضبط النفس)
  - والجلد.

ولكن دلالـة القدم والاستمرار فـى ضوء تـارخ المجتمـع المصـرى الطويل توضح مصادر الثقافة المصرية الأخرى.

- ومن ثم فأن أهم سمات الثقافة المصرية هى :
- القدم.
- الاستمرار.
- تعدد المصادر : أهم هذه المصادر هى :

العنصر الفرعونى :

- قبل الأسرات (حضارات الفيوم ومرمدة)

٦٠٠٠ ٥٥٠٠ + ٥٠٠ ق.م

- الأسرات :

٢٨٧٥ ٣٤٠٠ - ٥٢٥ ق.م

٨٨٧٥

- اليونانية الرومانية :

٣٠٢ ٣٣٢ - ٣٠ ق.م (اليونان)

٦٧٢ ٣٠ - ق.م - ٦٤٢م (الرومان)

٩٧٤

- العرب (الخلافة الإسلامية) :

٢٢٦ ٦٤٢ - ٨٦٨ م

- الدولة الطولونية حتى الدولة العثمانية

٦٤٩ ٨٦٨ - ١٥١٧ م

٨٧٥

- الدولة العثمانيـة إلـى محمـد علـى مـرورا بنابليون والإنجليز

٢٨١ العثمانيون ١٥١٧ - ١٧٩٨ م

٣ الفرنسيس ١٧٩٨ - ١٨٠١م

١٤٨ أسرة محمد على ١٨٠٥ - ١٩٥٣

٧١ الإنجليز ١٨٨٢ - ١٩٥٣.

٥- وبالإضافة إلى سمات الثقافة المصرية السابقة (القدم والاستمرار وتعدد المصدر) وربما بسببها، وجدت فى ضوء نتائج البحوث والدراسات التى قمت بإجرئها فى المجتمع المصرى المعاصر سمة أخرى هى سمة الازدواجية الثقافية المصرية(*) حيث نجد:

أ- أن معانى بعض مفاهيمها وأهداف ممارسة البعض متغيرة.

ب- وأن بعض عناصرها متناقض على الرغم من تماثل مجالات الممارسة.

جـ- وأنها فى معظم الأحيان فى صراع حاد مع الجديد.

٦- النظرة إلى ظاهرة التغير الاجتماعى فى المجتمع المصرى

من حق القارئ الكريم أن أبين له أهم موضوعات هذه النظرة. ذلك لأن ظاهرة التغير الاجتماعى من اهم الظواهر التى تصادفها المجتمعات الإنسانية والجماعات الإنسانية فضلا عن الإنسان نفسه. أى أن هذه الظاهرة تمس الحياة التى يعيشها الناس كما تمس العناصر المادية التى يستخدمونها لتحقيق حفظ نوعهم وحياتهم وتحقيق مستوى معيشى لائق بآدميتهم. وموضوعات النظرة الحالية موضوعات شتى تتضمن طبيعة الظاهرة وألوانها ومظاهرها وتعريفها وعوامل وجودها.. إلخ. وذلك لأن التغير هو سنة الحياة. فكل شئ لا يبقى على حال. الأشياء الطبيعية فى تغير مستمر: فالأرض فى تغير مستمر، والسماء فى تغير مستمر، والبحار والمحيطات فى تغير مستمر، والحيوان فى تغير مستمر، هذه سنة الطبيعة ولن تد لسنة الطبيعة تبديلا.

(*) يلاحظ أن سمة الازدواجية الثقافية لا توجد فقط فى المجتمع المصرى وإنما نجدها أيضا فى المجتمعات الإنسانية الأخرى. ولكن عوامل وجودها فى المجتمع المصرى غير عوامل وجودها فى المجتمعات الإنسانية الأخرى. وذلك لأن المجتمع المصرى فى ضوء واقعه الحى وفى ضوء تاريخه فضلا عن علاقاته بالمجتمعات الأخرى يعتبر بالضرورة مجتمعا متميزا.

والإنسان كذلك فى تغير مستمر. طبيعته البيولوجية فى تغير وحياته الاجتماعية فى تغير كذلك.

وإذا كان الموضوع الذى ترتكز عليه النظرة الراهنة هو التغير الاجتماعى أى تغير الحياة الاجتماعية للإنسان فأننا نلاحظ أن تغير الطبعية البيولوجية للإنسان أبطأ بكثير من تغير حياته الاجتماعية. فعلى الرغم من أن البناء البيولوجي وكفايات الإنسان لم تتغير تغيرا ملحوظا منذ آلاف السنين فان سلوك الانسان ومشاعره قد تغيرت كثيرا. فالإنسان الحديث لم يكد يتغير جسمانيا فى خلال الـ ٣٠٠٠٠ عام منذ بدء ظهوره، ولكن فى خلال الـ ٦٠٠٠ سنة الأخيرة على وجه الخصوص نجد أن سلوك الإنسان وخلقه ومهارته الفنية وأعماله الاجتماعية قد تغيرت تغيرا كليا وجزئيا وفى سرعة باهرة. وسيستمر هذا التغير وبخاصة ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين حيث خطأ العلم العصرى والتكنولوجيا الحديثة خطوات مذهلة.

١ – طبيعة التغير الاجتماعى:

والملاحظ ان المجتمعات البسيطة أكثر تماسكا وأكثر جمودا من المجتمعات الدينامية المعقدة. فالأخيرة متفككة نوعا ما وفى تغير مستمر وانحلال (Disorganzation). ونجد أن المشاكل الاجتماعية فى عهد من العهود غيرها فى عهد آخر. ولا يوجد لدينا حتى الآن مقياس نقيس به سعادة أو شقاء الناس فى الأزمان المختلفة أو المجتمعات المختلفة. وأرجو أن يلاحظ القارئ قولى "حتى الآن". وذلك لأن الباحثين العلميين الاجتماعيين مع غيرهم من العلماء المتخصصين يكافحون بخطوت ثابتة ومبشرة من أجل تحقيق هذا الهدف.

والتوازن الاجتماعى (Social Equilbrium) مسألة نسبية فى المجتمعات الإنسانية فحتى فى أبسط المجتمعات نجد فيها تفككك وانحلالا (يعنى أننا نجد مشاكل اجتماعية قائمة ونعترف بها ولم توجد الحلول الملائمة لمواجهتها) ونجد أيضا فى هذه المجتمعات لبسيطة تغيرا اجتماعيا (أى تغيرات فى الانساق والوظائف الاجتماعية).

وإذا كان التوازن الاجتماعى الكامل لا وجود له فالجمود الاجتماعى الكامل لا وجود له كذلك. ويستحيل وجودهما فى ظروف الحياة الحديثة.

والتفكك الاجتماعى هو الثمن الذى يدفعه الإنسان للتغير الاجتماعى، ويجب أن ينظر إلى ظاهرة التفكك الاجتماعى على أنها ظاهرة عادية ومسألة متوقعة.

ودراسة ظاهرة التغير الاجتماعى ومن ثم ظاهرة التفكك الاجتماعى من الأهمية بمكان لمن يوطد عزمه على إصلاح المجتمع ومحاولة تخفيف وطأة التفكك والانحلال فيه، وذلك عن طريق معرفة الأسباب ورسم الخطط الملائمة لمواجهتها.

٢- ألوان التغير الاجتماعى:

والتغير الاجتماعى عملية لها ألوان متعددة.

فبعض الجماعات الاجتماعية والجمعيات، كجماعة الأصدقاء واللجان والمؤتمرات والحركات الإصلاحية نجدها قصيرة العمر، والبعض لآخر كالمعبد والكنيسة والمسجد والدولة نجدها طويلة العمر.

وبعض الجمعيات والجماعات الاجتماعية يتغير بسرعة وبعضها يتغير ببطء. وقد رأينا الكثير من التغيرات الاجتماعية فى المجتمع المصرى قد حدثت تحت أعيننا فنجد تغيرا ملحوظا فى أنساقها الاجتماعية وفى الوظائف الاجتماعية فى المجتمع وفى محيط الأسرة المصرية وفى الدولة وفى الريف وفى المدن.

ونجد أن بعضها التغيرات الاجتماعية مستمرة على مر القرون ومثل هذا الريف المصرى والأمثال العامية والمسجد والكنيسة.. وبعض العادات والنماذج الاجتماعية.

والخلاصة أننا نجد ان بعض عمليات التغير الجتماعى مستمر وبعضها متقطع وبعضها سريع وبعضها بطىء وبعضها يبدو وكأنه دورى (Cycle) وبعضها يبدو سيرة خطيا (Linear).

ويهتم علماء الاجتماع بالتغير الاجتماعى لذى يحدث بين القليل من لأفراد كما يهتمون كذلك بالذى يحدث فى المجتمعات.

والتغير الاجتماعى فى ضوء ما سبق يمكن ملاحظته ووضعه فى إطارت خاصة، فمثلا نسبة الطلاق وعدد الاختراعات، ونسبة الانتحار، ونسبة الأمية والكثير من الإحصاءات الخاصة بالسلوك الإنسانى فى أى مجتمع يمكن مقارنتها من وقت لآخر ومن مكان لآخر، ويمكن عن طريقها التعرف على وجود اتجاهات معينة أو تغيرات اجتماعية دورية، وكذلك يمكن معرفة وجود معامل ترابط (Correlation) أو عوامل مشتركة بينها لمعرفة نسبة التغير (Rate of change).

٣- مظاهر التغير الاجتماعى:

وبصفة عامة يمكن تلخيص مظاهر التغير الاجتماعى إلى ما يأتى:

١- الاتجاه المتزايد نحو نقد التقاليد (secularization)

٢- تفكك العلاقات بين الجماعات. (Outomization)

٣- انتشار الحياة فى المدن. (Urbanization)

٤- تعريف التغير الاجتماعى:

ولقد بذل الكثير من الجهود لمعرفة أسباب التغير الاجتماعى ومعرفة القوى التى تقاوم التغير الاجتماعى أو تساعد على السير فى طريقة، ومعرفة المدى الذى يمكن أن يصل إليه التغير الاجتماعي المبني علي أساس التخطيط.

وقبل أن نبحث هذا الموضوع يجدر بن أن نحاول تعريف التغير الاجتماعى.

ويمكن تعريف التغير الاجتماعى بأنه التغيرات او التعديلت فى أية ناحية من نواحى العمليات الاجتماعية أو النماذج الاجتماعية أو الأشكال

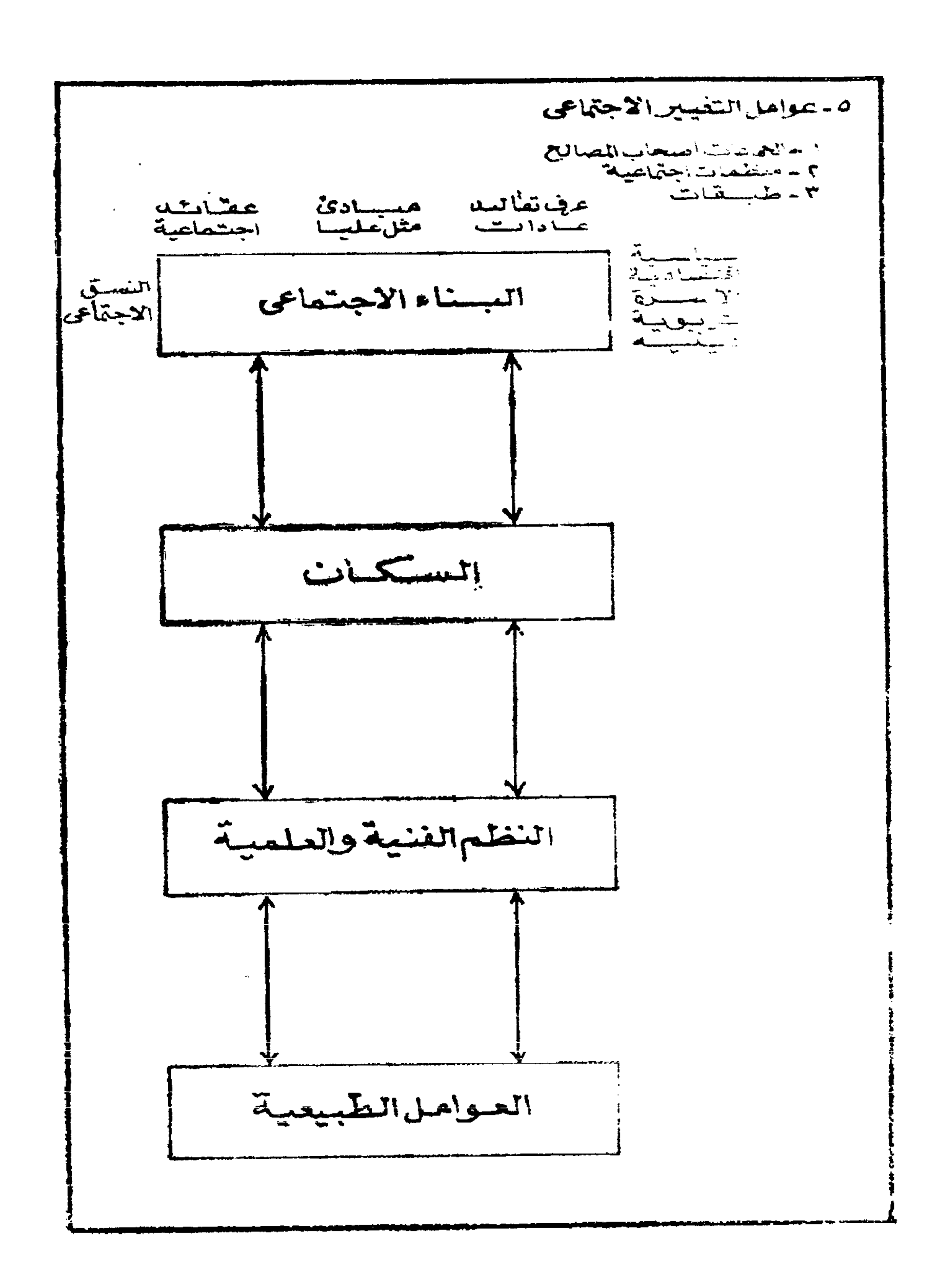
الاجتماعية. وهو اصطلاح يدل على نتائج أى نوع من أنواع الحركات الاجتماعية.

والمقصود بالعملية الاجتماعية (Social process) هو أى تغير اجتماعى يكون نتيجة تفاعل شخص مع شخص أو شخص مع جماعة أو جماعة مع فرد أو جماعة مع جماعة، ومن أمثلتها عملية التنشئة الاجتماعية (Socialization) و عمليات التنافس والصراع والتقليه والضبط الاجتماعى أو تقسيم المجتمع إلى طبقات (Stratification) والمقصود بالنموذج الاجتماعى (Social pattron) هو السلوك الاجتماعى المتكرر كتناول الطعام ثلاث مرات كل يوم، والصلاة خمس مرات كل يوم، والصيام كل عام.. إلخ.. ويشترط فى هذا السلوك أن يقوم به فردان أو أكثر، فهو سلوك اجتماعى جماعى.

والمقصود بالشكل الاجتماعى (Social Form) هو ما يتعلق ببناء الأنساق الاجتماعية والقواعد والعلاقات التى توجه فى المجتمع.. كشكل الأسرة والدولة.

والتغير الاجتماعى قد يحدث نتيجة لبعض العوامل والظروف التى لا دخل لأحد فى حدوثها أو يتوقع أحد حدوثها. وأكثر التغيرات الاجتماعية تحدث نتيجة للحركات الاجتماعية وهذه الحركات الاجتماعية عبارة عن مجهود جماعى واع يهدف إلى بناء نوع معين من نسق جديد للحياة. وقوام هذه الحركات الاجتماعية هو عدم الرضا أو القلق الذى يسود نفوس الناس بسبب النسق الاجتماعى القائم، والحركات الاجتماعية أما أن تكون ثورية أو تطورية. والحركات الثورية تقوم على أساس عدم الاعتراف ببعض الأسس التى يقوم عليها النسق الاجتماعى القائم وتهدف إلى تغيير النسق الاجتماعى القائم تغييرا كليا وعلى أسس جديدة، وقد يكون سبيلها العنف فى سبيل تحقيق أهدافها.

ونجد أن الثورة الصناعية فى إنجلترا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مثلا، قد انتجت ظروفا اجتماعية لم يتوقعها أحد، وكانت موضع اهتمام المصلحين الاجتماعيين وخاصة فى القرن التاسع عشر لمعرفة أسبابها ومواجهتها. فقامت حركات إصلاحية عديدة تهدف إلى حل المشاكل


٥ - عوامل التغيير الاجتماعى
١ - الجماعات أصحاب المصالح
٢ - منظمات اجتماعية
٣ - طبقات
عرف تقاليد
عادات
مبادئ
مثل عليا
عقائد
اجتماعية
النسق
الاجتماعى
البناء الاجتماعى
السكان
النظم الفنية والعلمية
العوامل الطبيعية

الاجتماعيـة القائمـة فجمعيـة (Fbian society) قـامت علـى أســاس أهـداف اجتماعية إصلاحيـة تطوريـة، ويقابلهـا فـى مصـر جمعيـة الـرواد والجمعيـة المصرية للدراسات الاجتماعية.

والثورة البلشفية فى روسيا مثل الحركـات الاجتماعيـة الثوريـة التـى استعملت العنف لتحقيقها. والثورة المصرية عام ١٩٥٢ تعتبر مثلا للحركـات الاجتماعية التى لم يستعمل فيها العنف مثل الثورة البلشفية.

ونجد الآن فى جميع بقاع الأرض فى أوروبا وفى أمريكا وفــى آسـيا وفى أفريقيا تغيرات اجتماعية سريعة مقصـودة او غـير مقصـودة، كمـا نجـد حركات اجتماعية مختلفة الأهداف ولكن كلهـا تهـدف إلـى مواجهـة الانحـلال الاجتماعى الناتج من التغـيرات الاجتماعيـة القائمـة. وأهـداف هـذه الحركـات مختلفة لأن نتائج الانحلال الاجتماعى النـاتج مختلفة كذلك، ومن ثم فالمشـاكل الاجتماعية مختلفة وطـرق إصلاحهـا والتقليل مـن حدتهـا تكـون بـالضرورة مختلفة.

والآن نعود إلى موضوع عوامل التغير الاجتماعى. ونحاول الإجابـة عن السؤال ما العوامل التى تغير الحياة الاجتماعية للإنسان؟ او مـا العوامـل التى تغير النسق الاجتماعى لمجتمع من المجتمعات ؟

والمقصود بالنسـق الاجتمـاعى (Social system) هنـا هـو: (انظـر الرسم البيانى السابق).

(أ) الجماعات التى تمثل المصالح الاجتماعيـة المختلفـة (Interest groups) مثل الجماعات الثقافية والاقتصادية والسياسية.

(ب) المنظمـات الاجتماعيـة كالمنظمـات السياسـية والتربويـة والدينيـة والاقتصادية وكمنظمة الأسرة والمسجد أو الكنيسة.

(جـ) طبقـات المجتمـع المختلفـة كطبقـة العمـال والطبقـة المتوسـطة والطبقـة العالية ولكل طبقة من هذه الطبقات أقسام (Sub-classes).

(د) ويضاف إلى ذلك ما يعبر عنه بالثقافة والحضارة للمجتمع (Culture)، مثل العقائد والقيم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات والمبادئ والمثل العليا.

٧- وتنقسم العوامل التى تغير النسق الاجتماعى لمجتمع من المجتمعات إلى:

(أ) عوامل ثقافية (غير مادية).

(ب) عوامل غير ثقافية (مادية).

(أ) العوامل الثقافية:

- عوامل فنية علمية صناعية.
- عوامل تتعلق بالقيم الاجتماعية والعقائد والعرف والتقاليد والعادات والمبادئ والمثل العليا.

(ب) العوامل غير الثقافية:

- عوامل طبيعية جغرافية تتعلق بالأرض والمناخ.. إلخ.
- عوامل اجتماعية بيولوجية تتعلق بالسكان وعددهم ونوعهم وازديادهم ونقصانهم.

ويلاحظ ان أى تغيير فى النسق الاجتماعى يؤثر بالتالى فى العوامل الأخرى، وأن أى تغير فى أحد العوامل الأخرى يؤثر فى النسق الاجتماعى. ويلاحظ أيضا أن العوامل الرئيسية لأى تغير اجتماعى هى العوامل الثقافية وعلى الأخص العوامل الفنية العلمية الصناعية.

٨- وفى ضوء كل ما سبق وغيره من نتائج البحوث والدراسات التى قمت بإجرائها أو الإشراف عليها، تبين أن أهم النتائج المتعلقة بظاهرة التغير الاجتماعى فى المجتمع المصرى المعاصر ما يلى:

(أ) العوامل التى تشجع على التغير الاجتماعى فى المجتمع المصرى:

- السكان (ازديادهم وهجرتهم من الريف إلى الحضر والاهتمام بالأطفال فيه فضلا عن العمل على ارتفاع هامة المرأة المصرية)..

- التصنيع.
- انتشار الحياة فى المدن (مع الأخذ فى الاعتبار أن تريف المدن أصبح ظاهرة فى الوقت الراهن).
- التعليم (ويتضمن بالضرورة التربية).
- التقدم الصحى.

(ب) العوامل التى تقاوم التغير الاجتماعى فى المجتمع المصرى:

- الجماعات الرجعية وهم يمثلون القوى الاجتماعية التى تتعارض مصالحهم مع التغير الاجتماعى المقصود الذى يهدف إلى الأفضل وإلى ما يجب أن يكون أو ما يمكن أن يكون عليه المجتمع فى ضوء عقائده وقيمه ومبادئه ومثله العليا.
- الاستعمار بالمعنى الحديث وهو قوة خارجة عن المجتمع ولكن أثرها يبدو واضحا نظرا لأن الحياة الاجتماعية الدولية قد أصبحت متشابكة وديناميـة. (أصبحت الحضارة الغربية فى وقتنا الراهن حضارة عالمية).

(جـ) العوامل التى تؤثر فى خط سير التغير الاجتماعى فى المجتمع المصرى الحالى:

- الأساليب التى تستعمل لمواجهة زيادة عدد السكان.
- تشجيع التصنيع.
- إصلاح الأراضى الزراعية (غزو الصحراء الشاسعة مثلا).
- سياسة التعليم (الاهتمام ليس فقط بإصلاح الجامعات بل بالمعاهد الأخرى قبل الجامعة من دار الحضانة وما بعدها أيضا).
- التقدم الصحى فى القرى.
- تنسيق الخدمات العامة (الصحية - الثقافية - الاجتماعية - الفنية مثلا) فى ضوء سيادة العلم الحديث والتكنولوجيا الحديثة.

٩- **ضرورة التكيف الاجتماعى :**

ان الانحلال الاجتماعى (Social disorganization) يوجد دائما مصطحبا بالتغير الاجتماعى. والانحلال الاجتماعى يظهر فى أشكال مختلفة تثبت فى المجتمع بأسره. وقد يشمل الانحلال الفرد كما يشمل الجماعات والمجتمع كذلك.

وأننى أقصد بمفهوم التكيف الاجتماعى أن يكون أعضاء المجتمع قادرين على مواجهة التغيرات الاجتماعية بصفة عامة. والانحلال الاجتماعى بصفة خاصة (أى المشاكل الاجتماعيه الموجودة فى المجتمع والتى مازالت قائمة ولم تحل).

١٠- والمقصود بالموقف الاجتماعى عندى أن نحاول عن وعى علاجه وتحسينه أو تغييره أو تطويره، وهذا الموقف الاجتماعى أما (١) أنه ينبت من ظروف المجتمع أو البيئة الاجتماعية أو (٢) أنه يدعو إلى تطبيق القوى والوسائل الاجتماعية لتحسينه أو تغييره أو تطويره.

وغالبا ما يندمج هذان النوعان مميزات مشتركة. ويدخل فى الفئة رقم (١) عيوب وعدم تكيف والنقص فى الأفراد والأسر والجماعات الصغيرة، والأمثلة على هذه الأمور، البطالة، والمرض، الفقر، والرذيلة.. إلخ.

أما الفئة رقم (٢) فنجد أنها تشمل العيوب وعدم التكيف فى البناء الاجتماعى ذاته وفى وظائفه، وليس فى طاقة فرد واحد او جماعة صغيرة لإصلاح هذه العيوب، والأمثلة على هذه الأمور الحروب، البطالة الدورية، الفساد السياسي.. إلخ.

وعلاج المواقف الاجتماعية من الفئة رقم (١) يكون عن طريق الإصلاح الاجتماعى أما علاج المواقف الاجتماعية من الفئة رقم (٢) فهو يحتاج إلى هندسة اجتماعية (Social Engineering) وتخطيط اجتماعى (social planing)ولما كانت عملية الانحلال الاجتماعى ومن ثم المشاكل الاجتماعية تعنى المجتمع بأسرة فأنه يلزم لمواجهتها (أى ضرورة وجود التكييف الاجتماعى لمواجهتها) مجهود اجتماعى لا فردى. وعلى ذلك قامت

الحركات الإصلاحية في المجتمعات. وهي حركات تهدف إلى التكيف الاجتماعي إزاء التغيرات الاجتماعية القائمة.

ويلاحظ أن الحركات الإصلاحية هي في ذاتها أداة من أدوات التغير الاجتماعي فهي قد نشأت من عوامل التغير الاجتماعي وما صاحبه من انحلال اجتماعي ومشاكل اجتماعية عندما رأى فريق من المصلحين أن تعالج وتواجه، وهي في الوقت ذاته بحكم طبيعتها أداة من أدوات التغير الاجتماعي الذي قد يصطحب انحلالا اجتماعيا ومشاكل اجتماعية جديدة.

أمثلة : القضاء على الاقطاع ——— صراع من اجل تحقيق عدالة اجتماعية.

تحرير المرأة ——— الصراع من أجل غرس الثقة في نفسها التي تغرسها بدورها لاطفالها.

التصنيع ——— تفكك الروابط الاجتماعية + صور جديدة من الجريمة + مشاكل الهجرة..الخ.

١١- ويلاحظ أن لكل حركة اصلاحية اجتماعية معارضين يقفون لها بالمرصاد ويحاولون ان يقفوا في سبيلها ما استطاعوا الى ذلك سبيلا. ولهذه المعارضة عوامل منها :

(أ) أن بعض الناس والجماعات لايميلون الى التجديد بل هم يقاومونه. وترجع هذه المقاومة للتجديد الى أن مركز هؤلاء الاجتماعي أو الاقتصادي يكون عرضة الى التهديد اذا حدث التغيير.

(ب) نجد أن بعض الحركات الاصلاحية الاجتماعية تنافس بعضها البعض عادة وذلك يضعفها ومن ثم يقوى مركز المعارضين للاصلاح.

وبسبب وجود الظروف الاجتماعية الملائمة أى (وجود حركات الاصلاح مصطحبابانحلال اجتماعي ومشاكل اجتماعية) نجد أن حركات الاصلاح الاجتماعية تنجح عادة على الرغم من المقاومة التي تقف في سبيلها.

- والتكيف الاجتماعى هو عملية اجتماعية. وهى تتضمن نشاط الأفراد والجماعات وسلوكهم الذى يرمى الى الملاءمة والانسجام بينهم وبين الانساق الاجتماعية أو الأوضاع الاجتماعية أو الآراء والقيم الاجتماعية، الجديدة، وبينهم وبين الجماعات المختلفة، حتى يضيق الخلاف مهما كان نوعه، ويوجد التفاهم والانسجام.

وبما أن التغير الاجتماعى هو عملية مستمرة فان عملية التكيف الاجتماعى يجب أن تستمر تبعا لذلك.

١٢- وسائل التكيف الاجتماعى :

(أ) وسيلة العنف : لارغام الناس على تغيير سلوكهم أو اتجاهاتهم.

(ب) وسيلة الاقناع : وطبيعة هذه الوسيلة أن تكون تدريجية وخير مثال لاستعمالها هى تجربة شطانوف وتجربة المنايل سنة ١٩٣٩.

(ج) وسيلة التراخى وهى وسيلة الرضا بحل الوسط كما يحدث بين المشاكل التى تنشأ بسبب المصالح المتنافرة بين أصحاب العمل والعمال.

(د) وسيلة التسامح : تسامح الجماعات العنصرية أو القومية والجماعات المختلفة فى الدين أو العقيدة.

١٣- سوء التكيف الاجتماعى:

يترتب عليه عدم مواجهة المشاكل القائمة وربما خلق مشاكل جديدة وهنا تحتم الضرورة الاجتماعية وجود التكيف الاجتماعى عن طريق:

(أ) دور الأخصائى الاجتماعى بالتعاون مع غيره من المتخصصين مثل الباحث العلمى الاجتماعى والطبيب والأخصائى النفسى والمربى.. إلخ.

(ب) التخطيط الاجتماعى فى ضوء نتائج البحث والدراسات العلمية الاجتماعية.

(جـ) الحركات الاجتماعية بألوانها وسياساتها.

(د) القيادة الرشيدة للتغلب على الاتجاهات الجامدة والانفعالات التى تتعرض لها عملية التكيف الاجتماعى.

١٤- التغير الاجتماعى والتخلف الثقافى:

أن التغير الاجتماعى فى مجتمع من المجتمعات لا يكون عادة بنسبة واحدة فى كل النواحى الاجتماعية. والتغير الاجتماعى فى الواقع هو تغير فى التراث الاجتماعى للمجتمع. ومن ثم فالتغير يحدث بنسب متفاوتة فى التراث الاجتماعى أو ثقافة المجتمع (Culture) والمقصود بالثقافه للمجتمع هو التراث الاجتماعى لجماعة من الناس يرثونه جيلا بعد جيل كأفراد أو جماعات.. ويجب ألا نخلط بمدلوله كلمة (Culture) مدلول كلمة (Race). فالمدلول الأخير معناه التراث الجسمانى الذى يتوارثه الناس جيلا بعد جيل عن طريق دينامية العمليات البيولوجية لحفظ النوع الإنسانى.. وكذلك لا يجب استعمال كلمة (Culture) استعمالا محدودا يقتصر على نوع معين من الثقافة فهو لفظ له معنى عام يشمل أسلوب أو أساليب الحياة للناس فى مجتمع من المجتمعات أو فى جماعة من الجماعات.

وينقسم التراث الاجتماعى إلى قسمين أى أن العناصر التى تكون التراث الاجتماعى يمكن تقسيمها إلى قسمين:

(أ) عناصر مادية: وتشمل كل ما يستطيع الإنسان ادراكه عن طريق الحواس مثل المبانى، الأثاث، الأدوات، الملابس، الآلات، وسائل المواصلات، الراديو، التليفون، التلغراف، التليفزيون، الكمبيوتر، الفيديو.. إلخ.

(ب) عناصر غير مادية: وتشمل اللغة، العادات، العرف، التقاليد، المعتقدات، القانون، العلوم والفلسفات.. إلخ.

(جـ) ويلاحظ أن العناصر المادية فى التراث الاجتماعى أو ما يسميها البعض أحيانا باسم "الحضارة" تتغير بسرعة أكبر من العناصر غير المادية (الثقافة)، فبينما تتطور الحضارة فى مجتمع من المجتمعات بخطى أوسع نجد أن الثقافة فى تطورها تتخلف عن

الحضارة وهذا ما يسمى "بالتخلف الثقافى فى المجتمع" وينتج عن هذا التخلف الناشىء عن درجة تفاوت التغير أو التطور فى كل من الحضارة والثقافة ما يسبب الانحلال الاجتماعى أو التقلقل أو الاضطراب فى العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع.

(د) ويلاحظ أيضا أن الحضارة هى وسائل مادية يشبع الإنسان عن طريقها حاجاته ويسهل الحكم على قيمتها، أما الثقافة فمن الصعب الحكم على قيمتها أو قياسها.

(هـ) ويلاحظ كذلك أن الحضارة قد تكون عاملا فى تغير وتطور الثقافة، كما تكون الثقافة كذلك عاملا فى تغير وتطور الحضارة.

(و) كما يلاحظ أن الحضارة قد تنشر بين الطبقات والمستويات تقريبا، أما الثقافة فهى عادة تنشر بين الطبقات والفئات المتشابهة. فمن الميسور عادة أن يستطيع أى شخص (رجلا كان أو امرأة) قيادة سيارة بعد تدريب بضع ساعات ولكن فئة معينة من العلماء يمكنها فقط أن تصل إلى معرفة القوانين والنظريات التى على أساسها أو فى ضوئها صممت السيارة وبرزت إلى حيز الوجود.

١٥- علاقة العادات الفردية بالأوضاع الاجتماعية وما ينشأ عنها من توافق أو تنافر:

أن نمو شخصية أى فرد منا هو عملية تدريجية تنشأ عن طريق الخبرة والتعليم والنضوج الاجتماعى.. والاتجاهات الفردية تكتسب بينما تكون عملية نمو الشخصية سائرة فى مجراها من مرحلة الطفولة حتى مرحلة البلوغ.. وتتكون العادات الفردية على أساس الاتجاهات الفردية لأنها أولا وقبل كل شىء ناتجة عن خبرات شخصية فهى نماذج سلوكية قد اكتسبها الفرد. ومن أهم الجماعات التى تؤثر فى تكوين العادات الفردية هى:

(أ) الجماعة الأولية (Primary group) مثل العائلة وعصبة اللعب.

(ب) الجماعة الثانوية (Secondary group) مثل جماعة الطلبة فى إحدى الجماعات.

ومن أهم وظائف الجماعة الأولية هى ضبط سلوك الفرد والتنبوء به. ولما كان التراث الاجتماعى لجماعة من الجماعات أو مجتمع من المجتمعات يتحكم إلى حد كبير فى تكوين نوع أو أنواع الشخصيات التى تضم هذه الجماعة أو هذا المجتمع حتى يمكن أن تصلح للعيش تبعا للعادات الاجتماعية فى الجماعة أو المجتمع، ولما كان التراث الاجتماعى فى تغير مستمر فأن النتائج لكل ذلك أن يحدث صراع أو تنافر وتناقض. فالتراث الاجتماعى يؤثر فى الأفراد كيما يختاروا بين متناقضات. وفى عملية الاختيار ذاتها نجد تناقضا وتنافرا كذلك.

(يلاحظ أن درجة التغير فى التراث الاجتماعى تحدث بنسب متفاوتة) ونتيجة الصراع أو التنافر هى عدم التكيف الاجتماعى، وعليه فأننا نجد أن فى المجتمعات المتغيرة باستمرار يوجد عدم تكيف اجتماعى باستمرار.. ومن ووجود أفراد مجرمين ومتشردين ووجود عاطلين لا يمكن تشغيلهم.

١٦- من الضوابط الاجتماعية:

(أ) العرف: هو عادة اجتماعية انتشرت وذاعت وتعارف الناس عليها، أى صارت عرفا بينهم وأصبحت لها صفة الالزام يجب أن يأخذ بها الأفراد الذين يكونون الجماعة.. فالعرف ضابط اجتماعى يضبط سلوك الأفراد الأعضاء فى جماعة اجتماعية.

وأصل العرف (Mores) هو الأنماط الاجتماعية للتعايش التى تكونها الجماعة عن طريق التجارب وتتمسك بها كأساليب واجب الأخذ بها، وهذه الأنماط لا تكون ملزمة إلا إذا تطورت وأصبحت عرفا.

(ب) العادات الاجتماعية : هى أنواع من السلوك اليومى لأفراد الجماعة تتعلق بنظام معيشتهم من مأكل وملبس ومسكن وعمل.. ومعاملات اجتماعية أخرى. وإذا كانت العادة والتابو (Taboo) منتشرة بين المجتمعات البدائية على أنها أنساق اجتماعية ضابطة لسلوكهم ولحمايتهم فأن القوانين والأوامر تقوم مقامها فى المجتمعات المتحضرة.

ومن ميزة العادات أنها تيسر الحياة وتجعل الأفراد يؤدون الأفعال ويتصرفون فى المواقف فى سهولة وسرعة، معتمدين فى ذلك على ما اعتادوا فعله فى مثل هذه المواقف.

(جـ) التقاليد: هى عادات مقتبسة من الماضى إلى الحاضر، ثم من الحاضر إلى المستقبل فهى تنتقل من جيل إلى جيل ومن السلف إلى الخلف على مر الزمان.

(د) المثل الاجتماعية: هى الأقوال والمثل الشائعة التى توجد فى الأساطير الشعبية (Folklore) وعلى السنة العامة وتنتقل إلى أفراد الجماعة جيلا بعد جيل، ومن هذه المثل الكثير الذى مازال باقيا فى مجتمعنا المصرى ويؤثر فى سلوك أعضائه وفئاته.

ويلاحظ أن الضوابط الاجتماعية هى كلها عناصر ثقافية (غير مادية) ومن ثم فتغيرها أو تطورها أبطأ من عناصر الحضارة (العناصر المادية) والضوابط الاجتماعية بطبيعتها تدلنا على مدى التخلف الثقافى فى مجتمع من المجتمعات.. فقد يصل المجتمع مستوى عاليا جدا من الحضارة ونجد فى الوقت نفسه أن أعضاء يعيشون فى مناخ ثقافى آخر (أى غير متكيف) يتحكم فى سلوكهم ومن ثم ينشأ الصراع والتنافر فى تصرفاتهم وتنبت عن هذا مشاكل اجتماعية تتطلب تكيفا اجتماعيا.

٧- النظرة إلى بعض العوامل الثقافة المعوقة للتغير الاجتماعى

قبل أن أبدأ الحديث عن هذه النظرة أود أن أقرر بعض الحقائق هى:

١- أننى اتحدث كمصرى انتمى إلى مصر واعتز بهذا الانتماء دونما غلو فى وطنيتى أو تعصب لها. كما اتحدث أيضا كباحث علمى اجتماعى فى ميدان مهنة البحث العلمى الاجتماعى منذ فترة طويلة.

٢- وأننى أومن أيمانا راسخا بأن المصالح تصنع النوايا، وأن النوايا بدورها تصنع المواقف وأن المواقف تحدد أنماط السلوك أى أننا كبشر نلاحظ أن كل أو معظم ما يصدر عنا من أنماط السلوك يكون فى ضوء ذلك.

٣- وأن الحكم على مدى تقدم المجتمع أى مجتمع يكون فى ضوء مستوى مكانة المرأة (بأدوارها) فيه ومستوى مكانة أطفاله ومستوى حياة أعضائه فضلا عن سيادة تطبيق المنهج العلمى فيه والأساليب التكنولوجية الحديثة التى يستعملها سواء كانت هذه الأساليب أساليب إنتاجية أو أساليب خدمات (كأساليب الاتصال مثل أجهزة الإعلام والثقافة ومنها جهاز التليفزيون).

٤- وأن أجهزة الاتصال بالمعنى السابق أجهزة خطيرة ما فى ذلك من شك والملاحظ أنها لا تعمل وحدها من أجل تكوين المواطنين الصالحين أو المواطنين غير الصالحين، بل هناك أجهزة أخرى خطيرة أو ربما أخطر منها مثل الأسرة والخبرة والمنظمة التعليمية والمنظمة الدينية ومنظمة شغل أوقات الفراغ والمنظمة السياسية أن وجدت.

٥- وأن خطورة أجهزة الإعلام والثقافة أن وجدت تنصب عادة على أطفال المجتمع وليس على الكبار (فى ضوء عدد السكان فى المجتمع المصرى التقديرى عن عام ١٩٨٥ نجد أن منهم نحو ١٦,١٪ أعضاء أقل من خمس سنوات ونحو ٢٥,٦٪ من سن خمس إلى سن أقل من خمسة عشر عاما). وذلك لأن أعضاء المجتمع الكبار قد تكونت سخصياتهم. أما الأطفال والشباب الذين فى مرحلة المراهقة الأولى، فأن شخصياتهم مازالت فى ضوء محدداتهم التكوينية والثقافية الاجتماعية والنفسية والعقلية فى دور التكوين.

٦- ومن ثم فأننا نجد أن عطاء أجهزة الإعلام والثقافة (ومنها التليفزيون) للكبار يقتصر على امدادهم بالمعلومات والآراء. ولكن هذه الأجهزة لا تغرس فى نفوسهم الاتجاهات التى تصدر عنها عادة أنماط السلوك (المتوقعة وغير المتوقعة). أى أن المعلومات والآراء (التى تكون فى حاجة عادة إلى الفهم والادراك) يجب أن تكون من ورائها قيم (التى تغرس عادة بالتربية) حتى تصدر أنماط السلوك المشار إليها.

ولا يخفى على القارئ، فى ضوء هذا التفسير، الفرق الشاسع بين الرأى وبين الاتجاه. فالرأى أن وجد عند الإنسان منا وكان مفهوما ومدركا يتغير عادة من حين لآخر على عكس الاتجاه فأن تغييره ليس بالأمر السهل.

فالمعلوم فى ضوء علم النفس أن الاتجاه يكون تنظيما نفسيا مستقرا للعمليات الادراكية والمعرفية والوجدانية لدى الفرد. وهو يسهم فى تحديد الشكل النهائى لاستجابته الصادرة نحو الأشياء والأشخاص والمسميات المعنوية، من حيث أن هذه الاستجابة استجابة بالإقبال أو بالنفور.

٧- أن العملية الاتصالية فى المجتمع المصرى فى ضوء انخفاض نسبة التعليم فيه عامل من عوامل كفاءتها وخاصة ما يتم منها عن طريق أدوات الاتصال الجماهيرى (ومنها جهاز التليفزيون). والملاحظ أن نسبة الأمية فى ضوء تعداد عام ١٩٧٦ هى نحو ٥٦,٣٪ من سن ١٠ فأكثر.

والملاحظ أيضا أن تعريف الأمى فى ضوء قانون ٧٦ لسنة ١٩٧٠ هو: "كل مواطن يتراوح عمره بين سن ١٨ وسن ٤٥ وغير مقيد فى أية مدرسة ولم يصل تعليمه إلى نهاية الصف الرابع الابتدائى".

والملاحظ أن "الأمية الوظيفية" هى الأساس الفعلى للمشكلة. ولا سيما بعد أن تأكدت جدواها بالنسبة للدول التى تنظر إلى هذه المشكلة نظرة واقعية جادة خالية من أية مجاملات سياسية. وتعرف "منظمة اليونسكو" الأمية الوظيفية بأنها :

"عدم الإلمام بالقراءة والكتابة على النحو (بالمستوى) الذى يمكن الفرد من ممارسة الأنشطة التى تتطلب معرفة القراءة والكتابة بما فى ذلك توسيع معارفه ذاتيا (أى تعليم نفسه) إذا ما اقتضى الأمر ذلك".

وإذا سلمنا بأن الأمية المطلوب القضاء عليها هى الأمية الوظيفية كما جاء فى التعريف السابق فأن نسبتها تزيد بالقطع على نحو ٥٦,٣٪ وفق تعداد عام ١٩٧٦ كما ذكر آنفا. لتصل إلى نحو ٨٥٪ تقريبا (على حساب أن الأمى هو من لم يكمل دراسته بنجاح حتى السنة الرابعة الابتدائية) أى ما يعادل ١٧-١٨ مليون مواطن. ويقدر الآن هذا العدد المطلق من الأميين وظيفيا بما يقرب من ٢٠-٢١ مليونا بالنسبة لمن يزيد سنهم على ١٢-١٣ سنة (قدرت هذه الأرقام على أساس تقرير المجلس القومى للتعليم والبحث العلمى والخاص بالاستيعاب فى المرحلة الالزامية بالتعليم العام، ١٩٧٩).

٨- وفى ضوء نتائج دراسة لأحدى قرى الريف المصرى القريبة من المدينة. اتضح أن تعرض الغالبية من الريفيين الذى تنتشر بينهم الأمية لأجهزة الاتصال الجماهيرى ومنها جهاز التليفزيون منخفض. فقد تبين أن نسبة من يمتلك جهاز التليفزيون من الأميين نحو ٣,٣٪ ومن لا يمتلك نحو ٩٦,٧٪، أما من يمتلك هذا الجهاز من غير الأميين فقد بلغت نسبتهم نحو ٦٦,٧٪ ومن لا يمتلكون نحو ٣٣,٣٪. وقد يعود هذا الاختلاف إلى الأوضاع الاقتصادية التى غالبا ما ترتبط بالحالة التعليمية لعضو المجتمع، فضلا عن تباين الاهتمامات نحو الاتصال بالعالم الخارجي وسبل تحقيق ذلك، والتى توجد ما بين الأميين وغير الأميين.

ولا يعنى عدم امتلاك جهاز التليفزيون أنه يحرم من لا يمتلكونه من مشاهدة برامجه فى المقاهى أو الأندية الاجتماعية والثقافية (منظمة شغل أوقات الفراغ مثلا). والملاحظ أن المقاهى على الرغم من وجود جهاز التليفزيون، فأننا نجد عدم الاهتمام بمشاهدة برامجه إلا أن يكون ضمنها "مبارة كرة قدم" أو مسلسل "ذو مغزى محبب" لدى رواد المقهى أو بعضهم.

وفى ضوء نتائج بحث أجريته على بعض المشاهدين من الشبان لأحد الأفلام المصرية المعروضة على شاشة جهاز التليفزيون. وكانوا فريقين فريق كل أعضائه من الأميين (الذين لا يعرفون القراءة والكتابة الأبجدية، وأعضاء الفريق الثانى من طلبة المدارس الثانوية والفنية. وقد لاحظت تضارب أقوال أعضاء الفريقين. فالأميون الشبان كانوا يرون مايتمنون أن يروه على عكس الشبان الآخرين من الطلبة، فقد استوعب الأخيرون مغزى الفيلم وأهدافه مع اختلاف فى بعض التفاصيل.

وفى ضوء كل ما سبق تتبين خطورة أجهزة الاتصال الجماهيرى الثقافية فى مصر ومنها جهاز التليفزيون. فقد أكدت هذه الأجهزة أن "الفرد" فى عالم اليوم لا يمكنه بالخبز وحده أن يعيش إنسانا. والملاحظ أن منظمة الأمم المتحدة قد اهتمت منذ تأسيسها بالإعلام والاتصال، فالمادة التاسعة عشرة من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر فى عام ١٩٤٨ نصت على أنه:

"لكل شخص الحق فى حرية الرأى والتعبير، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أى تدخل واستقاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون تقيد بالحدود الجغرافية".

ويلاحظ أنه قد جاء فى ديباجة الشرف الصحفى الدولى الذى وضعته لجنة حرية الإعلام التابعة للمجلس الاقتصادى والاجتماعى فى دورتها الرابعة عشرة فى عام ١٩٥٢ ما يلى:

"أن حرية الإعلام والصحافة حق أساسى من حقوق الإنسان ومحك لجميع الحريات التى ينوه بها ميثاق الأمم المتحدة وينص عليها الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، فهى عامل جوهرى يتطلبه التقدم فى سبيل التوفيق وصون السلام".

والملاحظ أن منظمة الأمم المتحدة قد بادرت بالاهتمام بجهاز التليفزيون (كأحد أجهزة الاتصال أى الإعلام والثقافة) الذى بدأ تسويق معداته فى نهاية الحرب العالمية الثانية، وأن كان أول إرسال تليفزيونى منظم كان قد بدأ فى فرنسا فى عام ١٩٣٣. وبدأ التليفزيون العربى ببغداد فى عام ١٩٥٨، وفى بيروت فى عام ١٩٥٩، وفى القاهرة فى عام ١٩٦٠، وعقد المؤتمر الدولى للتليفزيون فى الإسكندرية فى عام ١٩٦٢.

ويرى البعض أن جهاز التليفزيون المصرى بعد إقامته بيننا أكثر من ٢٥ عاما عايش فى خلالها ستة ملايين أسرة. والسجلات الرسمية لا تذكر عدد الأجهزة المنتشرة فى ربوع الجمهورية المصرية العربية من أقصاها إلى أقصاها وأن اعترفت بأهمية جهاز التليفزيون وخطورة تأثيره. وذلك كما تقول السجلات الرسمية أنه:

"قناة الاتصال الوحيدة التى اجتمعت لها كافة الميزات التى انفردت ببعضها قنوات الاتصال (كالسينما والمسرح والإذاعة.. إلخ).. وإذا كانت المجتمعات الحديثة فى الدول المتقدمة حضاريا، قد تنبهت إلى أهمية "التليفزيون" وأهمية ما يتمتع به من خواص متميزة جعلته فى مقدمة قنوات الاتصال، وإذا كانت هذه الدول المتقدمة ذات المستوى الحضارى المرتفع قد عملت على الاستفادة من إمكانات التليفزيون واستغلاله فى كافة مجالات

الحياة، بدءا من الإعلام والتثقيف والترفية، وانتهاء باستخدام الدوائر التليفزيونية المغلقة في مجالات التعليم بكافة مراحله وفى مجالات التدريب المختلفة، فأن المجتمعات الآخذة حديثا بأسباب الحضارة فى الدول النامية أكثر حاجة إلى الاستفادة من إمكانات التليفزيون"..

والملاحظ أن البرامج التى يقدمها جهاز التليفزيون المصرى فى خلال ساعات الإرسال برامج شتى منها الدراسى والثقافى والترفيهى وخدمات موجهة وسياسى ودينى وتعليمى وإعلانات تجارية فضلا عن برامج الطوائف. وقد تضمنت هذه البرامج ما يخص الأطفال والشباب.

ولا جدال فى أن انتشار أجهزة التليفزيون وبخاصة فى الفترة الأخيرة، بجانب استخدام أجهزة التليفزيون "الملون" قد صرف عددا كبيرا من الأطفال (وغيرهم من الشباب والكبار) عن متابعة الإذاعة فى الراديو، خاصة بعد كهربة الريف، ووصول الإرسال إلى القرى.

وإذا تحدثنا عن علاقة جهاز التليفزيون المصرى بما يبثه من برامج بتنمية الأطفال، فأن هذا الجهاز له علاقة هامة بتنمية الوعى لدى الكبار الراشدين فيما يتعلق بضرورة تثقيف الأطفال وبوسائل هذا التثقيف وصوره وبكيفية المفاضلة بين هذه الوسائل.

أن قضايا الطفل المصرى خطيرة وهامة وتحتاج إلى الاهتمام الواعى من الدولة ومن جماعات الأسر وغيرها من الجماعات. فالمعروف أن الأسرة "السوية" هى مهد الضمير الإنسانى، أى أنه لا يمكن لإنسان ما وحده أن يكون لنفسه ضميرا، وأنه يحتاج بالضرورة إلى الجماعة "السوية" لتكونه له. أى أن الادراك الخلقى تنبت جذوره فى حياة الأسرة مع ملاحظة أن أجهزة التنشئة الأخرى أصبحت تشترك فى تكوين هذا الادراك ومن هذه الأجهزة كما سبق أن أوضحنا أجهزة الإعلام والثقافة ومنها بالضرورة جهاز التليفزيون.

والملاحظ، وهذا كلام معاد تحدث فيه الكثيرون، أن مجتمعنا المصرى المعاصر فى ضوء ظروفه الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية يئن من أدواء ومشاكل عديدة تقف فى سبيل تنميتة ومنها

بالضرورة مشاكل الشباب وقضاياهم. وأعيد كلام الآخرين مرة أخرى وأقول أن هذه الأدواء والمشاكل تجعل من مجتمعنا مجتمعا متخلفا. ومن ثم فأنه من العسير أن يقوم المجتمع بفئاته وقادته بالتنمية المرجوه. وأقصد بفئات المجتمع المصرى المعاصر هنا أهمها، أى فئة الشباب الذين فى فئة العمر من سن ١٥ إلى سن أقل من ٣٠ سنة الذين بلغت نسبتهم فى ضوء عدد السكان التقديرى فى عام ١٩٨٥، نحو ٢٧٪ من سكان الجمهورية. فالشباب هم حملة مشاعل التنمية. أى أن التنمية بهم ولهم ولمن يأتى بعدهم من أجيال.

والملاحظ أننى لا أوافق أبدا على اتهام أجهزة الإعلام والثقافة ومنها جهاز التليفزيون، وحدها، بأنها سبب ضياع أعضاء المجتمع المصرى المعاصر وبخاصة الشباب منهم. صحيح أن هذه الأجهزة كما سبق أن ذكرت تؤثر على أطفال المجتمع وشبابه فى سن المراهقة الأولى، بمعنى أنها قد تغرس فيهم بعض الاتجاهات التى تنفر منها أهداف قيم المجتمع المصرى الإيجابية. ولكنها أى هذه الأجهزة لا تمد باقى أعضاء المجتمع الآخرين إلا بمجرد معلومات وآراء. ونجد كما سبق أن لاحظنا أن الأميين فى مجتمعنا لا يفيدون كثيرا أو قليلا من برامج أجهزة الإعلام والثقافة ومنها جهاز التليفزيون، وأن هؤلاء الأميين وبخاصة ممن يعانون من الأمية الأبجدية قد يصيبهم الضرر المعنوى مما يسمعونه أو يرونه ويسمعونه، فهم لا يرون ولا يسمعون فى ضوء ظروفهم إلا ما يتمنون أن يروه أو يسمعوه!

وأننى أرى بحق أن المسئولين عن جهاز التليفزيون المصرى بل وعن أجهزة الإعلام والثقافة فى الجمهورية، رجالا كانوا أو سيدات او آنسات، يعتبرون من القادة الثقافيين فى المجتمع المصرى المعاصر. والملاحظ أن عملية بناء مجتمعنا الجديد هى عملية جذرية وشاملة، أى أن زواياها عديدة. تتضمن البناء الاجتماعى والبناء الاقتصادى والبناء السياسى والبناء الأيديولوجى أو الثقافى غير المادى جميعا. وتعنى هذه العملية مواجهة الكثير من التحديات. وليست هذه التحديات هى، فحسب، تحديات عمليات الإنتاج ورفع مستوى المعيشة وإرساء التنظيم السياسى الوطنى، وغرس مبادئ الديمقراطية وأنواعها (الثقافية والعلمية فضلا عن السياسية

مثلا)، ومواجهة أعداء الوطن فى الخارج وفى الداخل وتطبيق قواعد العدالة وتكافؤ الفرص، بل هى أيضا خلق المناخ الثقافى الاجتماعى ذو الأهداف الإيجابية الذى فى ظله يمكن أن تواجه كل هذه التحديات. أننا فى مسيس الحاجة إلى تطهير المتناقضات الثقافية الاجتماعية فى مجتمعنا المصرى المعاصر، وإلى التخفيف من حدة ألوان الصراع الناشىء عنها. ولن يفعل ذلك سوى القادة الثقافيين المصريين (ومنهم بالضرورة القادة الإعلاميون جميعا وبخاصة قادة جهاز التليفزيون المصرى). وانني أرى أن تطهير المتناقضات الثقافية الاجتماعية والتخفيف من حدة ألوان الصراع الناشىء عنها ييسران بالضرورة وضوح الرؤية عند أعضاء مجتمعنا المصرى المعاصر (أطفالا كانوا أو شبابا أو كبارا)، وأن وضوح الرؤية يعنى تيسير بذر بذور الاستعداد للتغيير إلى الأفضل. وعلى هؤلاء القادة أن يجندوا جماهير الشعب فى سبيل مواجهة المشاكل القومية ومنها مكافحة الأمية ومكافحة تعاطى المخدرات بأنواعها وتهريبا والاتجار فيها ومنها مواجهة مشكلة السكان وغيرها من المشاكل القومية. أن تجنيد جماهير الشعب وبخاصة من كانوا من فئة الشباب كما حددتها النظرة الحالية يعنى قيادتهم. وقيادة هؤلاء تعنى الاتجاه بطاقاتهم نحو العمل الصالح. والمعروف ان العمل الصالح هو شرط الوجود الإنسانى، والتحديات التى يواجهها المجتمع المصرى المعاصر يمكن بالقيادة المخلصة والقدوة الصالحة واختيار الهدف أو الأهداف وتيسير المشاركة فى هذا الاختيار والاسهام فى إصدار القرار - يمكن أن تواجه وأن توجه فى سبيل تحقيق الآمال المرجوة.

فالصحراء، مثلا، لن تخضر دونما عمل بناء قادر واع يتفجر بالضرورة فى ضوء وضوح الرؤية عند أعضاء مجتمعنا. والصحراء مهما رددنا لن تخضر وحدها أو لمجرد أننا نفوت عليها!

والمعلوم أنه فى ضوء العلم لا شىء مطلق. وجهاز التليفزيون يمكن أن يفيد ويمكن أن يضر(*) ولعله أن يفيد من يمارسون بث برامجه كمصدر

(*) يحدث ذلك لكل شىء من الأشياء ومن كل شىء من الأشياء ماديا كان مثل هذا الجهاز وغيره كجهاز الفيديو أو جهاز الكمبيوتر أو معنويا فالحق عند غير الأسوياء

للرزق والشهرة، ولعله أن يضر بأن يدمر طاقات الشباب المصرى أو يزيف أهداف الحياة المشرقة التى يرنـون إليهـا. ولعل برنامجا يبث "مباراة لكرة القدم مثلا" أن ييسر على رجال شرطة المرور أعباءهم، ولعل نفس البرنـامج يبث أيضا ما تنفر منه أهداف قيم مجتمعنا الإيجابية ومثله العليا. ومـن الظلـم الفادح أن نلقى العبء على أجهزة الاتصال الجماهيرى ومنها أجهزة الإعـلام والثقافة التى تتضمن جهاز التليفزيون. فنحن جميعا نتاج مجتمعنا أقصد نتـاج أجهـزة التنشئة الاجتماعيـة التـى توجـد عـادة فيـه. وكـل مجتمـع يسـتحق المواطنين الصالحين الذين فيه كما يستحق المواطنيـن غيـر الصـالحين الذيـن فيه. والإنسان المصرى يصنع بالضرورة مجتمعه. وإذا صلح المجتمع صلـح أعضاؤه وكذلك، فى الوقت نفسه، إذا صلح أعضاء المجتمع صلح المجتمع.

ولعل الحل الأمثل لتكوين المواطن الصالح المصـرى أن نعمـل علـى تحديد سماته التى يرى المجتمع المصرى فى الوقت الراهن ضرورة التحلـى بها فى ضوء محددات شخصيته سواء كانت هذه المحددات تكوينية أو ثقافيـة اجتماعية أو نفسية عقلية. على أن تعمـل أجهـزة التنشـئة الاجتماعيـة المشـار إليها متضامنة فى ظل سياسة قومية تتوافر لهـا الإمكانـات الماديـة والبشـرية من أجل غرس السمات، التى تمت الموافقة عليها، فى نفوس أعضـاء المجتمع بخاصة الأطفال منهم والشباب.

وبالإضافة إلى ما سبق فأننا نلاحظ أن بعض الثقافات يجتذب كل مـا هـو جديـد أو مسـتحدث. أى أن فكـرة الجـدة، فـى حـد ذاتهـا، قـد تكـون سـببا لاختيار ما هو جديد ومحاولة استخدامه. أن الأمريكييـن مثـلا، يفعلـون ذلـك. ويلاحظ أن الإعلانات عن البضائع أو الخدمات فى المجتمع الأمريكى تستفيد مـن هـذا الاتجـاه عنـد الأمريكيين. فـالجديد والأحسن والـذى طـرأت عليـه التحسينات، كل ذلك يجتذب أعضاء هذا المجتمع.

ويبدو ان الجديد أو المستحدث فـى المجتمعـات الصناعيـة (التقدميـة) يكون، عادة، موضوع اجتذاب أنظار هذه المجتمعات. ولعل النظام الصنـاعى ذاته أن يكون صانع هذه القيم والاتجاهات. وعلـى العكـس مـن ذلـك نجـد أن

من الناس باطل عند الأسوياء منهم، والباطل عند الأخيرين حق عند الأولين والأمثلة على ذلك عديدة.

المجتمعات غير الصناعية النامية، فى أنحاء الدنيا، لا يأبه أعضاؤها، بنفس الدرجة للجديد أو المستحدث. نجد الشخص فى هذه المجتمعات وكأنه قد يكون، شرطيا، لينظر إلى الأشياء الجديدة نظرة ملؤها الشك. وحتى إذا لم يكن متأكدا من هذه النظرة، فهو على الأقل يبدو غير مكترث.

والقدرية فى مجتمع ما تتحو نحو التمسك بالقوى التقليدية فى هذا المجتمع. وتشكل، فى الوقت نفسه، قوى مانعة للتغير توازى القوى الأخيرة. ونرى فى المجتمعات الصناعية (التقدمية) أن الناس قد أثبتوا لأنفسهم كما أثبتوا لغيرهم أنهم قادرون على التسلط على الطبيعة فضلا عن الظروف الاجتماعية التى تواجههم، وأى موقف اجتماعى غير مرغوب فيه لا يعنى عندهم إلا مجرد حاجز يمكن التغلب عليه. أو يكون مجرد تحدى لما لديهم من أصالة. ويبدو أن أعضاء المجتمعات الصناعية يعتقدون أن أى أمر من الأمور يمكن تحقيقه. أو على الأقل يمكن، فى ضوء خطة سليمة، أن يواجه. وعلى العكس من ذلك نجد المجتمعات غير الصناعية (النامية) حيث درجة التسلط على الطبيعة أو على الظروف الاجتماعية تكون عادة درجة منخفضة. أن الجفاف الذى يهاجم فى وحشية بعض هذه المجتمعات أو الفيضانات التى تغرق بيئتها الجغرافية أو إصابة محصول من محصولاتها بحشرة معينة. كل ذلك. يرجع، فى نظر أعضاء هذه المجتمعات، إلى تأثير غضب الآلهة أو الأرواح الشريرة التى لا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيها وأن كان من الواجب عليه أن يسترضيها. والملاحظ أن مستوى المعيشة فى المجتمعات غير الصناعية (النامية) يجعل أى عضو من أعضائها يعيش، عادة على الكفاف. وهذه المجتمعات لا تيسر وجود الخدمات الاجتماعية والطبية اللازمة لأعضائها. والناس فيها يموتون فى سن مبكرة. وتحت كل هذه الظروف، يكون من المتوقع أن يتسرب اليأس إلى نفوس أعضاء هذه المجتمعات. اليأس من تغير أحوالهم إلى الأفضل لأنه مهما حدث أو يحدث فهو من الآلهة أو الأرواح الشريرة وارادة الآلهه أو الأرواح الشريرة فوق كل إرادة. إرادة الطبيعة، وإرادة الظروف الاجتماعية، وإرادة الناس جميعا.

ونلاحظ أن كل مجتمع يعجب بثقافته (بمعناها العلمى). المجتمعات الغربية تفعل ذلك. والمجتمعات الشرقية ترى ذلك. وكل مجتمع من

المجتمعات، بأسلوب أو بآخر، يرى أعضاؤه، عادة، أن ثقافته هى أحسن الثقافات. أن أعضاء المجتمعات البدائية قد يعترفون بأن المدية المصنوعة من الصلب خير من المصنوعة من الحجر، وأن الوعاء المصنوع من الألمنيوم أفضل من المصنوع من الفخار. ولكن هذه الأشياء بعض العناصر الثقافية وليست كلها. أن جوهر العناصر الحقيقيه، كما أراه ويشاركنى آخرون، يكون فى محيط تفكير الناس وما يعملون. وفى اتجاهاتهم. وفى الأشكال الاجتماعية. وفى العقائد الدينية. ولعل قياس مدى امتياز هذه العناصر الثقافية أو حتى البرهنة على صحتها. مسألتان غير يسيرتين. وأن كان من الممكن، فى ضوء العلم، أن تتحققا.

وكما يعجب الناس بأساليب الحياة التى يعيشونها فى مجتمعاتهم، نجدهم كذلك يتفاخرون بها. كما نجد لونا من الكرامة الشخصية قد ينبت بتأثير بعض هذه الأساليب. أن هذا اللون من الكرامة يكون كاذبا إذا وجد عضو المجتمع من العيب أن يتعلم لأنه رجل بالغ، بحجة أن التعلم لا يكون إلا للأطفال. وعلى الرغم من أنه كاذب، فهو موجود، فى المجتمعات التى لا تؤكد "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد"، ولأنه موجود فهو مانع من التغيير إلى الأفضل. ومن قبيل هذا اللون الكاذب من الكرامة، أن نجد الفلاحين يرفضون شراء البذور الصالحة بأسعار منخفضة. لأن هذا الشراء يجعلهم فى نظر أنفسهم وربما فى نظر الآخرين أقل كرامة. لأن الفلاح صاحب الكرامة هو الذى ينتقى البذور من المحصول الذى زرعه هو نفسه. ومن الملاحظ أن النساء كبيرات السن، فى الأسر الممتدة، فى القرية لهن سطوة على الأصغر من النساء. وقد يقفن حائلات أمام الأخيرات، إذا كن حوامل أو فى حاجة إلى العلاج، للذهاب إلى المستشفى أو إلى أحد الأطباء المتخصصين.

وحواجز العجب والتفاخر وخشية ضياع ماء الوجه ضد التغيير إلى الأفضل لا توجد، فحسب، فى المجتمعات البدائية أو الريفية. وإنما نجدها أحيانا، فى بعض المجتمعات الصناعية. فى المجتمع الأمريكى مثلا. حيث نرى أن بعض طلبة الدراسات العليا فى جامعة هارفارد يستنكفون من

حضـور فصـول اللغـات الأجنبيـــة، ويفضلـون تعلـم هـذه اللغـات بأنفســهم بالمراسلة.

وتبدو هذه الحواجز، واضحة، عندما نرى بعض النـاس يجـدون مـن العيب أن يعملوا بأيديهم. لأن العمل اليدوى، فى ضوء نظرتهم، عمل مشين.

والملاحظ ان أساليب إشباع الحاجات فى الحياة عديدة ومتباينـة. وليس بالضرورة أن تؤخذ فى الاعتبار الناحية الاقتصادية، فحسب، لتفضيل أسلوب على آخر. ليس من الضرورى، مثلا، أن تطلب من الفلاحين زراعـة نوع معين من المحاصيل لأنه أرخص أو لأنه يعطى كمية أكبر. ثم نتوقع أن يوافقوا على زراعته فى التو واللحظـة. أنهم قد يرفضـون، وذلك لأن قيمـة الكيف فى تقديرهم أعلـى مـن قيمة الكم. ونجد نفس الملاحظـة فـى محيط عادات الأكل. حيث قيمة التذوق تلعب دورا هاما فى قبول كل ما هو جديد.

ويلاحظ أنـه مـن الصعـب أن ترتبط كـل عناصر الثقافة ونظمهـا، منطقيا، بعضها ببعض. حيث نجد بعض هذه العناصر وهذه القيم قد يرتبط منطقيا فى سهولة ويسر. وأن البعض الآخر ليس كذلك. لقد رفض هنود "النافاهو" (Navaho) الديانة المسيحية وقاوموها لأن العناصر الثقافية والنظم الثقافية المتعلقة بعقائدهم منطقيـا مـع العنـاصر الثقافيـة والنظـم الثقافيـة المسيحية. أنهم يخشون المـوت خشية رهيبـة كما يخشون الموتـى وكـل مـا يتعلق بهم أو بعودتهم أو قيامهم. والديانة المسيحية تستند أساسا علـى المـوت وعلى قيامة الأموات.

ونجـد فـى البـلاد التـى تؤمـن بالبوذيـة المشـاكل العديـدة التـى تواجـه مكافحة الحشرات الضارة بالزراعة. لأن البوذية، كديانة، تحـرم قتـل كـل مـا هو حى مهما كان شكل الحياة فيه.

والملاحظ أن أى تغيير ثقافى لا يمكـن أن يحـدث فـى عزلـة لأن أى تغيير يولد، عادة، تغيرات ثانوية تحدث بالتبعية. وقد تتسع التغييرات الثانوية حتى تصل إلى المناطق الثقافية البعيدة فى أعمـاق تصرفـات النـاس. وكذلك نجدأن مدى التغييرات التى يمكن أن تستحدث يتوقف علـى بعض التغييرات الأخرى التى تحدث أو التى يكون من المقصود حدوثها، ومدى تأثيرها علـى

قبول التغييرات المستحدثة أن التغييرات المستحدثة لها ثمن اجتماعى معين. أن مزايا المستحدث يجب أن تكون أعظم من النتائج المتوقعة حتى نتوقعقبول هذا المستحدث. فى قرى الهند، مثلا، نجد الناس يطبخون طعامهم على المواقد المفتوحة فى المطبخ. ولا توجد مداخن. والنوافذ قليلة. ومن ثم يملأ دخان المواقد حجرات المنزل، ويؤثر الدخان، بدوره، على اسقف الحجرات.ان طبخ الطعام فى هذه الأحوال أمر غير مريح. بل هو يسبب بعض الأمراض. منها أمراض العيون. وعندما استحدث نظام آخر للطبخ حيث المواقد المغلقه المتصله بمداخن، وحيث بيعت هذه المواقد بأثمان متواضعة. لم يقبل فلاحو الهند هذا النظام وكان نصيبه الفشل. وذلك لأن اسقف الحجرات مملوءة بالنمل الأبيض الذى يقتله الدخان، أو يضعف قواه. وأن المواقد الصحية الرخيصة تعنى عدم قتل هذا النمل الأبيض وتعنى تغيير الأسقف من حين لآخر. أى تعنى مصاريف أبهظ وتكاليف أكثر. الأمر الذى لا يستطيع الفلاحون، فى ضوء ظروفهم الاقتصادية، أن يتكبدوه. وفى "بوليفيا" لوحظ أنه عندما أدخل نوع معين من الأذرة "الأذرة الكوبية الصفراء" أن هذا النوع له مزايا عديدة. منها أنه ينمو فى المناطق المعتدلة، وأنه ينضج بسرعة، وأنه أكبر حجما من الأنواع المحلية الأخرى، وأن مناعته ضد الحشرات أقوى، وأنه يغل محصولا أكبر.. إلخ، ولقد توقع الخبراء أن يسهم نوع الأذرة الجديد فى تحسين التغذية للناس والحيوانات. وكان هذا التحسين الهدف الأول من إدخال هذا النوع الجديد. وقد وجد أن زراعة نوع الأذرة الجديد قد لاقت إقبالا شديدا عند المزارعيين، كما لاقت نجاحا. ولكن لعوامل أخرى غير التى توقعها الخبراء. أن صلابة هذا النوع. وأن يسرت تخزينه. كانت عاملا معوقا لطحنه، ورغب المزارعون عن طحنه لأنه يستغرق وقتا أطول فضلا عن بعض الصعوبات الأخرى. منها أنهم غير راغبين فى إرسال المحصول إلى طواحين المدينة. ومع ذلك فقد تحول الزارعون عن طحن المحصول إلى استخدامه فى صناعة المشروبات الروحية التى يستطيعون بيعها بأثمان عالية. ومن ثم نجد أن نوع الأذرة الجديد قد يسر صناعة المشروبات الروحية بدلا من تحسين تغذية الناس والحيوانات فى هذه المنطقة.

والملاحظ أننا نعلم نماذج الكلام بسهولة عندما نكون أطفالا، ولكننا، كبالغين، نجد الصعوبة فى تعلم اللغات الأجنبية. وبخاصة نطق هذه اللغات. والثقافة في مجتمع ما تحدد، عادة، أوضاع النوم عند أعضاء هذا المجتمع، كما تحدد أوضاع وقوفهم وجلوسهم واسترخائهم. والثقافة فى مجتمع ما، تحدد الإشارت والرموز التى يستخدمها أعضاء هذا المجتمع. وكيف يمسكون الأدوات وكيف يستعملونها. وكيف يدربون أجسامهم إزاء العديد من المواقف. نجد الناس فى أفريقيا، مثلا، إذا كانوا واقفين، يقفون على ساقين مستقيمين" وإذا انحنوا ينحنون من الوسط لكى يتيسر لهم العمل بالأدوات قصيرة اليد التى يستعملونها. ونجد الناس فى بعض المجتمعات وهم يطبخون الطعام، يفعلون ذلك وهم يجلسون. ومن ثم تكون المواقد منخفضة، وقد يصيب الطعام، من جراء ذلك، بعض الأقذار. وعندما اقترح فى جزائر "كوك" أن يطبخ الطعام على مواقد مرتفعة رفض الناس ذلك. لأن هذا الوضع غير مريح لأنه يضطرهم إلى الوقوف بدلا من الجلوس. ونجد نفس الملاحظة عند استعمال المرحاض العالى بدلا من المرحاض العادى. نجد أن الأشخاص الذين تعودوا فى حداثتهم على استخدام المرحاض العادى لا يستريحون إذا اضطروا إلى استخدام المرحاض العالى. ومن حق القارئ أن يرجع إلى كتاب "جورج م. فوستر".

Tradition cultures and the impact of the tchnological change, (N.Y. Harper and Row) 1965, pp. 66-89.

ولعل بعض العوامل الثقافية المعوقة للتغيير إلى الأفضل أن يكون واضحا فى مجتمعنا المعاصر. ان الكثير مما ذكرناه عن هذا الموضوع، وغيره يعيش معنا لا يزال. أنه يعيش معنا كرواسب بالية، ينتظر الدراسة الموضوعية حتى يفهم، ويواجه أو يوجه، حتى يتغير إلى الأفضل ويكفى أن نذكر بعض هذه العوامل المعوقة للتغيير. منها الاتجاه غير العلمى السائد وبخاصة فى الريف المصرى. فتفكير الفلاح تفكسير حسى. أى أنه يعتقد فيما يرى ويحس. ومنها نظرة الفلاح نحو عملية استبدال مورد المياه وذلك بحفر آبار "صحية كمورد جديد يستخدمها بدلا من مياه الترعة الضارة. ومنها حذر الفلاح وتردده. وبخاصة فى استخدام الآلات التى بواسطتها يمكن معرفة مقدار ما ينتج. أنه يفضل استخدام النورج، مثلا، على استخدام آلات الدرس

الحديثة. لأن المحصول سر بينه وبين ربه ولا يريد أن يعرفه أحد. ومنها احتماء الفلاح في ضباب الغيبيات. فوباء دود القطن غضب من الله جل وعلا. ومنها نظرة الفلاح إلى الحيوانات ومنزلتها العالية عنده ومبيتها فى داره مع زوجته وأولاده. ونجد هذه العوامل الثقافية المعوقة للتغيير إلى الأفضل في أمور أخرى. منها النظرة العامة نحو الأطفال ونحو الشباب. ومنها مفهوم الوقت.. ومفهوم الحكومة.. ومفهوم المرأة عند الرجل.. ومفهوم الرجل عند المرأة.. إلخ (انظر سيد عويس: الخدمة الاجتماعية ودورها القيادى فى مجتمعنا الاشتراكى المعاصر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٦، صفحات ٢٢٠-٢٢٤.

والملاحظ أن الأغلبية الساحقه من المصريين المعاصرين لا يأكلون لحم الخنزير فهو حرام عند المسلمين منهم، وقد يذكر المصريون المعاصرون ما كاد أن يحيق ببيع شراب "البيبسى كولا" عندما روج بعضهم، نكاية فى المسئولين عن إنتاج هذا الشراب، فكرة أن من عناصر هذا المشروب يوجد دهن الخنزير. ولعل إقامة الزوايا والمساجد على الترع فى بلادنا وما يستلزم الصلاة فيها من عمليات الوضوء وما قبل الوضوء.. أن تكون عاملا من عوامل انتشار البلهارسيا والانكلستوما. ولعل محاولة التغيير، فى هذا المجال. أن تكون أمرا شاقا يحتاج إلى توعية خاصة خالصة ومخلصة، كما يحتاج إلى إمكانات مادية معينة. واستعمال "ورق التواليت" فى مجتمعنا، فى محيط بعض جماعاته أمر مشكوك فيه لعوامل دينية. على الرغم من القدرة على شرائه. وبالمثل قد نجد أمثلة أخرى عديدة حيث تلعب قيمة التذوق، فى مجالها، دورا حاسما، ومن هذه الأمثلة. عدم الإقبال على شرائه اللحوم المستوردة، أو على شراء بعض المأكولات المعلبة. ولعل الموقف السلبى للعديد من أولياء الأمور فى الأسر المصرية المعاصرة من عملية تنظيم الأسرة، أن يرجع إلى بعض العناصر الثقافية السائدة فى المجتمع المصرى المعاصر. بعضها يرجع إلى تفسير خاطىء لوجهة نظر الدين، وبعضها يتصل بقيمة العصبية السائدة اتصالا وثيقا، وبعضها يتصل بعنصر أو أكثر من عناصر مقومات المكانة الاجتماعية المكتسبة فى مجتمعنا، كما أن بعضها، أيضا، يرجع إلى عوامل اقتصادية بحتة.

وفى ضوء ما سبق.. نجد بعض العوامـل الثقافيـة التـى قـد تقـف فـى سبيل التغيير إلــى الأفضـل. وهـى عوامـل، إذا حاولنـا هـذا التغييـر، لابـد أن تؤخذ فى الاعتبار. حتى نضمن التغيير المنشـود. أى أن تعويقهـا للتغييـر لا يمكن أن يكون مطلقا فالأشياء المطلقة، والأمور المطلقة، فى ضـوء العلـم، لا يمكن أن يكون لها وجود.

ثالثا:

نظرات إلى حياة

المرأة المصرية

* النظـرة إلى مكـان المـرأة المصريـة ومكانتهـا الاجتماعية
* النظرة إلى عوامل الإشباع الجنسى
* النظر إلى تكوين الأسرة المصرية بأنواعها ووظائفها الثقافية والاجتماعية



ثالثا : نظرات إلى حياة المرأة المصرية

٨ - النظرة إلى مكان المرأة المصرية ومكانتها الاجتماعية

أن المراة فى بلادنا كانت ولا تـزال العمـود الفقرى للأسـرة. وكيـان الأسرة الصـالح يتوقف، إلى حد كبير، علـى صلاحيـة المـرأة كزوجـة وكـأم. ومع ذلك فقد لا يرى البعض منا هذا الرأى. يرى هؤلاء فى المـرأة عواملهـا التكوينية فقط.. أى أنهم يرون تباين هذه العوامل عنها فى الرجل.. ويـرون، لذلك، أن الرجل هو الأقوى والأعظم وأن المرأة هى الأضعف والأحقر.

وما العوامل التكوينية، فى رأيـى، سوى جزء مـن أجـزاء شـخصية المرأة الدينامية.. فهناك العوامل الثقافية الاجتماعية والعوامل النفسية والعقلية التى تكمل الصورة الحقيقة لهذه الشخصية.

وكما يرى هؤلاء عوامل المرأة التكوينية فحسب، يـرون كذلـك دورا اجتماعا واحدا من الأدوار الاجتماعية التى تسـتطيع المـرأة أن تقوم بهـا فـى المجتمع.. أى مجتمع، وأقصد بذلك دورها البيولوجى الاجتماعى فحسب. ولا يرى هؤلاء الأدوار الاجتماعيـة الأخـرى التـى قد تؤديهـا المـرأة فـى محيـط الأسرة كأم وكزوجة وكأخت وكأبنة، ولا يرون دورها كمديرة لشئون البيـت ودورهـا كصديقـة لأبنائهـا ودورهـا كزميلـة لزوجهـا. وينسـون فـى غمـار تعصبهم الأجوف أدوارها الاجتماعية الهامة، فى خارج محيط الأسرة، وهـى الأدوار العديـدة التـى تسـتطيع أن تشـترك فـى أدائهـا. جنبـا إلـى جنـب، مـع الرجل، فى كل المجالات.. فى سبيل بناء المجتمع.

أن المرأة لا يمكن أن تكون امرأة فحسب. أقصـد لا يمكـن أن يكـون مفهوم المرأة بمعناه الضيق فحسب، أى بمعناه البيولوجى الاجتماعى فحسب. ولكن قد تكون المرأة امرأة ذات شخصية اجتماعية، أقصد قد تكون لها أدوار اجتماعية عديدة دينامية متداخلة تؤديها فى المجتمع الذى تعيش فيه. والرجـل كذلك قد يكون لـه أدوار اجتماعيـة عديـدة متنوعـة ولا شـك أن هنـاك أدوارا اجتماعية لا يقدر على أدائها الرجال. فعلى الرغـم مـن أن الرجل قـد يـؤدى الوظيفة الاجتماعية للأم فى تنشئة ابنه. فهو لن يستطع أن يلد ولدا.

والملاحظ أن الشخصية الاجتماعية للمرأة تزداد نموا كلما نمت جسميا ونضجت عقليا وعاطفيا وكلما نمت خبراتها الاجتماعية الثقافية، أي كلما زادت علاقاتها واتسعت مجالاتها، أي كلما تعددت أدوارها الاجتماعية التي تؤديها للمجتمع الذي تعيش فيه.

والملاحظ، أيضا، أنه كلما ازداد تعدد الأدوار الاجتماعية التي تؤديها المرأة، زادت مكانتها الاجتماعية ارتفاعا. وأن عكس ذلك صحيح، أي أن هذه المكانة الاجتماعية تنخفض ويقل خطرها، وتضعف قيمتها الاجتماعية كلما قلت أدوار المرأة الاجتماعية التي تؤديها للمجتمع الذي نعيش فيه.

وقد تذبذبت مكانة المرأة الاجتماعية، ارتفاعا وانخفاضا، على مر الأيام. حدث ذلك في مجتمعنا. كما حدث ذلك في المجتمعات الأخرى. ونرى ذلك واضحا عندما كان الانتساب للأم هو النظام السائد في ظل النظام الأموي، حيث كانت أدوار المرأة الثقافية الاجتماعية عديدة، وكان التقدير الذي يضمره الابن لأمه، في مجتمعنا القديم، مثلا، من عظم الشأن بحيث نجد كثيرا في مقابر الدولة القديمة صورة أم المتوفي، في العادة، إلى جانب زوجته، بينما تهمل صورة الوالد في أغلب الأحيان.

ولا يغرب عن بال الكثير منا الظاهرة المزرية التي كانت متفشية في مجتمعنا إلى عهد غير بعيد أقصد ظاهرة "الحريم". وهي ظاهرة كانت ترمز إلى المدى الذي وصلت إليه نوعية انحطاط مكانة المرأة في ذلك العهد. وهي نوعية تأباها النفس الإنسانية، وتبين في وضوح استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، أو استغلال الرجل للمرأة، أي استغلال نصف المجتمع لنصفه الآخر.

وقد وجددت ظاهرة "الحريم" في ضوء ظروف مجتمعنا الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على الرغم من تعاليم الإسلام، دين المجتمع السائد في ذلك الحين. والدين الإسلامي، كما هو معروف، هو دين الثورة على وأد البنات. ومن تعاليمه مشروعية الزواج. فالزواج فرض عين على كل مسلم قادر. ومن تعاليمه، أيضا، أن اعتبر النساء شقائق الرجال، وأن جعل للزوجة على زوجها حقوقا. فمن حق المرأة أن تختار زوجها، وأنها بزواجها لا تفقد اسمها، ولا شخصيتها الذاتية، ولا أهليتها في التعاقد،

ولا حقها فى الملكيـة، ولا يضيع من استقلالها المـالى شـىء. ومـن حقوق المرأة على زوجهـا العشرة المعروف والعدل وحقوقهـا الجنسية والإنفـاق. وأخيرا وليس آخرا من حق الزوجة على زوجها أن يقدم لها مهرا.

ومـن تعـاليم الديـن الإسـلامى، كذلـك، أن جعـل للزوج حقوقـا علـى زوجتـه. ومـن حقـوق الـزوج علـى زوجتـه الطاعـة والقوامـة علـى الأسـرة. وتكون هذه القوامة، بالضرورة، محدودة. ومـن حقـوق الـزوج علـى زوجتـه تدبير البيت وصيانته، والطـلاق عند الضـرورة، وتعـدد الزوجـات بشـروط، وأخيرا وليس آخرا من حق الزوج على الزوجة التهذيب عند العصيان!

وعلى الرغم من الاختلاف الكبير على تفسير هذه التعـاليم الإسـلامية فهى تعاليم تسندها قيم اجتماعية تأبى، بالضرورة، وجود ظاهرة مثل ظـاهرة "الحريـم". ولكـن هـذه القيـم الاجتماعيـة نظريـة، والتعـاليم التـى تسـندها القيـم الاجتماعية النظرية شىء، وممارسة هذه التعاليم، فى ضوء الظروف والثقافة الاجتماعية والاقتصـادية والسياسية، شىء آخر. ومع ذلك فـأن مكانـة المـرأة فـى مجتمعنـا قد تطورت منذ ذلك الزمـان الأغبر. أصبحت مكانـة المـرأة الاجتماعيـة قبل عهد رفاعـة الطهطـاوى، وقاسـم أميـن غيرهـا بعـد ذلـك. وأصبحت مكانتها الاجتماعية قبل ثورة عام ١٩١٩ غيرهـا بعد ذلك. وقبل ثورة عام ١٩٥٢ نجد أن مكانة المرأة الاجتماعية غيرها بعد ذلـك. ذلـك لأن ظروف مجتمعنا قد تطورت فى هذه المراحـل تطـورا زاد مـن مكانـة المـرأة الاجتماعية ارتفاعا. فمن مجتمع إقطـاعى فـى مطلـع القرن العشـرين تحـول مجتمعنـا إلـى مجتمـع إقطـاعى شبه رأسمالى بعد ثـورة عـام ١٩١٩. ومـن مجتمع إقطاعى شبه رأسمالى قبل ثورة ١٩٥٢، يتحول مجتمعنا، فـى الوقت الحاضر إلى مجتمع يحض على رفع هامة المرأة.

ومع ذلك فالملاحظ أن علاقات الإنتاج القديمة، فى مجتمعنا الحالى لم تصف تصفية نهائية حتى الآن. فالرواسب الباليـة لا تـزال تخيم علـى منـاخ مجتمعنا الثقافى. ومنها الرواسب التى تتعلق بمعاملة المـرأة المصريـة. فهـى فى عقول الكثيرين تنسج خيوطها كالعنكبوت. ومفهوم المـرأة عند العديديـن من الرجال، فى مجتمعنا، مفهوم منحرف. ومفهوم الرجل عند العديـدات مـن النساء، مفهوم منحرف كذلـك. وصـور الانحـراف فـى كـلا المفهومين تبـدو

واضحة فى الكثير من الأمور. تبدو عند اختيار المرأة للرجل لتتزوجه وعند اختيار الرجل للمرأه ليتزوجها. وتبدو عند المغالاة فى طلب المهور. وتبدو عند تصدع الأسرة المصرية بالطلاق دونما مبرر وتبدو فى تعدد الزوجات دونما شرط واضح، وتبدو فى حجم جناح الأحداث واتجاهاته، كما تبدو، أحيانا، فيما يقوله بعض الرجال فى مجتمعنا، في ضوء بعض عناصر تراثنا الثقافى المصرى، عند الحديث عن النساء. نجد ذلك واضحا فى قولهم "لا أمان للنساء" وقولهم: "لعن الله النساء ولو نزلن من السماء"!

وصور الانحراف فى كلا المفهومين تبدو جلية واضحة فى الإتجار بالمرأة. عن طريق تكوينها البيولوجى، وقد نجد ذلك فى الإعلانات والدعاية للأفلام، وفى الإعلان عن الروائح العطرية وعن "أحمر شفاه"، وحتى فى الإعلان عن شراب "الكوكا كولا". ونجد هذه الإعلانات فى الجريدة اليومية، وفى الصفحة الأولى للمجلة الأسبوعية، وعلى الشاشة الكبيرة، وعلى الشاشة الصغيرة على السواء.

ويتفنن أصحاب هذه الإعلانات ما شاءت لهم عقولهم المملوءة بخيوط الرواسب البالية التى تتعلق بمعاملة المرأة أن تفعل. فنجدهم يتملقون شهوات الرجل فيرسموا جسد المرأة، وهو عنصر واحد من عناصر مكونات شخصيتها الاجتماعية، عاريا مرة أو شبه عار مرة أخرى، أو يرسموا جزءا من أجزائه، فى بعض الأحيان. وهم إذ يفعلون ذلك يروجون لبضاعتهم عن طريق الترويج لجسد المرأة دونما حياء. أو نجدهم يستخدمون الرموز فى بعض الأحيان الأخرى، ولهم من التفاحة المشهورة، تفاحة حواء، مجال وأى مجال. وهم إذ يفعلون ذلك يؤكدون، بوعى أو بغير وعى، رمز الخطيئة، خطيئة المرأة، فى كل لحظة. وكأنها خطيئة لم تغفرها لها رحمة الله ورضوانه. بل هى خطيئة أبدية يذكرها لها الرجل، وهو شريكها، فى كل حين، ويحاول أن ينال منها عن طريقها على الدوام.

وكما تنال الإعلانات، بأنماطها وصورها، من المرأة، يفعل ذلك، تماما، ما نجده فى مضمون بعض القصص والتمثيليات المكتوبة عنها، أو المعروضة على الشاشة الكبيرة أو على الشاشة الصغيرة أو على المسرح

يحدث ذلك فى مجتمعنــا، كمـا يحـدث ذلـك، أيضـا، فـى المجتمعـات الأخـرى والأمثلة على ذلك كثيرة.

ومن صور الإتجار بالمرأة، أقصد الإتجار بعواملها التكوينية، صورة ظاهرة البغاء.

وعندما تصفى علاقات الإنتاج الإقطاعى شبه الرأسمالى، تصفية نهائية، نتوقع وجود جيل من الرجال لا تسنح له الفرص أبدا لشراء المرأة سواء بالمال أو بأية وسيلة أخرى من وسائل السيطرة الاجتماعية. كما نتوقع أيضا، وجود جيل من النساء لا يضطرون أبدا للاستسلام لأى رجل لأى سبب سوى الحب الإنسانى الحقيقى. هذا ما نتوقعه ونحن متفائلون، على الرغم مما نراه الآن من معاملة المرأة الواقعية، فالرجل المصرى يعاملها معاملة تبدو سيئة فى ضوء مستويات المعاملة الإنسانية الرشيدة، وفى الوقت نفسه يعشقها ويدللها ويذوب من أجلها عشقا وصبابة وهياما يكتب فى ذلك الأشعار والأزجال والمواويل، ويحكى القصص والروايات ويظهر ذلك فعلا وعملا. ولعل المعاملة السيئة للمرأة المصرية وتدليلها وعشقها أن تكون أمورا غير متناقضة. فالمرأة المصرية فى نظر الرجل المصرى، حتى الآن، لا تزال متاعا. ولعلها أن تكون متاعه الوحيد المرموق. وهى إذا كانت راضية بهذا الوضع الغريب، فهى تفعل ذلك، كما سبق أن أوضحت فى ضوء العلاقات الاجتماعية.. علاقات الإنتاج الإقطاعى الرأسمالى التى لم تصف وفى ضوء بعض العناصر الثقافية غير المادية الباقية لا تزال. ومهما يكن من الأمر فأن المرأة المصرية، على الرغم من كل هذه الأمور، فضلا عن بعض العوامل الأخرى، قد عصمت الرجل المصرى من الشذوذ الجنسى الذى نرى ألوانه العديدة موجودة فى العديد من المجتمعات، وبخاصة فى المجتمعات الغربية حيث الحرية الجنسية لا التربية الجنسية فى هذه المجتمعات تسود، وحيث نجد مكانة المراة الاجتماعية فيها مكانة تغبطها عليها الكثيرات من النساء المصريات.

ولعل القارئ أن يتذكر أنه عندما رفعت السيدة هدى شعراوى وزميلاتها النقاب من على وجوههن فى عام ١٩٢٣ وهو أمر تقره تعاليم الدين الإسلامى ولا تأباه، كان هذا الأمر متوقعا فى ضوء نتائج دعوة "رفاعة

رافع الطهطاوى" إلى مناقشة مفهوم "الحب" فرأى رحمة الله أن "من أحسن الإحسان إلى البنات تزويجهن إلى من هوينه واحبينه". كان ذلك منذ عام ١٨٧٣، أى منذ أكثر من مائة عام. وإلى نتائج دعوته إلى "وحدانية" الزواج. "لأن عقد الزواج بمجرد انتهائه رابط أحد الطرفين بالآخر" ومشروط فيه الأمانة ضمنا على الوجه الذى قضته الحكمة الإلهية". وإلى نتائج دعوته "بأنه لا يليق من النساء إلا كمال الصيانة والعفة، وسلوك سبيل الحياء.. فأن الحياء ممدوح وعدمه مذموم".

وكان رفع النقاب من على وجوه النساء المصريات منذ حوالى ٦٤ عاما متوقعا فى ضوء ما ذكره "محمد عبده" وهو يتحدث عن "قوامة الرجال على النساء إذا يقول رحمه الله منذ أكثر من ثمانين عاما وهو يتحدث عن "قوامة الرجال على النساء".

"وأعلموا أن الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة فى بيوتهم إنما يلدون عبيدا لغيرهم".

وفى ضوء وقائع التاريخ المصرى نجد أن المرحوم "محمد عبده" كانت تحيط به كوكبة من المريدين المؤمنين بحرية المرأة. ونذكر من هؤلاء "قاسم أمين" و"سعد زغلول" عبد الله النديم وفتحى زغلول و"لطفى السيد" و"حافظ إبراهيم" و"أحمد شوقى" و"خليل مطران".. وكان أبرز هؤلاء "قاسم أمين" الذى نشر كتاب "تحرير المرأة" فى عام ١٨٨٩. وقد أثار هذا الكتاب جدلا عنيفا فتولى الرد على معارضيه فى كتابه الثانى "المرأة الجديدة" الذى نشر فى عام ١٩٠٦. وقد أهدى كتابه الثانى إلى "سعد زغلول".

وكانت ثورة عام ١٩١٩ التى قادها "سعد زغلول" أحد مريدى "محمد عبده" فرصة رائعة لتطور المجتمع المصرى فى ذلك الحين وأبراز قيم البذل والتضحية والجهاد ضد الإنجليز المستعمرين، باسم الدين الحنيف وباسم الشعار الذى خرج من الشعب المصرى ولم يفرضه أحد على أعضائه إلا وهو: "الدين لله والوطن للمجتمع". كانت هذه القيم التى برزت فى ظل المناخ الثقافى الاجتماعى فى ذلك الحين، كلها، قيم ذات أهداف حميدة نابعة من وجدان أعضاء الشعب المصرى، ذكورا كانوا أو أناثا.

ولما كان "النقاب" لا يمت إلى الثقافة المصرية بصلة. ولما كانت نتائج دعوة "الطهطاوى" ثم "محمد عبده" ومريديه فيما يتعلق بمكانة المرأة المصرية قد أثمرت فقد رفعن هذا النقاب من على وجوههن رغم الذين عارضوا ذلك من القادة الثقافيين المصريين مثل "محمد فريد وجدى" و"طلعت حرب". ومع ذلك فقد انتصر رفع النقاب من على وجوه النساء المصريات وبارت تجارته فى الأسواق.

ومع ذلك فالملاحظ، وبخاصة فى الريف وفى المناطق الشعبية فى المدينة، أننا نجد النقاب مرفوعا من على وجه المرأة المصرية ولكنها تحمل على رأسها الاثقال التى ينوء بحملها الرجال,. نجد المرأة المصرية فى هذه البقاع تحمل "المشنات" و"أوعية المأكولات بأنواعها"، كما تحمل "صفائح المياه". ونجدها أيضا تعمل فى بناء المساكن الجديدة أو ترميم القديم منها وتستخدم رأسها فى حمل "المونة" وفى حمل "البلاط" ولعل ما تفعله المرأة المصرية فى هذه المجالات على الرغم من رفع النقاب من على وجهها أن يخفض "هامتها".. ومن ثم يخفض "مكانتها الاجتماعية".

وإذا أدعو إلى رفع "هامة المرأة المصرية" فلعل هذه الدعوة أن تجد آذانا صاغية عند الرجال المصريين آباء كانوا أو أخوة أو أزواجا، وبخاصة ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين. عصر الحضارة العالمية، وعصر العلم والتكنولوجيا الحديثة التى بلغت الذروة العلمية أو كادت.

وإذ أدعو إلى رفع "هامة المرأة المصرية" فأن تعاليم الدين الحنيف تحضنى على ذلك. فرفع النقاب وحده لا يكفى، أما رفع الهامة فأنها تعيد الثقة فى نفس المرأة المصرية التى بدورها تمنحها لأطفالها الذين عندما يبلغون أشدهم يكونون الأدوات التى تواجه التنمية الشاملة التى يرجو تحقيقها المجتمع المصرى المعاصر.

وأننى أرى أن مكان المرأة ومكانتها الاجتماعية فى مصر تبدو واضحة إذا لاحظنا الأمور التالية:

١- أن للحكم على أى مجتمع يجب أن نحاول التعرف على:

(أ) مكان المرأة فيه ومكانتها الاجتماعية.

(ب) مستوى رعاية الطفولة فى هذا المجتمع.

(جـ) مستوى سيادة الاتجاه العلمى الحديث فى هذا المجتمع.

(د) مستوى الحياة التى يعيشها أعضاء هذا المجتمع من حيث:
المستوى المادى (الصحة + التغذية + المسكن اللائق.. إلخ).
والمستوى المعنوى (الفكرى).

٢- أن المرأة فى أى مجتمع تؤدى أدوارا عديدة منها:

دور الأم

ودور الزوجة

ودور الابنة

ودور الأخت

ودور الزميلة

ودور الجارة.. إلخ.

والرجل مثل المراة يؤدى أدوارا عديدة كذلك منها:

دور الأب

ودور الزوج

ودور الابن

ودور الأخ

ودور الزميل

ودور الجار... إلخ.

٣- أن حياة الأسرة فى مصر قديمة قدم الدهر. ونقوش الدولة المصرية القديمة تزخر بالمناظر ذات الألوان الزاهية التى تمثل لنا صورا من الحياة القديمة. ونجد فيها المصرى القديم يصحب معه ·زوجته فى

الحدائق. ونلاحظ أن زوجته تشاطره كل حياته وكل أعماله كما كانت ترافقه فى الوقت نفسه فى كل لحظة. وكان أطفالهما فى صحبتها دائما.

٤- أن العلاقات الأسرية التى نجدها فى هذه النقوش - حياة المرح والود - لا تدل فقط على ما تحويه من آثار فنية وأنما تعد كشفا جديدا ذا أهمية أساسية فى تاريخ الأخلاق. لأن هذه الصور والنقوش المدونة فوق جدران القبور، مع حكم "بتاح حتب" (التى سأذكر بعضها بعد). تقدم لنا برهانا تاريخيا قاطعا على أن الادراك الخلقى نبتت جذوره من حياة الأسرة.

٥- أنه لا يمكن لإنسان ما أن يكون لنفسه ضميرا، وأنه يحتاج دائما إلى الجماعة لتكوينه له. والمعروف أن الأسرة هى أول جماعة يبدأ فيها الطفل عندما يولد.

٦- واننى أومن بأنه إذا صلحت الجماعة صلح أعضاؤها.

واننى أومن فى الوقت نفسه بأنه إذا صلح أعضاء الجماعة صلحت الجماعة.

وأن السلوك الحسن محصور على الارجح فى أول الأمر فى دائرة الأسرة.

٧- ومن حكم بتاح حتب نجد ما يلى:

"إذا كنت رجلا ناجحا، وطد حياتك المنزلية، وأحب زوجتك فى البيت كما يجب".

"وإذا كنت رجلا ناجحا، فأسس لنفسك بيتا واتخذ لنفسك زوجة تكون سيدة قلبك".

"وأن الزوج الكيس هو الذى يجعل زوجته سعيدة أولا بالمحبة التى تلزمه أن يفسح لها فى قلبه الاعتبار الأول، ثم يأتى بعد ذلك بمستلزمات الجسم من غذاء وملابس، ثم بالكماليات كالعطور والدهان".

"وأجعل قلبها فرحا مادمت حيا،، فهى حقل مثمر لرفيقها".

٨- والانثى المصرية هى :

(أ) حاملة التراث وحافظته.

(ب) وإذا اتيحت لها الفرصة فهى تسهم فى خلق بعض عناصر الثقافة.

(جـ) تعطى دائما أكثر مما تأخذ. (أول من يستيقظ وآخر من ينام).

(د) وفى محيط ارتكاب الجرائم نجد أن نسبته عند الانثى المصرية حدثا كانت أو شابة أو بالغة نسبة ضئيلة.

٩- أن النكسة التى أصابت المرأة المصرية وبخاصة التى تؤدى دور الزوجة هى أقحام ظاهرة "الحريم" على المجتمع المصرى فأصبحت فى ضوء نتائج وجود هذه الظاهرة مجرد بضاعة ومتعة. كما أصبحت قيمتها تقوم بمحددات شخصيتها التكوينية فحسب.

ولم تؤخذ فى الاعتبار محددات شخصيتها الثقافية الاجتماعية ولا محدداتها النفسية والعقلية.

١٠- اننى فى ضوء تاريخ حياتى عشت فى الفترة التى كانت قبل قانون عام ١٩٢٩ كما عشت فى الفترة التى مرت بعدها. كنت فى الفترة الأولى يافعا والاحظ ما كانت عليه حياة المرأة المصرية وبخاصة التى كانت تؤدى دور الزوجة فقد كان الرجل بما يؤديه من أدوار يتحكم فيها فى الأغلبية الساحقة من المواقع. كانت تعيش الزوجة تحت مظلة القهر، وكانت تعيش أيضا فى ظلام الأمية بكل أنواعها. ولا تعرف من أمر دنياها إلا ما ورثته ثقافيا من عناصر ذات أصالة كانت تحملها وتحافظ عليها.

١١- وهاقد مرت فترة طويلة عدد أعوامها يربو على الستة والخمسين عاما. وعاش اعضاء الشعب المصرى ذكورا واناثا، أحداث هذه الفترة وهى أحداث جسيمة. فقد أندلعت فى خلالها الحرب العالمية الثانية، وثارت مصر ثورة عام ١٩٥٢، وبذل أبناء مصر وبناتها التضحيات من أجل نيل استقلالها السياسى. وحاربت مصر إسرائيل أربع حروب. وحدثت تغييرات جذرية فى ينية المجتمع المصرى. وانتعشت الحياة الثقافية

فانتشرت أجهزة الإذاعة وأجهزة الشاشة الصغيرة. وبنيت الجامعات وأصبح عددها ١٣ جامعة وفتحت أبوابها لشباب مصر من الذكور والإناث. وخرجت المرأة المصرية إلى ساحات العمل وأصبح متوسط نسبة من يعملن منهن فى القوى العاملة من ٢٠٪ إلى ٢٥٪. ونجد فى التعليم الابتدائى نحو ٣٩,٦٪ (١٩٧٩/٧٨) طالبة.

ونجد فى التعليم الاعدادى نحو ٣٦,٧٪ (١٩٧٩/٧٨) طالبة.

ونجد فى التعليم الثانوى نحو ٣٩,١٪ (١٩٧٩/٧٨) طالبة.

ونجد فى التعليم الفنى نحو ٢٧,٨٪ (١٩٧٩/٧٨) طالبة.

١٢- أن المرأة فى ضوء تأدية دوريها كزوجة وكأم تترك بصماتها على شخصية أطفالها منذ لحظة ولادتهم وإلى الأبد سواء قدر لهؤلاء الأطفال أن يكونوا فى المستقبل ازواجا أو زوجات أو عاملين أو عاملات أو رؤساء أو رئيسات أو مرؤسين أو مرؤسات. وسواء كانت ميادين العمل هى الحقول أو المصانع أو الدواوين أو المدارس والمعاهد والجامعات أو خدمة القتال فى سبيل الوطن(*) .

وعلى الرغم مما ذكرت من قبل فأننى أكرر أن الرجل المصرى إذ يعامل المرأة المصرية معاملة قد تبدو سيئة فى ضوء مستويات المعاملة الإنسانية الرشيدة، وتراه فى بعض الأحيان يتغنى بكيدها، تراه فى الوقت نفسه يعشقها ويدللها ويذوب من أجلها عشقا وصبابة وهياما. يتغنى فى ذلك بالمواويل والازجال والأشعار، ويحكى القصص والروايات. ويظهر ذلك فعلا وعملا، تراه يستخدم إشارت اليد والأصابع والوجه للدلالة على ذلك أحيانا. أو يستخدم الكلمات وهو يعاكس أو فى وقت الصفاء أو بعد ذلك أحيانا أخرى.

(*)عدد الطالبات الجامعيات ٢٢١٩ طالبة عام ١٩٥١/٥٠ أصبح ١٥٦٦٤٩ طالبة عام ١٩٨١/٨٠.

"كيد النسا كيد لو أبو زيد يميل منهم

لو عنتر بن شداد ليشوف العذاب منهم

لهم فعل بطال زالت الجبال منهم

الواحدة منهم فى كل بلوة تلقاها

قاعدة تقلب فتن لاجل الخراب والشر

وتكره الطيبة وفى الردية تلقاها

ومطاوعة ابليس على فعل النكد والشر

وكل يسيرة مع المخاليق تلقاها

هم النسا على الدوام وجودهم أساس الشر

والعقل لو غاب يكون السبب منهم"

و"قاضى الغرام فوق جبل عالى ينادينى

قال فين مفارق أحبابه قلت أنا ودينى

قال لى تعود للحبايب قلت ودينى

دول الحبايب العزاز

ولا لهمش فى الجمال وصفة

أنا نفسى أزور النبى واقعد حداه واصف

إن كان قلبى يبيح لغيركم ويصفى

أموت كافر ولا توفاش على دينى"

****

وفى إحدى الدراسات التى قمت بإجرائها عن ظاهرة الكتابة على هياكل المركبات فى المجتمع المصرى المعاصر" لاحظت كتابة العديد من

عبارات الأغاني المصرية التي تتضمن معاني عديدة. ومن هذه المعاني ما يترنم بالحب والهوى: "الحب كده" و"الهوى هوايا" و"أنت الحب" و"أهل الهوى مساكين" و"أهل الهوى ياليل" و"جددت حبك ليه بعد الفؤاد ما أرتاح" و"زى الهوى يا حبيبى وآه من الهوى". ومنها ما يترنم بالشكوى والعتاب والخصام والهجر والفراق والسهاد والوحدة والوداع وكيد العزال: "أروح لمين" و"بلاش أسية أرحم عنيه" و"أكثر من مرة عاتبتك وأديتلك وقت تفكر" و"تفيد بأيه يا ندم وتعمل أيه يا عتاب" و"كلمونى تانى عنك فكرونى" و"قابلته نسيت أنى خاصمته" و"هجرتك يمكن انسى هواك وأودع قلبك القاسى" و"ياهاجرنى" و"لانوم ولا دمع مخلاش الفراق فيه" (كان أصلها لانوم ولا دمع فى عنيه) و"ما أطال النوم عمرا وما قصر عمرا" (كان أصلها فما أطال النوم عمرا ولا قصر فى الأعمار طول السهر) و "من فرحتى لابنام ولابصحى" و "سهران لوحدى" و "ودع هواك" و "كايدة العزال" أنا من يومى" و "كايدة العزال يا سكينة". ومن معانى عبارات هذه الاغانى نجد ما يترنم بالامل والفرح والغزل والدعابة والتسامح والسلامة : "أمل حياتى ياحب غالى" و "من فرحتى تهت مع الفرحة" و "أبو سمرة السكرة" و "ادلع يا رشيدى على وش الميه" و "بتبص لى كده ليه ؟" و "على عينى كرملة" و "ماخدش العجوز أنا" و "انساك ده كلام انساك يا سلام" و "سالمة يا سلامة".

وقد كتب آخرون على هيكل مركباتهم تعبيرات شعبية تتضمن معانى الغزل المفتوح والغزل المستور : "آخر طريقك فين" و "النبى تبسم" و "بطل تقل بقى" و "قوللى آخر طريقك فين يا حلو ياللى ماشى" و "كده شربات" و "منى عينى هو" و "صباح الفل يا عود الفل" و "اوعى الهوى".

وقد لاحظت انه فى ضوء الدراسة المشار اليها، وفى ضوء دلالات هذه النتائج ان الكلمات والعبارات المكتوبة على هياكل المركبات موضوع الدراسة على الرغم من أن بعضها مكرر وأن معانى بعضها متشابهة، وعلى الرغم من أن اشكالها متعددة - قد اختارها كاتبوها أنفسهم بمحض ارادتهم وأصروا على كتابتها على هياكل المركبات التى يستخدمونها على الرغم من عدم موافقة الدولة على هذه الكتابة. وانهم إذ يكتبون ما يكتبون بمحض ارادتهم، فانهم فى حقيقة الامر يحاولون أن يسمعوا اصواتهم دون أن يراهم أحد، أى انهم فى حقيقة الامر يحاولون أن يسمعوا اصواتهم دون أن يراهم

أحد، أى أنهم فى حقيقة الامر يحاولون بمحض ارادتهم أن يهتفوا. ومعانى الحب والهوى والشكوى والعتاب والخصام والهجر والفراق والسهاد والوحدة والوداع وكيد العزال، فضلا عن معانى الامل والفرح والغزل والدعابة والتسامح، كل هذه المعانى تعكس العديد من العناصر الثقافية غير المادية التى تملأ المناخ الثقافى الاجتماعى لمجتمعنا المصرى المعاصر. وهم فى ضوء ظروفهم الثقافية الاجتماعية والاقتصادية قد اختاروا هذه المعانى من هذا المناخ لكى يسمعوا أصواتهم دون أن يراهم أحد، أى لكى يهتفوا هتاف الصامتين، واصطنعوا من أجل ذلك دونما وعى، جهازا اعلاميا شعبيا من أجهزة الاعلام فى مجتمعنا المصرى المعاصر يتحرك على امتداد مدن هذا المجتمع وقراه، وهو جهاز اعلامى يدعو فى ضوء طبيعته إلى تثبيت العديد من المعانى السابق ذكرها والتى لا تزال تعيش فى المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى، ومنها الحب والهوى على الرغم من أن الحب، كما يقول المثل الشعبى المصرى "عاوز كلفة علشان تدوم الألفة".

ومن ازجال "بيرم التونسى" التى شاعت وذاعت، نجد :

فى كل عام للورد أوان الا النسوان
بقدرتك نابتين ألوان أبيض وأحمر
وأنت اللى تعلم و أنا أجهل فيه أيه أجمل
من دى الخدود واللى لاتدبل ولا تتغير
ودى العيون اللى اشهدلك بها وأسجدلك
دى خلت الطاغى انقادلك والمتكبر
والشفتين اللى فالقهم كنت خالقهم
للابتسام ولا رازقهم دانت تحيد
العبد يعشق بالقوة وعشق لجوه
كمان جهنم ؟ أيه هو محناش معشر
....
يا مسلمين الله يا حريم أنا مالى غريم
غيركم أروح وياه فى جحيم يوم المحشر
الدنيا والنسوان وخلاص والراجل لاص
لا طبلة ينفع ولا بلاص لو يتكسر

والرجل المصرى منذ الزمان القديم وحتى الآن تجده يفتتن بجسم المرأة أو بعض أجزائه. ففى مجموعة طيبة وهى مكتوبة على بردية هيراطيقية ويرجع أصلها إلى مدينة طيبة عاصمة الدولة الحديثة التى أسستها الأسرة الثامنة عشرة فى عام ١٥٧٠ ق. م. يقول المحب عن حبيبته :

فريدة حبيبتى فى حسنها
ما مثلها أحد
أجمل من كل النساء هى مشرقة
أنظر اليها
كالنجمة الآلهة
فى مطلع العام السعيد
ساطعة باهرة وضاءة البشرة
جميلة العينين حين تنظر
عذبة الشفة حين تتحدث
كلمة زائدة لا تقولها
طويلة العنق جميلة الثدى
شعرها لا زورد أصيل
ذراعها يفوق الذهب
أصابعها أزهار اللوتس
مشدودة الخصر عند انسياب الردف
تزيد ساقاها من جمالها
تخطو على الأرض فى نبل
أسرت قلبى بعناقها
وأدارت رقاب كل العشاق
مشدوهين بجمالها "

وقد استمر الاهتمام بالجسم الانسانى أو بعض أجزائه وبخاصة جسم المراة، والاهتمام بالدور الذى يلعبه فى مجالى الحب و الغزل حتى الآن. نجد ذلك فى المواويل الشعبية المصرية التى يتغنى بها الشبان فى القرية المصرية المعاصرة :

٩ - النظرة إلى عوامل الاشباع الجنسى :

١ - فى ضوء التراث الثقافى الاجتماعى المصرى نلاحظ أن الاشباع الجنسى له مكانة خاصة للعوامل الآتية :

(أ) أن الله جل وعلا قد أنعم على الانسان بالغريزة الجنسية بقصد التناسل.

(ب) والتناسل هو أنبل وظائف الغريزة الجنسية.

(ج) والنكاح قبل الزواج يرغب فيه الذكور والاناث المصريون فى سن معينة بشكل ملحوظ. نجد ذلك منعكسا فى المواويل والأزجال والأغانى والنكت والألفاظ والاشارات والأصوات. ويكاد أن يكون مفهوم "الرغبة فى النكاح" فى ضوء هذا كله صنوا لكل من مفاهيم "الحب" أو "المحبة" أو "الوصال" وهى مفاهيم، كلها، فى الكثير من الأحيان، رومانتيكية.

أنظر :

"قلبى هوى بنت بتبيع خوخ فى سبتها
إذا فاتت على القوم بتسبى القوم بثباتها
لها جوز نهود يشبه كما الرمان فى سبتها
أنا من حبى فى البنت فت الأهل والبلدى
أنا تنى ماشى وراء البنت لما خار علينا الليل
أنا قلت ما طيلا يا بنت بنا بلدى
قالت ماشية العوازل وانا يا جدع بالليل
البنت معها لواحظ تشبه لسلام بلدى
الشعر منتور يشبه لظلام الليل
أنا قلت يا بنت عندى جوز بناتى بيحووا الطيور بالليل
وقفت البنت يا ناس وشالت عينها فى
الوجه كيف القمر والجسم كالليه
حرة نقية لكن الاندال سبتها"

(موال مصرى)

أنظر ايضا :

"عينى رأت بنت بيضة بتملى والندا نازل
والشعر الأصفر على الخد نازل
طلبت منها الوصال قالت لى ياجدع أرجع
لتموت قتيل المحبة والندا نازل
(موال مصرى)

(د) ومع ذلك فالملاحظ أن النكاح قبل الزواج الذى لا يكون بغرض التناسل بل بغرض الاشباع الجنسى أمر غير أخلاقى وغير مشروع. "اهربوا من الزنا كل خطية يفعلها الانسان هى خارجة عن الجسد. لكن الذى يزنى يخطئ إلى جسده. أم لستم تعلمون ان جسدكم هو هيكل للروح القدس الذى فيكم الذى لكم من الله وانكم لستم لأنفسكم" (اكو ٦ : ١٨ و ١٩) و " "ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد امراته وليكن لكل واحدة رجلها". (اكو ٧ : ٢). "وكذلك أن النساء يزين ذواتهن بلباس الحشمة مع ورع وتعقل لا بضفائر أو ذهب أو لآلئ أو ملابس كثيرة الثمن" (اتى ٢ : ٩). والجنة التى فيها "ما لاعين رأت ولا اذن سمعت. ولا خطرعلى قلب بشر" تكون للمؤمنين "والذين هم لفروجهم حافظون. الا على ازواجهم أو ما ملكت أيمانهم فأنهم غير ملومين" (المؤمنون ٥ - ٦) "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم أن الله خبيرا بما يصنعون" و "قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخواتهن او نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون"

(النور : ٣٠ - ٣١)

(هـ) فالتناسل يعنى حفظ النوع البشرى. والمجتمع الانسانى لكى يستمر يتطلب حفظ النوع البشرى.

(و) وعلى البنت أن تبقى بكرا حتى تتزوج. والا عاقبها المجتمع إذا فرطت أشد العقاب. فقد تقتل إذا فرطت أو على الأقل تنبذ وتعيش فى الحضيض.

٢ - أى أن أهم العوامل المتعلقة بموضوع الاشباع الجنسى هى :

(أ) عوامل اجتماعية : حيث يكون الاشباع الجنسى للتناسل حتى يستمر حفظ النوع ويبقى المجتمع.

(ب) عوامل ثقافية : حيث يرغب الذكور والاناث المصريون فى سن معينة فى القيام بعملية النكاح، وأن مفهوم "الرغبة فى النكاح" فى ضوء التراث الثقافى المصرى يعنى مفهوم "الحب" أو مفهوم "المحبة" أو مفهوم "الوصال". وهى مفاهيم كلها، فى الكثير من الاحيان، رومانتيكية.

(ج) عوامل ثقافية ودينية : حيث أن الله جل وعلا قد أنعم على الانسان بالغريزة الجنسية بقصد التناسل.

- وأن التناسل هو أنبل وظائف الغريزة الجنسية.
- وان النكاح قبل الزواج الذى يكون بغرض الاشباع الجنسى وليس التناسل أمر غير اخلاقى وغير مشروع.

(د) وحيث يجب ان تبقى البنت بكرا حتى تتزوج، والا عاقبها المجتمع اذا فرطت أشد العقاب.

٣ - ويكون الاشباع الجنسى بطريقة مشروعة بالزواج وتكوين الاسرة التناسلية. ويكون الزواج فى اغلب الاحيان، وبخاصة فى الريف، زواجا مبكرا للعوامل الآتية :

(أ) لتحقيق رغبة أعضاء الاسرة التوجيهية (أسرة الاب والام والاخوة والاخوات). لكل من الزوج والزوجة فالملاحظ أن الحفاوة بمناسبة الزواج اجتماعيا وثقافيا كبيرة على كل المستوبات.

(ب) لحماية الشبان والشابات من الوقوع في هذه الرذيلة. فالزواج "نصف الدين" (حديث نبوى) ومن "استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم" (حديث نبوى).

(ج) لاكتساب مكانة اجتماعية مرموقة هى مكانة الزوج للشاب الذى يتزوج، ومكانة الزوجة للشابة التى تتزوج.

فالزوج يشعر ببعض الاستقلال ويبدأ حياة رجولته ضامنا احترام أعضاء المجتمع وبخاصة الكبار منهم. والزوجة تشعر بهذا الاستقلال وتبدأ حياة أنوثتها ضامنة احترام أعضاء المجتمع وبخاصة الكبار منهم.

"قعدتى بين أعتابى (أعضاء الأسرة التناسلية) ولا قعدتى بين احبابى (أعضاء الأسرة التوجيهية). (مثل شعبى). "ظل راجل ولا ظل حيطة"، (مثل شعبى).

(د) لتخلص الزوج والزوجة، فى الكثير من الاحيان، من أعباء الصرف على أسرتيهما التوجيهية ومن قيودهما. وحيث يشترك الزوجان فى القيام بأعباء أسرتهما التناسلية ويعاون القادر منهما غير القادر. والملاحظ أن زواج البنت يرفع، فى بعض الاحيان، بعض الاعباء الاقتصادية عن كاهل أسرتها التوجيهية.

- وحيث يكتسب كل من الزوج والزوجة مكانة اجتماعية جديدة تضفى عليهما الاحترام والاستقلال.

٤- أى أن أهم العوامل للزواج المبكر هى :

(أ) عوامل اجتماعية : حيث يسعد أعضاء الأسرة التوجيهية، وهم أحياء، بزواج الابن ليكون أسرة تناسلية له امتدادالاسرته التوجيهية.

- وحيث يكتسب كل من الزوج والزوجة مكانة اجتماعية جديدة تضفى عليهما الاحترام والاستقلال.

(ب) عوامل ثقافية : وهى تتعلق بقيمة ستر "عرض الفتاة البكر" وبقيمة تجنب "بوارها". كما تتعلق بعلانية الزواج والحفاوة به.

(جـ) عوامل ثقافية دينية : وهى تتعلق بحماية الشبان والشابات من الوقوع فى وهدة الرذيلة.

(د) عوامل اقتصادية : حيث يستقل كل من الزوج والزوجة اقتصاديا بالتخلص فى الكثير من الاحيان من أعباء أسرتيهما التوجيهية ومن قيودهما. وحيث يتعاونان اقتصاديا فى القيام بأعباء أسرتهما التناسلية.

- وحيث يرفع بعض الأعباء الاقتصادية عن كاهل أسرة الزوجة التوجيهية.

١٠ - النظرة إلى تكوين الاسرة المصرية بأنواعها ووظائفها الثقافية والاجتماعية

أن الأسرة موجودة فى كل مجتمع، ويندر أن يفلت منها الطفل العادى فى أى جزء من أجزاء العالم. وذلك على الرغم من اختلاف العادات التى يمارسها أعضاء هذه الوحدة الاجتماعية الأساسية من مجتمع لآخر.

وإذا تيسر لنا أن نعتبر الأسرة لبنة أساسية فى المجتمع، فهى أيضا، فى مضمونها الاجتماعى بناء ذو تكوين معين مسئول عن عدد من الوظائف الاجتماعية والبيولوجية.

وإذا عالجنا موضوع بناء الاسرة المصرية أو تكوينها، من حيث تطوره وما يتوقع له من تغير فى ضوء ظروف مجتمعنا المتغير، نلاحظ بعض الملاحظات.

فمن حيث تكوين الأسرة (أو نطاق الأسرة) نلاحظ أنه أخذ يضيق شيئا فشيئا، حتى أصبحت الأسرة لا تشمل الا زوج وزوجة ومن يعولان من أبناء. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه "الأسرة الفردية". وبدأ هذا النوع من الأسرة فى المدينة. وهو يتكاثر على الدوام كلما اتسعت رقعه الحضر فى مجتمعنا. وهذه الرقعة تتسع ويزداد أتساعها على مر الأيام.

ونلاحظ أنه بظهور الأسرة الفردية فى مجتمعنا اختفت أنـواع أخرى من الأسر ن وظهرت معالم أنواع أخرى مـن الأسـر الجديـدة. فنجد، مثلا، وفى وضوح، بداية اختفاء "الأسرة المركبـة" وهـى الأسرة التـى تتكـون مـن أسرتين أو أكثر من الأسر الفردية وتجمعها صلة القربـى ويعيش أعضاؤها فى مسكن واحد. ونجد هذا النوع فى الوقت الحاضر فى الريـف وفـى بعض أحياء المدينة (مثل الأسر التى تكون فى الغـالب قد نزحـت مـن الريـف إلـى المدينة ولم يمر على ذلك أمد طويل). وهناك نوع آخر من الأسر بدأ يتلاشى كذلك، هـو "الأسـرة الممتـدة"، وأن كـان لايـزال موجـودا فـى مجتمعنـا ولمـن خارج نطاق المدينة فى معظم الاحيان. وتتكون الأسرة الممتدة من عـدد مـن الأسر الفردية على صلة من القربى، وهى عادة الأسر الفردية للرجل وأبنائـه أو للمراة أو بناتها التى يعيش أعضاؤها فـى مسـكن وأحـد كبـير أو فـى عـدة مساكن صغيرة متقاربة.

وكلما أزدادت نسبة وجود الأسر الفردية فى المجتمع أو بمعنـى آخـر كلمـا اختفت الأسـر المركبـة والمتدة مـن المجتمـع، نتوقـع ظهـور نوعيـن واضحين آخرين من الأسر وذلك من حيث وظائفها الاجتماعية العامة. فنجد الشخص العادى، مثلا، من حيث مكانته الاجتماعية فى محيط الأسرة كوحـدة يتحتم عليه أن ينتمى فى خلال حياته إلى أسـرتين : الأسـرة الأولـى هـى مـا يمكن أن نسميه أو نطلق عليها "أسرة التوجيه" وهى تتكون من أبويه واخوتـه وأخواته، والأسرة الثانية "أسـرة التناسـل"، وهـى تتكـون مـن زوجتـه وأبنائـه ونلاحظ أن هاتين الأسـرتين مختلفتـان مـن حيـث الوظـائف والعلاقـات وأن تشابهتا من حيث التكويـن. كمـا يلاحـظ أنهمـا تتجهـان نحـو الانفصـال حيث يتوقع ضعف الروابط بينهما بمرور الزمن (*).

ولابد من التنويه بأن ظهور الأسرة الفردية موجود فى مجتمعنـا منذ زمن ليـس بـالقصير. ولكـن الملاحـظ هـو ازديـاد نسـبته علـى الـدوام، ونمـو

(*) يلاحظ أن أزمة الاسكان التى يواجهها الشباب المصرى الذين على وشك الزواج فـى الوقت الراهن تقف غانقا فـى سبيل هـذا الانفصـال.

الاتجاهات الاجتماعية نحوه، فضلا عن ملاحظة سمة السرعة المذهلة التى يتحقق بها.

وكما تطور تكوين الأسرة على مر الايام نلاحظ أن وظائفها الثقافية والاجتماعية قد تطورت كذلك. فالاسرة المصرية فى مبدأ نشأتها كانت تقوم بمعظم الوظائف الاجتماعية من أقتصادية ودينية وخلقية وقضائية وتربوية وترويحية، ونجد الكثير من هذه الوظائف تمارسها الأسر المركبة والأسر الممتدة وخصوصا فى المناطق الريفية حتى وقتنا هذا. ولكن إذا أمعننا النظر فى الوظائف الاجتماعية فى محيط الأسر الفردية نجد أن أغلب الوظائف الثقافية والاجتماعية المشار اليها قد انتزعت منها. وهذا يعنى أن الصلات الأسرية (أو العائلية) لم تعد تتحكم فى البناء الاجتماعى، وأصبح عدد كبير من الوظائف الثقافية والاجتماعية التى كانت الاسر فى الماضى تقوم بها من قبل تقوم بها بعض الاجهزة الاخرى فى قطاعات البناء الاجتماعى. وهذا يعنى أن الأسرة (أى الأسرة الفردية) قد أصبحت أكثر تخصصا من ذى قبل.

وقد لاحظنا من قبل انه كلما ازدادت نسبة وجود الأسر الفردية فى المجتمع، أو بعنى آخر كلما اختفت الأسر المركبة والاسر الممتدة من المجتمع، توقعنا ظهور نوعين واضحين آخرين من الأسر الفردية هما "أسرة التناسل" و "أسرة التوجيه". وهما أسرتان مختلفتان من حيث الوظائف والعلاقات، وأن تشابهتا من حيث التكوين، وهما تتجهان نحو الانفصال حيث يتوقع ضعف الروابط بينهما بمرور الزمن.

ونحن نرى أن أهم وظائف أسرة التناسل تنحصر فى تنظيم الاشباع الجنسى بصورة يقرها المجتمع، وحفظ النوع البشرى عن طريق انجاب الأطفال. أما مهمة القيام بعملية التنشئة الاجتماعية للأطفال أى أعدادهم للحياة أعضاء صالحين فى المجتمع الذى ولدوا فيه، فهى أولى مهام أسرة التوجيه. فهى بحكم تكوينها تحتوى على جيلين يشتركان معا فى معيشة واحدة، فالزوجان يكونان جيلا سابقا، والأطفال يكونون جيلا لاحقا. ويعلم الجيل السابق الجيل اللاحق وينقل اليه النماذج الحضارية والثقافية المختلفة التى توجد فى المجتمع. فالأطفال يدربون أول ما يدربون فى الأسرة على عمليات الأكل والاخراج ومواجهة الألم والكلام والنظافة واستعمال الملابس

وأدوات الزينة فضلا عن عمليات التفاعل الاجتماعي المتعددة. وجل الأطفال يولدون عادة في أسر توجيه سواء كانت أسرة فردية أو غير ذلك. ولكن يلاحظ كما سبق القول أن معظم أسر التوجيه وخصوصا في المناطق الحضرية هي أسر فردية.

وكذلك يمكن القول بأن جل أعضاء المجتمع البالغين ينتمون إلى أسر التناسل.

ومعنى هذا أننا نتوقع وجود أطفال لا يولدون في أسر توجيهية (الأطفال غير الشرعيين) (*) وكذلك وجود أعضاء بالغين لايتزوجون لسبب أو لآخر (الأشخاص غير المنتمين) (**). وقد يزداد عدد هؤلاء وهؤلاء بمرور الزمن.

ونجن نرى أنه بظهور الأسر الفردية في مجتمعنا لايمكن أن نتوقع أن تقوم وحدها بعملية التنشئة الاجتماعية للاطفال. حتى الاطفال الذين ولدوا في كنفها. حيث تكون أعباء الحياة الجديدة عديدة ومتكررة، وما يترتب على ذلك من توترات نفسية وعدم استقرار.

ونحن نلاحظ ان أجهزة اجتماعية أخرى وجماعات اجتماعية أخرى تشارك أسرة التوجيه الفردية في عملية التنشئة الاجتماعية للاطفال. ومن الأمثلة على ذلك الجيرة، والمؤسسات الدينية والمؤسسات الترويحية، فضلا عن أجهزة الاعلام المتعددة.

وفي ضوء الملاحظات السابقة تظهر أكثر من علامة أستفهام. وانني أتجاسر وأحاول أن أضع النقط فوق الحروف، وأحدد مجالات تساؤلي في الموضوعات الآتية :

(*) يلاحظ أن عدد الأطفال غير الشرعيين آخذ في النقصان بسبب استخدام وسائل منع الحمل المختلفة.

(**) يقصد بهؤلاء الأشخاص الذكور أو الإناث الذين يعيشون في عزلة ثقافية ويقاسون حياة الاغتراب.

أولا : ما موقفنا ازاء تيار أزدياد الاسر الفردية ؟ هل نوقف هذا التيار ؟ وهل إذا أردنا ذلك نستطيع ؟ هل ننظم تدفقه ؟ وهناك سؤال اخير جدير بأن يكون السؤال الأول وهو هل نحس بهذا التيار ؟ واذا كانت الاجابة عن هذا السؤال بالايجاب. فهل حاولنا التعرف على مداه ومجالاته عن طريق الاحصاء والبحوث ؟

ثانيا : ماذا نتوقع من آثار التكوين الجديد لاسرنا فى مجتمعنا الجديد؟ هل ستتغير أساليب اختيار الزوج أو الزوجة؟ هل يصاحب هذا التكوين الجديد وجود تناقض أو صراع بين المعايير الثقافية أو المعايير السلوكية فى الحياة الأسرية، وخصوصا فى مجال الأسر المركبة والممتدة،

ومن ثم نتوقع يسرا فى سبيل مواجهة ظاهرة الثأر مثلا؟ ماذا سيكون من أمر العلاقات بين الزوج والزوجة، وبين الأب والابن، والأم والبنت، وبين هؤلاء جميعا؟ ماذا سيكون من أمر الأدوار الاجتماعية التى يؤديها أعضاء الأسرة عادة؟ ماذا سيكون من أمر دور الحماة؟ وأخيرا هل سيكون تصدع الأسرة الفردية، من حيث التركيب، سهلا بسبب صعوبة وجود الأب البديل (الجد والعم والخال مثلا) أو صعوبة وجود الأم البديلة (الجدة والعمة والخالة مثلا) إذا ما فقدت هذه الأسرة الأب أو الأم بسبب الموت أو الهجران أو الطلاق أو إذا مرضا أو مرض أحدهما بمرض مزمن؟

ثالثا : ماذا نعرف عن الأطفال غير الشرعيين؟ هل يزداد عددهم أو ينقص؟ ماذا أعددنا لمواجهة الزيادة المتوقعة أو غير المتوقعة أو غير المتوقعة فى نطاقالمدن الصناعية التى تنشأ والتى والتى يزداد عددها على مر الايام ؟

رابعا : يقول بعض الناس أن عدد الاشخاص غير المنتمين فى المجتمع يزداد فى المجتمعات المتغيرة، هل درس موضوع هؤلاء فى مجتمعنا ؟ هل يستحق الدراسة؟ ما مدى خطورة وجود هؤلاء الناس فى المجتمع؟ ماذا أعددنا لمواجهة هذا الموقف؟

خامسا: ما أهداف عملية التنشئة الاجتماعية فى مجتمعنا الجديد؟ هل درست هذه الأهداف؟ هل رسمت الخطط الواعية المنسجمة لتحقيقها؟. ما هى

الأجهزة الاجتماعية الأخرى والجماعات الاجتماعية الأخرى التى نرى وجوب اشتراكها مع أسر التوجيه الفردية للقيام بهذه المهمة الخطيرة؟ هل وضعت البرامج ورصدت الأموال ونسقت الجهود حتى نخرج المواطن المصرى الجديد، الذى ينمو دائما نموا صحيا، ويحب الخير والكرامة الاجتماعية، والذى يستطيع أن يواجه قوانين السلوك العامة، ويستجيب للمواقف الإنسانية المتعددة استجابة سليمة، والمدرب على فن الحياة الجماعية، والذى يستطيع أن يهنأ بالكفاح وبالعمل وبأداء الخدمات العامة؟

ومن حيث انجاب الأطفال، ذكورا كانوا أو إناثا، وهو من المهام الهامة لتكوين الأسرة فى مجتمعنا المصرى المعاصر وبخاصة فى المناطق الريفية أو المناطق الريفية الحضرية وبعض المناطق الحضرية التى توجد فى هذا المجتمع فى الوقت الراهن، نلاحظ ما يلى:

- أن انجاب الأطفال فى الأسرة التناسلية (أسرة الزوج والزوجة وابنائهما)(*) فى ظل المناخ الثقافى المصرى مطلب ضرورى للغاية للعوامل الآتية:

(أ) الأطفال زينة الحياة الدنيا. ويعتبر كل واحد منهم "ضنا" كل من الأم والأب. ومن ثم نرى الحفاوة بمقدمهم فى مجتمعنا ابتداء من الحمل (الحرص عليه من الحسد مثلا. والحرص على استكماله)، حتى الولادة (يلاحظ ارتفاع مكانة "الداية" وكثرة الطقوس المتعلقة بالولادة)، وما بعد الولادة (المشاهرة وطقوس السبوع والختان وغيرها) – أقرب إلى أن تكون حفاوة مقدسة.

(ب) أن انجاب الأطفال يدل على رجولة الزوج، كما يدل على أنوثة الزوجة وقدرتهما على الانجاب.

(جـ) أن انجاب الأطفال يكسب الزوج مكانة اجتماعية جديدة هى مكانة الأب، ويترتب على ذلك حقوق وواجبات جديدة. وهو يكسب الزوجة مكانة اجتماعية جديدة هى مكانة الأم، ويترتب على ذلك

(*) يلاحظ أن الأطفال غير الشرعيين إذا ازداد عددهم يعتبر وجودهم فى مجتمعنا مشكلة اجتماعية.

حقوق وواجبات جديدة والملاحظ أن مكانة الأم فى مجتمعنا مكانة رفيعة جدا منذ آلاف السنين عبر العصور والأزمان. حتى وقتنا الحاضر.

(د) إذا كان المجتمع المصرى المعاصر يتسع للرجل غير القادر على الانجاب ويقبله، فإن المرأة العاقر لا مكانة اجتماعية مرموقة لها فى هذا المجتمع. ومن الدعوات الشائعة نجد أنه عندما يتزوج رجل من زوجة ثانية، تدعو الزوجة الأولى على الثانية دعوات تتصل، عادة، بعدم انجاب الأطفال. "لا تطول ولا تنول ولا تدادى ولا تنادى طول عمرها" و"كل من قطعنى من زوجى اقطعها من ولدها، واستعين بالله عليها بألا تخلف ولا تتلف طول عمرها"!

(هـ) أن انجاب الأطفال وبخاصة الذكور منهم عندما يكبرون ويتزوجون يحفظون اسم أسرتهم التوجيهية (أسرة الأب والأم والأخوة والأخوات) ويعتبرون امتدادا لها.

(و) أن تبنى الأطفال يحرمه الدين الإسلامى وهو دين الأغلبية.

٢- أى أن أهم العوامل للانجاب فى الأسرة التناسلية هى:

(أ) عوامل اجتماعية :

- حيث يضفى انجاب الأطفال مكانة اجتماعية لكل من الزوج والزوجة ويترتب عليها حقوق وواجبات جديدة.
- وحيث ترتفع مكانة الأم الاجتماعية ارتفاعا كبيرا.
- وحيث يعتبر الانجاب ضمانا لحفظ اسم الأسرة وامتدادا لها.
- وحيث ترتفع مكانة "الداية" ارتفاعا كبيرا.

(ب) عوامل ثقافية:

- حيث الحفاوة بمقدم الأطفال تكون لها مناسبات ثقافية عديدة (ابتداء من الحمل حتى الولادة وبعد الولادة).
- وحيث يدل الأطفال على رجولة الزوج وعلى أنوثة الزوجة وقدرتهما على الانجاب.
- وحيث تكون النظرة نحو الزوجة العاقر نظرة غير مستحبة.

(جـ) عوامل ثقافية دينية:

- حيث الأطفال زينة الحياة الدنيا.
- وحيث يوجد الحض على الانجاب (تناكحوا تناسلوا فأنى مباه بكم الأمم يوم القيامة "حديث نبوى").

٣- **وكثرة انجاب الأطفال** : ترجع إلى بعض العوامل.

(أ) أن الأطفال فى نظرة الأسرة المصرية، وبخاصة فى الريف، أدوات إنتاج. ومن ثم فأن كثرتهم مطلوبة.

(ب) أن الأطفال هم رجال ونساء المستقبل. وهم فى نظر الآباء والأمهات المصريين عبارة عن استثمارات يتوقعون الاستفادة من عائدها فى المستقبل.

(جـ) أن كبر حجم الأسرة الريفية يؤكد ارتفاع مكانتها اجتماعيا حيث قيمة "العصبية" أو "العزوة" لا تزال موجودة فى الريف بخاصة.

(د) أن كبر حجم الأسرة المصرية الريفية يستمد وجوده من قيمة الكم أو (قيمة المظهرية) السائدة فى المجتمع الريفى، حيث نجد أن "كبر الجرن ولا شماته الأعداء" و"أمش على عدوك معرش ولا تمشيش مكرش" و"لبس البوصة تبقى عروسة".. إلخ (أمثلة شعبية).

(هـ) أن الانجاب المتكرر يؤكد فحولة الرجل الأب، كما يؤكد شباب المرأة الأم.

(و) أن كثرة الأطفال ترجع إلى مشيئة الله عز وجل، والى حكمته.؟ وأن أرزاقهم عند الله مكفولة، "قل لن يصيبينا إلا ما كتب الله لنا". (٥١ التوبة : ٩م) "ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم" (٦ك الأنعام: ١٥١)، و"من كان زرقه على اللـه فلا يحزن" (قول مأثور)، والله يرزق "الدودة ما بين حجرين" و"ما تعتل هم الا وربك أتم" و"بيت الفقير مليان أعزن" (أمثلة شعبية).

(ز) أن كثرة الأطفال ضمان لاستقرار الزوجة الأم (أى عدم طلاقها أو الانفصال عنها أو الزواج من أخرى) فى أسرتها التناسلية.

(ح) أن شبح الموت مقلق للمصريين ومخيف ومكروه. فالمصريون إذا كانوا لا يخشون الموتى فأنهم يخشون الموت ويكرهونه. وإذا كان "الموت علينا حق" وأن "اللى متغطى بالدنيا عريان"، فأن "الحى أفضل من الميت" (أمثلة شعبيه).

والموت قد يتخطف الأطفال، ولعل كثرة انجابهم أن تكون إحدى الوسائل لغلبته.

٤- أى أن أهم العوامل لكثرة انجاب الأطفال فى الأسرة التناسلية، هى :

(١) عوامل اجتماعية:

- حيث يؤدى كبر حجم الأسرة إلى ارتفاع مكانتها اجتماعيا.
- وحيث أن كثرة الأطفال ضمان لاستقرار الزوجة الأم (أى عدم طلاقها أو الانفصال عنها أو الزواج من أخرى) فى أسرتها التناسلية.

(ب) عوامل ثقافية:

- حيث قيمة الكم أو (قيمة المظهرية) تسود فى المجتمع الريفى.
- وحيث أن الانجاب المتكرر يدل على فحولة الرجل الأب، كما يدل على شباب المرأة الأم.
- وحيث شبح الموت يهدد الأطفال، وأن كثرتهم قد تكون إحدى الوسائل لغلبته.

(جـ) عوامل ثقافية دينية:

- حيث أن كثرة الأطفال يرجع إلى مشيئة الله عز وجل، والى حكمته.
- وحيث أن الله جل وعلا هو الرازق.

(د) عوامل اقتصادية:

- حيث نلاحظ أن الأطفال فى نظر الأسرة المصرية، وبخاصة فى الريف، أدوات إنتاج.
- وأن كثرة الأطفال مطلوبة. فهم استثمارات يتوقع الآباء والأمهات الاستفادة من عائدها فى المستقبل.

٥- **ومكانة الطفل:** ذكرا كان أو انثى، عند المصريين المعاصرين، وخاصة الذين يعيشون في الريف، مكانة مرتفعة أحيانا أو مكانة منخفضة أحيانا أخرى.

- وأهم عوامل ارتفاع مكانة الطفل المصرى.. هى:

(أ) أن الطفل حبيب الله.

(ب) أن الطفل زينة الحياة.

(جـ) أن الطفل الصالح نعمة من نعم الله. "ينقطع عمل ابن آدم بعد أن يموت) إلا من ثلاث: علم ينتفع به، وصدقة جارية، وولد صالح يدعو له". (حديث).

(د) أن الطفل ذكر:

- فالأطفال الذكور إذا ما كبروا يكونون امتدادا للأسرة التناسلية ويحفظون أسمها.
- والأطفال الذكور يحفظون مال الأسرة. "الصبي يمنع العدو" (مثل شعبى).
- والأطفال الذكور مصدر للمباهاة والتفاخر.

٦- أى أن أهم عوامل ارتفاع مكانة الطفل المصرى.. هى:

(أ) عوامل اجتماعية:

- حيث يكون الطفل (الذكر) إذا ما كبر امتدادا للأسرة التناسلية ويحفظ اسمها.
- وحيث يكون الطفل (الذكر) مصدرا للمباهاة والتفاخر لأسرته التوجيهية.

(ب) عوامل ثقافية: حيث أن الطفل حبيب الله.

(جـ) عوامل ثقافية دينية: حيث أن الطفل زينة الحياة.

- وحيث يكون الطفل الصالح نعمة من نعم الله.

(د) عوامل اقتصادية : حيث يحفظ الأطفال الذكور مال الأسرة.

٧- وأهم عوامل انخفاض مكانة الطفل المصرى.. هى:

(أ) إذا ولد مشوها أو ضعيف العقل، أى أنه لا يستطيع أن يؤدى أدواره الاجتماعية المتوقعة.

(ب) إذا ولد ولم يكن مرغوبا فيه. كأن كان الوالدان يتوقعان ذكرا فجاءت انثى، أو كانا يتوقعان انثى فجاء ذكرا.

(جـ) إذا ولد الطفل وكان الوالدان على غير وفاق.

(د) إذا كانت الأسرة فى ضائقة مالية خانقة، وكان الطفل غير مرغوب فيه على الاطلاق. "أن جالك إلهم طوفان حط ولدك تحت رجليك" (مثل شعبى).

(هـ) إذا كان طفلا غير صالح.

(و) عندما لا يحترم كبار السن فى الأسرة آراءه ولا يعتدون بها فهو فى نظرهم مجرد "شخة" الأب أو الأم!! (تعبير شعبى).

(ز) إذا تسلطت روح القدرية على الوالدين حيث يمرض الطفل أو يموت فهذا أمر الله، وكله من عند الله. "الله جاب الله خد" (مثل شعبى).

(ح) وفى تراثنا الثقافى يستخدم مفهوم "عيل" أو مفهوم "عيلة" استخداما سيئا. فقد يعتبر سبا وشتيمة إذا وجه إحدهما إلى شخص بالغ مهما كانت مكانته الاجتماعية أو كانت مستوياته الثقافية والمادية.

٨- أى أن أهم عوامل انخفاض مكانة الطفل المصرى.. هى:

(أ) عوامل اجتماعية:

- حيث يولد الطفل ولا يكون الأبوان على وفاق.
- وحيث لا يحترم كبار السن فى اسرة آراء الطفل ولا يعتدون بها.
- وحيث يولد الطفل مشوها أو ضعيف العقل، أى أنه لا يستطيع أن يؤدى أدواره الاجتماعية المتوقعة.

(ب) عوامل ثقافية:

- حيث يولد الطفل ولم يكن مرغوبا فيه. كأن كان الوالدان يتوقعان ذكرا فجاءت انثى، أو كانا يتوقعان انثى فجاء ذكرا.
- وحيث يستخدم مفهوم "عيل" أو مفهوم "عيلة" استخداما سيئا.

(جـ) عوامل ثقافية دينية:

- حيث يكون الطفل غير صالح.
- وحيث تتسلط روح القدرية على الأبوين إذا مرض الطفل أو مات.

(د) عوامل اقتصادية : حيث تكون الأسرة فى ضائقة مالية خانقة وكان الطفل غير مرغوب فيه على الاطلاق.

٩- ونلاحظ فى ضوء التراث الثقافى الاجتماعى المصرى أن للأطفال الذكور مكانة اجتماعية أعلى من مكانة الأطفال الإناث. ومكانة الذكر التى يكتسبها سواء كان أبنا أو آخا أو زوجا أو أبا مكانة اجتماعية رفيعة على وجه العموم. ويرجع ذلك إلى العوامل الآتية:

(أ) أن الأسرة المصرية هى أسرة أبوية. أى أن رجالها وشبابها وحتى فتيانها هم المسئولون الحقيقيون عنها. "الرجال قوامون على النساء".

(٣٤م النساء:٤).

(ب) أن الذكر المصرى يحمل اسم أسرته التوجيهية وإذا بلغ أشده وتزوج يورث اسم هذه الأسرة الى ابنائه وبناته.

(جـ) أن الأسرة المصرية تتوقع من أبنائها الذكور حماية أعضائها من الأعداء أن وجد هؤلاء الأعداء.

(د) أن نسبة العاملين من الذكور فى المجتمع المصرى أكبر من نسبة العاملات من الإناث.

(هـ) أن نسبة المتعلمين من الذكور فى المجتمع المصرى أكبر من نسبة العاملات من الإناث.

(و) أن الذكر المصرى فى ضوء التراث الثقافى المصرى يستطيع أن يحمى نفسه على عكس الانثى المصرية.

(ز) أن حقوق الذكر المصرى عديدة. فالذكر المسلم يرث أكثر من الانثى "للذكر مثل حظ الانثيين" (١١ م النساء :٤)، وهو يمنع الأقارب غير المقربين من الميراث، ومن ثم يحفظ مال الأسرة.

(ح) من حقوق الذكر المصرى المسلم (الرجل) أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع "فانكحوا من طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع" (٣م النساء ٤).

(ط) ومن حق الزوج المسلم على زوجته (الانثى) الطاعة والقوامة على الأسرة، وتدبير البيت وصيانته، والطلاق عند الضرورة، والتهذيب عند العصيان !

(ى) أن فرحة ولادة الذكر فى المجتمع المصرى شاملة، يفرح بها الآباء والأمهات والأقارب المقربون وغير المقربين وحتى الغرباء. أى أنه مفضل على الانثى (يلاحظ أن الرجل فى الريف المصرى إذا سار فى الطريق تتبعه الإناث من ورائه).

وقد يكون عدم انجاب الذكور سببا فى طلاق الزوجة فى بعض الأحيان أو الزواج من أخرى.

(ك) أن امتياز الذكر المصرى فى المجتمع المصرى يرجع إلى أن الوظائف الخطيرة مثل الحاكم والمشرع، ورجل الدين، والقاضى، والجندى المحارب ورجل الشرطة، يشغلها الرجال، عادة، من أعضاء هذا المجتمع، فضلا عن أن حقه فى سن معينة فى أن ينتخب حق الزامى.

(ل) ان امتياز الذكر المصرى يد ل عليه دلالة ساطعة ما نجده من النفور والغضب الشديد إذا قال ذكر المصرى "أنا مرة" !

١٠- أى أن أهم العوامل لارتفاع مكانة الذكر المصرى.. هى:

(أ) عوامل اجتماعية : حيث أن الأسرة المصرية أسرة أبوية.

- وحيث أن الذكور فى الأسرة يعتبرون المسئولين عنها.
- وحيث أن الذكر المصرى يحمل اسم أسرته التوجيهية، وعندما سيبلغ أشدة ويتزوج يورث هذا الاسم إلى أطفاله.
- وحيث يكون الذكور من أبناء الأسرة المصرية درعا وحماية لها من أعدائها.
- وحيث يؤدى الذكر المصرى أدوارا اجتماعية لا تؤديها فى الغالب الانثى المصرية مثل أدوار الحاكم، ورجل الدين، والقاضى، والجندى المحارب، ورجل الشرطة.
- وحيث يكون حق الذكر المصرى فى سن معينة فى أن ينتخب وينتخب حقا الزاميا.

(ب) عوامل ثقافية : حيث أن نسبة الذكور المصريين المتعلمين فى المجتمع المصرى أكبر من نسبة الإناث المتعلمات.

- وحيث تكون لولادة الذكر فى المجتمع المصرى فرحة لها صدى كبير بين أعضاء الأسرة والأقارب المقربين وغير المقربين وحتى الغرباء.
- وحيث يكون عدم انجاب الأطفال الذكور سببا فى طلاق الزوجة فى بعض الأحيان، أو الزواج من أخرى.
- وحيث نلاحظ أن الرجل إذا سار فى الطريق تتبعه الإناث من ورائه.
- وحيث نجد نفور الذكر المصرى وغضبه الشديد إذا وصف بأنه "مرة".

(جـ) عوامل ثقافية دينية: حيث يكون نصيب الذكر المصرى فى الميراث فى ظل الدين الإسلامى ضعف نصيب الانثى.

- وحيث يكون حقه فى الزواج بأكثر من زوجة إلى أربع زوجات مرة واحدة، فى ظل الدين الإسلامى، مكفولا.
- وحيث يكون للزوج المصرى حقوق مكفولة مثل طاعة الزوجة، والقوامة على الأسرة، وتدبير البيت وصيانته، والطلاق عند الضرورة، والتهذيب عند العصيان.

(د) عوامل اقتصادية: حيث تكون نسبة عمالة الذكور المصريين أعلى جدا من نسبة عمالة الإناث المصريات.

- وحيث نجد أن الذكر المصرى القادر يعمل فى كل الأعمال ويشغل كل الوظائف وبخاصة الخطيرة منها مثل وظائف الحاكم ورجل الدين والقاضى والجندى المحارب ورجل الشرطة.. إلخ.
- وحيث يمنع الذكر المصرى الأقارب غير المقربين من الميراث. ومن ثم يحفظ مال الأسرة.

١١- ومن حيث مكانة الانثى التى تكتسبها سواء كانت زوجة أو ابنه أو أختا أو جارة أو زميلة فأننا نجدها، على وجه العموم، مكانة منخفضة. على عكس مكانتها كأم فهى مكانة رفيعة للغاية،. وكل ذلك يبدو على الرغم من أن التراث الثقافى المصرى، على مر العصور، وعلى المستوى النظرى، قد كفل للانثى المصرية المحبة والرعاية، كما كفل حقوقها فى التنشئة الاجتماعية السوية. فنجد أن الدين الإسلامى (وهو دين الأغلبية)، مثلا، قد جعل للزوجة المصرية المسلمة على زوجها المصرى المسلم حقوقا عديدة، منها حقها فى اختيار هذا الزوج، ونلاحظ أنها بزواجها لا تفقد أسمها، ولا شخصيتها الذاتية، ولا أهليتها فى التعاقد، ولا حقها فى الملكية، ولا يضع من استقلالها المالى شيء. وفضلاعن حقوقها على زوجها فى الملكية، ولا يضيع من استقلالها المالى شيء. وفضلا عن حقوقها على زوجها فى العشرة بالمعروف والعدل وحقوقها الجنسية والإنفاق، فإن من حقها عليه أن يقدم لها مهرا!

ومع ذلك فأننا نلاحظ أن الانثــى المصريـة، فـى ضـوء الواقـع الحـى لمجتمعنـا المصـرى المعـاصر، فيمـا عـدا الانثـى الأم، لا تكتسـب المكانـة الاجتماعية اللائقة بها. ويرجع ذلك إلى العوامل الآتية:

(أ) أن الأسرة المصرية أسرة أبوية وليست أسرة أموية.

(ب) أن نسبة العاملات الماهرات من الإنـاث المصريـات ضئيلـة جدا، وهن يعملن فى ظل سيطرة الذكر المصرى فى أغلب الأحيان. وإذا اعتبرنا أن الإناث الريفيات يعملن، فأنهن يعملن فى ظـروف يائسـة يسـيطر عليهـا الذكـور المصريـون كذلـك. "البنـت مسيرها للبيـت" (تعبير شعبى).

(جـ) والملاحـظ أن الانثـى المصريـة القـادرة محرومـة من العمـل فـى أعمـال معينـة يقـوم بهـا، عـادة الذكـر المصـرى القـادر. فـنرى أن المجتمع يحرم على الانثـى المصريـة - القـادرة - فـى الغـالب فـى وظائف معينة كالحاكم، ورجل الدين، والقضـى، والجندى المحارب، ورجل الشرطة مثلا.

(د) أن نسبة الأمية بين الإناث المصريات نسبة مرتفعة للغاية قد تصـل فى بعض القرى المصرية، فى بعض الأحيان، إلى مائة فى المائـة، أو تقل عن ذلك قليلا.

(هـ) على الرغم من وجود حقوق للانثي المصرية علي المستوى الثقافي النظرى، فأننا نلاحظ أنها:

- ترث أقل من الذكر.
- أنها لا تمنع الأقارب من غير المقربين من الميراث.
- أنها ترغم على الزواج فى بعض الأحيان.
- أنها لا تمارس حق الطلاق إلا إذا كانت العصمة فى يدها. وهـذا نادر.
- أنها تطلق لأنها لا تنجب الذكور أو تطلق أحيانا لأتفه الأسباب.

- أنها تعيش فى ظل شبح "الضرة".

- أن حقها فى سن معينة فى أن تنتخب وتنتخب حق اختيارى.

(و) ويحرم على الإناث المصريات فى سن معينة وفى ظروف معينة الاختلاط بالذكور.

(ز) وإذا كانت الأنثى المصرية تهيأ وتعد لتكون "ست بيت" فهى تواجه دائما تقلبات سعر السوق فإذا كانت بكرا فهى أغلى سعرا، وإذا كانت امرأة عزبة فهى أرخص سعرا. ويا ويل الانثى البالغة التى لم تتزوج و"بارت" فأن سعرها يكون فى الحضيض. وذلك على عكس الذكر المصرى الذى يرغب فى الزواج أو الذى لم يتزوج. فـ "الراجل ما يعيبوش غير جيبه" (مثل شعبى).

(ح) وقد يرى الرجل أن يتزوج من امرأة لكى تخدمه، وذلك لأنها امرأة متدينة، أو لأنها ذات جمال أو مال أو ذات دين، أو ربما لأنها مقطوعةمن شجرة". ومفهوم "الخدمة" هنا يتضمن كل الأدوار التى يفترض أن تقوم بها الزوجة مثل دور "العمل فى البيت"، ودور "أم الأولاد"، ودور "العشيقةو".... إلخ.

(ط) وتصبر الانثى المصرية وبخاصة الزوجة على المكاره (ومنها الزواج من أخرى دونما مبرر)، وعلى ألوان الضيم (ومنها الشتم والضرب) من أجل "لقمة العيش" أحيانا، أو من أجل أن "يحميها راجل"، أو تحقيقا للمثل الشعبى "قعدتى بين أعتابى ولا قعدتى بين أحبابى"، أو تحقيقا للمثل الشعبى القائل "ظل راجل ولا ظل حيطة".

(ى) والملاحظ أن الرجل المصرى إذ يعامل المرأة المصرية معاملة تبدو سيئة فى ضوء مستويات المعاملة الإنسانية الرشيدة، وتراه فى بعض الأحيان يتغنى بكيدها، فأنه فى الوقت نفسه يعشقها ويدللها ويذوب من أجلها عشقها وصبابه وهياما. يكتب فى ذلك الاشعار والازجال والمواويل. ويحكى القصص والروايات، ويظهر ذلك فعلا وعملا. ولعل المعاملة السيئة للمرأة المصرية وتدليلها وعشقها أن تكون أمورا غير متناقضة. فالمرأة المصرية، فى نظر الرجل

المصرى، حتى الآن لا تزال متاعا. ولعلها أن تكون متاعه الوحيد المرموق.

أنظر:

"قاضى الغرام فوق جبل عالى ينادينى

قال فين مفارق أحبابه قلت أنا ودينى

قال لى تعود للأحباب قلت ودينى

دول الحبايب العزاز ولا لهمش فى الجمال وصفة

أنا نفسى أزور النبى واقعد حداه واصفى

إن كان قلبى يبيح لغيركم ويصفى

أموت كافر ولا توفاش على دينى"

- أنظر أيضا:

"كيد النسا كيد لو أبو زيد يميل منهم

لو عنتر بن شداد ليشوف العذاب منهم

لهم فعل بطال زالت الجبال منهم

الواحدة منهم فى كل بلوة تلقاها

قاعدة تقلب فتن لاجل الخراب والشر

وتكره الطيبة وفى الردية تلقاها

ومطاوعة ابليس على فعل النكد والشر

وكل يسيرة مع المخاليق تلقاها

هم النسا على الدوام وجودهم أساس الشر

والعقل لو غاب يكون السبب منهم"

(ك) وعلى الرغم من أن الزوجة المصرية المسلمة تحمل اسم أسرتها فأن أبناءها، ذكورا كانوا أو إناثا، ينتسبون رسميا إلى أبيهم.

(ل) والملاحظ أننا نجد في ضوء التراث الثقافى أن النساء فى الغالب "ناقصات عقل ودين".

(م) ونجد أن اسم الانثى المصرية وبخاصة إذا كانت زوجة أو كانت أما، لا يجب أن يذيعه أحد. وذلك لأن إذاعته تعتبر خطيئة لا تغتفر لمذيعها (إذا كان ذكرا بالغا) وبخاصة إذا كان المستمع من الغرباء.

(ن) وعلى الرغم من أن "البنت حبيبة أمها" كما يقول المثل الشعبى المصرى، فأننا نلاحظ أن الابن الذكر أفضل عند الأم وعند الأب معا.

(س) ويستخدم فى تراثنا الثقافى مفهوم "امرأة" (مرة) استخداما سيئا. فقد يعتبر سبا وشتيمة إذا وجه إلى ذكر مهما كانت مكانته الاجتماعية أو كانت مستوياته الثقافية والمادية. وقد تعير به الانثى المصرية إذا نافسها ذكر مصرى.

"اللى ينتخب مرة يبقى مرة" (هتاف شعبى فى إحدى قرى المنوفية فى الانتخابات السابقة).

١٢- أى أن أهم العوامل لانخفاض مكانة الانثى المصرية ماعدا قيامها بدور الأم هى:

(أ) عوامل اجتماعية: حيث أن الأسرة المصرية هى أسرة أبوية وليست أموية. ومن ثم فالذكور هم المسئولون. وانتساب الأبناء إلى أبيهم وليس إلى أمهم.

- وحيث تعد الانثى لتكون "ست بيت". ومن ثم فأدوارها الاجتماعية خارج أسرتها محدود.

- وحيث يحرم على الانثى المصرية بعض الأعمال الخطيرة ويقتصر العمل فيها على الذكور.
- وحيث يكون حق الانثى المصرية فى سن معينة فى أن تنتخب وتنتخب حقا اختياريا.
- وحيث تتزوج المرأة لخدمة الذكر الزوج. وتقوم بأدوار اجتماعية عديدة داخل البيت.
- وحيث تنخفض مكانة الانثى المصرية إذا تزوج زوجها من أخرى.
- وحيث تنخفض مكانة الانثى المصرية إذا لم تتزوج المصرية و"قبور".

(ب) عوامل ثقافية: حيث تكون نسبة الأمية بين الإناث المصريات نسبة مرتفعة للغاية.

- وحيث يتفاوت مهر الانثى حسب كونها بكرا أو عزبة.
- وحيث تخطب الانثى المصرية لجمالها ولمالها ولدينها (حديث نبوى).
- وحيث ترغم الانثى المصرية فى الكثير من الأحيان على الزواج.
- وحيث تكون الانثى الزوجة فى نظر الذكر الرجل مجرد متاع. ولعلها أن تكون متاعه الوحيد المرموق.
- وحيث تعيش الزوجة فى كنف زوجها فى ظل المعاملة السيئة التى لا ترقى إلى المعاملة الرشيدة. فهى تصبر على المكاره (الزواج من أخرى) وتصبر على ألوان الضيم (منها الشتم والضرب).
- وحيث تعيش الانثى المتزوجة فى وجل وخوف من شبح "الضرة".

- وحيث تطلق الانثى الزوجة لأنها لا تنجب الذكور.
- وحيث لا يستحب إذاعة اسم الانثى المصرية إذا كانت زوجة أو أما.
- وحيث نجد أنه على الرغم من أن "البنت حبيبة أمها" فأن الابن الذكر مفضل عند الأب والأم معا.
- وحيث أن الانثى المصرية إذا سارت فى الطريق مع أحد رجال الأسرة تسير من ورائه.
- وحيث يستخدم مفهوم "امرأة" (مرة) استخداما سيئا.

(جـ) عوامل ثقافية دينية:

- حيث ترث الانثى أقل من الذكر.
- وحيث لا تمارس الانثى المتزوجة حق الطلاق إلا إذا كانت العصمة فى يدها. وهذا نادر.
- وحيث يحرم على الإناث المصريات فى سن معينة وفى ظروف معينة الاختلاط بالذكور.
- وحيث تخطب الانثى المصرية لجمالها ولمالها ولدينها.
- وحيث ينظر إلى النساء على أنهن "ناقصات عقل ودين".

(د) عوامل اقتصادية : حيث نجد أن نسبة العاملات الماهرات من الإناث المصريات نسبة ضئيلة.

- وحيث تعمل الإناث المصريات الماهرات منهن وغير الماهرات فى ظل سيطرة الذكر المصرى فى أغلب الأحيان.
- وحيث تكون أعمال الانثى المصرية خارج الأسرة محدودة.
- وحيث لا تمنع الانثى الأقارب من غير المقربين من الميراث (أى لا تحفظ مال الأسرة).

١٣- ولا يألو المجتمع المصرى إلا أن يؤكد "الحقيقة القائلة" أن الإنسان ليس حيوانا متمدنا بالطبع ولكنه يتمدن بالتطبع وذلك بالقيام بتنشئة أطفاله الذكور ومنهم الإناث. فالملاحظ أن عملية التنشئة هى وظيفة الأسرة التوجيهية المصرية (أى أسرة الأبوين التناسلية). والملاحظ أن الأسرة التوجيهية المصرية ليست فى ضوء الظروف الاجتماعية الثقافية فى مجتمعنا المعاصر، وحدها، تقوم بعمليات تنشئة أطفال المجتمع. فالمدرسة والجيرة، والمنظمة الدينية (المسجد والكنيسة بخاصة)، والنادى الاجتماعى، والمنظمة السياسية، فضلا عن أجهزة الإعلام والثقافة (الجريدة والمجلة والكتاب والسينما والمسرح والإذاعة المسموعة والتليفزيون والفيديو مثلا)، تسهم جميعا، مع الأسرة التوجيهية، فى عمليات التنشئة الاجتماعية لهؤلاء الأطفال. ومع ذلك فأننا نلاحظ أن الأسرة التوجيهية المصرية تهتم بتنشئة الأطفال للعوامل الآتية:

(أ) أن الأطفال مخلوقات ضعيفة يستحقون الرعاية والقبول. "أنى لم اغتصب لبنا من فم طفل" (من التراث الفرعونى)، و"هو ذا البنون ميراث من عند الرب ثمرة البطن أجرة (مز ١٢٧ : ٣)، "وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم" (٩م النساء ٤:).

(ب) وعلى الوالدين أن يحبوا أولادهم وأن يربوهم ويؤدبوهم. "أن السمع مفيد للابن الذى يسمع. فإذا دخل السمع فى (أذن) من يسمع، فيصبح السامع شخصا يسمع. أن السمع طيب. والقول طيب. ولكن للسامع ميزة لأن السمع مفيد للسامع، والسمع خير من كل شىء." (من التراث الفرعونى)، و"انتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم بل ربوهم بتأديب الرب وانذاره" (ا ف ٦ : ٤)، و"واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا" (٢٤ ك الأسراء : ١٧)، و"اللى ما يربيه أبوه وأمه تربيه الأيام والليالى" و"أن كبر ابنك خاويه" (مثلان شعبيان).

(جـ) والاهتمام بالقيام بعمليات التنشئة للأطفال هو تأكيد لاحدى وظائف الأسرة. حيث تكون الأسرة، فى شخص الأب أو الأم أو ولى الأمر أو الوصى، لها ولاية تربية الأطفال ورعايتهم، والولاية على نفوسهم وعلى أموالهم.

(د) أن الآباء والأمهات فى ضوء التراث الثقافى المصرى يسعون وراء الرزق (لقمة العيش) من أجلهم ومن أجل أطفالهم ويرون أن هذا السعى "عبادة". ومع ذلك نلاحظ ان الأم المصرية إذ تقول "اللى يدى ابنى بلحة تنزل حلاوتها فى بطنى" تقول أيضا "قلبى على ابنى انفطر وقلب ابنى على حجر". وكما يقول الإنسان المصرى "سيدى وسيد اجدادى اللى يشيل همى وهم أولادى"، نراه يقول أيضا "أن جالك الهم طوفان حط ولدك تحت رجليك" (أمثلة شعبية).

(هـ) ان الاهتمام بالقيام بعمليات تنشئة الأطفال، وبخاصة الذكور منهم عندما يكبرون، ضمان لحفظ اسم أسرتهم التوجيهية، وضمان لامتداد هذه الأسرة.

(و) ان الاهتمام بالقيام بعمليات تنشئة الأطفال، إذا ما كبروا، وكان عددهم كبيرا، يؤكد تحقيق قيمة "العصبية" أو "العزوة" التى لا تزال سائدة فى المجتمع الريفى بخاصة.

(ز) أن الاهتمام بالقيام بعمليات تنشئة الأطفال، إذا ما كبروا، يؤكد تحقيق استقرار الزوجة الأم (أى عدم طلاقها أو الانفصال عنها أو الزواج من أخرى) فى أسرتها التناسلية.

(ح) أن الاهتمام بالقيام بعمليات تنشئة الأطفال، إذا ما كبروا، يؤكد تحقيق الاستفادة منهم اقتصاديا فى المستقبل كأدوات إنتاج أو كعائد استثمارات.

١٤- أى أن أهم العوامل للقيام بعمليات تنشئة الأطفال فى الأسرة التوجيهية المصرية (أى أسرة الابوين التناسلية).. هى:

(أ) عوامل اجتماعية : - حيث يكـون الاهتمـام بالقيـام بعمليـات تنشـئة الأطفال تأكيدا لأحدى وظائف الأسرة.

- وحيث يكون هذا الاهتمام إذا ما كبر الأطفال، وبخاصـة الذكـور منهم، ضمانا لحفظ اسم أسرتهم التوجيهية، وضمانا لامتدادها.
- وحيث يكون هذا الاهتمام، إذا ما كبر الأطفال، ضمانا لاسـتقرار الزوجة الأم (أى عدم طلاقها أو الانفصال عنها أو الـزواج مـن أخرى) فى أسرتها التناسلية.

(ب) عوامل ثقافية: حيث تكون قيمة السعى وراء الرزق (لقمة العيش) من قبيل العبادة.

- وحيث يتـأكد تحقيق قيمـة "العصبيـة" أو "العـزوة" التـى لا تـزال سائدة فى المجتمع الريفى بخاصة.
- وحيث يدعو التراث المصرى القديم إلى الاهتمام برعاية الأطفال وقبولهم وحبهم وتربيتهم وتأديبهم.
- وحيث نجد أن "اللى ما يربيـه أبـوه وأمـه تربيـه الأيـام والليـالى" و"أن كبر أبنك خاويه". (مثلان شعبيان).

(جـ) عوامل ثقافية دينية: حيث يدعو الدين المسيحى والدين الإسـلامى إلى الاهتمام برعاية الأطفـال وتنشئتهم، أن للأطفـال حقوقـا عنـد الوالدين منذ ولادتهم منها.. البر بهم وتعليمهم والمساواة بينهم فـى العطية.

(د) عوامل اقتصـادية : حيث يتأكد تحقيق الاسـتفادة منهـم اقتصـاديا إذا ما كبر الأطفال فى المستقبل:

- كأدوات إنتاج.
- وكعائد للاستثمارات.

١٥- وبالإضافة إلى كل ما سبق أجدنى مضطرا إلى أن اختم موضـوع هـذه النظرة بدور الأسرة فى ثقافة الطفل المصرى:

(أ) فالأسرة، من وجهة النظر الاجتماعية، هي أحدى الجماعات الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع، وهي تعتبر من أهم هذه الجماعات. فهي، كما يقول أوجست كونت (August Cont) الوحدة الاجتماعية الأساسية التي تنشأ عن طريق ترابط التجمعات الجماعية التي يكون التعاون الواعي أساس وجودها، مثل الطبقات الاجتماعية والمدن، ويمكن اعتبار الأسرة وحدة نشاط اجتماعي لأشخاص يعيشون معا في تفاعل مستمر في بناء حضاري معين، وهي مسئولة عن عدد من الوظائف الاجتماعية والبيولوجية. وعند كل ما مابل إيليوت (Mable Elliot) وفرنسيس ميريل (Francis Merril) أن الأسرة يمكن تعريفها بأنها وحدة بيولوجية اجتماعية مكونة من زوج وزوجة وأبنائهما. ويمكن اعتبار الأسرة أيضا نظاما اجتماعيا أو منظمة اجتماعية متعارفا عليها، تقوم بسد حاجات إنسانية معينة.

وفي ضوء ما ذكرت من قبل أرجو أن يلاحظ القارئ، دونما ملل من التكرار، أن الأسرة كجماعة اجتماعية موجودة في كل مجتمع. ويندر أن يفلت منها الطفل العادي في أي جزء من أجزاء العالم.. ومن وجهة النظر الحضارية نجد أن العادات التي يمارسها أعضاء هذه الجماعة الأساسية تختلف من مجتمع لآخر. فانتشار وجود الأسرة في المجتمعات يعتبر العامل الأساسي للعنصر الاجتماعي لاي موقف حضاري، ةان حضارة يجب بالضرورة أن تحتوي على نماذج من العادات توائم هذه الحال.

(ب) وقد تطور نطاق الأسرة على مر الأيام، وأخذ يضيق شيئا فشيئا حتى وصل إلى الحد الذي استقر عليه الآن في معظم الأمم في العصر الحاضر. فأصبحت الأسرة لا تشمل إلا زوجا وزوجة ومن يعولانهما من أبناء. أي أن الأسرة أصبحت أسرة نووية أو أسرة فردية. ويكثر هذا النوع في المدينة وقد يتسع نطاق الأسرة ويكبر في بعض الأحيان، فنجد في الريف مثلا الأسرة المركبة أو نجد الأسرة الممتدة.

وتكون الأسرة فى المجتمعات المختلفة، فى معظم الأحيان، عن طريق الزواج وتوجد صور عامة لنظام الزواج، هى بترتيب شيوعها:

- نظام الزواج الفردى.
- نظام تعدد الزوجات.
- نظام تعدد الأزواج.
- نظام الزواج الجماعى.
- ويشيع فى مجتمعنا النظامان الأول والثانى.

وكما تطور نطاق الأسرة على مر الأيام تطورت وظائفها الاجتماعية كذلك. وأصبحت الأسرة (وخاصة الأسرة الفردية) أكثر تخصصا من ذى قبل. بل يمكن القول بأنها أصبحت أكثر تخصصا مما كانت عليه فى أى مجتمع سابق معروف. وأصبح من أهم وظائف الأسرة (الفردية) تنظيم الإشباع الجنسى بصورة يقرها المجتمع، وحفظ النوع البشرى عن طريق انجاب الأطفال والقيام بعملية تنشئتهم الاجتماعية.

وتجب ملاحظة أن الأسرة فى بعض البيئات، وخاصة فى البيئات الريفية، لا تزال إلى الوقت الحاضر محتفظة ببعض الوظائف التقليدية(*). ومهما يكن من الأمر فقد أصبحت الوظيفة الهامة للأسرة (وخاصة أسر التوجيه) فى الوقت الحاضر هى القيام بعملية التنشئة الاجتماعية لأطفالها (**). وأصبحت الأسرة فى هذا الضوء. بحق. "مهد الشخصية". فمنذ السنين الأولى، وفى أثنائها تتكون عند الفرد عن طريق أسرة التوجيه النماذج

(*) من أهم هذه الوظائف فى رأينا الوظائف الاقتصادية والدينية والقضائية والتعليمية.

(**) يلاحظ أن كل شخص فى معظم المجتمعات ينتمى فى خلال حياته، عادة، إلى نوعين من الأسر، وذلك من حيث مركزه الاجتماعى فى محيط الأسرة كوحدة: الأسرة الأولى، هى ما يمكن أن نطلق عليها أسرة التوجيه وهى تتكون من أبويه وأخوته وأخواته (يستثنى بالطبع الطفل غير الشرعى). والأسرة الثانية هى أسرة التناسل وهى تتكون من زوجته وابنائه (ويستثنى بالطبع من لم يتزوج).

الأساسية لردود الفعل الخاصة بالتفكير والشعور، كما تتكون المعايير والقيم التى قد تؤثر على تاريخ حياته المقبلة(***).

ولا يتأتى قيام الأسرة بهذه الوظيفة الهامة إلا بتهيئة الوسائل السليمة المتعلقة بالحضانة والكفالة للأطفال وخاصة فى مراحل نموهم الأولى. وهذه هى مهام الأسرة المتكاملة الناضجة اجتماعيا، أو على حد قول ميريان ف. ووترز (Waters،Meriam v) مهام الأسرة السوية. نقول ذلك ونحن نعلم... أن أجهزة اجتماعية أخرى أصبحت فى ضوء ظروف المجتمعات الحديثة تشارك الأسرة فى هذه العملية، أقصد عملية التنشئة الاجتماعية. مثل الجيرة والمدرسة ومؤسسة شغل أوقات الفراغ والمنظمة الدينية وأجهزة الإعلام.

(حـ) ومجتمعنا الجديد لا ينكر قط أهمية الأسرة السوية، أو الأسرة المتكاملة الناضجة اجتماعيا. ولكن مثل هذه الأسرة المثالية الحقيقة فى ضوء وجود ظاهرة التغيير الاجتماعى التى تواجه مجتمعنا، لا يكثر وجودها فى هذه الأيام حيث تكون أعباء الحياة الجديدة عديدة ومتكررة وما يترتب على ذلك من توترات نفسية مما يجعل من الصعب تحقيق راحة البال. فنجد أسرا عديدة، وخاصه فى الرقعه الحضريه فى الوقت الحاضر غير مستقره أو ربما يشبع فيها نوع من الارتباك. والأسرة غير المستقرة أو التى يشيع فيها الارتباك تعتبر عادة مكانا غير صالح لتربية الأطفال. وأنا لا أقصد التعميم ولا أرضاه. ولكن أحاول أن أؤكد حقيقة من الحقائق التى يلمسها كل متخصص فى هذا الميدان. ومهما يكن من الامر فهذه الحقيقة فى سبيلها حتما الزوال ففى ضوء قيم مجتمعنا، نجد أن الأسرة هى الخلية الأولى للمجتمع (*). ولابد أن تتوافر لها كل أسباب الحماية التى تمكنها من أن

(***) قد تكون أسرة التوجيه لشخص ما أسرة بديلة تتكون من زوج وزوجة وأبناء ليسوا بالضرورة أبويه وأخوته وأخواته.

(*) تعبير "الخلية الأولى" فى رأى الكاتب تعبير بيولوجى، ويفضل عليه تعبير "الوحدة الاجتماعية الأساسية". وبالمثل تعبير الأسرة هى لبنة المجتمع تعبير لا يقره علم الاجتماع فى ضوء اختصاصاته.

تكون حافظة للتقليد الوطني، مجددة لنسيجه، متحركة بالمجتمع كله ومعه إلى غايات النضال الوطني. وفي ضوء قيم مجتمعنا، نجد أن المرأة لابد أن تتساوى بالرجل في فرص التعليم والعمل والقيادة وممارسة نشاطات السياسة بأنواعها.... إلخ، ولابد أن تسقط بقايا الاغلال التي تعوق حركتها الحرة، حتى تستطيع أن تشارك بعمق وايجابية في صنع الحياة. وأخيرا وليس آخرا نجد في ضوء قيم مجتمعنا أن الطفولة هي صانعة المستقبل، ومن واجب الأجيال العاملة أن توفر لها كل ما يمكن لها من تحمل مسئولية القيادة بنجاح.

وإذا أدعو إلى ضرورة تكوين الأسرة السوية سواء أكانت نووية (فردية) أم ممتدة أم مركبة، فأنني في حقيقة الأمر أدعو إلى الأسرة التي تؤدى واجبات حيوية لصغارها. فهي تعطي مأوى مريحا وغذاء سليما دون أن يعرضهم هذا العطاء للخطر أو يجلب لهم أي قلق. وهي التي تساعد أطفالها على أن ينموا نموا صحيا، وتغرس فيهم حب الخير والكرامة الاجتماعية، وهي التي تربي أطفالها كي يستطيعوا مواجهة قوانين السلوك العامة في المجتمع في المستقبل، وكي يستجيبوا للمواقف الإنسانية المتعددة استجابة سليمة. وهي التي تدرب أطفالها على فن الحياة الجمعية في نطاقها الضيق عندما تكون العلاقات الإنسانية مازالت بسيطة وحانية. وأخيرا هي التي يكون هدفها الأسمة هو فطام أعضائها لأمن الرضاعة فحسب ولكن من الاعتماد على الغير ومن الاعتماد على حنان الأسرة وبساطتها حتى يستطيع شباب الأسرة أن يهنأ بالكفاح وبالعمل وبأداء الخدمات خارجها في محيط علاقات إنسانية تكون عادة أكثر حزما وأقل حنانا وبساطة.

(د) ومن المعلوم أن المصريين المعاصرين يهتمون بالأطفال بصفة عامة.وأن هذا الاهتمام هو اهتمام قديم ومستمر. وذلك على الرغم من التغيرات الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية

التى واجهها المجتمع المصرى منذ الماضى السحيق وحتى الوقت الراهن. فالنظر إلى الطفل المصرى والاهتمام به قبل الولادة وفى أثنائها وبعدها فى ضوء التراث الثقافى الاجتماعى الذى لا يتضمن التراث المصرى القديم فحسب بل يتضمن أيضا تعاليم الديانة المسيحية وتعاليم الديانة الإسلامية.

وفى ضوء مهام الأسرة السوية التى سبق ذكرها نلاحظ أنها هى التى تبدأ بغرسها فى أطفال المجتمع. والملاحظ أن هذه المهام فى ضوء العلم الحديث هى عناصر الثقافة التى يتلقاها الطفل منذ لحظة ولادته. صحيح أن الطفل العادى يعطى قبل أن يأخذ فهو يعطى لأمه مكانتها الاجتماعيه كأم بعد أن كانت مجرد زوجه وهو يعطى أيضا أباه مكانته الاجتماعية كأم بعد أن كانت مجرد زوجة، وهو يعطى أيضا أباه مكانته الاجتماعية كأب بعد أن كان مجرد زوج، ومع ذلك فأن هذه الحقيقة لا تجب ما تقوم به الأسرة السوية من مهام.

وإذا كانت العناصر الثقافية المشار إليها قد تكون عناصر مادية وقد تكون أيضا عناصر غير مادية، فأن مفهوم "الثقافة" بمعناه الاجتماعى العلمى يعنى أساليب الحياة التى يواجهها الشخص منا فى كل لحظة لكى يحيا فى ظل قيم المجتمع ومبادئه ومثله العليا، أى كل النماذج السلوكية البشرية التى تكتسب اجتماعيا والتى تنقل اجتماعيا كذلك إلى أعضاء المجتمع البشرى عن طريق الرموز. ومن ثم يمكن أن يقال أن الثقافة تتضمن كل ما يمكن أن تحققه الجماعات البشرية.

والملاحظ أن مفهوم الثقافة بمعناه العلمى الاجتماعى يختلف كثيرا عن معناه العام الذى يتضمن الآداب والفنون بأنواعها سواء أكانت موسيقية أم تشكيلية أم مسرحية أم سينمائية أو ما شابه ذلك. أن المثقف فى ضوء هذا المعنى يكون عادة عضوا من أعضاء الصفوة أو أعضاء النخبة فى المجتمع الذين يسمون أعضاء "الانتلجنسيا" (Intelligensia) أى أهل الفكر أحيانا، أو

عضوا من الأعضاء الذين يسمون العقلانين (Intellectuals) أى الذين يميلون إلى الدرس والتفكير والتأمل أحيانا أخرى.

ومهما يكن من الأمر فأن مفهوم الثقافة يعنى بوجه عام التراث الاجتماعى لجماعة من الناس يرثونه جيلا بعد جيل كأفراد أو جماعات، ومن ثم يجب ألا نخلط معنى هذا المفهوم بمعنى "العنصر" فالأخير معناه التراث الجسمانى الذى يتوارثه الناس جيلا بعد جيل عن طريق العمليات البيولوجية الخاصة بحفظ نوع الإنسان. والملاحظ أن الحاجات البيولوجية التى يحتاجها الإنسان كحيوان (الذى لم يتم تطبيعه) تختفى بمرور الوقت فى نماذج ثقافية. فالحيوان يأكل كلما أحس بالجوع إذا استطاع ذلك، ولكن الانسان (الذى كمل تطبيعة) إذا جاع ينتظر حتى يأتى موعد الطعام. وعملية "العطاس" هى ابتداء عملية بيولوجية، ولكن إذا عطس الإنسان تراه فى مجتمع كمجتمعنا يقول "الحمد الله" ونراه ينتظر من بجواره أن يشمته بقوله "يرحمكم الله". أى أن الإنسان ليس حيوانا متمدنا بالطبع ولكنه يتمدن بالتطبع.

١٦- وإذ أؤكد مدى الخطورة التى تواجهها الأسرة المصرية فى ضوء تنشئة أطفالها، فأننى اقترح ما يأتى :-

(أ) أن أعظم ما فى مجتمعنا هو ثروته البشرية، وأن أعظم ما فى هذه الثروة هم الأطفال.

(ب) وأن من حق الأسرة المصرية أن تجد الرعاية الكفيلة لكى تؤدى وظائفها الثقافية الاجتماعية التى تيسر تكوين المواطن الصالح.

(حـ) وأن هذه الرعاية هى من أول مهام الدول النامية منها والمتقدمة. وأطفال مصرنا الخالدة فى ضوء ظروف المجتمع المصرى الثقافية والاجتماعية والاقتصادية فضلا عن السياسية فى مسيس الحاجة إلى رعاية الدولة ومؤسساتها المتعددة وبخاصة المدرسة والمنظمة الدينية ومنظمة شغل أوقات الفراغ والمنظمة السياسية فضلا عن أجهزة الإعلام والثقافة.

(د) صحيح نحن فى مسيس الحاجة إلى الأسر السوية فى مجتمعنا ومع ذلك فأن الأسرة وحدها فى ضوء ظروف المجتمع الراهنة لا

يمكن أن يتاح لها القيام بما يجب عليها من واجبات سواء كانت هذه الواجبات تتعلق بحب أطفالها واحترامهم وبث الأمن والأمان في نفوسهم أم كانت هذه الواجبات غرس حب الثقافة وحب الكتاب إلى درجة القداسة في نفوسهم.

(هـ) ومن ثم فأنني أدعو دعوة صادقة إلى الاهتمام بوضع سياسة اجتماعية محددة الأهداف والأغراض، لكي تعمل في نطاقها أجهزة التنشئة الاجتماعية وجماعاتها بقصد تكوين المواطن الصالح الذي يعرف حقوقه ويؤدى عن طواعية واجباته نحو المجتمع المصرى.

(و) والمقصود بالمواطن الصالح في ضوء كل ما سبق، في بساطة هو كل مواطن مصرى إذا ما واجه أي موقف اجتماعي أو أى مواقف اجتماعية فى كل المجالات التى يعيش فيها، يسلك سلوكا سويا. فهو يعطيك هذا السلوك إذا كان يحيا حياته الخاصه، وهو يسلك أيضا اذا كان العامة. أى أن المواطن الصالح فى مجتمعنا هو الشخص الذى يؤدى أدواره الاجتماعية كما يتوقعها منه هذا المجتمع مهما كانت هذه الأدوار الاجتماعية، أقصد مهما كان مستواها الاجتماعى، ومهما كانت مكانتها الاجتماعية، ومهما كانت مجالاتها الاجتماعية.

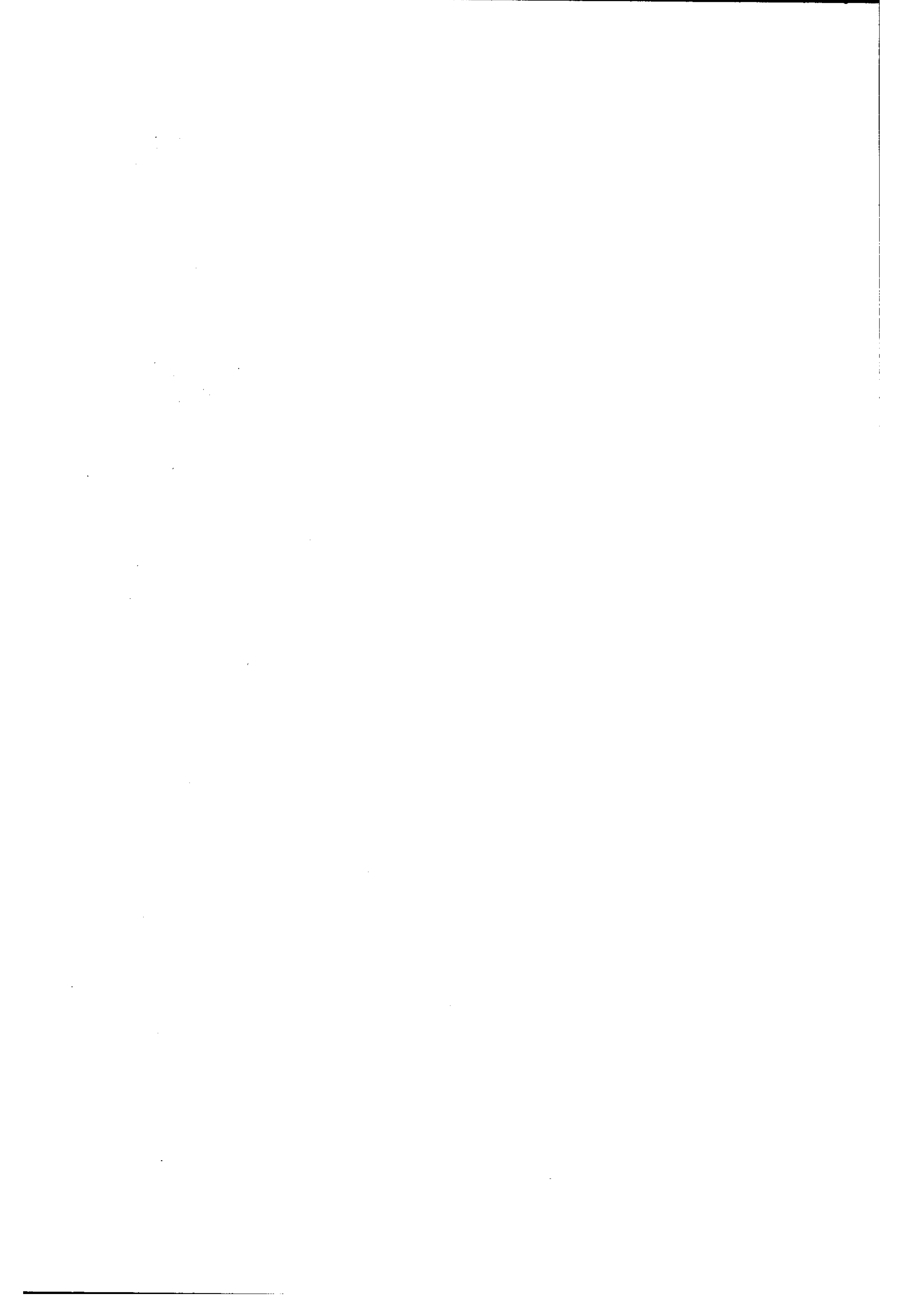
(ز) ولن تجدى السياسية الاجتماعة نفعا ما لم تحدد السمات التى يجب أن يتحلى بها المواطن الصالح، والتى ذكرت بعضها من قبل، وتحديد هذه السمات يكون عادة فى ضوء محددات شخصية هذا المواطن الدينامية سواء أكانت سمات تكوينية أم ثقافية (بالمعنى الاجتماعى العلمى والمعنى العام معا) ومحدداته النفسية والعقلية.

(ح) ووضع هذه السياسة هو مسئولية الدولة ومؤسساتها المعينه وأننى أعلن أعلانا صادقا عن أن الوقت يمر سريعا وأن الحاجة إلى هذه السياسة حاجة ماسة.

رابعا :

نظرات إلى حياة
الشباب فى مصر

* النظرة إلى قضايا الشباب فى مصر
* النظرة إلى القيم الاجتماعية وعلاقتها بظاهرة الوطنية.
* النظرة إلى الأزمة الاقتصادية وموقف الشباب المصرى منها
* النظرة إلى ظاهرة العصبية وظاهرة التعصب فى مجتمعنا
* النظرة إلى مكانة الإدمان على المخدرات.
* فى محيط الشباب المصرى
* النظرة إلى مشروع خطة عمل ثقافى اجتماعى رياضى لإسهام المؤسسات الاجتماعية فى تربية الشباب فى محافظة القاهرة مثال



رابعا - نظرات إلى حياة الشباب فى مصر

١١- النظرة إلى قضايا الشباب في مصر

أبدأ هذه النظرة بشرح مفهوم الشباب فى مصر. والملاحظ أنه ليس من اليسير القيام بهذا الشرح. وذلك لأن تعريف مفهوم الشباب ليس سهلا. ويرجع ذلك إلى أن علماء السكان يحاولون عادة الاستناد فى تحديدهم للشباب إلى محك خارجي كالسن أو العمر الذى يقضيه عضو المجتمع أى مجتمع فى معركة التفاعل الاجتماعى. وترى هؤلاء العلماء يختلفون فيما بينهم فى تحديد بداية ونهاية هذه السن. فهناك من يؤكد منهم أن أعضاء الشباب هم الذين تحت سن العشرين (وتبلغ نسبة هؤلاء فى ضوء التعداد الافتراضى لعام ١٩٨٥ نحو ٥١,٦٪ من أعضاء المجتمع المصرى). ويلاحظ القارئ أن هؤلاء العلماء قد حددوا نقطة النهاية دونما تحديد لنقطة البداية.

وبعض العلماء الآخرين يؤكدون أن الشباب هم أعضاء المجتمع الذين يقعون فى الفئة العمرية من سن الخامسة عشر إلى الخامسه والعشرين عاما (وتبلغ نسبتهم فى ضوء التعداد السابق ذكره نحو ٣١,١٪)، وأهم من يقعون بين سن الخامسة عشر الى سن الخامسة والعشرين عاما وتبلغ نسبتهم فى ضوء نفس التعداد نحو ٣٨,٧٥٪).

ونجد أن علماء آخرين هم علماء الاجتماع.. تحديدهم العلمى الذى يؤكدونه يكون بالإضافة إلى التحديد العمرى السابق. وهم يرون أن فترة الشباب تبدأ حينما يحاول بناء المجتمع تأهيل الشخص لكى يحتل مكانة اجتماعية ويؤدى أدوارا فى هذا البناء.

ويفرق علماء الاجتماع بين الدور أو الأدوار فى مرحلة الأعداد (مثل الطلاب والصبيان الحرفيين وغيرهم) والدور أو الأدوار فى مرحلة الاكتمال (مثل أعضاء المجتمع العاملين على اختلاف مستوياتهم).

وتجد علماء النفس الاجتماعى يربطون عادة بداية ونهاية مرحلة الشباب بمدى اكتمال نموهم منذ أن كانوا اجنة فى بطون أمهاتهم وبعد الميلاد

وحتى يشبوا عن الطوق عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية التي تقوم بها أجهزة اجتماعية عديدة.

ورؤية علماء البيولوجيا تؤكد على ربط نهاية مرحلة الشباب باكتمال نمو البناء العضوى والفيزيقى (من حيث الطول والعرض ونمو كافة الأعضاء التى لها وظائف معينة فى بناء الجسم واكتمالها).

ويلاحظ أن ما ذكرته من وجهات نظر تقسم فى حقيقة الأمر دورة حياة الإنسان (عضو المجتمع أى مجتمع) بين الطفولة والشباب والرجولة والشيخوخة. فالمرحلة الأولى فى غالبها تكوين بيولوجى بينما الثانية (الشباب) فهى أكتمال بيولوجى نفسى اجتماعى، أما المرحلة الثالثة فتعد امتدادا لهذا الأكتمال الذى يبدأ فى التحلل فى المرحلة الرابعة (الشيخوخة).

ويلاحظ أيضا أن مرحلة الشباب هى مرحلة المعاناة لأنها مرحلة الأكتمال، والأكتمال تفاعل فيه إضافة وتولد وفيه غرس ورفض وفيه فعل ورد فعل. وكل أولئك بحكم تفاعل هذه المرحلة الخطيرة.

ويلاحظ كذلك أن أعضاء المجتمع من الشباب، ذكورا كانوا أو إناثا، لا يعيشون فى المدينة وحدها ولا يعيشون فى بقاع الريف وحدها، ولا يعيشون فى المدن المتريفة وحدها، ولا يعيشون فى البادية وحدها. وهم أيضا ليسوا الطلبة والطالبات فحسب ولا العمال والعاملات ولكنهم أيضا من يعملون فى زراعة الأراضى وما يتعلق بها فى الريف أو يرعون الأغنام فى البادية.

وفى ضوء الظروف الاقتصادية والثقافية الاجتماعية والسياسية التى يعيشها المجتمع المصرى فى الوقت الراهن، فأنه لا يجادل أحد فى أن للشباب المصرى قضاياه التي لا تنفصل عن قضايا المجتمع الذى يعيشون فيه. وقد شهدت مصر فى خلال الستينيات والسبعينيات تغيرات وتحولات جذرية فى نظمها الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، من الإصلاح الزراعى والقوانين الاشتراكية وهزيمة عام ١٩٦٧ وآثارها إلى معركة العبور عام ١٩٧٣ وسياسة الانفتاح الاقتصادى (الاستهلاكى) وتعدد الأحزاب.. إلخ.

وقد أدت هذه التغييرات والتحولات فى مجملها إلى كثير من المشاكل فى التطبيق والتنفيذ، شأنها شأن أى تغييرات سريعة وتحولات مفاجئة غير متدرجة.. وهذا أمر متوقع.

وقد أثرت هذه المشاكل على قيم المجتمع المصرى وعلى سلوك أعضائه. وكانت فئة الشباب أكثر فئات هذا المجتمع تأثرا بهذه التغيرات والتحولات والمشاكل المترتبة عليها، إذ أنها من مرحلة الطفولة فى طريقها إلى مرحلة النضوج، أى وهى على أبواب تحمل مسئولياتها والقيام بالأدوار الاجتماعية التى يتوقعها منها المجتمع.

وفى ضوء ماسبق وغيره فأننى أرى أن الاهتمام بموضوع الشباب المصرى. ودراسته من زوايا عديدة منها وجهة النظر الثقافية الاجتماعية، موضوع الدراسة الراهنة، أصبح أمرا ضروريا.

ويلاحظ القارئ الكريم أننى اهتممت أول ما اهتممت بتعريف الشباب. وإذا أخذنا بالرأى القائل بأن الشباب ثلثا الحاضر وكل المستقبل، فأنه يتضح أن عدد من هم فى سن الشباب من الجنسين (المرحلة العمرية من سن ٣٠ فأقل) لا يقل عن ثلثى عدد السكان أى لا يقل عن ثلاثين مليون نسمة، منهم فى مراحل التعليم مالايقل عن عشرة ملايين شاب. ومن ثم فأنه لكى نرعى الشباب يجب أن نهتم به من قبل ولادته فنهتم بالأم وبصحتها قبل الحمل وفى أثنائه ثم نهتم بالطفل بعد ولادته ونجعله يعيش فى بيئة صحية وصالحة ونربيه تربية سليمة ونعوده على السلوك السوى ونعرفه الخير من الشر، ثم بعد أن يشب ويكبر يرعاه المنزل والمدرسة والدولة وتتكاتف كلها، فى ظل سياسة اجتماعية محددة الأهداف والمعالم، فى توفير الظروف المناسبة لتنمية ملكاته وحتى يكون شخصيته بصورة متكاملة من جميع النواحى الرياضية والصحية والنفسية والثقافية والاجتماعية، ومن ثم يكون مواطنا مصريا صالحا يؤدى أدواره الاجتماعية كما يتوقعها منه المجتمع المصرى فى ضوء مبادئه وقيمه الاجتماعية ذات الأهداف الحميدة ومثله العليا.

وإذا لاحظنا فئة أعضاء المجتمع المصرى من سن ١٥-٣٠ نجد أن نسبتها المئوية فى محيط أعضاء هذا المجتمع فى الوقت الراهن لا تقل عن

٢٧٪(*). وقد أصبحنا نلمس تغيرا فى علاقة أعضاء هذه الفئة بوالديهم. فهم يتحررون إلى حد كبير من رقابتهم وتنشئتهم، لأنهم تركوا مرحلة الطفولة، وأصبحوا شبابا يتمتعون بنضج عقلى وتفتح اجتماعى واتساع فى الحركة، وأن كانوا لا يزالون، من الناحية الاقتصادية، فى الكثير من الأحيان، يعتمدون على الأسرة اعتمادا يكاد أن يكون تاما، وبخاصة فى العصر الحاضر الذى نودى فيه بضرورة أن يكون التعليم متاحا للقادرين عقليا من أبناء كل الطبقات فى المجتمع. ولا يجب أن نوجه اللوم على الشباب من هذه الفئة وحدهم إذا عرفنا أن واجبات الأسرة نحو الشباب فى المجتمع المصرى لا يمكن فى ضوء ظروف هذه الأسرة من حيث أنها أصبحت مجرد جهاز من الأجهزة التى تقوم بالتنشئة الاجتماعية فيه والتى منها جماعات الجيرة والمدرسة والمنظمة الدينية ومنظمة شغل أوقات الفراغ فضلا عن أجهزة الإعلام والثقافة.

ومع أننى اعترف بأن على الأسرة تقع واجبات تنشئة أعضاء المجتمع من الشباب وبخاصة من كانوا فى الفئة العمرية من الميلاد حتى سن ١٥ عاما، واعدادهم للحياة المستقبلية من النواحى الاجتماعية والدينية والخلقية والعقلية والوجدانية والجسمية، وتربية المهارة بمختلف أنواعها، فأننى اعترف أيضا بأن على أجهزة التنشئة الاجتماعية الأخرى المشار إليها أن تشارك الأسرة فى تأدية هذه الواجبات. ومع ذلك فأننا نلاحظ أن جماعات الجيرة فى القرية أو فى الحى أو فى المدينة، وهذا مجرد مثل، قد أثرت فى ضوء ما كانت تقوم به فى القرية من الأدوار التقليدية، ليس فقط فى دور كل منها فى تطبيع الشباب على أيدى الكبار من جهة، بل أيضا فى تطويعهم لضغط الضوابط الاجتماعية التقليدية من جهة أخرى. فلقد أصبحت القرية مستهدفة لعوامل التغير، نظرا لاتصالها القوى فى الوقت الحاضر، ليس فقط بكل أقاليم القطر المصرى، بل أيضا بالدول العربية والأجنبية. فكل قرية تطرد، منذ بضع سنوات، اعدادا متزايدة من أبنائها إلى مراكز الجذب فى مصر وإلى البلاد العربية والأجنبية للعمل فى الوظائف والأعمال المختلفة

(*) فى ضوء نتائج التعداد الافتراضى عن عام ١٩٨٥.

المتاحة التى تستوعب أعدادا كبيرة منهم من جراء ما تمر به تلك البلاد من تنمية سريعة. وأصبح الشباب حلقة اتصال مباشر بين قراهم وبين العالم الخارجى، كما أنهم بما جلبوه معهم من سلع استهلاكية أهمها التليفزيون والفيديو، قد أحدثوا تغيرا عميق الأثر فى نمط الحياة اليومية فى القرية المصرية.

أما فى الأحياء فى الحضر، فقد صار الشباب فيها الأثر الواضح، نظرا للفراغ الكبير الذى يعيشون فيه، وبخاصة فى أيام العطلة الطويلة فى أشهر الصيف، ومن ثم فأننى أؤكد على أهمية أن تكون الرياضة للجميع بدءا ببرامج ومشروعات الرياضة لمرحلة الطفولة، ودرسة اعتبار التربية الرياضية مادة أساسية من مناهج الدراسة، وتوفير الأمكانات لدعم ألوان النشاط الرياضى والثقافى بالمدارس ومراكز الشباب والاندية وتشجيع أعضائها وأبنائها على ممارستها، والاهتمام بالبرامج والأنشطة الرياضية والثقافية ذاخل الوحدات الإنتاجية من مصانع وشركات وخارجها عن طريق إقامة المعسكرات على اختلاف أنماطها أى سواء أكانت علمية أم ثقافية أم رياضية أم ترفيهية أم هذه المجالات جميعا.

وأننى أرى وأرجو من القارئ الكريم أن يرى ما أرى ضرورة الاهتمام بنظام التعليم السائد، سواء أكان فى المدرسة أم فى الجامعة، ولاحظت أنه يعكس المستوى الفكرى والتكنولوجى والعلمى للمجتمع المصرى المعاصر. ففى مجال التعليم يعانى شباب المدن من عدم كفاية دور التعليم لاستقبال الأعداد الكبيرة من التلاميذ فى الثانوى. ففى القاهرة الكبرى مثلا لا تستوعب مدارس المرحلة الثانوية سوى حوالى ٤٠٪ ممن هم فى سن هذه المرحلة. ومن ثم ترتفع كثافة الفصول الدراسية وتقل إمكانات المدرسة فى خدمة الشباب، كما لاحظت أن الشباب المصرى يعانى من توتر حاد، ومعهم أسرهم، فى هذه المرحلة الحساسة من حياتهم، وخاصة أن النظام التعلميى فى مصر قد جعل من نهاية المرحلة الثانوية مشكلة مصيرية أما أن يجتازها الشباب بدرجات تسمح له بالالتحاق بالكلية التى يرغبها، وأما أن يرسب فتنهار كل آماله، أو يحصل على درجات لا تمكنه من الالتحاق بأية كلية رغما عنه. وفى ظل هذه الظروف نشأت مشكلة "الدروس

الخصوصية" وتفشت وأصبح على كل أسرة باختلاف إمكاناتها الاجتماعية والاقتصادية أن تحاول تدبير وتوفير هذه الدروس لأبنائها لضمان نجاحهم فى هذه المرحلة المصيرية(*)

ولموضوع "القدوة الحسنة" اهتمام خاص عندى. وفى ضوء إحدى الدراسات عن هذا الموضوع تبين أن الشباب المصرى قد افتقد هذه القدوة ليس فقط في محيط الأسرة بل فى محيط المدرسة ومواقع العمل العديدة فى المجتمع. وأننى أرى ملحا أنه ينبغى أن تكون الدولة القدوة الصالحة التى يتعلم منها عامة الشعب. والمقصود بالدولة هنا الجهاز الإدارى ورجاله وأبنيته فهؤلاء هم الذين يراهم الناس، وتلك هى الأماكن التى يرتادونها لمصالحهم. وإذا كانت القدوة الصالحة قد انحسر وجودها فى المجتمع المعاصر فانه من الواجب على أولى الأمر (رجال السياسة وغيرهم) أن يعبدوا وجودها إذا كنا نريد شبابا يستطيعون قيادة الغد. صحيح أن عودة هذه القدوة لن تأتى بين يوم وليلة وذلك لأن الظروف الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ظروف غير مواتية فى الوقت الراهن. فالملاحظ أن صراع السياسة يعمل بصورة مستمرة على تشوية كل من يتصدرون للقيادة، وأن الأحوال الاقتصادية تهبط بصورة مستمرة بصورة الأب والأم حتى أصبحا فى الغالب بعيدين عن أن يقدما لأبنائهما قدوة صالحة.. مع كل ذلك فأننى أمل الأمل كله فى أن دراسة هذه الظروف غير المواتية دراسة موضوعية بقصد تغييرها إلى ما يجب أن يكون أو إلى ما يمكن أن يكون تيسر ما فى ذلك من شك، خروج القدوة الحسنة فى شخص القادة فى كل موقع من مواقع الحياة ابتداء من خروج القدوة الحسنة فى شخص القادة فى كل موقع من مواقع الحياة ابتداء من الأسرة، من مكمنها. فأن القدوة الحسنة مثلها مثل القيم الاجتماعية ذات الأهداف الحميدة موجودة فى المجتمع

(*) لعل المؤتمر الخاص بالتعليم الذى عقد فى خلال شهر يوليو عام ١٩٨٧ أن يواجه كل أو بعض المشاكل التى يعانى منها أبناء المجتمع المصرى المعاصر، وأن يكون هدف أهداف المؤتمر ليس فقط التعليم ولكن يكون أيضا بالضرورة تيسير التربية. فالمعلوم أن التعليم شىء وأن التربية شىء آخر.

المصرى، ولكنها بسبب بعض الظروف غير المواتية المشار إليها، وربما غيرها، أصبحت كامنة ولا تجد المناخ الثقافى الاجتماعى المناسب لكى تظهر وتؤدى وظيفتها الحميدة التى أصبح المجتمع المصرى، لكى يتجدد، فى مسيس الحاجة إليها.

وقد لاحظت فى ضوء إحدى الدراسات أن المجتمع المصرى مجتمع قديم ومستمر. فهو منذ الماضى السحيق نجده بيئة واضحة المعالم قليلة التقلب هينة الحدة، مأمونة العواقب، غير ذات تأثير معاكس أو ضاغط على وجدان أهلها، بيئة ليس فيها من صراع العوامل الطبيعية ومظاهر الرهبة والصخب ما يوجه المستظلين بها إلى اعتياد الصخب والعنف، أو يطبعهم بكثير من التوتر والتمرد، فى حياتهم الخاصة أو فى تصرفاتهم العامة. وقد زود المجتمع المصرى القديم أعضاءه بالعديد من العناصر الثقافية المستمرة على الرغم من تعدد مصادر هذه الثقافة على مر الزمان ومن هذه العناصر نجد القيم الاجتماعية ذات الأهداف الحميدة مثل قيمة حب المعايشة، وقيمة الرحمة، وقيمة الميل إلى السماحة، والوفاء، وقيمة الاطمئنان إلى حسن العقبى ولو طال أمد المحن، فضلا عن قيم أخرى مثل الإيمان والعقيدة والعدالة والتعاون والوطنية والصبر الإيجابى والحصانة والاعتدال والجلد. وقد عاشت هذه القيم الاجتماعية ذات الأهداف الحميدة واستمرت فى المناخ الثقافى الاجتماعى للمجتمع المصرى، ولكننا نجد فى ضوء الظروف غير المواتية أن هذه القيم تتوارى وتختفى وتستبدل بها قيم اجتماعية أخرى ذات الأهداف غير الحميدة. فالملاحظ أنه منذ أن بدأت سياسة الانفتاح فى المجتمع المصرى المعاصر، مثلا، أن ظاهرة التغير الاجتماعى لم تتح له الفرصة ليكون على أساس من التخطيط العلمى الرشيد. ومن ثم برز العديد من المشاكل الاجتماعية التى واجهها أعضاء المجتمع المصرى المعاصر. وبخاصة أعضاءه من الشباب الذين يكونون حوالى ثلثى أعضائه. ولعل أهم هذه المشاكل أن يكون مشكلة "اللامعيارية" ويقصد بهذا المفهوم فى هذا المجال "المواقف الاجتماعية التى تكون فيها المعايير نفسها فى صراع بعضها مع بعض، ويقع الفرد بسببها فى مشكلات فى أثناء محاولاته التوافق مع متطلبات متناقضة". والملاحظ أنه لما كانت سياسة الانفتاح لفترة طويلة – هى سياسة الانفتاح الاستهلاكى وليس للانفتاح الإنتاجى، ولما كان نصيب

الخبراء الأكفاء في الاشتراك في إبداء آرائهم أو في عمليات تطبيق هذه السياسة ضئيلا، فقد واجه أعضاء المجتمع المصرى بعامة والشباب منهم بخاصة ظهور العديد من القيم الاجتماعية ذات الأهداف غير الحميدة من مكمنها ومنها قيم المظهرية والحسد والنفاق وعدم الانتماء الوطني وتفشى آثار القدوة غير الصالحة وغيرها من القيم الاجتماعية ذات الأهداف غير الحميدة. وأصبح أعضاء المجتمع المصرى والشباب المصرى على رأسهم يواجهون ظاهرة الازدواجية الثقافية. أى أنه أصبح ليس كل ما يقال في هذا المجتمع يمارس، أو بمعنى أكثر صراحة ليس كل ما يقوله قادته الثقافيون، ومن هؤلاء القادة السياسيون، يمارسونه. أى أنهم يعظون الآخرين ولا يمارسون ما يعظون به. ومن ثم كان التحدى الحقيقي لمواجهة مشاكل مجتمعنا الثقافية الاجتماعية بعامة ومنها ما يتعلق بالشباب المصرى بخاصة، هو ما نجده من اختلاف ما هو إيجابى في التراث الثقافي الاجتماعي المصرى النظرى عما يمارسه أعضاء هذا المجتمع. أنها الازدواجية الثقافية التى يجب أن ندرسها موضوعيا لكى نفهم عواملها لكى يتيسر لنا مواجهة المشاكل الثقافية الاجتماعية وغيرها التى يعانى منها المجتمع المصرى المعاصر. وفى ضوء كل ما سبق يمكن استخلاص بعض النتائج منها ما يلى:

١- أن قضايا الشباب المصرى لا يمكن أن تنفصل عن قضايا المجتمع المصرى الذى يعيشون فيه.

٢- أننى وانا على وعى بالتعاريف العديدة لمفهوم الشباب سواء كانت هذه التعاريف التى يتبناها علماء الاجتماع أو علماء النفس وعلماء النفس الاجتماعى أو علماء البيولوجيا. قد آثرت أن نتبنى تعريف علماء الديموجرافيا من حيث الاستناد فى تحديدهم لمفهوم الشباب إلى محك خارجى أى إلى السن أو العمر الذى يقضيه في أتون التفاعل الاجتماعى. ولم يكن هذا التبنى بقصد التيسيرعلى القارىء فحسب بل ايضا بقصد تفادى الوقوع فى متاهات الدراسات التى فى ضوء ظروفنا فى الوقت الراهن نكون فى غنى عنها.

٣- أن الأسرة المصرية مع أهمية وإجاباتها المتعلقة بعملية التنشئة الاجتماعية لأعضاء المجتمع وبخاصة من كان منهم فى الفئة العمرية من الميلاد حتى سن ١٥ عاما، أن هى إلا أحد الأجهزة الموجودة فى هذا المجتمع التى تقوم بهذه التنشئة والتى لا مناص من اشتراكها فى تأدية هذه الواجبات اجتماعية كانت أو دينية أو خلقية أو عقلية أو جسمية فضلا عن تربية المهارة بمختلف أنواعها.

٤- على الرغم من وجود الأجهزة الاجتماعية المنوط بها أداء التنشئة الاجتماعية لأعضاء المجتمع المصرى وبخاصة الشباب منهم، فأنه من الملاحظ أنها فى ضوء الظروف الثقافية الاجتماعية غير المواتية التى يواجهها هذا المجتمع فى الوقت الراهن لا تستطيع أن تؤدى هذا الدور الخطير. فهى فى حاجة ماسة إلى التنسيق فى ظل سياسة ثقافية اجتماعية محددة الأهداف والمعالم.

٥- وإذا كنت قد ركزت على ذكر بعض الأمثلة عن عوامل انحراف الأهداف التقليدية لجماعات الجيرة فى قرى الريف وفى أحياء الحضر، ولنظام التعليم السائد سواء أكان فى المدرسة أم فى الجامعة، وللقدوة سواء أكانت فى محيط الأسرة أم فى محيط المدرسة أم فى مواقع العمل العديدة فى المجتمع، فأننى جد متفائل بالمستقبل.

٦- لقد أكدت على أن القدوة الحسنة مثلها مثل القيم الاجتماعية ذات الأهداف الحميدة موجودة فى المجتمع المصرى منذ الماضى السحيق ولكن بسبب بعض الظروف غير المواتية أصبحت كامنة ولا تجد المناخ الثقافى الاجتماعى المناسب لكى تظهر وتؤدى وظيفتها الحميدة التى أصبح المجتمع المصري؛ لكي يتجدد، في مسيس الحاجة إليها.

٧- وقد أشرت عرضا إلى وجود ظاهرة الازدواجية الثقافية فى المجتمع. بمعنى أنه أصبح ليس كل ما يقال فى هذا المجتمع يمارس. أى أنه ليس كل ما يقوله قادته الثقافيون يمارسونه. ومن ثم كان التحدى الحقيقى لمواجهة مشاكل مجتمعنا الثقافية الاجتماعية بعامة ومنها ما يتعلق بالشباب المصرى بخاصة هو ما نجده من اختلاف ما هو إيجابى فى

التراث الثقافى الاجتماعى المصرى النظرى عما يمارسه أعضاء هذا المجتمع.

وأننى إذا اختم هذه النظرة فى ضوء النتائج السابقة التى قدمتها من الوجهة الثقافية الاجتماعية أود أن اقترح بعض التوصيات.. هى:

- التأكيد على أن تكون مصر الوطن هى وطن كل عضو من أعضائها.
- الحاجة الماسة إلى تعريف مفهوم الشباب المصرى الصالح، بمعنى الشباب الذى يستطيع عن وعى أداء أدواره الاجتماعية التى يتوقعها المجتمع المصرى منه فى الوقت الراهن. ذلك أن أعضاء الشباب الصالحين هم الذين تقع على عاتقهم تنمية هذا المجتمع. فالتنمية بهم ولهم ولمن يأتى من بعدهم. ولن يقوم بعمليات التنمية التى هى مطلب المجتمع المصرى فى ضوء ظروفه الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى يواجهها فى الوقت الحالى إلا أعضاء المجتمع من الشباب الصالحين.
- الحاجة إلى غرس الانتماء الوطنى فى قلوب وعقول كل المصريين وبخاصة من كان منهم فى فئة العمر من سن ٣٠ فأقل.
- الحاجة الماسة إلى وضع سياسة اجتماعية ذات الأهداف الواضحة التى يتيسر فى ظلها أن تقوم أجهزة التنشئة الاجتماعية فى المجتمع المصرى سواء أكانت الأسرة أم الجيرة أم المدرسة أم المنظمة الدينية أم منظمة شغل أوقات الفراغ أم المنظمة السياسية أم أجهزة الإعلام والثقافة بأداء مهامها ليس فقط بتعريف مفهوم الشباب المصرى الصالح وغرس الحاجة إلى الانتماء الوطنى ومحاولة أعطاء الفرصة للقيادة الصالحة لكى تظهر وللقيم الاجتماعية ذات الأهداف الحميدة لكى تخرج من مكمنها، بل كذلك بإتاحة الفرصة كاملة للقادة الثقافيين المصريين القادرين للقيام بواجباتهم نحو مواجهة المشاكل الثقافية الاجتماعية التى تعانى منها البلاد فى الوقت الراهن.

١٢- النظرة إلى القيم الاجتماعية وعلاقتها بظاهرة الوطنية:

١- القيم الاجتماعية هى، فى بساطة. الأشياء التى تكون ذات قيمة معينة عند جماعة من الناس، مجتمعين أو موزعين. وتنبت القيم الاجتماعية، عادة، عن طريق الرأى الجمعى لهذه الجماعة، أى أن هذه القيم لا يمكن

أن تفرض من الخارج على الجماعة فرضا، ولكنها تتولد من الظروف المعايشة التى تحياها وتكون مقبولة ومعترفا بها عندها.
ويلاحظ أن الأشياء المادية تمثل أنواعا متباينة من القيم، ذلك لأن هذه الأشياء هى فى الواقع موضوع اهتمامات إنسانية متباينة قد تكون اهتمامات مادية أو اقتصادية او معنوية. فقطعة الخشب إذا صنعها نجار وصارت مكتبا تمثل قيمة مادية، أى تصبح ذات قيمة نفعية. والمكتب ذاته كنتاج للعمل الإنسانى يحتوى على قيمة اقتصادية. وإذا عالج قطعة الخشب ذاتها فنان أصبحت قطعة فنية ذات قيمة جمالية ونجد قطعة الخشب، فى كل العلاقات السابقة، ليست فقط شيئا ماديا بل ظاهرة اجتماعية كذلك. أى أنها شيء ذو منفعة، وسلعة، ونتاج عمل فنى جميعا. أى هى موضوع اهتمامات إنسانية.
ويلاحظ أيضا أن ظواهر الوعى الاجتماعية وتتمثل فى الأفكار لها كذلك قيم، وعن طريقها يعبر الناس عن اهتماماتهم فى أسلوب أيديولوجى معين. فأفكار الكفاية والعدل والوسائل التى تحققها تتضمن فى الواقع اهتمامات فئات من أعضاء الشعب كما تتضمن أعمالهم ورغباتهم واراداتهم، فضلا عن الأهداف العملية للمؤسسات السياسية أو الاجتماعية التى تضمهم. ومن ثم نجد أن هذه الأفكار كهدف لهذه الفئات من أعضاء الشعب أو كموضوع آمالهم. أو كحلم يهدى أعمالهم، هى.. أى هذه الأفكار فى الواقع مثل عليا أو قيم من القيم المعنوية.
والملاحظ أنه بالإضافة إلى القيم المادية والاقتصادية والجمالية نجد أيضا القيم الأخلاقية والقانونية السياسية والثقافية والتاريخية والملاحظ أيضا أن الأفعال التى تصدر عن أعضاء المجتمع أو التى تكون الظواهر الاجتماعية فيه، قد تمثل قيم الخير أو قيم الشر، أى قد تمثل قيما إيجابية أو قيما سلبية، أى قد تمثل القيم الاجتماعية التى تكون أهدافها إيجابية أو سلبية. ومن ثم نجد أن الأفعال المشار إليها قد تكون أفعالا مقبولة اجتماعيا أو غير مقبولة اجتماعيا. ونجد المجتمع أى مجتمع لكى يوجه أنماط سلوك أعضائه أو ينظم هذه الأنماط، يخلق عادة جهازا من المفاهيم الأخلاقية والمثل العليا والمبادئ وأساليب تقييم هذه الأفعال، وهذه كلها من قبيل القيم الأخلاقية.

٢- ومهما يكن من الأمر فكل شخص عادى مهما كانت مكانته الاجتماعية فى الواقع له جهاز معين من القيم الاجتماعية (التى قد تكون اهدافها إيجابية أو قد تكون اهدافها سلبية) يمثل عنده أقدس الأشياء وربما يمثل عنده أنبل الأمور. ومع ذلك فالقيم الاجتماعية متطورة دائما ومتغيرة أبدا. ولكن يلاحظ أن تطور القيم الاجتماعية عند الشخص وتغيرها يحتاجان عند هذا الشخص إلى استعداد لذلك. وحتى إذا وجد هذا الاستعداد فإن الحاجة إلى الإمكانات التى تساعد على هذا التطور وهذا التغير ضرورة حيوية. أى أن وجود الاستعداد مع عدم الإمكانات لا جدوى منه، ويمكن أن نقول ان العكس صحيح. ومع ذلك فأننا نلاحظ، فى ضوء قدم المجتمع المصرى واستمراره على الرغم من مواجهته ألوان المحن والبلايا التى عاشها، أن القيم الاجتماعية ذات الأهداف الإيجابية قد تكمن فى ظل الظروف الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية غير المواتية وتبرز القيم الاجتماعية ذات الأهداف السلبية وتظهر إلى حيز الوجود، ويرجع ذلك فى رأيى إلى أن المجتمع المصرى أول حضارة إنسانية بين بنى البشر، وقد صدر العديد من المؤسسات الاجتماعية والسياسية فضلا عن القيم الاجتماعية ذات الأهداف الإيجابية إلى العالم قاطبة.

وإذ أذكر أن حضارة مصر هى أول حضارة إنسانية أعطت العالم الكثير، فأنا لا أذكر ذلك وأؤكده عبثا. فعبارة "أعرف نفسك" التى تنسب للفيلسوف اليونانى "سقواط" (٤٦٩-٣٩٩ ق.م) كانت معروفة عند المصريين القدماء ويعلمها علماؤهم ومكتوبة على جدران معابدهم، وأن "الفضائل الأصلية" المنسوبة للفيلسوف "أفلاطون" (٤٢٨ - ٣٤٨ ق.م) وهى:

(أ) الحصافة.
و(ب) العدل.
و(حـ) الاعتدال (ضبط النفس).
و (د) الجلد.

قد نسخها هذا الفيلسوف وهو يدرس "العلم المقدس" على أيدى الكهنة المصريين لمدة ثلاث عشرة سنة.

٣- والملاحظ أن جهاز القيم الاجتماعية (التى قد تكون أهدافها إيجابية أو قد تكون أهدافها سلبية) الذى يمثل عند الشخص العادى منا أقدس الأشياء وربما يمثل عنده أنبل الأمور، لا يأتى من فراغ. أن غرس هذا الجهاز يبدأ منذ لحظة ولادة الطفل. والمعروف أن الشعب المصرى على مر العصور والأزمان يرحب بالأطفال. ونحن نلاحظ أنه عند ولادة الطفل العادة فى المجتمع المصرى المعاصر، يفرح الجميع. يفرح الأهل والأقارب، كما يفرح الغرباء، على السواء. أن الأم الوالدة تصبح شخصا آخر، لقد قامت بالمعجزة، صنعت مخلوقا منها وهى مخلوق أصلا، وقد منحها الطفل المولود مكانة الأم كما منح زوجها مكانة الأب. أى أن الطفل المولود أعطى قبل أن يأخذ. ومع ذلك فأننا قد نجد الطفل المولود يراه الجميع وكأنه ملك لهم يرعونه ويصفون له ما ييسر أن يسير فى خطاه وئيدا نحو حياة أرحب. جميع الأعضاء يفعلون ذلك. الأطفال الصغار والأشخاص الكبار على السواء ويبدو أن ذلك مرجعه، أولا وأخيرا، إلى ما يحفظه الملايين من المصريين المعاصرين فى أعماق قلوبهم من الماضى السحيق، منذ آلاف السنين، من تراث إنسانى انبثق من المجتمع المصرى القديم قدم الدهر، واستمر حتى وقتنا الراهن.

فقد حفظ هذا التراث تعاليم آتون منذ نحو ٣٥٠٠ عام، إذ تقول انشودة "خلق الإنسان":

"أنت خالق الجرثومة فى المرأة"
والذى يذرأ من البذرة أناسيا"
وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه"
ومهدئا إياه حتى لا يبكى"
مرضعا إياه حتى فى الرحم"
"وأنت معطى النفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسان خلقته"
"وعندما ينزل من الرحم (أمه) فى يوم ولادته"
"فأنت تفتح فمه كلية"
"وتمنحه ضروريات الحياة"

وقد حفظ التراث الثقافى الاجتماعى المصرى (الإنسانى)، ولا يزال فى بعض أجزائه منذ أن بشر "مرقص" بالديانة المسيحية بالإسكندرية، ثم كرس "اينانيوس" المصرى أسقفا عام ٦٤ ميلادية - أروع ما يتصل بحقوق الطفل فآيات الكتاب المقدس تتلألأ بمعانى هذه الحقوق وتنشر نورها فى أعماق قلوب المصريين المسيحيين منذ ذلك التاريخ، وحتى الآن.

(أ) فعلى الوالدين أن يقبلوا أولادهم من الله:
"ثم رفع عينيه وأبصر النساء والأولاد وقال ما هؤلاء منك..
فقال الأولاد الذين أنعم الله بهم على عبدك"

(تك ٣٣ : ٥)

(ب) وعلى الوالدين أن يحبوا أولادهم:
"يدبر بيته حسنا له أولاد فى الخضوع بكل وقار"

(اتى ٣ : ٤)

(حـ) وعلى الوالدين أن يربوا أولادهم بتأديب الرب:
"وانتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم بل ربوهم بتأديب الرب وانذاره"
(أف ٦ : ٤)

(د) وعلى الوالدين أن يعلموا أولادهم كلام الله، وأن يخبروهم أحكام الله. وأن يخبروهم عن أعمال الله العجيبة، وأن يأمروهم حتى يطيعوا الله
"إنما احترزوا حفظ نفسك جدا لئلا تنسى الأمور التى أبصرت عيناك ولئلا تزول من قلبك كل أيام حياتك وعلمها أولادك وأولاد أولادك"
(تث ٤ : ٩)

(هـ) وعلى الوالدين أن يباركوا أولادهم، وأن يترأفوا عليهم، وأن يهتموا فى أمر خلاصهم، وأن يعولوهم، وأن يدبروهم، وأن يؤدبوهم:
"كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خائفيه".

(مز ١٠٣ : ١٣)

ومنذ أن غزا أرض مصرنا الخالدة جيش عمرو بن العاص، تعطر مناخ المجتمع المصرى الثقافى الاجتماعى المصرى بتعاليم الديانة الإسلامية. وقد حفظ التراث الثقافى الاجتماعى المصرى هدى هذه التعاليم فيما يتعلق

بالاهتمام بالطفل نجد ذلك فى الآيات القرآنية التى تزهو بمعانى هذا الاهتمام وتنشر شذاها. ونجد ذلك أيضا فى أحاديث رسول الإسلام وتعاليمه عليه الصلاة والسلام. وليمعن القارئ فيما يلى من الآيات:

(و) "المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا".

(١٨ك الكهف : ٤٦)

(ز) "أن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا".

(٤م النساء : ١٠)

(ح) "ولا تقتلوا أولادكم خشية أملاق نحن نرزقهم وإياكم أن قتلهم كان خطأ كبيرا".

(١٧ك الأسراء : ٣١)

وقد تضمنت أحاديث نبى الإسلام حقوق الوالدين فى بر أبنائهما بهما وطلب إعانة الوالد ولده على بره، وأكدت هذه الأحاديث المساواة بين الأولاد فى العطية. وأبانت هذه الأحاديث حقوق الطفل منذ ولادته حيث يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الاذى، فإذا بلغ ست سنين أدب، فإذا بلغ تسع سنين عزل فراشه، فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضرب على الصلاة" وذكرت هذه الأحاديث أن من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه، ونصحه بالرفق بالولد والبر به وتعليمه.

٤- وفي ضوء ما سبق وغيره نجد في وضوح ويسر أن إنجاب الأطفال فى الأسرة التناسلية المصرية (أسرة الزوج والزوجة وأبنائهما) فى ظل المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى، مطلب ضرورى للغاية. نلاحظ ذلك فى الريف وفى المدن المتريفة فضلا عن المدن الحضرية وبخاصة فى أحيائها الشعبية على السواء. كما نلاحظه عند أعضاء المجتمع على اختلاف الثقافات والمستويات الاجتماعية والاقتصادية على السواء أيضا. فالأطفال عند المصريين (كثر عددهم أو قل) كانوا ولا يزالون

زينة الحياة الدنيا. ويعتبر كل واحد منهم "ضنا" كل من الأم والأب. ومن ثم نرى كما ذكرت آنفا الحفاوة بمقدمهم فى مجتمعنا ابتداء من الحمل (الحرص على الحامل من الحسد مثلا، والحرص على استكمال نمو الجنين فى أثناء هذه الفترة وحتى الولادة). وفى ضوء نتائج احدى الدراسات التى اشرفت على إجرائها لاحظت ارتفاع المكانة الاجتماعية "للداية" وبخاصة فى الريف المصرى فهى أم لكل من ولدته وعمدة المتعلقة بالولادة، وما بعد الولادة (المشاهدة وطقوس السبوع والختان وغيرها). وكل ما ذكر يؤكد على أن الحفاوة بمقدم الأطفال فى مجتمعنا هى أقرب إلى أن تكون حفاوة مقدسة.

٥- والملاحظ، كما سبق أن أوضحت، أن الحفاوة بمقدم الأطفال فى المجتمع المصرى وراءها قيم التراث المصرى القديم والمصرى المسيحى والمصرى الإسلامى على السواء. وتكون هذه القيم فى الأغلب الأعم "ضمير" الطفل المصرى عندما يصبح بالغا. فالطفل العادى يولد فى أسرة (أول جهاز اجتماعى للتنشئة) أى أنه يولد فى جماعة، والطفل فى هذه الجماعة يستطيع أن يدرك أن بعض السلوك ممدوح وبعضه مذموم. وأنه والآخرين يعاملون إذ يعاملون بحسب ذلك. فالحياة تمنح للمسالم (الذى يحمل السلام) ويحيق الموت بالمجرم (الذى يحمل الجريمة). أى أن المسالم هو الذى يفعل ما هو محبوب وأن المجرم هو الذى يفعل ما هو مكروه. ومن يبدأ غرس قيم التمييز بين الخلق الحسن والخلق السيء، أى التمييز بين ما هو حق وبين ما هو باطل، أى يبدأ عند الطفل فى الأسرة (الجماعة) التى ولد فيها غرس بذور نظام خلقى معين.

ويتضمن هذا النظام الخلقى المعين قيما ذات أهداف إيجابية وقيما أخرى ذات أهداف سلبية. ومن القيم الأولى نجد ظاهرة الوطنية (حب الوطن والشعور بالانتماء إليه والولاء له والوفاء بحقوقه)، كما نجد محبة الناس بعضهم بعضا، والاهتمام بدعاء الوالدين، واحترام الكبير، واحترام العامل، والسعى من أجل الرزق المشروع، والتعاون على البر، وحسن الخلق. والعدالة. وقد يتضمن هذا النظام الخلقى قيم النفاق، والتملق، وحب

المظهرية، والمغالاة، والدعوة إلى الصبر السلبى، وعدم المبادرة، واللامبالاة والاستسلام مثلا.

والملاحظ أن ظاهرة "الوطنية" يمكن اعتبارها قيمة اجتماعية مركبة ذات أهداف إيجابية أحيانا أو سلبية أحيانا أخرى، أى أنها ذات صور عديدة من القيم الاجتماعية ذات الأهداف الإيجابية أو السلبية. فهى ليست فقط قيم حب الوطن والشعور بالانتماء إليه والولاء له والوفاء بحقوقه بل هى، أيضا، لكى تتحقق كل هذه القيم قيمة الإيمان وقيمة العطاء وقيمة البذل وقيمة التضحية فضلا عن قيمة التعاون. أى أن هذه القيم كلها وربما غيرها لابد أن تكون من وراء سلوك المواطن الصالح.

والملاحظ أن معنى ظاهرة الوطنية الذى تقصده النظرة الحالية لا يعنى فقط مجرد حب مكان إقامة الإنسان ومقره وإليه انتماؤه ولد به أو لم يولد، وإنما يعنى كذلك حب وطن الاسلاف والاخلاص لأرضه وتقاليده، والدفاع عن سلامته، وأن ظاهرة الوطنية ترتكز على التجارب التى تنمو بمرور السنين منذ الطفولة وعهد الشباب، كما ترتكز أيضا على الارتباط بالأرض والبيئة. وهى أقصد الوطنية تثير مشاعر عادة مشاعر عميقة الجذور فى نفس المواطن. وترتبط ظاهرة الوطنية فى ضوء التاريخ بالقومية والامبريالية على الرغم من أن الأخيرة تبرر باسمها ما تقوم من استغلال مواطنين آخرين واستعبادهم وبث الحقد ضدهم وضد أساليب حياتهم.

٦- ولاحاجة لى إلى القول بأن المواطن الصالح مفهوم متغير. فهو فى المجتمع الإقطاعى غيره فى المجتمع الرأسمالى، وهو فى المجتمع الأخير غيره فى المجتمع الاشتراكى. أى أن شخصية المواطن الصالح فى كل مجتمع من هذه المجتمعات متباينة. ومن ثم تكون أدواره الاجتماعية التى تتوقعها منه هذه المجتمعات متباينة كذلك. أى أن نظرته نحو الحياة وعلاقاته الاجتماعية واتجاهاته وأسلوب تفكيره تختلف بالضرورة حسب المجتمع الذى يعيش فيه.

ولا حاجة لى إلى القول بأن أعضاء المجتمع أى مجتمع هم مواطنون قد يكون منهم الصالحون وغير الصالحين. وأنهم كأعضاء فى المجتمع لا يعيشون فى فراغ. أنهم عادة يعيشون فى علاقات اجتماعية

مستمرة. فكل شخص منا يبدأ حياته، أول ما يبدأ، أقصد عند ولادته فى أسرة أى فى جماعة. ربما تكون هذه الأسرة أسرته الطبيعية، أقصد الأسرة التى ولد فيها، أسرة أبيه وأمه وأخواته، أو أسرة بديلة. وفى ضوء الظروف الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أصبحت تشارك الأسرة جماعات اجتماعية أخرى. فى تكوين المواطنين (الصالحين أو غير الصالحين). لقد عفى الزمان الذى كانت الأسرة وحدها تؤدى عملية غرس القيم الاجتماعية (ومنها بالضرورة قيم الوطنية التى ذكرتها آنفا) فى نفوس الأطفال. ولعل أهم الجماعات التى تشارك الأسرة والتى يكون عضو المجتمع، فى ضوء الضرورة الاجتماعية عضوا فيها. أقصد الأجهزة الاجتماعية التى تقوم بأعداد أعضاء المجتمع ليؤدوا أدوارهم الاجتماعية كما يتوقعها منهم المجتمع الذى ولدوا فيه ويعيشون. وتوجد هذه الأجهزة الاجتماعية فى كل المجتمعات، ولكن وظائفها تختلف باختلاف كل مجتمع فى ضوء تاريخه ومستواه الاقتصادى وظروف الحكم فيه وأساليبه فضلا عن عقائده وجهاز قيمه الاجتماعية ومثله العليا.

ففضلا عن الأسرة نجد الجيرة والمدرسة والمنظمة الدينية ومنظمة شغل أوقات الفراغ والمنظمة السياسية وأجهزة الإعلام والثقافة. كل هذه الأجهزة تعمل متعاونة أحيانا وغير متعاونة أحيانا أخرى. ونجد تأثيرها فى غرس القيم الاجتماعية بأنواعها فى نفوس أطفال المجتمع وشبابه تأثيرا كبيرا.

٧- وإذ أذكر القيم الاجتماعية بانواعها فأننى أقصد القيم الاجتماعية ذات الأهداف الإيجابية والقيم الاجتماعية ذات الأهداف السلبية على السواء فبالإضافة إلى ما ذكر آنفا فإن من الملاحظ أن قيمة مثل "الصبر" قد تعنى فى بساطة "حبس النفس عن الجزع" والصبر بهذا المعنى قيمة اجتماعية ايجابية فالحياة الانسانية لا تخلو من الجزع، وهى كذلك لا تخلو من الطمأنينة. ومع ذلك فأننا نلاحظ أن قيمة الصبر لا تعنى حبس النفس عن الجزع دائما. فقد تكون صبرا على الضيم، وقد تكون صبرا على الاهانة، وقد تكون اذعانا الى حد المذلة والضعة، وقد تكون صبرا على المشاق اللا انسانية، وقد تكون صبرا على ضياع الحقوق !

(ورد مفهوم "الصبر" لفظه ومشتقاته فى الكتاب المقدس فى إسفاره وإصحاحاته ٥٢ مرة. كما ورد هذا المفهوم، لفظه ومشتقاته فى القرآن الكريم، في سورة وآياته ١٠٣ مرات).

ومثل قيمة الصبر نلاحظ تغير معنى قيمة "المجاملة" فالمجاملة كقيمة اجتماعية تعنى فى بساطة "المعاملة بالجميل". أى معاملة الناس بعضهم البعض بالجميل، أى التعامل الاجتماعى فى ضوء قيمة العرفان بالجميل أو توقع أدائه فى بعض المواقف الاجتماعية من الآخرين. والملاحظ أن قيمة المجاملة بمعنى المعاملة بالجميل قيمة إنسانية سوية. فالعرفان بالجميل موضوع إنسانى محبب، وتوقيع أداء الجميل فى بعض المواقف الاجتماعية من الآخرين ييسر التكافل الاجتماعى بين الناس وفضلا عن ذلك فأن مجاملة الأقوياء وذوى السلطة والسلطان للمستضعفين فى الحق تعنى العمل الصالح. ومع ذلك نجد أن قيمة المجاملة تنبت وتترعرع فى المجتمع حيث توجد العصبيات وحيث توجد ألوان معينة من التعصب، أو حيث تكون الثقة فى العدالة واهية ويكون سلطان القانون ضعيفا، أو حيث تفتقد الروح الديمقراطية بأنماطها. ونلاحظ أن قيمة المجاملة إذ تنبت فى هذا المجتمع تعنى معنى آخر غير سوى، وتصبح شرا بدلا من أن تكون خيرا. وإذا كانت مجالات ممارسة قيمة المجاملة غير السوية عديدة نجد مداها يتسع عبر الحياة، منذ لحظة الميلاد حتى الوفاة، فإن هذه المجالات توجد أكثر من محيط المستضعفين. فالملاحظ أن المستضعفين من أعضاء المجتمع المصرى (وربما من أعضاء بعض المجتمعات الأخرى) أكثر عرفانا بالجميل من الأقوياء سواء كانت قوتهم مادية أو غير مادية. لأن الأخيرين يتوقعون عادة أداء الجميل لهم ولا ينتظر منهم أحد عرفانا به. ومن ثم يصبح معنى قيمة المجاملة "السوية" شيئا آخر غير "المعاملة بالجميل"

ويؤكد اهتمامى بأهداف القيم، الذى تكرر من قبل مرارا، ما نلاحظه على قيمة "التعاون" وعلى قيمة "الشعور بالانتماء" والقيم التى من وراء الأمثال الشعبية المصرية، ومنها:

- "كلنا ولاد تسعة".

و"الناس مقامات"

- "كل أناء بما فيه ينصح"

و"يخلق من ضهر العالم فاسد ومن ضهر الفاسد عالم"

- "القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود"

و"أصرف مافى الجيب ياتيك مافى الغيب".

والملاحظ أن القيم التى من وراء الأمثال الشعبية المصرية المذكورة قد تكون قيما متناقضة أو تبدو كذلك، أو يتذرع بها الإنسان المصرى ليتجنب عن طريقها، عن وعى، مواقف الحرج.

ومهما يكن من الأمر فأن غرس القيم الاجتماعية بأنواعها فى نفوس أطفال المجتمع يواجه فى ضوء ما سبق "ظاهرة الازدواجية الثقافية".

٨- ومن ثم فأنه أصبح من الضرورى مواجهة هذه الظاهرة أقصد ظاهرة الازدواجية الثقافية التى توجد فى المجتمع المصرى (والتى توجد أيضا فى المجتمعات الإنسانية الأخرى وأن كانت عوامل وجودها لا تكون بالضرورة متماثلة) وتقتضى هذه المواجهة تعاون أجهزة التنشئة الاجتماعية جميعا فى ضوء التخطيط العلمى الذى يتطلب بالضرورة وجود استراتيجية تكون أهدافها تكوين المواطن المصرى الصالح. ولن يتحقق ذلك إلا إذا عرفنا سمات هذا المواطن التى تجعله فى ضوء ظروف المجتمع المصرى المعاصر صالحا. وإذا نجح القادة الثقافيون المصريون فى تحقيق هذه الخطوة الهامة فأنهم يصبحون على بينة من أمرهم ويعملون متعاونين كل فى موقعه مع أجهزة التنشئة الاجتماعية سواء كان المسئولون عن هذه الأجهزة من الآباء والأمهات أو علماء التربية أو علماء النفس الاجتماعى أو كانوا من الاخصائيين الاجتماعيين ورجال الدين والمدرسين أو من الإعلاميين وغيرهم وغيرهم.

١٣- النظرة إلى الأزمة الاقتصادية وموقف الشباب المصرى منها:

لا يجادل أحد من المصريين المعاصرين فى أن المجتمع المصرى المعاصر يواجه مشاكل اقتصادية عديدة. كما لا يجادل أحد من هؤلاء فى أن الأساليب التى تحاول أن تحل هذه المشاكل، مع حسن النيات، لا تجدى

كثيرا. ومن ثم فأننا نلاحظ أنه قد تولدت أزمة ثقة بين المسئولين وبين غيرهم من أعضاء هذا المجتمع.

والمعلوم أن المشاكل الاقتصادية في مجتمع من المجتمعات تؤدى بالضرورة إلى المشاكل الاجتماعية التى تعنى، كما سبق أن أوضحت، عدم القدرة على التكيف إزاء المواقف الاجتماعية التى تكون نبتت من ظروف المجتمع أو البيئة الاجتماعية أو تلك التى تدعو إلى تطبيق القوى والوسائل الاجتماعية لتحسينهاأو تغييره. وأهم هذه المشاكل، أى المشاكل أى المشاكل الاجتماعية، ناجمة فى الأغلب الأعم من المشاكل الاقتصادية. والمشاكل الأخيرة بأنواعها تؤدى إلى القلق المرضى فى محيط الشباب وتواجههم بالضباب الفكرى. وذلك لأن عدم حلها بمواجهتها يمس فى الصميم الأعضاء الشابه الذين هم فى ضوء ما سبق أن أوضحنا يمثلون الكثرة الغالبة من أعضاء المجتمع المصرى المعاصر.

والمعلوم أيضا أن الشباب كل الشباب، كما سبق أن ذكرت، ليسوا فقط أكثر حساسية من غيرهم من أعضاء المجتمع ولكنهم فى ضوء المرحلة العمرية التى يجتازونها يعانون أكثر من غيرهم. فهى مرحلة الاكتمال والصراع الثقافى ومرحلة صراع الأجيال.

ومن نتائج كل ذلك وغيره مثل عدم وجود القدوة الحسنة، فضلا عن غموض المستقبل الذى يرنو الشباب إليه وأزمة الإسكان، وتوارى أو اختفاء القيم الاجتماعية ذات الأهداف الحميدة بأنواعها. ومن نتائج كل هذه الحالات الحية في الواقع المصرى الحى فى الوقت الراهن، نتوقع أو يجيب ان نتوقع ردود فعل من الشباب المصرى الذكور منهم والإناث على السواء. ومن أهم هذه الردود نجد الشباب المصري أو الكثرة منهم يؤدون دور المتفرج من الحوادث التى تحدث فى المجتمع المصرى المعاصر أو يؤدون دور المنافق الذى يحاول أن يكسب، ماديا أو معنويا، الكثير بأقل جهد ممكن، أو ينشرون الانماط العديدة من السخرية وبخاصة السياسية منها فنسمع مثلا من يقول: "أحسن حاجة أن الواحد ما يعرفش حاجة"!. وقد نجد ألوان الانحراف تستشرى بين الكثير من هؤلاء الشباب مثل تعاطى المخدرات والتمرد العنيف والتطرف سواء كان هذا التطرف سياسيا أو دينيا أو اجتماعيا (حيث نجد

ألوانا من العصبية والتعصب) أو نجد فى محيط الطلبة منهم الفشل الدراسى. ومنهم فى ضوء ما يواجهونه من يصاب باللوثات العقلية أو النفسية.

وفى محيط الأسرة نلاحظ ظاهرة "صراع الأجيال". والمعلوم أن مفهوم الصراع لا يساوى فى معناه "مفهوم المنافسة". فالمفهوم الأول يعنى اجتماعيا عملية اجتماعية أو موقفا يحاول فيه أثنان أو أكثر من الكائنات البشرية أو الجماعات الاجتماعية أن يحقق كل أغراضه وأهدافه ومصالحه. ومنع الآخر أو الآخرين من تحقيق ذلك حتى لو اقتضى الأمر القضاء عليه أو عليهم أو تحطيمه أو تحطيمهم. أما مفهوم المنافسة فأنه لا يرقى إلى مفهوم الصراع فهو ليس نوعا عنيفا مثل الصراع. فالمتنافس يحاول أن ينظم جهوده أملا فى الفوز. وقد يعتبر بعض العلماء أن ألوان الصراع والمنافسة عبارة عن أشكال للنضال والكفاح.

وقد أصبح واضحا فى ضوء الظروف الاقتصادية والاجتماعية أن نجد ألوانا من الصراع فى الأسرة المصرية. وقد يكون هذا الصراع بين الزوجين أو بين أحداهما وبين ابنائهما وبخاصة من هم فى سن الشباب. وقد يرجع ذلك إلى أننا لا نجد فى الوقت الراهن، فى الأغلب الأعم، أجيالا زمنية فحسب، بل إجبالا ثقافية أيضا. ومن ثم فأنه من الضرورى جدا أن يهتم القادة الثقافيون فى المجتمع المعاصر اهتماما خاصا بالصراع بين المعايير الثقافية أو المعايير السلوكية فى محيط الأسرة المصرية واتجاهات الأدوار الاجتماعية أو نظرتها إلى بعضها البعض.

والصراع بين المعايير الثقافية أو المعايير السلوكية فى محيط الأسرة المصرية فى الوقت الراهن هو فى الأغلب الأعم صراع قيمى بين الآباء والأبناء (وبخاصة من كانوا فى سن الشباب). والملاحظ أن الصراع القيمى هو على وجه العموم كأى صراع اجتماعى، صراع بين القديم والجديد. وفى الأسرة يكون هذا الصراع بالضرورة بين الأجيال.

وفى ضوء نتائج البحوث الواقعية التى قمت بإجرائها فى محيط الشباب المصرى، وبخاصة ما يتعلق منها بنظرة الشبابات المصريين غير المتزوجين إلى المرأة المصرية المعاصرة. وبنظرة الشبات المصريات غير المتزوجات إلى الرجل المصرى، تبينت ألوانا شتى من الصراع بين

الأجيال. منها على سبيل المثال ما يتعلق بمعاملة الآباء ومعاملة الأمهات وبالاختلاط بين الجنسين واختيار الأصدقاء واختيار الصديقات واختيار الزوج أو الزوجة.

وأرجو ملاحظة أنه إذا اعتبرنا أن الصراع بين الأجيال فى الأسرة المصرية المعاصرة هو صراع قيمى (أى صراع ثقافى) بالمعنى العلمى، فأننى لا يمكن أن أوافق على أن المشكلة الاجتماعية الناتجة عن ذلك والتى يواجهها المجتمع المصرى المعاصر يكون أساسها اختلاف الطبقات أو الفئات وصراعها بقدر ما يكون هذا الأساس التفاوت بين الأجيال التى تعيش فى وقت واحد وصراعها.

والملاحظ أنه على الرغم من أن هدف أهداف المجتمع المصرى فى الوقت الراهن هو التنمية بقصد تحقيق الإنتاج الذى ييسر حل الأزمة الاقتصادية التى يواجهها هذا المجتمع، وأن الشباب هم عمد هذه التنمية - نجدهم (أى الشباب) لا يشتركون فى إصدار القرار ولا فى تنفيذ القرار. أنهم فى ضوء الظروف السياسية بعيدون عن أن يهتم. بهم أحد اقصد ان يهتم بمشاكلهم الاجتماعية التى يواجهونها وهى نبت المشاكل الاقتصادية التى هى فى مسيس الحاجة إلى جهود هؤلاء الشباب. أن الأقوال فى هذا الشأن كثيرة ولكن العبرة كل العبرة فى أن تمارس هذه الأقوال. وذلك لأننى لا أقر أبدا الذين يعظون ولا يمارسون ما يعظون به. والمشكلة عندى هى، كما نسمع كثيرا فى بساطة وأحيانا فى عدم مبالاة، مزيد من الديمقراطية بأنواعها سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو ثقافية أو إعلامية.

وانني أقصد بالتنمية فى هذه النظرة أن تكون:

١- إنتاج أكبر عدد ممكن من السكان.

٢- التوزيع لأكبر عدد ممكن من السكان.

٣- الأجهزة التى تيسر الاستمرار.

٤- الأجيال القادمة يجب أن تؤخذ فى الاعتبار.

وانني أقصد بالإنتاج: العمل الإنساني لكل شيء جديد له قيمة (سلع أو خدمات) والملاحظ أن ما يعوق الإنتاج بعض العوامل، وهي تتلخص فيما يلي:

١- الصراع بين الملكية الخاصة والملكية العامة والتردد الواضح في مواجهة هذا الصراع في ضوء العلم الحديث والتكنولوجيا الحديثة.

٢- انخفاض المكانة الاجتماعية للمرأة المصرية على الرغم من ازدياد عدد اللائي تعلمن وبخاصة اللائي يحملن الأقلام.

٣- عدم مواجهة الأمية المتفشية في محيط نصف أعضاء المجتمع المصري المعاصر مواجهة حاسمة.

٤- وجود حوالي ٤١٪ من أعضاء المجتمع المصري المعاصر لا ينتجون في الغالب وهم الذين في الفترة العمرية من سن ١٥ فأقل.

٥- وجود ظاهرة الازدواجية الثقافية في المجتمع المصري بعامة وفي معاهد التعليم بخاصة.

٦- لا يزال أعضاء السكان في المجتمع المصري المعاصر في ازدياد. وانني لا أرى في هذه الزيادة عائقا وذلك لأننا إذا كان لدينا ٥٠ مليون فم فأنه سيكون لدينا مائة مليون يد. والعبرة عندي في نوعية هؤلاء السكان سواء كانوا أطفالا أو شبابا أو رجالا أو نساء. أي أن الكيف عندي هو الأهم وليس الكم في ذاته.

١٤- النظرة إلى ظاهرة العصبية وظاهرة التعصب في مجتمعنا

لعل القارئ الكريم أن يتوقع مني وقد ذكرت ظاهرة العصبية وظاهرة التعصب اللتين نلاحظهما كثيرا في محيط الشباب المصري أن أتحدث عنهما فيما يلي:

فالمقصود بظاهرة العصبية هو العلاقات الاجتماعية الوثيقة التي تربط بعض جماعات المجتمع أو أعضاء هذه الجماعات. وتبنى هذه

العلاقات الاجتماعية الوثيقة، عادة، عن طريق القرابة التى تستند على وحدة النسب، سواء كان بمعناه الضيق، أو كان بمعناه الواسع. أى الذى يتضمن الحقف والولاء والدخالة(*) وإذا لاحظنا نوع العلاقات الاجتماعية الوثيقة المشار إليها نجد أن هذه العلاقات هى علاقات تعاضد الجماعات أو اعضاءها وتناصرهم واتحادهم وقوة شوكتهم وحمياتهم من العدوان الخارجى، مهما كان لون هذا العدوان. وكلها توجد ظاهرة العصبية فى محيط جماعات المجتمع نتوقع الترابط الوثيق بين هذه الجماعات وأعضائها. كما نتوقع، فى ضوء بعض الظروف الاجتماعية التطاحن بين هذه الجماعات نفسها. أى أن آثار هذه الظاهرة، مثل كل الظواهر، إنسانية كانت أو مادية، آثار غير مطلقة. أى أنها قد تؤدى إلى الخير الذى يتوقعه المجتمع، أو قد تؤدى إلى الشر الذى يحاول المجتمع أن يتجنبه.

ونجد ظاهرة العصبية، فى مجتمعنا المعاصر، فى محيط جماعات الريف كما نجدها فى محيط جماعات المدينة التى لا يزال الشعور بالانتماء إلى الريف عند أعضائها قويا. ويعنى هذا أن العلاقات الاجتماعية بين الأشخاص الذين يعيشون فى ريفنا المصرى تكون، عادة، علاقات وثيقة.. علاقات الوجه للوجه، أى هى علاقات شخصية. وأن العلاقات الاجتماعية بين الأشخاص الذين يعيشون فى المناطق المصرية الحضرية تكون، عادة، علاقات غير وثيقة.. علاقات ثانوية، أى هى علاقات غير شخصية. ويعنى هذا، أيضا، أن قيمة الشخص، قيمته الاجتماعية، فى الريف، كبيرة جدا. فهو.. إذ يقوم بأدواره الاجتماعية فى استطاعته أن يضر وأن ينفع، أى أنه يستطيع أن يقف فى سبيل تحقيق رغبات من حوله أو ييسرها. أما فى المناطق الحضرية، فنجد أن قيمة الشخص الاجتماعية، بسبب طبيعة ظروف الحياة، ليست كبيرة. لأنه فى هذه المناطق تستبدل بقيمة الشخص، كشخص، قيمة أخرى تمثل فى المال بكل صورة.. نقود.. ممتلكات.. سلع... إلخ، ذلك

(*) ذكر أحمد أمين فى كتابه المشهور "فجر الإسلام" أنه إذا أبت قبيلة أحدهم أن تحميه لجأ إلى قبيلة أخرى ووالاها، وحسب نفسه كأنه أحد أفرادها، فوطنية البدوى وطنية قبلية لا وطنية شعبية، أى أن "هذا الشعور بارتباطه بقبيلة يحميها وتحميه هو المسمى بالعصبية" (انظر فجر الإسلام، طبعة ١٤، ١٩٨٦، صفحة رقم ١٠).

لأن العلاقات الاجتماعية فى المنـاطق الحضريـة علاقـات، فـى الغـالب، كمـا سبق أن أوضحنا، غير شخصية. والمال فى المناطق الحضرية، بكل صوره، يقوم، فى الواقع، بتحقيق رغبات الأشخاص الذين يعيشون فى هذه المنـاطق. وقلة المال، فى الواقع فى معظم الأحوال، تكون حجر عثرة فى سبيل تحقيـق هذه الرغبات. والمال فى المناطق الحضرية،علاقات فى الغالب كماسـبق أن أوضحنا غير شخصية والمال فى المناطق الحضرية بكل صورة، علامة مـن علامات النجاح فى الحياة. والنجاح فى الحياة هـدف كبير يسـعى الأشـخاص العاديون إلى تحقيقه. سواء كانوا يعيشون فى المناطق الحضريـة أو يعيشـون فى المناطق الريفية. والحصول على هذا الهـدف فـى المنـاطق الأخيرة. هـو الحصول لأعلى المال بقدر الحصول على كسـب تـأييد الأشـخاص. فأعضـاء الأسرة الكبيرة (العائلة) فى المنـاطق الريفيـة أقرب إلـى تحقيـق النجـاح فـى الحياة من الأشخاص الذين ينتمون إلى أسـر أصغـر، وهـم، مـن بـاب أولـى، أقرب من الأشخاص غـير المنتمين إلـى أسـر. والأقربـون أولـى بـالمعروف و"أنا وأخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب".

ونحن فى ضوء ظروف بنـاء مجتمعنـا المعـاصر، نجـد أن المنـاطق الحضرية فيه تزداد يوما بعد يوم. ومـع ذلـك فأننـا نجـد، أيضـا، أن ملامـح ظاهرة العصبية لا تزال، فى بعض مناطقه، قائمة ومتسلطة. ولعـل الوقـت قد حان لكى ندرس آثار هذه الظاهرة، دراسة علمية، لكـى نفهمهـا. ومـن ثـم نستطيع أن نوجهها عن الخير الذى يتوقعه المجتمـع الجديد الـذى نحـاول أن نبنيـه. أو أن نوجههـا نحـو الشـر الـذى يحـاول هـذا المجتمـع أن يتجنبـه. والملاحظ أن الدين الإسلامى دين الجماعة، وهو ديـن الاتحـاد والوئـام. تـراه دائما ينفرد من التفرقة، كما ينفر من العصبية. ويؤكد كل هذا مـا روى عـن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلـى اللـه عليـه وسـلم "(*) من خرج عن الطاعة، وفـارق الجماعـة فمـات.. فميتتـه جاهليـة. ومـن قـاتل

(*) يفسر هذه الأحاديث الأية الكريمة "الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حـدود ما أنزل اللـه علـى رسوله، واللـه حليم حكيـم" (سورة التوبـة رقـم ٩٧) وذلـك لأن الممعن فى البدواة يكون بالضرورة ضعيف الإيمان بدين وقل أن يؤمـن إلا بتقـاليد قبيلته ما ورثه ثقافيا عن آبائه.

تحت راية عمية يغضب لعصبته ويقاتل لعصبته، وينصر عصبته فقتل، فقتلته جاهلية، ومن خرج عن أمتى يضرب برها فاجرها لا يتحاشى لمؤمنها، ولا يفى لذى عهدها فليس منى ولست منه".

أما ظاهرة التعصب فيقصد بها التحيز ضد شخص معين أو ضد جماعة من الجماعات. ويبنى هذا الخير، عادة، على أساس الانفعال الزائد على الحد الذى يندفع من شخص معين ضد شخص آخر أو من جماعة معينة ضد جماعة أخرى. وتتضمن ظاهرة التعصب، بالضرورة، صورة من صور الشعور بالعداوة. وقد يكون هذا الشعور بغضا مقنعا، أو يكون فعلا بغيضا موجها ضد شخص (فرديا)، أو ضد جماعة من الجماعات (جماعيا). وما الفعل البغيض الفردى أو الجماعى إلا تعبير ظاهرعن الشعور بالعداوة.

والتحيز ضد الأشخاص أو ضد الجماعات شىء يكتسب. أى أنه عادة، شىء يتعلمه البشر. ونحن نلاحظ الصغار قبل سن الالتحاق بالمدرسة قلما يظهرون تحيزا، بالمعنى المفهوم، ضد شخص من الأشخاص أو ضد جماعة من الجماعات مثل الجماعات العنصرية أو مثل الجماعات الثقافية (Ethnic groups). وربما يكون التحيز عند الشخص البالغ ضد آخر أو ضد جماعة أخرى أمرا مستقلا عن خبرة هذا الشخص.. خبرته الشخصية أى أن بعض التحيزات كثيرا ما ينشأ أو يكون قد نشأ دون أى اتصال مباشر بأعضاء الجماعة أو الجماعات التى يكون التحيز ضدها. أى أن الاتجاهات العنصرية، مثلا، ليست، بالضرورة، نتيجة من نتائج خبرات الاتصال المباشر أو إحدى وظائف هذه الخبرات.

وعندما يتيح المجتمع فرصة وجود الطبقات الاجتماعية أو حتى وجود بعض الفئات الاجتماعية المعينة فيه. نجد، فى مجالات العلاقات الاجتماعية، ظهور درجة من التحيز المعادى إذا بدأ وضوح هذه الطبقات الاجتماعية أو هذه الفئات الاجتماعية، جليا، كما بدت المنافسة بينها.

والملاحظ أننا قوم لا نتعصب. ترى السماحة تعطر مناخنا الثقافى. وترى المحبة شعارا لامعا من شعارات ثقافتنا، ويعيش أعضاء المجتمع. الرجال منهم والنساء والأطفال، على وجه العموم، يتعاونون ويتصارعون

ولكن الصراع بينهم يتبدد بكلمة طيبة أو بابتسامة مضيئة أو بدعابة من الدعابات.

ومع ذلك فأننا إذ نقول "صاف يالبن.. حليب يا قشطة". بقصد إزالة الحزازات، وإذ نقول "غضب المؤمن كالبرق اللامع" بقصد عدم استمرار هذه الحزازات، نقول كذلك "عدو زمان مالوش أمان" بقصد الحذر المستمر من الأعداء، وبقصد الوقاية المستمرة من شر الأعداء.

والملاحظ، أيضا، أننا قوم فينا عصبية بكل عناصرها. أى بعناصرها الإيجابية والسلبية جميعا. وقد ورثنا هذه العصبية، اجتماعيا، فى ضوء ظروف مجتمعنا التاريخية والاقتصادية والاجتماعية، من العهود السابقة. ومع ذلك فأن قيم مجتمعنا الإيجابية، وهى عديدة، لا تدعو إلى التعصب بالمعنى السابق. أى بآثاره البغيضة، بقدر ما تدعو إلى دعم الولاء. أى إلى تبادل الشعور بالمحبة والاهتمام والتقويم إلى الأصلح، وإلى إزالة أسباب التوتر والحماقة والتعاسة.

ومن ذلك أيضا فأن صورا من صور ظاهرة التعصب توجد فى محيط بعض جماعات مجتمعنا المعاصر. أى أن بعض ألوان التعصب، وهى ألوان قليلة جدا، تظهر من حين إلى حين. وهى تظهر، حتما، عند المنافسة الشديدة، المحتملة أو المتوقعة، الفردية أو الجماعية، من أجل الحصول على المكانة الاجتماعية المرموقة أو الحراك إليها فى مجالات العمل أو السياسة (الانتخابات)، أو حتى من أجل الحصول على لقمة العيش. وهى تظهر فى بعض الأحيان، عند الزواج، وتظهر هذه الألوان، فى مجتمعنا، عادة، عندما تتميز طائفتان من الناس يتصلون بعضهم ببعض، بسمات متباينة. ليست سمات فطرية أو عنصرية ولكنها، فى الغالب، سمات ثقافية. ومع ذلك فأننا نجد، فى مجتمعنا، على مستوى الأشخاص، بعض المعانى المحببة التى يعطيها هذا المجتمع لـ"الخال" أو "الشامة" و"طابع الحسن"، و"اللون الأسمر". كما نجد، أيضا، المعانى الاجتماعية للرجل "الأشقر" "عدو الشمس"، وللرجل الذى لا شارب له ولا لحية "الاجرود" و"صباح القرود ولا صباح الاجرود"، وللرجل الطويل نسبيا "طويل وهبيل". والقصير نسبيا "قصير ومكير" و"شبر وقطع" وغيرها من المعانى الاجتماعية التى تعطى لذى السنة الأصابع

وأصحاب العاهات مثل الأعور "أبو فانوس مطفى" وغيرهم وغيرهم. وكلها معانى اجتماعية غير محببة ولا مقبولة فى مجتمعنا، ولكنها لا تحمل فى طياتها ذرة من التعصب الفطرى أو العنصرى، وأن كانت تحمل فى طياتها مجرد السخرية اللاذعة فى بعض الأحيان.

١٥- النظرة إلى مكافحة الإدمان على المخدرات فى محيط الشباب المصرى

فى ضوء هذه النظرة، التى لابد أن تكون نظرة علمية، وفى ضوء ظروف مجتمعنا النامى، نرى أنه لكى نواجه مشاكل كأحدى مراحل دورة حياة الإنسان.أو كفئه من فئات المجتمع التى تقع على عاتق اعضائها مسئولية التنميه. ومن هذه المشاكل اختار مشاكل الانحراف بأنواعه وعلى الأخص ارتكاب الجرائم بأنماطها وصورها العديدة.

وأننى أرى أنه لا يجب أن نكتفى بعمليات الوقاية فحسب، أو نكتفى باتخاذ التدابير الضرورية لعلاج عضو من أعضاء هذه الفئة بأن يرتكب أفعالا يعتبرها قانون العقوبات المصرى جرائم، بل يجب أن يكون الهدف هو العمل الجدى فى سبيل تكوين مواطنين يتطلبهم المجتمع المصرى فى الوقت الراهن. فنحن نرى أنه إذا كانت دولتنا النامية تبنى مجتمعا جديدا، فأن هذا المجتمع يكون بالضرورة مجتمعا إيجابيا. أى أن يرتفع بناؤه دائما عن طريق تطبيق الأساليب العديدة للتنمية الشاملة سواء كان ذلك فى ميدان المادة الإنتاجية أو المادة البشرية على السواء.

وأهداف تطبيق أساليب التنمية الشاملة فى محيط المادة البشرية هى تكوين المواطن المصرى، فى ضوء تحديد السمات الشخصية السوية الضرورية لشخصيته الإنسانية، من حيث نواحيها الجسمية والعقلية والعاطفية والاجتماعية. مع الأخذ فى الاعتبار مستوى النضج الضرورى لهذه النواحى حتى يكون شخصا صحيحا ناميا، ويحب الخير والكرامة الاجتماعية، ويستطيع أن يواجه قوانين السلوك العامة، ويستجيب للمواقف الإنسانية المتعددة استجابة سليمة، ويكون مدربا على مواجهة الحياة الاجتماعية،

ويستطيع أن يهنأ بالكفاح وبالعمل وبأداء الخدمات العامة ليستطيع، كشخص، أن يؤدى أدواره الاجتماعية فى ضوء ما يتوقعه منه المجتمع.

ويلاحظ أن تحديد هذه السمات مهمة كبيرة ما فى ذلك من شك. وهى مهمة يجب أن يخطط لها علميا، كما يجب أن يناط بتنفيذها لأجهزة متخصصة فى كل من القطاعين الأهلى والعام، وبخاصة تلك التى تعنى بعمليات التنشئة الاجتماعية فى المجتمع كالأسرة والجيرة والمدرسة والنادى الاجتماعى والمنظمة الدينية والمنظمة السياسية (الأحزاب مثلا) وأجهزة الإعلام والثقافة وأدوار المهن التى تعمل أو يجب أن تعمل فى ميدان الانحراف والجريمة مثل مهنة القانون والأخصائى الاجتماعى ورجل الشرطة مثلا فى ضوء الوظائف الاجتماعية لهذه الأجهزة الاجتماعية، أدوارا بارزة وهامة.

وإذا كانت الأدوار الاجتماعية للمهن المشار إليها وغيرها من الأدوار التى تعمل فى مجالات تطبيق أساليب التنمية فى محيط المادة البشرية أدوارا بارزة وهامة، فأن أدوارها فى مجالات تطبيق أساليب الوقاية الاجتماعية فى محيط المادة البشرية، ومنها أساليب الوقاية من الانحراف والجريمة، واضحة وضرورية. ويعنى مفهوم الوقاية من الانحراف والجريمة فى رأيى وقاية المجتمع من وجود أشخاص منحرفين أو مجرمين، أحداثا كانوا أو شبابا أو بالغين، ذكورا كانوا أو إناثا، أى القيام بالتدابير الاجتماعية والاقتصادية والتربوية التى تحد من وجودهم. أى التدابير التى تحفظ المواطنين الأسوياء اسوياء. أو التى تصحح الظروف الاجتماعية التى تعتبر ضارة لانها تهدد المواطنين الصالحين الأسوياء أو أسرهم. أو تهدد معايير المجتمع الذى يعيشون فيه.

وقد يرى البعض أن المقصود من الانحراف والجريمة مو "الحيلولة دون نشوء الشخصية الإجرامية". واننى لا أوافق على هذا المعنى. ذلك لأن الشخص المنحرف أو المجرم لا يمكن أن يكون شخصا منحرفا أو مجرما فحسب. أى لا يمكن أن يكون فردا ذا شخصية منحرفة أو إجرامية. فالشخص المنحرف أو المجرم هو شخص يؤدى أدوارا اجتماعية عديدة وديناميةـ مثله فى ذلك مثل رجل الشرطة والقاضى! وهـه الأدوار كلها هى

التى تكون شخصيته الاجتماعية الدينامية. أى أن الشخص الذى يرتكب نمطا من أنماط الانحراف أو الجريمة أو حتى الذى اعتاد على ارتكابه، لا يمكن أن يستمر فى ارتكابه طوال الأربع والعشرين ساعة فى كل يوم والنظرة إلى ارتكاب الانحراف أو الجريمة، وحدها، لا تفيد سوى رجل الشرطه يحاول القبض عليه أو سوى القاضى التقليدى عندما يدينه ويصدر حكمه فى نمط الانحراف أو الجريمة الموجه إلية! ولكن هذه النظرة لا تكفى بحال من الأحوال لتكون أساسا لتغيير نموذج الحياة للشخص المنحرف أو المجرم. وهذا ما تهدف إليه بالضرورة الجهود التى تبذل لإعادة تنشئة هذا الشخص حتى يعود إلى المجتمع مواطنا صالحا. وفى هذا الضوء نلاحظ أن الشخص المنحرف أو المجرم شابا كان أو غير شاب هو فرد له "شخصية اجتماعية" وليست "شخصية إجرامية". وعلى الرغم من أنه قد ارتكب نمطا معينا من أنماط السلوك المنحرف أو الإجرامى (أو حتى إذا اعتاد على ارتكاب هذا النمط أو ارتكب غيره من الأنماط) فقد يكون أبنا بارا أو أخا عطوفا أو زوجا وفيا أو أبا حانيا أو صديقا مخلصا أو عاملا حاذقا.... إلخ.

وأرجو أن يلاحظ القارئ أننى إذا أدعو إلى وقاية المجتمع من أعضائه المنحرفين أو المجرمين فأننى أدعو أيضا إلى وقاية أعضاء المجتمع من الانحراف والجريمة كذلك.

وتجب ملاحظة أن هناك فئات من الأشخاص المنحرفين أو المجرمين، وبخاصة الشباب منهم فى ضوء المعنى الاجتماعى لمفهوم الشباب، لا يصح أبدا، فى رأيى، أن يودعوا بالسجون ومن هذه الفئات المتشردين والمتسولين والبغايا والمجرمين الشواذ سواء كان شذوذهم جنسيا أو غير ذلك وفئات متعاطى الخمور والمدمنين على المخدرات بأنواعها.

وإذ أذكر من الفئات السابقة فئة المدمنين على المخدرات بأنواعها وبخاصة الشباب منهم سواء كانوا من الطلاب أو العمال أو من أهل الريف أو من أعضاء الأحياء الشعبية (أبناء وبنات البلد مثلا) - فأننى أذكر دور الأخصائى الاجتماعى بالتعاون مع أدوار المتخصصين الآخرين كرجال الدين والمشرعين والمتخصصين فى علم العقاب ورجال الشرطة وغيرهم من المتخصصين فى مكافحة الانحراف أو السلوك الإجرامى بمعناها العلمى.

(أى تكوين المواطن الصالح ووقايته لكى يبقى صالحا ثم علاجه إذا انحرف أو ارتكب جريمة). أى أننى أذكر إسهام الأخصائى الاجتماعى مع إسهام غيره من المتخصصين فى السياسة العلمية الجنائية التى يتبعها، أو يجب أن يتبعها، المجتمع فى مواجهة أعضاء هذه الفئة من مدمنى المخدرات بأنواعها وغيرهم من أعضاء الفئات الأخرى. وأقصد بالسياسة الجنائية مجموعة المبادئ التى يتبعها هؤلاء المتخصصون لتحقيق أهداف المكافحة فى ميدان المخدرات بأنواعها فى محيط متعاطيها أو الذين يهربونها أو يتجرون فيها من الشباب وغيرهم - فيما يتعلق بالتجريم والعقاب والوقاية والعلاج جميعا. ولعل هذه السياسة ترى، أو لابد أن ترى، فى ضوء قيم مجتمعنا ومبادئه ومثله العليا، وجود علاقة جدلية بين الشخص المهرب أو التاجر أو المتعاطى والمجتمع وأن الفصل بين كل منهم وبين المجتمع أمر تعسفى. أى أنها لا ترى، ولا يمكن أن ترى علة هذا السلوك المنحرف أو الإجرامى أو علله التى تكمن فى الشخص المنحرف أو المجرم وليس فى المجتمع. فهى ترفض حتما الاقتصاء على قول القائل "إذا صلح أعضاء المجتمع صلح المجتمع" لأن عضو المجتمع (السوى وغير السوى) لا يمكن أن يعيش فى فراغ، بل يعيش دائما منذ ولادته فى جماعات اجتماعية أى فى علاقات اجتماعية مستمرة فإذا صلحت هذه الجماعات، وهى قوام المجتمع، صلح هذا العضو والعكس صحيح. وهى إلى جانب هذا، أقصد السياسة الجنائية، تؤمن أو يجب أن تؤمن، بأن الإنسان ليس قالبا جامدا تحدد سلوكه محددات ثابتة أبدية لا يمكن تغييرها. ولكنها ترى أن الإنسان يمكن تغييره وأن المنحرف أو المجرم بالتالى يمكن إعادة تنشئته الاجتماعية. فقط علينا أن نسلك لذلك الوسائل المناسبة التى تؤدى إلى تحقيق هذا الغرض، وذلك فى ضوء اتباع المنهج العلمي في عمليات الدراسة وفي عمليات التطبيق على السواء. أى أن هذه السياسة إذ توافق على أن جهود رجال الشرطة المتعلقة بضبط المخدرات قبل أن تصل إلى المتعاطين وجهودهم فى تعقب مهربى المخدرات بأنواعها وتجارها والقبض عليهم توطئة لمحاكمتهم جهود مشكورة يقدرها المجتمع حق قدرها، فأنها تعتقد، أو يجب أن تعتقد، فى أن الطلب هو الذى يخلق العرض ومن ثم فأن الجهود كل الجهود يجب أن تبذل من أجل التعرف على عوامل الطلب على المخدرات بأنواعها. حتى لا يكون هناك عرض

لهذه المخدرات بأنواعها وذلك لأن المخدرات بأنواعها هى سلعة أولا وقبل كل شىء. وعلى الرغم من خطرها وخطورتها فأنها تعتبر مثل جرائم الرشوة والتهريب والجرائم الجنسية من الجرائم غير المنظورة. أى أن حجم ارتكابها كجريمة عن طريق استهلاكها أو الإتجار فيها ليس التعرف عليه سهلا أو أمرا ميسورا.

وفى ضوء الحقائق العلمية نلاحظ أن ظاهرة المخدرات بأنواعها فى مصر تمس قضية التنمية فى هذا البلد الطيب بالمعنى الحضارى الشامل وبالمعنى الاقتصادى البحت. وخصوصا إذا لاحظنا فى ضوء نتائج أحد البحوث التى أجراها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية أن أغلبية متعاطى مادة "الحشيش" يبدأون هذا التعاطى وهم فى سن الشباب. بل أننا نجد أن نحو ١٣,٨٪ من أعضاء عينة البحث قد بدأوا التعاطى قبل سن السادسة عشرة، وأن الأغلبية نحو ٥٧,٩٪ بدأ أعضاؤها يتعاطون هذا المخدر فى الفترة العمرية من سن ١٦ إلى سن ٢٢، أما باقى أعضاء عينة البحث فقد بدأوا فى سن لا يزيد على ١٨ عاما بنسبة نحو ٢٨,٣٪. بالإضافة إلى ذلك نجد ان نتائج هذا البحث قد أظهرت أن نسبة كبيرة جدا من هؤلاء جميعا أى بنسبة نحو ٧٣٪ واصلوا تعاطى المخدر منذ بدء تعاطيه ولم يستطيعوا أن يقفوا فى سبيل هذه العادة السيئة.

وفى ضوء ما سبق أرجو أن يسمح لى القارئ أن أؤكد وأكرر هذا التأكيد علي أن مكافحة المخدرات بأنواعها لا يمكن أن تكون "المنع" بمعناه الشرطى أو القبض على مهربى المخدرات بأنواعها وتجارها أو القبض على متعاطيها. وذلك لأن المشكلة هى فى حقيقة الأمر وجود طلب على المخدرات بأنواعها فى المجتمع ومن ثم فأن البحث العلمي عن عوامل الطلب خصوصا وقد عرفنا أن بداية التعاطى فى محيط أعضاء المجتمع يمارسه الشباب، قد أصبح أمرا حتميا. ونحن نلاحظ فى ظل المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى أن من هذه العوامل أسطورة الجنس (تعاطى الحشيش مثلا) وعلاج الأمراض والإعانة على السهر (تعاطى الأفيون مثلا). ومهما يكن من الأمر فأن المخدرات بانواعها هى فى حقيقة الأمر "منافذ اجتماعية" ضارة يلجأ إليها بعض أعضاء المجتمع المصرى لمواجهة التوترات

والأحباطات وألوان القهر التى يواجهونها، كلها أو بمفهومها العلمى هى تكوين "المواطن الصالح" الذى لا يخالف المبادئ والقيم والقوانين المرعية والمثل العليا للمجتمع. هذا هو ما ينبغى أن تكون أهداف أجهزة التنشئة الاجتماعية التى تسهم فى تكوين المواطن الصالح والتى ذكرناها من قبل. والملاحظ أنه لكى تعمل هذه الأجهزة لتحقيق أهدافها ينبغى أولا أن نحدد من هو المواطن الصالح ذكرا كان أو انثى؟ بعد هذا يجب وقاية المواطن الصالح ليستمر صالحا. وهذا لا يمكن أن يكون دور رجال وزارة الداخلية وحدهم عن طريق المكافحة بمعناها الشرطى (أى بمعنى المنع والقمع!)، إنما هو أيضا دور الوزارات المعنية والهيئات الشعبية والجماهير بعامة سواء كانوا آباء أو أمهات أو رجال دين أو مدرسين أو أطباء أو رجال أعمال... إلخ. ولن يستجيب أحد إلا إذا أحس بالشعور بالانتماء للوطن، وأن يعمل الجميع فى ظل سياسة جنائية محددة المعالم والأهداف حتى يتحقق التنسيق والتعاون مصرنا الخالدة. وبعد ذلك تأتى المرحلة الأخيرة لمن ينزلق أى مرحلة العلاج. وأننى لا أقول كلاما مثاليا. أن المهم أن نبدأ الآن بالأطفال حماية للأجيال القادمة. وإذا ما تيسر تطبيق هذا كله فسيقل ان لم ينعدم الطلب على المخدرات بأنواعها وبالتالى تتراجع عمليات التهريب والاتجار والتوزيع والاستهلاك عن طريق تعاطى هذه المخدرات بأنواعها أما فى الوقت الراهن فأننا نلاحظ أن فئات الشباب ذكورا وإناثا وبخاصة أعضاء فئة الحرفيين وأعضاء فئة التجار ومن يعملون فى محيطهم سواء كانوا يعملون فى الريف أو الحضر (فى ضوء المستوى الاقتصادى المرتفع الذى وصلوا إليه) يقبلون بينهم على تعاطى المخدرات بأنواعها وقد نجد من الاغراءات من التجار ما يفعله التاجر (اليهودى) إذ يبيع لأعضاء المجتمع الذين لا يمارسون تعاطى المخدرات بأنواعها، وكلهم من الشباب في الأغلب الأعم، دون أن يتعجل فى أخذ الثمن. وبهذه الوسيلة يحاول أن "يربى" "الزبون" الذى يعتاد على طلب المخدر ويستمر فى معاملة التاجر الجشع.

واننى لا أرى الانتظار حتى يتكون المواطنون المصريون الصالحون الذين ينفرون من الانحراف أو يرتكبون الجرائم وبخاصة جرائم المخدرات بأنواعها، ولكننى أرى أن هذه الضرورة تحتاج إلى أمد طويل. ومن ثم فهى من قبيل الهدف طويل الأمد. أى أن المشكلة وخطورتها، كما

اتضح للقارئ مداها، لا يمكن أن تترك دون أن نجد لها الحل المناسب. ونحن المهتمين بمشكلة المخدرات بأنواعها والإدمان عليها لدينا تجربة إنسانية نشرتها منظمة الأمم المتحدة وهى "تجربة الصين" فى مكافحتها الإدمان على الأفيون (مكافحة علمية) والتى نجحت فى القضاء على تهريب الأفيون والاتجار فيه وتعاطيه فى وقت قصير أدهش العالم قاطبة.

وفى ضوء تجربة الصين الناجحة المشار إليها والتى نشر عنها فى "مجلة المخدرات التى تصدرها منظمة الأمم المتحدة" فى عام ١٩٥٨ سنلاحظ حتما دور المشروع ودور رجل الاعلام وسنلاحظ ايضا دور رجل الشرطه ودور الطبيب ودور السياسى ودور الأخصائى الاجتماعى. سنلاحظ هذه الأدوار وكيف قام أصحابها حسب تخصصه، وكل حسب خبرته، بقيادة الجماهير الصينية. الجماهير التى كان يصيب أعضاءها الإدمان، والجماهير التى لم يكن يصيب أعضاءها الإدمان على السواء. لقد كانت مكافحة الإدمان على الأفيون فى المجتمع الصينى تحقيقا لضرورة اجتماعية يتطلبها هذا المجتمع. وقد قام المتخصصون فى هذا المجتمع بأداء واجباتهم فى هذا المجال. قاموا كقادة جماهير، واستطاعوا تحقيق الأمل. كانوا يحاربون عدوا مجهولا ولكنهم على الرغم من ذلك تيسرا لهم أن يثيروا حماس الملايين من أعضاء المجتمع الصينى عن وعى علمى بالمشكلة التى كانوا يواجهونها. كل ذلك كان فى ضوء بعض المبادئ منها الاقتداء ببعض التعاليم الصينية التى استخلصوها من تراثهم ومن هذه نجد ان تعرف خططك وأن تكون عليما بالوسائل التى يتبعها عدوك، فأن ذلك يكفل لك نصرا مبينا" ومنها أيضا "أن قهر القلوب والعزائم أهم من مهاجمة المدن"، وفضلا عن ذلك فأن إدمان مادة الأفيون مرتبط بحياة المتعاطين وحياة من يحبون ويعزون، وهو مرتبط أيضا بقدرتهم الواعية على العمل والإنتاج.

وإذ أختم هذه الدراسة أرجو أن يكون القارئ الكريم لاحظ اهتمامى ببعض الأمور وهى:

١- أننى أدعو ملحا إلى تطبيق المنهج العلمى عند تناول موضوع الشباب وعلاقته بالإنحراف والجريمة وبخاصة ما كانت له صلة بتعاطى المخدرات بأنواعها.

٢- أن الشباب كفئة من فئات المجتمع المصرى فى الوقت الراهن هم عماد تنمية هذا المجتمع. فهم إذ يقومون بعمليات هذه التنمية يلبون فى الوقت نفسه حاجاتهم وحاجات من يجيئون من بعدهم.

٣- أن هدف الأهداف هو التعرف على سمات المواطن المصرى الصالح وفى ضوء التعرف على هذه السمات يقوم المجتمع المصرى بتكوينه عن طريق أجهزة التنشئة الاجتماعية مثل الأسرة والجيرة والمدرسة والنادى الاجتماعى والمنظمة الدينية والمنظمة السياسية (الأحزاب مثلا) وأجهزة الإعلام والثقافة وأن يعمل الجميع فى ظل سياسة محددة المعالم والأهداف حتى يتحقق التنسيق والتعاون.

٤- أن مفهوم الوقاية يعنى بذل الجهود كل الجهود لكى يبقى المواطن المصرى الصالح صالحا. وأن مفهوم العلاج أن يكفل المجتمع المصرى التدابير لعلاج من ينحرف من مواطنيه.

٥- أن مفهوم مكافحة الانحراف أو الجريمة مثلا لا يعنى أبدا منع الانحراف أو الجريمة وقمع المنحرفين أو المجرمين بعد ضبطهم. هذا المعنى معنى شرطى لا يمكن ان أوافق عليه. وعندى أن هذه المكافحة تتضمن تكوين المواطن الصالح ثم وقايته ثم علاج من يحتاج من أعضاء المجتمع إلى علاج. ولا يمكن لرجل الشرطة أن يعمل وحده فى سبيل تحقيق هذه الأهداف.

٦- أن الطلب على المخدرات بأنواعها هو وحده الذى يخلق عرضها ومن ثم فأن مجهودات رجال الشرطة فى سبيل ضبط المخدرات بأنواعها مجهودات مشكورة ما فى ذلك من شك ولكنها غير كافية للقضاء على المخدرات بأنواعها (تهريبها أو الاتجار فيها أو توزيعها أو تعاطيها).

٧- أن الثمن الذى يدفعه المجتمع المصرى المعاصر بسبب المخدرات بأنواعها باهظ جدا سواء أكان هذا الثمن ماديا يقدر بالنقود أم كان هذا الثمن يبدد الطاقات الشابة التى يحتاجها هذا المجتمع احتياجا ملحا وهى لا تقدر بثمن.

٨- أن الأمل فى القضاء على إدمان المخدرات بانواعها فى محيط أعضاء المجتمع المصرى ومنهم الشباب بالضرورة، قائم مادام المسئولون قد أحسوا بالمشكلة. لأن مجرد الإحساس بمشكلة من المشاكل الاجتماعية أو حتى الفردية هو بداية على طريق حلها. ومع ذلك فأن الرجاء كل الرجاء أن تبذل الجهود كل الجهود فى سبيل العمل الجاد، فى ضوء العلم، لكى يتطهر المجتمع المصرى ويقضى على الإدمان المخدرات بأنواعها. ولنا فى تجربة الصين فى القضاء على الإدمان على مادة الأفيون أسوة حسنة.

١٦- النظرة إلى مشروع خطة عمل ثقافى اجتماعى رياضى لإسهام المؤسسات الاجتماعية فى تربية الشباب فى محافظة القاهرة: مثال

يتضمن هذا المشروع الموضوعات التالية:

١- الخطة لمن؟

٢- أهداف الخطة.

٣- أهم الوسائل لتحقيق أهداف الخطة.

(أ) القيادة.

(ب) البرامج.

(جـ) المرافق.

٤- تدريب العاملين (المشرفين والمشرفات)

١- الخطة لمن؟

فى ضوء عدد سكان جمهورية مصر العربية التقديرى فى عام ١٩٨٥، وقدره ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة، نجد أن نسبة أعضاء المجتمع الذين فى سن ٣٠ فأقل نحو ٦٨,٨٪. ويبلغ عدد هؤلاء ٣٤,٠٦٩,٠٠٠ نسمة. وإذا اقتصرنا على أعضاء المجتمع الذين فى سن ١٠ إلى أقل من سن ٢٥ نجد

ان عددهم ١٥,٥٨٠,٠٠٠ نسمة، أى بنسبة نحو ٣١,٢٪ من مجموع سكان الجمهورية.

وفى ضوء التعداد العام للسكان والإسكان عام ١٩٧٦، نجد أن عدد سكان محافظة القاهرة (من المصريين) ٥,٠١٨,٧٧٩ نسمة. ومن هذا يتبين أن عدد أعضاء المجتمع القاهرى الذين فى سن ١٠ إلى أقل من سن ٢٥ يبلغ ١,٧٥٧,٧٧٤ نسمة، أى بنسبة نحو ٣٥٪ من مجموع سكان محافظة القاهرة. ومن هؤلاء نجد أن عدد ٨٨١,٨٨٨ من الذكور وعدد ٨٧٥,٨٨٦ من الإناث أى بنسبة نحو ٥٠,٢٪ ونحو ٤٩,٨٪ على التوالى.

وإذا وزعنا عدد السكان من سن ١٠ إلى أقل من ٢٥ ذكورا وإناثا الذين يعيشون فى محافظة القاهرة حسب الأقسام تبين أن أكثر الأقسام عددا أقسام المطرية ثم الساحل ثم الشرابية ثم حدائق القبة ثم روض الفرج ثم مصر القديمة ثم السيدة زينب ثم الزيتون ثم حلوان ثم المعادى ثم الخليفة ثم بولاق ثم الجمالية ثم الوايلى ثم الدرب الأحمر ثم شبرا ثم باب الشعرية ثم مصر الجديدة ثم الظاهر ثم عابدين ثم النزهة ثم الموسكى ثم مدينة نصر ثم الأزبكية ثم قصر النيل ثم التبين. "أنظر الجدول رقم (١)".

وفى ضوء ما سبق نلاحظ أن عدد أعضاء المجتمع القاهر الذين يجب الاهتمام بتربيتهم هو: ١,٧٥٧,٧٧٤ عضوا. وقد اخترنا هؤلاء الأعضاء فى هذه المرحلة السنية (من سن ١٠ إلى أقل من ٢٥) لكى لا نبدأ من فراغ. فالشباب إذا افترضنا أن فئة عمرهم هى من سن ١٥- إلى أقل من سن ٢٥، كانوا بالضرورة فتية وفتيات. والبدء بالمرحلة المبكرة أجدى وأكثر نفعا لتحقيق الأهداف المرجوة.

٢- **أهداف الخطة:**

أن هذه الأهداف لا تعدو إسهام المؤسسة الاجتماعية فى تربية شباب المجتمع القاهرى. وذلك لأن هذه المؤسسة وحدها لا تقوم بعمليات التربية. فالمجتمع أى مجتمع إنسانى فيه من الأجهزة الأخرى التى تسهم أيضا فى هذه العمليات. ومن هذه الأجهزة الأسرة والمدرسة والمنظمة الدينية والمنظمة السياسية (أن وجدت) فضلا عن أجهزة الإعلام والثقافة. أن جميع هذه الأجهزة تسهم فى عمليات تربية أعضاء المجتمع أى مجتمع إنسانى.

ونحن ندعو فى ضوء الظروف الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية التى يعيشها المجتمع المصرى المعاصر إلى ضرورة وجود سياسة عامة واضحة المعالم والأهداف تعمل فى ظلها أجهزة التربية التى توجد فى هذا المجتمع. أن هذه السياسة يجب أن توضح أهم السمات الشخصية التى ترى أن يتحلى بها شباب مجتمعنا فى المرحلة الراهنة التى يمر بها مجتمعنا، وأن هذه السياسة يجب أن تتضمن البرامج التى تيسر تحقيق هذه السمات الشخصية، فضلا عن الامكانات التى تيسر هذا التحقيق. أن أجهزة المجتمع التى تسهم فى تربية اعضاء يجب أن تعمل متعاونة وأن يكون التنسيق رائدها فى ضوء ما تملى عليه السياسة العامة التى نقترح وجودها. ويجب أن نؤكد هنا على أن الاتفاق على السمات الشخصية لأعضاء مجتمعنا، وبخاصة الشباب منهم، لا يعنى مطلقا أننا نقترح وضع قوالب يخرج منها أعضاء المجتمع وكأنهم قوالب طوب. ولكن هذا الاتفاق ييسر الإطارات التى يجب أن تتسم بها شخصيات أعضاء مجتمعنا فى الفترة التى يعيشها هذا المجتمع فى الوقت الراهن.

وإذا كانت أهداف المؤسسة الاجتماعية هى الإسهام فى تربية شباب المجتمع القاهرى، فالملاحظ أن مفهوم "التربية" قد تعدد معانيه ودلالاته. وفى ضوء خبرة الكاتب فى ميدان الشباب منذ عام ١٩٣٩، يرى أن تفهم التربية على أنها "عملية تغيير" بواسطتها ينمو عضو المجتمع ويزدهر وتتفتح ملكاته وقدراته. وهو أى عضو المجتمع إذ يفعل ذلك فأنه يكون نفسه ويتحول هو ذاته، مع تكوينه وتحويله الآخرين والبيئة التى يعيش فيها. أن عملية التغيير هذه تهدف أولا وقبل كل شيء إلى أعداد عضو المجتمع (المواطن) لكى يستطيع أن يؤدى أدواره الاجتماعية التى يتوقعها منه المجتمع الذى ولد فيه ويعيش. أنها عملية تكوين الشخصية، أى جعل "الفرد" "شخصا"، أى فرد له شخصية اجتماعية. أى يكون العضو شخصا ذا اتجاهات فكرية مما يفيد أو يضر نحو من يحيط به من الناس. وقد تكوين هذه الاتجاهات مما يفيد أو يغير المجتمع وجماعاته وتكون قائدته للمجتمع وجماعاته فى ضوء قيم هذا المجتمع، ويكون ضرره فى نفس هذا الضوء. أى أن قيم المجتمع وجماعاته قد تكون قيما إيجابية، أى قيم أهدافها بناءة، تكون من وراء أفكار أعضاء المجتمع ومن وراء اتجاهاتهم ونظرتهم نحو الأمور والأشياء والأشخاص،

جدول رقم (١)
بيان عدد المصريين للفئة ١٠ سنوات الأقل من ٢٥ سنة، ذكور وإناث، موزعا على الأقسام بمحافظة القاهرة(*)

م	بيان القسم	عدد المصريين للفئة من ١٠ سنوات لأقل من ٢٥ سنة			ملاحظات
		ذكور	إناث	جملة	
١	المطرية	٨٤٤٠٩	٨٧٣٥٢	١٧١٧٦١	
٢	الساحل	٨٠٠٤٠	٧٨٣٥٢	١٥٨٣٩٢	
٣	الشرابية	٧٦٤٥٦	٧٥٠٣٢	١٥١٤٨٨	
٤	حدائق القبة	٥٣٧٢٤	٥٣٥٥٢	١٠٧٢٧٦	
٥	روض الفرج	٥٠٨٧٠	٤٩٠٢٧	٩٩٨٩٧	
٦	مصر القديمة	٤٨٣٩٣	٤٧٦٦٢	٩٦٠٥٥	
٧	السيدة زينب	٤٨٢٢١	٤٦٨٥٨	٩٥٠٧٩	
٨	الزيتون	٤٤٩١٧	٤٥٦٠٢	٩٠٥١٩	
٩	حلوان	٤٤٢٥٣	٤٤٤٢٦	٨٨٦٧٩	
١٠	المعادى	٤١١٤٧	٤٣٠٤٣	٨٤١٩٠	
١١	الخليفة	٣٣٩٩٤	٣٤٦١٤	٦٨٦٠٨	
١٢	بولاق	٣٤٣٦٦	٣١٨٦٦	٦٦٢٣٢	عدد سكان محافظة
١٣	الجمالية	٣٠١٧٢	٢٩٥٩١	٥٩٧٦٣	القاهرة المصريين المئوية
١٤	الوايلى	٣٠٢١٨	٢٥٤٧١	٥٥٦٨٩	٥٠١٨٧٧٩ النسبة
١٥	الدرب الأحمر	٢٧٨٨٩	٢٧٣٦٣	٥٥٢٥٢	٪٣٥,٠٢
١٦	شبرا	٢٣٦٦٦	٢٣٠٠٤	٤٦٦٧٠	
١٧	باب الشعرية	٢١٣٨٣	٢٠٦٢٩	٤٢٠١٢	
١٨	مصر الجديدة	١٩٧٢٧	٢١٠٩٨	٤٠٨٢٥	
١٩	الظاهر	١٩٣٤٥	١٨٧٦٥	٣٨١١٠	
٢٠	عابدين	١٥٥٠٤	١٥٠٧٣	٣٠٥٧٧	
٢١	النزهة	١٣٧٢٠	١٥٨٧٢	٢٩٥٩٢	
٢٢	الموسكى	١٠٦٠٧	١٠١٣٤	٢٠٧٤١	
٢٣	مدينة نصر	٨٩٢٧	١١٥٠٩	٢٠٤٣٦	
٢٤	الأزبكية	١٠٣٤٧	٩٥١٣	١٩٨٦٠	
٢٥	قصر النيل	٤٨٧٩	٥٦١٧	١٠٤٩٦	
٢٦	التبين	٤٧١٤	٤٨٦١	٩٥٧٥	
جملة محافظة القاهرة		٨٨١٨٨٨	٨٧٥٨٨٦	١٧٥٧٧٧٤	

(*) ج. م. ع. - الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء: "التعداد العام للسكان والإسكان ١٩٧٦ - تعداد السكان، الجزء الأول، النتائج التفصيلية محافظة القاهرة، سبتمبر ١٩٧٨ (صفحات ٤٠٥-٤٥٦).

أى نحو الحياة التى يعيشونها أو التى يصنعونها أو التى يحاولون صنعها على السواء. وهى قيم أهدافها بناءة لأنها تدعو إلى الخير ولا تدعو إلى الشر. ونعنى بالخير كل ما يعين على العمل الصالح من أجل الآخرين، أى كل ما يعين على التغيير إلى الأفضل وإلى الأقوى وإلى الأعظم. ومن ثم فهى قيم أهدافها حميدة تدعم الروح المعنوية فى صفوف أعضاء المجتمع، وترتفع بهذه الروح وتثبيتها وتقويها.

والمؤسسة الاجتماعية فى ضوء الوسائل التى يجب أن تتوافر لتحقيق خطة العمل الاجتماعى المقترحة، أى فى ضوء قيادتها الرشيدة وبرامجها المتعددة ووجود المرافق الضرورية التى تيسر تطبيق هذه البرامج، تستطيع أن تغرس فى نفوس أعضائها من الشباب القيم التى تكون أهدافها إيجابية ولا يمكن أن تفعل المؤسسة ذلك إلا باتاحة الفرصة لهؤلاء الأعضاء لكى يعيشوا الخبرات والمواقف التى تؤدى إلى صياغة شخصياتهم صياغة تحقق أهداف المجتمع فى المستقبل المشرق. أى أن تسهم فعلا وحقا فى تربيتهم، أى أن تسهم فى عملية التغيير التى بواسطتها ينمو أعضاؤها ويزدهرون وتتفتح ملكاتهم وقدراتهم، ومن ثم يصبحون مواطنين صالحين.

٣- أهم الوسائل لتحقيق أهداف الخطة:

(أ) القيادة:

- لكى تكون قيادة المؤسسات الاجتماعية التى تسهم فى تربية الشباب قيادة رشيدة، يجب أن يكون قوامها من العاملين المهنيين الذين تتوافر فى شخصياتهم بعض الأمور. منها أن يكونوا أصحاء النفس والبدن، وأن يكونوا من المهتمين بالعمل مع الجماعات سواء أكان أعضاؤها من الفتيان والفتيات أم من الشباب. ومنها أن يكونوا مدربين التدريب الكافى النظرى والعلمى على العمل مع هذه الجماعات.

والاعتماد على العاملين المهنيين يعنى العاملين المحترفين. مع ملاحظة أن الاعتماد على التطوع وارد فى الحسبان ولكن أى نوع من التطوع؟ هذه هى المسألة !

أننى فى ضوء خبراتى فى خلال فترة تناهز الخمسين عاما أومن بالاحتراف وبخاصة فى محيط العمل مع الجماعات وأومن أيضا بالتطوع. أننى أومن بالاحتراف المشرف. وأومن أيضا بالتطوع غير المشرف. وأننى أرى أن الزمن الذى كان فيه التطوع المشرف سائدا قد ولى فى ضوء روح العصر وفى ضوء وجود معاهد عليا وكليات للخدمة الاجتماعية والتربية عندما تخرجت الدفعات الأولى. أى منذ عام ١٩٤٠.

- والقيادة الرشيدة التى تشرف على المؤسسات الاجتماعية التى تعمل فى محيط الشباب ومن أجلهم، يجب أن تعتمد على الأسلوب العلمى فى مواجهة تحقيق الأهداف.

أن الارتجال فى تحقيق هذه الأهداف فى ضوء روح العصر أصبح غير ذى موضوع، وأن تطبيق الأسلوب العلمى أولى وأجدى.

- والقيادة الرشيدة التى تشرف على المؤسسات الاجتماعية التى تعمل فى محيط الشباب ومن أجلهم، يجب أن تعتمد أيضا على هؤلاء السادة أعضاء الجمعية العمومية لهذه المؤسسات ويتجلى هذا الولاء واضحا فى استمرار عضوية أغلبيتهم. أن الاستمرار فى جماعة من الجماعات أو فى مجتمع من المجتمعات يعنى الأصالة والتقاليد السليمة والخط الواضح فضلا عن تحقيق قيم التعاون الإيجابى، أى التعاون على البر والتقوى وليس التعاون على الاثم والعدوان، وتحقيق التكافل الاجتماعى والتسامح.

أن ولاء السادة أعضاء الجمعية العمومية، وهم قدوة، ييسر غرس قيمة الولاء لدى الأعضاء من العاملين المهنيين، ولدى أعضاء المؤسسة الاجتماعية من الفتيان والفتيات والشباب.

- ومن القيم التى يجب على القيادة الرشيدة غرسها فى نفوس الأعضاء من الفتيان والفتيات والشباب الإيمان بالديمقراطية. أن الفرص لغرس قيم الديمقراطية بين جنبات المؤسسة الاجتماعية فرص عديدة. وهى تسنح دائما فى معاملة أعضائها لا عن طريق الموعظة أو عن طريق القدوة الحسنة فحسب، بل عن طريق إتاحة المواقف السوية لهؤاء الأعضاء لكى يمارسوها. فالانتظام فى جماعات متجانسة (أسر) مثلا، باعتبار أن الجماعة

هى الوسيلة المثلى لصياغة شخصيات أفراد هذه الجماعة عن طريق التفاعل داخلها تحت إشراف العاملين المهنيين، يتيح فرصا عديدة لممارسة الديمقراطية. والديمقراطية فى ضوء الخبرة هى أنماط من السلوك قبل أن تكون مجرد شعارات. والقيادة الرشيدة التى تشرف على المؤسسات الاجتماعية التى تعمل فى محيط الشباب ومن أجلهم يجب أن تؤكد غرس هذه القيم بالممارسة عن طريق انتظام الأعضاء فى جماعات متجانسة يحكمون أنفسهم بأنفسهم حكما ذاتيا عن طريق لجان النشاط القويم، أى عن طريق البرامج الهادفة إلى الخير وإلى التغيير إلى الأفضل فى ضوء مبادئ مجتمعنا وقيمه ومثله العليا.

(ب) البرامج :

- أن البرامج الهادفة إلى الخير وإلى التغيير إلى الأفضل فى ضوء مبادئ مجتمعنا وقيمة ومثله العليا عديدة، ولا يمكن أن تكون رياضية فقط. والتجربة قد اثبتت أن الرياضة وسيلة ولا يمكن أن تكون غاية فى حد ذاتها ان أهداف البرامج القويمة هى تيسير عمليات التربيه. ومن ثم يجب ان تأخذ فى اعتبراها أن عضو الجماعة فى مسيس الحاجة إلى معاونته على تكوين شخصية سوية، وأن الشخصية عواملها ليست تكوينية فقط، وأن من عواملها العوامل الثقافية الاجتماعية فضلا عن العوامل النفسية والعقلية.

- أى أن البرامج التى يجب أن تهتم بها المؤسسة الاجتماعية هى برامج تهدف أول ما تهدف إلى تكوين شخصيات الأعضاء فى ضوء عوامل الشخصية الإنسانية. فهى برامج رياضية وثقافية واجتماعية وفنية وتعليمية (فصول تقوية لمن يكونون فى مراحل التعليم المختلفة مثلا). أنها كل ذلك. وأهدافها أن تيسر تكوين الشخصيات الصالحة أى أن تيسر تكوين المواطنين الصالحين الذين يتوقعهم المجتمع المصرى فى المرحلة الحالية. أن البرامج وسائل وليست أهدافا فى حد ذاتها. ونحن لا نهدف فى الوقت الراهن إلى تربية نجوم ولكننا فى حاجة إلى مواطنين مصريين صالحين يعرفون واجباتهم ويحرصون على حقوقهم، ويؤمنون بحب الإنسان لأخيه الإنسان، ويعملون الخير ويتذوقون الجمال. أى أننا يجب أن نهتم بالقاعدة العريضة

من أعضاء المجتمع لكى ينشأوا التنشئة الصالحة أولا وقبل كل شيء. وإذا ظهر النجوم منهم بعد ذلك فأننا نرحب بهم.

(جـ) المرافق:

- ولكى تتحقق البرامج التى تساعد فى تكوين شخصية المواطن المصرى الصالح، لابد من توفير المرافق الضرورية. أى توفير المبنى الصالح لتحقيق هذه البرامج. يجب أن يكون مبنى المؤسسة الاجتماعية، مثلا، قد بنى خصيصا لكى يكون مؤسسة اجتماعية. تكون فيه المكتبة وحجرات الدراسة والملاعب، ودورات المياه، ودار العبادة، والمسرح، والعيادة الطبية موفوره وأن تكون فيه المياه جارية وتيار الكهرباء موفورا أيضا، وأن تكون كل أنواع الصرف صحية.. إلخ. وأن تكون صيانة هذه المرافق مرفورة على الدوام.

- وقد يرى البعض أن فرض هذه الأنواع من المرافق وغيرها فيه الكثير من التعسف. وأن الفتى أو الفتاة أو الشباب أو الشابة قد يعيشون بغيرها إذا ما توافر المربى الصالح وتوافرات البرامج أو أنواع معينة من البرامج. لقد جرب المجتمع المصرى المعاصر تحقيق الرأيين. وقد أكدت الخبرة أن المرافق تلعب دورا هاما فى تحقيق أهداف التربية. أن إحساس العضو بالانتماء إلى مؤسسة تتوافر فيها الضرورات التى تيسر تنفيذ البرامج المتعددة الأغراض تنفيذا ميسرا، يؤكد هذا الانتماء كما يؤكد الاعتزاز به.

- والتحدث عن مبنى المؤسسة الاجتماعية والمرافق التى يجب أن تتوافر فيه غير كاف. وذلك لأن التحدث عن موقع هذا المبنى أمر هام أيضا. أننا فى ضوء الخبرات لا نتوقع أن ننتظر عملاء المؤسسة الاجتماعية من الفتيان والفتيات والشباب أن يأتوا إلى المؤسسة وهى فى موقع بعيد عنهم. أننا فى ضوء الظروف الراهنة ومن أجل ترتيبة شباب صالح يحمل على ظهره المستقبل المشرق، يجب أن نؤكد على أن تذهب المؤسسات الاجتماعية حيث يعيش هؤلاء فى أحيائهم، أو بالقرب من مواقع شغل أوقات فراغهم. مع ملاحظة أن العديد من هؤلاء العملاء لا يتطوعون للالتحاق بالمؤسسات الاجتماعية. وأن العديد من هؤلاء قد يكونون الجماعات فى خارج هذه

المؤسسات. فلنذهب إليهم. ولا ننتظرهم حتى يأتوا إلينا. ولنرفع شعار "لنصل إلى من لا يمكن أن يصل إلينا"، ولنحقق هذا الشعار فعلا.

٤- تدريب العاملين (المشرفين والمشرفات):

أن أهم أعضاء القيادة في المؤسسة الاجتماعية هم المشرفون والمشرفات الذين يعملون مع الأعضاء. فمن هؤلاء يكون بالضرورة مدير المؤسسة، ومن هؤلاء الذين يقودون أعضاء الجماعات (الفتيان والفتيات والشباب جميعا) ويشرفون عليهم.

وفي ضوء عدد أعضاء المجتمع القاهري من سن ١٠- أقل من ٢٥ الذي يبلغ ١,٧٥٧,٧٧٤ عضوا، يحتاج الإشراف عليهم إلى ٣٥١٤٢ من المشرفين والمشرفات إذا اعتبرنا أن عدد ما يستطيع المشرف أو المشرفة تحمل مسئولية الإشراف عليه من الأعضاء في المتوسط في هذه المرحلة السنية هو ٥٠ عضوا. وتحديد الـ٥٠ عضوا لم يجئ اعتباطا، ولكنه جاء نتيجة الخبرة الطويلة المستمرة في العمل مع الجماعات في المجتمع المصري المعاصر. فالملاحظ أن الأعضاء الصغار يحتاجون إلى عناية أكبر ومن ثم فأن العدد الذي يمكن الإشراف عليه منهم بعناية يكون ؟ أقل من ٥٠ عضوا، على عكس الأعضاء الكبار فقد يكون العدد عندئذ أكبر وقد يصل إلى ٨٠ عضوا أو أكثر إلى مائة عضو. "أنظر الجدول رقم (٢)".

وإذا كان المطلوب هو الاهتمام بأعضاء المجتمع القاهري من الفئة العمرية من سن ١٢- فأقل من ٢٥ سنة فحسب فيكون العدد المطلوب الإشراف عليهم من هؤلاء هو ١,٥٢٤,٦٤١ عضوا فقط. ومن ثم يحتاج الإشراف عليهم في ضوء ما سبق إلى ٣٠٤٩٣ من المشرفين والمشرفات فقط.

والملاحظ أنه إذا كان عدد المشرفين والمشرفات هو ٣٥١٤٢ أو هو ٣٠٤٩٣ فإن الحاجة ماسة إلي إنشاء هيئة خاصة تشرف على اختيارهم وتدريبهم. واختيار المشرفين والمشرفات يجب أن يتحدد، كما ذكرنا من قبل، في بعض الأمور هي:

- أن يكونوا من العاملين المهنيين.

- أن يكونوا أصحاء النفس والبدن.

- أن يكونوا من المهتمين بالعمل مع الجماعات سواء كان أعضاؤها من الفتيان والفتيات أم من الشباب.

والاختيار فى هذا الضوء، وحده، غير كاف. ولابد من التدريب النظرى والعملى لكى يكون المشرفون والمشرفات على وعى تام بالمهام الملقاه على عاتقهم، ولكى يكون لديهم من المهارات ما يعينهم على أداء هذه المهام على الوجه الأكمل. ومن هذه المهارات ما يلى:

- ان على العامل مع أعضاء الجماعات المشار إليها أن يضبط نفسه وعواطفه وثوراته الداخلية فى جميع الأحوال. لا يجب ان يضطرب وينزعج. وإذا اضطرب أو انزعج لسبب من الأسباب فعلية مهما كانت الظروف أن يمنع الاضطراب أو الانفعال من الظهور على وجهة لا أو فى تصرفاته.

- أن على العامل مع أعضاء الجماعات أن يحترم شخصيات هؤلاء الأعضاء فى جميع الحالات على السواء. فلا يعمل على تحقير أى عضو لسبب من الأسباب، ولا يعلن أخطاء العضو على رءوس الاشهاد وبخاصة ما يمس الأخلاق منها. ذلك لأن الكرامة الشخصية رأس مال الإنسان ويجب تجنب ما يقضى عليها بحال من الأحوال.

- أن على العامل مع أعضاء الجماعات أن يكون حازما مع الأعضاء وإذا قال للعضو 'لا" يقصد "لا".

- أن عصيان الأعضاء لأوامر المشرف أو المشرفة ليس جريمة يجب أن يعاقب عليها. أن النزاع بين المشرف أو المشرفة وبين المخالف للأمر ليس نزاعا على الطاعة، وإنما ينصب النزاع على ما يعمل أو يمتنع عن عمله. وإذا عصا المخالف بألفاظ نابية وبالتحدى، فالحساب بين المشرف او المشرفة وبينه على الألفاظ النابية والتحدى.

جدول رقم (٢)

بيان تقديرى للمشرفين الاجتماعيين اللازمين لخدمة فئة السن من ١٠ سنوات لأقل من ٢٥ سنة حسب أقسام محافظة القاهرة

مسلسل	بيان قسم	تقدير المشرفين الاجتماعيين اللازمين		
		ذكور	إناث	جملة
١	المطرية	١٦٨٨	١٧٤٧	٣٤٣٥
٢	الساحل	١٦٠٠	١٥٦٧	٣١٦٧
٣	الشرابية	١٥٢٩	١٥٠٠	٣٠٢٩
٤	حدائق القبة	١٠٧٤	١٠٧١	٢١٤٥
٥	روض الفرج	١٠١٧	٩٨٠	١٩٩٧
٦	مصر القديمة	٩٦٨	٩٥٣	١٩٢١
٧	السيدة زينب	٩٦٤	٩٣٧	١٩٠١
٨	الزيتون	٨٩٨	٩١٢	١٨١٠
٩	حلوان	٨٨٥	٨٨٨	١٧٧٣
١٠	المعادى	٨٢٣	٨٦٠	١٦٨٣
١١	الخليفة	٦٨٠	٦٩٢	١٣٧٢
١٢	بولاق	٦٨٧	٦٣٧	١٣٢٤
١٣	الجمالية	٦٠٣	٥٩٢	١١٩٥
١٤	الوايلى	٦٠٤	٥٠٩	١١١٣
١٥	الدرب الأحمر	٥٥٨	٥٤٧	١١٠٥
١٦	شبرا	٤٧٣	٤٦٠	٩٣٣
١٧	باب الشعرية	٤٢٨	٤١٢	٨٤٠
١٨	مصر الجديدة	٣٩٤	٤٢٢	٨١٦
١٩	الظاهرة	٣٨٧	٣٧٥	٧٦٢
٢٠	عابدين	٣١٠	٣٠١	٦١١
٢١	النزهة	٢٧٤	٣١٧	٥٩١
٢٢	الموسكى	٢١٢	٢٠٢	٤١٤
٢٣	مدينة نصر	١٧٨	٢٣٠	٤٠٨
٢٤	الأزبكية	٢٠٧	١٩٠	٣٩٧
٢٥	قصر النيل	٩٧	١١٢	٢٠٩
٢٦	التبين	٩٤	٩٧	١٩١
الجملة		١٧٦٣٢	١٧٥١٠	٣٥١٤٢

– يجب أن يحافظ العاملون مع أعضاء الجماعات المشار إليهم على كرامتهم. ويتمسكون برأيهم ما داموا مقتنعين بصحته. يرحبون بالمناقشة فيه لمن أراد منهم، ويرجعون عن رأيهم إذا رأوا أنهم قد أخطأوا. ذلك لأن كرامة المشرفين والمشرفات تأتى عليهم أن يتمادوا فى تصرف يرون الخطأ فيه.

– يجب أن يعنى العاملون مع أعضاء الجماعات المشار إليها العناية كلها بدوافع الأعضاء. فلا يسمحون بعقوبة مخالف إلا بعد أن يكونوا قد استنفدوا كل جهد فى البحث وراء الدوافع.

– وخوفا على أنفسهم من الشطط فى الحكم على أحد الأعضاء، فأنه يجب إلا يفعل العاملون ما يريدون أن يفعلوا ارتجالا وفى الحال دون بحث أو روية. وبخاصة عندما تستثار نفوسهم، فلا يعاقبون هذا العضو لأمر يأتيه عقب العمل مباشرة، بل يتركونه مؤقتا بعد أن يشعروه بعدم رضاهم عما يعمل. ويؤجل النظر فى شأنه لحين اجتماع العاملين (الأسبوعى) حيث تبحث مسألته وتسمع أقوال العامل ويتناقش المجتمعون فى الحالة بالتطويل.

وفى هذه الاجتماعات يجب أن يغفل العامل الشخصى فى الموضوع ولا ينظر إلا للفائدة التى تعود على العضو وأخلاقه فقط.

– وإذا كانت الوشاية خصلة قد تنفع الكبار فى عملهم بين الصغار فتخفف عنهم بعض الأعباء الثقيلة وتسهل مأموريتهم فى إدارة المؤسسات، وتمكنهم من معرفة ما يدور بين الصغار وما يحدث من بعضهم على أهون سبيل – فأن العاملين بالمؤسسة يجب أن يعلموا أن قيمة الوشاية فى تربية النشء سلبية تضر بهم ولا تنفعهم، وتشيع بينهم الدسائس بالحق والباطل فتصبح أداة من أدوات الظلم والإفساد للذمم والأخلاق والفضائل.

– أن القاعدة التى يجب أن يسير عليها العاملون مع الجماعات المشار إليها والتى يحاسبون أنفسهم عليها دون هوادة أو لين هى أن الأعضاء الذين يشرفون عليهم متساوون. فلا يجب أن يشعر أحد من الأعضاء بأننا نحبه أو آخر بأننا نستثقل ظله، هم أخواننا ويجب أن تكون المعاملة لهم على أنهم متساوون. وفوق كل شىء يجب أن يشعروا هم بهذه

الحالة وأن العاملين المشرفين عليهم ينزعون فى كل أعمالهم عن حاسة العدل والحب والاحترام للجميع دون تفرقة.

والملاحظ أن هذه المهارات التى يجب أن يتحلى بها المشرفون والمشرفات لا يمكن أن تأتى من فراغ، أو أن يكتسبوها بالتلقين، بل هى تغرس فى شخصياتهم عن طريق مواجهة المواقف العديدة فى الواقع الحى وهم يعملون مع أعضاء الجماعات الذين يشرفون عليهم ويتحملون مسئولية تربيتهم ومن ثم فأنه مع تقسيم الأعضاء (الفتيان والفتيات والشباب) إلى أسر (أو جماعات) حسب الأعمار (فأسرة الفتيان أو الفتيات من الثانية عشرة إلى أقل من الخامسة عشرة مثلا، وأسرة الأعضاء الذين فى مرحلة انتقالية من الخامسة عشرة إلى أقل من الثامنة عشرة مثلا، وأسرة الشباب من الثامنة عشرة إلى أقل من الخامسة والعشرين مثلا) فأن المشرفين والمشرفات العاملين مع الأعضاء يجب أن يعملوا فى لجان أيضا (حسب حجم العضوية فى المؤسسة الاجتماعية)، يجتمعون تحت إشراف المشرف على المؤسسة مرة فى كل أسبوع، لكى يتدارسوا أو يناقشوا معا المواقف وما ينجم عنها من مسائل أو مشاكل على أن تسود المناقشات الروح الديمقراطية، وأن يتخذوا فى كل الأمور المنهج العلمى منهجا لهم.

خـاتـمـة

لعل القارئ الكريم أن يلاحظ أن الكتاب الحالي: "نظرات باحث علمي اجتماعي مصري" قد كتب من وجهة نظري، وهو يتضمن الخبرات التي صنعتني وصنعتها. وهي خبرات في الأغلب الأعم منتظمة أي مبنية على نتائج بحوث ودراسات قمت بإجرائها أو الإشراف عليها. ولا يمكن أن أقول أن هذه خبرات أي التي يضمها الكتاب الحالي هي كل الخبرات. ولعل القارئ الكريم أن حدس أهدافي من تحرير هذا الكتاب. أنني أبحث في ضوء نتائج البحوث والدراسات المذكورة منذ ان ظهرت العناصر الثقافية الاجتماعية التي يموج بها مجتمعنا المصري وبخاصة في ظروفه الثقافية الاجتماعية التي تعكسها بالضرورة الظروف الاقتصادية والسياسية والتي يمر بها هذا المجتمع في الوقت الراهن.

وهذه النظرات أعرضها كواحد من المواطنين الذين تخصصوا في رصد الظواهر الاجتماعية والمواقف الاجتماعية فضلا عن أنماط السلوك وبخاصة في محيط الشباب المصري المعاصر.

ومهما يكن من الأمر فأنني كإنسان عاجز عن أن ألم بأطراف كل الأشياء التي وعيت بها في أثناء مسيرة حياتي العلمية العملية. ولكنني مع ذلك حاولت أن أفعل ذلك في نظراتي هذه إلى بعض الأمور التي تبرز أمامي في كل لحظة أعيشها أو عشتها في ربوع مصرنا الخالدة.

والملاحظ أن النظرات التي يضمها الكتاب الحالي هي نظرات تمجد العلم الحديث والتكنولوجيا الحديثة في عصرنا الحالي ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين. وذلك لأنني أومن إيمانا صادقا بأننا يجب (أقصد أجهزة البحوث العلمية الاجتماعية وغيرها من المعاهد التي تهتم بالسوك البشري) أن ندرس واقع مجتمعنا في ضوء تاريخه وفي ضوء علاقاته بالمجتمعات الأخرى النامية منها والصناعية منها على السواء. ولا يكفي القيام بذلك. بل يجب أن يكون هدف اهدافنا تنقية الغث من الثمين والحرص على هذا الثمين لكي نبني صرح حضارتنا المتميزة.

أنى أحيانـا إذ أقرأ ما وصل إليه العالم الغربى فضلا عن العالم السوفيتى وعالم الولايات المتحدة، أصاب بالدوار الفكرى (أن صح هـذا التعبير) لما تم تحقيقه من ألوان الحضارة سواء أكان ذلك فى مجالات الفلك أم الطب أم العلوم الفيزيقية والكيميائية أم غيرها، ومن أجل النجاح الباهر فى عمليات تطبيق هذه العلوم ونتائج كل ذلك على الإنسانية فى الحاضر وفى المستقبل القريب وفى المستقبل البعيد.

صحيح أن بعض ما تحقق قد يؤدى إلى الدمار النسبى، وذلك لأنـه فى ضوء العلم الحديث لاشىء مطلق. فأن ما يضر البعض قد ينفع البعض الآخر. وأن ما تستخدمه فيما يصلح قد يستخدم فيما يفسد. والحق عند البعض هو باطل عند الآخرين. وباسم الحق قد ترتكب أو لا ترتكب أفظع عناصر الدمار، وباسم الباطل قد ترتكب او لا ترتكب أفظع عناصر الدمار. وحتى باسم القانون وباسم الدستور وباسم الوطنية نجد التشوية المختمر فى نفوس من ينادون ذلك بقصد تحقيق المصالح.

وأننى أرى أن المصالح تصنع النوايا وأن النوايا تصنع المواقف الاجتماعية وأن المواقف الاجتماعية فى ضوء القيم (ذات الأهداف الحميدة أو غير الحميدة) تحدد أنماط السلوك.

وفى ضوء التاريخ وضوء الواقع نلاحظ كل ذلك. والناس على تباينهم يفعلون ذلك. ويتبين من هذه الملاحظة ما نواجهه فى الوقت الراهن من معان عديدة لألفاظ التطرف والإرهاب والعنف. فنجد أن كلا يختار المعنى الذى يوافق مصالحه سواء أكانت اقتصادية أم سياسية أم غيرها. أن الحملة التى يشنها بلد تسود فيه مصالح المغتصب يرى أن الدفاع عن حقوق أعضاء المغتصب تطرف أحيانا أو إرهاب أحيانا أخرى أو عنف أحيانا ثالثة. أى أن المغتصبين لهم أغراض يسعون ليدركوها وكذلك الذين يغتصبون. والغلبة فى ضوء الواقع، كما يبدو لى، تكون للقوة المادية أو المعنوية.

ومهما يكن من الأمر فأن قيم الحق ذات الأهداف الحميدة ستغلب حتما قيم الباطل ذات الأهداف غير الحميدة. وإذا بدا لنا الحق أصبح للقوة. فالقوة أنماط. وفى ضوء حقائق التاريخ نجد أنه بمرور الوقت أن قيم القوة

تصبح بالضرورة لقيم الحق. والتاريخ خير معلم، فلنستفد من دروسه ولنعمل فى سبيل تحقيق أهداف مجتمعنا المصرى، أهداف مستقبله المشرق.

ولعل قارئ هذه النظرات أن يفيد منها، فمن حقه على أن أحقق له ذلك. وذلك أننى أكتب لكى أقرأ. ومن قرأ ما أكتب هو فى حقيقة الأمر شريك فيما أكتبه. ومهما كانت معاناتى من أجل إخراجها إلى النور فهى من أجل مصرنا الخالدة. فأنا عشت فيها وبها ومن أجلها.

وبالله التوفيق..

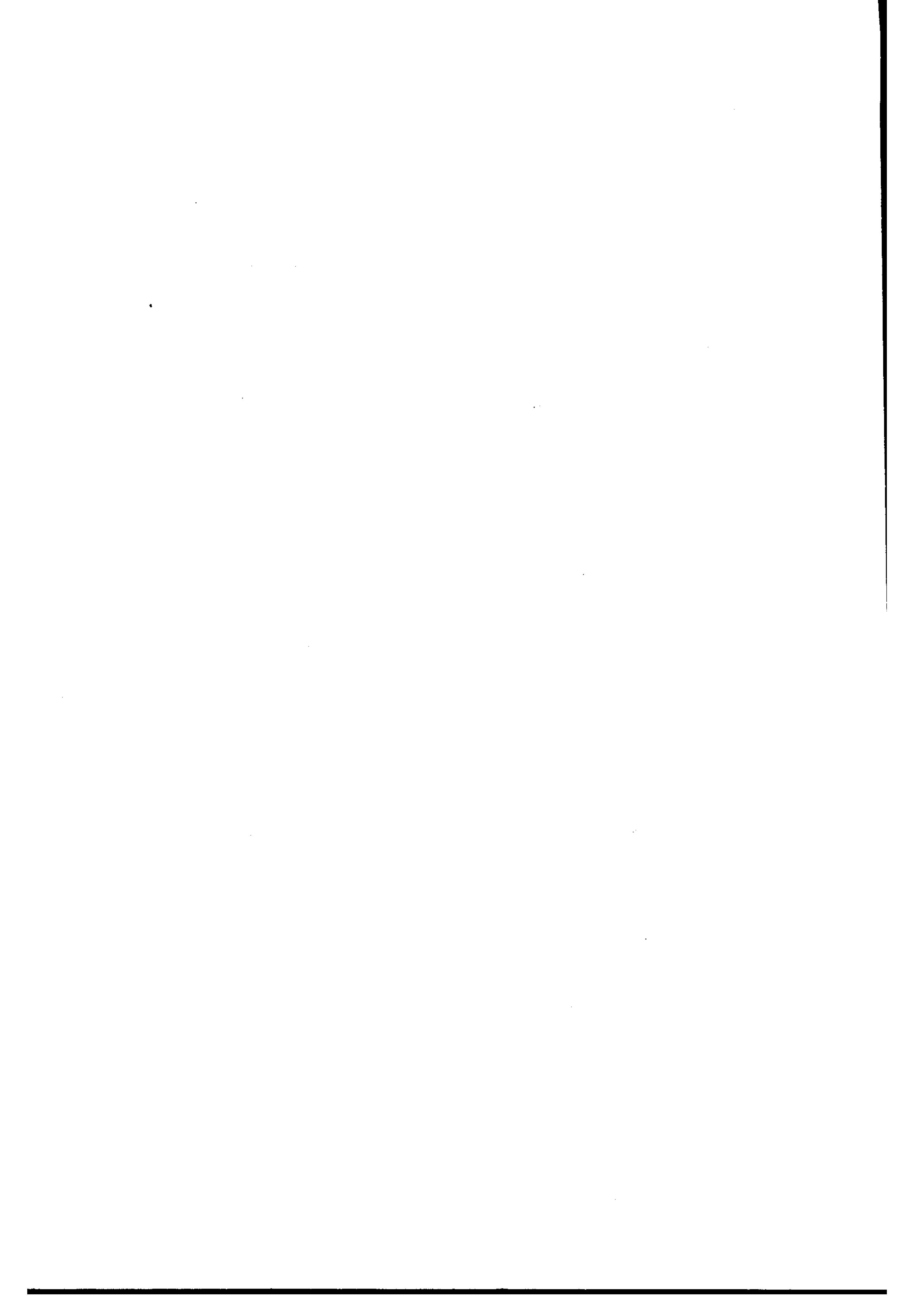
هتاف الصامتين

(ظاهرة الكتابة على هياكل المركبات
فى المجتمع المصرى المعاصر)

تأليف

الدكتور سيد عويس

الخبير الأول بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية



النبى تبسم .

فلسطين عروس ومهرها الدم

أحب كل الناس وأكره كل الناس

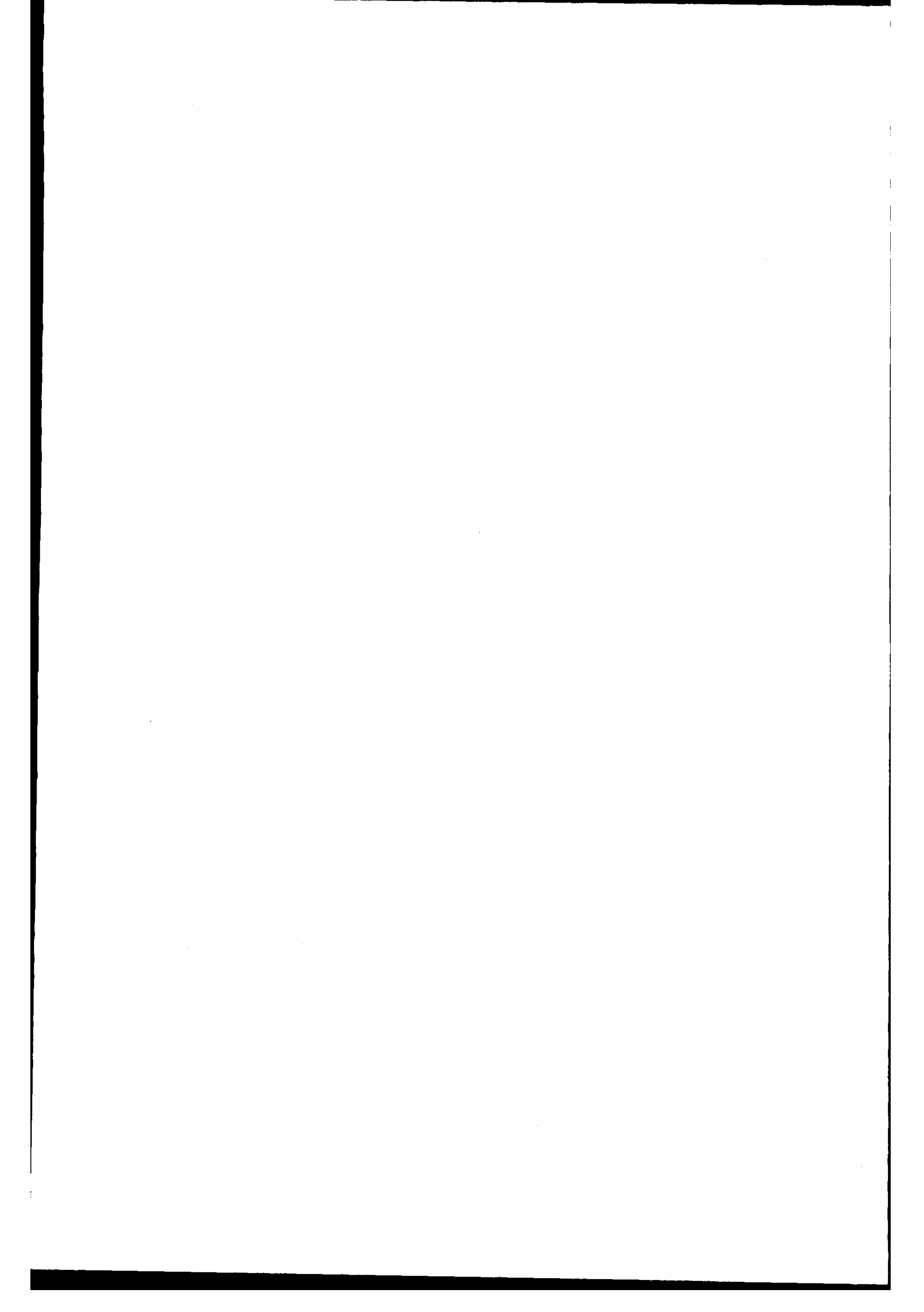
خليها على جانب الله

وحياتك ياظالم ما تمسك حاجة على

تندب فى عينك رصاصة ياللى بتبص !

كفاية ياعين

(من عبارات الدراسة الحالية)



الإهـــداء

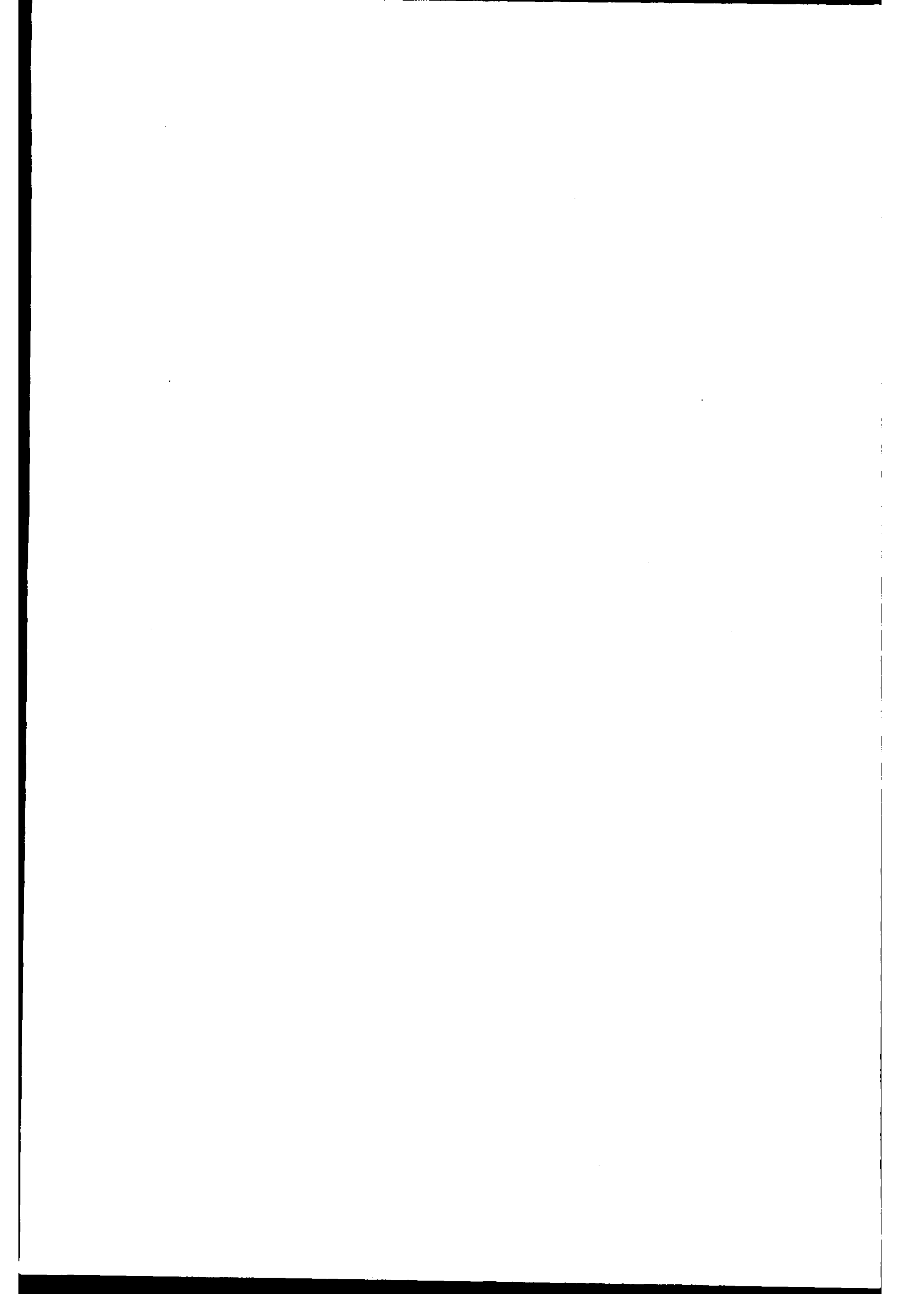
إلى أمى وأبى......

سيد عويس



فهرس الموضوعات

الموضوعات	رقم الصفحة



مقدمة

يتشرف الكاتب بأن يقدم إلى القارئ العربى بعامة، وإلى القارئ المصرى بخاصة، كتاب "هتاف الصامتين : ظاهرة الكتابة على هياكل المركبات فى المجتمع المصرى المعاصر". ويضم هذا الكتاب دراسة علمية لاحدى الظواهر التى توجد فى المجتمع المصرى المعاصر. وتهدف هذه الدراسة إلى محاولة التعرف موضوعيا على بعض ملامح هذا المجتمع فى الوقت الراهن، لكى نعرف موضوعيا ما هو كائن حتى نستطيع ان نواجهه ونغيره إلى الأفضل.

وقد شجع الكاتب على القيام بدراسة هذه الظاهرة ما بدا له، فى ضوء دراساته السابقة، من حقائق عن مجتمعنا المصرى المعاصر. ولعل اهم هذه الحقائق ان مصرنا الخالدة ما زالت مجهولة عند أبنائها وعند بناتها. وأن المعرفة الموضوعية لملامحها أصبحت مسألة فى غاية من الأهمية. فروح مصرنا الخالدة فى عمقها وفى أصالتها، كما بدا للكاتب، قد نكبت بالاهمال والنسيان، واندثرت أو كادت تندثر تحت رمال الزمان. وقد آن الأوان لنعرف هذه الروح الخالدة الصامدة معرفة موضوعية حتى نستطيع ان ننقيها من الشوائب ان وجدت هذه الشوائب.

وموضوع الدراسة الذى يضمه الكتاب كانت له بالضرورة نقطة بداية، ثم تطورت حتى أصبحت كما يجدها القارئ فى الكتاب فى شكله الحالى، كان الكاتب يجد فى البحث لاكتشاف أسلوب جديد لمواجهة المجهول فى مجتمعنا المصرى المعاصر. وفى أثناء هذا البحث لاحظ ما يكتبه أصحاب السيارات والأتوبيسات واللوريات والعربات، وما يكتبه سائقوها، من كلمات وعبارات على هياكلها او يعلقونه بالإضافة إلى هذه الكلمات والعبارات أو بدونها من أشياء معينة درءا للحسد او طلبا للرزق او رجاء الوقاية من المجهول. وقد حفزه ما لاحظه إلى الدأب سعيا، فى اوقات فراغه، وراء كل سيارة (ملاكى)، ووراء كل سيارة (تاكسى) ووراء كل اتوبيس وكل لورى، ووراء كل عربة(كارو) او عربة تبيع المأكولات او المشروبات

فى إحدى عشرة محافظة من محافظات جمهورية مصر العربية. وذلك ليجمع ما كتب على هياكل هذه المركبات. واستمر يفعل ذلك فى خلال فترة ثلاث سنوات انتهت فى آخر اغسطس ١٩٧٠. وجمع فى خلال هذه الفترة ألف كلمة وعبارة من خمسمائة مركبة تجوب الآفاق شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، وتتحرك على مدى امتدا مدن مجتمعنا المصرى المعاصر وقراه.

وقد لاحظ الكاتب فى خلال عملية جمع الكلمات والعبارات المكتوبة على هياكل مهذه المركبات تنوع الكلمات والعبارات وتكرارها وتباين أشكالها ومعانيها. ولاحظ ان المسألة لا تقف عند حد اثبات او عدم اثبات وجود أسلوب جديد لمواجهة المجهول فى مجتمعنا المصرى المعاصر، بل تتعدى ذلك إلى آفاق أوسع. آفاق تمس المناخ الاجتماعى الثقافى لهذا المجتمع، وتعكس الكثير من العناصر الثقافية غير المادية التى تملأ هذا المناخ وتعيش فى كيان اعضاء هذا المجتمع وفى نفوسهم. كما لاحظ ان المركبات التى تكتب عليها الكلمات والعبارات هى فى حقيقة الأمر تحمل هذه العناصر الثقافية غير المادية وتعلن عنها حيثما تسير وكأنها جهاز اعلامى شعبى من أجهزة الاعلام فى مجتمعنا المصرى المعاصر يتحرك على امتداد مدن هذا المجتمع وقراه.

وفى ضوء نتائج الدراسة الحالية، وفى ضوء دلالات هذه النتائج، تبين ان الكلمات والعبارات المكتوبة على هياكل المركبات موضوع الدراسة، وعلى الرغم من أن بعضها مكرر، وان معانى بعضها متشابهة، وعلى الرغم من أن أشكالها متعددة - قد اختارها كاتبوها انفسهم بمحض ارادتهم وأصروا على كتابتها على هياكل المركبات التى يستخدمونهاعلى الرغم من عدم موافقة الدولة على هذه الكتابة. وأنهم اذ يكتبون ما يكتبون بمحض ارادتهم، فإنهم فى حقيقة الأمر يحاولون ان يسمعوا أصواتهم دون ان يراهم احد، اى أنهم فى حقيقة الأمر يحاولون بمحض ارادتهم أن يهتفوا. وكاتبو الكلمات والعبارات موضوع الدراسة، فى ضوء الظروف الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، اى ظروفهم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، اذ يهتفون بمحض ارادتهم، قد استخدموا دون ما ارادة كاحدى وسائل التعبير عند الصامتين من أعضاء مجتمعنا المصرى المعاصر، هى فى حقيقة الأمر

وسيلة جديدة تجلجل فيها أصواتهم دون ان يراهم احد، ويعبرون عن طريقها عن أناتهم وآمالهم وأفراحهم وأتراحهم واستسلامهم ودعاباتهم، وعن بعض القيم التى يقدسونها وبعض انماط تفكيرهم.

والملاحظ ان الصامتين فى المجتمع اى مجتمع، وإن بدوا كذلك لا يبقون صامتين على الدوام. إن صوتهم بأسلوب أو بآخر يرتفع من حين إلى حين إلى الآفاق. فهو يجلجل ويرتفع إلى الآفاق عند الصلاة، وعند الدعاء، وفى حلقات الذكر فى رحاب المساجد والكنائس والمعابد أو فى خارجها. و هو يجلجل ويرتفع إلى الآفاق فى ملعب الكرة، وفى الملاهى والبارات، وفى أثناء الاستماع للغناء، وفى المباريات فى النكت ذات المضمون السياسى أو ذات المضمون الاجتماعى، وأمام الموت، وعن طريق إرسال الرسائل إلى الأموات، وحتى عن طريق الكتابة أو الرسم فى داخل دورات المياه !

وكاتبو الكلمات والعبارات على هياكل المركبات فى المجتمع المصرى المعاصر، كفئة من الصامتين، هم بعض اعضاء هذا المجتمع، يعيشون فيه حياتهم، حلوها ومرها. وهم إذ يكتبون ما يكتبون بمحض إرادتهم يعيشون أيضا فى ظل المناخ الاجتماعى الثقافى لهذا المجتمع. أى أنهم يعكسون العديد من العناصر الثقافية غير المادية التى اختاروها من هذا المناخ، والملاحظ أن ما يعلنون عنه من مشاعر واحاسيس وآمال ومعتقدات وغيرها لكى يسمعوا أصواتهم دون ان يراهم أحد، أى لكى يهتفوا هتاف الصامتين، يؤثر فى نفوسهم كما يؤثر فى نفوس غيرهم الذين يقرأون ما يكتبون أو يستمعون لقراءة ما يكتبون من اعضاء المجتمع. ذلك لأن الجهاز الاعلامى الشعبى الذى اصطنعوه، دون ما وعى، اصبح واحدا من اجهزة التنشئة الاجتماعية التقليدية التى توجد عادة فى المجتمع مثل الأسرة والمدرسة والمنظمة الدينية والنادى الاجتماعى الثقافى والمنظمة السياسية وأجهزة الاعلام كالجريدة والمجلة والكتاب والسينما والمسرح والاذاعة والتليفزيون. وهو كجهاز إعلامى يدعو، فى ضوء طبيعته، إلى المناخ الاجتماعى الثقافى.

وفى ضوء نتائج الدراسة الحالية، وفى ضوء دلالات هذه النتائج، تبين أيضا أن ما يدعو إليه الجهاز الاعلامى الشعبى يتضمن الكثير من

العناصر الثقافية غير المادية السلبية التى توجد ولا تزال فى المجتمع المصرى المعاصر، والتى يتهم وجودها المجتمع المصرى المعاصر اتهاما صارخا. فهى تعتبر فى حقيقة الأمر امتدادا للعناصر الثقافية غير المادية من المجتمع الاقطاعى القديم، وتعبر عن بقايا الرواسب الثقافية البالية التى لا تزال متغلغلة فى كيان العديد من فئات هذا المجتمع حتى الآن. وإذ تبرز الدراسة الحالية هذه العناصر السلبية، تبرز فى الوقت نفسه الحاجة إلى مواجهتها وإلى محاولة تغييرها إلى الافضل. ولم تبين نتائج الدراسة الحالية هذه العناصر الثقافية غير المادية السلبية فحسب ؛ بل ابرزت أصالة مجتمعنا المصرى المعاصر، واصالة روح مصرنا الخالدة وعمقها وروعتها فى شخص عناصر ثقافية غير مادية أخرى تتسم على الرغم من كونها مطلقة، بالايجابية. وهى الأخرى فى حاجة ملحة إلى تثبيتها ودعمها، أو إعادة تفسيرها حتى تستمر وهى فى ثوبها الجديد تتلألأ فى مناخ مجتمعنا المصرى الثقافى، وتستمر تشع المحبة والسلام والوطنية، وتدعو إلى الحق والعدل، وتطبق كل ذلك تطبيقا إنسانيا رشيدا.

والكاتب إذ يقدم الدراسة الحالية يرجو أن يكون قد قدم عملا نافعا. وعزاؤه فى كل ما عاناه فى اجرائها ونشرها، وما بذله من جهد ووقت ومال فى سبيل ذلك، وهو كثير، أنه يقدمها لمصرنا الخالدة عربون حب عميق وإخلاص صادق لن يفترا على مر الايام.

ويتضمن الكتاب الحالى سبعة فصول هى :

١- قصة اختيار موضوع الدراسة.

٢-خطة الدراسة ومنهجها.

٣- بيانات عامة عن الكلمات والعبارات.

٤- مضمون عبارات الأشكال الشعبية وكلماتها.

٥- مضمون عبارات الأشكال الدينية وكلماتها.

٦- مضمون عبارت الأشكال الأخرى وكلماتها.

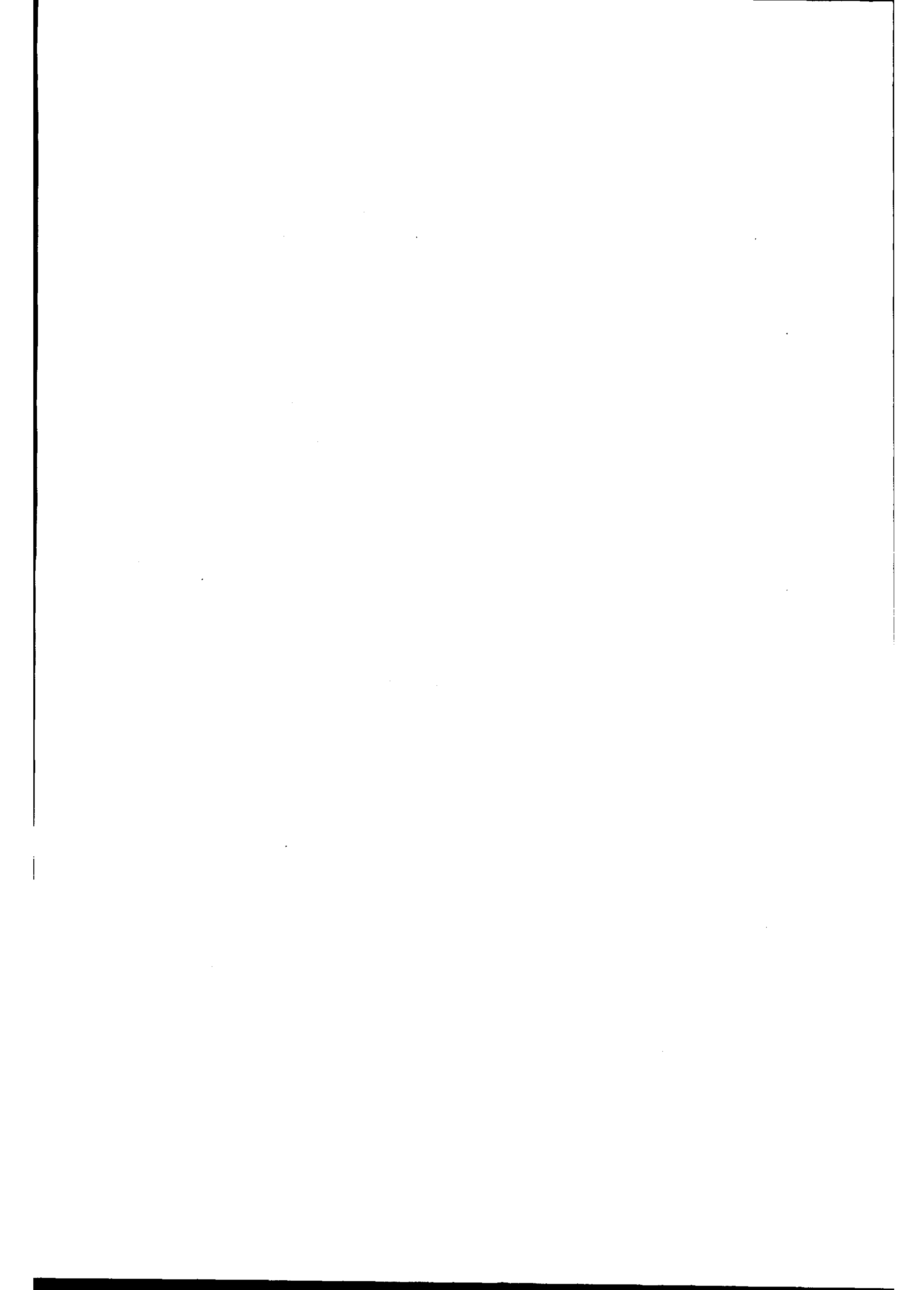
٧- اهم نتائج الدراسة.

ولا يسع الكاتب وقد تم إعداد هذا الكتاب إلا أن يتقدم بفائق الشكر وعظيم التقدير إلى كل من حفزه للقيام بهذا العمل الرائد، إلا أن يعترف بفضل كل من عاونوه أو تعاونوا معه حتى اصبح بصورته الحالية. ويخص منهم بالذكر السيدة إلز اثابت مديرة جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق، واستاذه البروفسور البرت موريس استاذ علم الاجتماع والانثروبولوجيا، وصاحب الفضيلة الشيخ محمود محمد حبيب إمام وخطيب مسجد اسد بن الفرات بالدقى، والزميلة الفاضلة الدكتورة ناهد صالح، والزميل الفاضل الأستاذ أحمد عصام المليجى.

ويذكر الكاتب، ايضا، الجهد المشكور الذى بذله كل من العزيزين الأستاذ فوزى عبد العظيم النجار، والأستاذ أحمد عويس، فلهما فائق الشكر وعظيم التقدير.

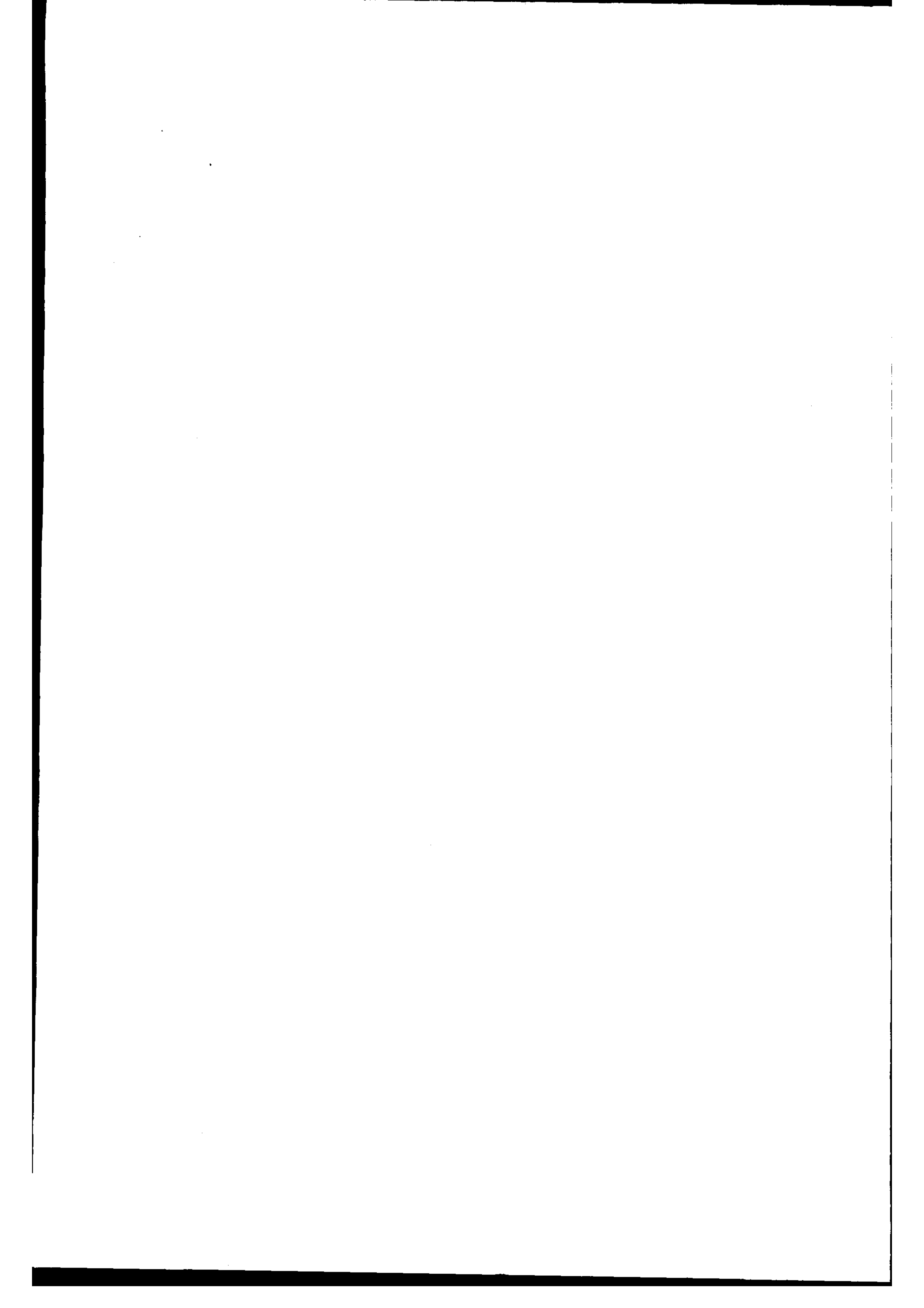
كما يذكر بالشكر والتقدير الأستاذ محمد شوقى، والأستاذ عمر مصطفى اللذين قاما بالعملية نسخ النسخة الأصلية من الكتاب على الآلة الكاتبة.

* * *



الفصل الأول

قصة اختيار موضوع الدراسة



الحرب الغادرة - مواجهة المجهول - أسلوب جديد لمواجهة المجهول - مفاجأة الكاتب بوجود ظاهرة اجتماعية فريدة فى مجتمعنا - موقف الكاتب من هذه الظاهرة قبل دراستها - ضرورة الأهتمام بدراسة هذه الظاهرة .

١- الحرب الغادرة :

بعد الحرب الغادرة التى شنها العدو الغادر فى اوائل يونيو ١٩٦٧ على مصرنا الخالدة، جلس الكاتب كواحد من ملايين المواطنين يحاسب نفسه عن نتائج هذه الحرب الغادرة. نظر الكاتب فى قرارة نفسه وفيمن حوله وفيما حوله بإمعان كبير، ولم تكن نظرة الكاتب هذه هى النظرة التى اعتاد ان ينظر بها إلى الأمور والأشياء من قبل. كانت نظرة أخرى.. نظرة قد غيرها - كما يبدو - هول النكبة وعنفها فاصبحت أكثر إرهافا وشمولا وعمقا. واحس الكاتب مثل غيره من ملايين المواطنين بالشعور بالخطيئة، وبدا له فى ضوء هذا الاحساس وكأنه المسئول، وحده، عن آثار نتائج هذه الحرب الغادرة !

وبينما كان الكاتب يفكر ويمعن فى التفكير وهو يستقرئ الوقائع ويتدبر ما حدث ؛ إذا به يسائل نفسه عن امور لم يكن يتساءل عنها من قبل. فهى أمور قد عاش بها ومن أجلها من قبل. وإن قدر له أن يعيش، مستقبلا، فإنه سيظل يعيش بها ومن أجلها أبدا. فهى أمور قد صنعت شخصيته منذ أن خرج من بطن أمه.. حتى وقتنا هذا. واصبحت بمرور الزمن جزءا عضويا من ذاته منذ أن استنشق أول نفس من عبير الهواء الذى كان يملأ الغرفة التى ولد فيها فى إحدى حوارى القاهرة حتى الآن.

وتساءل الكاتب، مع الاعتذار للقارئ، أول ما تساءل عن مدى جدوى أو عدم جدوى حبه العظيم لمصرنا الخالدة. إن حبه العظيم لمصرنا الخالدة لم يكن قبل ذلك موضع شك، ولا يجب ان يكون هذا الحب العظيم مهما حدث موضعا لشك. فهذا الحب العظيم عنده كان قدس الأقداس، عاش به

ومن أجله عاش.. حتى الآن ؛ ومع ذلك فقد بدا هذا الشك فى ضوء الظروف القاتمة بعد النكبة، وكأنه حقيقة تقلق نفس الكاتب وتهزها هزا عنيفا.

وقبل ان يجيب الكاتب عى هذا التساؤل المقلق، بدا له أن يتساءل اولا عن مصرنا الخالدة.. من هى ؟ فإذا به يعيش فى الماضى. عاش الكاتب فى ماضى مصرنا الخالدة في تاريخها الطويل المستمر، اياما وليالى. تذكر أن مصرنا الخالدة ذات مجتمع قديم عاش فى الماضى السحيق ولا يزال يعيش، وهو مجتمع ذو تراث ثقافى ثرى وخصيب. كما تذكر أن مصرنا الخالدة لم يكن لها نيل واحد يفيض على أرضها بغزير مائه، ماء الحياة، ياتى من السماء (على حد قول القدامى) مندفعا من جبال اثيوبيا بطميه وخصبه يوزعه على جانبى الوادى ويدفع بالزائد عبر البحر. فما النيل إلا نهر من عدة أنهار.. فهناك نهر الديانات.. وهو أطول أنهار الدنيا، ظهر مع الخوف من المجهول والاحتماء والاستسلام لعدد من الالهة، وانتهى بالايمان بالله واحد ثم جاءت المسيحية، ثم جاء الإسلام.

وثمة نهر ثالث.. احتوى الثقافات المختلفة والعلوم والمدنيات والميثولوجيات وهى إشعاعات إنسانية اندمجت بعضها فى بعض فى وحدة أسهمت فى تطور الانسان واستمرار نمائه وحيويته.

وتذكر الكاتب، ايضا، أنه قد ساير تلك الأنهار، نهر آخر.. هو اللباس المتغير الذى كانت تظهر به الديانات والميثولوجيات والثقافات والمدنيات كلما انتقلت من صورة إلى غيرها، وتغيرت من عقيدة إلى أخرى، وهو مجرى الفنون من عمارة ونحت وتصوير وموسيقى والحان وشعر وأدب.

وتذكر الكاتب، كذلك، أن مصرنا الخالدة ملتقى الطرق والبحار، وخاصة البحر الأبيض المتوسط ونسيمه العاطر الذى حمل إلى مصر المدنية اليونانية والرومانية التى عاشت فيها ما يقرب من الألف سنة، فاختلطت روحانية مصرنا الخالدة وقصصها الدينى بالميثولوجيا اليونانية والرومانية التى تأثرت نوعا بالحضارة السامية فى عقيدتها. فلما دخلت المسيحية ثم الإسلام إلى المجتمع المصرى العريق لم يجدا فى شعب مصرنا الخالدة أرضا بكرا او صحراء جرداء ؛ لأن مصرنا الخالدة كانت تعرف "أوزيريس"

واستشهاده، ثم بعثه. كما تعرف شقيقته "إيزيس"، قبل ان يطرق آذانها صوت البشارة المرقسية عن "الفادى المخلص"، وامه "مريم العذراء"، وكذلك تعرف الوحدانية العالمية قبل أن يغزو ارضها جيش عمرو بن العاص ؛ لهذا لما احتضنت مصر الخالدة تعاليم هذين الدينين، تمثلت رموزهما واسرارهما الشعبية اشد الشبه بما كانت تعى من رموز وأسرار (١).

واذ كان الكاتب يعيش فى ماضى مصرنا الخالدة، فى تاريخها الطويل المستمر اياما وليالى.. تذكر أن هذا التاريخ هو تاريخ الدنيا، تاريخ الحضارة القديمة التى أخرجت الانسان من العصر الحجرى وجمع الطعام والرحلة فى الغابات والبرارى إلى عصر الزراعة واستنتاج الطعام، والإقامة فى المنازل، وإنشاء الأسرة والحكومة. وفى ضوء دراسة هذا التاريخ القديم تذكر الكاتب، أيضا، كيف نشأ الطب ؟ وما العلاقة بين تحنيط الجثة وبين توبلة الطعام ؟ ولماذا اجمعت الأمم على الإكبار من شأن الذهب ؟ وكيف نشأت الملكية وطبقات الأشراف ؟ وما الذى بعث على التجارة بين الأمم ؟ ولماذا تسمى الكيميا الان باسم مصرنا الخالدة القديمه ؟ ولماذ أخذ الأوربيون التقويم المصرى ؟ بل لماذا تقدس البقرة فى الهند الآن ؟ فهذه البقرة هى معبودة المصريين القدماء "هاتور" التى يعرف اسمها كل فلاح مصرى.

تذكر الكاتب، كذلك، أن بناء السفن هو صناعة مصرية قديمة، قد نقحت ؛ ولكن أصولها المصرية لا تزال واضحة. وان العالم كله أو معظمه يدفن موتاه، يكفنهم، ويبنى لهم القبور على العقائد المصرية، حتى الروح يجب أن تطرد عقب الموت من البيت على الطريقة المصرية القديمة (٢).

وقبل ان يتذكر الكاتب ما عانته مصرنا الخالدة فى خلال فترة تمتد إلى ألفين وخمسمائة سنة.. تذكر الوزير الأكبر "بتاح حتب" الذى عاش فى القرن السابع والعشرين قبل الميلاد.. وكان يقول :

"يعترف بفضل الرجل الذى يتخذ العدالة نبراسا له فينهج نهجها".

وتذكر الكاتب، ايضا، النصيحة الموجهة للأمير "مريكارع" من والده فرعون أهناسيا الذى عاش فى القرن الثاللث والعشرين قبل الميلاد، وهى

مدونة على بردية محفوظة الآن بمتحف "لينينجراد"، وتحمل بين سطورها أدلة قاطعة تثبت انها كتبت فى ذلك العصر. ومنها نجد :

"كن ممن يحسنون صناعة الكلام لتكون قوى البأس"، "لأن قوة الإنسان هى اللسان، والكلام أعظم بأسا من الحرب". و"إن الرجل الفطن لا يجد من يفحمه، كما أن الذين يعرفون أنه أوتى الحكمة لا يعارضونه ؛ وبذلك لا تحدث مصيبة فى زمانه". و"إن فضيلة الرجل المستقيم أحب (عند الله) من ثور". و"الرجل الظالم (أى الذى يقدم قربانا)" و"اقم العدل لتوطد به مكانتك فوق الأرض، وواس الحزين ولا تسئ إلى الأرملة".

كما تذكر الكاتب المفكر المصرى القديم الذى كتب "قصة الفلاح الفصيح" منذ اكثر من ٤٠٠٠ عام وهو يجاهد ليظفر بالتغلب على عقبة فساد الحكم، وانصت الكاتب مليا إلى بعض ما ذكره الفلاح الفصيح وهو يقول :

"يا ايها المدير العظيم للبيت الملكى. مولاى، إنك "رع" رب السماء مع حاشيتك، إن أقوات بنى الإنسان منك، لأنك كالفيضان، وانت إله النيل الذى يخلق المراعى الخضراء ويمد الأرض القاحلة، ضيق الخناق على اللصوص، واحم التعس، ولا تكونن كالسيل ضد الشاكى. احذر، فإن الأبدية تقترب"، وفضل أن تعمل حسب المثل القائل : "إن نفس الأنف إقامة العدل أو الحق (ماعت) ونفذ العقاب فيمن يستحق العقاب، وليس هناك شئ يعادل استقامتك. هل يخطئ الميزان ؟ وهل تميل عارضة الميزان إلى أحد الجانبين؟ ! لا تنطق كذبا لأنك عظيم (وأنت بذلك مسئول). ولا تكن خفيفا لأنك ذو وزن، ولا تتكلمن بهتانا لأنك والموازين ولا تحيدن لأنك الاستقامة. افهم أنك والموازين سيان، فإذا مالت فإنك تميل (كذبا)، ولسانك هو المؤشر العمودي للميزان، وقلبك هو المثقال، وشفتاك هما ذراعاه، وإن العدالة خالدة الذكرى، فهى تنزل مع من يقيمها فى القبر.. ولكن اسمه لا يمحى من الأرض بل يذكر على مر السنين بسبب العدل".

وتذكر الكاتب، كذلك، الحكيم المصرى القديم "أيبور"، وهو أحد الأنبياء الاجتماعيين الذين عاشوا فى ذلك العصر العظيم. وعاش الكاتب فى وصايا "ايبور" كما عاش فى تحذيراته وهو يرقب ظروف مجتمعه المعاصر وأحواله، وسمعه إذ يقول :

"ليتنى رفعت صوتى فى ذلك الوقت، حتى كنت أنقذ نفسى من الألم الذى أنا فيه الآن [٣]".

ولم يقف الكاتب عند هذا الحد ؛ ولكن ذكرى "إينانوس" المصرى جاءت إليه تتهادى. ذكرى أول اسقف مصرى كرسه "مرقس" فى عام ٦٤ ميلادية. واستمع لآيات الكتاب المقدس التى تتلألأ بمعانى حقوق الانسان وتنشر نورها فى أعماق قلوب المصريين المسيحيين وتعطر المناخ الاجتماعى الثقافى المصرى منذ ذلك الحين.

"العدل العدل تتبع لكى تحيا وتمتلك الأرض التى يعطيك الرب إلهك".

(تث ١٦ : ٢٠).

و"هكذا قال الرب. احفظوا الحق واجروا العدل. لأنه قريب مجئ خلاصى واستعلان برى".

(أ ش ٥٦ : ١).

و"بل يقضى بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسى الأرض ويضرب الأرض بقضيب فمه ويميت المنافق بنفخة شفتيه".

(أ ش ١١ : ٤).

و"أمام الرب لأنه جاء ليدين الأرض يدين المسكونة بالعدل والشعوب بالاستقامة".

(مز ٩٨ : ٩).

و"امرت قضاتكم فى ذلك الوقت قائلا. اسمعوا بين إخوتكم واقضوا بالحق بين الانسان وأخيه ونزيله. لا تنظروا إلى الوجوه فى القضاء. للصغير كالكبير تسمعون. لا تهابوا وجه إنسان لأن القضاء لله"

(تث ١ : ١٦ - ١٧).

وعانقت الايات القرآنية الكتاب المقدس الذى تعطر بها المناخ الاجتماعى الثقافى المصرى منذ أن اقيم أول مسجد بمصر الخالدة فى عام

٢١ هجرية. وشعر الكاتب بروعة هذه الايات، وعاش فى معانيها وعاشت معانيها فى كيانه واستمع لها وانصت.

(... واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع ببيننا وإليه المصير)

(٤٢ك الشورى : ١٥).

و(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون)

(٥م المائدة : ٨).

و(وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون)

(٧ك الأعراف : ١٨١)

و(إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظمكم به إن الله كان سميعا بصيرا)

(٤م النساء : ٥٨).

و(إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى اقرى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون)

(١٦ك النحل : ٩٠).

ثم عاش الكاتب فصول التاريخ القاتم منذ الهكسوس وبعد الهكسوس وتذكر ماساة تغيير اللغة التى تكررت فى حياة شعب مصرنا الخالدة.. مأساة محاولة قتل هذا الشعب الحى المجدد ثقافيا وحضاريا.. محاولة كان نصيبها الفشل مع ذلك ؛ لأنه اجتازها بنفس الخصائص التى أتاحت لشجرة حضارته أن تضرب جذورها فى أعماق التاريخ، وأن تواصل إعطاء الثمار فى تجدد دائم لا ينضب.

واختار الكاتب بعد ذلك أن يقابل الشاعر الايرلندى العظيم "ويلفرد بلنت" فى كتابه "التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر" الذى ألفه فى عام ١٨٩٥. وتذكر كيف حصل على نسخة من هذا الكتاب عندما كان يعيش فى مدينة لندن فى عام ١٩٤٨، وكيف انه دفع فيها كل ما كان يملكه من نقود فى ذلك الحين، وكيف جاء به إلى مصر الخالدة سرا فى عصر الملكية البغيض. كان كالمذهول. كان يقرأ فى هذا الكتاب فى كل ليلة قبل أن يذهب إلى الفراش. كان يقرأ ويقرأ حتى يجهده التعب، وحتى تشل تفكيره مشاعر الحزن والكمد والأسى.. ومشاعر السخط والغيظ والكراهية. كان قلبه يبكى، وكانت عيناه تدمعان، ولم يكن يتصور الحقائق التاريخية التى كتبها هذا الرجل الأجنبى.. عن بلاده.. وعن أهل بلاده. لم يكن يتصور وجودها وصحتها. فقد ملأه الشك فيما يقوله الرجل فى أول الأمر ؛ ولكن ما لبث أن تاكد من صحة ما يقول. فالحقائق تستمر حقائق حتى لو اخفيت إلى حين.. حتى لو تعمد إخفاءها أصحاب المصلحة فى هذا الإخفاء من الظالمين والمستبدين.

وبرزت أمام عينى الكاتب وفى ذهنه أسماء مصرية خالدة : رفاعة الطهطاوى، وعرابى، وعبد الله النديم، ومحمد عبيد ومحمد فريد، ومصطفى كامل، وأمين الرافعى، وقاسم أمين، وسيد درويش.

وعاش الكاتب بعض حقائق ثورة ١٩١٩، التى ولد فى أحضانها وترنم بشعاراتها وهو صبى فى السادسة من عمره، وسرعان ما لمعت فى رأسه ذكرى هتافاته مع الملايين التى لم يكن يعى معانيها ودلالاتها فى ذلك الحين، "النيل لا يتجزأ"، و"تموت وتحيا مصر"، و"فلتسقط لجنة ملنر". وتذكر من ابناء حى الخليفة بمدينة القاهرة : عم عبده عليوه النقاش، والشيخ عبد المنعم عويس طالب الأزهر، والأسطى محمد الذوق النجار من ابطال هذه الثورة الذين لا يذكر التاريخ عنهم أو عن امثالهم من الجنود المجهولين شيئا.

وتذكر يوم مقتل "السردار" الإنجليزى فى غضون شهر نوفمبر ١٩٢٤ تذكر قراءته للخبر فى الجرائد التى كان يشتريها جده لأبيه. كان يقرأ كل ليلة لجده، وبنات أعمامه، وابناؤهم الأطفال والصبيان والصبايا، يستمعون لما يقرأ عن هذا الحادث وعن محاكمة المتهمين حتى تمت

المحاكمة ونطق بالحكم. ولعل جده لأبيه فعل ذلك وتركه يقرأ هذا الخبر ويظل يتابع قراءته ليلة بعد ليلة حتى النهاية، لكي يصحح له نطق ما يخطئ من الفاظ أو لعل جده لأبيه فعل ذلك وتركه يقرأ هذا الخبر ويظل يتابع قراءته ليلة بعد ليلة حتى النهاية، لكي يعطيه بطريق غير مباشر درسا فى التربية الوطنية أو لعل جده فعل ذلك لتحقيق هذين الهدفين معا ولتحقيق اهداف أخرى كان يخفيها هذا الجد فى سريرته.

وتذكر "الشاويش" مهدى الذى كان يعمل سائقا فى مصلحة السجون واتخذ مسكن أسرته بجوار محل عمل أبيه. كان الشاويش مهدى يحمل المتهمين من السجن إلى المحكمة ومن المحكمة إلى السجن فى كل يوم طوال أيام المحاكمة. وكان يأتى عصر كل يوم بحكاية عن هؤلاء المتهمين ينشرها، فى زهو، بين الناس من ابناء الحى. وكان الجميع ينصتون إليه ويستمعون لكل ما يقوله وكأن على رءوسهم الطير. كانوا يتلقفون من فم الشاويش مهدى كل ما يخرج منه هؤلاء. وبدا للكاتب فى ذلك الحين ان هؤلاء الناس الصامتين لم يكدنوا كذلك، كانت عيونهم تشع الحزن والأسى وتجلجل بالكبرياء واصوات الاحتجاج، فقد كان هو على صغر سنه حزينا حزنا شديدا وكان الأسى يملأ صدره أو يكاد، وكان يشعر بلون معين من الكبرياء يتحول إلى احتجاج صارخ عندما كان يصلى ويدعو الله فى السجود او بعد أن يختم الصلاة. وما كان أشد حزن الكاتب فى ذلك الحين عندما جاء الشاويش مهدى فى غضون شهر يونيو ١٩٢٥ وجلس بين الحاضرين وهو يصف مصرع المتهمين السبعة الذين حكم عليهم بالاعدام شنقا. قال الشاويش مهدى كلاما كثيرا عن كل واحد منهم. ماذا قال قبل أن يشنق ؟ وكيف تم الشنق ؟ وماذا حدث بعد الشنق ؟ وكيف دفن ؟ والحق لقد كان الشاويش مهدى ذا ذاكرة حديدية فلم تفته شاردة ولا واردة إلا ذكرها، وقد حفر ما قال الشاويش مهدى آثارا فى حياة الكاتب لم تمحها رمال الزمان حتى وقتنا الراهن.

وتذكر كفاحه فى سبيل تحصيل العلم، فى القاهرة، وفى لندن، وفى بوستن حتى حصل على درجاته العلمية. كان يعنى هذا الكفاح عند الكاتب، فى حقيقة الأمر، الثورة على حياته التى واجهها عندما ولد وبعد أن شب عن

الطوق وصار يافعا فهى ثورة على اوضاع هذه الحياة الاجتماعية الثقافية والاقتصادية جميعا. وهى، فى الوقت نفسه، ثورة شخص واحد ضد طبقة بأسرها بمفاهيمها وقيمها وعاداتها وتقاليدها واساليب حياتها ومستواها الاقتصادى جميعا كان الكاتب وحده يحارب فى جبهات عديدة. وبرز امام عينيه ماضى هذا الكفاح بكل صوره، الماضى الحلو والماضى المر، والماضى الذى كان املا واصبح ذكرى والماضى الذى كان يواجه الدنيا وحيدا ولا يملك إلا العزيمة والصلابة، وتذكر زملاءه والكتب وتحضير الطعام، كما تذكر المرض والصحة والاحساس بالضياع والانتصار. وجاءت صور اساتذته الذين أحبوه واحبهم تعيش امام عينيه ناصعة بيضاء واحدة بعد الأخرى : طه يوسف شيخ الكتاب، وحسن على ناظر مدرسة إمام عباس الابتدائية، وامبابى الكفافى أستاذ الرياضة بمدرسة الخديوية الثانوية، وإلزا ثابت استاذة الخدمة الاجتماعية، وعبد العزيز القوصى أستاذ علم النفس، ويعقوب فام استاذ التربية فى مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة، وجون لويس أستاذ الفلسفة فى كلية مورلى بلندن، وألبرت موريس استاذ علم الإجرام فى جامعة بوستن. وتاكد للكاتب أنه كان قد كافح هذا الكفاح المرير المستمر، فإن هؤلاء الأساتذة وغيرهم من امثال محمود خطاب، وعلى حلوة، وعبد الله العفيفى، والمازنى، وطه حسين، وعباس العقاد، وتوفيق الحكيم، وفكرى أباظة، ومصطفى صادق الرافعى، وسلامة موسى، ومحمد صلاح الدين، وسيد قاسم، قد اسهموا بدورهم فى تحقيق الانتصار على عقبات هذا الكفاح.

ثم تذكر كفاح زميلاته وزملائه وكفاحه فى محيط ابناء مصر المستضعفين وما حفروا، جميعا، من آثار فى حياته.. تذكر من الأولين عطيات دانش وصفية شحاته، وفتحية عبد الجواد، وعطيات قناوى، وزكريا عبد العزيز، وحسين النونى، وميشيل خليل، ومحمد نور الدين مبارك، وابراهيم المنوفى، وعبد المنعم ثابت، محمد السويسى، وعبد العزيز فتح الباب، واميل ديمترى، ومحمد شفشق، وعبده خليل عبيد.. وتذكر من الأخيرين الأعزاء احمد شحاتة، ورجب حافظ، وسعد الحلوانى، وعطية ابو دقة، ومحمد الحو وسيد ابو شادى، وأحمد القهوجى، وعلى سلامة، وسيد سلامة، ومحمد عبد السميع، وعبد الكريم، ومحمد سالم الزير، وسعيد

صادق، وعبد الرحيم الصغير، والاكس.. وتذكر طالباته وطلابه الأعزاء في معاهد الخدمة الاجتماعية وكليات الجامعة وتذكر زميلاته وزملائه الأعزاء بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، وتذكر بنتيه وأبناءه الثلاثة، واحفاده الاعزاء، وما اعطوه اياه وما بذله ولا يزال يبذله، من اجلهم وبهم من جهد ووقت ومال.

وتوج الكاتب كل ذلك بأن عاش مع الملايين المصريين المعاصرين الذين يراهم كل يوم ينتجون فى الحقل، وفى المصنع، وفى المدرسة، وفى الجامعة وفى المعمل.. من النساء والرجال والشباب. هؤلاء الملايين الذين يتخذون من السعى وراء لقمة العيش وسيلة للعبادة، والذين يعطون ويبذلون، كما فعل آباؤهم واجدادهم على مر الزمان، أكثر مما يأخذون، وتراهم مع ذلك راضين قانعين صابرين. ثم أحنى راسه، المثقل بالهم، لهم تحية وإجلالا.

ولمح الكاتب اطفال مصرنا الخالدة صورا ذهنية فى دماغه، وتذكر طفولته.. تذكر اباه المواطن المكافح الطيب، وتذكره عندما كان يتحدث مع أصدقائه كانوا يقولون اشياء كثيرة. كانوا يتفقون أحيانا، وكانوا يختلفون أحيانا أخرى، وكانت المناقشة تحتد بينهم، وكان موضوع هذه المناقشة كما يذكر الآن سياسيا فى الغالب. كانوا من أعضاء الحزب الوطنى، حزب مصطفى كامل، وحزب محمد فريد، وكانوا إذا حاولوا أن يتهمكوا على جرائد الحزب المعارض الكبير (حزب الوفد) فى ذلك الحين، كانوا يقولون عن جريدة البلاغ، مثلا، جريدة "البلاء" وعن جريدة كوكب الشرق جريدة "كوكب الشر". وكانوا يقولون اشياء أخرى كثيرة. وكان الكاتب، فى واقع الأمر، لا يفهم إلا النادر مما كانوا يقولون. فقد كان فى ذلك الحين فى السادسة أو في السابعة من عمره، وكان استيعابه للمفاهيم ضئيلا، وكانت قدرته على التجريد ضعيفة ؛ ومع ذلك فهو يتذكر الآن كل ما اختزنته ذاكرته من اقوالهم عن مصرنا الخالدة، كانت اقولا تحمل فى طياتها - الحب الكبير والإعزاز الكبير والتعظيم الكبير.

وتذكر أمه التى أرضعته الحب الانسانى الخالص بما فيه الكفاية وزيادة. استطاعت هذه القديسة أن تفعل ذلك على الرغم من انها كانت لا

تعرف القراءة والكتابة ؛ وعلى الرغم من أنها كانت انثى مصرية مستضعفة تعيش فى كنف أسرة أبوية يتحكم فيها الذكور مهما كانت أدوارهم ؛ وعلى الرغم من أن دنياها كانت دنيا البيت وليست خارج البيت ؛ وعلى الرغم من أنها كانت تعيش فى وجل وخوف من شبح "الضرة"، وعلى الرغم من أنها كانت تصبر على المكاره وتصبر على ألوان الضيم، وعلى الرغم من أن أقصى ما كانت تطمح فيه فى هذه الدنيا أن يرضى زوجها عنها، وأن يرضى عنها أعضاء اسرته الممتدة، التى كانت تعيش فى كنفها، من الذكور وكبار السن من النساء، ولن ينسى الكاتب ابدا ما كانت تحدثه عن الزعيم الخالد "مصطفى كامل". كان الزعيم الخالد قد مات وهو فى ريعان الشباب، وقد بكته مصرنا الخالدة وحزنت عليه حزنا مبرحا، ويبدو أن وفاته فى سن مبكرة كانت صدمة "شخصية" لبنات مصرنا الخالدة فى ذلك الحين. فقد قالت أمه ضمن ما قالته له، ذات مرة، وكأنها ارادت أن تطلعه على سر دفين "يا ابنى اللوا (تقصد مصطفى كامل) سموه" الانجليز سموه قالتها وعيناها تمتلأن بالدموع ويشع منهما الحزن والأسى، وإذ يذكر الكاتب هذه العبارات وقد قالتها أمه منذ اكثر من خمسين عاما، فإن صور دموعها وحزنها واساها مازلت واضحة فى ذهنه، وكأن كل ذلك قد حدث بالأمس القريب.

ثم تذكر احباءه رفاق الصبا والشباب، وكلهم من المواطنين الصالحين، محمد ابراهيم الغزاوى، وعثمان عبد الهادى، ومحمد محمد بدر، وعبد العال شعبان، وعلى شعبان، ومحمد محمد حسن، وعلى حسنين، ومحمد شوكت، ومحمد الذوق، وزين الدين نور الدين، ومحمد كركر، وزكى عويس.

ووقف الكاتب خاشعا أمام الذين ماتوا، وامام الأموات الأحياء الذين صاروا هناك. متذكرا إياهم واحدا واحدا، ومتضرعا إلى كل واحد منهم ومبتهلا وكأنه كان فى صلاة !

وتذكر الكاتب كل ما سبق وكل من سبق واكثر مما سبق وممن سبق. وعاش الذكريات، كلها، بأعصابه اياما وليالى. وعرف فى ضوء ذلك الاجابة عن تساؤله المقلق لماذا يحب مصرنا الخالدة ؟ عرف أنه ظل يعانق روح مصرنا الخالدة منذ أن خرج من بطن أمه، منذ أن استنشق أول نفس

من عبير الهواء الذى كان يملأ الغرفة التى ولد فيها فى إحدى حوارى القاهرة حتى الآن، وتأكد له أن سيظل يعانق هذه الروح الخالدة المتجددة على مر الأيام والليالى حتى يموت. سيعيش بها ولها ما دام حيا. وسيكافح من أجلها فى حدود قدراته ما استطاع إلى ذلك سبيلا. فهى عنده روح الحياة نفسها وهى بفضل ذلك حياة روحه، وأخذ يهتف من أعماق الأعماق، كما فعل الشهداء الأبرار من قبل، وكما فعل الزعماء المخلصون الأجلاء.. "عشت يا مصرنا الخالدة ما عاش الدهر حرة كريمة تصنعين الحياة والحضارات كما صنعت الحياة والحضارات من قبل"، "لك يا مصرنا الخالدة حبى وفؤادى.. فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر". ثم اتجه نحو الحاضر، واستخلص بعض النتائج منها أن مصرنا الخالدة مازالت مجهولة عند ابنائها وعند بناتها وإن التعرف، موضوعيا، على ملامحها اصبح مسألة فى غاية الأهمية. إن روح مصرنا الخالدة فى عمقها وفى أصالتها كما بدا للكاتب، قد نكبت بالإهمال والنسيان، واندثرت أو كادت تندثر تحت رمال الزمان، وقد آن الأوان لنعرف هذه الروح الخالدة الصامدة معرفة موضوعية.

وتساءل الكاتب وهو يعيش تحت وطأة ما حدث.. كل ما حدث، قائلا لنفسه : كيف السبيل إلى تغيير ما حدث.. كل ما حدث، إذا لم نعرف موضوعيا لمن حدث ما حدث.. كل ما حدث ؟ إن معرفة مصرنا الخالدة معرفة موضوعية لابد أن تسير جنبا إلى جنب مع اية محاولة لهذا التغيير إن لم تسبقها، ولن تكون خيرا من الفن الصادق والمعرفة المنتظمة الوسيلة إلى هذه المعرفة الموضوعية.

ولم يلتمس الكاتب عذرا لنفسه، على الرغم من أنه بدأ متواضعا منذ عام ١٩٥٦ يبحث عن ملامح مصرنا الخالدة فى واقعنا الحى، وعلى الرغم من أنه نشر بعض الحقائق التى وصل إليها، وبدا للكاتب أن ماقاله فى مؤلفاته السابقة على النكبة، وحده لايكفى، وأن العبرة.. كل العبرة.. هى أن نقول ما هو حق، وان نستعد لقبول ما نقوله حقا، وأن نمارس عمليا فى ضوء قيمنا ومبادئنا ومثلنا العليا، ما تقبلناه من القول الحق. أى أن هذا القول الحق مهما تكرر لا يكفى، والاستعداد لقبول ما يقال حقا لا يأتى اعتباطا،

فإن ما يقال حقا فى حاجة إلى أن يدرس ويفهم وأن يستوعب وأن يتمثل وان يكون مطلوبا فعلا أو محتاجا إليه، والاستعداد لقبول ما يقال حقا وحده لا يكفى، ولكن يجب أن تتاح لما يقال حقا فرص وجود الامكانيات، المادية والمعنوية، كلها، التى تيسر الممارسة العملية الفعالة حتى تثرى خبراتنا وتجاربنا.. فى محيط القادة.. وفى محيط أعضاء المجتمع المصرى المعاصر.. على اختلاف فئاتهم العريضة وتباينها.

ولم يلتمس الكاتب عذرا لأحد غيره على الرغم من الروائع الشامخة التى برزت فى مجتمع مصرنا الخالدة فى الفترة الأخيرة، فالحاجة ماسة دائما وباستمرار إلى المزيد من الفن الصادق، وإلى المزيد من المعرفة المنتظمة، وإلى المزيد من الاخلاص.

والكاتب لا يدعى أنه فنان، ولكنه فى ضوء خبرته يعتبر أحد طلاب العلم، أى أحد طلاب البحث العلمى الاجتماعى فى هذه الفترة من حياة مصرنا الخالدة، وماعليه إلا أن يبدأ.. او أن يستمر فى طريق ما بدأ.. ولكن كيف يفعل ذلك فى الوقت الحاضر ؟ لقد اصبح إنسانا مهزوما، وحتى إذا تغير إلى إنسان غير مهزوم فهو مجرد إنسان.. خبرته محدودة، وعمره محدود، والعمل الذى سوف يستمر فى القيام به شامخ وشاهق وجبار. فهل يستمر على الرغم من العوائق والعقبات ؟ وإذا قدر له أن يستمر فهل يستطيع أن يعمل عملا جادا ؟ ما أصعب أن يؤدى الانسان منا واجبه، وهو يواجه النكبة أية نكبة بالقيام بعمل جاد، وما ايسر أن يقول الواحد منا كلاما براقا ثم يصمت، وما أجمل الذى يقول لكى يعمل ويعمل لكى يقول. إن بريق الكلام الزائف يطفئه بالضرورة عرق العاملين الجادين، فالعمل كما يعلم القارئ هو شرط الوجود الانسانى.

وكان الكاتب يقول لنفسه : "ليتنى كنت أعمل فى مجال تربية الأطفال" لتنخفض نسبة الأمية فى مصرنا الخالدة. أو "ليتنى كنت فلاحا أصلح ارضا بورا " أو "كنت أعمل مع العاملين فى حقل بترول" ليتوافر الدواء لمكافحة البلهارسيا فى محيط أبناء مصرنا الخالدة.. ولكن ما جدوى ذلك الآن والكاتب هو من هو ؟

ومرت الأيام ثقيلة.. وبقيت مع ذلك آثار النكبة فى المناخ الاجتماعى الثقافى الذى يحيط بالكاتب تكون خلفية "بانوراما" الحوادث التاريخية التى تلتها. والمصرى، والكاتب مصرى فى ضوء تراثه الملئ بالخبرات الانسانية الحلوة والمرة يحزن من آثار النكبات حزنا عميقا وقد يغضب كذلك فى بعض الأحيان، وعلى الرغم من حزنه العميق.. الرهيب فى مناسبة النكبات تراه يذكر لنفسه كما يذكر لغيره، فى أصالة، أن هذه المناسبة مجرد "شدة وتزول".

واذا اعتبرت نكبة ٥ يونيو ١٩٦٧ احدى مناسبات الموت الجماعية عند المصريين، فإن مناسبة الموت عند المصرى، والكاتب المصرى، هى أيضا، مناسبة الحزن العميق، وعلى الرغم من حزنه العميق.. الرهيب فى مناسبة الموت تراه يذكر لنفسه كما يذكر لغيره، فى اصالة، "الحى أفضل من الميت". فالمصرى، والكاتب مصرى على وجه العموم، إنسان يعشق الحياة ويحبها ولا يرفضها، ويحب الدعابة ويتقن صناعتها وتراه إذا بالغ فى المداعبة يستعمل معنى الموت. تراه يفعل ذلك بخاصة فى مجال الحب وفى مجال التهام الطعام اللذيذ. فهو إذ بالغ فى حب شخص يقول له مداعبا أو مجاملا : "أحبك موت" وإذا بالغ فى وصف صنف من أصناف الطعام يقول لمن قام بصنعه مداعبا أو مجاملا ": ده لذيذ موت".

وجاءت الفرصة للكاتب عندما ذكر لنفسه وحاول أن يذكر لغيره عن النكبة، فى اصالة، "شدة وتزول"، وعندما عاش الكاتب أحزان أهالى الذين ماتوا، وعاش أحزان جيرانهم واصدقائهم ومعارفهم جميعا، ذكر الكاتب لنفسه وحاول ان يذكر لغيره و، فى أصالة، "الحى أفضل من الميت"، واذا ما قاله الكاتب يدوى ويهز كيانه هزا.. فأفاق لنفسه. وعادت إليه رباطة جأشه، وعرف انه يجب أن يفعل شيئا وإلا أصابته لوثة وأصبح فى عداد المجانين، وعرف أن الآن وليس بعد الآن يجب أن يستمر يعمل فيما خلق له. كما عرف كيف يستمر فى هذا العمل، ونشر كتابه "حديث عن الثقافة : بعض الحقائق الثقافية المصرية المعاصرة "[٤]. بقصد التعرف على بعض ما هو كائن موضوعيا لكى نفهمه ومن ثم نستطيع أن نواجهه إلى ما نصبو إلى

تحقيقه من آمال واهداف، داخلية كانت أو خارجية، على المستوى المصرى أو العربى او الإنسانى.

٢- مواجهة المجهول :

وقد ذكر الكاتب، مخلصا، أن بعض موضوعات الكتاب المشار إليه قد درس واقعيا، وان هذا البعض فى مسيس الحاجة إلى استكمال دراسته فى الواقع الحى فى مجتمعنا المصرى المعاصر فى محيط مجالاته الزمانية والمكانية والبشرية جميعا. وانه من الناحية الأخرى نجد أن بعض الموضوعات التى تناولها نفس الكتاب، قد عرض على المستوى النظرى فحسب، ومن ثم فإن هذا البعض فى مسيس الحاجة إلى الدراسة الواقعية الأكثر عمقا وشمولا. فهو يعتبر رؤوسا لموضوعات قد تجتذب اهتمام بعض الباحثين العلميين المصريين على اختلاف تخصصاتهم.

وقد تضمن كتاب "حديث عن الثقافة : بعض الحقائق الثقافية المصرية المعاصرة"، ضمن ما تضمن، موضوع مواجهة المجهول. وهو أول موضوع اهتم الكاتب بدراسته بعد نكبة يونيو ١٩٦٧ بنحو ثلاثة شهور. اى بعد أن صهرته حوادث هذه النكبة وما بعدها، وبعد أن تبدلت نظرته نحو الدنيا غير النظرة، ثم استقر لكى يخطط لنفسه عملا مستمرا يؤديه فى مستقبل حياته، يسهم فيه مع غيره فى رفع بعض الركام أو جزء من رمال الزمان عن روح مصرنا الخالدة الصامدة.

اهتم الكاتب بموضوع "مواجهة المجهول" عند المصريين المعاصرين وهو يعلم أن بنى الانسان تراهم يواجهون مواقف الحياة بأنماطها وانواعها.. يواجهون، فى أغلب الأحيان، أنماطا متباينة من المجهول، ومواجهة المجهول، كما يعلم القارئ، قد تكون شيئا رهيبا أو قد تكون ؛ ومع ذلك فالناس، فى معظم الأحيان، والكاتب منهم، والقارئ ايضا منهم، يعيشون على الافتراضات. فالكاتب مثلا، يفترض، أن القلم الذى فى يده سيكتب، وأن الكرسى الذى يجلس عليه سيحمله، وان الشمس ستشرق فى الصباح وستغرب عند المغيب، وانه فى أول كل شهر سيحصل على مرتبه، وسيدفع

منه إيجار شقته وثمن بضائع التموين.. إلخ. كلنا نواجه المجهول على الدوام، ومعظمنا يعيش على الافتراضات. وبعضنا، لحسن الحظ، بسبب التعود على هذه المواجهة، لا يشعر بذلك، وبعضنا الخ يحاول، عن وعى، أن يشعر بذلك أو ألا يشعر بذلك.

ويبدو المجهول شيئا رهيبا عند الكثيرين من أعضاء مجتمعنا المصرى المعاصر، ويكفى لنؤكد ذلك أن نذكر دعاء "ربنا يكفينا شر المخبى". وهو دعاء يتردد صداه فى المجتمع فى معظم الأحيان. و"المخبى" هو المجهول. وهو ينم فى ضوء هذا الدعاء، على مواقف عديدة متوقعة غير مستحبة او غير مطلوبة، واذا كان الكثير من اعضاء مجتمعنا المصرى المعاصر يحاولون ان يتجنبوا شر المجهول بالدعاء أحيانا، وبالرقى والتعاويذ او مايشبه الرقى والتعاويذ أحيانا اخرى - فإن ذلك يبين بجلاء المستوى الثقافى الذى وصل إليه هؤلاء الأعضاء، وهو مستوى ثقافى لا يرضاه مصرى رشيد فى ضوء حقائق تاريخ مصرنا الخالدة القديم قدم الدهر المستمر باستمرار الحياة، ولا يرضاه مصرى رشيد يعيش حقائق عصره.. عصر الربع الأخير من القرن العشرين.

٣- أسلوب جديد لمواجهة المجهول :

وفى خلال البحث عن اساليب مواجهة المجهول فى مجتمعنا، لاحظ الكاتب ما يكتبه اصحاب السيارات واللوريات والعربات، وما يكتبه سائقوها من كلمات وعبارات على هياكل هذه السيارات واللوريات والعربات، ووجد أن بعض هذه الكلمات والعبارات تحمل معانى تعكس ما يرجوه كاتبوها من الوقاية من المواقف المتوقعة غير المستحبة او غير المطلوبة. فالملاحظ أن هؤلاء الناس، كما يعلم القارئ، يخرجون من بيوتهم فى كل يوم سعيا وراء الرزق.. أو كما يقول بعضهم : "على فيض الكريم". والرزق عندهم امر ليس فقط مجهولا بل قد يحسدهم عليه الاخرون. وفى سبيل الحصول عليه يرتبط الرزق بأمور اخرى كلها عنده مجهولة ؛ ولكنها فى ضوء الخبرات اليومية، أمور متوقعة ومن هذه الأمور ما يكون مستحبا ومرغوبا فيه مثل وفرة الرزق والعودة إلى البيوت سالمين، ومن هذه الأمور أيضا، فى ضوء

الخبرات اليومية، ما يكون غير مستحب أو غير مطلوب مثل حسد الحاسدين، وضآلة الرزق، وعنت الزبائن، وتسجيل المسئولين عن تنظيم المرور فى الشوارع المخالفات ضدهم، فضلا عن الحوادث على اختلاف خطرها وخطورتها التى قد يواجهونها فى أثناء عملهم الكادح المستمر فى أثناء الليل او فى اثناء النهار.

وفى حدس الكاتب ان الكتابة على هياكل السيارات واللوريات والعربات، وبخاصة ما تضمن منها ما يكتب من كلمات وعبارات ترجو الوقاية وتلح فى تحقيق السلامة، هى اسلوب من اساليب مواجهة المجهول فى مجتمعنا. وتاكد من ذلك عندما تحدث إلى الكثيرين من سائقى هذه المركبات واصحابها فيما يكتبون، وعندما رأى أن معظم هؤلاء يعلق فى داخل المركبة بالاضافة إلى ما يكتبه على هيكلها من كلمات وعبارات أو بدونها، أشياء معينة مثل "مصحف القرآن الكريم من الحجم الصغير" و"خمسة وخميسة" و"مسبحة" و"حجاب" و"عقد من الودع" و"عقد من سنابل القمح" و"قطعة من الشبة". وفى بعض الأحيان وجد الكاتب ضمن هذه الأشياء دمية من الدمى على شكل "سمكة" أو "قرن شطة" أو "حدوة حصان".. إلخ. وكلها، كما يلاحظ القارئ، اشياء تحمل معانى التيمن بها ويروج استعمالها، طلبا للرزق أو درءا للحسد بخاصة، أو وقاية من شر المجهول بعامة، فى محيط العديد من أعضاء مجتمعنا المصرى المعاصر.

٤- مفاجأة الكاتب بوجود ظاهرة اجتماعية فريدة فى مجتمعنا :

وقد حفز الكاتب اكتشاف هذا الأسلوب الجديد من أساليب مواجهة المجهول فى مجتمعنا المصرى المعاصر إلى الدأب سعيا، فى أوقات فراغه، وراء كل سيارة (ملاكى)، ووراء كل سيارة (تاكسى)، ووراء كل لورى، ووراء كل عربة (كارو) أو عربة تبيع المأكولات او المشروبات فى مدينة القاهرة وفى كل مدينة يذهب إليها من مدن جمهورية مصر العربية مثل أسوان، والأقصر، وبنى سويف، والجيزة وبنها، وطنطا، وكفر الشيخ، وبلطيم، وجمصة، ورأس البر، والأسكندرية.. غيرها - وذلك لكى يجمع ما كتب على هياكل السيارات واللوريات والعربات من كلمات وعبارات. كان

يسير فى الشوارع، وفى كل ركن من اركان المدينة، ليلا او نهارا، شتاء او صيفا. كان يذهب إلى اماكن تجمعات هذه المركبات فى "الموالد"، وفى "الأعياد"، وفى "الحوارى" أو فى "المواقف" وعلى باب السينما والمسارح وغيرها. ينقل من على الهياكل كل ما هو مكتوب من كلمات وعبارات. واستمر يفعل ذلك حتى آخر أغسطس ١٩٧٠. أى لمدة ثلاث سنوات كاملة(٥). وكان الكاتب يستعذب العناء والتعب ومرور الوقت ونظرات الناس وابتساماتهم وهو يجمع هذه البيانات. لم تسوءه النظرات الهازئة وأسعدته الابتسامات الساخرة وأفعمت لبه التعليقات أو الهمهمات اللاذعة. بل كان ينتهز الفرصة للحديث مع الناس بعامة، ومع اصحاب المركبات أو سائقيها على اختلاف انواعها بخاصة ! ليعرف ما وراء كل ما هو مكتوب عندهم، أو ليستفسر عن معنى كلمة او عبارة مكتوبة قد غمض عليه معناها لتتضح امامه الرؤية ولكى يكون على بصيرة من امره فى كل خطوة يخطوها.

وفى خلال عملية الجمع هذه لاحظ الكاتب تنوع الكلمات والعبارات المكتوبة وتكرارها وتباين أشكالها ومعانيها. ولا حظ أن المسألة لا تقف عند حد إثبات أو عدم إثبات وجود اسلوب جديد لمواجهة المجهول فى مجتمعنا المصرى المعاصر ؛ بل تتعدى ذلك إلى آفاق أوسع. آفاق تمس المناخ الاجتماعى الثقافى لهذا المجتمع، وتعكس الكثير من العناصر الثقافية غير المادية التى تملأ هذا المناخ وتعيش فى كيان أعضاء هذا المجتمع وفى نفوسهم. وان المركبات التى تكتب عليها الكلمات والعبارات فى حقيقة الأمر تحمل هذه العناصر الثقافية غير المادية وتعلن عنها حيثما تسير. وتصور الكاتب أن المجتمع المصرى المعاصر لم يكتف بالدعوة إلى تثبيت هذه العناصر فى نفوس اعضائه عن طريق أجهزة التنشئة الاجتماعية التقليدية التى أوجدها، مثل الأسرة والمدرسة والمنظمات الدينية والنادى الاجتماعى والثقافى والمنظمة السياسية وأجهزة الإعلام كالصحيفة والمجلة والكتاب والإذاعة والتليفزيون - بل إن هذا المجتمع على الرغم من ارتفاع نسبة الأمية فى محيط أعضائه قد أضاف جهازا إعلاميا جديدا يدعو إلى تثبيت هذه العناصر فى نفوس أعضائه. وتخيل للكاتب أنه أمام جهاز شعبى من أجهزة الاعلام فى مجتمعنا المصرى يتحرك على امتداد مدن هذا المجتمع وقراه، وأنه امام ظاهرة اجتماعية فريدة فى نوعها.

وقد تأكد تصور الكاتب ما تخيل له عندما جمع ألف كلمة وعبارة ومكتوبة على هياكل السيارات واللوريات والعربات. بعضها مكرر، معانى بعضها متشابهة، واشكالها متعددة. ولكنها، كلها، تحمل فى طياتها العديد من العناصر الثقافية غير المادية التى تعيش فى نفوس الكثير من أعضاء مجتمعنا ويعيشون بها. فهى تعبر عن أناتهم وآمالهم وافراحهم واتراحهم واستسلامهم ودعاباتهم وعن بعض القيم التى يقدسونها، وتعكس الكثير من أنماط تفكيرهم.

٥- موقف الكاتب من هذه الظاهرة قبل دراستها :

ويعترف الكاتب للقارئ أنه قبل أن يعقد العزم على جمع ما كتب على هياكل السيارات واللوريات والعربات من كلمات وعبارات، كان يقرأ ماهو مكتوب. وقد بدا له، فى أول الأمر، وكأنه لا يأبه كثيرا أو قليلا بما قد تؤثر معانى هذه الكلمات والعبارات فى نفس قارئها أو بما قد تتركه فى كيانه من آثار ؛ وعلى الرغم مما بدا له فى أول الأمر، فقد كان الكاتب يبتسم لبعض هذه المعانى صادقا أحيانا، وكان يبتسم لبعضها الآخر ساخرا أحيانا أخرى. وكان، أيضا، يرثى للكاتبين والقارئين جميعا أحيانا، وكان يلتمس لهم الأعذار أحيانا أخرى. وكان، كذلك، ينفر من بعض المعانى أحيانا، وكان يزداد قربا من بعضها وينفر من الآخر أحيانا أخرى. وفى كل هذه الحالات لم يكن يشعر الكاتب، وهو ابن إحدى حوارى مدينة القاهرة، بشئ من الاغتراب. وايقن انه كواحد من الملايين المصريين الذين يعيشون فى المجتمع المصرى المعاصر، لا يمكن ان يشعر بشئ من الاغتراب ؛ ومع ذلك فإنه لم يكن راضيا كل الرضا، بل كان فى الكثير من الأحيان نافرا غاضبا.

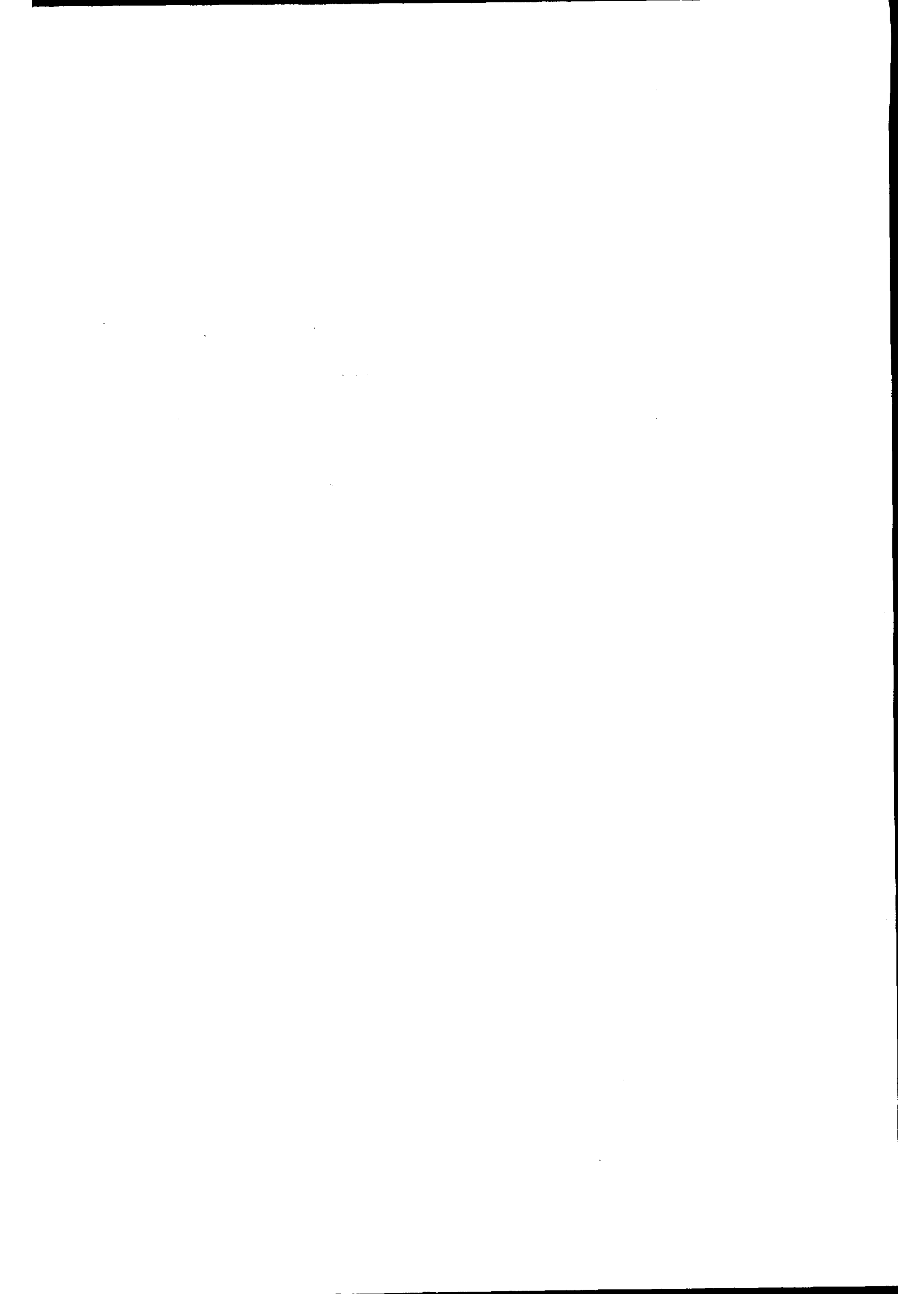
٦- ضرورة الاهتمام بدراسة هذه الظاهرة :

وفى ضوء ما سبق يلاحظ ان الكتابة على هياكل معظم السيارات واللوريات والعربات، فى مجتمعنا المصرى المعاصر، امر يلاحظه كل

مصرى ؛ بل امر يلاحظه اى شخص آخر فى هذا المجتمع يستطيع ان يقرأ اللغة العربية، أو حتى إذا لم يكن يستطيع ان يفعل ذلك. إن هذه الظاهرة موجودة فى مجتمعنا ومستمرة فيه ومعترف بها وتبدو عند أعضائه مقبولة. وهى واضحة لكل ذى عينين فى هذا المجتمع. وحتى إذا وجد ما يشابه هذه الظاهرة فى المجتمعات الأخرى، فإن أسلوب الكتابة على هياكل المركبات بأنواعها فى هذه المجتمعات يختلف عن الأسلوب المصرى، ويختلف مضمون هذه الكتابة عن المضمون الذى يوجد فى الظاهرة المصرية. فما نجده مكتوبا فى المركبات بانواعها فى المجتمعات الأخرى يكون عادة فى ملصقات مصورة أحيانا وغير مصورة احيانا أخرى. ومضمون ما يكتب يكون عادة إعلانات تجارية او سياحية. وإن عكس مضمون هذه الظاهرة فى المجتمعات الأخرى شيئا من عناصر المناخ الاجتماعى الثقافى فيها ؛ فإنما يعكس الشئ الضئيل المحدود.

وإذا اعتبرنا هذه الظاهرة.. ظاهرة الكتابة على هياكل هذه المركبات، فى ضوء مضمونها الثقافى المصرى، إحدى وسائل التعبير عند الصامتين من أعضاء مجتمعنا المعاصر. فالملاحظ أن الصامتين فى المجتمع.. أى مجتمع.. وإن بدوا كذلك لا يبقون صامتين على الدوام. إن صوتهم، بأسلوب أو بآخر، يرتفع من حين إلى حين إلى الافاق. فهو يجلجل ويرتفع إلى الآفاق عند الصلاة، وعند الدعاء، وفى حلقات الذكر، وفى رحاب المساجد والمعابد او فى خارجها. وهو يجلجل ويرتفع إلى الافاق فى ملعب الكرة، وفى الملاهى والبارات، وفى أثناء الاستماع للغناء، وفى المباراة فى النكت ذات المضمون السياسى أو ذات المضمون الاجتماعى، وامام الموت، وعن طريق إرسال الرسائل إلى الأموات.. وحتى عن طريق الكتابة أو الرسم فى داخل دورات المياة !

ومن حق هذه الظاهرة.. ظاهرة الكتابة على هياكل معظم السيارات واللوريات والعربات، كاحدى وسائل التعبير الشعبية أو كجهاز إعلامى ثقافى شعبى، فى مجتمعنا المعاصر، أن تدرس دراسة علمية بقصد التعرف عليها وعلى آثارها وتأثيرها على من يصرون على الكتابة على هياكل هذه المركبات وعلى من يقرأون ما يكتب على هذه الهياكل، من أعضاء هذا



هوامش الفصل الأول

(١) سيد عويس : الخلود فى التراث الثقافى المصرى : دار المعارف بمصر، ١٩٦٦، صفحتا ١١ - ١٢

(٢) المرجع السابق : صفحتا ١٢ - ١٣

(٣) جميس هنرى برستد : "فجر الضمير" ترجمة سليم حسن، القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٥٦، صفحات هـ و١٦٧ و١٦٩ و١٩٧ و٢٠١ و٢٠٥ و٢٠٧ و٢١١.

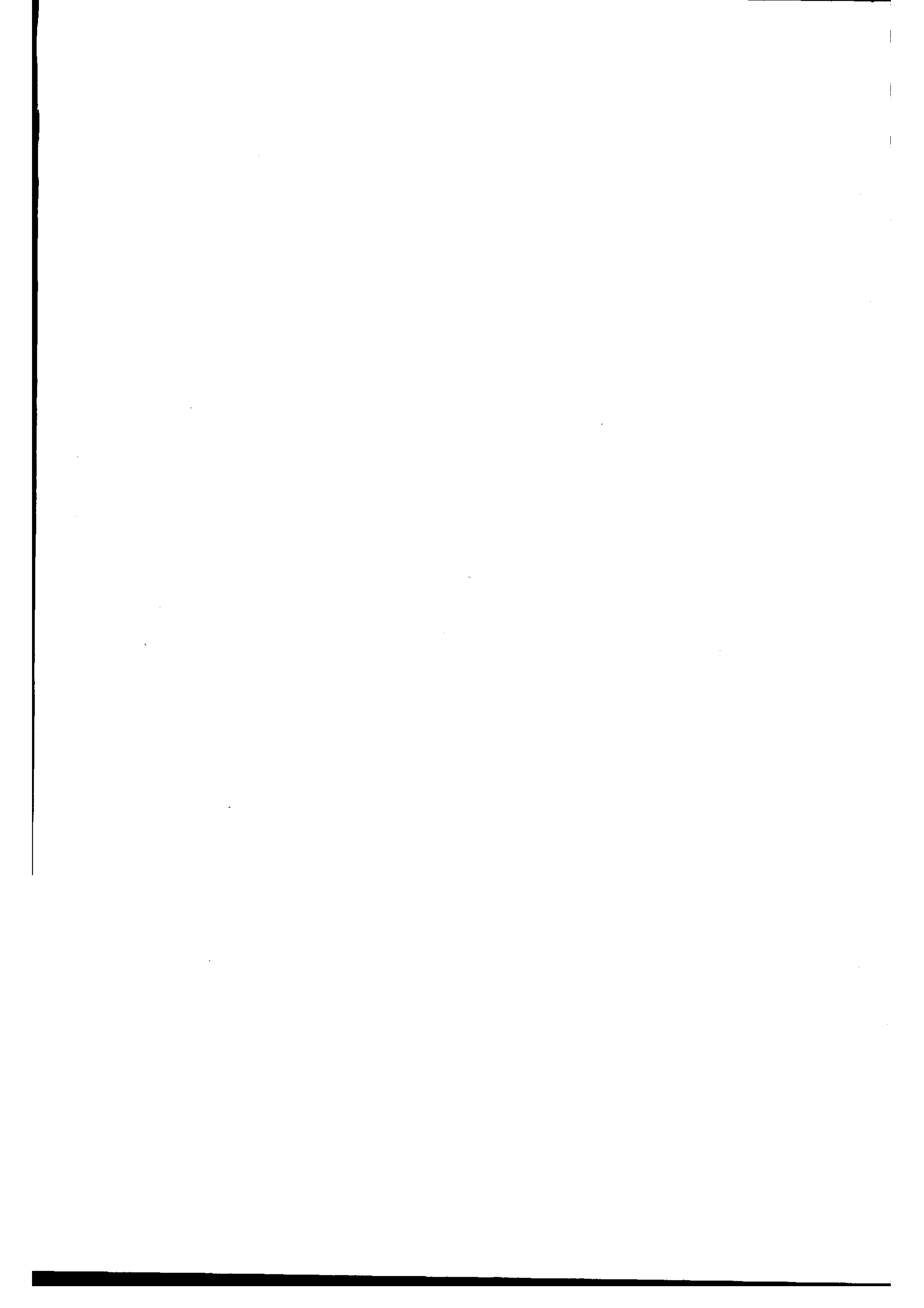
(٤) سيد عويس : حديث عن الثقافة : بعض الحقائق الثقافية المصرية المعاصرة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠.

(٥) بدأت فترة جمع البيانات من اول سبتمبر ١٩٦٧ وانتهت فى آخر اغسطس ١٩٧٠، وقد سافر الكاتب فى خلال هذه الفترة إلى الخارج لمدة تبلغ نحو ستة شهور إلى الكويت، ثم إنجلترا ثم الكويت ثم الاتحاد السوفيتى، أى أن فترة جمع البيانات استغرقت حوالى سنتين ونصف فقط.

(٦) يبدو إصرار المسئولين عن الكتابة على هياكل السيارات واللوريات والعربات، ومعظمهم من السائقين، إذا علمنا أنهم يكتبون ما يكتبون بأنفسهم أو يدفعون أجر الخطاط الذى يكتب ما يرغبون فى كتابته من مالهم الخاص. الملاحظ أنهم يصرون على الكتابة على الرغم من عدم موافقة الدولة فى شخص المسئولين عن إدارات المرور فى محافظة القاهرة، مثلا، كلما حان موعد تجديد الرخصة.

لفصل الثانى

خطة الدراسة ومنهجها



أهمية موضوع الدراسة – مجالات الدراسة –
خطة تحليل المضمون – مفاهيم الدراسة –
طبيعة الدراسة ونوعها – الصعوبات.

١- أهمية موضوع الدراسة :

إن موضوع الدراسة الحالية موضوع لم يهتم بدراسته أحد من قبل. وفى ضوء خبرات الكاتب واهتماماته يتجاسر على القيام بدراسة هذا الموضوع ولعل أهم الدوافع للقيام بهذه الدراسة لم يكن حب استطلاع وحده، وإنما هو محاولة دراسة ظاهرة اجتماعية فريدة فى نوعها توجد فى مجتمعنا المصرى المعاصر.

والدراسة التى يضمها الكتاب الحالى هى، فى ضوء تخصص الكاتب، دراسة علمية. والكاتب إذ يدعو دائما إلى الاعتماد على العلم فى مواجهة كل الأمور والمواقف.. الخاصة منها والعامة، فإنما يفعل ذلك عن إيمان بأن سيادة التفكير العلمى فى محيط اعضاء مجتمعنا المصرى المعاصر قد أصبحت ضرورة. ولا يتعصب الكاتب للعلم فحسب ؛ ولكنه يتعصب ايضا للفن الصادق. ولا يعتبر الكاتب هذا التعصب فى ضوء ظروف مجتمعنا الراهنة، وفى ضوء التقدم العلمى الانسانى والمادى العالمى، نقيصة من النقائص ؛ بل هو دعوة رشيدة إلى الوصول إلى الحقيقة. إن أهم ما يجب أن يعمل له قادتنا الثقافيون فى عصرنا الحالى، عصر الربع الأخير من القرن العشرين، هو الوصول إلى الحقيقة. ولن تكون خيرا من الفن الصادق والمعرفة المنتظمة الوسيلة إلى الوصول إلى الحقيقة. فنحن لا يمكن أن نفيد من شئ لا يستند إلى الحقيقة، فهى فى ضوء ظروفنا الحالية ملاذنا، ويجب أن نعمل فى سبيل الحصول عليها حيثما كانت، وان نسخرها فى سبيل تحقيق كل ما نصبو إليه من آمال على المستوى المحلى وعلى المستوى القومى وعلى المستوى العالمى جميعا. إن هذه الآمال العريضة تستحق منا كل عناء. وفى سبيل تحقيقها يهون كل عناء.

لقد بدأ الكاتب سعيه الحثيث فى الكشف عن أسلوب من أساليب مواجهة المجهول فى محيط اعضاء مجتمعنا المعاصر. وقد تكلل سعيه بالنجاح. وانتهى الكاتب إلى أن يقتحم، فى ثبات ويقين، طريقا أخرى. طريق التعرف الموضوعى على ملامح مصرنا الخالدة وعلى روحها الخالدة فى عمقها واصالتها. إيمانا من الكاتب بأن معرفة مصرنا الخالدة معرفة موضوعية لابد أن تسير جنبا إلى جنب مع اية محاولة لتغيير واقعها إلى الأفضل إن لم تسبقها. وما تغيير واقع مصرنا الخالدة إلى الأفضل إلا تحقيق آمالنا العريضة نحو مستقبل افضل يكون أكثر إشراقا لبنات هذا البلد الأمين وابنائه ولحفيداته واحفاده.

وترجع ظاهرة الكتابة على هياكل السيارات واللوريات والعربات فى مجتمعنا المصرى المعاصر دراسة علمية إلى أنها ظاهرة اجتماعية فريدة فى نوعها. وأنها فى ضوء مضمونها الثقافى المصرى الفريد، تعتبر احدى وسائل التعبير عند الصامتين من أعضاء هذا المجتع. فهى، من حيث الشكل، جهاز إعلامى ثقافى شعبى فى مجتمعنا المصرى المعاصر يتحرك على امتداد مدن هذا المجتمع وقراه. ويكون مضمونها الثقافى جزءا من المناخ الاجتماعى لهذا المجتمع. فهو يعكس الكثير من العناصر الثقافية غير المادية التى تملأ هذا المناخ وتعيش فى كيان أعضاء هذا المجتمع وفى نفوسهم. والتى تكون لها، بدورها، بالضرورة آثار فى نفوس هؤلاء الأعضاء، ويكون لها تاثير على اتجاهاتهم نحو الحياة. واذا اعتبرنا أن ظاهرة الكتابة على هياكل السيارات واللوريات والعربات فى المجتمع المصرى المعاصر، من حيث الشكل، جهازا ثقافيا شعبيا من اجهزة الاعلام، فاننا نلاحظ أن هذا الجهاز يدعو إلى تثبيت العناصر الثقافية غير المادية التى تتضمنها هذه الظاهرة فى نفوس أعضاء هذا المجتمع، على علاتها، كما يدعو إلى استمرار وجودها.

ولعل فرصة دراسة هذه الظاهرة أن تتيح لنا فهمها موضوعيا، ومن ثم تتاح لنا فرصة التعرف على العناصر الثقافية غير المادية التى تتضمنها، فنستطيع عن وعى رشيد، أيضا مواجهة الغث منها لنواجهه او نوجهه إلى ما نصبو إلى تحقيقه من آمال واهداف.

٢ - مجالات الدراسة :

وإذا كانت مجالات الدراسة الواقعية تتضمن، عادة، المجال الزمني والمجال الجغرافي والمجال البشري، وأن كل مجال يتحدد بالمادة التي يجمعها الدارس - فالملاحظ في ضوء طبيعة الدراسة الحالية، ان المجال البشري ينقصها. والمجال البشري في دراسة كهذه يتحدد بالضرورة بأصحاب السيارات والعربات واللوريات أو سائقيها على افتراض انهم يكتبون فعلا ما يكتبون من كلمات وعبارات على هياكل هذه المركبات، او يوافقون بمحض إرادتهم على كتابتها. ولم يحاول الكاتب أن يعرف عن هؤلاء الأشخاص شيئا إلا ما تيسر له من الملاحظات العابرة، وهو قليل. فالملاحظ أن الأغلبية الساحقة منهم، فيما عدا أصحاب السيارات الملاكى، من السائقين الكادحين. سواء كانوا سائقى سيارات (تاكسى) أو سائقى لورى وعربات نقل أو اتوبيسات وعربات كارو. وحتى الذين يشتغلون منهم فى بيع المأكولات والمشروبات فهم وإن امتلكوا البضاعة التى يبيعونها فالملاحظ انهم من نفس الفئة.. فئة السائقين الكادحين. وإذا كان الكاتب قد اكتفى بجمع كل ما هو مكتوب على المركبات من كلمات وعبارات، فإن ذلك يرجع إلى أن همه الأول كان هو القيام بهذه العملية، وأنه لم يكن لديه متسع من الوقت في ضوء ظروفه ومشاغله ان يفعل أكثر من ذلك.

ومن حيث المجال الزمني للدراسة الحالية.. نجد ان الكلمات والعبارات المكتوبة على هياكل السيارات واللوريات والعربات قد جمعها الكاتب فى خلال المدة من اول شهر سبتمبر ١٩٦٧ حتى آخر اغسطس ١٩٧٠، مع ملاحظة أن عملية الجمع قد توقفت في خلال هذه المدة لسفر الكاتب إلى الخارج لمدة تبلغ نحو ستة اشهر. اى أن المجال الزمني يتحدد بالكلمات والعبارات التي جمعها الكاتب في خلال مدة تبلغ نحو سنتين ونصف السنة، مع ملاحظة أن هذه الكلمات والعبارات، موضوع الدراسة الحالية، ليست هي كل ما هو مكتوب على هياكل السيارات واللوريات والعربات التى توجد فى المجتمع المصرى المعاصر، فى خلال هذه المدة.

ويحدد المجال الجغرافي.. فى دراسة كهذه، المحافظات التى تسير فيها المركبات التى جمع الكاتب من على هياكلها الكلمات والعبارات مثل

السيارات (التاكسى) واللوريات وعربات النقل والاتوبيس وعربات المأكولات والمشروبات وعربات الكارو والسيارات (الملاكى). وهذه المحافظات هى التى ارتادها الكاتب أو ارتاد بعض مدنها سعيا وراء هذه المركبات وهى تسير فى الشوارع أو تقبع فى ركن من أركانها، أو وهى توجد فى المولد أو الحوارى أو فى "الجراجات" او فى "مواقف" او على باب دور السينما وغيرها - بقصد جمع الكلمات والعبارات من على هياكلها. كما يحدد المجال الجغرافى، ايضا، المحافظات التى تشرف إداريا على هذه المركبات، اى المحافظات التى تمنح رخص هذه المركبات. فالملاحظ ان هذه المحافظات مكتوبة، عادة، مع ارقام الرخص على هياكل هذه المركبات.

وفى ضوء هذين التحديدين يتيسر التعرف على مدى انتشار ظاهرة الكتابة على هياكل المركبات فى محافظات المجتمع المصرى المعاصر على امتداد مدن هذا المجتمع وقراه.

وقد تبين أن المحافظات الأولى والثانية متعددة. فقد بلغ عدد المحافظات الأولى، أى التى ارتادها الكاتب أو ارتاد بعض مدنها سعيا وراء المركبات، احدى عشرة محافظة. وكان نصيب محافظة القاهرة من هذه المركبات أكبر نصيب (٢٠٠ مركبة)، ثم الجيزة (١٣٠ مركبة)، ثم اسوان (٣٥ مركبة)، ثم الاسكندرية (٣٠ مركبة)، ثم بنى سويف (٣٠ مركبة)، ثم الدقهلية (٢٠ مركبة) ثم الغربية (١٥ مركبة) ثم كفر الشيخ (١٥ مركبة) ثم القليوبية (عشر مركبات)، ثم دمياط (عشر مركبات)، ثم القصر (خمس مركبات). أما عدد المحافظات الثانية، أى التى تشرف إداريا على المركبات، موضوع الدراسة الحالية، فقد بلغ ثلاث عشرة محافظة. وكان نصيب محافظة القاهرة من هذه المركبات، ايضا، أكبر نصيب " ١٣٩ مركبة "، ثم الجيزة (١١٨ مركبة)، ثم الدقهلية (٤٧ مركبة) ثم القليوبية (٣٣ مركبة)، ثم اسوان (٣٠ مركبة)، ثم بنى سويف (٣٠ مركبة)، ثم الشرقية (٣٠ مركبة)، ثم الأسكندرية (٢٥ مركبة)، ثم الغربية (١٣ مركبة)، ثم كفر الشيخ "١٢ مركبة)، ثم الأقصر (عشر مركبات)، ثم دمياط (ثمانى مركبات)، ثم البحيرة (خمس مركبات)، مع ملاحظة أن عدد المركبات بأنماطها، موضوع الدراسة، كان خمسمائة مركبة[1].

٣- خطة تحليل المضمون :

كانت خطة جمع الكلمات والعبارات المكتوبة على هياكل المركبات موضوع الدراسة هى ترقيم كل مركبة وتسجيل نوعها، ثم تسجيل المحافظة التى توجد فيها والمحافظة التى تشرف إداريا عليها، ثم تسجيل ما كتب عليها من كلمات وعبارات.. وبعد ان تم جمع الكلمات والعبارات رتبت جميعها حسب الحروف الأبجدية وحسب نوع المركبة التى كانت مكتوبة عليها، وحسب المحافظة التى كانت تسير فيها المركبات بأنواعها، وحسب المحافظة التى تشرف إداريا على هذه المركبات. وبعد هذا الترتيب بدأ الكاتب قراءة الكلمات والعبارات، كلها مرة ومرات. وكان الهدف من القراءة أكثر من مرة أن يتيسر للكاتب استيعاب أشكالها ودلالاتها ما إستطاع إلى ذلك سبيلا ؛ ولم يكن هذا الاستيعاب أمرا سهلا. وكان الهدف من استيعاب الكاتب لأشكال الكلمات والعبارات ودلالاتها أن تتيسر له عملية تقسيمها إلى وحدات، أو فئات تحليلية،حتى يتمكن من تحليلها كميا فى أول الأمر. وفى ضوء التحليل الكمى استطاع الكاتب بعد ذلك ان يحلل كيفيا مضمون كل الكلمات والعبارات التى جمعها.

وكان التقسيم فى ضوء الوحدات الاتية :

(أ) نوع المركبات :

سيارة تاكسى، لورى أو عربة نقل، أوتوبيس، عربة مأكولات أو مشروبات، عربة كارو، سيارة ملاكى.

(ب) المحافظات التى كانت تسير فيها المركبات :

القاهرة، الجيزة، أسوان، الاسكندرية، بنى سويف، الدقهلية، الغربية، كفر الشيخ، القليوبية، دمياط، الأقصر.

(جـ) المحافظات التى تشرف إداريا على المركبات :

القاهرة، الجيزة، الدقهلية، القليوبية، اسوان، بنى سويف، الشرقية، الإسكندرية، الغربية، كفر الشيخ، الأقصر، دمياط، البحيرة.

(د) الكلمة.

(هـ) نفس الكلمة مكررة.

(و) أشكال الكلمات :

أسماء، كلمات أخرى : دعوات وابتهالات، بداية اغانى، تحذيرات، لفظ الجلالة.

(ز) مضمون الكلمات :

مضمون الأسماء، مضمون الدعوات والابتهالات، مضمون بداية الأغانى، مضمون التحذيرات، مضمون لفظ الجلالة.

(ح) العبارة.

(ط) نفس العبارة مكررة.

(ى) أشكال العبارات :

- أشكال شعبية : أجزاء الأغانى المصرية، تعبيرات شعبية، تحذيرات، أمثال شعبية، نصائح، تحيات.

- أشكال دينية : دعوات وابتهالات، آيات قرآنية، أحاديث نبوية، آيات من الكتاب المقدس.

- أشكال أخرى : أقوال مأثورة، أسماء موصوفة، أسماء، عبارات أخرى.

(ك) مضمون العبارات :

- مضمون الأشكال الشعبية : مضمون أجزاء الأغانى المصرية، مضمون التعبيرات الشعبية، مضمون التحذيرات، مضمون الأمثال الشعبية، مضمون النصائح، مضمون التحيات.

- مضمون الأشكال الدينية : مضمون الدعوات والابتهالات، مضمون الآيات القرآنية، مضمون الأحاديث النبوية، مضمون الآيات من الكتاب المقدس.

- مضمون الأشكال الأخرى : مضمون الأقوال المأثورة، مضمون الأسماء الموصوفة، مضمون الأسماء، مضمون العبارات الأخرى.

(ل) من الألفاظ الشائعة :

لفظ الجلالة أو مشتقاته، العين، الحب ومشتقاته، السلامة أو الستر، لفظ نبى السلام، الصبر ومشتقاته.

- أولياء الله او القديسوين : أم هاشم، الحسيين، السيد البدوى، المتولى، مارجرجس، ابو العباس، العدوى، الغريب، اهل البيت.

الحمد او الشكر، الظلم ومشتقاته، التوكل ومشتقاته، الحسد، الرزق، القضاء والقدر، القناعة، ألفاظ أخرى.

وعندما اتضحت الوحدات وتحددت فى ضوء التقسيم السابق، افرغت البيانات وفقا لهذه الوحدات. وكان تفريغ البيانات يدويا قام الكاتب به وحده.

ثم قام الكاتب بجدولة البيانات، ثم قام بعملية تحليلها. وفى ضوء ذلك قام بعملية استخراج أهم مادة الفصل الثالث من الكتاب "بيانات عامة عن الكلمات والعبارات".

وعندما أطمأن الكاتب إلى سلامة الخطوة السابقة، شرع توا فى الاستفادة من النتائج التفصيلية المتعلقة بمضمون أشكال الكلمات والعبارات. فبدأ أولا فى كتابة الفصل الرابع، الخاص بموضوع "مضمون عبارات الأشكال الشعبية وكلماتها"، وهو يتناول مضامين عبارات وكلمات اجزاء الأغانى المصرية والتعبيرات الشعبية والتحذيرات والأمثال الشعبية والنصائح والتحيات. وعند الانتهاء من هذا الفصل بدأ الكاتب فى كتابة الفصل الخامس الخاص بموضوع "مضمون عبارات الأشكال الدينية وكلماتها"، وهو يتناول مضامين عبارات وكلمات الدعوات والابتهالات والايات القرآنية والأحاديث النبوية وآيات الكتاب المقدس. ثم بعد ذلك بدأ الكاتب فى كتابة الفصل السادس وموضوعه "مضمون عبارات الأشكال الأخرى وكلماتها" ويتناول هذا الفصل مضامين عبارات وكلمات الأقوال المأثورة والأسماء الموصوفة والأسماء والعبارات الأخرى. وكان الأسلوب

الذى اتبع فى تحليل المضمون فى الفصول الثلاثة المذكورة هو الأسلوب الكيفى.

٤- مفاهيم الدراسة :

وقد استخدم الكاتب فى ثنايا هذه الدراسة الكثير من المفاهيم والمصطلحات. منها ما هو معروف، ومنها ما هو جديد. وقد حرص الكاتب على شرح كل مفهوم جديد وكل مصطلح جديد فى المكان المناسب شرح معناه، وذكر الأمثلة التى توضح هذا المعنى، حتى تصبح الصورة الذهنية لكل مفهوم ولكل مصطح، عند القارئ، واضحة لا لبس فيها ولا إبهام.

وقد حرص الكاتب ايضا، على أن يكون استخدامه لمدلول أى مفهوم او اى مصطلح استخداما ثابتا لا يتغير، مهما تكرر هذا الاستخدام، ومهما كان الموضوع الذى تناول هذا الاستخدام.

٥- طبيعة الدراسة :

وتتناول الدراسة الحالية بالوصف والتحليل البنائى ظاهرة "الكتابة على هياكل السيارات واللوريات والعربات" فى المجتمع المصرى المعاصر. ويرى الكاتب ان هذه الظاهرة، كما ذكر آنفا، ظاهرة اجتماعية فريدة فى نوعها وأنها فى ضوء مضمونها الثقافى المصرى الفريد، تعتبر إحدى وسائل التعبير عند الصامتين من اعضاء هذا المجتمع. فهى من حيث الشكل، جهاز إعلامى ثقافى شعبى فى مجتمعنا المصرى المعاصر يتحرك على امتداد مدن هذا المجتمع وقراه. ويكون مضمونها الثقافى جزءا من المناخ الاجتماعى الثقافى لهذا المجتمع. فهو يعكس الكثير من العناصر الثقافية غير المادية التى تملأ هذا المناخ وتعيش فى كيان اعضاء هذا المجتمع وفى نفوسهم. والتى تكون لها، بدورها، بالضرورة آثار فى نفوس هؤلاء الأعضاء، ويكون لها تأثير على اتجاهاتهم نحو الحياة. ويلاحظ ان مادة الدراسة قد تضمن اهمها الكلمات والعبارات المكتوبة على هياكل السيارات واللوريات والعربات التى

يستخدمها بعض أعضاء المجتمع المصرى المعاصر. وهى مادة واقعية قد جمعها الكاتب بنفسه.

وفى ضوء ما سبق نجد ان طبيعة الدراسة الحالية هى وصف وتحليل ظاهرة اجتماعية معينة تحليلا بنائيا.

ويمكن أن نعتبر الدراسة الحالية، أولا وقبل كل شئ، دراسة اجتماعية بمعناها الواسع، ولعلها ان تكون، ايضا، دراسة اجتماعية من زاوية انثروبولوجية. فموضوعاتها مسالة اجتماعية ثقافية، وقد استخدم فى جمع بياناتها الملاحظة المباشرة.

٦- صعوبات الدراسة :

ولم تبدأ الدراسة ولم تستكمل دون ان يعترضها بعض الصعوبات. ومهما كان نوع هذه الصعوبات فإن أهمها ينحصر فيما يلى :

(أ) كان من المفيد من غير شك ان يقوم الكاتب بعملية استبيان لكل أو أكبر عدد ممكن من اصحاب المركبات أو سائقيها ؛ ولكن لم يتمكن الكاتب من القيام بهذه العملية الهامة لعوامل عدة، كان من اهمها : ضيق وقت الكاتب، وكذلك ضيق ذات يده.

(ب) إن دراسة ظاهرة "الكتابة على هياكل السيارات واللوريات والعربات" هى دراسة مسألة اجتماعية ثقافية تتعلق، فى الواقع، بنوع معين من السلوك الاجتماعى، ومن ثم فهى تدخل فى نطاق الدراسات النفسية. اى أن المختص فى علم النفس، من حقه، ان يدلى بدلوه، عند تناول هذه الظاهرة. ولما كان تناول الظاهرة، موضوع الدراسة، من الوجهة النفسية خارجا عن نطاق دائرة تخصص الكاتب، فقد خرجت الدراسة الحالية خالية، بوجه عام، من الدراسة النفسية المتخصصة.

هوامش الفصل الثانى

(١) لا يستطيع الكاتب أن يجزم بعدم تكرار بعض المركبات ضمن الخمسائة مركبة موضوع الدراسة، فإنه لم يهتم بالحصول على أرقام اللوحات المكتوبة على هياكلها أو يلتفت إلى بعض معالمها الأخرى بقدر واهتمامه والتفاته إلى اسماء المحافظات التى تشرف على هذه المركبات إداريا.

الفصل الثالث

بيانات عامة عن

الكلمات والعبارات

عدد المركبات وأنواعها - المحافظات التى كانت تسير فيها المركبات - المحافظات التى تشرف على المركبات إداريا - عدد الكلمات والعبارات - عدد الكلمات - اشكال الكلمات - عدد العبارات - أشكال العبارات - من الألفاظ الشائعة فى الكلمات والعبارات - النتائج.

١- عدد المركبات وأنواعها :

لقد تيسر الحصول على الكلمات والعبارات المكتوبة على هياكل سيارات النقل والأتوبيسات، وعربات التاكسى، واللوريات او عربات المأكولات أو المشروبات، وعربات "الكارو"، والسيارات الملاكى، من خمسمائة مركبة : منها ٢٠٠ سيارة تاكسى بنسبة نحو ٤٠٪، و١٧٧ سيارة لورى أو نقل بنسبة نحو ٣٥,٤٪ و٥٠ أوتوبيسا بنسبة نحو ١٠٪، و٤٧ عربة مأكولات أو مشروبات بنسبة نحو ٩,٤٪، و٢٠ عربة كارو بنسبة ٤٪، وست سيارات ملاكى فقط بنسبة ١,٢٪ (جدول رقم ١).

جدول رقم (١) توزيع المركبات حسب أنواعها (٥٠٠ مركبة)

بيان	عدد	النسبة المئوية
تاكسى	٢٠٠	٤٠,٠
لورى أو عربة نقل	١٧٧	٣٥,٤
أوتوبيس	٥٠	١٠,٠
عربة مأكولات أو مشروبات	٤٧	٩,٤
عربة كارو	٢٠	٤,٠
سيارة ملاكى	٦	١,٢
الجملة	٥٠٠	١٠٠,٠

٢- المحافظات التى كانت تسير فيها المركبات :

وكانت المركبات توجد في إحدى عشرة محافظة.. كانت تسير فى شوارعها، أو قابعة فى ركن من أركانها، أو توجد فى أماكن تجمعاتها فى " الموالد"، أو فى "الحوارى"، أو فى "الجراجات"، أو فى "المواقف"، أو على باب السينما والمسارح وغيرها. وكان نصيب محافظة القاهرة من هذه المركبات أكبر نصيب (٢٠٠ مركبة) بنسبة نحو ٤٠٪، ثم محافظة الجيزة (١٣٠ مركبة) بنسبة نحو ٢٦٪، ثم محافظة أسوان (٣٥ مركبة) بنسبة نحو ٧٪، ثم محافظة الإسكندرية (٣٠مركبة) بنسبة نحو ٦٪، ومحافظة بنى سويف (٣٠ مركبة) بنسبة نحو ٦٪، ثم محافظة الدقهلية (٢٠ مركبة) بنسبة ٤٪، ثم محافظة الغربية (١٥ مركبة) بنسبة نحو ٣٪، ومحافظة كفر الشيخ (١٥ مركبة) بنسبة نحو ٣٪ ثم، محافظة القليوبية (عشر مركبات) بنسبة نحو ٢٪، ومحافظة دمياط (عشر مركبات) بنسبة نحو ٢٪، واخيرا مدينة الأقصر (خمس مركبات بنسبة ١٪) (جدول رقم ٢).

جدول رقم (٢) توزيع المركبات حسب المحافظات التى كانت تسير فيها (٥٠٠ مركبة)

المحافظات	عدد المركبات	النسبة المئوية
القاهرة	٢٠٠	٤٠
الجيزة	١٣٠	٢٦
أسوان	٣٥	٧
إسكندرية	٣٠	٦
بنى سويف	٣٠	٦
الدقهلية	٢٠	٤
الغربية	١٥	٣
كفر الشيخ	١٥	٣
القليوبية	١٠	٢
دمياط	١٠	٢
الأقصر	٥	١
المجموع	٥٠٠	١٠٠

٣- المحافظات التى تشرف على المركبات إداريا :

ويقصد بالمحافظات التى تشرف إداريا على المركبات موضوع الدراسة، المحافظات التى تمنح رخص هذه المركبات. فالملاحظ أن اسم كل

محافظة منها مكتوب، عادة، مع أرقام اللوحات على هياكل هذه المركبات. وإذا كان عدد المحافظات التى كانت تسير فيها المركبات إحدى عشرة محافظة، فإن عدد المحافظات التى تشرف على هذه المركبات إداريا ثلاث عشرة محافظة بزيادة محافظتى الشرقية والبحيرة. وكان نصيب محافظة القاهرة من هذه المركبات، أيضا، أكبر نصيب (١٣٩ مركبة) بنسبة نحو ٢٧,٨٪، ثم محافظة الجيزة (١١٨ مركبة) بنسبة نحو ٢٣,٦٪، ثم محافظة الدقهلية (٤٧ مركبة) بنسبة نحو ٩,٤٪، ثم محافظة القليوبية (٣٣ مركبة) بنسبة نحو ٦,٦٪ ثم محافظة أسوان (٣٠ مركبة) بنسبة نحو ٦٪، ومحافظة بنى سويف (٣٠ مركبة) بنسبة نحو ٦٪، ومحافظة الشرقية (٣٠ مركبة) بنسبة نحو ٦٪، ثم محافظة الإسكندرية (٢٥ مركبة) بنسبة نحو ٥٪، ثم محافظة الغربية (١٣ مركبة) بنسبة نحو ٢,٦٪، ثم محافظة كفر الشيخ (١٢ مركبة) بنسبة نحو ٢,٤٪، ثم محافظة الأقصر (عشر مركبات) بنسبة نحو ٢٪ ثم محافظة دمياط (ثمانى مركبات) بنسبة نحو ١,٦٪، واخيرا محافظة البحيرة (خمس مركبات) بنسبة نحو ١٪. (جدول رقم ٣).

جدول رقم (٣) توزيع المركبات حسب المحافظات
التي تشرف عليها إداريا (٥٠٠ مركبة)

المحافظة	عدد المركبات	النسبة المئوية
القاهرة	١٣٩	٢٧,٨
الجيزة	١١٨	٢٣,٦
الدقهلية	٤٧	٩,٤
قلوبية	٣٣	٦,٦
أسوان	٣٠	٦,٠
بنى سويف	٣٠	٦,٠
الشرقية	٣٠	٦,٠
الإسكندرية	٢٥	٥,٠
الغربية	١٣	٢,٦
كفر الشيخ	١٢	٢,٤
الأقصر	١٠	٢,٠
دمياط	٨	١,٦
البحيرة	٥	١,٠
المجموع	**٥٠٠**	**١٠٠,٠**

وقد تبين أن المركبات التى كانت تسير فى محافظة القاهرة وعددها ٢٠٠ مركبة، لم تكن هذه المحافظة وحدها تشرف عليها إداريا، بل كانت ٨٠ مركبة منها فقط تحت الإشراف الإدارى لهذه المحافظة. أما باقى المركبات وقدرها ١٢٠ مركبة، فقد كانت تشرف عليه إداريا محافظات الجيزة والشرقية والدقهلية والقليوبية. وكان نصيب كل محافظة من هذه المحافظات ٦٠ مركبة، و٣٠ مركبة، و٢٠ مركبة، وعشر مركبات على التوالى.

وتبين، أيضا، أن المركبات التى كانت تسير فى محافظة الجيزة وعددها ١٣٠ مركبة، لم تكن هذه المحافظة وحدها تشرف عليها إداريا، بل كانت ٥٠ مركبة منها فقط تحت الإشراف الإدارى لهذه المحافظة. أما باقى المركبات وقدره ٨٠ مركبة، فقد كانت تشرف عليه إداريا محافظات القاهرة والدقهلية والقليوبية وبنى سويف. وكان نصيب كل محافظة من هذه المحافظات ٥٠ مركبة، وعشر مركبات، وعشر مركبات،وعشر مركبات على التوالى.

واتضح أن المركبات التى كانت تسير فى محافظة أسوان وعددها ٣٥ مركبة لم تكن هذه المحافظة وحدها تشرف عليها إداريا، بل كانت ٢٥ مركبة منها فقط تحت الإشراف الإدارى لهذه المحافظة. أما باقى المركبات وقدره عشر مركبات، فقد كانت تشرف عليه إداريا محافظة بنى سويف.

أما المركبات التى كانت تسير فى محافظة الإسكندرية وعددها ٣٠ مركبة، فقد اتضح أن ٢٥ مركبة منها تشرف عليها إداريا هذه المحافظة، وخمس مركبات فقط كانت تحت الإشراف الإدارى لمحافظة البحيرة.

واتضح أن المركبات التى كانت تسير فى محافظة بنى سويف وعددها ٣٠ مركبة، لم تكن هذه المحافظة وحدها تشرف عليها إداريا، بل كانت عشر مركبات فقط تشرف عليها اداريا أما باقى المركبات وقدره ٢٠ مركبة فقد كانت تشرف عليه إداريا محافظات الأقصر والقاهرة والجيزة.

وكان نصيب كل محافظة من هذه المحافظات عشر مركبات، وخمس مركبات، وخمس مركبات على التوالى.

واتضح، أيضا، أن المركبات التى كانت تسير فى محافظة الدقهلية وعددها ٢٠ مركبة، لم تكن هذه المحافظة وحدها تشرف عليها إداريا، بل كانت عشر مركبات منها فقط تحت الإشراف الإدارى لهذه المحافظة. أما باقى المركبات وقدره عشر مركبات، فقد كانت تشرف عليه إداريا محافظات كفر الشيخ والقليوبية والغربية. وكان نصيب كل محافظة من هذه المحافظات أربع مركبات، وثلاث مركبات، وثلاث مركبات على التوالى.

والمركبات التى كانت تسير فى محافظة الغربية وعددها ١٥ مركبة، لم تكن هذه المحافظة وحدها تشرف إداريا، بل كانت عشر مركبات منها فقط تحت الإشراف الإدارى لهذه المحافظة. اما الباقى وقدره خمس مركبات، فقد كانت تشرف عليه إداريا محافظتا القاهرة (ثلاث مركبات)، والجيزة (مركبتان).

والمركبات التى كانت تسير فى محافظة كفر الشيخ وعددها ١٥ مركبة، لم تكن هذه المحافظة وحدها تشرف عليها إداريا، بل كانت ثمانى مركبات منها فقط تحت الإشراف الإدارى لهذه المحافظة. اما الباقى وقدره سبع مركبات، فقد كانت تشرف عليه إداريا محافظتا الدقهلية (خمس مركبات) والقليوبية (مركبتان).

والمركبات التى كانت تسير فى محافظة القليوبية وعددها عشر مركبات، كانت منها ثمانى مركبات فقط تحت الإشراف الإدارى لهذه المحافظة، ومركبة واحدة تحت إشراف كل من محافظتى القاهرة والجيزة.

والمركبات التي كانت تسير في محافظة دمياط وعددها عشر مركبات، كانت منها ثمانى مركبات فقط تحت الإشراف الإدارى لهذه المحافظة، ومركبتان تحت إشراف محافظة الدقهلية الإدارى.

واخيرا نجد ان المركبات التى كانت تسير في مدينة الأقصر وعددها خمس مركبات، كانت كلها تحت إشراف محافظة أسوان الإدارى. (جدول رقم ٤).

أى أن عـدد المركبـات التـى تسـير فـى محافظـات أخـرى غـير المحافظات التى تشرف عليها إداريا قد بلغ ٢٦٦ مركبة بنسبة نحـو ٥٣,٢٪ من جميع المركبات. وقد بلغت هـذه النسـبة فـى محافظـة القـاهرة نحـو ٦٠٪ (١٢٠ مركبـة مـن ٢٠٠مركبـة)، وفـى محافظـة الجـيزة نحـو ٦١,٥٪ (٨٠ مركبة من ١٣٠ مركبة)، وفى محافظة أسوان نحو ٢٨,٦٪ (عشـر مركبات من ٣٥ مركبة)، وفى محافظة الإسكندرية نحو ١٦,٧٪ (خمس مركبات من ٣٠ مركبة)، وفى محافظـة بنـى سـويف نحـو ٦٦,٧٪ (٢٠ مركبـة مـن ٣٠ مركبة)، وفى محافظة الدقهلية.

جدول رقم (٤)
(توزيع المركبات حسب المحافظات التى كانت تسير فيها والتى تشرف عليها إداريا (٥٠٠ مركبة)

المحافظات التى تشرف على المركبات إداريا / المحافظات التى كانت تسير فيها المركبات		القاهرة												
القاهرة	٢٠٠	٨٠	٦٠	٢٠	١٠			٣٠						٢٠٠
الجيزية	١٣٠	٥٠	٥٠	١٠	١٠		١٠							١٣٠
أسوان	٣٥					٢٥	١٠							٣٥
إسكندرية	٣٠								٢٥				٥	٣٠
بني سويف	٣٠	٥	٥				١٠					١٠		٣٠
الدقهلية	٢٠			١٠	٣					٣	٤			٢٠
الغربية	١٥	٣	٢							١٠				١٥
كفر الشيخ	١٥			٥	٢						٨			١٥
القلوبية	١٠	١	١		٨									١٠
دمياط	١٠			٢								٨		١٠
الأقصر	٥					٥								٥
المجموع	٥٠٠	١٣٩	١١٨	٤٧	٣٣	٣٠	٣٠	٣٠	٢٥	١٣	١٢	١٠	٨	٥	٥٠٠

نحـو ٥٠٪ (عشـر مركبـات مـن ٢٠مركبـة)، وفـى محافظـة الغربيـة نحـو ٣٣,٣٪ "خمس مركبـات مـن ١٥ مركبـة)، وفـى محافظـة كفر الشيـخ نحـو ٤٦,٧٪ (سبع مركبات من ١٥ مركبـة)، وفـى محافظـة القليوبيـة نحـو ٢٠٪

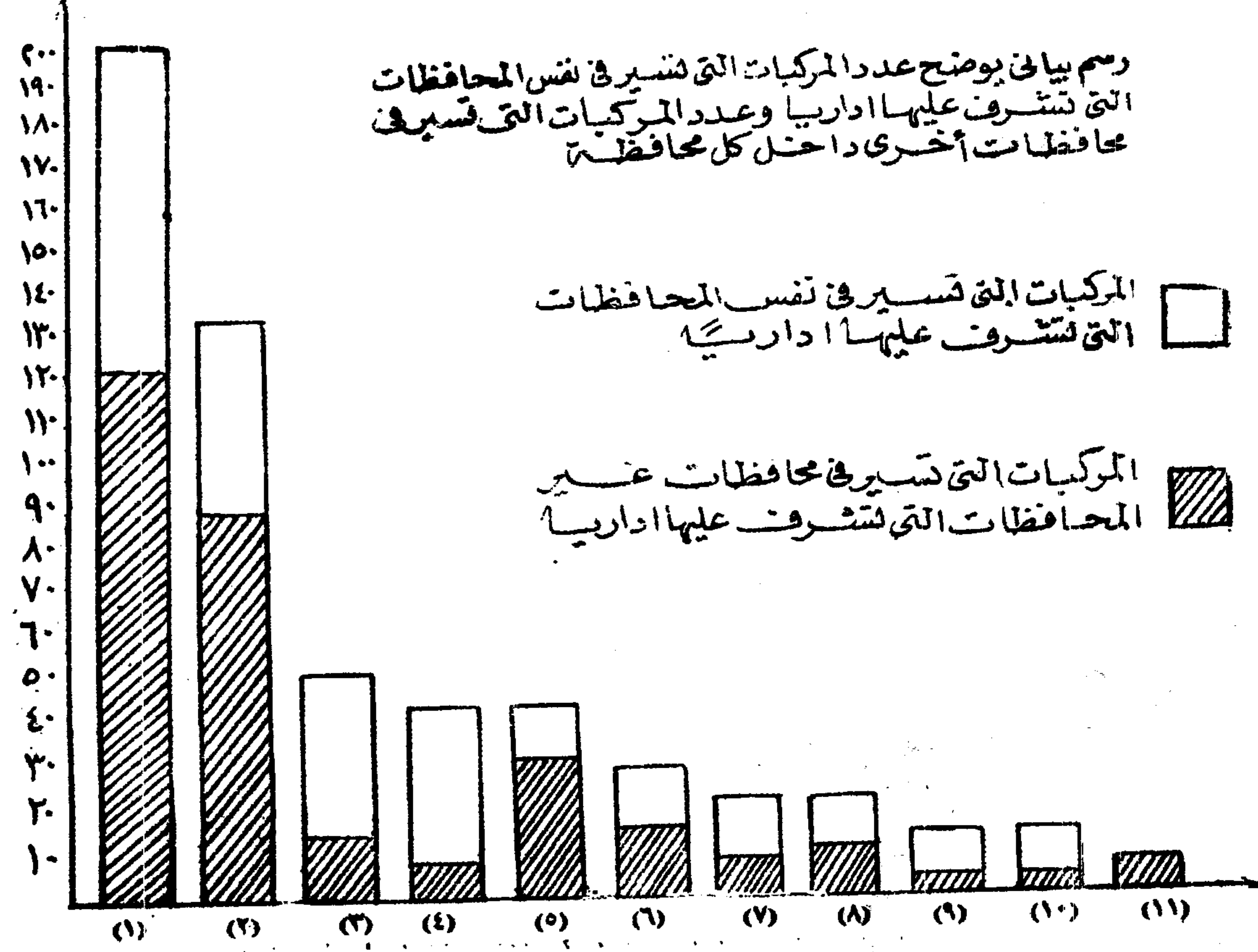
(مركبتان من عشر مركبات)، وفى محافظة دمياط نحو ٢٠٪ (مركبتان من عشر مركبات)، وفى محافظة الأقصر نحو ١٠٠٪.

المحافظات التى كانت تسير فيها المركبات

(١) محافظة القاهرة (٢) محافظة الجيزة (٣) محافظة أسوان (٤) محافظة الإسكندرية (٥) محافظة بنى سويف (٦)محافظة الدقهلية (٧) محافظة الغربية (٨) محافظة كفر الشيخ (٩) محافظة القليوبية (١٠) محافظة دمياط (١١) محافظة الأقصر. (انظر الرسم البيانى التالى).

٤- عدد الكلمات والعبارات:

لقد تيسر جمع ألف كلمة وعبارة من على هياكل المركبات وعددها خمسمائة مركبة. وقد لاحظ الكاتب أن بعض هياكل المركبات كان مكتوبا عليه أكثر من كلمة وأكثر من عبارة. وقد وجدت على البعض الآخر كلمة واحدة أو عبارة واحدة. وقد لاحظ الكاتب، أيضا، تنوع هذه الكلمات والعبارات وتكرار بعضها وتباين أشكالها ومعانيها. وكان عدد الكلمات والعبارت المجموعة من هياكل سيارت "التاكسى" أكبر من المجموعة من على كل من هياكل المركبات الأخرى. فقد وجدت ٤٠٠ كلمة وعبارة على هياكل سيارات التاكسي بنسبة نحو ٤٠٪، و٣٦٠ كلمة وعبارة على هياكل اللوريات أو عربات النقل بنسبة نحو ٣٦٪ ومائة كلمة وعبارة على هياكل الأتوبيسات بنسبة نحو ١٠٪، و٩٤ كلمة وعبارة على هياكل عربات المأكولات والمشروبات بنسبة نحو ٩,٤٪، و٤٠ كلمة وعبارة على هياكل عربات "الكارو" بنسبة نحو ٤٪، واخيرا ست كلمات وعبارات فقط على هياكل السيارت الملاكى بنسبة نحو ٠,٦٪. (جدول رقم٥).


رسم بيانى يوضح عدد المركبات التى تسير فى نفس المحافظات التى تشرف عليها اداريا وعدد المركبات التى تسير فى محافظات أخرى داخل كل محافظة
المركبات التى تسير فى نفس المحافظات التى تشرف عليها اداريا
المركبات التى تسير فى محافظات غير المحافظات التى تشرف عليها اداريا
عدد المركبات
٢٠٠
١٩٠
١٨٠
١٧٠
١٦٠
١٥٠
١٤٠
١٣٠
١٢٠
١١٠
١٠٠
٩٠
٨٠
٧٠
٦٠
٥٠
٤٠
٣٠
٢٠
١٠
(١)
(٢)
(٣)
(٤)
(٥)
(٦)
(٧)
(٨)
(٩)
(١٠)
(١١)

جدول رقم (٥)

توزيع الكلمات والعبارات حسب نوع المركبة

(١٠٠٠ كلمة وعبارة)

نوع المركبة	عدد الكلمات والعبارت	النسبة المئوية
سيارة تاكسى	٤٠٠	٤٠,٠
أورى أوعربة نقل	٣٦٠	٣٦,٠
أتوبيس	١٠٠	١٠,٠
عربات المأكولات والمشروبات	٩٤	٩,٤
عربة كارو	٤٠	٤,٠
سيارة ملاكى	٦	٠,٦
المجموع	١٠٠٠	١٠٠,٠

٥- عدد الكلمات :

وقد تبين أن عدد الكلمات المجموعة كان ٧١ كلمة فقط، فى حين أن عدد العبارات المجموعة كان ٩٢٩ عبارة. ومن الـ٧١ كلمة تكررت أربع كلمات ٢١ مرة. أى أن عدد الكلمات موضوع الدراسة هو ٥٠ كلمة فقط بنسبة نحو ٧٠٪ من جملة الكلمات المجموعة. أما العبارات وعددها ٩٢٩ عبارة فقد وجد أن ١٩ عبارة قد تكررت ٣١٠ مرة. كى أن عدد العبارات موضوع الدراسة هو ٦١٩ عبارة بنسبة نحو ٦٦,٦٪ من جملة العبارات المجموعة. وعليه نجد أن عدد الكلمات والعبارات، موضوع الدراسة، ٦٦٩ كلمة وعبارة فقط من ألف كلمة وعبارة قام الكاتب بجمعها من على هياكل خمسمائة مركبة. (جدول رقم ٦).

جدول رقم (٦)
توزيع الكلمات والعبارات المكررة حسب مرات تكرارها
(أربع كلمات و ١٩ عبارة)

بيان	الكلمات المكررة	مرات التكرار	العبارات المكررة	مرات التكرار
عدد	٤	٢١	١٩	٣١٠

ومن الكلمات المكررة ٢١ مرة وعددها أربع كلمات، تبين أن كلمة "لفظ الجلالة "الله" تكررت ١٥ مرة بنسبة نحو ٧١,٥٪، وتكررت كل من كلمات "حنان"، و"فكروني"، و"مني" مرتين.

٦- أشكال الكلمات :

وقد تبين أن أشكال الكلمات، موضوع الدراسة، وعددها ٥٠ كلمة، أشكال عديدة. وكان أكثر هذه الأشكال من الأسماء. وكان عدد كلماتها ٣٨ كلمة بنسبة نحو ٧٦٪. أما باقي الكلمات وعددها ١٢ كلمة بنسبة نحو ٢٤٪ فقد تضمنتها اشكال أخرى.. منها خمس كلمات دعوات وابتهالات، وثلاث كلمات بداية أغاني مصرية معروفة، وثلاث كلمات تحذير، وكلمة واحدة كانت لفظ الجلالة (الله). (جدول رقم ٧).

جدول رقم (٧)
توزيع الكلمات حسب اشكالها (٥٠ كلمة)

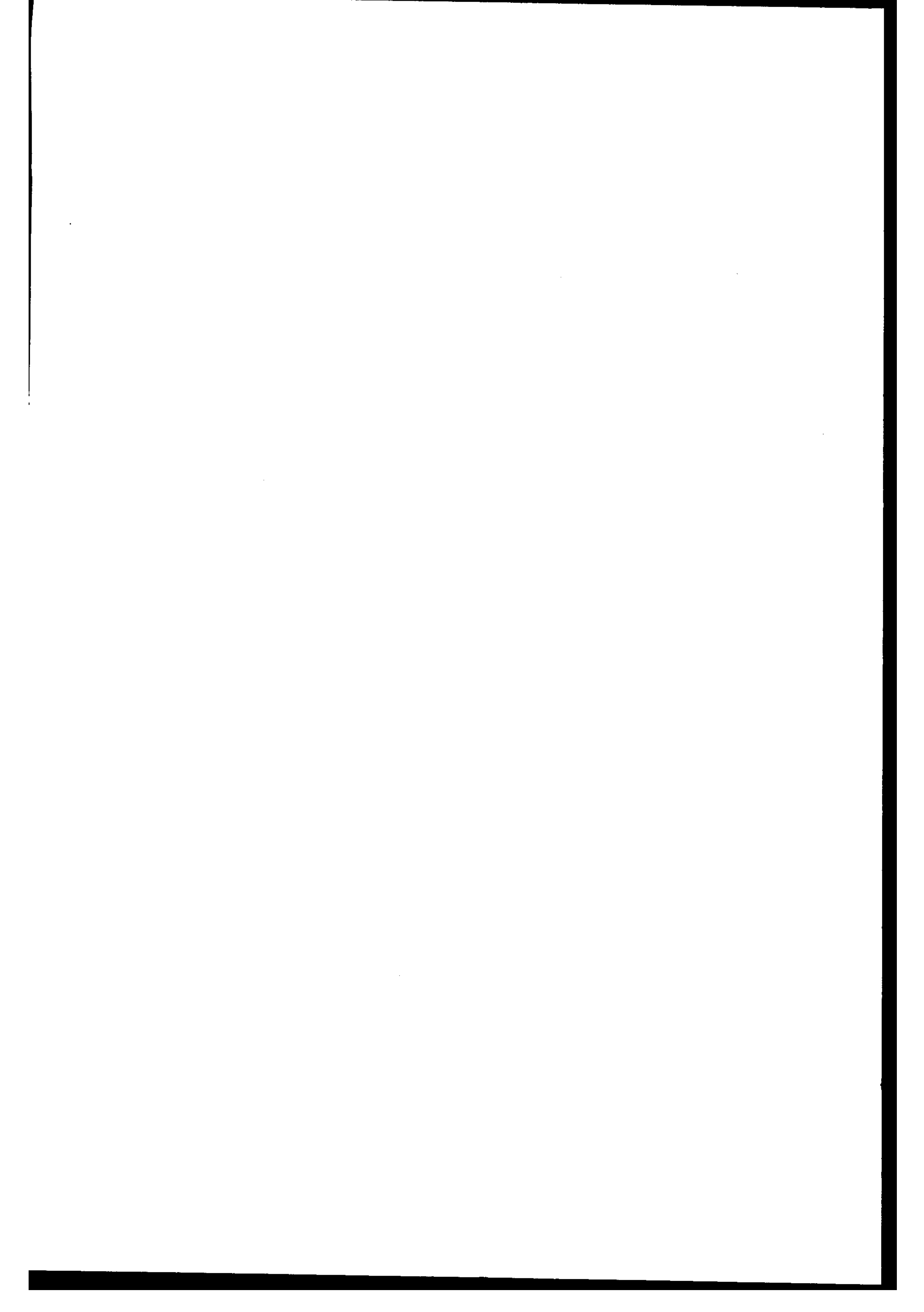
بيان	أسماء	كلمات أخرى				المجموع
		دعوات وابتهالات	بداية أغاني	تحذيرات	لفظ الجلالة	
عدد الكلمات	٣٨	٥	٣	٣	١	٥٠
		١٢				
٪	٧٦	٢٤				١٠٠

جدول رقم (٨)
توزيع العبارات المكررة حسب مرات تكرارها (١٩ عبارة)

العبارة	مرات التكرار
١- يارب سترك	٤٥
٢- يارب رضاك	٣٥
٣- ما شاء الله	٣٤
٤- الصبر جميل	٢٥
٥- توكلت على الله	٢٥
٦- إن ينصركم الله فلا غالب عليكم	٢٠
٧- وما توفيقى إلا بالله	١٨
٨- عين الحسود فيها عود يا حلاوة	١٥
٩- فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة	١٥
١٠- الله جل جلاله	١٥
١١- صلى على النبى	١٢
١٢- يا نور النبى	١١
١٣- الستار موجود	١٠
١٤- سيرى على بركة الله	١٠
١٥- القناعة كنز لا يفنى	٥
١٦- يا حاسدين الناس مالكم ومال الناس	٥
١٧- لا تتعجب فإنها إقدرة الله	٤
١٨- كفاية يا عين	٣
١٩- يابركة دعاء الوالدين	٣
المجموع	**٣١٠**

٧- عدد العبارات :

وفى ضوء البند رقم (٥)، نجد أن عدد العبارات المجموعة ٩٢٩ عبارة، ومن هذه العبارات ١٩ عبارة تكررت ٣١٠ مرات. اى أن العبارات موضوع الدراسة كان عددها ٦١٩ عبارة فقط بنسبة ٦٦,٦٪ من جملة العبارات المجموعة. وقد تكررت العبارات "يارب سترك" ٤٥ مرة، و"يارب رضاك" ٣٥ مرة، "ما شاء الله" ٣٤ مرة، و"الصبر جميل" ٢٥ مرة، "توكلت على الله" ٢٥ مرة، و(إن ينصركم الله فلا غالب لكم) ٢٠ مرة، و(وما توفيقى إلا بالله) ١٨ مرة، و"عين الحسود فيها عود يا حلاوة" ١٥ مرة،



جدول رقم (١٠)

توزيع عبارات الأشكال الشعبية حسب أنواعها (٢٣٨ عبارة)

الأنواع	عدد العبارات	٪
جزء من أغنية مصرية	١٠٠	٤٢,٠
تعبيرات شعبية	٥٧	٢٤,٠
تحذيرات	٣٠	١٢,٦
أمثال شعبية	٢٤	١٠,٠
نصائح	٢٠	٨,٤
تحيات	٧	٣,٠
المجموع	**٢٣٨**	**١٠٠,٠**

وقد تضمنت عبارات الأشكال الدينية ١٢٩ دعوة وابتهالا بنسبة نحو ٦٤,٥٪ من مجموع عبارات هذه الأشكال، و٥٥ آية قرآنية بنسبة نحو ٢٧,٥٪، و١٢ حديثا نبويا بنسبة نحو ٦٪، وأربع آيات من الكتاب المقدس بنسبة نحو ٢٪. (جدول رقم ١١).

جدول رقم (١١)

توزيع عبارات الأشكال الدينية حسب أنواعها (٢٠٠ عبارة)

الأنواع	عدد العبارات	٪
دعوات وابتهالات	١٢٩	٦٤,٥
آيات قرآنية	٥٥	٢٧,٥
أحاديث نبوية	١٢	٦,٠
آيات من الكتاب المقدس	٤	٢,٠
المجموع	**٢٠٠**	**١٠٠,٠**

وقد تضمنت عبارات الأشكال الأخرى ٧٦ قولا ماثورا بنسبة نحو ٤٢٪ من مجموع عبارات هذه الأشكال، ٥٤ اسما موصوفا بنسبة نحو ٢٩,٨٪، و١١ اسما بنسبة نحو ٦,١٪، و٤٠ عبارة أخرى بنسبة نحو ٢٢,١٪ (جدول رقم ١٢).

جدول رقم (١٢)

توزيع عبارات الأشكال الأخرى حسب أنواعها (١٨١ عبارة)

الأنواع	عدد العبارات	٪
أقوال ماثورة	٧٦	٤٢,٠
أسماء موصوفة	٥٤	٢٩,٨
أسماء	١١	٦,١
عبارات أخرى	٤٠	٢٢,١
المجموع	**١٨١**	**١٠٠,٠**

وفى ضوء أنواع الأشكال الثلاثة (الشعبية والدينية والأخرى) نلاحظ : فى هذه المرحلة من الدراسة، أن الدعوات والابتهالات تتضمن أكثر العبارات من جملة العبارات موضوع الدراسة كلها (١٢٩ عبارة بنسبة نحو ٢٠,٨٪)، وتليها أجزاء الأغانى المصرية (مائة عبارة بنسبة نحو ١٦,١٪)، ثم الأقوال المأثورة (٧٦ عبارة بنسبة نحو ١٢,٣٪) ثم التعبيرات الشعبية (٥٧ عبارة بنسبة نحو ٩,٢٪)، ثم الآيات القرآنية (٥٥ عبارة بنسبة نحو ٨,٩٪)، ثم الأسماء الموصوفة (٥٤ عبارة بنسبة نحو ٨,٧٪)، ثم التحذيرات (٣٠ عبارة بنسبة نحو ٤,٨٪)، ثم الأمثال الشعبية (٢٤ عبارة بنسبة نحو ٣,٩٪)، ثم النصائح (٢٠ عبارة بنسبة نحو ٣,٢٪)، ثم الأحاديث النبوية (١٢ عبارة بنسبة نحو ٢٪)، ثم الأسماء (١١ عبارة بنسبة نحو ١,٨٪)، ثم التحيات (سبع عبارات بنسبة نحو ١,١٪)، ثم الآيات من الكتاب المقدس (أربع عبارات بنسبة نحو ٠,٧٪)، ثم عبارات اخرى (٤٠ عبارة) (بنسبة نحو ٦,٥٪) (جدول رقم ١٣).

جدول رقم (١٣)

توزيع عبارات الأشكال كلها حسب أنواعها (٦١٩ عبارة)

الأنواع	عدد العبارات	٪
الدعوات والابتهالات	١٢٩	٢٠,٨
أجزاء الأغانى المصرية	١٠٠	١٦,١
الأقوال المأثورة	٧٦	١٢,٣
التعبيرات الشعبية	٥٧	٩,٢
الآيات القرآنية	٥٥	٨,٩
الأسماء الموصوفة	٥٤	٨,٧
التحذيرات	٣٠	٤,٨
الأمثال الشعبية	٢٤	٣,٩
النصائح	٢٠	٣,٢
الأحاديث النبوية	١٢	٢,٠
الأسماء	١١	١,٨
التحيات	٧	١,١
الآيات من الكتاب المقدس	٤	٠,٧
عبارات أخرى	٤٠	٦,٥
المجموع	**٦١٩**	**١٠٠,٠**

٩- من الألفاظ الشائعة فى الكلمات والعبارات :

وقد اهتم الكاتب بحصر الألفاظ الشائعة فى الكلمات والعبارات موضوع الدراسة وعددها ٦٦٩ كلمة وعبارة. ولاحظ أن عدد الألفاظ ٣٢ لفظا، وقد تكررت هذه الألفاظ ٤٤٩ مرة. وكان لفظ الجلالة ومشتقاته اكثرها تكرارا (١٦٧ مرة بنسبة نحو ٣٧,٣)، ويليه لفظ العين (٤٥ مرة بنسبة ١٠٪)، ثم لفظ الحب ومشتقاته (٣٧ مرة بنسبة نحو ٨,٣٪)، ثم لفظ السلامة أو الستر (٣١ مرة بنسبة نحو ٦,٩٪)، ثم لفظ نبى الإسلام (٢٤ مرة بنسبة نحو ٥,٤٪)، ثم لفظ الصبر ومشتقاته (٢٢ مرة بنسبة نحو ٤,٩٪)، ثم الأولياء أو القديسون (أم هاشم خمس مرات، والحسن أربع مرات، والمتولى

مرتان، والسيد البدوى مرتان، ومار جرجس" أو البطل الرومانى"مرتان، وابو العباس مرة واحدة).

والعدوى مرة واحدة، والغريب مرة واحدة، ولفظ أهل البيت مرة واحدة، أى (١٩ مرة بنسبة نحو ٤,٢٪)، ثم لفظ الحمد أو الشكر (١٨ مرة بنسبة نحو ٤٪) ثم لفظ الظلم وممشتقاته (١٦ مرة بنسبة نحو ٣,٥٪)، ثم لفظ التوكل ومشتقاته (١٤ مرة بنسبة نحو ٣,١٪)، ثم لفظ الحسد (١٤ مرة بنسبة نحو ٣,١٪)، ثم الرزق (١٣ مرة بنسبة نحو ٢,٩٪)، ثم لفظ القضاء أو القدر (ثمانى مرات بنسبة نحو ١,٨٪)، ثم القناعة (خمس مرات بنسبة نحو ١,١٪)، ثم ألفاظ اخرى (الفقر ثلاث مرات، وغلبان أو مسكين، مرتان، والفرج مرتان، والأمل مرتان، والعسر أو الضيق مرتان، ولفظ السيدة العذراء" أم المخلص "مرة واحدة، ولفظ أنبياء آخرين مرة واحدة، وقسمة ونصيب مرة واحدة، والحلم مرة واحدة، والعدل مرة واحدة، أى ١٦ مرة بنسبة نحو ٣,٥٪). (جدول رقم ١٤).

جدول رقم (١٤)
توزع الألفاظ الشائعة فى الكلمات والعبارات حسب مرات تكراها (٣٢ لفظا)

الألفاظ	مرات التكرار	٪
لفظ الجلالة ومشتقاته	١٦٧	٣٧,٣
العين	٤٥	١٠,٠
الحب ومشتقاته	٣٧	٨,٣
السلامة أو الستر	٣١	٦,٩
لفظ نبى الاسلام	٢٤	٥,٤
الصبر ومشتقاته	٢٢	٤,٩
أولياء الله أو القديسيون :		
أم هاشم ٥		
الحسين ٤		
السيد البدوى ٢		
المتولى ٣		
مار جرجس ٢	١٩	٤,٢
أبو العباس ١		
العدوى ١		
الغريب ١		
أهل البيت ١		
الحمد أو الشكر	١٨	٤,٠
الظلم ومشتقاته	١٦	٣,٥
التوكل ومشتقاته	١٤	٣,١
الحسد	١٤	٣,١
الرزق	١٣	٢,٩
القضاء أو القدر	٨	١,٨
القناعة	٥	١,١
ألفاظ أخرى (عشرة الفاظ)	١٦	٣,٥
المجموع	٤٤٩	١٠٠,٠

١٠- النتائج

في ضوء البيانات السابقة يمكننا أن نستخلص بعض النتائج وسنحاول أن نسجل هذه النتائج فيما يلى :

(أ) لقد تبين أن عدد المركبات التى وجدت على هياكلها الكلمات والعبارات موضوع الدراسة، خمسمائة مركبة. وكانت أنواع هذه المركبات عديدة، فقد تضمنت مركبات التاكسى، واللوريات أو عربات النقل، والأتوبيسات وعربات المأكولات أو المشروبات، وعربات الكارو، والسيارات الملاكى. وكان نصيب مركبات التاكسى من المركبات كلها أكبر نصيب، إذ بلغت نسبتها نحو ٤٠٪، وتلى هذه المركبات اللوريات أو عربات النقل بنسبة نحو ٣٥,٤٪، ثم مركبات الأتوبيسات بنسبة نحو ٩,٤٪، ثم مركبات عربات الماكولات أو المشروبات بنسبة نحو ٩,٤٪، ثم مركبات عربات الكارو بنسبة نحو ٤٪، واخيرا مركبات السيارات الملاكى بنسبة نحو ١,٢٪.

(ب) وكان عدد المحافظات التى كانت تسير فيها المركبات المذكورة فى نتيجة (أ) إحدى عشرة محافظة وكان نصيب محافظة القاهرة من هذه المركبات أكبر نصيب (٢٠٠ مركبة) بنسبة نحو ٤٠٪، ثم محافظة الجيزة (١٣٠ مركبة) بنسبة نحو ٢٦٪، ثم محافظة أسوان (٣٥ مركبة) بنسبة نحو ٧٪، ثم محافظة الإسكندرية (٣٠ مركبة) بنسبة نحو ٦٪، ثم محافظة بنى سويف (٣٠ مركبة) بنسبة نحو ٦٪، ثم محافظة الدقهلية (٢٠ مركبة) بنسبة نحو ٤٪، ثم محافظة الغربية (١٥ مركبة) بنسبة نحو ٣٪، ثم محافظة كفر الشيخ (١٥ مركبة) بنسبة نحو ٣٪، ثم محافظة القليوبية (عشر مركبات) بنسبة نحو ٢٪، ثم محافظة دمياط (عشر مركبات) بنسبة نحو ٢٪، واخيرا محافظة الأقصر (خمس مركبات) بنسبة نحو ١٪.

(جـ) أما عدد المحافظات التى تشرف إداريا على هذه المركبات فقد كان ثلاث عشرة محافظة بزيادة محافظتى الشرقية والبحيرة. وكان نصيب محافظة القاهرة من هذه المركبات، ايضا، اكبر نصيب (١٣٩ مركبة) بنسبة نحو ٢٧,٨٪، ثم محافظة الجيزة (١١٨ مركبة) بنسبة نحو ٢٣,٦٪، ثم محافظة الدقهلية (٤٧ مركبة) بنسبة نحو ٩,٤٪، ثم محافظة القليوبية "٣٣

مركبة) بنسبة نحو ٦,٦٪، ثم محافظات أسوان وبني سويف والشرقية (٣٠ مركبة لكل محافظة) بنسبة نحو ٦٪، ثم محافظة الإسكندرية (٢٥ مركبة) بنسبة نحو ٥٪، ثم محافظة الغربية (١٣ مركبة) بنسبة نحو ٢,٦٪، ثم محافظة كفر الشيخ (١٢ مركبة) بنسبة نحو ٢,٤٪، ثم محافظة الأقصر (عشر مركبات) بنسبة نحو ٢٪، ثم محافظة دمياط (ثماني مركبات) بنسبة نحو ١,٦٪، واخيرا محافظة البحيرة (خمس مركبات بنسبة نحو ١٪.

(د) أي أن عدد المركبات التي تسير في محافظات أخرى غير المحافظات التي تشرف عليها إداريا قد بلغ ٢٦٦ مركبة بنسبة ٥٣,٢٪ من جميع المركبات. وقد بلغت هذه النسبة في محافظة القاهرة نحو ٦٠٪ (١٢٠ مركبة من ٢٠٠ مركبة)، وفي محافظة الجيزة نحو ٦١,٥٪ (٨٠ مركبة من ١٣٠ مركبة)، وفي محافظة أسوان نحو ٢٨,٦٪ (عشر مركبات من ٣٥ مركبة)، وفي محافظة الإسكندرية نحو ١٦,٧٪ (خمس مركبات من ٣٠ مركبة)، وفي محافظة بني سويف نحو ٦٦,٧٪ (٢٠ مركبة من ٣٠ مركبة)، وفي محافظة الدقهلية نحو ٥٠٪ (عشر مركبات من ٢٠ مركبة)، وفي محافظة الغربية نحو ٣٣,٣٪ (خمس مركبات من ١٥ مركبة)، وفي محافظة كفر الشيخ نحو ٤٦,٧٪ (سبع مركبات من ١٥ مركبة)، وفي محافظة القليوبية نحو ٢٠٪ (مركبتان من عشر مركبات)، في محافظة دمياط نحو ٢٠ أيضا (مركبتان من عشر مركبات)، وفي مدينة الأقصر نحو ١٠٠٪ (خمس مركبات).

(هـ) وقد تيسر جمع ألف كلمة وعبارة من على هياكل المركبات. وكان عدد الكلمات والعبارات المجموعة من على هياكل سيارات "التاكسي" أكبر من المجموعة من على كل من هياكل المركبات الأخرى، فقد وجدت ٤٠٠ كلمة وعبارة عليها بنسبة نحو ٤٠٪، و٣٦٠ كلمة وعبارة علي هياكل اللوريات أو عربات النقل بنسبة نحو ٣٦٪، ومائة كلمة وعبارة على هياكل الأتوبيسات بنسبة نحو ١٠٪، و٩٤ كلمة وعبارة على هياكل عربات المأكولات والمشروبات بنسبة نحو ٩,٤، و٤٠ كلمة وعبارة على هياكل عربات "الكارو" بنسبة نحو ٤٪، واخيرا ست كلمات وعبارات فقط على هياكل سيارات الملاكي بنسبة نحو ٠,٦٪.

(و) وقد تبين أن عدد الكلمات المجموعة كان ٧١ كلمة فقط، في حين أن عدد العبارات المجموعة كان ٩٢٩ عبارة.

(ز) ومن الـ ٧١ كلمة تكررت أربع كلمات ٢١ مرة. أي أن عدد الكلمات موضوع الدراسة هو ٥٠ كلمة فقط بنسبة نحو ٧٠٪ من جملة الكلمات المجموعة. ومن الكلمات المكررة تبين أن كلمة لفظ الجلالة "الله" تكررت ١٥ مرة بنسبة نحو ٧١,٥٪، وتكرر كل من كلمات "حنان" و"فكروني" و"مني" مرتين.

وكانت أشكال الكلمات موضوع الدراسة وعددها ٥٠ كلمة عديدة. وكان أكثر الكلمات من الأسماء (٣٨ كلمة بنسبة نحو ٧٦٪). أما باقي الكلمات وعددها ١٢ كلمة بنسبة نحو ٢٤٪ فقد تضمنتها أشكال أخرى : منها خمس كلمات دعوات وابتهالات، وثلاث كلمات بداية أغاني مصرية معروفة، وثلاث كلمات تحذير، وكلمة واحدة لفظ الجلالة (الله).

(ح) وإذا كان عدد العبارات المجموعة ٩٢٩ عبارة، فإن ١٩ عبارة منها تكررت ٣١٠ مرت. أي أن عدد العبارات موضوع الدراسة هو ٦١٩ عبارة فقط بنسبة نحو ٦٦,٦٪ من جملة العبارات المجموعة. ومن العبارات المكررة تبين أن عبارة "يارب سترك" تكررت ٤٥ مرة، وتليها عبارة "يارب رضاك" (٣٥ مرة)، وعبارة "ماشاء الله" (٣٤ مرة)، وكل من عبارتي "الصبر جميل" و"توكلت على الله" (٢٥ مرة)، والآية "إن ينصركم الله فلا غالب لكم) (٢٠ مرة)، والآية (وما توفيقي إلا بالله) (١٨ مرة)، وكل من عبارات "عين الحسود فيها عود يا حلاوة" و"في التأني السلامة وفي العجلة الندامة" و"الله جل جلاله" (١٥ مرة)، وعبارة "صلي على النبي" (١٢ مرة)، وعبارة "يانور النبي" (١١ مرة) وكل من عبارتي "الستار موجود" و"سيري على بركة الله" (عشر مرات)، وكل من عبارتي "القناعة كنز لا يفني" و"يا حاسدين الناس مالكم ومال الناس" (خمس مرات)، وعبارة "لا تتعجب فإنها قدرة الله" (أربع مرات"، وكل من عبارتي "كفاية يا عين" و"يابركة دعاء الوالدين" (ثلاث مرات).

وكانت أشكال العبارات موضوع الدراسة وعددها ٦١٩ عبارة ثلاثة أشكال. وكان أكثر الأشكال الشعبية (٢٣٨ عبارة بنسبة

نحو ٣٨,٥٪)، وتلى ذلك الأشكال الدينية (٢٠٠ عبارة بنسبة نحو ٣٢,٣٪) وتلى ذلك الأشكال الأخرى (١٨١ عبارة بنسبة نحو ٢٩,٢٪).

(ط) وتضمنت عبارات الأشكال الشعبية عبارات عديدة. وكان أكثرها عبارات شملت "أجزاء من أغانى مصرية" بنسبة نحو ٤٢٪، وتليها عبارات شملت "تعبيرات شعبية" بنسبة نحو ٢٤٪، وعبارات شملت "تحذيرات" بنسبة نحو ١٢,٦٪، وعبارات شملت "أمثالا شعبية" بنسبة نحو ١٠٪، وعبارة شملت "تصائح" بنسبة نحو ٨,٤٪، وأخيرا عبارات شملت "تحيات" بنسبة نحو ٣٪.

(ى) وتضمنت عبارات الأشكال الدينية عبارات عديدة. وكان أكثرها عبارات شملت "دعوات وابتهالات" بنسبة نحو ٦٤,٥٪، وتليها عبارات شملت "آيات قرآنية" بنسبة نحو ٢٧,٥٪، وعبارات شملت "احاديث نبوية" بنسبة نحو ٦٪، وأ خيرا عبارات شملت "آيات من الكتاب المقدس" بنسبة نحو ٢٠٪.

(ك) وتضمنت عبارات الأشكال الأخرى عبارات عديدة. وكان أكثرها عبارات شملت "أقوالا المأثورة" بنسبة نحو ٤٢٪، وتليها عبارات شملت "أسماء موصوفة" بنسبة نحو ٢٩,٨٪، وعبارات شملت "اسماء" بنسبة نحو ٦,١٪، واخيرا عبارات شملت "عبارات أخرى" بنسبة نحو ٢٢,١٪.

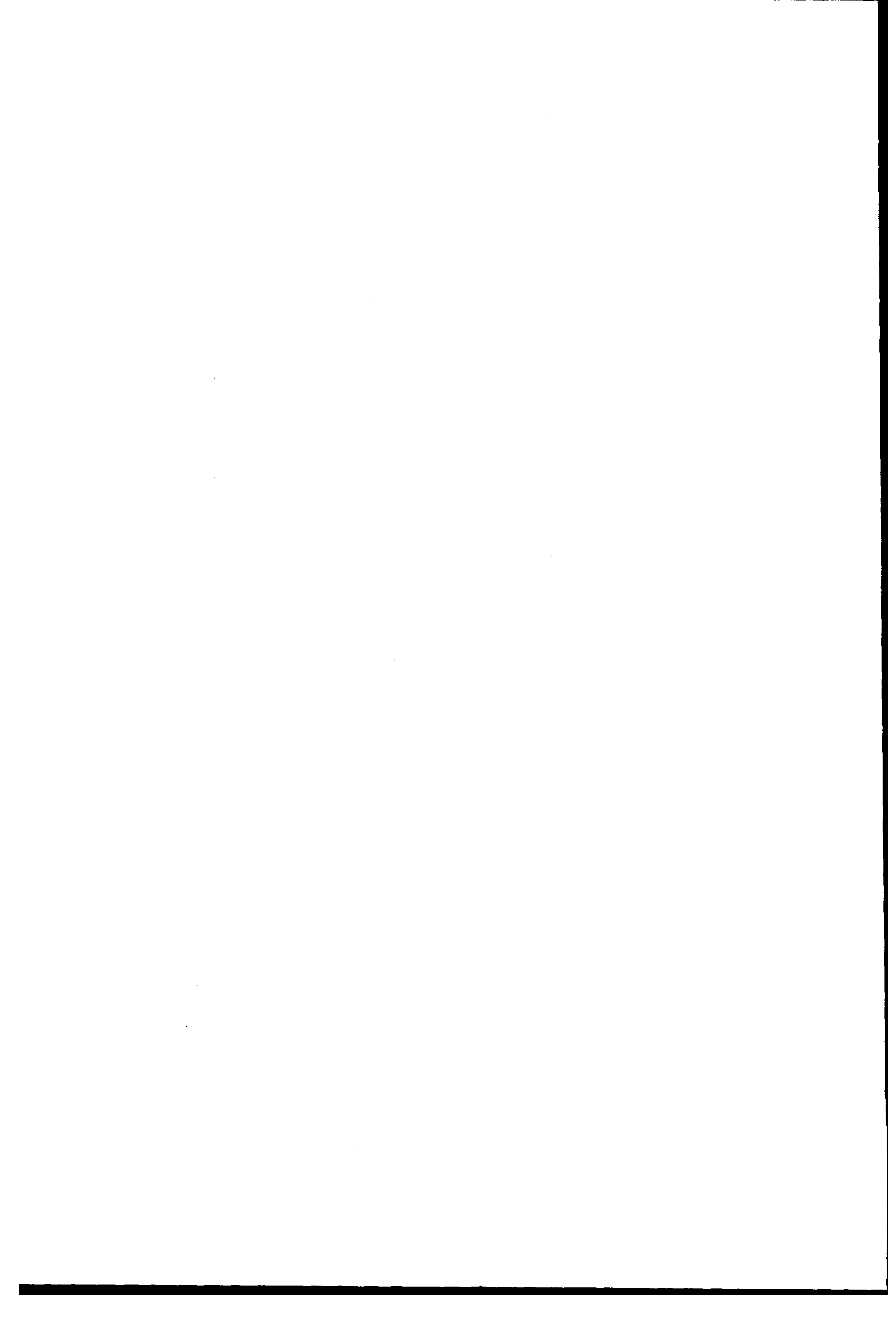
(ل) وكان أكثر العبارات موضوع الدراسة وعددها ٦١٩ عبارة، "الدعوات والابتهالات" بنسبة نحو ٢٠,٨٪، وتليها عبارات "أجزاء الأغانى المصرية" بنسبة نحو ١٦,١٪، وعبارات "الأقوال مأثورة " بنسبة نحو ١٢,٣٪، وعبارات "التعبيرات الشعبية" بنسبة نحو ٩,٢٪، والعبارات التى شملت "الآيات القرآنية" بنسبة نحو ٨,٩٪، وعبارات "الاسماء الموصوفة" بنسبة نحو ٨,٧٪، وعبارات "التحذيرات" بنسبة نحو ٤,٨٪، وعبارات "الأمثال الشعبية" بنسبة نحو ٣,٩٪، وعبارات "النصائح" بنسبة نحو ٣,٢٪ والعبارات التى شملت "الأحاديث النبوية" بنسبة نحو ٢٪، والعبارات التى شملت "الأسماء" بنسبة نحو ١,٨٪، وعبارات "التحيات" بنسبة نحو ١,١٪، والعبارات التى شملت "الآيات من الكتاب المقدس" بنسبة نحو ٠,٧٪، واخيرا العبارات التى شملت "عبارات أخرى" بنسبة نحو ٦,١٪.

(م) وقد تبين ان الكلمات والعبارات موضوع الدراسة وعددها ٦٦٩ كلمة وعبارة، وقد تضمنت ٣٢ لفظا شائعا. وقد تكررت هذه الألفاظ ٤٤٩ مرة. وكان لفظ الجلالة ومشتقاته أكثرها تكرارا (٦٧ مرة بنسبة نحو ٣٧,٣٪)، ويليه لفظ العين (٤٥ مرة بنسبة نحو ١٠٪)، ثم لفظ الحب ومشتقاته (٣٧ مرة بنسبة نحو ٨,٣٪)، ثم لفظ السلامة أو الستر (٣١ مرة بنسبة نحو ٦,٩٪)، ثم لفظ نبى الاسلام (٢٤ مرة بنسبة نحو ٥,٤٪)، ثم لفظ الصبر ومشتقاته (٢٢ مرة بنسبة نحو ٤,٩٪)، ثم الأولياء أو القديسون (أم هاشم خمس مرات، والحسين أربع مرات، والسيد البدوى مرتان، والمتولى مرتان، ومار جرجس، أو البطل الرومانى (مرتان)، وابو العباس مرة واحدة، والعدوى مرة واحدة، والغريب مرة واحدة، ولفظ أهل البيت مرة واحدة، أى (١٩ مرة بنسبة نحو ٤,٢٪)، ثم لفظ الحمد والشكر (١٨ مرة بنسبة نحو ٤٪)، ثم لفظ الظلم ومشتقاته (١٦ مرة بنسبة نحو ٣,٥٪)، ثم لفظ التوكل ومشتقاته (١٤ مرة نحو ٣,١٪)، لفظ الحسد (١٤ مرة بنسبة نحو ٣,١٪) ثم لفظا الرزق (١٣ مرة بنسبة نحو ٢,٩٪)، ثم لفظ القضاء أو القدر (ثمانى مرات بنسبة نحو ١,٨٪)، ثم لفظ القناعة (خمس مرات بنسبة نحو ١,١٪)، ثم ألفاظ اخرى (الفقرة ثلاث مرات وغلبان او مسكين مرتان، والفرج مرتان، والأمل مرتان، والعسر أو الضيق مرتان، ولفظ السيدة العذراء (ام المخلص) مرة واحدة، لفظ أنبياء آخرين مرة واحدة، وقسمة ونصيب مرة واحدة، والحلم مرة واحدة، والعدل مرة واحدة، أى (١٦ مرة بنسبة نحو ٣,٥٪).

الفصل الرابع

مضمون عبارات

الأشكال الشعبية وكلماتها



أجزاء من الأغانى المصرية - التعبيرات الشعبية - التحذيرات - الأمثال الشعبية - النصائح - التحيات - النتائج.

١- أجزاء من الأغانى المصرية :

وفى ضوء بيانات الفصل السابق والنتائج التى استخلصناها منها تبين أن مضمون بعض الكلمات وبعض عبارات الأشكال الشعبية يحتوى على بدايات أغانى مصرية أو أجزاء من هذه الأغانى. ونجد أن هذه الكلمات هى بدايات أغانى، أما العبارات.. فقد تكون بدايات أغانى أو أجزاء منها. والملاحظ.. أن هذه البدايات والأجزء عديدة.وكلها فى الغالب بدايات أغانى أو أجزاء من أغانى معروفة وشائعة يرددها المغنون المصريون أو العرب عن طريق الإذاعة، أو التليفزيون، أو فى الأفلام المصرية العربية، أو فى الحفلات. والملاحظ أيضا أن عبارات الأشكال الشعبية التى تتضمن بدايات الأغانى المصرية أو الأجزاء منها هى مائة عبارة بنسبة نحو ٤٢٪ من مجموع عبارات الأشكال الشعبية موضوع الدراسة، أما الكلمات التى تتضمن بدايات أغانى مصرية فقد كان عددها ثلاث كلمات فقط بنسبة نحو ٦٪ من مجموع الكلمات موضوع الدراسة.

- **وكانت عبارات الأشكال الشعبية التى تتضمن بدايات أغانى مصرية أو أجزاء منها هى:**

رقم مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى	اسم المغنى او المغنية	ملاحظات
١	أبو سمرة السكرة	١٠	محمد قنديل	
٢	اتمخطرى واتمايلى يا خيل	١٤	ليلى مراد	عبارة الأغنية محرفة
٣	إدلع يا رشيدى على وش المية	٢٦	ليلى نظمى	
٤	أراك عصى الدمع شيمتك الصبر	٣٧	ام كلثوم	

رقم مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى	اسم المغنى او المغنية	ملاحظات
٥	أروح لمين	٣٩	ام كلثوم	
٦	أسأل روحك أسأل قلبك قبل ما تسأل إيه حيرنى	٤١	ام كلثوم	
٧	اعطينى حريتى اطلق يديا اننى اعطيته ما استبقيت شيئا	٥٠	ام كلثوم	عبارة الأغنية محرفى
٨	اقولك ايه عن الشوق يا حبيبى	٥٣	ام كلثوم	
٩	اكتر من مرة عاتبتك وادتلك وقت تفكر	٥٥	ام كلثوم	
١٠	الحب كده	٦٧	ام كلثوم	
١١	الطشت قلى.. الطشت قلى	٩٣	عايدة الشاعر	
١٢	العتبة جزاز	٩٦	فرقة رضا	
١٣	القلب معاك	١٠٧	شادية	
١٤	الهوى هوايا انا الهوى هوايا.	١٤٣	عبد الحليم حافظ	
١٥	اما نعيمة نعمين	١٤٦	ليلى ونظمى	
١٦	ام نعيمة خلى فؤاد يكلمنى	١٤٨	ليلى نظمى	عبارة الأغنية محرفة
١٧	امل حياتى يا حب غالى مينتهيش	١٥٢	ام كلثوم	
١٨	انا من يومى كايدة التجار	١٧١	عايدة الشاعر	عبارة الأغنية محرفة
١٩	انت الحب	١٧٢	ام كلثوم	
٢٠	انت عمري	١٧٦	ام كلثوم	
٢١	انساك ده كلام انساك يا سلام	١٧٨	ام كلثوم	
٢٢	انما للصبر حدود يا حبيبى	١٨٠	ام كلثوم	انظر رقم مسلسل ٧١
٢٣	أهل الهوى مظاليم	١٨١	محمد عبد والوهاب	عبارة الأغنية محرفة

رقم مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة في القاموس الأبجدي	اسم المغني او المغنية	ملاحظات
٢٤	اهل الهوى يا ليل	١٨٢	ام كلثوم	
٢٥	بتبص لى كده ليه	١٩٢	ليلى مراد	
٢٦	بتلمونى ليه لو شفتم عنيه	١٩٤	عبد الحليم حافظ	
٢٧	بعيد عنك حياتى عذاب	٢٠٦	ام كلثوم	
٢٨	بلاش أسيه ارحم عنيه	٢٠٩	ام كلثوم	
٢٩	تتوه انا عنيا بنظرتك ليا	٢١٣	ام كلثوم	
٣٠	تراعيني قيراط اراعيك قيراطين	٢١٤	محمد عبد الوهاب	
٣١	تفيد بايه يا ندم وتعمل ايه عتاب	٢١٩	ام كلثوم	
٣٢	جانا الهوى جانا وبسهمه السريع رمانا	٢٢٣	عبد الحليم حافظ	عبارة الأغنية محرفة
٣٣	جددت حبك ليه بعد الفؤاد ما ارتاح	٢٢٥	ام كلثوم	
٣٤	حديث الروح للأرواح يسرى	٢٣٩	ام كلثوم	
٣٥	حلو وكداب	٢٥١	عبد الحليم حافظ	
٣٦	حيارى مظلومين	٢٦١	ام كلثوم	
٣٧	دارت الأيام	٢٧١	ام كلثوم	
٣٨	دوبنى دوب يا هوى	٢٧٤	فايزة احمد	
٣٩	زى الهوى يا حبيبى وآه من الهوى	٢٩٨	عبد الحليم حافظ	
٤٠	ساكن قصادى	٣٠١	نجاة الصغيرة	
٤١	سالمة يا سلامة	٣٠٢	سيد درويش	
٤٢	سلم على سلم على لما قابلنى	٣١٤	ليلى مراد	
٤٣	سهران لوحدى	٣١٧	أم كلثوم	

رقم مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة في القاموس الأبجدى	اسم المغنى او المغنية	ملاحظات
٤٤	سواح وأنا ماشى فى البلاد سواح	٣١٨	عبد الحليم حافظ	عبارة الأغنية محرفة
٤٥	سواح وماشى على الطريق سواح	٣١٩	عبد الحليم حافظ	عبارة الأغنية محرفة
٤٦	سوق على مهلك	٣٢٠	شادية	
٤٧	شغلونا يابا مغرم صبابة	٣٣٤	محمد رشدى	
٤٨	طوف وشوف	٣٦١	ام كلثوم	
٤٩	عاشق جمال النبى	٣٦٦	محمد طه	
٥٠	عطشان يا صبايا دلونى على السبيل	٣٧٨		من أغنية شعبية قديمة
٥١	على الصبر ما حناش قادرين ليه بتحسد الصابرين	٣٨٣	ام كلثوم	عبارة الأغنية محرفة
٥٢	على عينى كرملة	٣٨٤	ليلى نظمى	
٥٣	عودت عيني على رؤياك	٣٩٠	ام كلثوم	
٥٤	عين الحسود فيها عود	٣٩٢		من أغنية شعبية قديمة
٥٥	عين الحسود فيها عود يا جميلة	٣٩٣		أغنية قديمة محرفة
٥٦	عين الحسود فيها عود يا حلاوة	٣٩٥		من أغنية شعبية قديمة
٥٧	عينى على عينى على السواقين	٣٩٨	ام كلثوم	عبارة الأغنية محرفة
٥٨	غلاب الهوى غلاب	٤٠٠	عبد الغنى السيد	عبارة الأغنية محرفة
٥٩	فكرى طول الليل والنهار مشغول بقربك	٤٠٥	ام كلثوم	عبارة الأغنية محرفة

رقم مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى	اسم المغنى او المغنية	ملاحظات
٦٠	فل عليك ورد عليك	٤٠٦	محمود شكوكو	عبارة الأغنية محرفة
٦١	فوق الشوق مشانى زمانى	٤١٢	عبد الحليم حافظ	
٦٢	فى يوم فى شهر فى سنة تهدى الجراح وتنام	٤٢٠	عبد الحليم حافظ	
٦٣	كايدة العزال	٤٣٥	عايدة الشاعر	
٦٤	كايدة العزال انا من يومى	٤٣٦	عايدة الشاعر	
٦٥	كايدة العزال يا سكينة	٤٣٧	عايدة الشاعر	عبارة الأغنية محرفة
٦٦	كل الناس حلوين	٤٤٦	ام كلثوم	
٦٧	كل ليلة وكل يوم استنى قربك فى انتظارك يا حبيبى	٤٤٨	ام كلثوم	
٦٨	كلمونى تانى عنك – فكرونى	٤٤٩	ام كلثوم	عبارة الأغنية محرفة
٦٩	لا نوم ولا دمع مخلاش الفراق فيه	٤٧٠	ام كلثوم	عبارة الأغنية محرفة
٧٠	لسة فاكر قلبى يديلك امان ولا فاكر كلمة حتعيد اللى كان	٤٧٣	ام كلثوم	
٧١	للصبر حدود	٤٧٥	ام كلثوم	
٧٢	للصبر حدود وأنا صابر	٤٧٦	أم كلثوم	عبارة الأغنية محرفة
٧٣	ما أطال النوم عمرا وما قصر السهر عمرا	٤٨٦	ام كلثوم	عبارة الأغنية محرفة
٧٤	ما خدش العجوز أنا	٤٩١	ليلى نظمى	
٧٥	مازلت كايدة العزال	٤٩٤	عايدة الشاعر	(أنظر رقم مسلسل ٦٤)
٧٦	ما قدرش على بعد حبيبى	٤٩٧	ام كلثوم	

رقم مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى	اسم المغنى او المغنية	ملاحظات
٧٧	ما قدرش علـى كـده ومقـام السيدة	٥٢٧	فهد بلان	
٧٨	من القلب للقلب رسول	٥٣٣	ليلى مراد	
٧٩	من الموسكى لسوق الحميدية	٥٣٤	صباح	
٨٠	من فرحتى تهت مع الفرحة	٥٣٩	ام كلثوم	
٨١	من فرحتى لا بنام ولا بصحى	٥٤٠	ام كلثوم	
٨٢	مين ينصر المظلوم ويحاسب الظالم	٥٥٥	ليلى مراد	
٨٣	نور العيون يا شاغلنى	٥٧٥	محمد أمين	
٨٤	هجرتك يمكن انسى هـواك ورجع قلبك القاسي	٥٧٨	ام كلثوم	
٨٥	هل رأى الحب سكارى مثلنا	٥٨٢	ام كلثوم	
٨٦	هو صحيح الهوى غلاب	٥٨٤	ام كلثوم	
٨٧	وتغضب لما أقولك يا ظالمنى	٦٠٣	ام كلثوم	عبـارة الأغنيـة محرفة
٨٨	ودع هواك	٦٠٩	محمد عبد المطلب	
٨٩	ورد عليه فل عليه	٦١٠	محمود شكوكو	انظر رقـم مسلسـل ٦٠
٩٠	وصفوا لى الصبر لقيته خيال	٦١١	ام كلثوم	
٩١	وقبلته نسيت انى خاصمته	٦١٣	ام كلثوم	
٩٢	ولا تنسى حبايبنا أعز الناس	٦١٤	عبد الحليم حافظ	
٩٣	وهى غلطة ومش حتعود	٦٢٢	أم كلثوم	
٩٤	يا أجمل هدية من أمي وأبويا	٦٢٣	فايزة احمد	
٩٥	يا بنت يـاللى المولـى اعطـاك الجمال وزعيه على اخواتك			جـزء مـن مـوال شعبى
٩٦	يا ترى يا وحشنى بتفكر فمين	٦٢٧	ام كلثوم	

رقم مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى	اسم المغنى او المغنية	ملاحظات
٩٧	يا حاسدين الناس مالكم ومال الناس	٦٢٨	محمد عبد المطلب	
٩٨	يا ظلمنى يا هاجرنى	٦٥٠	أم كلثوم	
٩٩	ياليل يا عين	٦٥٤		جزء من موال شعبى
١٠٠	ياما عيون شغلونى	٦٥٦	ام كلثوم	
– وكانت الكلمات التى تتضمن بدايات أغانى مصرية هى :				
١٠١	فكرونى	٤٠٤	ام كلثوم	
١٠٢	يا ظالمنى	٦٤٩	ام كلثوم	
١٠٣	يا هاجرنى	٦٦٧	ام كلثوم	

وفى ضوء ما سبق نلاحظ ما يلى :

(أ) أن بعض أجزاء الأغانى (وبخاصة مضمون العبارات) هى أجزاء أو عبارات أغان محرفة. أى أن كاتبها قد أضاف إليها بعض المعانى التى يريدها هو. وكان عدد هذه العبارات ٢٠ عبارة. فنلاحظ أن عبارة الأغنية "اتمخترى واتمايلى يا زين" للمغنية ليلى مراد، قد حرفت وكان أصلها "اتمخترى واتمايلى يا خيل"، وأن عبارة الأغنية "اعطينى حريتى أطلق يديا إن اعطيته ما استبقيت شيئا" للمغنية أم كثوم، كان أصلها "اعطينى حريتى اطلق يدى إننى أعطيت ما استبقيت شيئا". وإن عبارة الأغنية "أما نعيمة خلى فؤاد يكلمنى" للمغنية ليلى نظمى، كان أصلها "أما نعيمة خلى عليوه يكلمنى"، وأن عبارة الأغنية "أنا من يومى كايدة التجار" للمغنية عايدة الشاعر، كان أصلها "أنا من يومى كايدة العزال"، وأن عبارة الأغنية "أهل الهوى مظاليم" للمغنى محمد عبد الوهاب، كان أصلها "أهل الهوى مساكين، صابرين ومش صابرين، وبيحسدوا الخالى"، وأن عبارة الأغنية "جانا الهوى جانا وبسهمه السريع رمانا" للمغنى عبد الحليم حافظ، كان أصلها "جانا الهوى جانا ورمانا الهوى رمانا"، وأن عبارتى الأغنية "سواح وأنا ماشى فى البلاد

سواح" أو سواح وماشى على الطريق سواح" للمغنى عبد الحليم حافظ، كان أصلها "سواح.. وماشى فى البلاد سواح"، وأن عبارة الأغنية "على الصبر ما حناش قادرين ليه بتحسد الصابرين" للمغنية أم كلثوم، كان أصلها "حيارى مظلومين على الصبر مش قادرين"، وأن عبارة الأغنية "عين الحسود فيها عود يا جميلة" (أغنية شعبية قديمة)، كان أصلها "عين الحسود فيها عود يا حلاوة"، وأن عبارة الأغنية "عينى على السواقين" للمغنية أم كلثوم كان أصلها "عينى يا عينى على العاشقين"، وأن عبارة الأغنية "غلاب الهوى غلاب" للمغنى عبد الغنى السيد، كان أصلها "غلاب الهوى يا عينى غلاب الهوى"، وإن عبارة الأغنية "فكرى طول الليل والنهار مشغول بقربك" للمغنية أم كلثوم، كان أصلها "فكرى طول الليل فى ليلك والنهار كله فى نهارك يا حبيبى"، وأن عبارة الأغنية "فل عليك ورد عليك" للمغنى محمود شكوكو، كان أصلها وردة عليك فلة عليك"، وإن عبارتى الأغنية "كايدة العزال يا سكينة" و"مازلت كايدة العزال" للمغنية عايدة الشاعر، كان أصلها "كايدة العزال أنا من يومى"، وإن عبارة الأغنية "لا نوم ولا دمع مخلاش الفراق فيه" للمغنية أم كلثوم، كان أصلها "لا نوم ولا دمع فى عنيا"، وأن عبارة الأغنية "للصبر حدود وانا صابر" للمغنية أم كلثوم، كان أصلها " للصبر حدود يا حبيبى"، وأن عبارة الأغنية "ما أطال النوم عمرا وما قصر السهر عمرا" للمغنية أم كلثوم، كان أصلها "فما أطال النوم عمرا ولا قصر فى الأعمار طول السهر"، وأن عبارة الأغنية " وتغضب لما اقولك يا ظالمنى" للمغنية أم كلثوم، كان اصلها "وتغضب لما اقولك يوم يا ظالمنى".

(ب) أن بدايات الأغانى أو أجزائها عديدة ومتنوعة وبعضها مكرر، وهى تتضمن معانى عديدة، ومن هذه المعانى ما يترنم بالحب والهوى (عبارات أرقام : ١٠ و١٤ و١٩ و٢٣ و٢٤ و٣٣ و٣٩ مثلا)، ومنها ما يترنم بالشكوى والعتاب والخصام والهجر والفراق والسهاد والوحدة والوداع وكيد العزال (عبارات وكلمات أرقام : ٥ و٢٨ و٩ و٣١ و٦٨ و٩١ و٨٤ و١٠٣ و٦٩ و٧٣ و٨١ و٤٣ و٨٨ و٦٣ و٦٤ و٦٥ مثلا)، ومنها ما يترنم بالظلم والعذاب والضياع (عبارات وكلمات أرقام : ٢٣ و٣٦ و٨٢ و١٠٢ و٢٧ و٣٨ و٦١ و٩٦ مثلا)، ومنها ما يترنم بالصبر والانتظار والحيرة (عبارات أرقام : ٤ و٢٢ و٧١ و٩ و٦ مثلا)، ومنها معانى تتضمن الحسد

بعامة والحسد من العين "بخاصة" (عبارات أرقام : ٢٥ و٥٤ و٥٥ و٥٦ مثلا)، ومنها معاني تترنم بالاستسلام للقدر والزمان (عبارة رقم ٥٨ وعبارة رقم ٦١ مثلا).

ومن معاني عبارات الأغاني، موضوع الدراسة، نجد ما يترنم بالأمل والفرح والغزل والدعابة والتسامح والسلامة (عبارات أرقام : ١٧ و٨٠ و١ و٣ و٢٦ و٥٢ و٧٤ و٢١ و٩١ و٤١).

(جـ) أن الأغلبية الساحقة لعبارات الأغاني التي ذكرت بدايات منها أو أجزاء منها، تتضمن أغاني حديثة يعرف من ألفها ومن غناها (٦٤ عبارة)، وقد تبين وجود أربع عبارات من أغان قديمة "عطشان يا صبايا دلوني على السبيل"، و"عين الحسود فيها عود" و"عين الحسود فيها عود يا جميلة" (محرفة)، و"عين الحسود فيها عود يا حلاوة"، وتبين وجود مواليد شعبيين "يا بت ياللي المولى اعطاك الجمال وزعيه على اخواتك" و"ياليل يا عين". أما الكلمات فقد كان مضمونها كلها بدايات أغان حديثة. أى أن عدد عبارات وكلمات الأغاني الحديثة المعروفة هو ٩٧ عبارة وكلمة يغنيها ٢٠ مغنيا ومغنية.

(د) أن نصيب المغنية أم كلثوم من عبارات الأغاني الحديثة أكبر نصيب، إذ بلغ عدد هذه العبارات ٤٨ عبارة من ٩٤ عبارة، وكان نصيبها من الكلمات الثلاث كلها، ويلي المغنية أم كلثوم، المغني عبد الحليم حافظ إذ بلغ عدد عبارات أغانيه عشر عبارات، وتليه المغنية عايدة الشاعر إذ بلغ عدد عبارات أغانيها ست عبارات. ثم كل من المغنية ليلى مراد، والمغنية ليلى نظمي إذ بلغ عدد عبارات اغانيهما خمس عبارات. ثم كل من المغنية شادية، والمغنية فايزة احمد، والمغني محمد عبد الوهاب، والمغني محمود شكوكو، والمغني محمد عبد المطلب، إذ بلغ عدد عبارات كل منهم عبارتين. اما باقي عبارات الأغاني وقدره عشر عبارات، فقد كانت عبارة واحدة لكل من المغنية نجاة الصغيرة، والمغنية صباح وكل من المغنيين سيد درويش ومحمد قنديل، وفرقة رضا، ومحمد رشدي، ومحمد طه، وعبد الغني السيد ومحمد امين، وفهد بلان.

٢- التعبيرات الشعبية :

وتضمنت عبارات الأشكال الشعبية موضوع الدراسة ٥٧ عبارة تمثل "تعبيرات شعبية" بنسبة نحو ٢٤٪ من مجموع عبارات الأشكال الشعبية، ولم تتضمن الكلمات موضوع الدراسة تعبيرات شعبية، والمقصود بالتعبير الشعبى فى الدراسة الحالية "بعض الكلام الذى يعبر به الانسان المصرى عندما يتحدث حديثا عاديا"، كقوله عندما يعجب من شخص ما او عمل ما أو شئ ما "آخر جنان" !، أو قوله عندما لا يستطيع تحقيق مأربه من شخص معين متسائلا "آخر طريقك فين ؟" - او قوله عندما يطلب من آخر طلبا او يطلب منه الصبر وعدم العجلة "اديني من وقتك ساعة"، أو قوله عندما تضيق به الحال مستسلما "تصيبى كده"، او متفائلا "حلوة صلاة النبى".

وقد يرى القارئ أن العبارة الأخيرة وغيرها مثل عبارة "حلوة يا بنت والنبى" هى عبارات تتضمن معانى الدعوات والابتهالات وليست مجرد تعبيرات شعبية عادية، ومن حق القارئ أن يرى ما يرى، فالعبرة فى رأى الكاتب تكون فى الموقف الذى تقال فيه هذه العبارات، وقد لا يقتضى هذا الموقف فى كل الأحيان استخدام هذه المعانى.

- وكانت عبارات الأشكال الشعبية التى تتضمن تعبيرات شعبية هى:

مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
١	آخر جنان	٢٣
٢	آخر طريقك فين	٢٤
٣	اديني من وقتك ساعة	٢٧
٤	العب مع غيرى يا ظالم	٩٥
٥	المية زلال اشرب حلال آخر جمال	١٣٦
٦	النبى تبسم	١٣٨

مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
٧	أنا اللى حلوة فيهم	١٦٣
٨	أنا حلوة	١٦٤
٩	أنا مجروح من هجرك	١٧٠
١٠	أنت اللى فيهم يا أبو عزام	١٧٣
١١	أنت اللى فيهم	١٧٧
١٢	أهى جت كده واللى معاه كلمة يلمها	١٨٣
١٣	بص بعينك وارحم بقلبك	١٩٩
١٤	بص شوف الفلوس بتعمل ايه	٢٠٢
١٥	بص وشوف	٢٠٣
١٦	بطل تقل بقى	٢٠٤
١٧	حرام عليك البعد ده	٢٤٠
١٨	حرام عليك يا عبده سيبنى فى حالى	٢٤٢
١٩	حصوة فى عين اللى ما يصلى على النبى	٢٤٦
٢٠	حلوة يا حاجة	٢٥٢
٢١	حلوة دى	٢٥٣
٢٢	حلوة صلاة النبى	٢٥٤
٢٣	حلوة يا بنت والنبى	٢٥٥
٢٤	حمال الأسية	٢٥٨
٢٥	خطر على بالى	٢٦٢

رقم العبارة فى القاموس الأبجدى	مضمون العبارة	مسلسل
٢٦٥	خلى تكالك على الخالق	٢٦
٢٦٦	خليك على كيفك	٢٧
٢٦٧	خليها على الله	٢٨
٢٦٨	خليها على جانب الله	٢٩
٢٦٩	خمسة وخميسة	٣٠
٢٧٦	ده تعديل الله	٣١
٢٧٨	ربنا عاوز كده وانا أعمل إيه	٣٢
٣٢٤	سيبها لله يفعل ما يريد	٣٣
٣٩٧	عينك فيك توريك شغل الزغاليل	٣٤
٤٠٩	فلفلة يا كيداهم	٣٥
٤٣٢	قوللى آخر طريقك فين حللو ياللى ماشى	٣٦
٤٤٢	كايداهم لوحدى	٣٧
٤٤٢	كده شربات	٣٨
٤٤٥	كفاية يا عين	٣٩
٤٤٧	كل شئ بارادته	٤٠
٤٩٦	ما شاء الله عليكى يا هدى	٤١
٤٩٩	متبصليش بالشكل ده	٤٢
٥٠٠	متبصليش قوى لتحسدنى	٤٣
٥١١	مسكينة وماليش غيرك يا حبيبى	٤٤

مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
٤٥	مش بنام الليل يا ليلى	٥١٢
٤٦	معلهش يا زمن الهجرة غربتنا والأيام علمتنا	٥٢٥
٤٧	معلهش يا ظهر	٥٢٦
٤٨	منى عينى هو	٥٥٠
٤٩	نسيبك للزمن يفعل بك ما شاء القدر	٥٥٧
٥٠	نصيبى كده	٥٦٠
٥١	هذه إرادة الله سيبنى فى حالى	٥٨١
٥٢	هى جت كده	٥٨٧
٥٣	والنبى حيجننونى	٥٩٦
٥٤	والنبى لتتفرج	٥٩٧
٥٥	يا دلع ادلع	٦٣٣
٥٦	يا راجل حرام عليك	٦٣٤
٥٧	يا سيدى على كده	٦٤٨

– ويلاحظ أن الكلمات موضوع الدراسة لم تتضمن تعبيرات شعبية.

وفى ضوء ما سبق نلاحظ ما يلى :

(أ) أن التعبيرات الشعبية عديدة ومتنوعة، وهى تتضمن معانى عديدة، ومن هذه المعانى نجد معانى الشكوى، كأن يشكو الشخص من هجر حبيب او قسوته أو فراقه أو من وحدته أو سهاده (عبارات أرقام : ٩ و١٣ و١٧ و٤٤ و٤٥). أو يشكو الشخص من كثرة الهموم والحزن (عبارة رقم ٢٤ وعبارة رقم ٣٩)، والملاحظ أن عبارة رقم ٢٤ "حمال الأسية" تعتبر

شكوى إذا وصف بها الشخص نفسه، ومع ذلك فهى تعتبر وصفا للشخص الصبور. أو يشكو الشخص من الزمان أو من الحظ أو من آخرين أو من أحدهم (عبارات أرقام : ٤٦ و٤٧ و١٨ و٥٣ و٥٦). والشكوى من "آخرين" كما تقول العبارة رقم ٥٣ مثلا "والنبى حيجننونى" أو كما تقول العبارة رقم ٥٦ "يا راجل حرام عليك" قد تكون من المارة أو الركاب أو رجال الشرطة أو أحد هؤلاء، أو غيرهم.

(ب) وتتضمن التعبيرات الشعبية موضوع الدراسة معانى أخرى غير المعانى السابقة. ومن هذه المعانى نجد معانى الاستسلام، وقد يكون الاستسلام لله جل وعلا (عبارات أرقام : ٢٦ و٢٨ و٢٩ و٣١ و٣٢ و٣٣ و٤٠ و٥١)، وقد يكون الاستسلام للزمان والقدر (عبارات : أرقام : ٤٩ و١٢ و٥٠ و٥٢).

(جـ) ومن هذه المعانى كذلك نجد معانى العجب أو التفاخر (عبارات أرقام : ٧ و٨ و١٤ و١٥ و٢١ و٣٥ و٣٧)، معانى الغزل المفتوح والغزل المستور (عبارات أرقام : ٢ و٦ و١٦ و٣٦ و٣٨ و٤٨)، ومعانى الحسد (عبارات أرقام : ١٩ و٣٠ و٤٢ و٤٣)، ومعانى المديح (عبارت أرقام : ١٠ و١١ و٢٠ و٤١)، ومعانى الدعابة الخفيفة (عبارات ارقام : ٦ و٣٤ و٥٥)، ومعانى العجب والتفاؤل أو الدعاء والحداقة والعتاب. (عبارات أرقام ١ و٥٧ و٢٢ و٢٣ و٤ و٢٧).

(د) وقد تضمنت التعبيرات الشعبية عبارات أخرى منها ما يحمل أكثر من معنى مثل عبارة "خطر على بالى" (عبارة رقم ٢٥)، فلفظ خطر قد يكون اسما بمعنى الإشراف على الهلاك، او يكون فعلا بمعنى خطر الشئ بالبال. ومنها ما يطلب الصبر وعدم العجلة مثل عبارة "ادينى من وقتك ساعة" (عبارة رقم ٣). ولعل المقصود من هذه العبارة، أيضا، طلب عدم العجلة، فالعجلة كما يقول العديد من المصريين من "الشيطان"، ومنها ما يصف الماء (او أى شراب آخر) بأنه "زلال اشرب حلال آخر جمال" (عبارة رقم ٥)، ومنها ما يدعو الناس إلى الرؤية بقصد رواج بضاعته "والنبى لتتفرج")عبارة رقم ٥٤).

٣- التحذيرات :

وتضمنت عبارات الأشكال الشعبية موضوع الدراسة ٣٠ عبارة تشمل "تحذيرات" بنسبة نحو ١٢,٦٪ من مجموع عبارات الأشكال الشعبية، وتضمنت الكلمات أيضا ثلاث كلمات بنسبة نحو ٦٪ تشمل تحذيرات. ويقصد بالتحذير فى الدراسة الحالية "النصيحة بفعل أمر ما أو عدم فعله بسبب توقع خطر أو شئ غير مستحب إذ فعل هذا الأمر أو إذا لم يفعل، واتقاء من حدوث هذا الخطر أو هذا الشئ غير المستحب". وقد يرى القارئ أن بعض عبارات التحذيرات هى مجرد "تعبيرات شعبية". ومن حق القارئ أن يرى ما يرى ؛ ولكن الملاحظ أن : كل عبارة من عبارات التحذيرات المذكورة فيما يلى، كلها، يتضمن معنى التحذير كما يقصد به فى الدراسة الحالية.

- وكانت عبارات الأشكال الشعبية التى تتضمن تحذيرات هى :

مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
١	احذر خطأ الغير	٢١
٢	النار بتجرى ورايا	١٣٧
٣	إن خلص الفول أنا مش مسئول	١٥٨
٤	إن خلصت الكراسى أنا ماشى	١٥٩
٥	انا خايف عليك يا نجوى	١٦٥
٦	أنا خايف من عيون الناس	١٦٦
٧	أنا شايفك يا حرامى	١٦٧
٨	أوعى العربية تدوسك	١٨٥
٩	اوعى الهوى	١٨٦
١٠	اوعى من قدامى لحسن أدوسك	١٨٧

مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
١١	بص شوف العربية اللى قدامك	٢٠١
١٢	حاسب على أنا غلبان	٢٣١
١٣	حاسب على يا وحش	٢٣٢
١٤	حاسب ما عنديش إلا هى	٢٣٣
١٥	حاسب وراك وراك حاسب	٢٣٤
١٧	حاسب وراك محاسب	٢٣٥
١٧	حاسب يا مجدى لحس تضيع	٢٣٦
١٨	حرام عليك بص قدامك	٢٤١
١٩	حسونة ابعد عن طريقى	٢٤٥
٢٠	خلى بالك	٢٦٣
٢١	خلى بالك منى	٣٣٤
٢٢	شايفك يا حرامى	٣٣٣
٢٣	شوف قطدامك بص وراك	٣٣٦
٢٤	على مهلك يا أبو سريع	٣٨٥
٢٥	على مهلك يا أبو سمرة	٣٨٦
٢٦	على مهلك يا جمل	٤٨٧
٢٧	ما تبصليش بعين ردية بص للمدفوع عليه	٤٨٧
٢٨	ما تبصليش بعين ردية بص للى أنصرف عليه	٤٨٨

مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
٢٩	ما تبصليش بعين ردية بص للفلوس المدفوعة فيه	٤٨٩
٣٠	ممنوع البصق واللصق	٥٣٢
- وكانت الكلمات التى تتضمن التحذيرات هى :		
٣١	حاسب	٢٣٠
٣٢	عينك	٣٩٦
٣٣	لا تغضب	٤٦٧

وفى ضوء ما سبق نلاحظ ما يلى :

(أ) أن التحذيرات عديدة ومتنوعة. منها تحذيرات تتعلق بكاتب العبارة نفسه، فهو إذ يحذر من اجل نفسه أو من نفسه أو من أجل مصلحته، نجده يحذر أحيانا من الخطر (عبارات أرقام : ٢ و١٢ و١٣ و١٤ و١٧)، وليمعن القارئ فى عبارة التحذير رقم ١٢ "حاسب على أنا غلبان" فهى تتضمن نظرة كاتب العبارة نحو نفسه، وفى العبارة رقم ١٧ "حاسب يا مجدى لحسن تضيع". نجد كاتب العبارة يتحدث فيها عن نفسه إذا اعتبرنا أن اسمه "مجدى". ونجد التحذير من النفس تضمنته أيضا (عبارات أرقام : ٢٤ و٢٥ و٢٦)، وهو تحذير عام يطلب من صاحبه أن يتمهل ولا يسرع. وقد يكون التحذير الذى يتعلق بكاتب اللعبارة نفسه يتضمن الحسد (عبارات أرقام : ٢٧ و٢٨ و٢٩). أو يتضمن توقع الضرر من آخر مثل عبارة رقم ١٩ "حسونة ابعد عن طريقى"، وعبارة رقم ٧ "أنا شايفك يا حرامى" أو رقم ٢٢ "شايفك يا حرامى". أو يتضمن عدم الغضب (كلمة رقم ٣٣)، مع ملاحظة أن هذه الكلمة قد تكون موجهة أيضا للغير.

(ب) وكما تكون التحذيرات من أجل نفس كاتب العبارات أو من نفسه أو من أجل مصلحته، نلاحظ : أنها تكون كذلك تحذيرات موجهة

صراحة للغير أو من اجل الغير. ومن هذه التحذيرات ما يتضمن الخطر (عبارات أرقام : ٨ و١٠ و١١ و١٨). ومن هذه التحذيرات ما يكون عاما، أى لمجرد التحذير (عبارات وكلمات أرقام : ٢٠ و٢١ و٢٣ و٣٠ و٣١). ومنها ما يتضمن فوات مصلحة الغير (عبارة رقم ٣ وعبارة رقم ٤). ومنها ما يتضمن خشية الشر والحسد (عبارة رقم ٥ وعبارة رقم ٦ وكلمة رقم ٣٢). ومنها ما يتضمن توقع المحاسبة (عبارة رقم ١٥ وعبارة ١٦). ومنها ما يتضمن التحذير من الخطأ (عبارة رقم ١). وأخيرا نجد تحذيرا يتضمن، كما يبدو، نمطا من الدعاية "أوعى الهوى" (عبارة رقم ٩).

٤- الأمثال الشعبية :

وتضمنت عبارات الأشكال الشعبية موضوع الدراسة ٢٤ عبارة تشمل "أمثالاشعبية"بنسبة نحو ١٠٪ من مجموع عبارات الأشكال الشعبية. ولم تتضمن الكلمات موضوع الدراسة بالضرورة أمثالا شعبية. والمقصود بالمثل الشعبى فى الدراسة الحالية "كل ما تضمنه التراث الشعبى الشفوى (الذى لا يعرف صائغه) من الحكم والمواعظ ومحاولات التعبير عن الحقيقة". ويكون المثل الشعبى عادة باللغة العامية (لغة الشعب). ويستخدم المثل الشعبى عادة أسلوب التهويل والمبالغة كما يستخدم الاستعارة. والملاحظ أن "المثل الشعبى" له خاصيتان أساسيتان، هما الطابع التعليمى من حيث الموضوع والاختصار والتركيز من حيث الأسلوب(١).

- وكانت عبارات الأشكال الشعبية التى تتضمن أمثالا شعبية هى :

مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
١	ابن الوز عوام	٢
2	اجرى جرى الوحوش غير رزقك لم تحوش	١٥
٣	اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب	٤٨

مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
٤	اصلك فعلك	٤٩
٥	البانى طالع والفاحت نازل	٦٢
٦	الضحك من غير سبب قلة أدب	٩٢
٧	العيشة منجهة والحياة أبهة	٩٩
٨	العين وسع الحلق بس النظر تعبان	١٠٢
٩	القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود	١٠٦
١٠	اللى مكتوب على الجبين لازم تشوفه العين	١٣٢
١١	الورد مش للى زرع الورد للى جنى	١٤٥
١٢	امش بالراحة توصل بدرى	١٤٩
١٣	امش فى طريقك عدل يحتار عدوك فيك	١٥٠
١٤	أوحش الوحشة العجب	١٨٤
١٥	أيه يعمل الحاسد فى الرازق	١٨٩
١٦	بلاش أر(قر) يا ناس يا شر	٢٠٨
١٧	دوس على المرايا دوس هى حكاية ولا فلوس	٢٧٥
١٨	صاحب بالين كداب وصاحب ثلاثة منافق	٣٤٤
١٩	صبرك يا قلبى على نفسى ولا صبر الناس عليك	٣٤٥
٢٠	كتير الكلام قليل الفعل	٤٣٨
٢١	لحم الذكر ينشكر سيبك من أم قرنين	٤٧١

مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
٢٢	ما تفكرنيش بالماضى أنا كده متهنى وراضى	٤٩٠
٢٣	نهيتك ما انتهيت والطبع فيك غلاب وديل الكلب ما ينعدل	٥٧٢
٢٤	يا ناس ياشر كفاية أر (قر)	٦٦٥

- ويلاحظ أن الكلمات موضوع الدراسة لم تتضمن أمثالا شعبية.

وفى ضوء ما سبق نلاحظ ما يلى :

(أ) أن الأمثال الشعبية عديدة ومتنوعة. وهى تتضمن معانى عديدة. ومن هذه المعانى ما يدعو إلى أنماط معينة من السلوك الأخلاقى، كأن يؤكد أن ما يفعله الإنسان يدل على أصله، او يدعو إلى العمل الايجابى وإلى التأدب وإلى سلوك الطريق المستقيم وإلى عدم النفاق وإلى قلة لكلام وكثرة العمل، أو يدعو إلى أن الطبع غلاب. (عبارات أرقام : ٤ و٥ و٦ و١٣ و١٨ و٢٠ و٢٣).

(ب) تتضمن الأمثال الشعبية موضوع الدراسة معانى أخرى غير المعانى السابقة. ومن هذه المعانى نجد معانى الاستسلام. وكان هذا الاستسلام والرضا للقدر والغيب (عبارات ارقام : ٢ و٣ و١٠ و٢٢). ومنها نجد معانى الحسد (عبارات أرقام : ١٥ و١٦ و٢٤). ومنها معانى الحرص (عبارة رقم ٩ وعبارة رقم ١١). ومنها معانى العجب او التفاخر (عبارة رقم ٧ وعبارة رقم ١٤). ومنها معانى الشطارة والقصور أو الضعف والدعوة إلى عدم الإسراع واللامبالاة والصبر والترغيب (عبارات أرقام : ١ و٨ و١٢ و١٧ و١٩ و٢١).

٥- النصائح :

وتضمنت عبارات الأشكال الشعبية موضوع الدراسة ٢٠ عبارة تشمل "نصائح" بنسبة نحو ٨,٤٪ من مجموع عبارات الأشكال الشعبية. ولم تتضمن الكلمات موضوع الدراسة نصائح. ويقصد بالنصيحة في الدراسة الحالية "الحض على فعل أمر أو عدم فعله حرصا على المصلحة وفعل الخير ودرءا للشر". والملاحظ أن "النصيحة" أشمل من "التحذير" لأنها تتضمنه.

- وكانت عبارات الأشكال الشعبية التي تتضمن نصائح هي :

مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة في القاموس الأبجدي
١	احترم العامل يحترمك	١٩
٢	احترم الكبير واعطف على الصغير	٢٠
٣	إذا مسوك بظلم فاستعن بالله	٣٤
٤	اشرب العصير المنعش	٤٥
٥	اشرب زبيب وصفه الطبيب طه الحبيب	٤٦
٦	افعل الطيب	٥٢
٧	الرأفة بالحيوان واجب على كل إنسان	٧٧
٨	الصبر طريق السلامة	٨٨
٩	الغش حرام.. وكل البضاعة حلال	١٠٣
١٠	بيده الخير فاصبر	٢١٢
١١	صلى على النبى تكسب	٣٤٨
١٢	كن مع الله	٤٥٢
١٣	كن مفتاحا للخير	٤٥٣

مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
١٤	لا تتعجل إنها إرادة الله	٤٦١
١٥	لا تتعجل فإن العجلة بها الندامة	٤٦٢
١٦	لا تسأل فإن الرزق على الله	٤٦٤
١٧	لا تسرع فإن الله يبسط الرزق لمن يشاء	٤٦٥
١٨	لا تسرع وعد سالما	٤٦٦
١٩	لا تندم على ما فاتك	٤٦٨
٢٠	لا تنس ذكر الله	٤٦٣

- ويلاحظ أن الكلمات موضوع الدراسة لم تتضمن نصائح.

وفى ضوء ما سبق نلاحظ مايلى :

(أ) أن النصائح عديدة ومتنوعة. وهى تتضمن معانى عديدة. ومن هذه المعانى ما يدعو إلى أنماط معينة من السلوك الأخلاقى ؛ كأن يحض على احترام العامل والكبير والعطف على الصغير، وعلى فعل الطيب والخير والرأفة بالحيوان، وعلى عدم الغش وعدم الندم على ما فات (عبارات أرقام : ١ و٢ و٦ و٧ و٩ و١٣ و١٩).

(ب) وتتضمن النصائح موضوع الدراسة معانى أخرى غير المعانى السابقة. ومن هذه المعانى نجد ما يحض على الايمان بالله جل وعلا، ذكره والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم (عباراتى ١٦ و١٧ تتعلقان بالرزق).

ومنها ما يدعو إلى عدم الإسراع ويطلب السلامة (عبارات أرقام : ١٤ و١٥ و١٨).

ومنها ما يتضمن الصبر (عبارة رقم ٨ وعبارة رقم ١٠). ومنها ما يدعو إلى الترغيب (عبارة رقم ٤ وعبارة رقم ٥).

٦- التحيات :

وتضمنت عبارات الأشكال الشعبية موضوع الدراسة سبع عبارات تشمل "تحيات" بنسبة نحو ٣٪ من مجموع عبارات الأشكال الشعبية. ولم تتضمن الكلمات موضوع الدراسة تحيات.

- وكلمات عبارات الأشكال الشعبية التى تتضمن تحيات هى :

مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
١	صباح الخير يا حسنة	٣٣٩
٢	صباح الخير يا عرب	٣٤٠
٣	صباح الفل يا عود الفل	٣٤١
٤	صباح الخير يا اولادى أيمن ومحمد	٣٤٢
٥	صباحى فل والنبى	٣٤٣
٦	مرحبا يا شباب	٥٠٨
٧	مكتوب على وجهك صباح الخير يا صفاء	٥٢٩

- ويلاحظ أن الكلمات موضوع الدراسة لم تتضمن تحيات.

وفى ضوء ما سبق نلاحظ مايلى :

(أ) أن التحيات متنوعة، وهى تتضمن معانى مختلفة، ومن هذه المعانى ما يتضمن تحية الصباح، وقد توجه هذه التحية إلى شخص بعينه أو إلى أكثر من شخص بعينه، (عبارات ارقام : ١ و٧ و٤). أو توجه هذه

العبارة إلى شخص غير معلوم (عبارة رقم ٢ وعبارة رقم ٣)، وقد يقصد بلفظ "عرب" فى العبارة رقم ٢ "صباح الخير يا عرب" العرب كل العرب، او شخص اسمه "سيد"، وقد يكون كاتب العبارة نفسه، وقد يقصد بالعبارة رقم ٣ "صباح الفل يا عود الفل" معنى آخر مضافا قد يكون الغزل. او توجه هذه التحية إلى كاتب العبارة نفسه (عبارة رقم ٥).

(ب) وتتضمن التحيات معنى آخر هو معنى الترحيب بالشباب. فنجد هذا فى العبارة رقم ٦ "مرحبا يا شباب".

٧- النتائج :

فى ضوء البيانات المدونة فى الفصل الحالى يمكننا أن نستخلص النتائج وتتضمن هذه النتائج نوعين من النتائج. الأول هو النتائج الخاصة، وهى تتعلق بموضوعات الفصل الحالى وهى :

١- أجزاء من الأغانى المصرية.

٢- التعبيرات الشعبية.

٣- التحذيرات.

٤- الأمثال الشعبية.

٥- النصائح.

٦- التحيات.

أما النوع الثانى من النتائج فهو النتائج العامة، وهى تتضمن تلخيصا لأهم النتائج الخاصة :

أولا - النتائج الخاصة :

١- أجزاء من الأغانى المصرية :

(أ) تبين أن ٢٠ عبارة من عبارات الأغانى موضوع الدراسة، أغان محرفة، أى أن كاتبها قد اضاف إليها لفظا أو أنقص لفظا أو استبدل لفظا

بلفظ آخر ليصل إلى المعانى التى يهدف إليها هو، ويبدو أن تحريف عبارات الأغانى المذكورة تتم عن سمة من السمات التى يشترك فيها العديد من المصريين، وهى نتيجة من نتائج ولع هؤلاء بالتلاعب بالألفاظ وبالمعانى، ساخرين احيانا وجادين احيانا أخرى. فكاتب عبارة الأغنية "اما نعيمة خلى فؤاد يكلمني" يحاول أن يلفت نظر المحبوب لكى يتقرب إليه إذا اعتبرنا أن اسمه الحقيقى "فؤاد" وليس "عليوه" كما هو وارد فى النص الأصلى للأغنية، وكاتب عبارة الأغنية "انا من يومى كايدة التجار" بدلا من "أنا من يومى كايدة العزال" يحاول أن ينتقم لنفسه من احد التجار الذى قد يكون منافسا أو قد يكون ممن لا يحسنون معاملته، وكاتب عبارة الأغنية "كايدة العزال يا سكينة" يحاول أن يهنئ نفسه أو يتفاخر بهذه الـ"سكينة" وهى فى الغالب صديقته أو محبوبته أو ابنته، وكاتب عبارة الأغنية "للصبر حدود وانا صابر" يحاول أن يعلن عن صبره ويؤكده أمام الناس ويشهدهم عليه.

(ب) وتبين أن عبارات الأغانى وكلماتها عديدة ومتنوعة وبعضها مكرر، وهى تتضمن معانى عديدة أهمها : الحب والهوى والشكوى والعتاب والخصام والهجر والفراق والسهاد والوحدة والوداع وكيد العزال، ومنها ما يتضمن الظلم والعذاب والضياع والصبر والانتظار والحيرة والحسد بعامة والحسد من العين "بخاصة" والملاحظ أن مفهوم "العين" مفهوم ذو معنى مصرى قديم قدم الدهر منذ أن فقد "حورس" الشجاع عينيه المقدسة التى تسلمها منه أبوه "أوزيريس" بعد أن مات، فصار "روحا"، والعين عند المصريين القدماء صارت شيئا خطيرا مقدسا ولعلها لم تفقد قداستها عند المصريين المعاصرين حتى اليوم. فنحن إذ نحزن على شر يصيب إنسانا ما نقول "يا عينى"، ونردد فى الغناء "يا ليل يا عينى" (عبارة رقم ٩٩) (٢)، ومن معانى عبارات الأغانى، ايضا، نجد ما يترنم بالاستسلام للزمان والقدر، ومنها ما يترنم بالأمل والفرح والغزل والدعابة والتسامح والسلامة.

(جـ) وتبين أن الأغلبية الساحقة من عبارات الأغانى وكلماتها (٩٧ عبارة وكلمة) تتضمن أغانى حديثة يعرف من ألفها ومن غناها، وكان عدد الأخيرين ٢٠ مغنيا ومغنية، وكان نصيب المغنية أم كلثوم من عبارات الأغانى وكماتها اكبر نصيب (٤٨عبارة وثلاث كلمات)، ويليها المغنى عبد

الحليم حافظ (عشر عبارات)، ثم المغنية عـايدة الشـاعر (ست عبـارات)، ثـم كل من المغنية ليلى مراد، والمغنية ليلى نظمى (خمس عبارات لكل منهمـا). ثم كل من المغنية شادية، والمغنية فايزة أحمد، والمغنى محمد عبد الوهـاب، والمغنى محمود شكوكو، والمغنى محمد عبد المطلب (عبارتـان لكـل منهـم). ثم كل من المغنية نجاة الصغيرة، والمغنيـة صبـاح، وكـل مـن المغنيين سـيد درويش ومحمد قنديل، وفرقة رضا، ومحمد رشدى، ومحمد طه، وعبد الغنى السيد، ومحمد امين، وفهد بلان (عبارة واحدة لكل منهم).

٢-التعبيرات الشعبية :

(أ) وتبين أن العبارات الشعبية عديدة ومتنوعة، وهى تتضمن معـانى عديدة، اهمها الشكوى من هجر الحبيب او قسوته أو فراقه أو مـن الوحـدة أو السـهاد أو مـن كـثرة الهمـوم والحـزن أو مـن آخريـن، ومنهمـا مـــا يتضمــن الاستسلام للــه جل وعـلا أو للزمـان والقدر، ومنهـا مـا يتضمـن العجـب أو التفاخر والغزل المفتوح والغزل المستور، والحسد والمديح والدعابة والعجـب والتفاؤل أو الدعاء أو الحداقة والعتاب والأمل والصبر السلبى.

٣- التحذيرات :

(أ) وتبيـن أن عبـارات التحذيـرات وكلماتهـا عديـدة ومتنوعـة، وهــى تتضمن معانى عديدة أهمها تحذير كاتب العبارة من اجل نفسـه أو مـن نفسـه أومن اجل مصلحته، ويكون التحذير فى هذه الحالة عاما أو يكون تحذيرا من الخطر او توقع الضرر أو الحسد أو من الغضب، وقد تتضمـن هذه المعـانى تحذيرات موجهة للغير أو من أجل الغـير كـالتحذير بعامـة أو مـن الخطـر أو الخطأ أومن أجل مصلحة الغير أو من الشر او الحسد، وقد تتضمـن المعـانى توقع المحاسبة أو الدعابة.

٤- الأمثال الشعبية :

(أ) وتبين ان عبارات الأمثال الشعبية عديدة ومتنوعة، وهى تتضمن معانى عديدة، ومن هذه المعانى ما يؤكد أن ما يفعله الإنسان يدل على أصله، وما يدعو إلى العمل الإيجابى وإلى التأدب وإلى سلوك الطريق المستقيم وإلى عدم النفاق وإلى قلة الكلام وكثرة العمل ـ او يدعو إلى أن الطبع غلاب، وتتضمن هذه المعانى أيضا الاستسلام للقدر والغيب والحسد والحرص والعجب أو التفاخر، كما تتضمن معانى الشطارة والقصور أو الضعف والدعوة إلى عدم الإسراع، واللامبالاة والصبر والترغيب.

٥- النصائح :

(أ) وتبين ان عبارات النصائح عديدة ومتنوعة، وهى تتضمن معانى عديدة أهمها : الحض على احترام العامل والكبير والعطف على الصغير، وعلى فعل الخير والطيب والرأفة بالحيوان، وعلى عدم الغش وعدم الندم على ما فات، ومنها ما يحض على الاستعانة بالله جل وعلا وذكره والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم، ويدعو إلى عدم الإسراع، وإلى طلب السلامة، وإلى الصبر وإلى الترغيب.

٦- التحيات :

(أ) وتبين ان التحيات متنوعة، وهى تتضمن معانى مختلفة، واهمها تحية الصباح، وقد توجه إلى شخص بعينه أو إلى اكثر من شخص بعينه او توجه إلى شخص غير معلوم أو إلى كاتب العبارة نفسه، وقد تتضمن التحية والغزل والترحيب.

ثانيا - النتائج العامة :

(أ) إن عبارات الأشكال الشعبية وكلماتها تتضمن معانى عديدة : منها ما هو سلبى، أى ما يعكس العديد من المشاعر السلبية، كالشكوى من

الهجر والقسوة، والفراق، والسهاد، الوحدة، والظلم، والضياع، والحزن، والهجوم، وكيد العزال، وتتضمن هذه المعانى أيضا الصبر السلبى والانتظار واللامبالاة والحيرة والحسد والاستسلام والتحذير من الغضب، ومع ذلك فإن بعض المعانى الأخرى يشرق بالإيجابية بتقبل الحياة على علاتها وعدم رفضها والأمثلة على تاكيد هذا ليست قليلة، مثل معانى الأمل والفرح والتفاؤل والدعابة والغزل والتسامح والسلامة، والدعوة إلى سلوك الطريق المستقيم وإلى التأدب وإلى عدم النفاق وإلى فعل الطيب وفعل الخير وإلى الرأفة بالحيوان، وإلى عدم الغش وإلى عدم الندم على ما فات، وأخيرا توقع المحاسبة، والتحية والترحيب، وتقبل الحياة على علاتها عند كاتبى العبارات والكلمات يبدو واضحا إذا أمعن القارئ النظر فيما كتبه احدهم على مركبته "كل الناس حلوين". صحيح ان هذه العبارة جزء من اغنية معروفة ؛ ولكن اختيارها وكتابتها حيث وضعت على هيكل المركبة التى تجوب الآفاق شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، إنما يعلنان بوضوح عن روح عالية مشرقة تتقبل جميع الناس على الرغم من كل شئ، ودون ما تحيز او تفرقة، أن كلهم "حلوين".

(ب) وتضمنت عبارات الأشكال الشعبية وكلماتها معانى اخرى غير السابقة، ومن هذه ما تضمن الإيمان بالله ورسوله، والعجب أو التفاخر، والمديح، وعدم الاسراع، والدعاء، والاعتزاز بالأصل، والحداقة.

(جـ) وتبين أن عبارات الأغانى وكلماتها تتضمن معانى الشكوى والعتاب والهجر والفراق والسهاد والوحدة والصبر والحسد والغزل والدعابة والاستسلام، ونجد هذه المعانى كلها، ايضا، فى عبارات التعبيرات الشعبية. وإذ وجد معنى الصبر فى عبارات الأغانى والتعبيرات الشعبية وكلماتها، فإننا نجدها أيضا فى عبارات الأمثال الشعبية وعبارات النصائح، وإذا وجد معنى الحسد فى عبارات الأغانى والتعبيرات الشعبية وكلماتها نجده فى عبارات التحذيرات والأمثال الشعبية وكلماتها. ومعنى الدعابة كما يوجد فى عبارات التحذيرات والأمثال الشعبية وكلماتها. ومعنى الدعابة كما يوجد فى عبارات الأغانى والتعبيرات الشعبية وكلماتها يوجد ايضا فى عبارات التحذيرات وكلماتها، وكما يوجد معنى الغزل فى عبارات الأغانى

والتعبيرات الشعبية وكلماتها، يوجد ايضا فى عبارات التحيات. وكما يوجد معنى الاستسلام في عبارات الأغانى والتعبيرات الشعبية وكلماتها، يوجد فى عبارات الأمثال الشعبية والنصائح، ومعنى السلام أو السلامة تتضمنه عبارات الأغانى كما تتضمنه عبارات النصائح.

وتتضمن عبارات التعبيرات الشعبية معنى العجب أو التفاخر، كما تتضمن هذا المعنى عبارات الأمثال الشعبية، ومعنى عدم الإسراع والدعوة إليه تتضمنه عبارات الأمثال الشعبية وعبارات النصائح، وتتضمن التفاؤل أو الدعاء عبارات التعبيرات الشعبية.

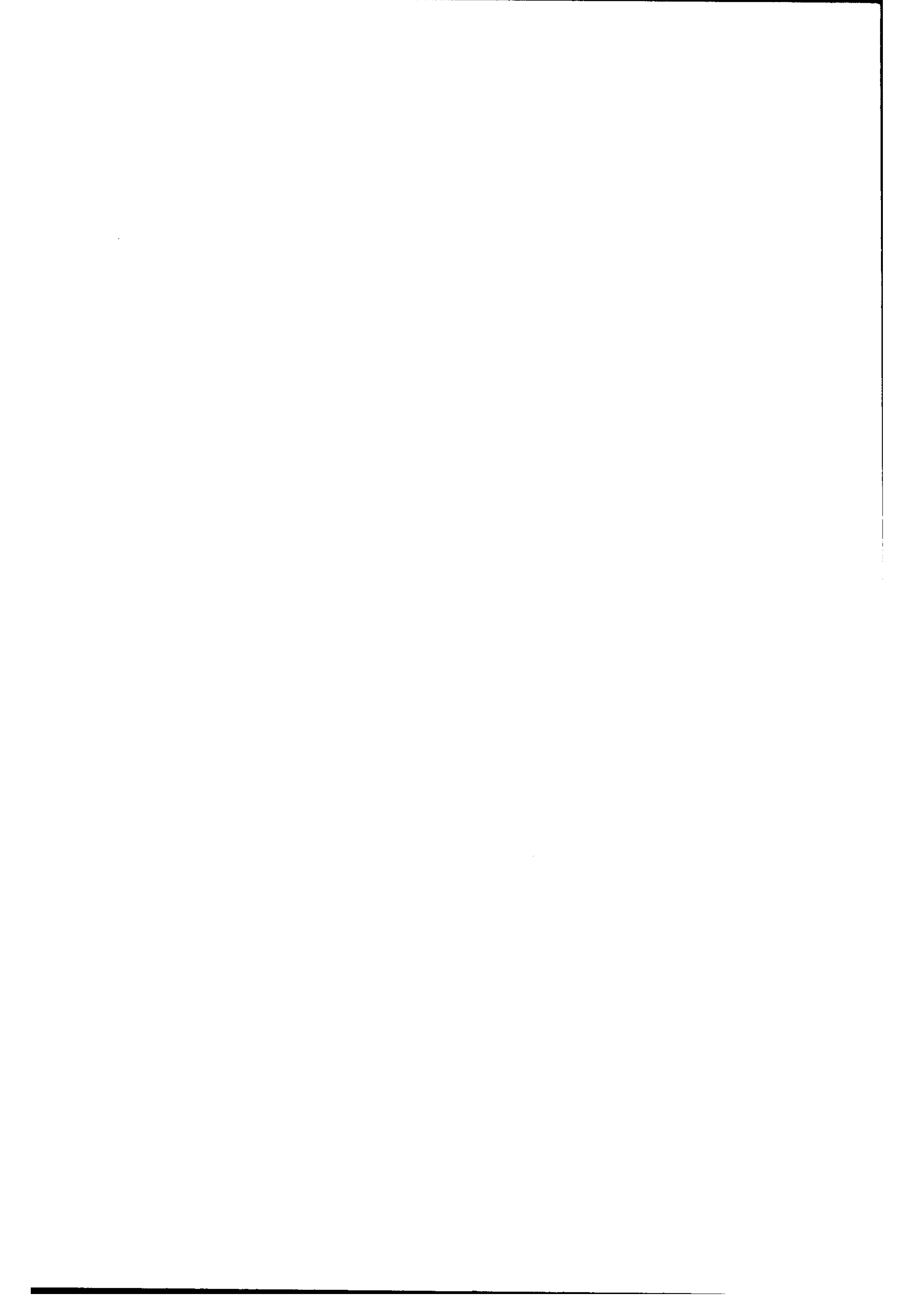
هوامش الفصل الرابع

(١) الكسندر هجرتى كراب : علم الفلكلـور، ترجمـة رشـدى صـالح، دار الكـاتب العربـى للطباعة والنشر : القاهرة، ١٩٦٧، صفحات ٣٣٣، ٣٣٦.

(٢) سيد عويس : الخلود فى التراث الثقافى المصرى، دار المعـارف : القـاهرة، ١٩٦٦، صفحة ٦٤.

الفصل الخامس

مضمون عبارات الأشكال الدينية وكلماتها



الدعـــوات والابتهـــالات - الآيـــات القرآنية الأحاديث النبويــة - آيات من الكتـــاب المقدس - النتائج.

١ - الدعوات والابتهالات :

في ضوء بيانات الفصل الثالث والنتائج التى استخلصناها منهـا تبين أن مضمون بعض الكلمـات وبعض عبـارات الأشكال الدينيـة يحتـوى علـى "دعوات وابتهالات"، وقد تبين ايضا أن عبارات الأشكال الدينية التى تتضمـن هذه الدعوات والابتهالات هى ١٢٩ عبارة بنسبة نحـو ٦٤,٥٪ مـن مجمـوع عبارات الأشكال الدينية موضوع الدراسة، أما الكلمات التى تتضمن دعـوات وابتهالات فقد كان عددها خمس كلمات فقط بنسبة ١٠٪ من مجموع الكلمـات موضوع الدراسة.

والمقصود بالدعوات والابتهالات فى الدراسة الحالية الطلب مـن اللـه جل وعلا، وحمده وشكره على النعم، والاستسلام لإرادته، وتعظيمه وتكريمه والتقرب إليه والرجاء فيه. كما يقصد منها الصلاة على النبى صلى الله عليـه وسلم والتقرب إليه وإلى أهل البيت والتوسل إليهم والتماس البركـة والحمايـة منهم، وفضلا عن ذلك طلب الخلاص من السيدة العذراء كقول أحدهم " يا أم المخلص خلصينـى"، وطلـب بركـة دعـاء الوالديـن، والملاحظ أن الدعــوات والابتهالات ليست كلها من هذا القبيل، فقد نجد دعوات أخرى ضـد آخريـن، ومن هذه "تندب فى عينك رصاصة ياللى بتبص" او "روح منك لله" مثلا.

وقد يرى القارئ أن عبارات الدعوات والابتهالات موضوع الدراســة الحالية، كلها او بعضها، هى من قبيل عبارات "التعبيرات الشـعبية" (الفصـل الرابـع)، ومـن حق القـارئ ان يـرى مـا يـرى، ولكـن الملاحظ أن عبـارات الدعوات والابتهـالات المذكـورة فـى الفصـل الحـالى، كلهـا، تتضمـن معـانى الدعوات والابتهالات كمـا قصـد بهـا فـى الدراسـة الحاليـة، وبـالمثل نجد ان الكلمات الخمس المشار إليها، على الرغم من أنها تعبـيرات شـعبية، تتضمـن معانيها ايضا نفس معانى الدعوات والابتهالات المذكورة.

- وكانت عبارات الأشكال الدينية التى تتضمن دعوات وابتهالات هى :

م	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
١	أبو حنان توكل على بركة الله ورسوله	٦
2	أحب نور الله	١٨
3	استرها يارب	٤٢
4	اسعى وصلى على النبى	٤٤
5	اصبر يا عزيزى ربنا منولك اللى فى بالك	٤٧
6	الحمد لله على نعمائه	٧٢
7	الحمد لله على نعمته	٧٣
8	الحمد لله كده رضا	٧٤
9	الحمد لله والله أكبر	٧٥
١٠	الرب مغفر خطيئتى	٧٩
١١	الفاتحة لحضرة النبى	١٠٤
١٢	اللطف عند القضاء	١١٠
١٣	الله أكبر النصر للعرب	١١٣
١٤	الله أكبر يا أبو النيل	١١٤
١٥	الله جل جلاله	١١٥
١٦	الله خير حافظ على المؤمنين	١١٦
١٧	الله كريم	١١٩

م	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
١٨	الله معنا	١٢٣
١٩	الله يرعاك	١٢٦
٢٠	اللهم اعطينى خير الزاد واكفنى شر العباد	١٢٨
٢١	اللهم أكفينى شر اصدقائى وأما أعدائى فكفيل بهم	١٢٩
22	النصر للعرب	١٣٩
23	النصر لنا	١٤٠
24	إلهى لا اسألك رد القضاء بل أسألك اللطف فيه	١٤٤
25	بحمد الله شاكرين	١٩٥
26	بسم الله توكلت عليه	١٩٦
27	بص بعينك وصلى على النبى	٢٠٠
28	تصحبك السلامة	٢١٧
29	تندب فى عينك رصاصة ياللى بتبص	٢٢٠
٣٠	توكلت على الله	٢٢٢
13	ربى اسألك اللطف عند القضاء	٢٧٩
32	ربى لا أسالك رد القضاء بل اسأك اللطف فيه أنظر العبارة رقم ٢٤	٢٨١
33	رضا من الله	٢٨٢
34	رضا والحمد لله	٢٨٣
35	رضا يا بنتى العيش ورب العرش	٢٨٤

م	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
36	رضاك يارب	٢٨٥
37	روح منك لله	٢٨٦
38	سترك يارب	٣٠٥
39	سر على بركة الله	٣٠٦
٤٠	سر وعين الله ترعاك	٣٠٧
٤١	سيرى بأمر الله	٣٢٧
42	سيرى على بركة الله	٣٢٨
43	شالله يا سيدنا الحسين	٣٢٩
44	صلى على النبى	٣٤٧
45	صلى على النبى واذكر الله	٣٤٩
46	صلى على حضرة النبى	٣٥٠
47	صلى على طه الرسول	٣٥١
48	طريق السلامة	٣٥٦
49	طريق السلامة يا ابو شريف	٣٥٧
٥٠	طريق السلامة يا أبو على	٣٥٨
٥١	طريق السلامة يا ابو هشام	٣٥٩
52	طريقك طريق خير وسلام يا أبو حمادة	٣٦٠
53	عطفك يارب	٣٧٩
54	على بركة الله	٣٨٠

م	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
55	على بركة الله فليتوكل المتوكلون	٣٨١
56	على بركة الله يا زمزم	٣٨٢
57	عليك توكلت وبك نستعين	٣٨٨
58	عوضى عليك يارب ارزقنى	٣٩١
59	فى حفظ الله يا نوسة	٤١٥
٦٠	فى رحاب الله	٤١٦
٦١	فى رعاية الله ياريرى	٤١٧
62	فى رعاية الله يا ابو نانا	٤١٨
63	فى رعاية الله يا عين	٤١٩
64	قاصد كريم	٤٢١
65	قاصد كريم فى سبيل لقمة العيش	٤٢٢
66	قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة صالحة	٤٢٩
67	كده حكمة الله	٤٣٩
68	كده رضا	٤٤٠
69	كده رضا من الله	٤٤١
٧٠	كرم من الله	٤٤٤
٧١	لك الحمد يارب	٤٧٤
72	ليك يوم يا ظالم	٤٨٢
73	محروسة بإذن الله	٥٠٣

م	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
74	مدد يا أم هاشم	٥٠٤
75	مدد يا أهل البيت	٥٠٥
76	مدد يا حسين	٥٠٦
77	مستورة والحمد لله	٥١٠
78	مع السلامة يا ابو العزم	٥١٣
79	مع السلامة يا أبو طارق	٥١٤
٨٠	مع السلامة يا ابو عرب	٥١٥
٨١	مع السلامة يا ابو ماجد	٥١٦
82	مع السلامة يا اسطى فوزى	٥١٧
83	مع السلامة يا بطة	٥١٨
84	مع السلامة يا سمسم	٥١٩
85	مع السلامة يا سميرة	٥٢٠
86	مع السلامة يا عرب الورد	٥٢١
87	مع السلامة يا لولو	٥٢٢
88	مع السلامة يا هدى	٥٢٣
89	مع السلامة و القلب داعيلك	٥٢٤
٩٠	منصورة بإذن الله	٥٤٧
٩١	مهلا ومع السلامة	٥٥١
92	مون بالسولار وتوكل على الله	٥٥٢

م	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
93	مونا بالسولار وصلى على المختار	٥٥٣
94	نصر الله	٥٥٨
95	نظرة يا ابو العباس	٥٦١
96	نظرة يا أم هاشم	٥٦٢
97	نظرة يا بدوى جاب اليسرى	٥٦٣
98	نظرة يا بنت الحسن والحسين	٥٦٤
99	نظرة يا حسين	٥٦٥
١٠٠	نظرة يا ست (السيدة زينب) السيدة زينب	٥٦٦
١٠١	نظرة يا شيخ العرب (السيد البدوى) السيد البدوى	٥٦٨
١٠٢	نعمة من الله	٥٧٠
١٠٣	وحياتك يا ظالم ما تمسك حاجة على	٦٠٧
١٠٤	يا بركة دعاء الوالدين	٦٢٥
١٠٥	يا حافظ يا امين	٦٢٩
١٠٦	يا حامى السويس يا غريب	٦٣٠
١٠٧	يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف	٦٣٢
١٠٨	يارب أكفنى شر عيون الناس	٦٣٥
١٠٩	يارب المحروسة	٦٣٦

م	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
١١٠	يارب رضاك	٦٣٧
١١١	يارب سترك	٦٣٩
١١٢	يارب سترك ورضاك	٦٤٠
١١٣	يارب سلم	٦٤١
١١٤	يارب سهلها	
١١٥	يارب كيف ادعوك وأنا عاصى وكيف لا	
	أدعوك وأنت كريم	٦٤٢
١١٦	يارب لا أطلب منك رد القضاء ولكن	
	أسألك اللطف فيه (أنظر العبارتين رقم ٢٤ ورقم٣٢).	٦٤٣
١١٧	يارب لطفك بالعباد	٦٤٤
١١٨	يارب لك الحمد	٦٤٥
١١٩	يا ستار استر	٦٤٧
١٢٠	يا أم المخلص خلصينى	٦٥٥
١٢١	يا منجى الناس من شر أعمالهم يا كريم	٦٥٩
١٢١	يا منجى من المهالك يا رب	٦٦٠
١٢٣	يا منجى نجى أبو قرنى	٦٦١
١٢٤	يا منجى يارب	٦٦٢
١٢٥	يا منجى يا مسهل يارب	٦٦٣

رقم العبارة فى القاموس الأبجدى	مضمون العبارة	م
٦٦٥	ياناس يا شر يا كفار	١٢٦
٦٦٦	يانور النبى	١٢٧
٦٦٨	يعدلها المولى	١٢٨
٦٦٩	يقينى الله يقينى	١٢٩
	- وكانت الكلمات التى تتضمن دعوات وابتهالات هى :	
٢٣٧	حامدين	١٣٠
٥٠٩	مستورة	131
٦٥١	يا عدوى	١٣٢
٦٥٣	يا كريم	١٣٣
٦٥٨	يا منجى	١٣٤

فى ضوء ما سبق نلاحظ ما يلى :

(أ) أن عبارات الابتهالات وكلماتها عديدة ومتنوعة وبعضها مكرر، وهى تتضمن معانى عديدة، توجه إلى الله جل وسما علنا أو ضمنا أو توجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو إلى أهل البيت أو إلى السيدة العذراء أو إلى الوالدين، ومن هذه العبارات دعوات أخرى موجهة ضد آخرين.

(ب) وكان أكثر عبارات الدعوات والابتهالات وكلماتها الموجهة إلى الله جل وسما الطلبات، وتليها العبارات التى تلهج بحمد الله وشكره، ثم العبارات التى تتضمن التوكل على الله والاستسلام لإرادته، والعبارات التى تتضمن تعظيم الله وتكريمه، وتلى ذلك العبارات التى تتضمن التقرب إلى الله والرجاء فى الله.

وتتضمن الطلبات من الله جل شأنه ألوانا عديدة من الطلبات، منها طلبات الرعاية والسلامة والنجاة والحفظ والحماية، وهى أكثر الطلبات (عبارات وكلمات أرقام : ١٩ و٤٠ و٦١ و٦٢ و٦٣ و٢٨ و٤٨ و٤٩ و٥٠ و٥١ و٥٢ و٧٨ و٧٩ و٨٠ و٨١ و٨٢ و١٠٧ و١٢١ و١٢٢ و١٢٣ و١٢٤ و١٢٥ و١٣٤ و١٦ و٥٩ و١٠٥ و٢٠ و٢١ و٧٣ و١٠٨ و١٠٩ مثلا) وتكون "النجاة" من الخوف ومن شر أعمال الناس ومن المهالك، وقد تكون النجاة مطلقة. ويكون "الحفظ" من الله مطلقا. أما "الحماية" فتكون من شر العباد ومن شر الأصدقاء ومن الحسد، وقد تكون الحماية مطلقا أيضا.

ومن هذه الطلبات نجد طلبات الستر واللطف عند القضاء ورضا الرب وعطفه ولطفه والرزق (عبارات أرقام : ٣ و٣٨ و١١١ و١١٢ و١٢ و٢٤ و٣١ و٣٢ و٣٦ و١١٠ و٥٣ و١١٧ و٥٨ و١١٤ و١٢٨ مثلا)، والملاحظ أن طلبات الرزق قد تكون ضمنا مثل عبارتى "يارب سهلها" و"يعدلها المولى" (عبارة رقم ١١٤ ورقم ١١٨)، ومنها بعض الطلبات الوطنية كالنصر للعرب بخاصة والنصر بعامة (عبارات أرقام : ١٣ و٢٢ و٢٣ و٩٠ و٩٤)، وهناك طلبات أخرى كطلب المغفرة (عبارة رقم ١٠)، ومن الطلبات ما نجده يحض على الصبر من أجل تحقيق طلب غير معروف "اصبر يا عزيزى ربنا منولك اللى فى بالك" (عبارة رقم ٥).

وتتضمن عبارات الدعوات والابتهالات وكلماتها عبارات وكلمات أخرى غير الطلبات. منها ما تلهج بحمد الله وشكره، وتكون هذه العبارات صريحة بذلك أحيانا (عبارات وكلمات أرقام : ٦ و٧ و٨ و٩ و٢٥ و٦٦ و٧١ و٧٧ و١٣٠ مثلا)، وقد تكون هذه العبارات متضمنة معانى الحمد والشكر أحيانا أخرى (عبارات وكلمات أرقام : ٣٣ و٣٤ و٣٥ و٧٠ و١٠٢ و١٣١ مثلا) ومنها عبارات تتضمن التوكل على الله والاستسلام لإرادته (عبارات أرقام : ١ و٢٦ و٣٠ و٥٥ و٥٧ و٩٢ و٩٣ و٣٩ و٤١ ٤٢ و٥٤ و٥٦ و٦٧ و ٦٨ و٦٩ مثلا)، ومنها عبارات تعظم الله جل شأنه وتكرمه عبارات وكلمات أرقام : ١٤ و١٥ و١٧ و٦٤ و٦٥ و١٣٣)، ومنها عبارات تهدف إلى التقرب من الله، وتتضمن الرجاء فيه جلا وعلا (عبارات أرقام : ٢ و٦٠ و١٨ و١١٥ و١٢٩ مثلا).

(جـ) وكان أكثر عبارات الدعوات والابتهالات الموجهة إلى النبى صلى الله عليه وسلم

، الصلاة عليه صلاة مطلقة او بهدف السعى ودرءا للحسد (عبارات ارقام : ٤٤ و٤٥ و٤٦ و٤٧ و٤ و٢٧). وكان منها ما يهدف إلى التقرب إلى النبى صلى الله عليه وسلم والتوسل إليه (عبارة رقم ١١ وعبارة رقم ١٢٧).

(د) وكانت عبارات الدعوات والابتهالات وكلماتها الموجهة إلى أهل البيت والأولياء تتضمن عبارت موجهة إلى السيدة زينب (أم هاشم) (عبارات أرقام : ٧٤ و٩٦ و٩٨ و١٠٠)، وعبارات موجهة إلى سيدنا الحسين (عبارات أرقام : ٤٣ و٧٦ و٩٩)، وعبارات موجهة إلى السيد البدوى وإلى أبى العباس وإلى الغريب (حامى السويس) وإلى العدوى (عبارات وكلمات أرقام : ٩٧ و١٠١ و٩٥ و١٠٦ و١٣٢)، وقد وجدت عبارة موجهة إلى أهل البيت جميعا (عبارة رقم ٧٥). والملاحظ أن عبارات الدعوات والابتهالات والكلمات تتضمن التقرب إلى أهل البيت والأولياء إليهم والتماس البركة والحماية منهم.

(هـ) وقد وجدت عبارة واحدة موجهة إلى السيدة العذراء يطلب منها كاتبها الخلاص "يا ام المخلص خلصينى" (عبارة رقم ١٢٠). كما وجدت عبارة اخرى تتضمن التماس بركة دعاء الوالدين (عبارة رقم ١٠٤).

(و) أما العبارات التى تتضمن دعوات ضد آخرين فهى عبارات قليلة لا يعدو خمس عبارات، ومنها عبارات تتضمن دعوات ضد الظالمين (عبارات أرقام : ٣٧ و٧٢ و١٠٣)، والعبارة رقم ١٠٣ تدعو الظالم أن يدعه وشأنه ولا يمسك ضده بأمر ما "وحياتك ياظالم ما تمسك حاجة على". وعبارة أخرى تتضمن دعوة ضد الحاسدين (عبارة رقم ٢٩)، وعبارة أخيرة تتضمن دعوة ضد الناس الأشرار (الكفار) (عبارة رقم ١٢٦).

٢- الآيات القرآنية :

وتضمنت عبارات الأشكال الدينية موضوع الدراسة ٥٥ عبارة تتضمن "آيات قرآنية" بنسبة نحو ٢٧,٥٪ من مجموع عبارات الأشكال الدينية. ولم تتضمن الكلمات موضوع الدراسة، بالضرورة، آيات قرآنية، وإن تضمنت كلمة واحدة لفظ الجلالة "الله" بنسبة نحو ٢٪ من مجموع الكلمات.

-وكانت عبارات الأشكال الدينية التى تتضمن آيات قرانية هى :

عبارت الأشكال الدينية التى تتضمن آيات قرآنية هى :

رقم مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى	أسم السورة ورقمها ورقم الآية	ملاحظات
١	ادخلوها بسلام أمنين	٢٥	ك الحجر ١٥ : ٤٦	
٢	اذا عزمت فتوكل على الله	٣٢	م آل عمران ٣ : ١٥٩	صحة الآية : فإذا عزمت..
٣	اذكر ربك إذا نسيت	٣٥	ك الكهف ١٨ : ٢٤	صحة الآية : واذكر ربك..
٤	الا بذكر الله تطمئن القلوب	٥٨	م الرعد ١٣ : ٢٨	
٥	الحمد لله	٧١	ك الفاتحة ١: ٢	الآية كاملة : وأخرجوهم من حيث
٦	الفتنة أشد منن القتل	١٠٥	م البقرة ٢ : ١٩١	الآية كاملة : وأخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة أشد من القتل
٧	الله أكبر	١١٢	ك التعنكبوت ٢٩ : ٤٥	الآية كاملة : ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر
٨	الله ربى	١١٧	م آل عمران ٣ : ٥١	الآية كاملة : ان الله ربى وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم

رقم مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى	أسم السورة ورقمها ورقم الآية	ملاحظات
٩	الله لا اله إلا هو الرحمن الرحيم	١٢٠	م البقرة ٢: ١٦٣	صحة الآية : لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.
١٠	الله لطيف بعباده	١٢١	ك الشورى ٤٢ : ١٩	
١١	الله نور السموات والأرض	١٢٤	م النور ٢٤: ٣٥	
١٢	الله يسمع ويرى	١٢٧	ك طه ٢٠ : ٤٦	صحة الآية : قال لا تخافا أننى معكما اسمع وأرى.
١٣	ان الله على كل شئ قدير	١٥٣	م النور ٢٤ : ٤٥	الآية كاملة : يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شئ قدير
١٤	ان الله هو السميع العليم	١٥٥	م المائدة ٥: ٧٦	صحة الآية : قل اتعبدون من دون الله مالا يملك ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم.
١٥	ان الله يدافع عن الذين آمنوا	١٥٦	م الحج ٢٢: ٣٨	
١٦	ان تنصروا الله ينصركم	١٥٧	م محمد ٤٧: ٧	الآية كاملة : يا أيها الذين آمنوا أن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم
١٧	ان مع العسر يسرا	١٦١	ك الانشراح ٩٤: ٦	
١٨	ان ينصركم الله فلا غالب لكم	١٦٢	م آل عمران ٣: ١٦٠	
١٩	انا فتحنا لك فتحا مبينا	١٦٨	م الفتح ٤٨: ١	
٢٠	باسم الله ما شاء الله	١٩٠	ك الأنعام ٦ : ١٢٨	صحة الآية : قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله.
٢١	باسم الله الرحمن الرحيم	١٩٧	ك النمل ٣٧: ٣٠	صحة الآية : انه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم
٢٢	باسم الله مجريها ومرسيها	١٩٨	ك هود ١١: ٤١	الآية كاملة : وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها
٢٣	توكل على الله	٢٢١	م الأنفال ٨: ٦١	الآية كاملة : وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله.

رقم مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة في القاموس الأبجدي	أسم السورة ورقمها ورقم الآية	ملاحظات
٢٤	حسبنا الله ونعم الوكيل	٢٤٣	م آل عمران ٣: ١٧٣	الآية كاملة : فزادهم الله ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل.
٢٥	حفظناها من كل شيطان رجيم	٢٤٧	ك الحجر ١٥: ١٧	صحة الآية : وحفظناها...
٢٦	ربى اشرح لي صدرى	٢٨٠	ك طه ٢٠: ٢٥	صحة الآية : قال رب...
٢٧	شهد الله ان لا اله الا هو	٣٣٥	م آل عمران ٣: ١٨	
٢٨	فالله خير حافظ وهو أرحم الراحمين	٤٠٢	ك يوسف ١٢: ٦٤	
٢٩	فان مع العسر يسرا	٤٠٣	ك الانشراح ٩٤: ٥	
٣٠	قل لن يصيبنا الاما كتب الله لنا	٤٢٨	م التوبة ٩: ٥١	
٣١	كلوا من طيبات ما رزقناكم	٤٥٠	ك طه ٢٠: ٨١	
٣٢	كلوا واشربوا هنيئا	٤٥١	ك الطور ٥٢: ١٩	الآية كاملة : كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون
٣٣	لئن شكرتم لأزيدنكم	٤٥٩	ك ابراهيم ١٤ : ٧	
٣٤	له ملك السموات والأرض	٤٧٨	م البقرة ٢: ١٠٧	الآية كاملة : ألم تعلم ان الله له ملك السموات والأرض.
٣٥	ما شاء الله	٤٩٥	ك الكهف ١٨: ٣٩	الآية كاملة : ولولا اذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله.
٣٦	من يتوكل على الله فهو حسبه	٥٤٥	م الطلاق ٦٥: ٣	صحة الآية : ومن...
٣٧	نصر من الله وفتح قريب	٥٥٩	م الصف ٦١: ١٣	الآية كاملة : وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين
٣٨	نور على نور	٥٧٦	م النور ٢٤ : ٣٥	
٣٩	هذا من فضل ربى	٥٨٠	ك النمل ٢٧ : ٤٠	
٤٠	واذا عزمت فتوكل على الله	٥٩٠	م آل عمران ٣: ١٥٩	صحة الآية : فإذا...
٤١	واذكر ربك اذا نسيت	٥٩١	ك الكهف ١٨: ٢٤	
٤٢	واصبر حتى يحكم الله	٥٩٢	ك يونس ١٠ : ١٠٩	

رقم مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى	أسم السورة ورقمها ورقم الآية	ملاحظات
٤٣	واعتصموا بحبل الله	٥٩٣	م آل عمران ٣: ١٠٣	
٤٤	وافوض امرى إلى الله	٥٩٤	ك غافر ٤٠: ٤٤	
٤٥	وأما بنعمة ربك فحدث	٥٩٨	ك الضحى ٩٣: ١١	
٤٦	وان يريدون ان يخدعوك فان حسبك الله	٥٩٩	م الأنفال ٨: ٦٢	
٤٧	وانك لعلى خلق عظيم	٦٠٠	ك القلم ٦٨: ٤	
٤٨	وبشر الصابرين	٦٠٢	م البقرة ٢: ١٥٥	الآية كاملة : ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين
٤٩	ولان شكرتم لازيدنكم	٦١٥	ك ابراهيم ١٤: ٧	صحة الآية : ولئن.....
٥٠	ولسوف يعطيك ربك فترضى	٦١٦	ك الضحى ٩٣: ٥	
٥١	وما بكم من نعمة فمن الله	٦١٨	ك النحل ١٦: ٥٣	
٥٢	وما توفيقى إلا بالله	٦١٩	ك هود ١١: ٨٨	
٥٣	وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها	٦٢٠	ك هود ١١: ٦	
٥٤	ومن يتوكل على الله فهو حسبه	٦٢١	م الطلاق ٦٥ : ٣	انظر رقم ٣٦

– وقد تضمنت إحدى الكلمات موضوع الدراسة لفظ الجلالة "الله".

وفى ضوء ما سبق نلاحظ ما يلى :

(أ) أن عبارات الآيات القرآنية هى فى الكثير من الأحيان أجزاء من الايات القرآنية، وقد لوحظ أن بعض الآيات كانت محرفة من غير قصد أو بسبب الجهل. والآيات القرآنية وأجزاؤها موضوع الدراسة عديدة ومتنوعة وبعضها مكرر. وهى تتضمن معانى عديدة.

(ب) وكانت أكثر ما تضمنته عبارات الآيات القرآنية من معان ذكر الله جل شأنه وتعظيمه سبحانه وتعالى وتاكيد قدرته (عبارات أرقام : ٣ و٤ و٧ و٨ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و٢٠ و٢١ و٣٥ و٣٨ و٣٩ و٤٩ و٥٢ مثلا). وقد تضمنت معانى الآيات القرآنية معانى التوكل على الله والاستسلام له عز شأنه (عبارات أرقام : ٢ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٣٦ و١٥ و٣٠ و٤٤ و٥٣ و٥٤ مثلا). كما تضمنت هذه المعانى معانى اليسر والعسر والرزق والحمد والشكر والنصر والصبر والحفظ (عبارات أرقام : ١٧ و٢٩ و٣١ و٣٢ و٥١ و٥ و٣٣ و٤٥ و٥٠ و١٦ و١٨ و٣٧ و٤٢ و٤٧ و٢٥ و٢٨ مثلا).

(جـ) ومن الايات القرآنية ما تضمن معنى التفاؤل "إنا فتحنا لك فتحا مبينا" (عبارة رقم ١٩)، ومعنى الدعاء "قال رب اشرح لى صدرى" (عبارة رقم ٢٦)، ومعنى السلام والأمن "ادخلوها بسلام آمنين" (عبارة رقم ١)، ومعنى التحذير من الفتنة "والفتنة اشد من القتل" (عبارة رقم ٦)، ومعنى الاعتصام "واعتصموا بحبل الله" (عبارة رقم ٤٣). وكانت (عبارة رقم ٤٧) و"إنك لعلى خلق عظيم" تشع هدى الدعوة إلى التحلى بالخلق العظيم أسوة بالنبى صلى الله عليه وسلم.

3- الأحايث النبوية :

وتضمنت عبارات الأشكال الدينية موضوع الدراسة ١٢ عبارة تتضمن "أحاديث نبوية" بنسبة نحو ٦٪ من مجموع عبارات الأشكال الدينية. ولم تتضمن الكلمات موضوع الدراسة بالضرورة أحاديث نبوية.

-وكانت عبارات الأشكال الدينية التي تتضمن أحاديث نبوية هي :

مسلسل	مضمون العبارة	ملاحظات
١	إذا سألت فاسأل الله	فقرة من حديث
2	إذا قصدت فاقصد الله	فقرة من حديث رويت بالمعنى
3	الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه.	فقرة من حديث وصحتها : والله فى عون العبد مادام العبد عون أخيه .
4	اللهم أنت السلام ومنك السلام	فقرة من حديث.
5	اللهم إنى أعوذ بك من البخل	فقرة من حديث.
6	إن الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه "انظر رقم ٣"	
7	إنما الأعمال بالنيات	فقرة من حديث.
8	وإذا استعنت فاستعن بالله	فقرة من حديث.
9	ولكل امرئ ما نوى	فقرة من حديث.
١٠	يا إلهى اعوذ بك من عذاب القبر	فقرة من حديث.
١١	يا حى يا قيوم لا إله إلا أنت	ورد عجز هذه الفقرة فى حديث.
١٢	يا ربى أعوذ بك من الجبن	فقرة من حديث وصحتها : وأعوذ بك من الجبن

- ويلاحظ أن الكلمات موضوع الدراسة لم تتضمن أحاديث نبوية :
وفى ضوء ما سبق نلاحظ ما يلى :

(أ) أن عبارات الأحاديث النبوية هي، كلها، في حقيقة الأمر أجزاء أو فقرات من الاحاديث النبوية، ونجد أن بعض هذه الأحاديث كان محرفا عن غير قصد أو بسبب الجهل، وبعض الأحاديث النبوية أو فقراتها موضوع الدراسة متنوع وبعضها مكرر، وتتضمن هذه الأحاديث أو فقراتها معاني متباينة.

(ب) وقد تضمنت عبارات الأحاديث النبوية بعض الطلبات منها : السلام والحماية من البخل ومن عذاب القبر ومن الجبن (عبارات أرقام : ٤ و٥ و١٠ و١٢)، وقد اتضح معنى الاستسلام لله جل وعلا ومعنى تأكيد وحدانيته جل شأنه في بعض العبارات (عبارات أرقام : ١ و٢ و٨ و١١). كما تضمن بعضها الآخر معنى التعاون بين المؤمنين ومحاسبة الضمير (عبارات أرقام : ٣ و٦ و٧ و٩).

4- آيات من الكتاب المقدس

وتضمنت عبارات الأشكال الدينية موضوع الدراسة أربع عبارات تتضمن "آيات من الكتاب المقدس" بنسبة نحو ٢٪ من مجموع عبارات الأشكال الدينية، ولم تتضمن الكلمات موضوع الدراسة، بالضرورة، آيات الكتاب المقدس.

- وكانت عبارات الأشكال الدينية التي تتضمن آيات من الكتاب المقدس هي :

عبارات الأشكال الدينية التى تتضمن آيات من الكتاب المقدس هى :

رقم مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى	اسم السفر ورقمة او رقم إصحاحه ورقم الآية	ملاحظات
١	الرب راعى فلا يعوزنى شئ	٧٨	مز ٢٣ : ١	
٢	الله محبة	١٢٢	ايو ٤: ٨	الآية كاملة : ومن لا يحب لا يعرف الله لأ الله محبة
٣	رأس الحكمة مخافة الله	٢٧٧	مز ١١١: ١٠	صحة الآية : رأس الحكمة مخافة الرب.
٤	سلم للرب طريقك	٣١٥	مز ٣٧: ٥	الآية كاملة : سلم للرب طريقك واتكل عليه وهو يجرى

ويلاحظ أن الكلمات موضوع الدراسة لم تتضمن آيات من الكتاب المقدس.

وفى ضوء ما سبق نلاحظ ما يلى :

(أ) أن عبارات الآيات المقدسة هى أجزاء من الآيات المقدسة ما عدا عبارة واحدة، وجدت عبارة واحدة من هذه العبارات قد كتبت آيتها فى جزء منها بالمعنى.

(ب) أن عدد عبارات الآيات المقدسة موضوع الدراسة الحالية أربع عبارات فقط، وقد تضمنت هذه العبارات معنى الاستسلام لله عز شأنه وتأكيد قدرته (عبارة رقم ١ وعبارة رقم ٤)، ومعنى الخوف من الله (عبارة رقم ٣)، ومعنى الدعوة إلى محبة الناس بعضهم بعضا (عبارة رقم ٢)

5- النتائج :

فى ضوء البيانــات المدونــة فــى الفصــل الحــالى يمكننــا أن نســتخلص بعض النتائج وتتضمن هــذه النتـائج نوعيـن مـن النتـائج : الأول هـى النتـائج الخاصـة، وهى تتعلق بموضـوعات الفصـل الحالى وهى :

١- الدعوات والابتهالات.

2- الآيات القرآنية.

3- الأحاديث النبوية.

4- آيات من الكتاب المقدس.

أما النوع الثانى من النتائج فهو النتائج العامة، وهى تتضمن تلخيصـا لأهم النتائج الخاصة.

أولا - النتائج الخاصة :

١- الدعوات والابتهالات :

(أ) تبين أن عبارات الدعوات والابتهالات وكلماتهـا عديـدة ومتنوعـة وبعضها مكرر، وهى تتضمن معانى عديدة، وتوجه إلى الله جل وسـما علنـا أو ضمنا أو توجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو إلى اهل البيـت أو إلـى السيدة العذراء أو إلى الوالدين، ومـن هـذه العبـارات دعـوات أخـرى موجهـة ضد آخرين.

(ب) وكان أكثر عبارات الدعوات والابتهالات وكلماتها الموجـة إلـى الله جل وسما الطلبات، ومـن هـذه الطلبـات الرعايـة والسـلامة والنجـاة مـن الخوف ومن شر اعمال الناس ومن المهالك، والحمايـة مـن شـر العبـاد ومـن شر الأصدقاء ومن الحسد، ومنها طلبات الستر واللطف عند القضـاء ورضـا الرب وعطفه ولطفه والرزق والصبر، منها طلبات وطنيـة (كـالنصر للعـرب بخاصة والنصر عامة).

وقد تضمنت عبارات الدعوات والابتهالات وكلماتها عبارات وكلمات أخرى غير الطلبات منها ما تلهج بحمد الله وشكره، ومنها عبارات التوكل على الله والاستسلام لإرادته وتعظيم شأنه وتكريمه والتقرب إليه عز وجل والرجاء فيه.

(جـ) وكان أكثر عبارات الدعوات والابتهالات الموجهة إلى النبى صلى الله عليه وسلم، الصلاة عليه صلاة مطلقة أو بهدف السعى ودرءا للحسد، ومن هذه العبارات ما يهدف إلى التقرب إلى النبى صلى الله عليه وسلم والتوسل إليه.

وكانت عبارات الدعوات والابتهالات وكلماتها الموجهة إلى أهل البيت والأولياء (السيدة زينب أم هاشم، وسيدنا الحسين والسيد البدوى، وأبى العباس، والغريب حامى السويس، والعدوى مثلا) تضمن التقرب إليهم والتوسل إليهم والتماس البركة منهم وحمايتهم.

وقد كتب أحدهم إحدى العبارات التى وجهها إلى السيدة العذراء طالبا منها الخلاص، وكتب آخر عبارة يلتمس فيها بركة دعاء الوالدين.

(د) وتضمنت عبارات الدعوات والابتهالات دعوات ضد الظالمين والحاسدين وضد الناس الأشرار (الكفار).

2- الآيات القرآنية :

(أ) تبين أن عبارات الآيات القرآنية هى فى الكثير من الأحيان أجزاء من الآيات القرآنية وقد وجدت بعض الآيات محرفة ويرى الكاتب أن هذا التحريف كان عن غير قصد أو بسبب الجهل، والآيات القرآنية وأجزاؤها موضوع الدراسة عديدة ومتنوعة وبعضها مكرر، وهى تتضمن معانى عديدة.

(ب) وكان أكثر ما تضمنته عبارات الآيات القرآنية من معان ذكر الله جل شأنه وتعظيمه وتأكيد قدرته والتوكل عليه والاستسلام له وتتضمن بعض المعانى اليسر والعسر والرزق والحمد والشكر والنصر والصبر

والحفظ. كما تضمن البعض الآخر التفاؤل والدعاء والسلام والأمن والتحذير من الفتنة والاعتصام والدعوة إلى التحلى بالخلق العظيم أسوة بالنبى صلى الله عليه سلم.

3- الأحاديث النبوية :

(أ) تبين أن عبارات الأحاديث النبوية كلها أجزاء أو فقرات من الأحاديث النبوية، وقد وجد بعض هذه الأحاديث محرفة، ويرى الكاتب أن هذا التحريف كان عن غير قصد او بسبب الجهل، وبعض الأحاديث النبوية أو فقراتها موضوع الدراسة متنوع وبعضها مكرر، وتتضمن هذه الأحاديث أو فقراتها معانى متباينة.

(ب) وكان من هذه المعانى السلام والحماية من البخل ومن عذاب القبر ومن الجبن، والاستسلام لله جل وعلا وتاكيد وحدانيته، ومنها معنى التعاون بين المؤمنين، ومعنى محاسبة الضمير.

4- آيات من الكتاب المقدس :

إن عبارات الآيات المقدسة هى أجزاء من الآيات المقدسة ما عدا عبارة واحدة كانت تتضمن آية كاملة، وقد تضمنت هذه العبارات معانى الاستسلام لله عز وجل وتأكيد قدرته والخوف من الله جل وعلا والدعوة إلى محبة الناس بعضهم بعضا.

ثانيا - النتائج العامة :

(أ) إن عبارات الأشكال الدينية وكلماتها تتضمن معانى عديدة، ومعظم هذه المعانى يتضمن الحمد لله وشكره والتوكل عليه والاستسلام لإرادته وتعظيم شأنه وتكريمه والتقرب إليه عز وجل والرجاء وتاكيد قدرته وتأكيد وحدانيته والخوف منه.

وكانت الطلبات شتى، وبعضها كان علنا والبعض الآخر كان ضمنا، ومن الطلبات الأولى نجد طلبات الرعاية والسلامة والصبر والنجاة من الخوف ومن شر أعمال الناس ومن المهالك والحماية من شر العباد ومن شر الأصدقاء ومن الحسد ومن البخل ومن عذاب القبر ومن الجبن، وطلبات الستر واللطف عند القضاء ورضا الرب وعطفه ولطفه، وبعض الطلبات الوطنية، (كالنصر للعرب بخاصة والنصر بعامة)، ومن الطلبات الثانية نجد طلبات اليسر والرزق والحمد والشكر والنصر والحفظ.

(ب) وتضمنت عبارات الأشكال الدينية وكلماتها معانى أخرى غير السابقة، ومن هذه ما يدعو إلى الاعتصام وإلى المحبة وإلى التحذير من الفتنة وإلى التماس بركة دعاء الوالدين وإلى الدعوة إلى التعاون بين المؤمنين ومحاسبة الضمير، ومن عبارات الأشكال الدينية وكلماتها نجد الصلاة على النبى صلاة مطلقة أو بهدف السعى ودرءا للحسد، أو بهدف التقرب إليه والتوسل إليه كما نجد مايتضمن التقرب إلى أهل البيت والأولياء والتوسل إليهم والتماس البركة والحماية منهم، وما يتضمن طلب الخلاص من السيدة العذراء.

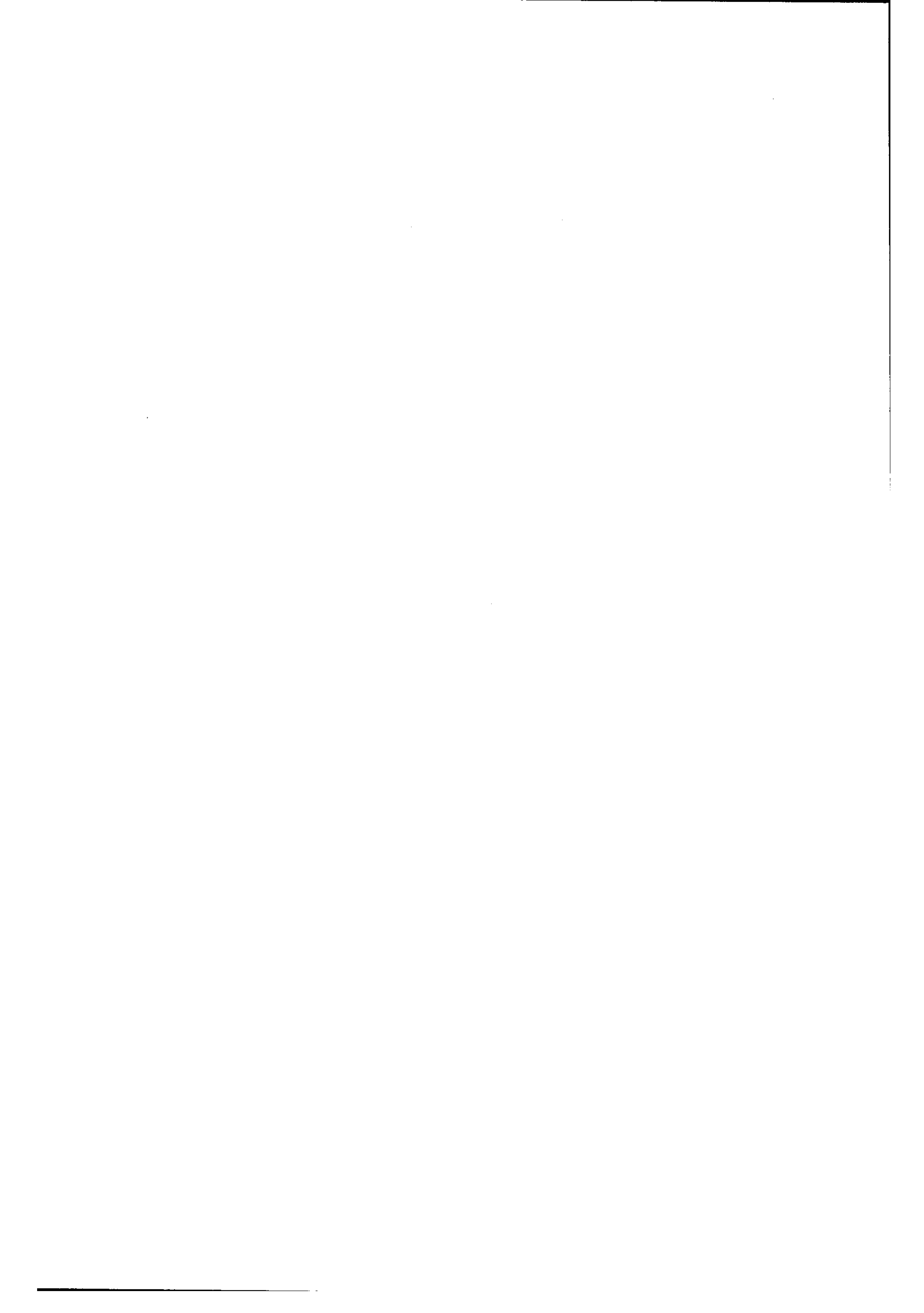
ومن عبارات الأشكال الدينية وكلماتها نجد دعوات الظالمين وضد الحاسدين وضد الناس الأشرار (الكفار).

(جـ) وإذا كانت عبارات الدعوات والابتهالات وكلماتها قد تضمنت طلبات علنية وصريحة من الله عز شأنه، فإن عبارات الآيات القرآنية وعبارات الأحاديث النبوية قد تضمنت أيضا طلبات من الله جل وعلا، وإن كانت الطلبات فى عبارات الآيات القرآنية غير علنية وغير صريحة، وكانت معانى الاستسلام لإرادة الله عز وجل متضمنة فى عبارات الدعوات والابتهالات وكلماتها وفى عبارات الآيات القرانية وفى عبارات الأحاديث النبوية وفى عبارات آيات الكتاب المقدس جميعا.

أما معانى الحمد والشكر لله جل وعلا فقد كانت تتلألأ فى عبارات الدعوات والابتهالات وكلماتها وعبارات الآيات القرآنية. وتضمنت عبارات الدعوات والابتهالات وكلماتها وعبارات الآيات القرآنية معانى التوكل على الله وتعظيمه وتأكيد قدرته.

الفصل السادس

مضمون عبارات الأشكال الأخرى



الأقـــوال المــــأثورة – الأســـماء الموصوفـة – الأسـماء – العبـارات الأخرى – النتائج.

١-الأقوال المأثورة :

فى ضوء بيانات الفصل الثالث والنتائج التى استخلصناها منها تبين أن مضمون بعض الكلمات وبعض عبارات الأشكال الأخرى يحتوى على "أقوال مأثورة" وقد تبين أيضا أن عبارات الأشكال الأخرى التى تتضمن الأقوال المأثورة هى ٧٦ عبارة، بنسبة نحو ٤٢٪ من مجموع عبارات الأشكال الأخرى موضوع الدراسة، ولم تتضمن الكلمات موضوع الدراسة أقوالا مأثورة، والمقصود بالقول المأثور فى الدراسة الحالية "كل ما تضمنه التراث المكتوب (الذى يعرف قائله) من حكم ومواعظ ونصائح وغيرها"، ويكون القول المأثور عادة باللغة الفصحى، والملاحظ أن القول المأثور أشمل من النصيحة والتحذير لأنه يتضمنهما.

– وكانت عبارات الأشكال الأخرى التى تتضمن أقوالا مأثورة هى :

مسلسل	مضمون العبارة
١	اتق شر من أحسنت إليه
2	إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك
3	إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فترقب اعمالهم
4	إذا سفه السفيه فلا تجبه وخير الكلام السكوت
5	إرادة الله فوق كل شئ
6	أرزاق مقسمها الخلاق
7	اغنى الغنى العقل
8	اكبر الفقر الحمق

مسلسل	مضمون العبارة
9	اكرم الحسب حسن الخلق
١٠	الاعتراف بالحق فضيلة
١١	الأمانة سر النجاح
١٢	الأمر لله وحده
١٣	الحسود لا يسود
١٤	الحق قوة وعدل وإيمان
١٥	الحلم سيد الأخلاق
١٦	الرزاق باقى والضامن حى
١٧	الرزق على الله
١٨	الزمن أحسن معلم
١٩	الستار موجود
٢٠	الستار موجود دائما
٢١	الشيطان عدو الانسان
22	الصبر حلو
23	الصبر جميل
24	الصبر طيب
25	الصبر طيب ولكن الأسى يضر
26	الصبر مفتاح الفرج
27	الطمع يقل ما جمع

مسلسل	مضمون العبارة
28	العز فى طاعة الله
29	العلم نور
٣٠	العين الحاسدة ملعونة
٣١	القناعة كنز لا يفنى
32	الكلمة الحلوة والابتسامة العريضة تصنع المعجزات
33	الله يرزق من يشاء فلا تسألون عن السبب
34	المعدة بيت الدواء والحمية رأس كل دواء
35	النظافة من الايمان
36	إله الرياسة سعة الصدر
37	بالصبر تبلغ ما تريد وبالتقوى يلين لك الحديد
38	تريد النفس أن تبلغ مناها ولكن الله يفعل ما يريد
39	تعددت الأسباب والموت واحد (شطرة من بيت من الشعر)
٤٠	جمال الدنيا بالمال والآخرة بالأعمال
٤١	جميل يا صبر
42	حكم القدر محتوم على الظالم والمظلوم
43	حكمة الله أية ولكل ظالم نهاية
44	خير الكلام ما قل ودل
45	سافر تجد عوضا عمن تفارقهم وانصب فإن لذيذ العيش فى النصب (بيت من الشعر)
46	سلامة الإنسان فى حفظ القرآن

مسلسل	مضمون العبارة
47	سيد القوم خادمهم
48	ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج (بيت من الشعر)
49	طاعة الله متعة
٥٠	عاتب أخاك بالإحسان ورد شره بالإنعام إليه
٥١	عاشق الأمل مغرور
52	عامل الناس كما تحب أن يعاملوك
53	عز من قنع
54	عز من قنع وذل من طمع
55	عين الحسود لا تسود
56	فى التأنى السلامة
57	فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة
58	قليل مع الشكر خير من كثير من الطمع
59	كنز الدنيا المال وكنز الآخرة الأعمال (انظر رقم ٤٠)
٦٠	كيف أخشى الفقر وأنا عبد الغنى
٦١	كيف أقول ملكى والملك لله
62	كيف اقول ملكى ولله ملك السموات والأرض
63	لا تتعجب فإنها إرادة الله
64	لا تتعجب فإنها قدرة الله
65	لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع

مسلسل	مضمون العبارة
66	لو نظر كل انسان إلى عيبه ما عاب إنسان آخر
67	ماذا يعمل الحاسد مع الرازق
68	ملك الملوك إذا وهب لن تسألن عن السبب (بيت من الشعر)
69	من راقب الناس مات هما وغما
٧٠	من صبر نال كل مطالبه ومن تعجل ندم
١٧	من صبر وتأنى نال ما تمنى
72	من كان رزقه على الله فلا يحزن
73	من كان فـى نعمـة فيرعاهـا فـإن المعـاصى تزيـل النعـم (صحـة العبارة : من كان فى نعمة فليرعها)
74	منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال
75	نعيب الناس والعيب فينا
76	وبالشكر تدوم النعم

- ويلاحظ أن الكلمات موضوع الدراسة لم تتضمن أقوالا مأثورة.

وفى ضوء ما سبق نلاحظ ما يلى :

(أ) أن عبارات الأقوال المأثورة عديدة ومتنوعة وبعضها مكرر، وهى تتضمن معانى عديدة، ومن هذه المعانى نجد ما يتضمن المعاملة المثلى التى يحددها، عادة، التراث الثقافى فى مجتمعنا المصرى المعاصر، وذلك بعدم ظلم الناس وبالحلم معهم حتى إذا سفهوا، وبأن الغنى كل الغنى فى العقل وأن الفقر كل الفقر فى الحمق، وتدعو المعاملة المثلى إلى حسن الخلق وحسن الكلام والاعتراف بالحق والتمسك بالأمانة فهى سر النجاح، وإلى الحق والعدل والإيمان وإلى القناعة وعدم الطمع وإلى العلم وإلى النظافة

وإلى النظافة وإلى العمل للأخرة وإلى العمل المنتج وإلى خدمة الآخرين وإلى عدم التعلق بالأمل وإلى الشكر وإلى عدم عيب الآخرين أو مراقبتهم وعدم ارتكاب المعاصى (عبارات أرقام : ٢ و٣ و٤ و١٥ و٣٢ و٤٦ و٥٠ و٧ و٨ و٩ و٥٢ و٤٤ و١٠ و١١ و١٤ و٢٧ و٣١ و٥٣ و٥٤ و٢٩ و٧٤ و٣٥ و٤٠ و٥٩ و٤٥ و٤٧ و٥١ و٥٨ و٧٦ و٦٦ و٦٩ و٧٥ و٧٣ مثلا).

(ب) ومن معانى عبارات الأقوال الماثورة ما يركز على الاستسلام لله جل وعلا فإرادته فوق كل شئ والرزق يقسمه كما يشاء، وهو الستار والملك كله له (عبارات أرقام : ٥ و١٢ و٣٨ و٦٣ و٦٤ و٦ و١٦ و١٧ و٣٣ و٤٨ و٦٠ و٦٨ و٧٢ و١٩ و٢٠ و٦١ و٦٢ مثلا). ومنها الاستسلام للقدر والغيب والزمن (عبارات أرقام : ٣٩ و٤٢ و٦٥ و١٨).

(جـ) وتضمنت عبارات الأقوال المأثورة معانى الدعوة إلى الصبر والتأنى)عبارات أرقام: ٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٣٦ و٣٧ و٤١ و٥٦ و٥٧ و٧٠ و٧١). كما تضمنت هذه العبارات معانى عديدة ضد العين الحاسدة وضد الحاسدين (عبارات أرقام : ١٣ و٣٠ و٥٥ و٦٧).

(د) وقد حضت بعض هذه العبارات على طاعة الله (عبارة رقم ٢٨ وعبارة رقم ٤٩). كما حضت إحدى العبارات على عصيان الشيطان فهو عدو الانسان (عبارة رقم ٢١) وتضمنت بعض العبارات معانى التحذير من المحسن إليه ومن الأكل الكثير فضلا عن تحذير الظالم (عبارات أرقام : ١ و٣٤ و٤٣).

3- الأسماء الموصوفة :

وتضمنت عبارات الأشكال الأخرى موضوع الدراسة ٥٤ عبارة تتضمن "أسماء موصوفة" بنسبة نحو ٢٩,٨٪ من مجموع عبارات الأشكال الأخرى، ولم تتضمن الكلمات موضوع الدراسة أسماء موصوفة فى هذه الدراسة "كل اسم يتبعه وصف معين سواء كان اسما لشخص أو اسما لشئ".

- وكانت عبارات الأشكال الأخرى التى تتضمن أسماء موصوفة هى :

رقم العبارة في القاموس الأبجدى	مضمون العبارة	مسلسل
٥	أبو السباع سيارات الوحش الجبار	١
٩	أبو سمرة الأصيل	2
١٢	ابو قرنى قاهر الدركسيون	3
٤٣	أسطول المنوفية	4
٦٣	البطل الرومانى (من ألقاب القديس مارجرجس)	5
٦٥	الحب جنان وجنان	6
١٩٣	بترول بلدنا	7
٢١٥	ترمس سنجام	8
٢٢٨	جيلاتى أمل حياتى	9
٢٢٩	جيلاتى نور الهدى والحب كده	١٠
٢٤٤	حسنية أخت كوثر	١١
٢٥٦	حلوانى الملوك	١٢
٢٥٧	حلوانى أهل البلد	١٣
٢٥٩	حمامة السلام	١٤
٢٧٣	دليل الصحراء	١٥
٢٩٠	زهرة البرنس	١٦
٢٩١	زهرة البساتين	١٧
٢٩٢	زهرة الجنوب	١٨

رقم العبارة في القاموس الأبجدى	مضمون العبارة	مسلسل
٢٩٣	زهرة الربيع	١٩
٢٩	زهرة الفجر	٢٠
٢٩٦	زهرة المنوفية	٢١
٣٠٤	ست الحسن	22
٣١٠	سفينة الصحراء	23
٣١١	سفينة نوح	24
٣١٢	سكة السلامة	25
٣٢١	سولار بلدنا	26
٣٢٣	سولار جميل	27
٣٢٦	سيارات النهر الخالد	28
٣٣٠	سيدنا الحسين	29
٣٣٢	شادية الصحراء	٣٠
٣٣٧	شاطئ الغرام	٣١
٣٣٨	شيال الحمول (من ألقاب ولى الله المتولى)	32
٣٥٥	شيال الحمول يا متولى	33
٣٥٥	طريق السعادة	43
٣٦٩	عبير الأمل	35
٣٧٠	عروسة المنصورة	36

مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة في القاموس الأبجدى
37	عصير العطشان	٣٧٧
38	فوال الحرية وبياع الطعمية	٤١١
39	قاهر الصحراء	٤٢٣
٤٠	قاهر المانش	٤٢٤
٤١	قطايف الحاج صبحى	٤٢٦
42	قطايف ست الكل	٤٢٧
43	لذيذ يا ترمس	٤٧٢
44	ليلى اخت طارق	٤٨٤
45	ليلى بنت المعلم	٤٨٥
٤٦	محمد رسول السلام	٥٠١
٤٧	محمد رسول الله	٥٠٢
48	مقطورة مستورة	٥٢٨
49	ملاحات البحر المتوسط	٥٣٠
٥٠	منال أخت مرفت	٥٤٦
٥١	نور الصباح	٥٧٤
52	هبة الله	٥٧٧
53	وحش (الصحراء، الشرقية)	٦٠٦
54	يا فاتنة الكل	٦٥٢

- ويلاحظ أن الكلمات موضوع الدراسة لم تتضمن أسماء موصوفة.

وفى ضوء ما سبق نلاحظ ما يلى :

(أ) أن عبارات الأسماء الموصوفة عديدة ومتنوعة وبعضها مكرر، وهى تتضمن معانى عديدة، وكان أكثر هذه المعانى ما تضمن العجب أو التفاخر، وقد كان هذا العجب أو التفاخر بالمركبة نفسها فهى اسطول أو زهرة المنوفية، وهى زهرة البرنس والبساتين والجنوب والربيع والفجر، وهى دليل الصحراء أو سفينة الصحراء أو سفينة نوح أو شادية الصحراء، وهى عروسة المنصورة أو مقطورة مستورة أو نور الصباح أو هبة الله أو شاطئ الغرام أو حمامة السلام أو عبير الأمل أو فاتنة الكل (عبارات أرقام : ٤ و٢١ و١٦ و١٧ و١٨ و١٩ و٢٠ و١٥ و٢٣ و٢٤ و٣٠ و٣٦ و٤٧ و٥٠ و٥١ و٥٢ و٣١ و١٤ و٣٥ و٥٤)، وقد كان هذا العجب أو التفاخر أيضا، يصاحب المركبة نفسها أو سائقها، فهو أبو السباع والوحش والجبار والأصيل، وهو قاهر الدريكسون وقاهر الصحراء وقاهر "المانش" ! (عبارات أرقام : ١ و٢ و٣ و٣٩ و٤٠)، وقد كان هذا العجب أو التفاخر، كذلك، ببنات أصحاب المركبات (المعلم مثلا) أو بنات سائقيها، تكتب أسماؤهن على هياكل المركبات : فلانة أخت فلانة أو فلانة بنت فلان أو مجرد وصف البنت بأنها "ست الحسن" (عبارات أرقام : ١١ و٤٤ و٥٠ و٤٥ و٢٢) ؛ ولم يكن العجب أو التفاخر بالمركبات وبأصحاب المركبات أو بسائقيها أنفسهم وبيناتهم فحسب ؛ بل كان أيضا بالبلد أو بمعلم من معالمه، فالبترول مثلا هو بترول بلدنا والسولار كذلك، والمركبة (السيارة) هى مركبة النهر الخالد (عبارات أرقام : ٧ و٢٦ و٢٨).

(ب) وقد تضمنت معانى عبارات الأسماء الموصوفة، عدا ما سبق، معانى المداعبة أو المغالاة فى الوصف، ومن هذه نجد ما يصف بعضهم " الحب) بأنه جنان فى جنان، أو يصف "الترمس" مثلا، بأنه ترمس سنجام (سنجام اسم احد الأفلام الهندية) أو انه ترمس لذيذ، أو أن "الجيلاتى" هو جيلاتى أمل حياتى (اسم أغنية لأم كلثوم)، او هو جيلاتى نور الهدى (اسم مغنية) والحب كده (اسم أغنية لأم كلثوم)، أو يصف "القطايف" أنها قطايف

"ست الكل"، أو أن "السولار" جميل، أن "الملاحات" هى ملاحات البحر المتوسط (عبارات أرقام : ٦ و٨ و٤٣ و٩ و١٠ و٤٢ و٢٧ و٤٩)، وقد برز العجب أو التفاخر واضحا فى بعض العبارات التى تغرى الزبائن بالشراء من البضاعة المعروضة. فنلاحظ أن صاحب العربة أو المسئول عنها يعجب بنفسه قائلا : إنه حلوانى "الملوك" أو حلوانى "أهل البيت" أو فوال "الحرية" أو يذكر اسمه (عبارات ارقام : ١٢ و١٣ و٣٨ و٤١).

وقد تضمنت هذه العبارات عبارة واحدة تتضمن معنى عاديا اى معنى ليس فيه مداعبة أو مغالاة أو عجبا او تفاخرا هى "عصير العطشان" (عبارة رقم ٣٧).

(جـ) ومن عبارات السماء الموصوفة نجد غير المعانى السابقة، منها معانى التقرب إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو إلى أهل البيت او إلى الأولياء والقديسين (عبارات أرقام : ٤٦ و٤٧ و٢٩ و٣٢ و٣٣ و٥)، ومنها معانى الأمل والرجاء فالسكة "سكة السلامة" (اسم مسرحية مصرية)، والطريق طريق السعادة (عبارة رقم ٢٥ وعبارة رقم ٣٤).

3- الأسماء :

وتضمنت عبارات الأشكال الأخرى موضوع الدراسة ١١ عبارة تتضمت "اسماء" بنسبة نحو ٦,١ من مجموع عبارات الأشكال الأخرى. اما الكلمات موضوع الدراسة فقد تضمنت ٣٨ اسما نحو ٧٦٪ من مجموع الكلمات. والملاحظ ان هذه الاسماء قد تكون اسماء أشخاص، قد يكونون اصحاب المركبات أو سائقيها أو ابناءهم أو بناتهم أو غيرهم. وقد تكون أسماء أخرى ذات معان مقصودة بذاتها، وقد تكون في الوقت نفسه أسماء لأشخاص أو اسماء لأشياء مثل "احلامهم" و"أمل" و"حلاوتهم" و"ريا وسكينة" و"شربات". وقد وجد بعض الاسماء التى تحمل معانى الوصف المغالي فيه مثل "السريع" و"المارد" و"لهاليبو"... إلخ.

- وكانت عبارات الأشكال الأخرى التى تتضمن اسماء هى :

مسلسل	مضمون العبارة
١	ابن بطوطة (اسم رحالة مشهور)
2	أبو أحمد
3	أبو خليل
4	ابو ريحان
5	ابو شوق
6	أم صابر (اسم شهيدة مصرية)
7	ريا وسكينة (قد يكون اسم فيلم مصرى)
8	زهرة العلا (اسم ممثلة)
9	صفاء وسعيد
١٠	مار جرجس (اسم قديسة)
١١	وادى النيل
- وكانت الكلمات التى تتضمن أسماء هى:	
١٢	آمال
١٣	احلاهمم
١٤	الحاجة
١٥	السريع
١٦	المارد
١٧	المحروسة
١٨	أمل

مضمون العبارة	مسلسل
بلبل	١٩
حلاوتهم	٢٠
حنان	٢١
زمردة	22
زوبة	23
سحر	24
سعادة	25
سمير	26
شربات	27
عزة	28
عسل	29
عصام	٣٠
عنتر (قد يكون اسم بطل مشهور	٣١
فادية	32
فو اكه	33
كايداهم	34
كروان	35
كوثر	36
لهاليبو (قد يكون اسم فيلم مصرى)	٣٧

مسلسل	مضمون العبارة
38	ليلى
39	مبروكة
٤٠	مدحت
٤١	منى
42	ميمى
43	نعمة
44	نوارة
45	هدى
46	هويدا
47	هيام
48	وحيد
49	وفاء

وفى ضوء ما سبق نلاحظ ما يلى :

(أ) أن عبارات الأسماء وكلماتها عديدة ومتنوعة، وتتضمن أسماء الأشخاص، او أسماء أخرى ذات دلالة معينة مقصودة، او قد تكون فى الوقت نفسه اسماء الأشخاص أو اسماء لأشياء. ووجد بعض الأسماء التى تحمل الوصف المغالى فيه.

(ب) وكتابة أسماء الأشخاص سواء كانت أسماء أصحاب المركبات أو سانقيها أو ابنائهم وبناتهم تدل على العجب أو التفاخر من جهة كاتبى العبارات والكلمات. ومن هذا القبيل نجد العبارات والكلمات أرقام : (٢ و٣ و٤ و٥ و٩ و١٢ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٦ و٢٨ و٣٠ و٣٢ و٣٨ و٣٩ و٤٠

و٤١ و٤٢ و٤٣ و٤٥ و٤٦ و٤٧ و٤٨ و٤٩ مثلا). ويبدو هذا العجب أو التفاخر واضحا فى بعض العبارات أو الكلمات التى ينتحل كاتبوها شخصيات هذه الأسماء (عبارة رقم ١ وكلمة رقم ٣١ مثلا).

(جـ) ومن عبارات الأسماء وكلماتها نجد بعض الأسماء قد تكون أسماء لأبناء أو بنات أصحاب المركبات أو سائقيها أو اسماء خلعها كاتبوها على المركبة نفسها على سبيل العجب أو التفاخر أو المغالاة فى الوصف او لمجرد التيمن بها (عبارات وكلمات أرقام : ٣٤ و٤٤ و١٣ و١٥ و١٦ و٣٧ و١٤ و١٧ و٢٥مثلا). مع ملاحظة أن كلمة رقم ٣٧ "لهاليبو" قد يعنى بها اسم فيلم. وقد تضمنت الكلمات أسماء قد تكون ذات دلالة معينة مقصودة، وقد تكون فى الوقت نفسه اسماء لأشخاص (هم فى الغالب أبناء أصحاب المركبات او سائقيها وبناتهم) أو أسماء لأشياء (كلمات أرقام : ١٨ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٧ و٢٩ و٢٣ و٣٥ و٣٦).

(د) ومن عبارات الأسماء ما نجده يتضمن معانى التقرب إلى قديس، أو الإعجاب بشهيدة مصرية أو بإحدى الممثلات المصريات (عبارات أرقام : ١٠ و٦ و٨). وقد تضمنت إحدى العبارات عبارة "وادى النيل" (عبارة رقم ١١)، وعبارة ريا وسكينة" قد تعنى القاتلتين المشهورتين أو اسما لفيلم مصرى عمل عنهما (عبارة رقم ٧).

4- العبارات الأخرى :

وقد تضمنت عبارات الأشكال الأخرى موضوع الدراسة ٤٠ عبارة تتضمن "عبارات أخرى" بنسبة ٢٢,١٪ من مجموع عبارات الأشكال الأخرى. وقد تبين أنها لم تتضمن الكلمات موضوع الدراسة بالضرورة عبارات أخرى. والمقصود بالعبارات الأخرى تحت هذا البند "العبارات التى لم ترد فى احد التصنيفات فى الفصل الحالى أو فى الفصلين الرابع والخامس من الكتاب.

وقد يرى القارئ أن من العبارات الأخرى عبارات قد تمت إلى عبارات "التعبيرات الشعبية" (الفصل الرابع) بصلة، فهى مكتوبة باللغة

العامية مثل عبارة "إن كنت عايزنى قابلنى"، وعبارة "نظرة يا ست حوريـة". أو قد يرى القارئ أن من العبارات الأخرى عبارات من قبيل "الدعوات والابتهالات" (الفصل الخامس) مثل عبارة "العين صابتنى ورب العرش نجانى"، وعبارة "ظلمونى الناس ولكن الله لم ينسانى". ومن حق القارئ أن يرى ما يرى، ولكن الملاحظ أن العبارتين الأوليين وغيرهما تعنى فى رأى الكاتب أكثر من مجرد تعبيرات شعبية. اما العباراتان التاليتان وغيرهما فإن العبرة فى رأى الكاتب تكون فى المواقف الذى تقال فيه هذه العبارات. وقد لا يقتضى الموقف فى كل الأحيان استخدام هذه المعانى (أى معانى الدعوات والابتهالات).

- وكانت عبارات الأشكال الأخرى التى تتضمن عبارات أخرى هى:

مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة فى القاموس الأبجدى
١	أحب الناس واكره كلامهم	١٦
2	أحب كل الناس ولا أكره كل الناس	١٧
3	إزاى اكره الفقر وأنا ابن الغنى (انظر رقم ٦٠ مسلسل فى الأقوال المأثورة	٤٠
4	الإسماعيلى بطل أفريقيا	٥٦
5	الحب فيك هو اللى ظلمنى	٦٦
6	العين صابتنى ورب العرش نجانى	١٠١
7	إنت كنت عايزنى قابلنى	١٦٠
8	انا فى الهوى غلاب	١٦٩

مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة في القاموس الأبجدى
9	انت اللى قتلت سكينة "(عبارة محرفة وصحتها انت اللى قتلت بابايا)	١٧٤
١٠	أنت جبان والرب شاهد عليك	١٧٥
١١	إيمان بالله	١٨٨
١٢	بص وبص وبص تسوا مليون ونص	٢٠٥
١٣	بلاش تروح الكلية وكل جيلاتى ومهلبية	٢١٠
١٤	بلاش تنسانى مفيش لقلبى بديل لك تانى	٢١١
١٥	جايز وانت شاغلنى تشغل ناس تانيين	٢٢٤
١٦	حبيبى مسافر وسايبنى	٢٣٨
١٧	دائما فى المقدمة	٢٧٢
١٨	روحى وروحك كده	٢٨٧
١٩	سأصبر حتى ينظر الله فى أمرى	٢٩٩
٢٠	سامحنى يا بيجو	٣٠٣
٢١	صورتك فى خيالى	٣٥٢
22	طلباتك يا حمادة	٣٦٢
23	ظلمونى الناس ولكن الله لم ينسانى	٣٦٣
24	عايز تصيبنى أنا عملت فيك أيه	٣٦٨
25	عزيزة علينا يا بلدنا	٣٧٤

مسلسل	مضمون العبارة	رقم العبارة في القاموس الأبجدى
26	غرباء على الطريق	٣٩٩
27	فلسطين عروس ومهرها الدم	٤٠٧
28	فلسطين هترجع	٤٠٨
29	قرب منى تعالى وكل جيلاتي جروبى	٤٢٢
٣٠	قول حلاوة الدنيا عيونك وخايف من عيون الناس	٤٣١
٣١	لما أشوفك بنسى نفسى	٤٧٧
32	من خيرات بلدنا	٥٣٥
33	من فواكه بلدنا ومن ايد ولادنا	٤١
34	من هجرتك يا حبيبى تتوهه فى سفينتى	٥٤٤
35	نزيه يا مرور بلدنا	٥٥٦
36	نظرة يا ست حورية	٥٦٧
37	هنحارب وموش خايفين	٥٨٣
38	والنبى أنا حلوة وعارفة إنى حلوة	٥٩٥
39	وحبيبى لما قاطعنى رحت له أنا برجليه	٦٠٥
٤٠	يا ملهوف على حاسب على قلبى شوية	٦٥٧

- ويلاحظ أن الكلمات موضوع الدراسة لم تتضمن عبارات أخرى.

وفى ضوء ما سبق نلاحظ ما يلى :

(أ) أن العبارات الأخرى عديدة ومتنوعة. وتتضمن معانى عديدة. ومن هذه المعانى معانى الحب والهوى، وتتضمن المعانى الأخيرة الظلم والعجب أو التفاخر والشك والهجر والضياع والرجاء والمذلة (عبارات أرقام : ٥ و٨ و١٥ و ١٦ و٣٤ و٣١ و١٤ و٣٩)، وقد تضمنت معانى العبارات الأخرى الحب بمعناه الانسانى الكبير (عبارة رقم : ١ وعبارة رقم ٢) وجاء أيضا معنى العجب أو التفاخر فى عبارات أخرى (عبارات أرقام : ٤ و١٢ و١٧ و٣٨).

وربما كان يخاطب (كاتب العبارة رقم ٣٨) "والنبى أنا حلوة وعرفة إنى حلوة" محبوبة، أو المركبة التى يسوقها.

(ب) ومن معانى العبارات الأخرى نجد معنى الوطنية (عبارات أرقام : ٢٥ و٢٧ و٢٨ و٣٢ و٣٣ و٣٧)، والملاحظ أن عبارات (أرقام : ٢٧ و٢٨ و٣٧) تتضمن معانى فلسطين الغالية والحرب من أجل استرجاعها وعدم الخوف من الحرب. ومن هذه المعانى الغزل والمداعبة والمغالاة (عبارات أرقام ٧ و١٨ و٢١ و٣٦ و٤٠ و٩ و١٣ و٢٠ و٢٩).

(جـ) ومن العبارات الأخرى ما تضمن معانى الاستسلام لله جل وعلا (عبارة رقم ٣، وعبارة رقم ١١)، ومنها ما تضمن معانى الحسد والشكوى والظلم والتملق والصبر (عبارات أرقام : ٦ و٣٠ و٢٤ و٢٦ و١٠ و٢٣ و٣٥ و١٩). ويلاحظ أن العبارة "انت جبان والرب شاهد عليك" (عبارة رقم ١٠) يخاطب كاتبها فيها شخصا يعرفه ولا يريد الإفصاح عنه خوفا من مكانته وسلطانه.

وقد تضمنت العبارات الأخرى (عبارة رقم ٢٢) "طلباتك يا حمادة". ويبدو أن كاتب العبارة يخاطب فيها أحد أبنائه أو أحد أصدقائه.

5- النتائج :

فى ضوء البيانات المدونة فى الفصل الحالى يمكننا أن نستخلص بعض النتائج وتتضمن هذه النتائج نوعين من النتائج : الأول هى النتائج الخاصة، وهى تتعلق بموضوعات الفصل الحالى وهى :

١- الأقوال المأثورة.

2- الأسماء الموصوفة.

3- الأسماء.

4- العبارات الأخرى.

أما النوع الثانى من النتائج فهى النتائج العامة، وهى تتضمن تلخيصا لأهم النتائج الخاصة.

أولا - النتائج الخاصة :

١- الأقوال المأثورة :

(أ) تبين أن عبارات الأقوال المأثورة عديدة ومتنوعة وبعضها مكرر، وهى تتضمن معانى عديدة، ومن هذه المعانى نجد ما يتضمن المعاملة المثلى التى يحددها، عادة، التراث الثقافى فى مجتمعنا المصرى المعاصر. والمعاملة المثلى ترسم، على المستوى النظرى، الطريق الذى يجب اتباعه وذلك بعدم ظلم الناس وبالحلم معهم حتى إذا سفهوا، و بأن الغنى كل الغنى فى العقل وأن الفقر كل الفقر فى الحمق. وتدعو المعاملة المثلى إلى حسن الخلق وحسن الكلام والاعتراف بالحق والتمسك بالأمانة، كما تدعو إلى الحق والعدل والايمان وإلى العلم وإلى النظافة وإلى العمل بالآخرة وإلى العمل المنتج وإلى خدمة الآخرين. وشكرهم وإلى عدم عيب الآخرين أو مراقبتهم وإلى عدم ارتكاب المعاصى. ومع ذلك فإن هذه المعاملة المثلى تدعو، أيضا، إلى القناعة وعدم الطمع وإلى عدم التعلق بالأمل فإن عاشق الأمل مغرور.

(ب) وقد تضمنت معانى عبارات الأقوال المأثورة معانى أخرى غير السابقة، منها معانى الاستسلام لله جل وعلا، ومنها معانى الاستسلام للقدر والغيب والزمن، وتتضمن بعض المعانى الدعوة إلى الصبر والتأنى وإلى طاعة الله وعصيان الشيطان.

كما يتضمن بعضها الآخر معـانى عديـدة ضـد العيـن الحاسـدة وضـد الحاسدين، ومعانى التحذير مـن المحسن إليـه ومـن الكل الكثير فضـلا عـن التحذير من الظالم.

2- الأسماء الموصوفة :

(أ) تبيـن أن عبـارات الأسـماء الموصـوفـة عديـدة ومتنوعـة وبعضـها مكرر، وهى تتضمن معانى عديدة، وكان أكثر هذه المعانى ما تضمن العجب أو التفـاخر بالمركبـة وبصـاحب المركبـة نفسـه أو بسـائقها، وبنـات أصحـاب المركبـات (المعلم مثـلا) أو بنـات سـائقيها ؛ ولـم يكـن العجـب أو التفـاخر بالمركبات وبأصحاب المركبات أو بسائقيها أنفسهم وبناتهم فحسب، بـل كـان أيضا بالبلد أو بمعلم مـن معالمـه، وقـد بـرز العجـب أو التفـاخر واضحـا فـى بعض العبارات التـى تغرى الزبـائن بالشـراء مـن البضـائع المعروضـة فـى المركبات.

(ب) وتبين أن بعض معانى عبارات الأسماء الموصوفة قد تضمنت المداعبة أو المغالاة فى الوصف، أو تضمن التقرب إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو إلى أهل البيت أو الأولياء والقديسين، وتضمن بعـض معـانى الأمـل والرجاء.

3- الأسماء :

(أ) تبيـن أن عبـارات الأسماء عديدة ومتنوعــة، وتضمنـت أسـماء الأشخاص أو أسماء أخرى دلالة معينة مقصودة أو قد تكون فى الوقت نفسه أسماء لأشخاص أو أسماء لأشياء.

وتبيـن أن كتابـة أسـماء الأشــخاص سـواء كـانت أسـماء أصحـاب المركبـات أو سـائقيها أو أبنـائهم وبنـاتهم تـدل علـى العجـب أو التفـاخر أو المغالاة فى الوصف أو لمجرد التيمن بها.

(ب) وتبين من عبارات الأسماء ما نجده يتضمن معانى التقرب إلى قديس أو الإعجاب بشهيدة مصرية أو بإحدى الممثلات المصريات.

4- العبارات الأخرى :

(أ) تبين أن العبارات الأخرى عديدة ومتنوعة، وتتضمن معانى عديدة، ومن هذه المعانى الحب والهوى التى بدورها تتضمن معانى الظلم والعجب أو التفاخر والشك والهجر والضياع والرجاء والمذلة، ومعظم هذه المعانى سلبية، وقد وجدت فى العبارات الأخرى معان إيجابية منها الحب بمعناه الانسانى الكبير والوطنية (معانى فلسطين الغالية والحرب من أجل استرجاعها وعدم الخوف من الحرب).

(ب) وقد تبين أن العبارات الأخرى تتضمن معانى أخرى منها ما يؤكد معانى العجب أو التفاخر، ومنها ما يتضمن الغزل والمداعبة والاستسلام لله جل وعلا، ومنها ما تضمن المغالاة والحسد والشكوى والظلم والتملق والصبر.

ثانيا - النتائج العامة :

(أ) أن عبارات الأشكال الأخرى وكلماتها تتضمن معانى عديدة، منها معان سلبية وأخرى إيجابية.

وقد تتضمن بعض هذه المعانى المعاملة المثلى التى يحددها، عادة، التراث الثقافى فى مجتمعنا المصرى والتى ترسم، على المستوى النظرى، الطريق الذى يجب اتباعه، وذلك بعدم ظلم الناس وبالحلم معهم حتى إذا سفهوا، وبأن الغنى كل الغنى فى العقل وأن الفقر كل الفقر فى الحمق، وبالدعوة إلى حسن الخلق وحسن الكلام والاعتراف بالحق والتمسك بالأمانة وإلى الحق والعدل والإيمان والعلم وإلى النظافة وإلى العمل للآخرة وإلى العمل المنتج وإلى خدمة الآخرين وشكرهم، وإلى عدم عيب الآخرين أو مراقبتهم وإلى عدم الطمع وعدم ارتكاب المعاصى، ومع ذلك فإن هذه

المعاملة المثلى تدعو، أيضا، إلى القناعة والصبر والتأني وإلى عدم التعلق بالأمل فإن عاشق الأمل مغرور.

والملاحظ أن هذه المعاملة المثلى وما تدعو إليه وما تهدف إليه، كلها، تبدو أمورا مطلقة، ومن ثم فإن تحقيقها يرجع بالضرورة إلى تقييم من يتحلى بها أو يحاول ان يتحلى بها، وقد يكون هذا التقييم سلبيا في بعض الأحيان أو يكون إيجابيا فى أحيان أخرى، ويتوقف كل ذلك على الشخص المقيم وعلى قدرته على تبرير ما يفعل، وعلى الموقف الاجتماعى أو المواقف الاجتماعية التى يواجهها هذا الشخص.

(ب) وقد تضمنت معانى عبارات الأشكال الأخرى وكلماتها، غير المعانى السابقة، معانى اخرى. منها، الاستسلام لله جل وعلا وللقدر والغيب والزمن، ومنها ما يدعو إلى طاعة الله وعصيان الشيطان، ومنها معان ضد العين الحاسدة وضد الحاسدين، ومعانى التحذير من المحسن إليه ومن الأكل الكثير فضلا عن التحذير من الظالم، ومعانى العجب أو التفاخر بالمركبات او بأصحابها وسائقيها أو بأبنائهم وبناتهم أو بالبلد أو بمعلم من معالمه، ومنها ما يتضمن التقرب إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو إلى أهل البيت أو الأولياء والقديسين، ومنها ما تضمن الحب بمعانيه السلبية، والوطنية والحب الانسانى بمعناه الكبير، ونذكر القارئ فى هذا المجال بعبارة "أحب كل الناس ولا أكره كل الناس".

وقد تضمنت معانى عبارات الأشكال الأخرى، كذلك، معانى المداعبة والغزل والمغالاة والاعجاب والحسد والشكوى والظلم والتملق والصبر.

(جـ) وتبين أنه إذا كانت عبارات الأقوال المأثورة تتضمن الدعوة إلى المعاملة المثلى بعناصرها السلبية والايجابية، كما تدعو إلى الاستسلام لله جل وعلا وللقدر والغيب والزمن، وإلى طاعة الله وعصيان الشيطان، وإذا كانت هذه العبارات تتضمن معانى ضد العين الحاسدة وضد الحاسدين ومعانى التحذير من المحسن إليه ومن الأكل الكثير فضلا عن التحذير من الظالم - فإن عبارات الأسماء الموصوفة تتضمن معانى العجب أو التفاخر، وعبارات الأسماء وكلماتها، والعبارات الأخرى تتضمن نفس المعانى، وقد تضمنت العبارات الأخرى معانى الاستسلام لله جل وعلا، وكان التقرب إلى

النبى صلى عليه وسلم أو إلى أهل البيت أو الأولياء أو القديسين متضمنا فـى عبارات الأسماء الموصوفة، في حين أن التقرب إلى قديس كان متضمنا فـى عبـارات الأسـماء وكلماتهـا، وإذا كـان عـدم التعلـق بـالأمل بعــض عنــاصر المعاملة المثلى فى عبارات الأقوال الماثورة، فإن الدعوة إلى الأمل والرجـاء كانت ضمن معانى عبارات الأسـماء الموصوفـة، وكـان معنـى الظلـم ضمـن معـانى العبـارات الأخـرى، وكـانت معـانى المداعبـة والمغـالاة فـى الوصــف موجودة ضمن معانى عبارات الأسماء الموصوفة ومعانى العبارات الأخرى، وتضمنـت معـانى العبـارات الأخـرى معـانى الحسـد كمـا تضمنتــه عبـارات الأقوال الماثورة، وكان ضمن معانى العبارات الأخرى معنى الحب الإنسـانى الكبـير ومعنـى الوطنيـة ؛ ومـع ذلـك فقـد تضمنـت هـذه المعـانى الشـكوى والتملق.

الفصل السابع

أهم نتائج الدراسة



تمهيد – أهم النتائج العامة – أهم نتائج عبارات الأشكال الشعبية وكلماتها – أهم نتائج الأشكال الدينية وكلماتها – أهم نتائج الأشكال الأخرى وكلماتها – بعض دلالات نتائج الدراسة الحالية.

تمهيد :

أن الهدف الأول من الفصل الحالى هو تجميع أهم نتائج فصول الكتاب السابقة على حدة. وذلك لتيسير اطلاع القارىء عليها. وترجع أهمية هذه النتائج إلى اختيار الكاتب لها دون غيرها فى ضوء خبرته التى اكتسبها، بالضرورة، من خلال القيام بالدراسة الحالية. عضلا عن غيرها من الخبرات الأخرى. ولا يعنى أن يكون هذا الاختيار سليما مائة فى المائة. ولكنه اختيار كافح الكاتب فى ضوء قدراته فى سبيل موضوعية وضرورته ما استطاع الى ذلك سبيلا.

ولايعنى بعض مضمون الكلام السابق الاكتفاء بقراءة الفصل الحالى بحثا عن نتائج الدراسة الحالية. لأن هذا الاكتفاء يكون فى رأى الكاتب أقرب إلى الخطأ منه إلى الصواب. فمادة فصول لالكتاب السابقة موجودة أمام القارىء ومن حقه، بل من واجبة، أن يقرأها قراءة جادة حتى يستوعبها ويتمثلها. ومن ثم يستطيع أن يصل وحده الى الحقائق الموضوعية المنشودة ذلك لأن الهدف الوحيد هو أن نصل، الكاتب والقارىء والناقد، جميعا، الى هذه الحقائق. فنحن فى ضوء ظروف مجتمعنا المصرى المعاصر لايمكن أن نفيد من شيء لايستند إلى الحقائق. فهى فى ضوء هذه الظروف ملاذنا، ويجب أن نعمل فى سبيل الحصول عليها حيثما كانت، وأن نسخرها فى سبيل نحقيق كل مانصبو إليه من آمال على المستوى المحلى وعلى المستوى القومى وعلى المستوى العالمى جميعا. وإن هذه الآمال العريضة تستحق منا كل عناء. وفى سبيل تحقيقها يهون كل عناء.

ويتضمن الفصل الحالى الموضوعات التالية:

١- أهم النتائج العامة.

٢- أهم نتائج عبارات الأشكال الشعبية وكلماتها.

٣- أهم نتائج عبارات الأشكال الدينية وكلماتها.

٤- أهم نتائج عبارت الأشكال الأخرى وكلماتها.

٥- بعض دلالات نتائج الدراسة الحالية.

١- أهم النتائج العامة :

(أ) فى ضوء مادة الفصول السابقة، يلاحظ القارئ أن الدراسة الحالية قد حرصت على الاهتمام بعرض بعض البيانات العامة للكلمات والعبارات موضوع الدراسة وقد حرصت هذه الدراسة أيضا على تصنيف أشكال هذه الكلمات والعبارات فى ثلاثة أشكال، هى الأشكال الشعبية، الأشكال الدينية، ثم الأشكال الأخرى.

وتضمنت عبارات الأشكال الشعبية وكلماتها عبارات وكلمات عديدة، وقد شمل أكثرها "أجزاء من أغانى مصرية"، وتليها "تعبيرات شعبية" ثم "تحذيرات" ثم "أمثال شعبية" ثم "نصائح"، وأخيرا "تحيات".

وتضمنت عبارات الأشكال الدينية وكلماتها عبارات وكلماتها عديدة، وقد شمل أكثرها "دعوات وابتهالات" وتليها "آيات قرآنية" ثم "أحاديث نبوية" وأخيرا "آيات من الكتاب المقدس".

وتضمنت عبارات الأشكال الأخرى وكلماتها عبارات وكلمات عديدة وقد شمل أكثرها "اقوالا ماثورة"، وتليها "أسماء موصوفة" ثم "أسماء" واخيرا "عبارات أخرى".

(ب) وكان أكثر الكلمات موضوع الدراسة وعددها خمسون كلمة، "الأسماء" وتليها "الدعوات والابتهالات" ثم "بداية أغانى مصرية" ثم "كلمات تحذير" ثم لفظ الجلالة "الله".

وكان أكثر العبارات موضوع الدراسة وعددها ٦١٩ عبارة "الدعوات والابتهالات" وتليها "أجزاء الأغانى المصرية"، ثم "الأقوال المأثورة"، ثم "التعبيرات الشعبية"، ثم "الآيات القرآنية"، ثم "الأسماء الموصوفة"، ثم "التحذيرات"، ثم "الأمثال الشعبية"، ثم "النصائح"، ثم "أحاديث نبوية"، ثم "التحيات"، ثم "الآيات من الكتاب المقدس" ثم "العبارات الأخرى".

(جـ) وقد حرصت الدراسة الحالية على حصر الألفاظ الشائعة فى الكلمات والعبارات موضوع الدراسة، وتبين أن عدد هذه الألفاظ ٣٢ لفظا، وقد تكررت هذه الألفاظ ٤٤٩ مرة، وكان لفظ اللالة ومشتقاته أكثرها تكرارا، ثم لفظ العين، ثم لفظ الحب ومشتقاته، ثم لفظ السلامة أو الستر، ثم لفظ نبى الاسلام، ثم لفظ الصبر ومشتقاته، ثم ألفاظ الأولياء والقديسين (تسعة ألفاظ)، ثم لفظ الحمد أو الشكر، ثم لفظ الظلم ومشتقاته، ثم لفظ التوكل ومشتقاته، ثم الحسد، ثم لفظ الرزق، ثم لفظ القضاء أو القدر، ثم لفظ القناعة، ثم ألفاظ أخرى (منها الفقر، وغلبان أو مسكين، والفرح، والأمل، والعسر أو الضيق، والسيدة العذراء (أم المخلص)، وأنبياء آخرون، وقسمة ونصيب، والحلم، والعدل).

2- أهم نتائج عبارات الأشكال الشعبية وكلماتها :

(أ) إن عبارات الأشكال الشعبية وكلماتها تتضمن معانى عديدة، منها ما هو سلبى، أى ما يعكس العديد من المشاعر السلبية، كالشكوى من الهجر والقسوة والفراق، والسهاد والوحدة والظلم والضياع والحزن والهموم وكيد العزال، وتتضمن هذه المعانى أيضا الصبر السلبى والانتظار واللامبالاة والحيرة والحسد والاستسلام والتحذير من الغضب، ومع ذلك فإن بعض المعانى الأخرى تشرق بالايجابية وبتقبل الحياة على علاتها وعدم رفضها، والأمثلة على تاكيد هذا ليست قليلة، مثل معانى الأمل والفرح والتفاؤل والدعابة والغزل والتسامح والسلامة، والدعوة إلى الشطارة وإلى احترام العامل واحترام الكبير والعطف على الصغير، والدعوة إلى سلوك الطريق المستقيم وإلى التأدب وإلى عدم النفاق وإلى فعل الطيب وفعل الخير وإلى

الرأفة بالحيوان وإلى عدم الغش وإلى عدم النـدم علـى مافـات، واخـيرا توقـع المحاسبة والتحية والترحيب

وتقبل الحياة على علاتها عند كاتبى العبارات والكلمات يبدو واضحـا إذا أمعن القارئ النظر فيمـا كتبـه أحدهـم عـى مركبتـه "كـل النـاس حلويـن". صحيح أن هذه العبارة جزء من أغنية معروفة، ولكن اختيارها وكتابتها حيث وضعت على هيكل المركبة التى تجوب الآفاق شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ؛ إنما يعلنان بوضوح عن روح عالية مشرقة تتقبـل جميـع النـاس علـى الرغـم من كل شئ، ودون ما تحيز أو تفرقة لأن كلهم "حلوين".

(ب) وتضمنت عبارات الأشكال الشعبية وكلماتها معانى أخرى غـير السابقة، ومن هـذه مـا تضمـن الإيمـان باللـه ورسوله، والعجب أو التفـاخر، والمديح، وعدم الإسراع، والدعاء، والاعتزاز بالأصل، والحداقة.

(جـ) وتبين أن عبارات الأغـانى وكلماتهـا تتضمـن معـانى الشـكوى، والعتاب والهجر، والفراق، والسـهاد، والوحـدة، والصـبر، والحمـد، والغـزل والدعابة، والاستسلام، ونجد هذه المعانى كلها، أيضا، فى عبارات التعبـيرات الشعبية، وإذا وجد معنـى الصـبر فـى عبـارات الأغـانى والتعبـيرات الشـعبية وكلماتها، فإننا نجده أيضا فى عبارات الأمثـال الشـعبية وعبـارات النصـائح، وإذا وجد معنى الحسد فـى عبـارات الأغـانى والتعبـيرات الشـعبية وكلماتهـا، نجده فى عبارات التحذيرات والأمثال الشعبية وكلماتها، ومعنـى الدعابـة كمـا يوجد فى عبـارات الأغـانى والتعبـيرات الشـعبية وكلماتهـا، يوجـد أيضـا فـى عبارات التحذيرات وكلماتها، وكما يوجد معنى الغزل فـى عبـارات الأغـانى والتعبيرات الشعبية وكلماتها، يوجد أيضا فى عبارات التحيات، وكمـا يوجـد معنى الاستسلام فى عبارات الأغانى والتعبيرات الشعبية وكلماتها، يوجد فـى عبـارات الأمثـال الشـعبية والنصـائح، ومعنـى السـلام أو السـلامة تتضمنـه عبارات الأغانى كما تتضمنه عبارات النصائح.

وتتضمن عبارات التعبيرات الشعبية معنـى العجب أو التفـاخر، كمـا تتضمن هذا المعنى عبارات الأمثال الشعبية، ومعنى عدم الاسـراع والدعـوة إليه تتضمنه عبارات النصائح، وتتضمن التفاؤل أو الدعاء عبارات التعبيرات الشعبية.

(د) وفى ضوء ما سبق نلاحظ أن كاتبى عبارات الأشكال الشعبية وكلماتها، أى أصحاب المركبات أو سائقيها موضوع الدراسة :

- إذا غنوا اشتكوا وإذا تحدثوا حديثا عاديا اشتكوا أيضا.

- وهم يتحدثون عن الصبر فى أحاديثهم العادية، ويترنمون به فى أغانيهم، ويذكرونه فى أمثالهم الشعبية، وينصحون به.

- وتراهم إذا تحدثوا عن الحسد تحدثوا عنه فى غنائهم، وفى حديثهم العادى، وفى تحذيراتهم، وفى أمثالهم الشعبية.

- وإذا رغبوا فى المداعبة جاءت فى أغانيهم، وتضمنتها أحاديثهم العادية، كما تضمنتها تحذيراتهم.

- وهم إذ يتغزلون تراهم يفعلون ذلك فى أغانيهم، وفى أحاديثهم العادية، وفى تحياتهم

- وهم إذ يسلمون أمورهم إلى الله جل وعلا أو إلى القدر أو إلى الزمان ويستسلمون، تراهم يترنمون بذلك فى أغانيهم، ويتحدثون عنه فى أحاديثهم العادية، ويذكرونه فى أمثالهم الشعبية، وفى نصائحهم.

وإذا دعو إلى عدم الإسراع ذكروا هذه الدعوة فى تعبيراتهم الشعبية، وفى الأمثال الشعبية، ونصحوا بها.

- وإذا كان مطلبهم السلامة ترنموا به فى أغانيهم، أو نصحوا به.

- وهم يعجبون بأنفسهم أو يتفاخرون بها إذا تحدثوا حديثا عاديا، أو ذكروا الأمثال الشعبية.

- وإذا لهجت ألسنتهم بالتفاؤل أو بالدعاء أو أكدوا حداقتهم ذكروا ذلك فى أحاديثهم العادية.

- وتتضمن أمثالهم الشعبية الاعتزاز بالأصل، واللامبالاة، والحض على سلوك الطريق المستقيم.

- وتتضمن نصائحهم الحض على احترام العامل، والكبير، والعطف على الصغير، وعلى فعل الطيب والخير، وعلى الرأفة، وعدم الغش، وعدم الندم على ما فات.

3- أهم نتائج عبارات الأشكال الدينية وعباراتها :

(أ) إن عبارات الأشكال الدينية وكلماتها تتضمن معانى عديدة ومعظم هذه المعانى يتضمن طلبات من الله جل وعلا، وبعض هذه المعانى تتضمن الحمد لله وشكره والتوكل عليه والاستسلام لإرادته وتعظيم شأنه وتكريمه والتقرب إليه عز وجل والرجاء فيه وتأكيد قدرته وتأكيد وحدانيته، والخوف منه.

وكانت الطلبات شتى وبعضها كان علنا والبعض الآخر كان ضمنا، ومن الطلبات الأولى نجد طلبات الرعاية والسلامة والصبر والنجاة من الخوف ومن شر أعمال الناس ومن المهالك والحماية من شر العباد ومن شر الأصدقاء ومن الحسد ومن البخل ومن عذاب القبر ومن الجبن، وطلبات الستر واللطف عند القضاء ورضا الرب وعطفه ولطفه وبعض الطلبات الوطنية كالنصر للعرب بخاصة والنصر بعامة، ومن الطلبات الثانية نجد طلبات اليسر والرزق والحمد والشكر والنصر والحفظ.

(ب) وتضمنت عبارات الأشكال الدينية وكلماتها معانى أخرى غير السابقة، ومن هذه ما يدعو إلى الاعتصام وإلى المحبة وإلى التحذير من الفتنة وإلى الدعوة إلى التحلى بالخلق العظيم أسوة بالنبى صلى الله عليه وسلم وإلى التماس بركة دعاء الوالدين وإلى الدعوة إلى التعاون بين المؤمنين ومحاسبة الضمير.

ومن عبارات الأشكال الدينية وكلماتها نجد الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم صلاة مطلقة، أو بهدف درء الحسد، أو بهدف التقرب إليه والتوسل إليه. كما نجد ما يتضمن التقرب إلى أهل البيت والأولياء والتوسل والتماس البركة والحماية منهم، وما يتضمن طلب الخلاص من السيدة العذراء.

ومن عبارات الأشكال الدينية وكلماتها نجد دعوات ضد الظالمين وضد الحاسدين وضد الناس الأشرار (الكفار).

(جـ) وإذا كانت عبارات الدعوات والابتهالات وكلماتها قد تضمنت طلبات علنية وصريحة من الله عز شأنه، فإن عبارات الآيات القرآنية وعبارات الأحاديث النبوية قد تضمنت أيضا طلبات من الله جل وعلا، وإن كانت الطلبات فى عبارات الآيات القرآنية غير علنية وغير صريحة، وكانت معانى الاستسلام لإرادة الله عز وجل متضمنة فى عبارات الدعوات والابتهالات وكلماتها فى عبارات الأحاديث النبوية وفى عبارات آيات الكتاب المقدس جميعا. أما معانى الحمد والشكر لله وجل علا فقد كانت تتلألأ فى عبارات الدعوات والابتهالات وكلماتها وفى عبارات الآيات القرآنية، وتضمنت عبارات الدعوات والابتهالات وكلماتها الآيات القرآنية معانى التوكل على الله وتعظيمه وتاكيد قدرته.

(د) وفى ضوء ما سبق نلاحظ أن كاتبى عبارات الأشكال الدينية وكلماتها، أى أصحاب المركبات أو سائقيها موضوع الدراسة :

- إذا طلبوا من الله جل شأنه طلبوا ذلك وهم يدعون الله ويبتهلون إليه، أو إذا قرأوا الآيات القرآنية، أو إذا ذكروا الأحاديث النبوية.

- وهم إذ يستسلمون لإرادة الله أكدوا ذلك فى دعواتهم وابتهالآتهم، وفى قراءة القرآن الكريم، وإذا ذكروا الأحاديث النبوية، أو تلوا بعض الآيات من الكتاب المقدس.

- وهم يحمدون الله ويشكرونه ويتوكلون عليه ويعظمونه ويؤكدون قدرته فى دعواتهم وابتهالآتهم، وعندما يقرأون آيات القرآن الكريم، أو يرتلون آيات الكتاب المقدس.

- وهم إذ يتقربون إلى الله جل وعلا ويضعون رجاءهم فيه، يتقربون أيضا إلى النبى صلى الله عليه وسلم، كما يتقربون إلى السيدة العذراء، وإلى أهل البيت، والأولياء، ويتوسلون ويلتمسون الخلاص منهم والبركة والحماية، ونجدهم كذلك يلتمسون بركة دعاء الوالدين.

- وإذا كانت طلبات كاتبى عبارات الأشكال الدينية من الله تعالى تتضمن الرعاية والسلامة والنجاة من الخوف ومن شر أعمال الناس ومن المهالك والحماية من شر العباد ومن شر الأصدقاء ومن الحسد ومن البخل ومن عذاب القبر ومن الجبن وطلبات الستر واللطف عند القضاء واليسر ورضا الرب وعطفه ولطفه والرزق والصبر وبعض الطلبات الوطنية كالنصر للعرب والنصر بعامة، فإن بعض هذه الطلبات يتضمن الدعوات ضد الظالمين وضد الحاسدين وضد الناس الأشرار (الكفار).

- وإذا كانت عبارات الأشكال الدينية وكلماتها تتلألأ بمعانى التفاؤل والسلام والأمن والتحذير من الفتنة والاعتصام والدعوة إلى التحلى بالخلق العظيم أسوة بالنبى صلى الله عليه والتعاون بين المؤمنين ومحاسبة الضمير فضلا عن الدعوة إلى محبة الناس بعضهم بعضا، فإن هذه العبارات تتضمن معانى الخوف من الله جل شأنه.

4- أهم نتائج عبارات الأشكال الأخرى وكلماتها :

(أ) إن العبارات الأخرى وكلماتها تتضمن معانى جديدة. منها معان سلبية واخرى إيجابية، وقد تتضمن بعض هذه المعانى المعاملة المثلى التى يحددها، عادة، التراث الثقافى فى مجتمعنا المصرى المعاصر والتى ترسم على المستوى النظرى الطرق التى يجب مراعاتها واتباعها ؛ وذلك بعدم ظلم الناس وبالحلم معهم حتى إذا سفهوا، وبأن الغنى كل الغنى فى العقل وأن الفقر كل الفقر فى الحمق، وبالدعوة إلى حسن الخلق وحسن الكلام والاعتراف بالحق والتمسك بالأمانة وإلى الحق والعدل والايمان والعلم وإلى النظافة وإلى العمل للآخرة وإلى خدمة الآخرين وشكرهم، وإلى عدم عيب الآخرين أو مراقبتهم وإلى عدم الطمع وعدم ارتكاب المعاصى ؛ ومع ذلك فإن هذه المعاملة المثلى تدعو، أيضا، إلى القناعة والصبر والتأنى وإلى عدم التعلق بالأمل فإن عاشق الأمل مغرور.

والملاحظ أن هذه المعاملة المثلى وما تدعو إليه وما تهدف إليه، كلها، تبدو أمورا مطلقة، ومن ثم فإن تحقيقها يرجع بالضرورة إلى تقييم من

يتحلى بها أو يحاول أن يتحلى بها، وقد يكون هذا التقييم سلبيا فى بعض الأحيان او يكون إيجابيا فى أحيان أخرى، ويتوقف كل ذلك على الشخص المقيم، وعلى قدرته على تبرير ما يفعل، وعلى الموقف الاجتماعى أو المواقف الاجتماعية التى يواجهها هذا الشخص.

(ب) وقد تضمنت معانى عبارات الأشكال الأخرى وكلماتها، غير المعانى السابقة، معانى أخرى، منها الاستسلام لله جل وعلا وللقدر وللغيب وللزمن، ومنها ما يدعو إلى طاعة الله وعصيان الشيطان، ومنها معان ضد العين الحاسدة وضد الحاسدين ومعانى التحذير من المحسن إليه ومن الأكل الكثير فضلا عن التحذير من الظالم، ومعانى العجب او التفاخر بالمركبات أو باصحابها وسائقيها أو أبنائهم وبناتهم أو بالبلد أو بمعلم من معالمه، ومنها ما تضمن التقرب إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو أهل البيت أو الأولياء القديسين، ومنها ما تضمن الحب بمعانيه السلبية، ومعانى الوطنية والحب الانسانى بمعناه الكبير، ونذكر القارئ فى هذا المجال بعبارة "أحب كل الناس ولا أكره كل الناس".

وقد تضمنت معانى عبارات الأشكال الأخرى، كذلك، معانى المداعبة والغزل والمغالاة والإعجاب والحسد والشكوى والظلم والتملق الصبر.

(جـ) وتبين أنه إذا كانت عبارات الأقوال المأثورة تتضمن الدعوة إلى الاستسلام لله جل وعلا وللقدر والغيب وللزمن، وإلى طاعة الله وعصيان الشيطان، وإذا كانت هذه العبارات تتضمن معانى ضد العين الحاسدة وضد الحاسدين، ومعانى التحذير من المحسن إليه ومن الأكل الكثير فضلا عن التحذير من الظالم - فإن عبارات الأسماء الموصوفة تتضمن معانى العجب أو التفاخر، وعبارات الأسماء وكلماتها، والعبارات الأخرى، تتضمن نفس المعانى، وقد تضمنت العبارات الأخرى معانى الاستسلام لله جل شأنه. وكان التقرب إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو إلى أهل البيت أو الأولياء أو القديسين متضمنا فى عبارات الأسماء وكلماتها، وإذا كان عدم التعلق بالأمل بعض عناصر المعاملة المثلى فى عبارات الأقوال المأثورة، فإن الدعوة إلى الأمل والرجاء كانت ضمن معانى الأسماء الموصوفة، وكان معنى الظلم ضمن العبارات الأخرى، وكانت معانى المداعبة والمغالاة فى

الوصف موجودة ضمن معانى عبارات الأسماء الموصوفة ومعانى العبارات الأخرى وتضمنت معانى العبارات الأخرى معانى الحسد كما تضمنته عبارات الأقوال المأثورة، وكان ضمن معانى العبارات الأخرى معنى الحب الإنسانى الكبير ومعنى الوطنية، ومع ذلك فقد تضمنت هذه المعانى الشكوى والتملق.

(د) وفى ضوء ما سبق نلاحظ أن كاتبى عبارات الأشكال الأخرى وكلماتها، اى أصحاب المركبات أو سائقيها موضوع الدراسة :

- إذا ذكروا الأقوال المأثورة، اختاروا الأقوال التى تتضمن المعاملة المثلى بعناصرها الايجابية والسلبية جميعا.

- وهم إذ يستسلمون لله جل وعلا يستسلمون للقدر والغيب وللزمان وتراهم يؤكدون ذلك فيما يقولون من أقوال مأثورة أو فيما يذكرون من عبارات اخرى.

- وهم إذ يدعون إلى طاعة الله، يدعون أيضا إلى عصيان الشيطان فى الأقوال المأثورة، ويدعون كذلك، إلى التقرب إلى النبى صلى الله عليه وسلم وإلى أهل البيت أو الأولياء أو القديسين فيما يصفون من أسماء، أو يذكرون من أسماء دون ما وصف.

- وتراهم فى أقوالهم المأثورة المختارة يحذرون من العين الحاسدة ومن الحاسدين ومن المحسن إليه ومن الأكل الكثير فضلا عن التحذير من الظالم، وهم يحذرون ضد الظلم وضد الحسد فيما يقولون من عبارات أخرى.

- وهم يعجبون بأنفسهم أو يتفاخرون بها، ويفعلون ذلك بمركباتهم وبأبنائهم وببناتهم، وبالبلد أو بمعلم من معالمه فيما يصفون من أسماء، أو يذكرون من أسماء دون ما وصف، أو يقولون عبارات اخرى.

- وهم إذا دعوا إلى عدم التعلق بالأمل، لأن عاشق الأمل مغرور، فى أقوالهم المأثورة، تراهم يدعون إلى الأمل والرجاء فيما يصفون من أسماء.

– وتراهم إذ يداعبون أو يغالون فى الوصف يفعلون ذلك فيما يصفون من أسماء، أو فيما يقولون من عبارات أخرى.

– وهم إذ يشكون ويتملقون فيما يقولون من عبارات، تراهم يدعون إلى الحب الإنسانى الكبير وإلى الوطنية فى نفس العبارات.

5- بعض دلالات نتائج الدراسة الحالية :

فى ضوء أهم النتائج السابقة يمكن أن نلاحظ بعض الدلالات، ومن هذه الدلالات مايلى:

(أ) أن كاتبى الكلمات والعبارات على هياكل المركبات موضوع الدراسة، هم من فئات المجتمع المصرى المعاصر، وهم إذ يصرون على كتابة هذه الكلمات والعبارات المكررة ذات المعانى المتباينة وذات الأشكال المتعددة ؛ على الرغم من عدم موافقة الدولة فى شخص إدارات المرور كلما حان موعد تجديد الرخصة – إنما يكتبون بالضرورة ما يكتبون بمحض إرادتهم. أى ان اختيارهم لهذه الكلمات والعبارات اختيار جاء بالضرورة نتيجه لما يشعرون ويحسون ويأملون ويعتقدون. أى أن هذا الاختيار يعكس بالضرورة ما يشعرون به نحو واقع الحياة العديدة التى يواجهونها، أى أنهم قد اختاروا ما اختاروه لأنهم وجدوه صالحا لكى يعبروا به عما فى خلجاتهم ومشاعرهم. فهم كفئة أرادوا أن يعبروا عن هذه الخلجات والمشاعر قد اغترفوا من التراث الثقافى الذى يملأ المناخ الاجتماعى الثقافى من حولهم، ومن ثم فإن هذا الاختيار اختيار حر مائة فى المائة.

وقد يرى البعض أن أصحاب المركبات أو سائقيها "كاتبى هذه الكمات والعبارات) قد اختاروه بمحض إرادتهم ؛ ولكن السبب الحقيقى وراء الكتابة على هياكل المركبات فى مجتمعنا المصرى هو أن السيارات جميعا تخرج من المصانع متشابهة، ولذلك يحرص كل سائق صاحب سيارات على أن يجعلها مختلفة، أو على أن يكون هو مختلفا عن سيارته، وعن غيره من الناس (١).

والكاتب لا يوافق على ما يقوله هذا البعض، ذلك لأن الكلمات والعبارات المختارة موجودة فى المجتمع المصرى المعاصر، ولها بسبب هذا الوجود بالضرورة جذور فى بناء هذا المجتمع، وان كاتبيها قد اختاروها لأنها تعبر، كما اتضح من الدراسة الحالية، عن أشياء أكثر عمقا من مجرد أن يكونوا مختلفين، ومن ثم فإن هذا الاختيار إرادى، ويؤكد هذا الاختيار الإرادى إصرار الكاتبين، كما سبق أو أن أوضحنا ؛ على الرغم من عدم موافقة الدولة على هذه الكتابة، وانهم يكتبون ما يكتبون بأنفسهم او يدفعون أجر الخطاط الذى يكتب ما يرغبون فى كتابته أو ما يوافقون على كتابته من مالهم الخاص.

(ب) وقد اتضح أن الأغلبية الساحقة من المركبات، موضوع الدراسة، من سيارات التاكسى واللوريات وعربات النقل والأتوبيس وعربات المأكولات والمشروبات وعربات (الكارو)، فقد كان عددها ٤٩٤ مركبة من خمسمائة مركبة. أن السيارات (الملاكى) كانت نادرة (ست سيارات فقط).

كما اتضح فى ضوء خبرة الكاتب أن الأغلبية الساحقة من كاتبى الكلمات والعبارات موضوع الدراسة كانت من سائقى المركبات، وإن كان الملاك الطبيعيون للمركبات التى يقودنها، فى العادة، يوافقون على ما يكتبون ما داموا يدفعون أجر الكتابة، كما لزم الأمر، من مالهم الخاص.

والسائقون أو من فى حكمهم إذ يكتبون على هياكل المركبات التى يستخدمونها بمحض إرادتهم، فإنهم فى حقيقة الأمر يحاولون أن يسمعوا أصواتهم دون أن يراهم أحد، أى أنهم فى حقيقة الأمر يحاولون بمحض إرادتهم أن يهتفوا، وهم كفئة فى ضوء الظروف الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، أي ظروفهم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، إذ يهتفون بمحض إرادتهم يحاولون ان يستخدموا إحدى وسائل التعبير عند الصامتين من أعضاء مجتمعنا المصرى المعاصر. فخلقوا دون ما إرادة جهازا شعبيا من أجهزة الإعلام فى هذا المجتمع يتحرك على امتداد مدنه وقراه، وتجلجل أصواتهم فيه دون أن يراهم أحد، ويعبرون عن طريقه عن أناتهم وآمالهم وأفراحهم وأتراحهم واستسلامهم ودعاباتهم، وعن بعض القيم التى يقدسونها وبعض أنماط تفكيرهم.

والملاحظ أن الصامتين فى المجتمع وإن بدوا كذلك لا يبقون صامتين على الدوام. إن صوتهم بأسلوب أو بآخر يرتفع من حين إلى حين وإلى الآفاق. فهو يجلجل ويرتفع إلى الآفاق عند الصلاة، وعند الدعاء، وفى حلقات الذكر فى رحاب المساجد والكنائس والمعابد أو فى خارجها، وهو يجلجل ويرتفع إلى الآفاق فى ملعب الكرة، وفى الملاهى والبارات وفى المسارح، وفى أثناء الاستماع للغناء، وفى المباراة فى النكت ذات المضمون السياسى أو ذات المضمون الاجتماعى، وأمام الموت، وعن طريق الرسائل إلى الأموات، وحتى عن طريق الكتابة أو الرسم فى داخل دورات المياه !!

(جـ) وكاتبو الكلمات والعبارات على هياكل المركبات فى المجتمع المصرى المعاصر، كفئة من الصامتين، هم بعض أعضاء هذا المجتمع، يعيشون فيه حياتهم حلوها ومرها، وهم إذ يكتبون ما يكتبون بمحض إرادتهم يعيشون أيضا فى ظل المناخ الاجتماعى الثقافى لهذا المجتمع. اى أنهم يعكسون العديد من العناصر الثقافية غير المادية من هذا المناخ. والملاحظ أن ما يعلنون عنه من مشاعر وأحاسيس وآمال ومعتقدات وغيرها لكى يسمعوا أصواتهم دون أن يراهم احد، أى لكى يهتفوا هتاف الصامتين، يؤثر فى نفوسهم كما يؤثر فى نفوس غيرهم الذين يقرأون ما يكتبون أو يستمعون لقراءة ما يكتبون من أعضاء المجتمع. ذلك لأن الجهاز الاعلامى الشعبى الذى اصطنعوه، دون ما وعى، أصبح واحدا من أجهزة التنشئة الاجتماعية التقليدية التى توجد عادة فى المجتمع مثل الآسرة، والمدرسة، والمنظمة الدينية، والنادى الاجتماعى الثقافى والمنظمة السياسية، وأجهزة الاعلام كالجريدة والمجلة والكتاب والسينما والمسرح والاذاعة والتليفزيون، وهو كجهاز إعلامى يدعو، فى ضوء طبيعته، إلى تثبيت العديد من العناصر الثقافية غير المادية التى لا تزال تعيش فى المناخ الاجتماعى الثقافى.

(د) والملاحظ أن الكثير من العناصر الثقافية غير المادية التى تملأ المناخ الاجتماعى الثقافى للمجتمع المصرى المعاصر، ومنها وهو كثير أيضا، ما يدعو إليه الجهاز الاعلامى الشعبى الجديد، عناصر ثقافية غير مادية سلبية. أى عناصر ثقافية غير مادية يتهم وجودها المجتمع المعاصر اتهاما صارخا، فهى تعتبر فى حقيقة الأمر امتدادا للعناصر الثقافية غير

المادية من المجتمع الإقطاعى القديم، وتعبر عن بقايا الرواسب الثقافية البالية التى لا تزال متغلغلة فى كيان العديد من فئات هذا المجتمع حتى الآن.

ولعل قارئ الفصول السابقة أن يلاحظ الأمثلة العديدة على هذه البقايا من الرواسب الثقافية البالية، ويكفى أن نذكر بعض المعانى والقيم وأساليب التفكير وغيرها التى لا تتفق أبدا مع ما نبغيه لمجتمعنا المصرى المعاصر حتى يستطيع أن يتحدى الظروف المعاصرة التى يواجهها ويتحدى الظروف العصرية التى يرنوا إليها، ومن هذه المعانى والقيم واساليب التفكير نجد الشكوى من الظلم ومن الهجر ومن القسوة والفراق والسهاد والوحدة ومن الضياع ومن الهموم والأحزان، والاعتزاز بالأصل والحسد والعين الحاسدة، والتحذير من الغضب، القناعة، والجبن، والعجب أو التفاخر، والمغالاة، والدعوة إلى الصبر السلبى والانتظار، واللامبالاة، والحيرة والاستسلام، والتقرب إلى الأولياء والقديسين والاعتماد عليهم، والتملق، والمذلة...إلخ

(هـ) الملاحظ أيضا أن الكثير من العناصر الثقافية غير المادية التى تملأ المناخ الاجتماعى الثقافى للمجتمع المصرى المعاصر، ومنها، وهو كثير أيضا، ما يدعو إليه الجهاز الاعلامى الشعبى الجديد، عناصر ثقافية غير مادية إيجابية، ومن هذه الدعوة إلى محبة الناس بعضهم بعضا، وإلى الوطنية، وإلى الاهتمام بدعاء الوالدين، وإلى احترام العامل، وإلى العطف على الصغير، وإلى العمل المنتج والسعى من أجل الرزق، وإلى التعاون، وإلى الاعتصام، وإلى محاسبة الضمير وإلى حسن الخلق، وإلى الحق والعدل والايمان، وإلى العلم، وإلى السلام...إلخ، وكل هذه العناصر وغيرها، مثل معانى الأمل والفرح والتفاؤل والدعاية والغزل تتضمن فى حقيقة الأمر "قواعد" للمعاملة المثلي التي ينبغي أن يهتدى الإنسان المصرى فى معاملاته مع الآخرين، والملاحظ أن هذه المعاملة وما تدعو إليه وما تهدف إليه كلها، تبدو أمورا مطلقة، ومن ثم فإن تحقيقها يرجع بالضرورة إلى تقييم من يتحلى بها أو يحاول أن يتحلى بها، وقد يكون هذا التقييم سلبيا فى بعض الأحيان أو يكون إيجابيا فى أحيان أخرى، ويتوقف كل ذلك على الشخص المقيم وعلى قدرته على تبرير ما يفعل، وعلى الموقف الاجتماعى أو المواقف الاجتماعية التى يواجهها هذا الشخص.

(و) وبالإضافة إلى ما سبق نستطيع أن نؤكد أن كاتبى الكلمات والعبارات على هياكل المركبات فى المجتمع المصرى إذ يهتفون بمحض إرادتهم ويستخدمون من أجل ذلك دون ما إرادة جهازا إعلاميا شعبيا، يؤكدون ظاهرة التدين فى محيطهم، وهم إذ يفعلون ذلك يدعون إلى نشر هذه الظاهرة فى محيط الآخرين. فهم يستسلمون لله جل وعلا ويخافون منه ويدعون إلى طاعته ويرجون الخلاص، هم يحمدون الله ويشكرونه ويتوكلون عليه ويعظمونه ويؤكدون قدراته ويتقربون إليه جل وسما ويضعون رجاءهم فيه، ونراهم كذلك يستسلمون للقدر وللغيب والزمان.

هوامش الفصل السابع

(١) أنيس منصور : مواقف، جريدة الأخبار : القاهرة ١٩٧١/٧٩/٩.

الخاتمة

لعل من يقع فى يده هذا الكتاب قبل أن يقرا فصولة، أن يعجب ويدهش من اهتمام الكاتب بدراسة "ظاهرة" الكتابة على هياكل المركبات فى المجتمع المصرى المعاصر. ومن حق هذا الشخص أن يعجب وأن يدهش، فهو فى مجتمعنا قد مارس بالضرورة قراءة مايكتب على هياكل هذه المركبات من كلمات وعبارت. ولعله فعل كما الكاتب عندما كان يقرأ هذه الكلمات والعبارات قبل أن يعقد العزم على دراستها. فقد بدأ للكاتب فى أول الأمر، وكأنه لايأبه كثيرا أو قليلا بما قد تؤثر معانى هذه الكلمات والعبارات فى نفس قارئها او بما قد تتركه فى كيانه من آثار. وعلى الرغم مما بدا له فى أول الأمر. فقد كان الكاتب يبتسم لبعض هذه المعانى صادقا أحيانا، وكان يبتسم لبعضها الآخر ساخرا أحيانا أخرى. وكان، أيضا، يرثى للقارئين والكاتبين جميعا أحيانا، وكان يلتمس لهم الأعذار أحيانا أخرى. وكان، كذلك، ينفر من بعض معانى مابقرأ أحيانا، وكان يزداد قربا من بعضها الآخر أحيانا أخرى. وفى كل الحالات لم يكن يشعر الكاتب، وهو ابن احدى حوارى مدينة القاهرة بشىء من الاغتراب. وأيقن أنه كواحد من الملايين المصريين الذين يعيشون فى المجتمع المصرى المعاصر، لا يمكن أن يشعر بشىء من الاغتراب. ومع ذلك فإنه لم يكن راضيا كلب الرضا، بل كان فى الكثير من الأحيان نافرا غاضبا.

ولعل عجب من يعجب ودهش من يدهش أن يتبددا بعد أن يقرأ فصول هذا الكتاب، وبعد ان يستوعب مافيها ويتمثله. فهذه الفصول تضم بين جوانبها محاولة عملية جادة للكشف عن حقيقة روح مصرنا الخالدة، فى عمقها وفى أصالنها، فى الوقت الراهن. وقد أصبحت معرفة هذه الروح الخالدة الصامدة معرفة موضوعية فى ضوء ظروف مجتمعنا المصرى المعاصر ضرورة. ذلك لأن هذه المعرفة تعتبر

فرصة رائعة لتخليصها من الشوائب التى تنفر منها التحديات المعاصرة التى يواجهها هذا المجتمع لكى يصرعها، وتنفر منها أيضا التحديات العصرية التى ينطلع هذا المجتمع للوصول الى آفاقها.

والدراسة الحالية فى ضوء نتائجها وفى ضوء دلالات هذه النتائج، قد اكتشفت احدى فئات الصامتين فى المجتمع المصرى المعاصر، وأعضاء هذه الفئة هم بعض أعضاء هذا المجتمع الذين ارادوا فى ضوء ظروفهم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، أن يسمعوا أصواتهم دون أن يراهم أحد، فخلقوا دون ما ارادة جهازا اعلاميا شعبيا خاصا يتحرك على امتداد مدن هذا المجتمع وقراه، تجلجل أصواتهم فيه دون أن يراهم أحد، ويعبرون عن طريقه عن أناتهم وآمالهم وأفراحهم وأتراحهم واستسلامهم ودعاباتهم، وعن بعض القيم التى يقدسونها وبعض أنماط تفكيرهم. ومن حق هذه الفئة وغيرها من فئات الصامتين فى مجتمعنا أن يظهروا وأن يمارسوا مايريدون أن يقولوه علنا فى ظل الديمقراطية بأنماطها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والقانونية والعلمية. فالعبرة كل العبرة، كما يعلم القارىء، تكون لا فى الحديث عن الديمقراطية، أو عن نمط من أنماطها، بقدر ما تكون فى ممارسة الديمقراطية بأنماطها كلها.

ولعل قارىء هذا الكتاب قد لاحظ المنهج الذى اتبعه الكتب من أجل تحقيق هدف الدراسة الحالية. أى من أجل تحقيق المحاولة العلمية الجادة للكشف عن حقيقة روح مصرنا الخالدة، فى عمقها وفى أصالتها، فى الوقت الراهن.

أن هذا المنهج، فى ضوء التراث العلمى، منهج رائد. وقد ساعد على كونه كذلك اختيار موضوع الدراسة الحالية. وقصة اختيار هذا الموضوع قد حرص الكاتب على تسجيلها لكى يرجع القارىء الجاد اليها ويرى عن كثب كيف وصل الكاتب الى هذا الاختيار. ومع ذلك فان الكاتب لايدعى أنه عن طريق الدراسة الحالية قد وصل فعلا الى

حقيقة روح مصرنا الخالدة فى عمقها وفى أصالتها. انه حاول فقط. والملاحظ أن المناهج الى المعرفة الموضوعية لهذه الحقيقة ليست، فى العادة، عديدة. ولن تكون خيرا من الفن لصادق والمعرفة المنتظمة الوسيلة الى هذه المعرفة الموضوعية. ولا يدعى الكاتب أبدأ أنه يستطيع وحده النهوض بهذه المسئولية الملحة. انه يستطيع فى ضوء خبراته وامكاناته المحدودة، أن يسهم فيها، وأن يدعو مخلصا الى القيام بها. أى أن يقوم بها فنانون وعلماء مصريون وان يقدموا عليها ولايتركوا ذلك، أبدأ، لغيرهم من الأجانب كما كان يحدث ذلك من قبل.

والرجاء التوفيق

المـراجـع

١- القرآن الكريم.

2- الكتاب المقدس.

3- الكزاندر هجرتى كراب : علم الفلكلور، ترجمة رشدى صالح، القاهرة، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر.

4- أنيس منصور : مواقف، جريدة الأخبار، القاهرة، ١٩٧١/٧/٩.

5- جميس هنرى برستد : فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٥٦.

6- سيد عويس : الخلود فى التراث الثقافى المصرى، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦.

7- سيد عويس : حديث عن الثقافة : بعض الحقائق الثقافية المصرية المعاصرة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٠.

(أحدث مؤلفات المؤلف)

١- مذكرات يوغوسلافية : انطباعات وحقائق وآراء، القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٤.

٢- من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعى، القاهرة، دار مطابع الشعب، ١٩٦٥.

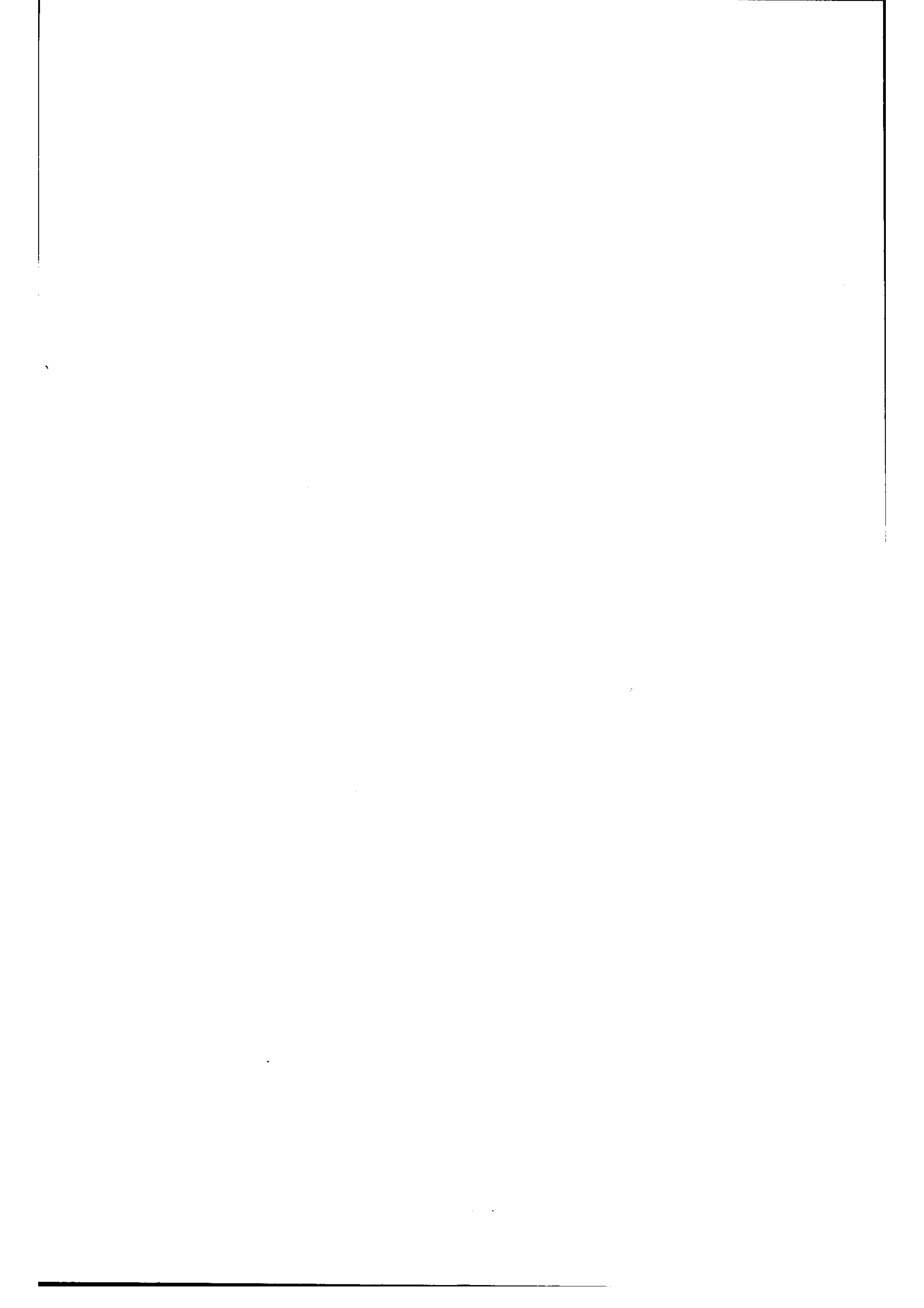
٣- الخلود فى التراث الثقافى المصرى : دار المعارف بمصر، ١٩٦٦.

٤- الخدمة الاجتماعية ودورها القيادى فى مجتمعنا الاشتراكى المعاصر: دار المعارف بمصر، ١٩٦٦.

٥- محاولة فى تفسير الشعور بالعداوة، القاهرة، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر،١٩٦٨.

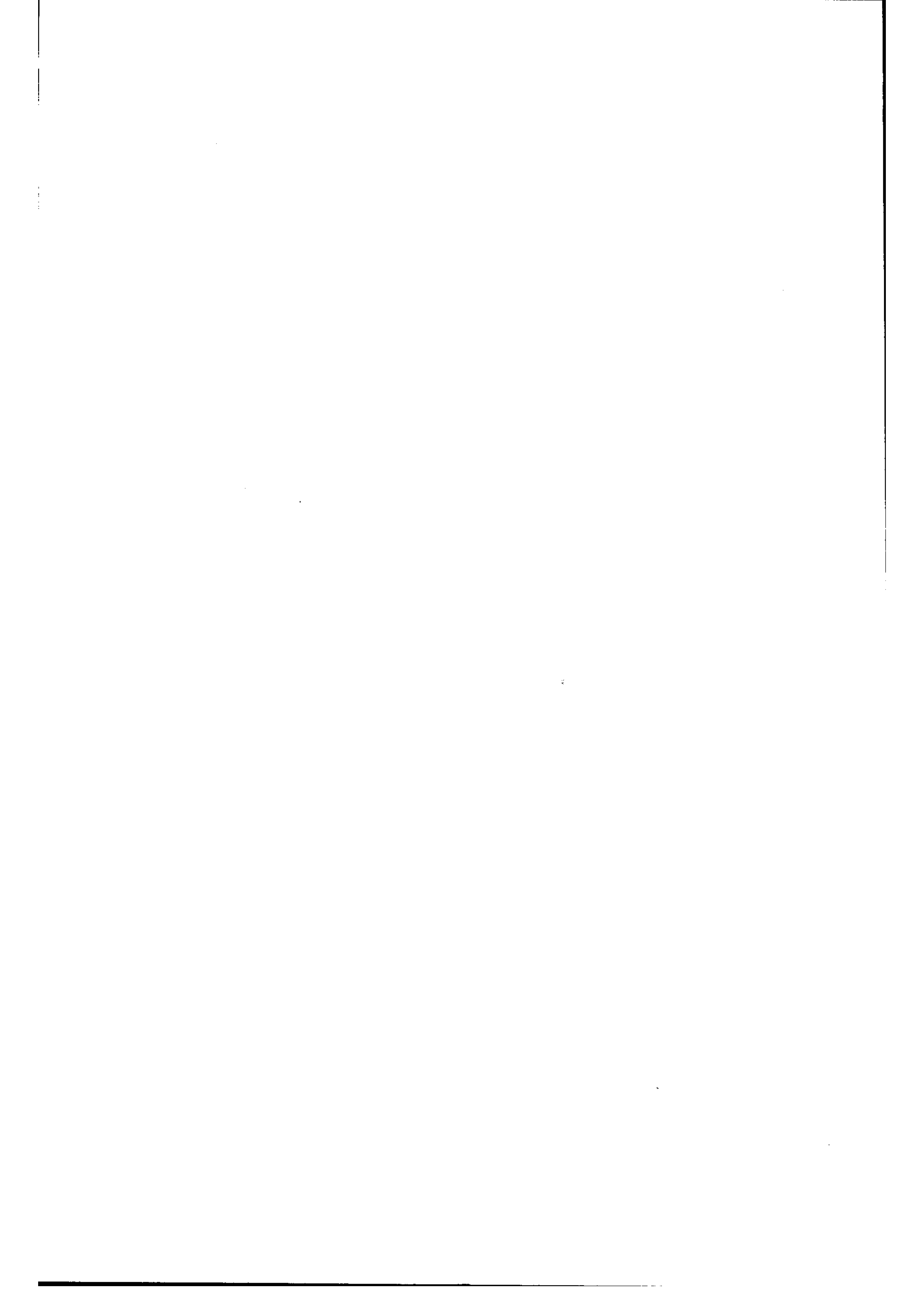
٦- حديث عن الثقافة : بعض المصريين الحقائق الثقافية المصرية المعاصرة، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٠.

٧- الخلود فى حياة المصريين المعاصرين : نظرة القادة الثقافين المصريين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى (تم العقد على نشره مع الهيئة العامة للتأليف والنشر منذ نوفمبر ١٩٧٠).



"ملحق"

قاموس أبجدى للكلمات
والعبارات موضوع الدراسة



(أ)

١ آمال

٢ ابن الوز عوام

٣ ابن بطوطة

٤ ابو احمد

٥ ابو السباع سيارات الوحش الجبار

٦ ابو حنان توكل على بركة الله ورسوله

٧ أبو خليل

٨ أبو ريحان

٩ أبو سمرة الأصيل

١٠ أبو سمرة السكرة

١١ أبو شوق

١٢ أبو قرنى قاهر الدركسون

١٣ اتقى شر من أحسنت إليه

١٤ اتمخترى واتمايلى يا زين

١٥ إجرى جرى الوحوش غير رزقك لم تحوش

١٦ أحب الناس واكره كلامهم

١٧ أحب كل الناس ولا أكره كل الناس

١٨ أحب نور الله

١٩ احترم العامل يحترمك

٢٠ احترم الكبير واعطف على الصغير

٢١ احذر خطأ الغير

٢٢ أحلاهم

٢٣ آخر جنان

٢٤ آخر طريقك فين

٢٥ ادخلوها بسلام آمنين

٢٦ ادلع يا رشيدى على وش الميه

٢٧ ادينى من وقتك ساعة

٢٨ اذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك

٢٩ اذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فترقب أعمالهم

٣٠ اذا سألت فاسأل الله

٣١ اذا سفه السفيه فلا تجبه وخير الكلام السكوت

٣٢ اذا تعزمت فتوكل على الله

٣٣ اذا قصدت فاقصد الله

٣٤ اذا مسوك بظلم فاستعن بالله

٣٥ اذكر ربك اذا نسيت

٣٦ اءادة الله فوق كل شئ

٣٧ أراك عصى الدمع شيمتك الصبر

٣٨ أرزاق مقسمها الخلاق

٣٩ أروح لمين

٤٠ ازاى أكره الفقر وأنا ابن الغنى

١٢٥ الله يرزق من يشاء فلا تسئلون عن السبب

١٢٦ الله يرعاك

١٢٧ الله يسمع ويرى

١٢٨ اللهم اعطنى خير الزاد واكفنى شر العباد

١٢٩ اللهم اكفنى شر أصدقائى واما اعدائى فكفيل بهم

١٣٠ اللهم انت السلام ومنك السلام

١٣١ اللهم انى أعوذ بك من البخل

١٣٢ اللى مكتوب على الجبين لازم تشوفه العين

١٣٣ المارد

١٣٤ المحروسة

١٣٥ المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء

١٣٦ الميه زلال اشرب حلال آخر جمال

١٣٧ النار بتجرى ورايا

١٣٨ النبى تبسم

١٣٩ النصر للعرب

١٤٠ النصر لنا

١٤١ النظافة من الايمان

١٤٢ اله الرياسة سعة الصدر

١٤٣ الهوى وهوايا انا الهوى هوايا

١٤٤ الهى لا أسألك رد القضاء بل اسألك اللطف فيه

١٤٥ الورد مش للى زرع الورد للى جنى

١٤٦ اما نعيمة نعمين

١٤٧ ام صابر

١٤٨ ام نعيمة خلى فؤاد يكلمنى

١٤٩ امش بى الراحة توصل بدرى

١٥٠ امش فى طريقك عدل يحتار عدوك فيك

١٥١ امل

١٥٢ امل حياتى يا حب مغالى ما ينتهيش

١٥٣ ان الله على شئ قدير

١٥٤ ان الله فى عون العبد ما دام فى عون أخيه

١٥٥ ان الله هو السميع العليم

١٥٦ ان الله يدافع عن الذين آمنوا

١٥٧ ان تنصروا الله ينصركم

١٥٨ ان خلص الفول انا مش مسئول اما الطعمية كباب مأكول - فوال الحرية

١٥٩ ان خلصت الكراسى انا ماشى

١٦٠ ان كنت عايزنى قابلنى

١٦١ ان مع العسر يسرا

١٦٢ إن ينصركم الله فلا غالب لكم

١٦٣ أنا اللى حلوه فيهم

١٦٤ انا حلوة

١٦٥ انا خايف عليكى يا نجوى

١٦٦ انا خايف من عيون الناس

١٦٧ انا شايفك يا حرامى

١٦٨ انا فتحنا لك فتحا مبينا

١٦٩ انا فى الهوى غلاب

١٧٠ انا مجروح من هجرك

١٧١ انا من يومى كايده التجار

١٧٢ انت الحب

١٧٣ انت الى فيهم يا أبو عزام

١٧٤ انت اللى قتلت سكينة

١٧٥ انت جبان والرب شاهد عليك

١٧٦ انت عمرى

١٧٧ انتى اللى فيهم

١٧٨ انساك ده كلام انساك يا سلام

١٧٩ انما الأعمال بالنيات

١٨٠ انما للصبر حدود يا حبيبى

١٨١ اهل الهوى مظاليم

١٨٢ اهل الهوى ياليل

١٨٣ أهي جت كده واللى معاه كلمة يلمها

١٨٤ اوحش الوحشة العجب

١٨٥ اوعى العربية تدوسك

١٨٦ اوعى الهوى

١٨٧ اوعى من قدامى لحسن ادوسك

١٨٨ ايمان بالله

١٨٩ ايه يعمل الحاسد فى الرازق

(ب)

١٩٠ باسم الله ما شاء الله

١٩١ بالصبر تبلغ ما تريد وبالتقوى يلين لك الحديد

١٩٢ بتبص لى كده ليه

١٩٣ بترول بلدنا

١٩٤ بتلمونى ليه لوشفتم عنيه حلوين قد أيه

١٩٥ بحمد الله شاكرين

١٩٦ بسم الله توكلت عليه

١٩٧ بسم الله الرحمن الرحيم

١٩٨ بسم الله مجريها ومرسيها

١٩٩ بص بعينك وارحم بقلبك

٢٠٠ بص بعينك وصلى على النبى

٢٠١ بص شوف العربى اللى قدامك

٢٠٢ بص شوف الفلوس بتعمل ايه

٢٠٣ بص شوف

٢٠٤ بطل نقل بقى

٢٠٥ بص وبص وبص تسوا مليون ونص

٢٠٦ بعيد عنك حياتى عذاب

٢٠٧ بلبل

٢٠٨ بلاش أر (قر) يا ناس ياشر

٢٠٩ بلاش أسيه ارحم عنيه

٢١٠ بلاش تروح الكلية وكل جيلاتى ومهلبية

٢١١ بلاش تنسانى ده مفيش لقلبى بديل لك تانى

٢١٢ بيده الخير فاصبر

(ت)

٢١٣ تتوه انا عنيا بنظرتك ليا

٢١٤ تراعينى قيراط أرعيك قيراط

٢١٥ ترمس سنجام

٢١٦ تريد النفس ان تبلغ مناها ولكن الله يفعل ما يريد

٢١٧ تصحبك السلامة

٢١٨ تعددت الأسباب والموت واحد

٢١٩ تفيد بايه يا ندم وتعمل ايه يا عذاب

٢٢٠ تندب فى عينك رصاصة ياللى بتبص

٢٢١ توكل على الله

٢٢٢ توكلت على الله

٢٢٣ جانا الهوى جانا وبسهمه السريع رمانا

٢٢٤ جايز وانت شاغلنى تشغل ناس تانيين

٢٢٥ جددت حبك ليه بعد الفؤاد مرتاح

٢٢٦ جمال الدنيا بالمال والآخرة بالأعمال

٢٢٧ جميل يا صبر

٢٢٨ جيلاتى امل حياتى

٢٢٩ جيلاتى نور الهدى والحب كده

٢٣٠ حاسب

(ح)

٢٣١ حاسب على انا غلبان

٢٣٢ حاسب على يا وحش

٢٣٣ حاسب ما عنديش الا هى

٣٣٤ حاسب وراك حاسب

٣٣٥ حاسب وراك محاسب

٣٣٦ حاسب يا مجدى لحسن تضيع

٢٣٧ حامدين

٢٣٨ حبيبى مسافر وسايبنى

٢٣٩ حديث الروح للأرواح يسرى

٢٤٠ حرام عليك البعد ده

٢٤١ حرام عليك بص قدامك

٢٤٢ حرام عليك يا عبده سيبنى فى حالى

٢٤٣ حسبنا الله ونعم الوكيل

٢٤٤ حسنية اخت كوثر

(خ)

٢٦٤ خلى بالك منى

٢٦٥ خلى تكالك على الخالق

٢٦٦ خليك على كيفك

٢٦٧ خليها على الله

٢٦٨ خليها على جانب الله

٢٦٩ خمسة وخميسة

٢٧٠ خير الكلام ما قل ودل

(د)

٢٧١ دارت الأيام

٢٧٢ دائما فى المقدمة

٢٧٣ دليل الصحراء

٢٧٤ دوبنى دوب يا هوى

٢٧٥ دوس على المرايا دوس هى حكاية ولا فلوس

٢٧٦ ده تعديل الله

(ر)

٢٧٧ رأس الحكمة مخافة الله

٢٧٨ ربنا عاوز كده وأنا اعمل ايه

٢٧٩ ربى اسألك الطف عند القضاء

٢٨٠ ربى اشرح لى صدرى

٢٨١ ربى لا أسألك رد القضاء بل اسالك اللطف فيه

٢٨٢ رضا من الله

٢٨٣ رضا والحمد لله

٢٨٤ رضا يا بنتى العيش ورب العرش

٢٨٥ رضاك يارب

٢٨٦ روح منك لله

٢٨٧ روحى وروحك ده

٢٨٨ ريا وسكينة

٢٨٩ زمردة

٢٩٠ زهرة البرنس

٢٩١ زهرة البساتين

٢٩٢ زهرة الجنوب

٢٩٣ زهرة الربيع

٢٩٤ زهر العلا

٢٩٥ زهرة الفجر

٢٩٦ زهرة المنوفية

٢٩٧ زوبة

٢٩٨ زى الهوى يا حبيبى آه من الهوى يا حبيبى

(س)

٣١٨ سواح انا ماشى فى البلاد سواح
٣١٩ سواح وماشى على الطريق سواح
٣٢٠ سوق على مهلك
٣٢١ سولار بلدنا
٣٢٢ سولار جميل
٣٢٣ سيارات النهر الخالد
٣٢٤ سيبها لله يفعل ما يريد
٣٢٥ سيد القوم خادمهم
٣٢٦ سيدنا الحسين
٣٢٧ سيرى على بأمر الله
٣٢٨ سيرى على بركة الله
٣٢٩ شا الله يا سيدنا الحسين
٣٣٠ شادية الصحراء
٣٣١ شربات
٣٣٢ شاطئ الغرام
٣٣٣ شايفك يا حرامى
٣٣٤ شغلونا يابا مغرم صبابة
٣٣٥ شهد الله ان لا إله إلا هو
٣٣٦ شوف قدامك بص وراك
٣٣٧ شيال الحمول
٣٣٨ شيال الحمول يا متولى

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

٣٧٠ عروسة والمنصورة

٣٧١ عز من قنع

٣٧٢ عز من قنع وذل من طمع

٣٧٣ عزة

٣٧٤ عزيزة علينا يا بلدنا

٣٧٥ عسل

٣٧٦ عصام

٣٧٧ عصير العطشان

٣٧٨ عطشان يا صبايا دلونى على السبيل

٣٧٩ عطفك يارب

٣٨٠ على بركة الله

٣٨١ على بركة الله فليتوكل المتوكلون

٣٨٢ على بركة الله يا زمزم

٣٨٣ على الصبر ما حناش قادرين ليه بتحسد الصابرين

٣٨٤ على عينى كرملة

٣٨٥ على مهلك يا أبو سريع

٣٨٦ على مهلك يا أبو سمرة

٣٨٧ على مهلك يا جميل

٣٨٨ عليك توكلت وبك نستعين

٣٨٩ عنتر

٣٩٠ عودت عينى على رؤياك وقلبى سلم لك آمرى

٣٩١ عوضى عليك يارب أرزقنى

٣٩٢ عين الحسود فيها عود

٣٩٣ عين الحسود فيها عود يا جميلة

٣٩٤ عين الحسود فيها عود يا حلاوة

٣٩٥ عين الحسود لا تسود

٣٩٦ عينك !

٣٩٧ عينك فيك توريك شغل الزغاليل

٣٩٨ عينى يا عينى على السواقين

٣٩٩ غرباء على الطريق

٤٠٠ غلاب الهوى غلاب

(ف)

٤٠١ فادية

٤٠٢ فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين

٤٠٣ فان مع العسر يسرا

٤٠٤ فكرونى

٤٠٥ فكرى طول الليل والنهار مشغول بقربك

٤٠٦ فل عليك ورد عليك

٤٠٧ فلسطين عروس ومهرها الدم

٤٠٨ فلسطين هترجع

٤٠٩ فلفلة يا كايداهم

(ق)

٤٢٩ قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة صالحة

٤٣٠ قليل مع الشكر خير من كثير مع الطمع

٤٣١ قول حلاوة الدنيا عيونك وخايف من عيون الناس

٤٣٢ قول لى آخر طريقك فين يا حلو ياللى ماشى

(ك)

٤٣٣ كايداهم

٤٣٤ كايداهم لوحدى

٤٣٥ كايده العزال

٤٣٦ كايده العزال انا من يومى

٤٣٧ كايده العزال يا سكينة

٤٣٨ كثير الكلام قليل الفعل

٤٣٩ كده حكمة الله

٤٤٠ كده رضا

٤٤١ كده رضا من الله

٤٤٢ كده شربات

٤٤٣ كروان

٤٤٤ كرم من الله

٤٤٥ كفاية يا عين

٤٤٦ كل الناس حلوين

٤٤٧ كل شئ بارادته

٤٤٨ كل ليله وكل يوم استنى قربك فى انتظارك يا حبيبى

٤٤٩ كلمونى تانى عنك - فكرونى

٤٥٠ كلوا من طيبات مارزقناكم

٤٥١ كلوا واشربوا هنيئا

٤٥٢ كن مع الله

٤٥٣ كن مفتاحا للخير

٤٥٤ كنز الدنيا المال وكنز الآخرة الأعمال

٤٥٥ كوثر

٤٦٦ كيف أخشى الفقر وانا عبد الغنى

٤٥٧ كيف اقول ملكى والملك لك

٤٥٨ كيف أقول ملكى ولله ملك السموات والأرض

(ل)

٤٥٩ ولئن شكرتم لأزيدنكم

٤٦٠ لا تتعجب فانها ارادة الله

٤٦١ لا تتعجل انها ارادة الله

٤٦٢ لا تتعجل فان العجلة بها الندامة

٤٦٣ لا تعجب فانها قدرة الله

٤٦٤ لا تسأل فان الرزق على الله

٤٦٥ لا تسرع فان الله يبسط الرزق لمن يشاء

٤٦٦ لا تسرع وعد سالما

٤٦٧ لا تغضب

٤٦٨ لا تندم على ما فاتك

٤٦٩ لا تنسى ذكر الله

٤٧٠ لا نوم ولا دمع مخلاش الفراق فيه

٤٧١ لحم الذكر يشكر سيبك من أم قرنين

٤٧٢ لذيذ يا ترمس

٤٧٣ لسه فاكر قلبى يديلك امان ولا فاكر كلمة حتعيد اللى كان

٤٧٤ لك الحمد يارب

٤٧٥ للصبر حدود

٤٧٦ للصبر حدود وانا صابر

٤٧٧ لما أشوفك بنسى نفسى

٤٧٨ له ملك السموات والأرض

٤٧٩ لهاليبو

٤٨٠ لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع

٤٨١ لو نظر كل انسان إلى عيبه ما علب انسان آخر

٤٨٢ ليك يوم يا ظالم

٤٨٣ ليلى

٤٨٤ ليلى أخت طارق

٤٨٥ ليلى بنت المعلم

(م)

٥٠٦ مدد يا حسين

٥٠٧ مدحت

٥٠٨ مرحبا يا شباب

٥٠٩ مستورة

٥١٠ مستورة والحمد لله

٥١١ مسكينة وماليش غيرك يا حبيبى

٥١٢ مش بنام الليل يا ليل

٥١٣ مع السلامة يا أبو العزم

٥١٤ مع السلامة يا أبو طارق

٥١٥ مع السلامة يا أبو عرب

٥١٦ مع السلامة يا أبو ماجد

٥١٧ مع السلامة يا آسطى فوزى

٥١٨ مع السلامة يا بطة

٥١٩ مع السلامة يا سمسم

٥٢٠ مع السلامة يا سميرة

٥٢١ مع السلامة يا عرب الورد

٥٢٢ مع السلامة يا لولو

٥٢٣ مع السلامة يا هدى

٥٢٤ مع السلامة والقلب داعليك

٥٢٥ معلش يا زمن الهجرة غربتنا والأيام علمتنا

٥٢٦ معلهش يا ظهر

٥٢٧ مقدرش على كده ومقام السيدة

٥٢٨ مقطورة مستورة

٥٢٩ مكتوب على وجهك صباح الخير يا صفاء

٥٣٠ ملاحات والبحر المتوسط

٥٣١ ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب

٥٣٢ ممنوع البصق واللصق

٥٣٣ من القلب للقلب رسول

٥٣٤ من الموسكى لسوق الحميدية

٥٣٥ من خيرات بلدنا

٥٣٦ من راقب الناس مات هما وغما

٥٣٧ من صبر ونال كل مطالبه ومن تعجل ندم

٥٣٨ من صبر وتأنى نال ما تمنى

٥٣٩ من فرحتى تهت مع الفرحة

٥٤٠ من فرحتى لا بنام ولا بصحى

٥٤١ من فواكه بلدنا ومن ايد ولادنا

٥٤٢ من كان رزقه على الله فلا يحزن

٥٤٣ من كان في نعمة فليرعاها فان المعاصي تزيل النعم

٥٤٤ من هجرتك يا حبيبى تتوهه فى سفينتى

٥٤٥ من يتوكل على الله فهو حسبه

٥٤٦ منال اخت مرفت

٥٤٧ منصورة باذن الله

٥٤٨ منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال

٥٤٩ منى

٥٥٠ منى عينى هو

٥٥١ مهلا ومع السلامة

٥٥٢ مون بالسولار وتوكل على الله

٥٥٣ مونا سولار وصلى على المختار

٥٥٤ ميمى

٥٥٥ مين ينصر المظلوم ويحاسب الظالم

(ن)

٥٥٦ نزيه يا مرور بلدنا

٥٥٧ نسيبك للزمن يفعل بك ما شاءه القدر

٥٥٨ نصر الله

٥٥٩ نصر من الله وفتح قريب

٥٦٠ نصيبى كده

٥٦١ نظرة يا بو العباس

٥٦٢ نظرة يا أم هاشم

٥٦٣ نظرة يا بدوى جاب اليسرى

٥٦٤ نظرة يا بنت الحسن والحسين

٥٦٥ نظرة يا حسين

٥٦٦ نظرة يا ست

٥٦٧ نظرة يا ست حورية

٥٦٨ نظرة يا شيخ العرب

٥٦٩ نعمة

٥٧٠ نعمة من الله

٥٧١ نعيب الناس والعيب فينا

٥٧٢ نهيتك ما نتهيت والطبع فيك غلاب ودويل الكلب ما ينعدل

٥٧٣ نوارة

٥٧٤ نور الصباح

٥٧٥ نور العيون يا شاغلنى

٥٧٦ نور على نور

(هـ)

٥٧٧ هبة الله

٥٧٨ هجرتك يمكن انسى هواك ورجع قلبك القاسى

٥٧٩ هدى

٥٨٠ هذا من فضل ربى

٥٨١ هذه ارادة الله سيبنى فى حالى

٥٨٢ هل رأى الحب سكارى مثلنا

٥٨٣ هنحارب ومش خايفين

٥٨٤ هو صحيح الهوى غلاب

٥٨٥ هويدا

٥٨٦ هيام

٥٨٧ هيه جت كده

(و)

٥٨٨ وادى النيل

٥٨٩ وإذا استعنت فاستعن بالله

٥٩٠ وإذا عزمت فتوكل على الله

٥٩١ واذكر ربك اذا نسيت

٥٩٢ واصبر حتى يحكم الله

٥٩٣ واعتصموا بحبل الله

٥٩٤ وأفوض امرى إلى الله

٥٩٥ والنبى انا حلوة وعارفة أننى حلوة

٥٩٦ والنبى حيجننونى

٥٩٧ والنبى لتتفرج

٥٩٨ واما بنعمة ربك فحدث

٥٩٩ وان يريدون أن يخدعوك فان حسبك الله

٦٠٠ وانك لعلى خلق عظيم

٦٠١ وبالشكر تدوم النعم

٦٠٢ وبشر الصابرين

٦٠٣ وتغضب لما أقولك يا ظالمنى

٦٠٤ وجعلنا من الماء كل شئ حى

٦٠٥ وحبيبى لما قاطعنى رحت له انا برجليه
٦٠٦ وحش (الصحراء، الشرقية)
٦٠٧ وحياتك يا ظالم ما تمسك حاجى على
٦٠٨ وحيد
٦٠٩ ودع هواك
٦١٠ ورد عليه فل عليه
٦١١ وصفو لى الصبر لقيته خيال
٦١٢ وفاء
٦١٣ وقابلته نسيت انى خاصمته
٦١٤ ولا تنسى حبايبنا اعز الناس
٦١٥ ولان شكرتم لأزيدنكم
٦١٦ ولسوف يعطيك ربك فترضى
٦١٧ ولكل امرئ ما نوى
٦١٨ وما بكم من نعمة فمن الله
٦١٩ وما توفيقى إلا بالله
٦٢٠ وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها
٦٢١ ومن يتوكل علي الله فهو حسبه
٦٢٢ وهى غلطة ومش حتعود

(ى)

٦٢٣ يا أجمل هدية من أمى وأبويا

٦٢٤ يا الهى أعوذ بك من عذاب القبر

٦٢٥ يا بركة دعاء الوالدين

٦٢٦ يا بنت اللى المولى اعطاك الجمال وزعيه على اخواتك

٦٢٧ يا ترى يا وحشنى بتفكر فمين

٦٢٨ يا حاسدين الناس مالكم ومال الناس

٦٢٩ يا حافظ يا أمين

٦٣٠ يا حامى السويس يا غريب

٦٣١ يا حى يا قيوم لا إله لنا إلا انت

٦٣٢ يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف

٦٣٣ يا دلع ادلع

٦٣٤ يا راجل حرام عليك

٦٣٥ يارب اكفينى شر عيون الناس

٦٣٦ يارب المحروسة

٦٣٧ يارب رضاك

٦٣٨ يارب سترك

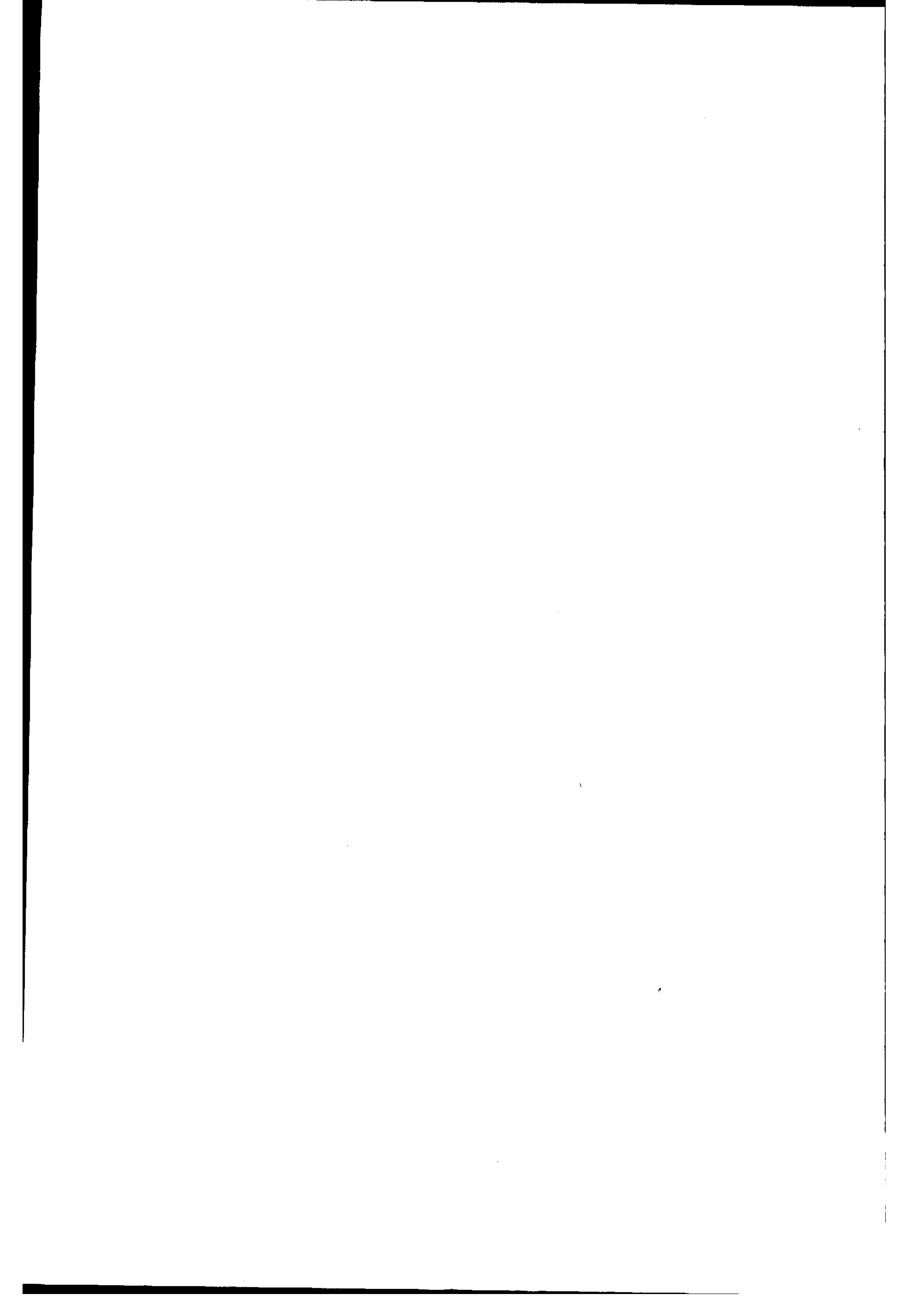
٦٣٩ يارب سترك ورضاك

٦٤٠ يارب سلم

٦٤١ يارب سهلها

٦٤٢ يارب كيف ادعوك وانا عاصى وكيف لا أدعوك وأنت كريم

٦٤٣ يارب لا اطلب منك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه
٦٤٤ يارب لطفك بالعباد
٦٤٥ يارب لك الحمد
٦٤٦ يا رب أعوذ بك من الجبن
٦٤٧ يا ستار أستر
٦٤٨ ياسيدى على كده
٦٤٩ يا ظالمنى
٦٥٠ يا ظالمنى يا هجرنى
٦٥١ يا عدوى
٦٥٢ يا فاتنة الكل
٦٥٣ يا كريم
٦٥٤ يا ليل يا عين
٦٥٥ يا ام المخلص خلصينى
٦٥٦ ياما عيون شغلونى
٦٥٧ يا ملهوف على حاسب على قلبى شوية
٦٥٨ يا منجى
٦٥٩ يا منجى الناس من شر أعمالهم يا كريم
٦٦٠ يا منجى من المهالك يارب
٦٦١ يا منجى نجى أبو قرنى
٦٦٢ يا منجى يارب
٦٢٣ يا منجى يا مسهل يارب



لا.. للعنـــف

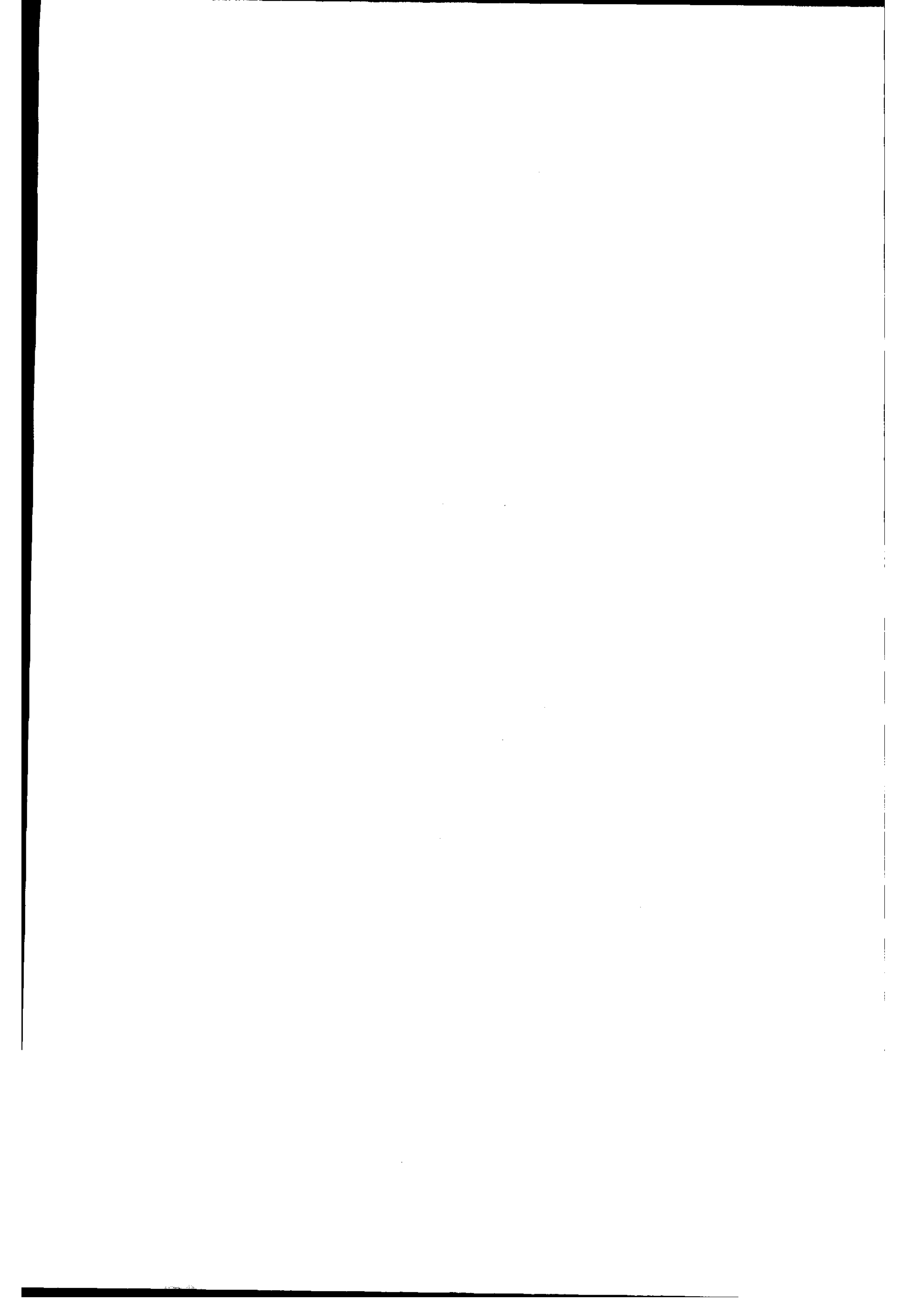
دراسة علميـــــة

فـــى تكـويـــن

الضميـــر الإنسانى

بقلم

د. سيد عويس



المقدمة

أرجو أن يوافقنى القارئ الكريم على أن مطلب "السلام" للإنسانية مطلب يرحب به كل ذى عقل راجح، وأن مطلب "العنف" للإنسانية مطلب مدمر ولا يقره ذو عقل راجح.

والملاحظ أن الإنسانية قد عانت من العنف على مر التاريخ منذ وجد الإنسان على وجه الأرض ألوانا وأشكالا.. وكان الأفراد الأقوياء يستخدمون أساليب العنف الرهيبة لكى يحققوا مصالحهم ضد كل إنسان يعارضهم سواء كانت هذه المصالح مادية أو معنوية. حدث كل ذلك عندما كان الإنسان فى الكهوف أو كان عضوا فى قبيلة أو أداة طيعة فى يد الاستعمار بكل ألوانه.

وكانت أساليب العنف التى تستخدم عديدة، ولعل أسلوب القتل كان أحدها، والحروب التى لا تفرق بين المحاربين وغير المحاربين قد اشتعلت منذ أن اشتغلت وفى جعبة القوى الأسلحة المدمرة.. التى تفتك بالأضعف دون ما ذنب أو جريرة إلا أن يكون قد يطالب بحقه فى الحياة.. وقد يشكل هذا المطلب عقبة فى سبيل طمع الأقوياء أو جشعهم.

وقد عاصرت حربين عالميتين الأولى والثانية، وعشت مع أعضاء أسرتى وساكنى الحى الذى أعيش فيه العنف والظلم والظلام والإظلام جميعا، وفى ضوء هذه الخبرات أكتب الكتاب الحالى وموضوعه "لا.. للعنف" .

وأرجو أن يتفضل القارئ الكريم بملاحظة أن عنوان هذا الكتاب مستعار من الرسالة التى تفضل "قداسة البابا بول السادس" بإلقائها بمناسبة الاحتفال بيوم السلام العالمى فى أول شهر يناير عام (١٩٧٨)، وتتضمن هذه الرسالة الإنسانية ضمن ما تتضمن الدعوة إلى أبناء المعمورة كلهم، دون ما تفرقة بين الدين والجنس والنوع، لكى يعيشوا فى سلام، والسلام كما يراه قدسته، هو مفهوم يشع الجلال والبهاء والوداعة، ومن أجل ذلك فهو مفهوم ممجد والإنسانية فى حاجة ماسة إلى تحقيقه على الأرض، وبكل تواضع محمود قال قداسته فى رسالته الإنسانية: إن "السلام" ليس من اختراعنا وإنما

أتانا من "المملكة غير المنظورة" مملكة السماء. إننا نحس بسموها عندما نتلو متواضعين ونكرر هذه التلاوة :

"المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة (لوقا ٢:١٤).

ويذكر قداسته تأييده للسلام إذ يقول : "يجب أن يسود السلام فالسلام ليس مطلبا مستحيلا بل ميسورا". إنه بلاغ للناس وإن هذا البلاغ يتجدد فهو بشارة عظيمة، إنه أيضا بشارة منذ بزوغ عام (١٩٧٨) وعلى مر الزمان للناس قاطبة. فالسلام عطية تعطى ويجب أن تعطى لكل الناس الذين يستطيعون بل يجب أن يستطيعوا قبولها، ويضعونها فوق قمة أرواحهم وبرامجهم وآمالهم فضلا عن سعادتهم. فالسلام ليس حلما مثاليا أو أنه مجرد شئ جذاب لا يتحقق. إن السلام هو،- بل يجب أن يكون -حقيقة، حقيقة دينامية وأن يسود فى كل مرحلة من مراحل الحضارة، إنه الخبز الذى لا نعيش إلا به، وهو ثمرة الأرض التى نحيا على أديمها، بل هو ثمرة "العناية الإلهية"، وهو أيضا نتاج العمل الإنسانى.

والسلام ما هو إلا معادلة أو موازنة تحيا بالحركة وتعطى دائما الطاقة الروحية وطاقة العمل، إنه الذكاء والشجاعة الحية، ومن ثم ونحن على مشارف عام (١٩٧٨) نرجو أعضاء المجتمعات الإنسانية، الرجال منهم والنساء، وبخاصة أصحاب النيات الطيبة من القادة ذوى أنماط السلوك السوية الجماعية الذين يعملون من أجل حياة المجتمعات الإنسانية سواء أكانوا من رجال السياسة أم من المفكرين أم من الناشرين أم من الفنانين أم من الذين يعملون فى مجالات الرأى العام والإعلام أم من المدرسين فى مدارسهم، أم من مدرسى الفن والدعاة إلى الصلاة فضلا عن المخططين وعمال أسواق الأسلحة فى العالم - نرجو الجميع بلا استثناء أن يبدأوا مرة ومرات فى التأمل الأمين الكريم من أجل سيادة السلام فى عالم اليوم.

وتقويم السلام لكى يسود لا يختلف عليه اثنان من ذوى العقول الراجحة ومن الذين يملأ صدروهم الإيمان، ونجد فى وقتنا الراهن من يحاول أن يرفع رايته فى "منظمة الأمم المتحدة" وبخاصة فى "الجمعية العامة"، لهذه المنظمة التى عقدت اجتماعا خاصا لمناقشة مشكلة نزع

السلاح، ومع ذلك فإننا نلاحظ مع الأسف الشديد أن ظاهرة الازدواجية ترفع رايتها فى عالمنا المتمدين فى الوقت الراهن، حيث نلاحظ ظاهرة الحماس المتعمد لظاهرة العنف، ويرجع وجود ظاهرة العنف، بالضرورة إلى الفساد الذى يستشرى فى الضمير الأخلاقى الذى لم يدرب التدريب السوى ولم يساعد لتحقيق ذلك الهدف النبيل. بل على العكس نجد أن التفاؤل الاجتماعى يتبدد روحيا وذوقيا مما يؤدى إلى عدم الالتزام بالأمانة من أجل الأمانة، وبكل ماهو جميل وسعيد فى القلب الإنسانى : أى مايملأ القلب الإنسانى بالمحبة الحقيقية النبيلة الصادقة.

والمعلوم أن العنف كظاهرة لا يمكن أن يعنى أبدا الشجاعة إنه مجرد انفجار أو تبديد أعمى للطاقة التى تنحط بالإنسان الذى يباهى باستخدامه، إلى مستوى الانفعال النفسانى المزرى، والملاحظ أن العنف هو نشاط غير اجتماعى وذلك لأنه يستخدم أساليب.. نفس الأساليب.. التى تسمح له لكى يسبب ارتكاب الجرائم.. ومن ثم فالسكوت على حدوثه يعنى مؤامرة صامتة ضد الإنسانية.. فهو أى العنف يتلاعب إذ يخون العمليات القانونية العادية فضلا على أن من يستخدمونه يعملون بالقوة على تفادى التدابير الإجرامية التى تنحط إلى مستوى أعمال الإرهاب التى لا ترحم.

وقد تضمنت الرسالة البابوية أيضا بعض التحذيرات إذ تقول: إن العنف هو عدو للسلام،وإن الحروب المحلية والقومية وما يتخللها من ألوان من العنف التى تسبب الكوارث للآمنين والمحاربين على السواء، كما تضمنت التأكيد على أن معنى "نعم" للسلام يتسع ليكون "نعم" للحياة، وأن السلام لا يجب أن نتذكره ونحن نخوض المعارك الحربية فحسب بل نتذكره حيثما وجد الإنسان. وأن هناك – بل يجب أن يكون – السلام الذى لا يحمى فقط هذا الوجود من التهديدات التى تسببها أسلحة الحرب فقط ولكن ليحمى أيضا الحياة ضد كل خطر وكل النكبات وكل هجوم غادر.

إن حفظ الحياة هو هدف الأهداف.. إن رحم الأم ومهد الطفل هما أول الحضنين اللذين ليس فقط يحميان السلام ولكنهما أيضا يحميان الحياة بل ويبنيان قواعد السلام :

"هو ذا البنون ميراث من الرب ثمرة البطن أجرة" (مزمور١٢٧:٣)

والذى يختار السلام ويعارض الحرب والعنف، يختار آليا الحياة، والاهتمام بمتطلباتها الضرورية.

وقد أعلنت الرسالة التى كتبت خصيصا بمناسبة الاحتفال بيوم السلام العالمى المشار إليه آنفا فى يوم ٨ من شهر ديسمبر عام (١٩٧٨)، وتفضل الأخ الأستاذ الدكتور ميشيل فرح بإعطائها لى لكى أدرسها وأكتب فى ضوئها دراسة ألقيها فى احتفال "لجنة العدالة والسلام" فى تمام الساعة السادسة والنصف مساء يوم الخميس ٢٦ من شهر يناير (١٩٧٨) بقاعة النيل، شارع بنك مصر القاهرة.

ولما كنت أصغر مقاما من المتحدثين اللذين تفضلا بقبول الحديث فى هذه المناسبة وهما قداسة البابا شنودة والأستاذة الدكتورة سهير القلماوى ، فقد بدأت حديثى وتفضلت الاستاذة الدكتورة سهير القلماوى فألقت حديثها بعدى، وكان ختام الأحاديث ختام مسك تفضل قداسة البابا شنودة الثالث بإلقائه.

وكان الحضور جما غفيرا شرفه بعض الآباء القساوسة كما شرفه المريدون والأب الكبير بطريرك الأقباط الكاثوليك ورئيس لجنة العدالة والسلام والسادة أعضاؤها.

ومهما يكن من الأمر فإن الموضوعات المدونة فى الكتاب الحالى تتضمن عدا المقدمة والخاتمة مايلى :

أولا : من مفاهيم الدراسة الحالية.

ثانيا : دراسة عن السلوك الإنسانى

ثالثا : أمثلة حية معاصرة عن بعض أنماط العنف.

رابعا : أمثلة حية تاريخية عن بعض أنماط العنف.

خامسا : العمل من أجل السلام.

ولعل القارئ الكريم قد لاحظ أن هذه الموضوعات قاصرة عن تحقيق أهداف ما يجب أن يتضمنه الكتاب الحالى، وإننى إذا أعترف بذلك

أرجو ملحا أن يغفر لى هذا القصور. فالموضوع الذى يتحدث عنه الكتاب الحالى هو كما ذكرت من قبل موضوع الحياة بحلوها ومرها وبنسيمها وأعاصيرها. وأننى فى خبراتى المحدودة لا أستطيع أن ألم بكل عناصره العديدة التى وجدت على الأرض ما وجدت الحياة، حياة الإنسان أشرف المخلوقات :

"ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا" (ك الإسراء : ٧٠)..

ومهما يكن من الأمر أيضا فالرجاء أن يتقبل القارئ الكريم.. هذا الكتاب قبولا حسنا، وليعلم أننى على الرغم من ألوان شقاء الإنسان من ألوان العنف التى تنفث العداوة حيث نجد الصراع بينها وبين ألوان السلام العادل والسلام الروحى، فإن التفاؤل يجب أن يكون ديننا.. ففى ضوء الخبرات الإنسانية نلاحظ أن الشر لا ينتصر باستمرار وأن ألوان السلام، وإن توارت عوامل وجودها، عندما تكون الظروف الاقتصادية والسياسية والتسلط الغاشم والقوة المستبدة تبدو أنها السائدة، تنتظر الظروف المواتية لكى تظهر وتسود.

وأكرر قولى إنه فى ضوء خبراتى المحدودة لا أستطيع أن ألم بكل العناصر العديدة لموضوعات هذا الكتاب، إذ كتبت ما كتبت عنها، فإننى كتبتها بوصفى "ياء" المفكرين المصريين فى المجتمع المصرى المعاصر.

ولا يسعنى وقد عرضت موضوعات الكتاب الحالى فى الصفحات التالية إلا أن أتقدم بالشكر العميق الخاص إلى أعضاء أسرتى الكريمة : زوجتى وابنتى آمال وتيسير وأبنائى أحمد وسمير ومسعد على تشجيعى للقيام بتأليفه وبخاصة فى الظروف التى أواجهها فى حياتى الراهنة التى تعنى كبر السن والتى يظللها ظلام عدم الوفاء الدامس.. فكان لهذا التشجيع الإنسانى الرائع الحافز الأكبر لأعيش.. وأن اكتب ما كتبت، حياة مشرقة أرجو من الصميم أن تكون مثمرة لأعضاء المجتمع المصرى الخالد الذين يعملون جاهدين على إرساء قواعد السلام العادل.

ولن أنسى ما حييت فضل السيدة (الزا ثابت) التى لولا حفزها لى ماديا ومعنويا لما خرج هذا الكتاب إلى النور.. وانتهز الفرصة فأدعوا الله

جل وعلا لسيادتها بالشفاء العاجل من مرضها راجيا لسيادتها أن تتمتع بالصحة والعافية.

وإن أنس لا أنسى فضل الأخ الفاضل الحاج "محمد شوقى" والسيدة الفاضلة حرمه الكريمة على تعاونهما على نسخ موضوعات هذا الكتاب على الآلة الكاتبة لهما ولأبنائهما التوفيق والسداد.

والرجا التوفيق

د. سيد عويس

مصيف جمصة السياحى

شهر أغسطس عام (١٩٨٨)

من مفاهيم الدراسة الحالية

١-مفهوم العنف والسلام فى التراث الثقافى الاجتماعى المصرى:-

وإذا أتحدث عن هذين المفهومين فأنني أتحدث فى ضوء خبراتى كباحث علمى اجتماعى مصرى.. وهذه الخبرات تكون، بالضرورة، خبرات محدودة، ومع ذلك فأنني أبادر بالقول بأنها خبرات منتظمة (أى علمية تتضمن نتائج بحوث ودراسات علمية قمت بإجرائها أو الإشراف على إجرائها فى ظل المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى، والخبرات التى أتحدث عنها، مع ذلك قد تتضمن فى بعض الأحيان بعض الانطباعات وبعض الآراء، وإن كان همها الأول أن يقتصر على الحقائق.

وأرجو أن يغفر القارئ الكريم إذ حاولت دراسة مفهوم "العنف" دراسة علمية بقصد محاولة فهمه فهما موضوعيا، أى محاولة التعرف على معناه وعلى بعض أنماطه وعلى بعض صور التعبير عنه، فلعل التعرف على هذه الأمور، وغيرها أن ييسر لى، وإن كان ذلك بالضرورة غير كاف، التعرف على مايواجهها من أمور بمفهوم "السلام".

ومفهوم العنف، لغة بضم العين ضد الرفق أو الأخذ بالشدة والقسوة، والملاحظ أن مفهوم العنف فى هذا الضوء غير التعنيف أى التعيير واللوم.

وأرجو أن يعلم القارىء أن مفهوم العنف فى هذا الحديث يقصد به "العنف الإنسانى" أي الذي يصدر عن البشر من بنى الإنسان.. فالعنف موجود بين الإنسان والطبيعة وبين الإنسان والحيوان وبين الحيوان والحيوان، ولكننى أتحدث عن العنف بين الإنسان والإنسان أيا كان هذا الإنسان ذكرا كان أو أنثى، رجلا كان أو امرأة، شابا كان أو شابة، صبيا كان أو طفلا الذين يعيشون تحت سماء مصرنا الخالدة سواء أكانوا معاصرين أم غير معاصرين.

والملاحظ أن العنف لا يحدث بين الأفراد فحسب ولكنه يحدث كذلك على مستوى الجماهير، وقد يكون تلقائيا، أى لم يخطط أو ينظم له من قبل، وذلك على عكس ما يصدر من أنماط السلوك العنيفة عن بعض الجماعات أو التنظيمات الاجتماعية أو الثقافية أو الدينية أو السياسية المنظمة، كالجامعات والأحزاب والتنظيمات المهنية.

وفى ضوء إحدى الدراسات العلمية التى قام بها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، فسر "العنف الجماهيرى" بأنه عنف الجماهير ضد ممثلى السلطة، وهو فى ضوء طبيعته لاسلوك عدوانى ايجابى "بدنى أو مادى ضد بعض ممثلى السلطة (أو ضد فئات أخرى) موجهة من بعض أفراد الجمهور - على أساس انتمائهم لجماعات معينة أو دفاعهم عن قيم معينة تتعارض مع قيم المجتمع بوجه عام، أو تتعارض مع القيم التى يرعاها ممثلو السلطة الذين وقع عليهم العدوان، وأرجو أن يلاحظ القارئ عبارة "تتعارض مع قيم المجتمع بوجه عام" فهى عبارة غامضة على الرغم من أن البحث رجع إلى أحد المراجع الأجنبية لتفسير هذه العبارة أو لتبرير وجودها فى المتن (انظر بحث العنف التلقائى الجماهيرى فى المجتمع المصرى، "١٩٧٦" صفحات ٤٤- و٤٨-٤٩) لأننا نلاحظ أن الأخذ بظاهرة الثأر موجود فى بعض المجتمعات المحلية فى المجتمع المصرى مثلا، وارتكاب إحدى جرائمها يتضمن بالضرورة العنف الجماهيرى ضد الأشخاص (القتل) أو الأموال (تسميم المواشى) أو الآداب (صيانة العرض والشرف) أوحتى ضد الدولة أو ممثليها (فترات الانتخابات) وفى ضوء البحوث والدراسات العلمية نجد أن ظروف الحياة المعاشة فى ظل مناخ ثقافى له ذاتية ثقافية معينة تجعل أعضاء هذا المجتمع المحلى مهما كان مستوى تعليمهم أو إمكاناتهم الاجتماعية ذكورا كانوا أو إناثا تغرس فى نفوسهم قيم ظاهرة الأخذ بالثأر ويتمثلونها وهم أطفال ويعيشون بها ولها وإذ تختار احدى الجماعات (العائلات الكبيرة) أحد أعضائها لارتكاب ماتمليه عليه جماعته من جرائم قام بذلك، وإذ يفعل من اختير ما أمر به فإن قيمه لم تتعارض مع قيم مجتمعه المحلى وإن اعتبرت خرقا لقانون العقوبات المصرى.. لذلك نرى أن القضاة الذين يحاكمون الجانى يأخذون فى الاعتبار عادة ما تمثله من قيم يعيش بها

ولها والتى تحدد أنماط سلوكه فنجد هؤلاء القضاة لا يحكمون عادة على الجانى بأقصى العقوبة التى ينص عليها قانون العقوبات المصرى.

ونذكر بهذه المناسبة أن شخصية الإنسان منا تتكون محدداتها وملامحها عند بلوغ الفرد منا سن الخامسة أو السادسة ويرى البعض أن هذه المحددات والملامح تبقى مابقى الفرد حتى يصير شخصا أى فرد أصاحب شخصية اجتماعيا، وقد لا يرى البعض هذه المقولة حيث إن محددات شخصية الإنسان منا وملامحها تتغير بتغير التجارب والخبرات الاجتماعية التى يواجهها فى حياته، والملاحظ أن محددات شخصية الإنسان قد تكون أدواره الاجتماعية التى يتوقع المجتمع الذى ولد فيه ويعيش أن يؤديها، وقد تكون محددات تكوينية تتعلق بالتكوين الجسمى والبيولوجى للشخص. أو محددات ثقافية اجتماعية وهى تعنى الخبرات التى يواجهها الشخص منذ أن يولد وحتى الوقت الذى تدرس فيه هذه الشخصية.. وقد تكون محددات عقلية ونفسية تتعلق بصحة الشخص العقلية أو النفسية أى ضعفه العقلى أو ماقد يصيبه من مرض أو أمراض عقلية أو نفسية، ومن ثم فإنى أرجح تغير شخصية الإنسان تغيرا مقصودا أو غير مقصود. ولعل التغير المقصود يكون أقرب إلى الصواب.

وكما ذكرت آنفا أننا نلاحظ أن مفهوم العنف ألوان وأنماط، وأن الشعور بالعداوة صور وأنماط أيضا.. والملاحظ أن الشعور بالعداوة فى أحد أنماطه – النمط الفردى أو الشخصى – ما هو إلا انفعال يندفع من شخص معين ضد شخص آخر. وقد يكون هذا الشعور بغضا مقنعا، أو يكون فعلا بغيضا موجها ضد شخص، وما الفعل البغيض الموجه ضد شخص إلا تعبير ظاهر عن الشعور بالعداوة ضده.. فنحن نلاحظ بوضوح أن تهديد أى شخص بالقيام بفعل بغيض أو توجيه هذا الفعل البغيض ضده يثير عادة أنواعا متباينة من الاستجابات فى نفسه قد يكون الشعور بالعداوة أحدها، والمقصود بالتهديد هنا هو الخوف الحقيقى أو حتى الوهمى من أمور بغيضة مثل الأذى أو الضرر أو التحقير أو حرمان الذات حرمانا على مستوى معين، وقد يتحقق هذا التهديد أيضا عند إعاقة شخص معين من فرصة فهم نفسه حق الفهم، أو من توقع هذا الشخص تحقيره أو تقييده.. وقد يتحقق هذا

التهديد كذلك إذا خشى الشخص من رفض الاعتراف بحاجاته المشروعة أو رفض الاعتراف بحقوقه كعضو فى جماعة معينة.

وإذا كان مفهوم "العنف" فى هذه الدراسة هو "العنف الإنسانى" فإنى إذ أتحدث عن "مفهوم السلام" أعنى أيضا "السلام الإنسانى، صحيح أن "السلام" فى ضوء التعاليم الدينية قد يكون اسما لله عز وجل وعلا، تماما كمفهوم المحبة، ومع ذلك فأرجو أن يعذرنى القارئ إذا ذكرت أن معنى مفهوم السلام هنا قد يكون التحية بين أعضاء المجتمع وقد يكون الأمان أو الصلح أو النجاة من الآفات فضلا عن السلامة (على المستوى البشرى) والبراءة من العيوب.

ومهما يكن من الأمر فإن مفهوم السلام هو ضد مفهوم العنف بالمعنى الذى ذكرناه من قبل، والملاحظ فى الحياة الإنسانية أن الشعور بالعداوة (وليد العنف بصوره وأنماطه) يوجد كما يوجد الشعور بالمحبة (وليد السلام بصوره وأنماطه) والملاحظ أيضا فى هذه الحياة أى الحياة الإنسانية أن هذين النوعين من الشعور الإنسانى فى صراع مستمر. فهما فى الواقع سمتان من سمات هذه الحياة، والصراع بينهما هو فى الحقيقة سنة الحياة، وكلنا يعلم أن الشعور بالمحبة، محبة الناس بعضهم لبعض، فى ضوء تراثنا الثقافى المصرى هو هدف كل الأهداف، والشعور بالمحبة محبة الناس بعضهم لبعض، فى ضوء قيم المجتمع المصرى المعاصر ومبادئه ومثله العليا هو، أيضا غاية كل الغايات وفضلا عن ذلك، وربما مع كل ذلك، فهو فى ضوء التراث الإنسانى، أمل كل الآمال.

وإذا كان الشعور بالعداوة والشعور بالمحبة، كما سبق أن ذكرت يتصارعان، فإننا نجد أن الدعوة إلى العنف الإنسانى والدعوة إلى السلام فى محيط البشر يتصارعان كذلك ويعنى مفهوم "الصراع" فى الدراسة الحالية، أى معناه الاجتماعى، هو "عملية اجتماعية وموقف يحاول فيه اثنان أو أكثر من الكائنات البشرية أو الجماعات الاجتماعية أن يحقق كل أغراضه ومصالحه، ومنع الآخر من تحقيق ذلك لو اقتضى الأمر القضاء عليه وتحطيمه، ويرتبط الصراع جوهرا بوجود حدود لمصادر الإشباع المختلفة، وفى معناه السوسيولوجى يتضمن بالضرورة كائنات إنسانية، وهو مثله مثل

الشعور بالعداوة ذو درجات من الشدة والانتشار تبعا لأهداف وأغراض أطراف الصراع، ويعد الصراع ظاهرة عامة تلحظ فى مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية وفى الاقتصاد والسياسة والدين والمعايير الأخلاقية وبين الطبقات وفى اللغة (التنابذ بالألقاب التى تحدث فى المشاكسات مثلا) وقد يكون الصراع داخل الجماعات الاجتماعية أو بينها.

وإذا اعتبرنا الصراع نوعا من التفاعل الاجتماعي بمعنى أنه عملية من العمليات الاجتماعية فإنه يجب التمييز بينه وبين "المنافسة" وقد يرى البعض أن الصراع نوع من التنافس، يحاول المتنافس أن ينظم فيه جهوده وقوته، أملا فى الفوز ولذلك يرون أنه أقسى عملية بين العمليات الاجتماعية أو أنه نوع عنيف من التنافس، ومع ذلك فهناك فارق بين المنافسة والصراع فالوعى شرط ضرورى للصراع فى حين أن هذا الوعى ليس ضروريا بالنسبة للمنافسة بل إن هناك أنواعا من المنافسة تكون الشعورية. هذا ويعتبر كل من الصراع والمنافسة أشكالا للنضال والكفاح.

ومع ذلك فالملاحظ أنه إذا كان مفهوم "العنف" يوجد فى المجتمع المصرى المعاصر على مستوى الأفراد، فإن التراث الثقافى لهذا المجتمع يتعطر بمفهوم "السلام" ويكفى لتأكيد ذلك أن نذكر أن الكتاب المقدس قد تضمن مفهوم السلام" بصوره وأنواعه ١٣٣ مرة كما تضمن مفهومى "العداوة والأعداء" وهما وليدا مفهوم "العنف" بصورهما وأنواعهما ٤٠ مرة، وقد ذكر مفهوم "السلام" لفظه ومشتقاته فى مواضع عديدة فى القرآن الكريم، فى سوره وآياته ١٣١ مرة كما تضمنت مفاهيم "الاعتداء والعدو والعداوة والعداون" وهى وليدة مفهوم "العنف" بصورها وأنواعها ١٠٤ مرات.

٢ - مفهوم الضمير الإنسانى فى التراث الثقافى الاجتماعى المصرى.

إن مفهوم "الضمير الإنسانى" لغة هو "استعداد نفسى لإدراك الخبيث والطيب من الأعمال والأقوال والأفكار والتفرقة بينها، واستحسان الحسن واستقباح القبيح منها، والملاحظ أن الفرد منا لا يولد وعنده "ضمير" وحتى كبار السن منا لا نستطيع أن نجد عضوا من أعضاء أجسامهم كالكليتين

وعضلة القلب والرئتين والغدد مثلا اسمه "الضمير" وقد يرى البعض أن الضمير هو النفس التى قد تكون نفسا مطمئنة أو نفسا لوامة. وإذا كان لا يولد الإنسان وعنده ضمير فلابد إذا أخذنا بالمعنى اللغوى للضمير أن يتكون كلما ازدادت عوامل تكوينه فى خلال مراحل حياته مرحلة بعد مرحلة. أى أن يربى الشخص منا لكى يدرك الخبيث والطيب من الأعمال.. ألخ.

والمعلوم أن مفهوم "التربية" لا يعنى مفهوم "التلقين وعلى الرغم من أن معانى ودلالات المفهوم الأول تتعدد فإننى أرى أنه ينبغى أن تفهم التربية على أنها "عملية تغيير" بواسطتها ينمو الإنسان ويزدهر وتتفتح ملكاته وقدارته، وهو أى الإنسان، إذ يفعل ذلك يكون نفسه ويتحول هو ذاته مع تكوينه وتحويله الآخرين، والبيئة التى يعيش فيها. إن عملية التغيير هذه تهدف أولا وقبل كل شئ إلى إعداد المواطن (الإنسان) لكى يستطيع أن يؤدى أدواره الاجتماعية التى يتوقعها منه المجتمع الذى ولد فيه ويعيش. إنها عملية تكوين الشخصية أى عملية جعل "الفرد" شخصا أى فردا له شخصية اجتماعية، أى يكون المواطن شخصا ذا اتجاهات فكرية نحو من يحيط به من الناس سواء كانت هذه الاتجاهات مما يفيد أو يضر المجتمع وجماعاته، وتكون فائدته للمجتمع وجماعاته فى ضوء قيم هذا المجتمع، ويكون ضرره فى نفس هذا الضوء. أى أن قيم المجتمع وجماعاته قد تكون أهدافها حميدة، أى قيما بناءة تكون من وراء أنماط سلوك أعضاء المجتمع. أقصد أفكارهم واتجاهاتهم ونظرتهم نحو الأمور والأشياء والأشخاص، أى نحو الحياة التى يعيشونها أو التى يصنعونها أو التى يحاولون صنعها على السواء، وهى قيم أهدافها حميدة لأنها تدعو إلى الخير ولا تدعو إلى الشر. وأعنى بالخير كل ما يعين على العمل الصالح من أجل الآخرين فى ضوء ما يدرك عضو المجتمع عن طريقها ما هو خبيث من الأعمال والأقوال والأفكار فيتجنبه وفى ضوء ما يدرك هذا العضو عن طريقها ما هو طيب من الأعمال والأقوال والأفكار، فيعمل به، ومن ثم فإنه يصبح إنسانا أو فردا ذا شخصية عنده ضمير يستحسن كل ما هو حسن ومحبوب ويستقبح كل ما هو قبيح ومكروه.

وفى ضوء التاريخ نجد أن المصريين القدماء قد عرفوا منذ الماضى السحيق عن طريق التفكير والتأمل أن الرجل الفاضل يسمى "محبا للسلام" وبالنص الحرفى "حامل السلام" وهذا التعبير فى ضوء ما يعنيه هو تعبير أخلاقى ما فى ذلك من شك حيث يمكن التعرف على الفاضل (صاحب الضمير) بعلاقاته بمن حوله، وعلى النقيض منه ماوصل إليه هؤلاء الأقدمون عندما أطلقوا على كل من يخطئ فى حق من حوله اسم "حامل الجريمة" أو المجرم" ولعل القارئ الكريم إذا اطلع على أمثال "بتاح حتب" (حكيم مصرى قديم) التى يرجع تاريخها إلى الدولة القديمة أو من عام ٣٤٠٠ إلى ٢٤٧٥ ق.م (الأسرة الخامسة) يرى أنها تقوم شاهدا على تقدم الاختمار الخلقى. أو مايمكن أن يسمى مولد الضمير الإنسانى وتطوره، ولعل المثال التالى يوضح ما أقول (انظر كتاب "سيد عويس" قراءات فى موسوعة المجمتع المصرى القاهرة دار روز اليوسف إبريل عام "١٩٨٨" صفحة ٩٦):

"لا تكن متعجرفا بسبب علمك ولا تنتفخ أوداجك لأنك رجل عالم استشر الجاهل كما تستشير العالم، لأن حدود الفن لا يمكن الوصول إليها، وليس هناك فنان كامل فى براعته. **الكلام** الطيب أندر من الحجر الأخضر الثمين، ومع ذلك فإنه يوجد أحيانا فى حديث الجوارى العاملات فى طحن الغلال بين أحجار الرحى"

وقد علق "جورج سارتون" فى كتابه تاريخ العالم : الجزء الأول، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة، ديسمبر عام "١٩٧٦" على هذا المثال قائلا : "من الواضح أن هذه العبارات وأمثالها لا تتعلق بالفن أو العلم أو الدين، ولولا هذه العبارة وأمثالها لاستحال بقاء أية حضارة مدة طويلة" (انظر صفحتي ١٢٩-١٣٠)

وتعنى الصفات التي يتحلى بها الإنسان ذو الضمير الإنسانى الذى يحب السلام، فى ضوء التعريف السابق وفى ضوء ظروف مجتمعنا المصرى الراهنة، أن يكون مواطنا صالحا يعرف حقوقه ويؤدى واجباته التى يتطلبها هذا المجتمع وقد قدمت حقوق عضو المجتمع المصرى المعاصر متعمدا فالملاحظ أن المصريين منذ أن عاشوا على ضفاف النيل

يعطون اكثر مما يأخذون ويواجهون الأزمات الأقتصادية والسياسية التى تواكبها عادة المشاكل الاجتماعية التى تتضمن ضمن ما تتضمن ألوانا عديدة من الانحرافات، منها وأهمها معاناة الشباب منهم من القلق المرضى، وارتكاب الجرائم وتعاطى المخدرات، ومن التطرف السياسى أو الدينى.

وإذ أدعو إلى السلام فإننى أدعو إلى السلام القائم على العدل، والملاحظ أن مفهوم "العدالة" قد نبت من تربة مصرنا الخالدة منذ آلاف السنين فى شخص الآلهة "ماعت" ومنذ اينانيوس المصرى" أول أسقف كرسه "مرقص فى عام ٦٤ ميلادية" نجد آيات الكتاب المقدس تتلألأ بمعانى حقوق الإنسان وتنشر نورها فى أعماق قلوب المصريين المسيحيين، وتعطر المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى منذ ذلك الحين :

"العدل العدل تتبع لكى تحيا وتمتلك الأرض التى يعطيك الرب الهك" (سفر التثنية اصحاح ١٦ : آية ٢٠) و"هكذا قال الرب، احفظوا الحق واجروا العدل. لأنه قريب مجئ خلاصى واستعلان برى" (سفر اشعياء اصحاح ٥٦ : آية ١).

ثم عانقت الآيات القرآنية الكتاب المقدس التى تعطر بها المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى منذ أن اقيمم 'اول مسجد فى مصرنا الخالدة فى عام ٢١ هجرية الموافق عام "٦٤١" ميلادية :

"..واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما انزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم اعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير" (٤١ ك الشورى آية ١٥).

و"إن الله يامر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون" (١٦ ك النحل : آية ٩٠).

3- متصل السلوك العدوانى الإنسانى :

أرجو أن، يغفر لى القارئ الكريم إذا كنت استعرت "مفهوم المتصل" لأشرح تدرج السلوك العدوانى الذى كما ذكرت أنه وليد العنف، وعلى الرغم من أننى لم أقصر فى سرد بعض أنماط هذا السلوك أقصد السلوك العدوانى، فإننى تحت هذا العنوان سأحاول أن أذكر ما تبقى دون ماتكرار حتى لا يمل القارئ من التكرار.

وقد استعرت مفهوم المتصل من علم الاجتماع الحضرى وهو يعنى التغيرات المتدرجة بين درجات التريف والتحضر على أساس أنه من الممكن تصنيف المجتمعات (المحلية) المختلفة وفقا لنقاط معينة على هذا المتصل، ويفترض من أجل ذلك أن المجتمعات المحلية تتدرج بشكل مستمر ومنتظم من الريفية إلى الحضرية، وفقا لعدد من الخصائص وأن هذا التدرج تواكبه بالضرورة اختلافات أو فروق متسقة فى أنماط السلوك، ونحن نلاحظ فى الوقت الراهن أن مدن المجتمع المصرى المعاصر، وبخاصة مدينة كمدينة القاهرة الكبرى قد تريفت، بمعنى أن أنماط السلوك الإنسانى لمن يعيشون بين جنباتها قد اختلطت وأصبحت أقرب إلى أنماط الريف. فقد نلاحظ مثلا أن "الأتوبيس العام" قد يكون مزدحما بمن يحمله من الركاب الذين يبغون الوصول إلى مواقع عملهم او إلى مدارسهم وجامعاتهم، فإذا بالسائق يوقف "الأتوبيس" حتى يتيسر "للكمسارى" أن ينزل لجلب كوبين من الشاى مثلا من المقهى الذى وقف أمامه ولا يتحرك الأتوبيس من مكانه على الرغم من الأجسام المكدسة سواء كانت أجساما لأطفال أو لشباب أو لرجال أو لنساء حتى يحضر الكمسارى المطلوب، وتصرف السائق والكمسارى فى هذه الحالة هو تصرف من يملك الشارع وكأنهما يسيران على "الزراعية" فى الريف المصرى، ومثل هذا النمط من السلوك الريفى نجده عندما تجمع كناسة "الشارع" أو "المنزل" وتحرق بلا مبالاة فى أحد أركان الشارع أمام المنزل ! وأصبحت أنماط السلوك الريفى تملأ المناخ الثقافى الاجتماعى فى

هذه المدينة وغيرها من المدن والمراكز فى المجتمع المصرى فى الوقت الراهن، ولعل ذلك يرجع إلى الهجرة الداخلية غير المنتظمة سواء كانت هجرة داخلية من الريف إلى الحضر أو هجرة إلى مدن مصر، قد تكون مؤقتة نعم، ولكن المهاجرين يحملون على أكتافهم عناصر ثقافة أوطانهم التى جاءوا منها، وقد تختلف هذه العناصر جذريا مع عناصر الثقافة المصرية.

والمعلوم أن أنماط التعبير عن العنف عن طريق السلوك العدوانى سواء كان الأخير ضد الأفراد أو ضد السلطة وممثليها، كما سبق أن ذكرت مرات عديدة، وفى ضوء متصل السلوك العدوانى الإنسانى الذى اتخذته نبراسا كما أوضحت نلاحظ أن هذا السلوك قد يبدأ سلبيا ثم يتدرج إلى أن يكون إيجابيا، وأقصد بذلك فى ضوء المقصود من الدراسة الحالية أن عدوان الشخص قد يوجه ضد الآخرين عن طريق الاعتداء على الأموال (السرقة مثلا) أو الاعتداء ضد الآداب العامة (ظاهرة البغاء مثلا) أو يوجه ضد الدول (التجسس لحساب دولة أخرى) أو يوجه ضد الأشخاص (الضرب والقذف والقتل مثلا).

وفى ضوء ما سبق، أى فى ضوء، "المتصل السلوك العداونى الإنسانى " الذى تبنته الدراسة الحالية، أرجو أن يلاحظ القارئ الكريم العلاقة الحميمة بينه وبين "علم الإجرام" والمقصود بهذا العلم أنه يهدف إلى دراسة الظاهرة التى تسمى عادة بظاهرة "الإجرام" أو ظاهرة "الجريمة".والملاحظ أن علم الإجرام قد يكون علما نظريا أو علما تطبيقيا. ومهما يكن من الأمر فإنه كعلم استقرائى. مثله مثل العلوم الاستقرائية يهتم بملاحظة الحقائق (الوقائع) ملاحظة دقيقة بقدر الإمكان، ويحاول بكل الأساليب المتاحة التعرف على عوامل الظواهر الإجرامية ومن ثم فهو فى هذه الحالة يهتم أول ما يهتم باحدى مناطق اهتمامه ألا وهى التعرف على "عوامل الجريمة" أو ما يسمى بعلم ألـ(Etiology) ، وإذا كانت المادة التى يهتم بها علم الإجرام هى ظاهرة الإجرام، أى الجرائم التى ترتكب وأعضاء المجتمع الذين يرتكبونها فضلا عن الإجراءات القانونية التى تتصل بهذه الجرائم من قريب أو من بعيد – فإنه من المستحسن محاولة تعريف مفهوم أو ظاهرة الجريمة، والملاحظ أن هذا المفهوم كأحد المفاهيم الإنسانية له صور عديدة فضلا عن أنه مفهوم

فضفاض، أى له معان عديدة أيضا، وهى أولا وقبل كل شئ أنماط من السلوك إذا أداها المواطن أو امتنع عن تأديتها، فى ضوء قانون العقوبات، يستحق العقاب.

وقد يرى البعض أن مفهوم أو ظاهرة الجريمة ينتمى إلى فئة الأفعال اللاأخلاقية، ومع ذلك فالملاحظ أنه ليس كل الأفعال اللاأخلاقية تكون بالضرورة جرائم.

ويجب التأكيد على أن مفهوم علم الإجرام بمعناه الواسع لا ينتمى فقط إلى علم الـ (Etiology) بل ينتمى أيضا إلى علم الـ (penology) وعلم الـ(Criminalistics) .

والملاحظ أنه منذ منتصف الستينيات من القرن الحالى قد ظهرت حركة مميزة من أجل التغيير الجوهرى فى نظرية "علم الإجرام" وتطبيقاتها حين قام بالتمرد طلاب الجامعات والعمال، والفقراء ساكنو المناطق المنعزلة فى المدينة (الحوارى) فى البلاد الغربية الصناعية فى ذلك الحين. وكانت آثار ردود الفعل لهذا التمرد، على الحكومات وبخاصة فيما يتعلق بالتوازن السياسى الاجتماعى ومايتصل به، أن أوجدت الحوار المتنوع والمناقشات العديدة ليس فقط فى محيط العمل الراديكالى بل فى الفكر الراديكالى أيضا.

ومن ثم اتجه علم الإجرام نحو الراديكالية كما اتجه نحو موضوع "الضبط الاجتماعى" وبخاصة ما تعلق بالمهن التى تهتم بالمساعدة على تأييد وجوده فى المجتمع.

والملاحظ أن تعريف مفهوم علم الإجرام (الراديكالى) مسألة صعبة المنال، ولكننا نجد أن هذا المفهوم يرى، على وجه العموم، أن القانون الجنائي والإدارة التي تشرف عليه هما جزء من الدولة وأن هذه الدولة إن هى إلا جهاز قمعى يعمل فى سبيل مصالح الطبقة التى تملك رأس المال (الطبقة البروجوازية)..

والملاحظ أيضا أن ما هو راديكالى من حيث نسبته إلى علم الإجرام لم يكن متحجرا بل أخذ فى اعتباره اختلاف الثقافات وتغيرها فى النظرية وفى التطبيق وقد اهتم هذا العلم منذ بزوغ فى أفق المعرفة (أى منذ منتصف

الستينيات من القرن الحالى) بالتغييرات الرئيسية المتعلقة بالسلوك الإجرامى، أى بمعناها ودورها المتاح فى التغيير الاجتماعى، فضلا عن الحالة التى تؤدى الدولة وظائفها بالنيابة عن مصالح الطبقة التى تؤيدها، وهى فى هذه الحالة الطبقة البرجوازية، وعلى سبيل المثال يمكن أن نتساءل : هل السلوك الإجرامى يعنى أنه تأييد للرجعية السياسية ؟ وهل الأشخاص المجرمون هم ضحايا أم أنهم أشخاص متمردون ؟

والملاحظ كذلك أن علم الإجرام الراديكالى يهتم أول ما يهتم فى ضوء عوامل وجوده، بدراسة مصالح الدولة، وأن حواراته ومناقشاته تدور حول هذه المصالح من حيث إنها تخدم الدولة وتيسر وجودها عن طريق الوعى الطبقى أو يكون ذلك عن طريق التعسف البنائى الموجود فى المجتمع. (انظر سيد عويس : المعجم العربى فى العلوم الاجتماعية، المركز الإقليمى العربى للبحوث والتوثيق فى العلوم الاجتماعية).

وبالإضافة إلى ماذكرته من قبل أرجو أن يسمح لى القارئ الكريم بأن أذكر بعض القضايا التى تتصل به، وهى قضايا وصلت إليها فى ضوء نتائج احدى الدراسات العلمية التى قمت بإجرائها وهى :

– إن تقدم العلوم المادية (علوم الفيزياء والكيمياء والميكانيكا مثلا) يكون له أثر فعال على الإنسان فى علاقته مع نفسه ومع الناس الذين من حوله.

– إن معنى ذلك أن العلوم المادية تسبق عادة العلوم الإنسانية (علم الإجتماع وعلم النفس الاجتماعى وعلم الخدمة الاجتماعية مثلا) التى تتعلق مباشرة بالسلوك الإنسانى على وجه الخصوص.

– إن العلوم المادية وغير المادية تزدهر فى ظل الظروف الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية المواتية، وهى أيضا فى تطور مستمر وتتجدد على مر الأيام.

– إن تباين تقدم العلوم غير المادية ومنها علم الإجرام فى المجتمعات البشرية لا يرجع عادة إلى المستوى الذى بلغته العلوم المادية ولكن أيضا إلى الواقع الحى لهذه المجتمعات وعلاقة كل مجتمع بالمجتمعات الأخرى المتقدمة

منها والنامية، فضلا عن واقع الثقافات السائدة فى هذه المجتمعات وتاريخ كل مجتمع منها.

- إن التكامل الثقافى بين العلوم المادية والعلوم غير المادية أصبح قضية لا يختلف عليها اثنان. (انظر سيد عويس : علم الإجرام : دراسة مقارنة، دراسة علمية غير منشورة، عام ١٩٨٦).

وفى ضوء نتائج احدى الدراسات العلمية التى قمت بإجرائها وموضوعها "حول عقوبة الإعدام فى مصر" (المجلة القومية الجنائية - العدد ٢ - ٣ يونيو - نوفمبر ١٩٧٨، صفحات ٩٣ - ١١٧) اتضح لى مايلى :

- إن فئة المجرمين بعامة هم نتاج المجتمع الذى ولدوا فيه ويعيشون. فالمجتمع أى مجتمع كما يستحق المواطنين الصالحين الذين يضمهم فهو أيضا يستحق المواطنين الصالحين (ومنهم المواطنون المجرمون) الذين يوجدون فيه.

- إن جريمة القتل جريمة خطيرة وينفر منها المجتمع الإنسانى مافى ذلك من شك، وذلك لأن المجتمع يخسر الشخص الذى قتل أو الأشخاص الذين قتلوا، ومع ذلك فالملاحظ أن القتل فى المجتمعات الإنسانية لا يحدث بالضرورة كمخالفة لقانون العقوبات، فالحروب والفيضانات والزلازل وحوادث الطيران وغيرها كحوادث المرور تسبب قتل الأبرياء وغير الأبرياء من الأطفال والشباب والرجال والنساء.

- إن القتلة العاديين الذين يدانون ويحكم عليهم بعقوية الإعدام لا يختلفون كثيرا عن القتلة الآخرين من الأشخاص الطبيعيين كالقتلة فى الحروب وحوداث المرور مثلا، ولا يعني ذلك أن يترك القاتل العادى الذى يمثل أمام المحكمة ويدان وشأنه، بل يجب أن تدرس حالته حتى نصل إلى بعض الحقائق عن شخصيته لكي نيسر له إعادة تنشئته إلى حظيرة الإنسانية مواطنا صالحا يحب السلام ويدعو إليه، ولكى يزداد فهمنا للنفس البشرية مما يسر عمليات التنشئة السوية للمادة البشرية في المجتمع ووقاية أعضائها من الجريمة والجناح والأنماط الأخرى التى تكون مادتها العنف بألوانه المختلفة.

- إن القاتل العادى أو حتى غير العادى (أى الذى يقتل وهو يحارب بدافع الوطنية أو الذى يرتكب جريمة قتل خطأ أيا كانت مثلا) لا يمكن أن يحاسب ويعاقب، فيعدم الأول ويسجن أو يعتقل الثانى مثلا على أساس أنه يملك مايسمى بالإرادة الحرة، ومن ثم فهو مسئول عن تصرفاته وأفعاله. ذلك أنه لا يوجد إنسان يملك هذه الإرادة الحرة، وأن ردع المجرم الذى يعدم لا طائل فيه وردع الآخرين لا يثبته الواقع، فالجرائم لا تزال ترتكب سواء أكانت جرائم قتل عمد ارتكبت مع سبق الإصرار والترصد أم غيرها كالضرب الذى أفضى إلى الموت والسرقة بالإكراه، والتزوير والتجسس.. إلخ. صحيح أن الإنسان منا "البالغ" لديه إرادة ولكنها ليست حرة حرية مطلقة. إنها محدودة فى ضوء الإمكانات والقدرات. والملاحظ أن القدرات الإنسانية قد تكون منتظمة أو غير منتظمة، والقدرة المنتظمة هى التى تستند إلى العلم، أقصد التى تستند إلى الفهم الموضوعى للظواهر الإنسانية أو المادية، وذلك فى ضوء التعرف على القوانين التى تحكم هذه الظواهر الإنسانية أو المادية، ومن ثم نرى ان قدرة الإنسان المنتظمة هى قدرته التى تيسر التغيير إن اقتضت الضرورة هذا التغيير.

- إن الأحكام بعقوبة الإعدام قد زادت بعد عام "١٩٥٢" (أى فى خلال الفترة من "١٩٥٣" إلى عام "١٩٧٣") عنها قبل ذلك (أى فى خلال الفترة من عام ١٩٣٢ إلى ١٩٥٢) ومن ثم فإن الأشخاص الذين حكم عليهم بالإعدام فى الفترة الأولى قد زاد عددهم، وكانت نسبة من حوكم من هؤلاء أمام محاكم استثنائية مثل المحاكم العسكرية، ومحاكم أمن الدولة العليا ومحكمة الشعب، ومحكمة الثورة فى خلال فترة الدراسة العلمية الحالية (أى من عام "١٩٢٣" إلى عام "١٩٧٣" نحو ١٦,٣٪ من الحالات التى عرفت فيها جهة صدور الحكم بالإعدام شنقا أى ٨٩ شخصا من ٥٤٦ شخصا) وقد حوكم ٧٠ شخصا من الـ ٨٩ شخصا فى الفترة من عام (١٩٥٣ إلى عام ١٩٧٣)، أى بعد عام ١٩٥٢ بنسبة نحو ٧٨,٧٪ أما الباقى وقدره ١٩ شخصا بنسبة نحو ٢١,٣٪ فقد حوكموا أمام محاكم استثنائية فى خلال الفترة من عام "1932" إلى عام "١٩٥٢".

- ليس كل من يرتكب جريمة قتل أو جرائم أخرى تستحق، فى ضوء قانون العقوبات المصرى، عقوبة الإعدام يحكم عليه إذا ما أدين بالإعدام، وليس كل من يحكم عليه بالإعدام بالضرورة ينفذ فيه هذا الحكم.

- إن عددا من الذين حكم عليهم بعقوبة الإعدام من المواطنين المصريين فى خلال فترة الدراسة الحالية ونفذ فيهم هذا الحكم، لا يعتبرهم الكثيرون فى ضوء تغير الظروف الاجتماعية والسياسية مذنبين. بل هم فى نظر هؤلاء أبطال وشهداء، والأمثلة على ذلك عديدة، ومن حق القارئ الكريم أن يأخذ بما يراه هؤلاء أو لا يفعل ذلك، ومهما يكن من الأمر فإن المجتمع المصرى بإعدامهم قد خسر، فى رأيى، حتما النفع الاجتماعى الذى يكمن بالضرورة فى شخصية كل منهم، وهو نفع فى ضوء مستواهم الثقافى والاجتماعى، وفى ضوء الاهتمام العام الذى كان يملأ نفوسهم سواء كان اهتماما بالعقيدة أو بالوطن أو بالفكر، وفى ضوء العصر الذى عاشوا فيه، وماتوا نفع ثمين مافى ذلك من شك.

وبالإضافة إلى ما سبق فإننى أذكر أنه فى ضوء وقائع التاريخ نجد الكثير من المفكرين وأصحاب العقائد والمثل العليا قد أدينوا ظلما وحكم عليهم بالموت. فقد استقبل حياة الخلود كل من المعبود المصرى القديم "أوزوريس" (أول الشهداء) والفيلسوف "سقراط" (٤٦٩ - ٣٩٩ ق. م)، والقديس "مرقص البشير" (٦٨م) والإمام على بن أبى طالب (٢٣ قبل الهجرة - ٤٠ هجرية، أى حوالى ٦٠٠ - ٦٦٠م) والإمام الحسين بن على (أبو الشهداء ٦٢٥ - ٦٨٠ م) والإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت (٦٩٩ - ٧٦٧ م) والفيلسوف "جيوراندو برونو" (١٥٤٨ - ١٦٠٠ م) لأنهم وقفوا صامدين يدافعون عن عقائدهم وأفكارهم وكأن لسان حالهم كما قال سقراط لقضاته : ".. سيذهب كل منا فى طريقه، أنا فى طريقى إلى الموت، وأنتم فى طريقكم لتعيشوا، والله يعلم أى الفريقين أهدى سبيلا، وكما قا الإمام على بن أبى طالب لابنه الحسن فى شأن ضاربه "أبصروا ضاربى، أطعموه من طعامى، واسقوه من شرابى، وإذا أنا مت فلا تغال فى كفنى، وكبر على سبعا، وفى رواية خمسا، وغيب قبرى"

والتاريخ يزخر بغير هؤلاء الأبطال، التاريخ القديم والتاريخ الحديث، والحديث عن صرعى التفرقة العنصرية أو التفرقة الدينية، والمعتقلات، والسجون، أصحاب الرأى والعقيدة، طويل طويل طويل، فنحن فى عصرنا الحالى نعيش خبراتهم فى كل يوم بل فى كل لحظة، ولعل ذلك يرجع إلى ماذكره "العقاد" فى كتابه (العبقريات الإسلامية، المجلد الثانى، بيروت، دار الكاتب اللبنانى صفحة ١٥٩) ".. مسكينة هذه الإنسانية !.. لا تزال فى عطش شديد إلى دماء الشهداء، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الأثرة والأنانية ونسيان المصلحة الخالدة فى سبيل المصلحة الزائلة، أو لعل العطش الشديد إلى دماء الشهداء يزداد فى هذا الزمن خاصة دون سائر الأزمنة الغابرة، لأنه الزمن الذى وجدت فيه الوحدة الإنسانية وجودا ماديا فعليا وأصبح لزاما لها أن توجد فى الضمير وفى الروح كما وجدت فى الخريطة الجغرافية وفى برامج السفن والطائرات "

وقد يلخص هذا وربما يؤكده ما ذكره "صلاح عبد الصبور" مؤلف المسرحية الشعرية "مأساة الحلاج" (*) (الحسين بن منصور الحلاج : ٨٥٨ - ٩٢٢ م) الذى كان مشغولا بقضايا مجتمعه فوقفت الدولة ضده وصلبته فى احدى ساحات بغداد ولسان حاله :

"كان يقول :
إذا غسلت بالدماء هامتى وأغصنى
فقد توضأت وضوء الأنبياء
كان يريد أن يموت، كى يعود للسماء
كأنه طفل سماوى شريد
قد ضل عن أبيه فى متاهة المساء
كان يقول :
كأن من يقتلنى محقق مشيئتى
ومنفذ إرادة الرحمان

(*)(انظر كتاب: صلاح عبد الصبور، مأساة الحلاج، مسرحية شعرية، بيروت منشورات دار الآداب، ١٩٦٥، صفحات ٢٠-٢٢)

لأنه يصوغ من تراب رجل فان
أسطورة وحكمة وفكرة
كان يقول :
إن من يقتلني سيدخل الجنان
لأنه بسيفه أتم الدوره
لأنه أغاث بالدماء إذ نخس الوريد
شجيرة جديبة زرعها بلفظي العقيم
فدمت الحياة فيها، طالت الأغصان
مثمرة تكون في مجاعة الزمان
خضراء تعطى دون موعد، بلا أوان
وحين أسلمه السلطان للقضاء
ورده القضاة للسلطان
ورده السلطان للسجان
ووشيت أعضاؤه بثمرة الدماء
تم له ماشاء
هل نحرم العالم من شهيد ؟
هل نحرم العالم من شهيد ؟

4- ظاهرة الشعور بالعداوة وبعض أنماطها وعواملها :-

تحدثت قبل ذلك عن "مفهوم العنف" وذكرت أن العنف هو سلوك عدواني، أو هو وليد الشعور بالعداوة. وذكرت أيضا أن الشعور بالعداوة قد يوجه ضد الطبيعة أو يوجه من أفراد إلي أفراد أو من أفراد إلي جماعات منتظمة أو من جماعات منتظمة إلى جماعات أخرى منتظمة.

وفي ضوء ما سبق نجد أن مفهوم "الإرهاب" بمعنى السعي للحصول على السلطة والسلطان بالقوة والعنف، سواء أكانت الجماعات القائمة بهذا الإرهاب من الأقليات أم كانت من جماعات الأغلبية – موجود في كل زمان ومكان، ولكن الملاحظ أن الإرهاب، الذي يواكبه العنف بالضرورة، يستشري في دول العالم في الوقت الراهن، وبفضل وسائل الإعلام العديدة

التى جعلت من العالم الذى يعيش بنو البشر بين جنباته مجرد قرية صغيرة، أصبح الإرهاب يكاد أن يوجد فى كل مكان فيها. فهو موجود فى الوقت الحاضر فى جميع قارات العالم.

وفى ضوء الواقع نلاحظ أن أساليب الإرهاب متنوعة، فقد يستعمل الإرهابيون كل أنواع وسائل العنف (المتفجرات واختطاف الطائرات أو البواخر أو الأسلحة النارية مثلا). ونحن نلاحظ أن كل جماعة من جماعات الأقليات أو جماعات الأغلبية يرى أعضاؤها أن أهداف إرهابهم مشروعة : كل من وجهة نظره. وإذ أتساءل عن هذه وجهة النظر، لكى أيسر على القارئ الكريم التعرف على ماسبق ذكره، السؤال الضرورى وهو : الإرهاب الذى يستخدم الوسائل العنيفة المتنوعة ضد من ؟ فإننى أجد كما يجد غيرى أن الإجابة عن هذا السؤال تكون فى العادة إجابة متحيزة ! وذلك لأننا نلاحظ أنه باسم "الوطنية" مثلا تشن الحروب التى يكون ضحاياها الملايين من البشر، والتى تدمر الحضارات وتقف فى بعض الأحيان أو فى الحقيقة فى الكثير من الأحيان فى سبيل ازدهارها وتنميتها، فضلا عما تجلبه من الهلع، والدمار النفسى للأطفال، وكبار السن، والمعوقين، والمعوقات.. إلخ (انظر سيد عويس : المعجم العربى فى العلوم الاجتماعية، المركز الإقليمى العربى للبحوث والتسويق فى العلوم الاجتماعية)

وأود أن أعترف للقارئ الكريم أن الموضوع الحالى لا يقصد أن يتحدث عن مفهوم الإرهاب، ولكن هدف أهدافه التحدث عن ظاهرة الشعور العدوة، وبعض أنماطها وعواملها. ولولا أن الصلة وثيقة بين هذا المفهوم وبين ارتباطه بظاهرة الشعور بالعداوة التى هى كما سبق أن أوضحت معناها، فإننى أرجو أن ألا يمل القارئ الكريم من هذا التكرار وإن كنت مازلت مصرا على موقفى من هذا الرجاء.

وأنماط الشعور بالعداوة عديدة. نلاحظ وجود هذا الشعور وهو يوجه من الذات إلى خارجها، وفى هذه الحالة يعمل على مستويات معينة. منها مستوى الشعور بالعداوة المركز على أشخاص. معينين، ومنها مستوى الشعور بالعداوة المركز على جماعات معينة أو مستوى الشعور بالعداوة

الجماعى، وهناك مستوى آخر لهذا الشعور يوجه عادة ضد الذات من داخلها، وقد ذكرت من قبل أمثلة على هذا المستوى منها الانتحار مثلا.

ومن أنماط الشعور بالعداوة ما يعتبر عدوانا مزاغا او منحرفا، أى أنه لا ينعكس ضد المصدر الأصلى بل يحيد عنه وينحرف ضد مصدر آخر بديل، ويعتبر هذا النمط من الشعور عاملا هاما من عوامل الصراع العنصرى أو الصراع الثقافى، ومن الظروف التى تحدد هذا النمط نجد ألوان الإحباط أو الحرمان التى تفرضها بعض المصادر الغامضة أى المصادر التى يصعب تعريفها أو تحديدها، أو تلك التى يفرضها الأشخاص الذين يكونون من ذوى النفوذ والسلطان على الشخص الذى يمارس هذا النمط من الشعور الذى تفرضه المنظمات الثقافية الاجتماعية ذات النفوذ والسلطان، أو التى يفرضها اشخاص يرتبط هذا الشخص بهم عاطفيا أرتباطا وثيقا (الأشخاص المتطرفون سواء كان تطرفهم سياسيا أو دينيا أو اجتماعيا مثلا). ومن الظروف التى تحدد هذا النمط تلك التى تمنع ألوان الشعور بالعداوة المثارة من التعبير المباشر تجاه مصادر الإحباط الأصلية، وبخاصة عندما يكون بديل الهدف الأصلى للعدوان متاحا، ويكون واضحا ومن الممكن مهاجمته، بمعنى أن يكون فى وضع لا يمكنه من رد العدوان.

ويبدو أنه فى حالة العدوان المباشر نجد، دائما، قدرا من العدوان المزاغ يصاحبه والذى يضيف إلى قوة منطقية الإعتداء قوة إضافية.

ونجد من أنماط الشعور بالعداوة نمطا، آخر، واسع الانتشار، وهو نمط متكرر وعلى جانب من الأهمية، وهو أيضا نمط من أنماط التكوين العاطفى فى المجتمع الإنسانى، ونلاحظ هذا النمط فى سهوله، وفى يسر على مستوى البديهيات، والأمثلة العادية عليه عديدة. منها مثال الطفل الذى يعاقبه والده أو تعاقبه والدته فنراه يدمر لعبته او يقسو على الحيوان الأليف، ومنها مثال الموظف الذى يعامله رئيسه معاملة مهينة فنراه يعكس هذه المعاملة على أعضاء أسرته. ومنها مثال رجل الأعمال الصغير الذى يواجه الفشل فنراه ينضم إلى احدى الحركات المعادية للأقليات..

ومن عوامل الشعور بالعداوة، من حيث زيادة هذا الشعور ومن حيث انخفاض نسبته، عامل الإحباط أو احدى دلالاته أو حتى وظيفة من وظائفه.

فنحن نلاحظ فى ضوء ظروف معينة أنه كلما ازداد إحباط رغبات إنسانية عامة عند شخص معين أو عند اشخاص معينين أو إحباط حاجات اجتماعية لهم – كلما ازداد الشعور بالعداوة عندهم، ومن الملاحظ أن الإحباط. من حيث اثاره المترتبة عليه يتباين. فقد يكون مجرد "حرمان من حاجة من الحاجات التى يحتاجها الإنسان عادة أو قد يكون إحساسا بـ "تهديد شخصية هذا الإنسان" ومن المتوقع ان ينتج أشد ما يكون من ألوان الشعور بالعداوة عن ألوان من الإحباط التى تتضمن بعض السمات منها تلك التى تقف حائلا أمام الآمال العادية أو أمام التوقعات العادية التى تعتبر من الناحية الأدبية توقعات منطقية، ومنها تلك التى تولد الإحساس بأنها غير ضرورية ومن الممكن تجنبها، ومنها تلك التى تعتبر تهديدا لنظام أمن الشخصية الإنسانية كلها، أى تهديد لإحساس الشخص بمكانته الاجتماعية، وهذا يختلف الضرورة عن مجرد حرمان الشخص من حاجة من حاجاته الجزئية.

ويعتبر الشعور بالعداوة، كذلك أحد وظائف الشعور بعدم الأمان فنحن نلاحظ فى حدود معينة، انه كلما ازداد بعدم المان كلما ازداد الشعور بالعداوة، وفى ضوء نتائج بحوث ودراسات علوم الاجتماع، والنفس الاجتماعى، والطب النفسى نجد أن الأشخاص الذين يشعرون بعدم الأمان هم أنفسهم الذين يعبرون عن الشعور بالعداوة ضد الآخرين.

ويلاحظ أن القلق المرضى قد يتولد عادة من الشعور بالعداوة المكبوت وهو الشعور بالعداوة، والمثل الواضح فى المجتمع المصرى المعاصر ما يعانيه اعضاء هذا المجتمع من الشباب وبخاصة الذين فى الفئة العمرية من سن ١٥ إلى سن ٢٥، فى ضوء الظروف الاقتصادية والثقافية الاجتماعية والسياسية، من هذا القلق المرضى. فهم أى هؤلاء الشباب يعانن ليس فقط من هذا النوع من القلق ولكن من امور اخرى منا عدم وضوح الرؤية، ومنها عدم وجود القدوة الحسنة، ومنها عدم الاهتمام بإشراكهم فى تقرير مصيرهم، وتنفيذ الخطوات الضرورية لتحقيق هذا المصير من أجلهم ومن أجل من يأتى من بعدهم الذى يؤكد لهم المستقبل المشرق.

وقد يتخذ الشعور بالعداوة أشكالا متباينة عديدة ولكنها محددة، وتكون بالضرورة نتاجا لأنماط معينة من المواقف الاجتماعية التى ذكرت بعضها

فى الفقرة السابقة. مع ملاحظة أن العدوان إذا كان علنيا أو حتى إذا كان مقنعا لايكون بالضرورة هو الاستجابة الوحيدة الممكنة لتحقيق التكيف الاجتماعى، وذلك لأن "الانسحاب، والسلبية والتسامى، والاسترضاء، والهروب، وغيرها من الاستجابات مثلا" قد تكون فى بعض الأحيان ذات أثر فعال فى إضعاف البواعث العدوانية عند الذين يتعرضون للحرمان أو للتهديد. ومهما يكن من الأمر فإنه قد يكون العداون العلنى أكثر إرضاء عند الشخص من العدوان غير العلنى. وأن تكرار الاستجابات البديلة قد يتناسب طرديا مع قوة الاستجابات المتوقعة بالنسبة لتوقيع العقاب على العدوان، وأن تكرار الاستجابات البديلة قد يتناسب عكسيا مع القوة الحافزة للإستجابه التى تتعلق بتحقيق هدف معين وتكون قد أحبطت، وأن العدوان المباشر، يفترض مع كل ذلك، أن يكون أكثر إرضاء عند الشخص من العداون غير المباشر.

وفى ضوء خبراتى فإننى أرجو أن يسمح القارئ الكريم بأن أذكر إحدى التجارب التى مرت على عندما كنت أدرس للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة بوستن فقد نصحنى أستاذى "ألبرت موريس" رئيس قسم الاجتماع والانثروبولوجيا بهذه الجامعة لأنضم إلى جماعة من طلبة الدراسات العليا بالجامعة لدراسة مادة العلاج الجماعى تحت إشراف الدكتور "روبرت و هايد" وكيل المستشفى السيكوباتى بمدينة بوستن فى خلال المدة من يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٥ إلى يوم ٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٥. وكانت هذه الجماعة عشرة أعضاء كنت واحدا منهم، وكان موضوع البحث الذى كان على هؤلاء الطلبة أن يقوموا بإجرائه جماعيا "الشعور بالعداوة "

وكان من نتائج هذا البحث الجماعى بعض أساليب التعبير عن هذا الشعور، وقد استطاعوا أقصد أعضاء اللجنة وقد ضم إليهم الدكتور المشرف، ومساعده الوصول إلى ثلاثة وعشرين أسلوبا من أساليب التعبير عن الشعور بالعداوة هى :

الإثارة - كون الشخص متسلطا - التعبيرات البدنية - المعارضة المطلقة - مركز الانتباه - التمييز ضد - المعاملة فى غير احترام مع الأنانية - إرباك الآخرين - التعبير عن الإحساس بالسمو - المزاح -

الأسلوب العقلى - المعاملـة النفعيـة - الجـزع الزائـد علـى الحـد - الاعتـداء البدنى - الوقاحة - الإسقاط - التحكم التام مع التسليم بذلك - تحميل شخص ضعيف خطايا غيره - عقاب الذات - المعاملة الصامتة - إفسـاد ذات البيـن - لهجة الحديث - الإذعان دون اقتناع.

والملاحظ أن أعضـاء الجماعـة المذكـورة قـد انتهوا إلـى أن التعبـير السليم عن الشعور بالعداوة، وإن كان مجرد اقتراح قدمته الجماعـة لتجربتـه، ومحاولة إثبات فعاليته عن طريق التجربـة يتفـق إجمـالا دون مـا تفصـل مـع مضمون الآية القرآنية الكريمة :

"ولا تستوى الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينـك وبينه عداوة كأنه ولى حميم" (*) (٣٤ ك فصلت : ٤١)

(*) (نظر كتاب : سيد عويس، محاولة فى تفسير الشعور بالعداوة، القاهرة دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٨ صفحتا ١٠٥:١٠٦ وصفحة ١١٧)

أمثلة حية معاصرة
عن بعد أنماط العنف

٥- حول مشكلة الانتحار

على الرغم من أن المصريين الأقدمين كانوا يعملون كل ما يستطيعون من أجل الخلود أى لكى يحيوا بعد الموت، وعلى الرغم من أن فكرة الحياة بعد الموت احتلت فى أنفسهم المكانة العظيمة، وعلى الرغم من أنهم كانوا يخلدون الروح فى قول، وكانوا يؤمنون بالقيامة والبعث وفى كلتا الحالتين كانوا يؤمنون بالخلود الشخصى بعد الموت

وعلى الرغم من أن المصريين المسيحيين يؤمنون أيضا بالحياة بعد الموت، حيث يرجع "التراب" (أى الجسد) إلى الأرض كما كان وترجع الروح إلى الله الذى أعطاها "جامعة ١٢:٧ "

وعلى الرغم من أن المصريين المسلمين يجمعون على أن الموت ليس بعدم محض، وإنما هو انتقال من حال إلى حال.

وعلى الرغم من أن العنف هو عدو السلام وأن الدعوة إلى السلام هى دعوة إلى الحياة، وأن حفظ الحياة هو هدف الأهداف.

على الرغم من كل ما سبق نلاحظ فى ضوء ما تحدثت عنه عن موضوع "متصل السلوك العدوانى الإنسانى" (أنظر : ثانيا رقم ٣ من الكتاب الحالى) فإننا نجد من المصريين من يحاولون الانتحار أو ينتحرون فعلا. صحيح أن عدد هؤلاء وأولئك عدد قليل فى ضوء إحصاءات تقارير الأمن العام السنوية، ولكننا نجدهم من حين إلى حين باستمرار أى على مر السنين والأعوام، ولعل قلة عدد من يحاولون الانتحار أو ينتحرون فعلا من المصريين سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين الذين يمثلون الوحدة الوطنية فى بلادنا العزيزة. ترجع إلى التراث الذى ذكرته آنفا، وترجع أيضا إلى تعاليم الديانة المسيحية وإلى تعاليم الديانة الإسلامية.

والملاحظ أن الأساليب المستخدمة فى الشروع فى الانتحار أو الانتحار فى بلادنا تعكس ما وصل إليه المجتمع المصرى من مستوى تكنولوجى. فالمصرى الذى يشرع فى الانتحار أو حتى الذى ينتحر يستخدم أساليب لايستخدمها الإنجليزى أو الروسى أو الأمريكى أو اليابانى. وبالمثل نجد أن عوامل الشروع فى الانتحار أو الانتحار عوامل متباينة وذلك لأن العناصر الثقافية التى توجد فى كل مجتمع من المجتمعات التى يعيش فيها المصرى والإنجليزى والروسى والأمريكى واليابانى متباينة كذلك.

وكان أول عهدى بدراسة ظاهرة الانتحار دراسة علمية عندما كنت أدرس الدراسات العليا للحصول على درجة الدكتوراه. كان على أن امتحن امتحانا أترجم فيه فصلا من فصول كتاب باللغة الفرنسية إلى اللغة الإنجليزية، وطلب منى أن أقرأ كتاب "أميل دوركايم" عالم الاجتماع الفرنسى عن "ظاهرة الانتحار" باللغتين الانجليزية والفرنسية" (لغته) الأصلية) وإننى أذكر أننى كنت أفعل ذلك كل يوم لمدة ساعة لفترة ثلاثة شهور، وكنت اقتدى بعلى ماهر الذى لم يكن يعلم عن اللغة الألمانية شيئا واضطر ليتعلمها عندما شكلت لجنة وضع الدستور عام ١٩٢٣ لكى يطلع على الدستور الألمانى للإفادة منه. كان على ماهر قد فعل مافعلته. أقصد أننى فعلت ما فعله على ماهر، وهذا طبعا مع الفارق. كان على ماهر يفعل مافعل عن طواعية فلم يكن أمامه اتحان فى اللغة الألمانية، وكنت مضطرا لأذاكر اللغة الفرنسية حتى اجتاز امتحان الترجمة المطلوب منى قهرا.

وقد درس "دوركايم" مشكلة الانتحار فى مظهرها الاجتماعى، وذلك من خلال ما يكشف عنه تحليل الإحصاءات الرسمية من تكرار حدوث الشروع فى الانتحار فى مجتمع معين، وفى وحدة زمنية محددة أو على مدي أكثر من وحدة زمنية واحدة، واقتضى منهج دوركايم الإشارة إلى دلالة هذا التكرار وتغايره زمانا ومكانا فى مجتمع واحد أو أكثر، وارتباطه أو مصاحبته لظواهر أو مشاكل أو تغيرات اجتماعية تجرى أحداثها فى نفس الفترة الزمنية أو تسبقها بقليل على مسرح المجتمع موضع الدراسة.

وقد انتهى "دوريكايم" فى دراسة ظاهرة الانتحار إلى تصنيف معين بعد أن حاول أن يعرف ظاهرة الانتحار بما يلى :

"إصطلاح ظاهرة الانتحار يطبق على أى موت يكون نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لفعل إيجابى أو سلبى قام به المجنى عليه نفسه "

ولكن "دوركايم"لاحظ أن هذا التعريف غير كامل فأعاد صياغته فيما يلى :

"اصطلاح ظاهرة الانتحار يطبق على جميع حالات الموت التى تكون نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لفعل إيجابى للمجنى عليه نفسه الذى يعلم أنه سيحدث هذه النتيجة"

أما اصطلاح ظاهرة الشروع فى الانتحار فقد عرفه بمايلى :

"هو الفعل الذى لا يصل إلى حد حدوث الموت فعلا"

وقد أكد "دوركايم" على أن التعريف الأخير لا يمكن أن ينطبق على الحيونات.

وقد انتهى "دوركايم" فى دراسته عن الانتحار إلى التصنيف التالى :

- الانتحار الأثرى (الذى يرتكبه الشخص الأنانى أو المحب لذاته) ويرى "دوركايم" أن هذا النمط من الانتحار يكون ناتجا عن عدم تكامل شخصية الفرد فى المجتمع الذى يعيش فيه.

- الانتحار الإيثارى (الذى يرتكبه الشخص مفضلا غيره على نفسه) : ويرى "دوركايم" أن هذا النمط من الانتحار يبدو على صور الاستشهاد والتضحية والفداء وموت الجنود فى الحروب باسم الوطنية وبقصد استعمار الآخرين واستعبادهم.

- الانتحار اللامعيارى : ويرى "دوركايم" أن هذا النمط يظهر فى فترات الاضطراب واختلال التنظيم الاجتماعي وخصوصا فى خلال الثورات والتغيرات الاجتماعية الحادة وتحت وطأة الأزمات الاقتصادية حيث تهتز القيم ذات الأهداف الحميدة وتضطرب عناصر الثقافة فى المجتمع، وقد وصل دوركايم إلى فكرة اللامعيارية فى دراساته الأخرى حتى أصبحت تستخدم فى تحليل عدد من المشاكل الاجتماعية الشخصية، وأعطاها مضمونا عكس مضمون التضامن الاجتماعى، فإذا كان التضامن الاجتماعى يعبر عن

حالة من التكامل الأيديولوجي الجمعى، فإن اللامعيارية تعتبر حالة من التخبط وانعدام الأمن وفقدان المعايير الأمر الذى تصبح معه التمثلات الجمعية منهارة تماما.

ومن الأمثلةالتى ذكرها "دوركايم" بهذا الصدد مثال الغنى المفاجئ فهو يرى أنه أحد الدوافع إلى الانتحار على أساس أن الفرد الذى أصبح غنيا ولم يكن يتوقع ذلك لا يستطيع ان يكافح الفرص الجديدة التى اتيحت له، ومن ثم فإن حدود رغباته العالية أو المنخفضة التى كان يرنو إلى تحقيقها، ودرجات سلم حياته، أصبحت كلها قد تزعزت واضطربت.

وضرب دوركايم مثلا آخر عن "الطلاق" وهو يرى أنه إذا وقع الطلاق بين الرفقاء فإن نسبة ارتكاب الانتحار تعلو. وأن الموقف اللامعيارى الذى يواجهه الأزواج المطلقون أصعب من الموقف اللامعيارى الذى تواجهه الزوجات المطلقات. وذلك لأن الأزواج هم الذين يكتسبون أكثر من تأثير الزواج المنتظم.

والملاحظ أن "أميل دوركايم" فى دراساته وبخاصة دراسته عن ظاهرة الانتحار كان فى حقيقة الأمر يؤدى دور عالم النفس الاجتماعى على الرغم من معارضته لعلم النفس. كان فى هذه المجالات فى الواقع يعارض "علم النفس الفردى" وقد تجاهل دوركايم بطريقة منتظمة أهمية "مفهوم القوة" وكان يرى "أن الناس يوافقون على أمور معينة لأنهم ببساطه يرغبون فى ان يوافقوا، ونجد "دوركايم" إذ يتجاهل السلطة أو القوة فإنه يتعمد أن يتجاهل أن التعليم قوة وأن عوامل الإنتاج إذا امتلكها بعض الأفراد لا يرى فى ذلك قوة وكان لايرى القوة السياسية، ومع ذلك فإنه كان اهتمامه يبدو واضحا وهو يتحدث عن "مفهوم الثقافة" وكان يفترض، دون أن يثبت ذلك علميا، أن ثقافة المجتمع ثقافة متجانسة.

ولابد أن أذكر أن "أميل دوركايم" كان رائدا علميا وهو يدرس موضوع ظاهرة الانتحار أو الشروع فيه، ولكننا نحن نعلم فى الوقت الحاضر أكثر مما وصل إليه فى دراسته من نتائج (انظر سيد عويس : ظاهرة الانتحار لأميل دوركايم، باللغة الإنجليزية المجلة الجنائية القومية العدد الأول، مارس عام "١٩٧٢"، صفحات ١١٢ - ١٢٢)

وقد واجهت التفكير فى الانتحار بقصد إيذاء ذاتى عن طريق مواجهة العنف حيث تتنازع الإنسان مناخ هذا الموقف، كمرحلة أولى من متصل السلوك العدوانى الإنسانى الذى ذكرته من قبل، قوتان : قوة القاتل وقوة القتيل معا، قوة الجانى وقوة المجنى عليه وفى وقت واحد. فقد كان تفكيرى بقصد تدمير ذاتى وهدم كيانى وإعدام وجودى. فكرت فى القيام بهذه الفعلة الشنعاء عندما لاحظت بعد عودتى من الخارج فى أواخر شهر مايو عام "١٩٥٦" حاملا درجة الدكتوراه فى جعبتى ولم يتفضل أحد من جماعتى المرجعية بزيارتى حيث كنت اجتاز محنة التعطل ولم يكن لى مصدر مالى أعيش به وأسرتى الصغيرة حياتى الإنسانية، كنت وحيدا وأعزل ومنعزلا، وكادت أن تضطرب صحتى النفسية من جراء ماكنت أعانيه فى ذلك الحين من تناقضات بين حقوقى والتزاماتى وبين الإمكانات التى كانت تحت يدى فضلا عن تصورى لتوقعات الآخرين وبخاصة من أعضاء جماعتى المرجعية. وإننى أذكر أننى كنت ضائعا حقا واحترم أعضائى أسرتى الصغيرة صمتى وعزوفى عن الدنيا.. ووصلت إلى نتيجة حاسمة، وجدتنى فجأة أفكر فى الانتحار وكانت فكرة لم تمكث إلا برهة وجيزة بددها تذكرى لمواعظ أستاذى الشيخ محمود خطاب السبكى حيث كان يندد فى مواعظه بالقتل على وجه العموم (أخذا بالثأر) أو بقاتل نفسه. كان يرى أن هذه الأفعال إن هى إلا جرائم من تعاليم الديانة المسيحية (قتل السيد المسيح عليه السلام مثلا) ومن وجهة نظر تعاليم الديانة الإسلامية، وكان يؤكد رحمة الله جل وعلا على أن تمنى الموت لا يدل على إيمان من يتمناه، ويذكر الأحاديث النبوية التى تفصح عن ذلك، ومنها :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يتمنى أحدكم الموت أما محسنا فلعله يزداد، وأما مسيئا فلعله يستعتب" (متفق عليه)..

وإننى أذكر مجئ إحدى الآنسات إلى "المعهد القومى للبحوث الجنائية" قبل أن يصبح "المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية" وذلك قبل عام "١٩٥٩" وكانت تحمل هذه الآنسة دراسة عن "ظاهرة الانتحار لأميل دوركايم" كتبتها باللغة الفرنسية لترينى كم هى بارعة توطئة لكى

تنضم إلى باحثى المعهد المساعدين فى ذلك الحين. كان قد أرسل هذه الانسة إلى أحد الأصدقاء، ولما أكن ادير المعهد ومن بعده المركز، ولا سلطة ولا سلطان فى يدى فأشرت عليها أن تذهب إلى الاستاذ المدير فلعله يقتنع بشخصيتها ويكون من نصيبها أن تعين باحثة مساعدة، وقد حدث ذلك فعلا ومازالت تعمل بالمركز حتى وقت كتابة هذه السطور.

وقبل أن اختم موضوع الانتحار أود أن أبين للقارئ الكريم ان المصريين القدماء أو بعضهم فى ضوء نتائج احدى الدراسات العلمية التى قمت بإجرائها (عطاء المعدمين : نظرة القادة الثقافيين المصريين المعاصرين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣) أنه لم تكن الحياة فى بلد من البلدان، غير مصر، أكثر جاذبية أو أكثر اشتهاء. ومع ذلك فلا يوجد أيضا بلد من البلدان، غير مصر، أميط اللثام عن الموت، فيه بمثل هذا الوضوح، ومن ثم فلا عجب إذا كان المصريون القدماء قد حملوا إلى درجة التعصب، كراهية ومقتا للموت، وخصصوا جزءا غير صغير من أموالهم لتدبير الطرق والوسائل لغلبته، ولعل هذه الخاصية النفسية الجوهرية، عند المصريين القدماء تكشفها الكلمات الرئيسية للاستغاثة المنقوشة على الكثير من شواهد قبور المملكة المتوسطة، وتحض هذه الكلمت عابرى السبيل على ترتيل الدعوات بالنيابة عن المتوفى :

"أنت الذى تعيش وتبقى، وأنت الذى تحب الحياة وتمقت الموت، كل من يمر على هذا القبر، كما تحب الحياة، وتمقت الموت، لهذا السبب فإنك تهب لى بكل ما فى يديك "

وقد بينت الدراسة المشار إليها أنه إذا كان المصريون القدماء منذ آلاف السنين، فى الماضى السحيق، يخافون الموت ويمقتونه ويكرهونه أحيانا، ولا يخافون الموت ولا يمقتونه ولا يكرهونه أحيانا أخرى، فإن المصريين القدماء، مثل المصريين المعاصرين، كانوا فى معظم الأحيان لا يخافون الموتى (انظر كتاب سيد عويس "الخلود فى التراث الثقافى المصرى" القاهرة، دار المعارف ١٩٦٦، صفحات ٩٢ - ٩٣ و٢٨ - ٢٩ و٤٤ - ٤٥)

والملاحظ أن انتحار الإنسان هو أقصى مراحل إيذاء ذاته، ومع ذلك فإننا نلاحظ أن شرب "القهوة" و"الشاى" و"التدخين" و"تعاطى الخمر" و"تعاطى المخدارت بأنواعها" هى مراحل من مراحل إيذاء الذات، والإدمان عليها يؤكد هذا الإيذاء. والمقصود بمفهوم "الإدمان" هنا فى ضوء تعريف منظمة الصحة العالمية الذى تبنته فى عام "١٩٥٧" أنه :

"حالة التسمم "التخدير" الدورية أو المزمنة الناتجة عن تكرار تعاطى المادة" وتتميز هذه الحالة ببعض الصفات هى :

- رغبة قهرية للاستمرار فى تعاطى المادة والحصول عليها بأية وسيلة.

- الميل إلى زيادة الجرعة.

- ظهور اعتماد نفسى وعادة اعتماد جسمانى للتعاطى.

- تأثير مدمر على الفرد والمجتمع.

وقد تبينت المنظمة المذكورة مفهوما آخر هو التعود ويقصد به :

"الحالة الناتجة عن الاستعمال المتكرر للمادة"

والملاحظ أن سماتها يمكن تمييزها فيما يلى :

- رغبة (ليست قهرية) للاستمرار فى تعاطى المادة لرفع معنويات المتعاطى.

- عدم الميل إلى زيادة الجرعة.

ظهور الاعتماد النفسى إلى حد ما مع عدم ظهور اعتماد جسمانى مطلقا وبذلك لا تظهر أعراض الانقطاع عند عدم الاستمرار فى التعاطى.

ورأى المتخصصون فى مواد العقاقير المخدرة تداخل استعمال هذين التعريفين وأن استعمال تعريف "الإدمان" فى ضوء الصيغة السابقة، يكون فى حقيقة الأمر فى غير موضعه الدقيق حيث إن الإدمان بالصورة الى ذكرت لا ينطبق إلا على عدد محدود جدا من المواد المخدرة مثل "الأفيون والمورفين والهيروين" فى حين توجد مواد مخدرة أخرى لا ينطبق عليها هذا التعريف

'الا أنها أخطر المواد المخدرة التى عرفها القانون مثل مواد "الحشيش والكوكايين والمهلوسات". لذلك فقد رأت لجنة المخدرات بالأمم المتحدة استبعاد هذين التعريفين واستخدام تعريف آخر أكثر شمولا للتطبيق وهو مصطلح "الاعتماد" الذى يقصد به :

"الحالة التى تنشأ من التعاطى المتكرر سواء كان دوريا أو مستمرا"

والنظرية الأكثر شيوعا فى تفسير الاعتماد على "العقاقير المخدرة" تقوم على ملاحظة أن الخصائص الإكلينيكية لأغراض التوقف عن التعاطى تكون فى طبيعتها على عكس الخصائص المهدئة للعقار. (المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية : شعبة المخدرات، دراسة غير منشورة ١٩٨٧).

٦-بعض جرائم القتل :

ويتدرج "متصل السلوك العدوانى الإنسانى" من حالة إيذاء الذات واستخدام العنف فى ذلك للدرجة التى يقتل الجانى نفسه أو يحاول الشروع فى هذا القتل، أو تعاطى أنواع شتى من المكيفات التى تنتهى بفقدان حياته على الرغم من معرفته بذلك، وقد يكون الاعتداء على الاموال بالسرقة أى باختلاس مال منقول للغير أو يكون الاعتداء على الآداب العامة التى تنفر منه قيم المجتمع الحميدة، ويكون الاعتداء على الدولة بالتجسس فى غير مصلحتها.. إلخ. وقد ذكرنا ذلك وغيره من قبل.

ولاجدال فى أن جريمة القتل من أخطر جرائم الاعتداء على الاشخاص، ولقد حرمته جميع الشرائع السماوية والوضعية، واستنكرته جميع المجتمعات فى الأزمان القديمة والحديثة، وقد اهتم الكثير من الباحثين فى مجالات علم الإجرام وعلم النفس الاجتماعى فى البلاد الغربية بدراسة هذه الجريمة محاولين معرفة العوامل التى تؤثر على بعض بنى البشر فتدفعهم إلى ارتكاب هذه الجريمة.

وكان من هؤلاء أستاذى "البرت موريس" الذى آلى على نفسه إجراء بحث عن جريمة القتل، وقد تفضل، وكنت أحد تلاميذه، أن يشركنى فى جمع

مادة بحه، وقد أعد المنهج الذى استخدمه قاصدا أن يكون طريقة لدراسة أنماط الجرائم الأخرى، وكان هذا المنهج يرى أن التعريف القانونى للجريمة، وبخاصة لجريمة القتل، أولى بالاختيار والاعتماد عليه إلا إذا كانت نتائج البحث تعد له بالإضافة إليه أو بغير ذلك، وكان هذا المنهج يهتم اهتماما فى حالات الجرائم (القتل + السرقة + تعاطى المخدرات مثلا) بأسلوب ارتكاب هذه الجريمة , فهو أقصد البروفسور البرت موريس كان يؤكد لنا على أن أسلوب ارتكاب الجرائم يعكس المستوى التكنولوجي للمجتمع الذى ارتكب فيه إحدى الجرائم سالفة الذكر. فالقتل مثلا قد يستخدم فى ارتكابه استخدام المسدس او البندقية، وقد يستخدم فى ارتكابه أساليب آخرى كالدبح أو الضرب بآلة حادة أو بغير آلة حادة أو كالخنق أو يستخدم أسلوب الحريق او القذف من مكان عال أو من عربة وهى تسير، والسم والغرق والصدمة الكهربائية أو الإهمال المتعمد.. إلخ. ويتضمن هذا المنهج الظروف التى تيسر للقاتل أن يرتكب جريمة القتل، فضلا عن السمات التى يتحلى بها القاتل وبخاصة سمات النوع (الذكور والأناث)، ومستوى الذكاء وحالة صحته العقلية، وكان دور المجنى عليه أو عليها موضوع الأهتمام، وكان يرى البرت موريس ان للمجنى عليه دورا فى ارتكاب جريمة القتل وبعض الجرائم الأخرى كالجرائم الجنسية مثلا، وصلة الجانى بالمجنى عليه كان يراها البروفسور موريس تساعد على تفسير ارتكاب جرائم القتل، وكذلك المجتمع الذى نشأ بين جنباته والمناخ الثقافى الذى عاش تحت ظله، فضلا عن الظروف الاجتماعية ككل، فقد كان يرى أن القوى الاجتماعية هى التى تساعد على تغيير السلوك الإنسانى وأهتم منهج البحث بالعواقب الاجتماعية لجريمة القتل وبخاصة ما تعلق منها بحوادث المرور وقتل السياسيين.

ومهما يكن من أمر فإن البروفسور موريس كان يؤكد أهمية دراسة جرائم القتل مرارا وتكرارا إذ كان يقول لمساعديه وكنت واحدا منهم إنها من الجرائم اللامعة اجتماعيا.

وإذا كانت جميع جرائم القتل، كما يذكر ذلك أحد البحوث التى أجراها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية (انظر : المركز القومى للبحوث الاجتماعيية والجنائية : ملامح جريمة القتل، عام ١٩٧٠) - تتضمن

عنصرا من عناصر العنف وذلك لأن الشخص الذى يقتل إنما يقضى على حياة شخص بطريقة إجرامية. فإن هذا البحث فى ضوء نتائجه يرى أن هذا العنف الذى يصاحب القتل يتدرج من حيث الشدة. فالبعض من القتلة تنتهى جريمته بمجرد القضاء على المجنى عليه، ولكن البعض الآخر قد يستمر فى عدوانه على المجنى عليه حتى بعد موته كما يبدو ذلك واضحا فى حالات التمثيل بالجثة.

وذكر البحث المشار إليه فى هذا الصدد تصنيف القتلة تبعا لما قاموا به من عنف فى أثناء ارتكابهم لجريمتهم، وذكر أن التصنيفات التى اتبعها "جاروفالو" تتعلق بالطريقة التى ارتكبت بها الجريمة. فعندما يستخدم القاتل التعذيب أو يطيل فى عملية القتل بقصد إيلام المجنى عليه، فإنه أى جاروفالو على يقين بأن ذلك يرجع إلى قسوة القاتل الفطرية فليس هناك إنسان سوى يستطيع أن يتحمل أنين الضحية أو منظر تشويه الجثة. فالتعذيب فى حد ذاته دليل كاف على انعدام عاطفة الرحمة حتى ولو لم يكن قصد القاتل واضحا، وذكر هذا البحث أن فى بعض الوسائل المستخدمة فى جريمة القتل نوعا من استخدام العنف أكثر من غيره كما فى حالة استخدام الشنق أو الخنق أو الطعن بأداة حادة كالبلطة مثلا فى مقابل استخدام السم.

- شاب قتل مرتين فى مدينة القاهرة :

وفى ضوء إحدى الدراسات العلمية الاجتماعية التى قمت بها عن شاب مصرى فى الثالثة والعشرين من عمره ارتكب جريمتى قتل : الأولى قتل فيها رجلا بالاشتراك مع آخر والثانية قتل فيها احدى السيدات بالاشتراك مع آخرين، وقد حكم على هذا الشاب بالاعدام فى كل من الجنايتين - تبين أن هذا الشاب قد ولد وكان عمر أبيه ٤٥ عاما، وقد ولد بعد ميلاد ثلاث بنات، ويبدو أنه نشأ مدللا ولايحتمل أبواه (وخصوصا والده) أى شخص يمسه بسوء أو إهانة.

وكان فى الأسره أخوه الأكبر، شاب مجتهد، كان محل اهتمام جميع أعضاء الأسره كان متميزا عن أبناء الأسره وبناتها فى كل شئ. فله مدرس خاص ليتعلم الموسيقى وحجرة خاصة منفصلة عن باقى الحجرات، كذلك له دراجة للذهاب بها إلى المدرسة.. إلخ ومن ثم تحدد للشاب موضوع الدراسة،

تعسفيا، مستوى معين من الاكبر الطموح عليه أن يعمل جـاهدا للوصـول إليـه لتحقيق آمال الأسرة.

ويبدو أن هذا الشاب لم يأبه كثيرا للسـعى فـى سبيل تحقيـق مسـتوى الطموح الذى حددته له مكانة أخيه الأكـبر خصوصـا فـى خـلال الفـترة التـى كان أبوه فيها يستطيع ان يرعاه بشخصه واكتفى بالدلال الذى سـمح أبـوه لـه به والذى بلغ حد التساهل فى بعض الأحيان.

إن أسرة الشاب قد كفلت له كل حاجاته المادية والمعنوية حتى تركهـا إلى القاهرة ليعيش مع جدته وأخته وأخيه الأكبر وكان أمل الأسرة أن يقتفـى اثر أخيه الكبر فى التعليم والنجاح فى يسر وسهولة، وفات السرة أن الشـاب كان مدللا كان مستمرا الدلال الذى سمح أبوه له به إلى حد بعيد، إلى حد أنـه استطـاع أن "يعاند" جميع أعضاء الأسرة ومن بينهـم والدتـه التـى كـان يحبهـا وكاد ذات مرة أن ينتحر من أجلها. ونجح الشـاب فـى اسـتخدام سـلاح العنـاد فى مختلف مراحل حياته.

واصبح الشاب بفضـل هـذه المعاملـة الثنائيـة يشـعر ببعـض الكبريـاء الكاذب وأنه شخص مهم أو يجب أن يكون شخصا مهما ولو كـان ذلـك علـى حساب شعور الآخرين ومصالح الاخرين، سواء كانوا أقرب الناس إليه أو لم يكونوا، فمثلا يلعب "بتصاص" صغير وقرناؤه يلعبون "بتصاصات" أكبر هـذا محـال فيسـرق مـن "حصالـة" اخيـه الأصغـر ليشـترى "تصاتصـا" اكـبر ولا يحاسب على ذلك.

واسـتمر الشـاب فـى هـذا السـلوك غـير السـوى، ورفـض ن يجـارى رغبـات الأسـرة فيسـعى فـى سـبيل تحقيـق المسـتوى التعسـفى للطمـوح الـذى حددته له ظروف أخيـه الأكـبر، فبـدلا مـن أن يكـون هـذا الأخ مثـالا يحتـذى صـار مثلا يكره. أى إنه بسبب التمييز فى لمعاملة بين الشـاب وأخيه الأكـبر، ووضع مستوى تعسـفى للطمـوح فـى شـخص الأخ الأكـبر أمـام الشـاب نبـت الشعور بالعداوة عنده ضد الأخ الأكبر.

كره الشاب أخاه ما فى ذلك مـن شـك، خصوصـا عندمـا أصبـح الأخ الأكبر رب الأسرة الحقيقى (أى عندمـا كـان الشـاب فـى الرابعـة عشـرة مـن

عمره ويعيش مع أخيه فى القاهرة) وكرهه. لأنه فى مركز أحسن، فهو طالب فى كلية الهندسة، والشاب مازال فى السنة الأولى الثانوية. كرهه لأنه منافسه، كرهه لأنه أبعد من أن يكون مصدرا للتساهل معه وأخيرا كرهه لأن أصبح مصدر هوانه، فالأخ الأكبر فى حدود قيمه الاجتماعية التى كان يرى أن أهدافها حميدة، لم يعامله المعاملة التى يجب أن تكون. كان يضربه ويسبه وكان يكشف نقاط ضعفه فى عنف وفى قسوة فى بعض الأحيان.

لم يستطع الشاب أن يصادق أخاه الأكبر رب الأسرة ومثله الأعلى المفروض عليه، وفشل الأخ الأكبر فى تقبل الشاب وحبه واحترامه والاعتراف به، فذهب الشاب إلى الشارع (إلى الشلة). فلعله يجد فيها اشباعا لبعض حاجاته التقبل والحب والاحترام والاعتراف به.

ومات الأب، وترك الشاب المدرسة، وسعى الأخ الأكبر إلى أن يلحق الشاب بعمل ثم بعمل، ولكن الشاب يترك كل عمل لأسباب غير مقنعة. إنه ينتقم لنفسه من أخيه الأكبر. انتقم منه قبل موت أبيهما، عندما كان فى المدرسة بالهرب من المدرسة، وانتقم منه بعد وفاة أبيهما عندما كان يترك كل عمل يلحقه الأخ الأكبر به بدون سبب وجيه.

ويعلل الشاب ذلك بقوله إن أخاه الأكبر كان يجعله يحس أمام الناس وخصوصا أعضاء الأسرة "زى الفار" أو "أننى صغير وماسواش حاجة" أو "أنى صغير خالص ماليش صفة"، وأن أخاه الأكبر كان "بيبص لى من فوق تملى! "

ولم يكن الأخ الأكبر وحده يفعل ذلك. بل كان زوج الأخت الكبرى للشاب يخشى من تأثيره على أولاده، ويمنع أولاده من صداقته.

وفى المدرسة كان المدرسون والناظر وحتى الأخصائى الاجتماعى يعاملون الشاب معاملة غير سليمة. من صورها أنه شخص تافه يضرب "الشلوت "

وعن العمل أسأل الشاب لماذا تركه ؟ فيجيب عن ذلك أن أحد المسئولين حاول أن يهزأنى أو "علشان أحفظ كرامتى! "

كان معظم البالغين حول الشاب موضوع الدراسة فى المجتمع الذي كان يعيش فيه، مصادر هوانه واحتقاره وتفاهته، ومن ثم مرارته. فهو لم يجد في الأسرة ما كان يجده عندما كان صغيرا : الشعور بالاهمية. ولم يجد فى المدرسة إلا الاحتقار، ولم يجد فى العمل مايساعده على الا يكون تافها. فذهب إلى الشارع حيث المغامرات، حيث المكانة الاجتماعية تزداد كلما ازدادت هذه المغامرات.

ود الشاب فى الشارع أشخاصا يواجهون إلى حد كبير ظروفا مثل ظروفه : ظروف تشعرهم دائما بأن الحياة فى بعض صورها شئ لا قيمة له، ظروف تذكرهم بأنهم ليسوا أناسا بل مجرد أشياء وأن أعضاء أسرهم ومدرسيهم وأصحاب العمل يعيشون على النفاق وباللنفاق، وان الكثير من آمالهم يبدو سرابا.

إن الشاب وزملاءه الذين اشتركوا معه كانوا يسرقون بالدرجة الأولى بقصد الصرف على المأكل والملبس والظهور بالمظهر الذى حرمتهم الظروف منه. أما ارتكاب جريمة القتل فكان وسيلة وليس هدفا فى ذاته، وهذا يدل على عدم عراقتهم فى ارتكاب جرائم السرقة. فالمجرم الذى يحترف السرقة يهمه أن يسرق فقط، ويحاول ما استطاع أن يجتنب ارتكاب جريمة أخرى بله جريمة قتل أو مشروع فى قتل.

كان الشاب يسرق، وكان يصرف كل ما يسرقه فى إسراف ملحوظ ولعله كان يحاول التعويض عما يحس به من تفاهة أو مرارة.

وربما كان اتهام الشاب بالشذوذ الجنسى صحيحا. مما زاد فى ضوء قيم مجتمعنا فى شعوره بعدم الثقة فى نفسه، وخلق فيه الشعور بالتفاهة والدونية، وربما كان تقبل رفاقه له، على علاته، دافعا على التهور فى المغامرات ومن ثم استهتاره بالقيم الاجتماعية ذات الأهداف الحميدة التى حاولت أسرته "المحافظة" أن تنشئه عليها، والتى لم تجد من يسهر فى محيط الأسرة أو المدرسة أو المنظمة الدينية أو النادى الاجتماعى أو غيرها من أجهزة عمليات التنشئة الاجتماعية فى المجتمع، على تثبيتها فى نفسه وغاصة فى مرحلة المراهقة التى اجتازها تحت سلطان أخيه الأكبر الذى كان فى الحقيقة مصدر معظم عوامل الإحباط التى واجهها الشاب فى هذه

المرحلة، ومن هذه العوامل التميز في المعاملة، وفرض مستوى تعسفي للطموح، والفشل الواضح في تقبل هذا الشاب واحترامه والاعتراف به، ومن ثم كانت كراهيته لأخيه الأكبر، ومايكنه له من الألوان العديدة من الشعور بالعداوة، التي انتقلت بدورها عن طريق عملية الإزاحة أو عملية التحويل إلى العالم الخارجي. اى إلى المتمع دون أن يهيىء المجتمع لهذه الكراهية والألوان العديدة من الشعور بالعداوة عن طريق منظماته الاجتماعية و أجهزة عمليات التنشئة الاجتماعية فيه، تطبيق الأساليب السليمة للتعبير عنها، أو يهيئ المجتمع المنافذ غير الضارة الكافية فيه التي ربما كانت يسرت للشاب أن ينفس عن طريقها، عن هذه اكراهية أو غيرها من الألوان العديدة من الشعور بالعداوة.

ومن ثم نجد تفسير قيادة الشاب لرفاقه وتسلطه عليهم. فقد كان أكثرهم جرأة واستهتارا ولامبالاة لأنه اختير له أن يكون اكثرهم تفاهة وأكثرهم حاجة إلى الشعور بالعداوة، وأن تكون للحياة في بعض صورها، في نظره أقل قيمة (انظر سيد عويس دراسة غير منشورة ألقيت في احتفال لجنة العدالة والسلام مساء يوم الخميس ٢٦ من شهر يناير ١٩٧٨ بقاعة النيل)

- جريمة قتل في المدينة

في صباح يوم ٢٧ من شهر أغسطس عام ١٩٦٠ حمل المدعو (أ) بندقيته المملوءة بالرصاص القاتل، وانتظر السيدة (ر) على محطة "أتوبيس" تقع في أحد شوراع القاهرة المزدحمة، وهي المحطة التي اعتادت السيدة (ر) الركوب منها، وهي في طريقها إلى العمل.

لم يعرف أحد من الواقفين على محطة الأتوبيس أى شئ عن المدعو (أ) أو السيدة (ر) أى عن العلاقات الاجتماعية التي تربطهما أو عما يبيته كل للآخر، لم يعرف أحد عن شخصية كل منهما شيئا، ولم يعرف أحد عما يعتمل في نفس كل منهما شيئا.

وقف المدعو (أ) على محطة الأتوبيس ينتظر وينتظر. وفى نفسه مشاعر جمة، متناقضة متصارعة، لكن لم يلحظ أحد من الناس شيئا، فكل فى طريقه إلى عمله أو فى طريقه لقضاء حاجاته. مثلهم فى ذلك مثل معظم سكان الحضر. علاقاتهم فى أغلب الأحيان غير شخصية وغير قوية، وغير متجانسة.

ولم يطل انتظار (أ) على المحطة. فقد جاءت السيدة (ر) لتأخذ أتوبيسها كالمعتاد فى طريقها إلى العمل، فهى تعمل فى إحدى المصالح، موظفة متواضعة تعمل فى إدارة الحسابات.

وإذا كان أحد من الناس، فى الشارع الواسع المزدحم الذى يقع فى وسط المدينة الكبيرة قد لاحظ هذين الشخصين قبل ان تقع الواقعة، لرأى أن (أ) يتحدث مع (ر) وكأنه يعرض أمورا عليها. أمور هامة عنده يود لو أنها تتحقق فهى تمس كيان نفسه مسا فيه عميق، ولوجد كذلك على وجه (ر) سمات الأمتعاض، وربما سمات التشفى والسخرية، ولو قدر لأحد ان يسمع مادار بينهما من حديث، لعرف انهما كانا على صلة معينة فى وقت من الأوقات، وأنه قد تحطمت هذه الصلة فى الوقت الحاضر، وأنه يرغب لهذه الصلة ان تعود كما كانت حتى تعود إليه نفسه المطمئنة، وحتى يبرأ من بعض الجروح التى المت به، وحطمت كيانه أو كادت، ولعرف أن (ر) ترفض رفضا باتا هذه الرغبة فهى لا تريد إعادة الأمور بينها وبين (أ) إلى مجاريها، بل تطلب منه صراحة أن يبتعد عن طريقها وأن يتركها تأخذ سبيلها فى الحياة دونه.

ولكن لم ير الناس الواقفون على محطة الأتوبيس شيئا ولم يلاحظوا شيئا، وكذلك لم يسمعوا شيئا مما دار من حديث بين كل من (أ) و(ر) ولم يدر الناس الآخرون لذين يسيرون فى الشارع المزدحم أو يلاحظوا شيئا كذلك، ولم يسمعوا شيئا مما دار من حديث بين كل من (أ) و(ر).

لم ير أحد من هؤلاء جميعا البندقية المرخصة المملوءة بالرصاص القاتل التى كان يحملها (أ) ولم يروا يده عندما امتدت إلى هذه البندقية، ولا أصابعه عندما ضغطت على الزناد ست مرات، ولم يروا كذلك الرصاصات الست التى أفرغت فى قلب (ر). ولكن فوجئوا بكل ذلك عندما رأوا شابة

يبدو عليها آثار من ملامح الوسامة الصارخة التـي كـانت، ولا يعدو عمرها الثانية والعشرين سنة، واقعة على الأرض تتخبط فى دمائها، ثم عندما رأوها جثة هامدة لا حراك فيها ويقف على راسها رجل لا يزيد عمره علـى أثنتين وثلاثين سنة، حاملا فى يديه بندقية مازال دخان البارود يخـرج من فوهتها، وكان يبكى بكاء مرا يمزق نياط القلوب. وتطوع حشد منهم للتحفظ عليـه، وسارع آخرون يطلبون شرطة النجدة، وجاء رجـال شرطة النجدة فـى التو والساعة وقبضوا على (أ) بتهمة قتل (ر). وقف (أ) فـى قفص الاتهام أمام محكمـة الجنايـات بالقـاهرة وككل قـاتل علـى صلـة وثيقـة بـالمجنى عليـه أو المجنى عليها، فقد اعترف اعترافا تفصيليا. فهو قد ولـد فـى ميت غمـر منذ أثنتين وثلاثين سنة، ونشأ فيها حتى أصبح يافعـا. ثم انتقل مـع أسرته إلـى القاهرة المدينة الكبيرة وواجه وهو صبى فى الثانية عشرة من عمره أسـاليب حياة اجتماعية جديدة تختلف إلى حد كبـير عـن تلك التـى كـان يواجهها فـى ميت غمر ولكنه لم يصطدم كثيرا، فقد تمكن من التكيف إزاء هذه الظـروف الجديدة، واستطاع بعد أن تـرك المدرسـة وتـأكد مـن معرفتـه مبـادئ القـرءاة والكتابة أن يجد عملا فى صناعة الأحذية وحذق هذه الصناعة واتقنها، وكان طموحا. فلم يرض لنفسه أن يكون صانـع أحذية فقـط. بـل سـرعان مـا تبلـور هدفه فى أن يكون صاحب محل يصنع فيه الأحذية ويبيعها، وعمل فى سـبيل تحقيـق هـذا الهـدف، ونجـح، وأصبـح يملـك محـلا فـى أحـد شـوارع المدينـة المزدحمـة، فـى أحـد الحيـاء الـذى تسـكنه أغلبيـة كبـيرة مـن أعضـاء الطبقـة المتوسـطة مـن التجـار والموظفيـن، كمـا يسـكنه الكثـير مـن أعضـاء الطبقـة العاملة.

تم لـ (أ) كـل ذلـك.. تحققـت آمالـه ووصـل إلـى مـا يصبـو إليـه مـن مستوى معين من الاستقرار الاقتصادى. وأصبح معلمـا يملـك ويـأمر وينظـم أموره بنفسه ويدبر لغيره، بعد أن كـان "اسطى" يعمـل بـالقطع يؤمـر وينظـم ويدبر له. تم له كل ذلك عندما أكمل الخامسة والعشرين من عمره.

وكان اهتمام (أ) بتحقيق استقراره المعاشى شغله الشـاغل. فلـم يفكـر فى الزواج قبل ذلك وإن كان هذا لم يمنعه من أن تكون لـه حيـاة جنسـية، أو على الأقل علاقات معينة مع أعضاء الجنـس الآخـر. فقد كـان شـابا ناجحـا،

وكان حديثه طليا، يتحدث فى لباقة مع عملائه الذكور والإناث. وإن كانت الإناث أكثر أصغاء إلى هذا الحديث، كما كن أكثر اغراء به.

فضلا عن ذلك فقد كان (أ) موضع غبطة مرؤوسية وجيرانه، وحسد زملائه فى بعض الأحيان.

وبعد أن استقر أمر (أ) فى محله الذى يملكه، واستتب له الأمر، وأصبح مقصد العملاء والعميلات يشترون منه أحذيتهم أو يصنعونها أو يصلحونها عنده، رأى (أ) أن يستقر استقرارا من نوع آخر، استقرار ينظم حياته الشخصية فتكون له اسرة يسكن إليها، ويحقق عن طريق بنائها بعض رغباته وآماله كإنسان، وكعضو يعيش فى المجتمع، وكتاجر يهمه أن تككون سمعته فوق مستوى الشبهات، وتحقق له ذلك وهو فى السابعة والعشرين من عمره عندما وجد بين الإناث من وافقت على الزواج منه، كما وافقت ايضا على مد يد المساعدة المادية له حتى يستطيع أن يحقق طموحه فى دعم تجارته وازدياد معاملاته المالية.

ولكن إذا كان (أ) قد نجح فى اتقان مهنته، ودعم سمعته والوصول فى السلم الاجتماعى إلى مكانته، وتحقيق مستوى من الاستقرار الاقتصادى، فإنه لم ينجح فى الاستقرار فى أسرته التى سرعان ما اهتزت دعائمها وتصدع بنيانها، وحل الخلاف بينه وبين زوجته محل الوئام، وانتهى الأمر بالطلاق بعد استمر الزواج فترة غير طويلة، استمرت بعدها الشحناء بينهما، ورفع كل منهما قضايا ضد الاخر.

وعاش (أ) بعد الطلاق وهو يفكر فى الزواج مرة أخرى. وهو لن يعدم ان يجد اخرى من بين من ترددن على محله من عميلات. خصوصا اللاتى يعجبهن شبابه، ونجاحه، وحديثه الطلى، ولباقته الجذابة، ومن اللاتى يحسن الإصغاء إلى هذا الحديث وتبهرهن هذه اللباقة، وكانت (ر) من أكثر العميلات إعجابا بـ (أ) لكل هذه السمات والخلال، وربما لبعض الأمور الأخرى، وكان (أ) يبادبها إعجابا باعجاب ويراها كل يوم عندما تتردد على المحل أو فى غدوها ورواحها.

كانت (ر) طالبة فى مدرسة التجارة المتوسطة وتقع هذه المدرسة فى أحد الشوارع القريبة من المحل الذى يملكه تذهب الى المدرسة فى الصباح، تعود منها فى طريقها إلى بيتها بعد انتهاء الدراسة، وفى كل مرة تمر أمام محل الأحذية الذى كثير ما يجتذب أنظارها. فتقف أمامه لحظات أو دقائق أو كثر من ذلك أحيانا. تشاهد ما فى واجهته من نماذج الأحذية وما طرأ على هذه النماذج وما جد منها، تعجب ببعضها وقد لا يعجبها البعض، تتلهف على الحصول على نموذج معين، وقد تجبن أن تناقش صاحب المحل فى ثمنه، وتتشجع فى الكثير من الأحيان، وتشترى أحيانا ولا تشترى أحيانا أخرى، وعندما تشترى تساوم وتتعامل كأنثى، تحاول إغراء من يحادثها، وكثيرا ما يكون هو (أ) الذى كان يسمع لها، ويحدثها حديثه الطلى، ويحاول أن يبيعها ما تطلبه، وكان ييسر عليها عملية الشراء ولو على حساب ما يجب أن يتقاضى من ثمن. فقد كانت (ر) شابة لم تتعد العشرين من عمرها، فيها وسامة صارخة، وتملأ جسدها الحيوية، وفيها جاذبية الأنثى اللعوب، وقد أخذت هذه السمات والخلال بلب (أ) فجاذبها الحديث الشخصى، وتجرأ فى حديثه هذا، وشجعته (ر) على ذلك. فتواعدا على اللقاء خارج العمل، وخارج المدرسة بعيدا عن الناس، وكثر اللقاء، وبات كل منهما يحلم حلمه الجميل على الرغم من فارق السن بينهما، إذ بلغ هذا الفارق نحو عشر سنوات، وإن كان الفرق بين مكانتهما الاجتماعية يكاد لايكون. الأمر الذى شجع (أ) على التقدم لخطبتها من أسرتها التى كانت متصدعة بسبب وفاة الأب، وسرعان ما وافقت الأم على هذه الخطبة، فإن (أ) رجل يعمل ويكسب ويستطيع أن يمدها ببعض المساعدة المادية وبعض العوون المعنوى.

نشأت (ر) فى كنف أمها معظم سنى حياتها. فمنذ وفاة أبيها، وهى فتاة فى العاشرة من عمرها، قد كفلتها هذه الأم. وكان دخل الأسرة يكاد ان يكفى حاجاتها المتعددة، وكانت الأم عندها بعض الطموح، فأبت إلا أن تعلم ابنتها حتى تكمل تعليمها المتوسط على الأقل، ويبدو أن الأم لم تكن العائل الذى يستطيع أن يحزم أمره عندما تتطلب الأمور ذلك، وربما كان يتم (ر) المبكر عاملا من عوامل عدم استطاعة الأم أن تكون حازمة حريصة على بعض القيم الاجتماعية ذات الأهداف الحميدة التى تسود عادة الطبقة التى تنتمى إليها هذه الأسرة.

ونشأت (ر) فى هذا المناخ الأسرى مدللة أو شبه مدللة، وقد ساعد على وجود هذا الدلال أنها شبت قوية الجسم صحيحته، ترى فيه عناصر الأنوثة الجذابة تشع وتلألأ كلما زاد عمرها، عرفت (ر) كل هذه الأمور عن نفسها، فتركت لنفسها العنان، ولم تجد من أمها الرقيب الذى يهتم بسلوكها، أو الشخص الذى يفسر لها اسرار الحياة ويرى ضرورة الحرص على القيم ذات الأهداف الحميدة التى يجب أن تسود والحذر من الزلل، فكانت لها حياة جنسية مع أعضاء الجنس الآخر، علاقات تشبع بها غرورها، وقد تتباهى ببعض تفاصيلها بين لداتها، على الرغم من انها لم تتعد العشرين من عمرها وأنها مازالت تطلب العلم فى مدرسة التجارة المتوسطة.

اكملت (ر) دراستها وعملت في احدى المصالح موظفة متواضعة، وأحست بكيانها الاجتماعى الجديد، فملأتها الثقة بنفسها أو كادت، وازدادت علاقاتها بـ (أ) وأصبح يزورها فى منزلها تحت أعين أمها والجيران، وكانت زيارته تجد ترحيبا من الأم دائما، فإن كل زيارة تأتى فى طياتها بما يشبع رغبتها من مساعدة مادية فى شكل هدايا عينية أو نقدية.

وعندما بلغت (ر) من العمر اثنتين وعشرين سنة، أمكنها أن توفر بعض المال الضرورى لإعداد مطالب الزفاف، وعندما ازداد إلحاح (أ) على ضرورة عقد القران وافقت فى الحال وتم عقد القران وتم حفل الزفاف، وكان عمر (أ) اثنتين وثلاثين سنة وعمر (ر) اثنتين وعشرين سنة، أى أن فارق العمر بينهما يبلغ نحو العشر سنوات.

لم يكن (أ) فى خلال فترة الخطوبة يعرف السر الذى ربط قلبه وبين قلب (ر). ولم يحاول أن يعرف شيئا، ولكنه كان يعرف أمرا واحدا. كان يحبها حبا ملك عليه نفسه، وقد بدا له في غمار هذا الحب أن (ر) تبادله هذا الحب الكبير، وأنه كذلك موضع عطف أمها وبركاتها، ومهما يكن من الأمر فهو من وجهة نظر أخرى قد وجد ضالته فى هذه الشابة "المتعلمة" الجميلة الجذابة، التى تعمل "موظفة".

ولم يكن (أ) يعرف كذلك سر طول الخطبة التى بلغ عمرها سنتين إلا أن أسرة (ر) تستعد لاكمالها عندما تتاح الفرصة لذلك، أى عندما يتم الحصول على وظيفة لها، وعندما يتم توفير بعض المال الضرورى، لم

يعرف (أ) شيئا غير كل ذلك. لم يعرف ما يساور (ر) من هواجس ولا من مشاعر يشوبها بعض الخوف وربما بعض هذه الهواجس والمشاعر.

ولكن (أ) قد بدا له أنه عرف السر الثانى فى ليلة الزفاف ومع ذلك فإنه لا يعرف السر الأول حتى الآن. وكان إذا الح عليه التساؤل عن هذا السر كان يحاول الإجابة عنه فى شئ من الغموض. كأن نفسه قائلا إنه "الحب" ولا شئ غير الحب.

ولئن كان (أ) لم ينجح فى التعرف على عوامل السر الأول حتى الآن، فهو أحس نتائجها وآثارها فى أعماق نفسه، وكان هذه النتائج وآثارها فى أعماق نفسه هى العامل المهم فى محاولة التغاضى عن نتائج السر الثانى وآثارها فى أعماق نفسه.

كان حفل زفاف (أ) متواضعا جمع الأصحاب والخلان فى مودة وحبور. كان حفلا تعطر جوه الأمانى والتفاؤل وتحقيق الرغبات الطيبة، وعندما آن انصراف الأصحاب والخلان ومن فى حكمهم، وتأهب (أ) للدخول بعروسه (ر) كان كل شئ، يجرى مجراه العادى، لم يكن يدور بخلد (أ) ما حدث بعد قليل، وكان ما يدور بخلده يدعو إلى الطمأنينة، بعكس ما كان يدور بخلد (ر) وانتهى الأمر بأن ما كان مستورا قد انكشف، وكان المستور مفاجاة غير متوقعة صدمت كرامة (أ) فى الصميم.

وكان المشهد رهيبا. أنثى مازالت فى ثوب زفافها تتوسل وتبكى وتلتمس الصفح والغفران فهى تنتمى إلى مجتمع يحدد لها ولبنات جنسها قيما معينة لا يجوز لهن أن يحدن عنها ولكنها فى ضوء تاريخ حياتها وتجاربها الاجتماعية لم تسطيع إلا أن تحيد عن هذه القيم، وتضطر فى ضوء كل هذا أن تخفى كل شئ ولا تبوح به، وهاهي الآن تواجه موقفا يكشف وهى كارهة الغطاء عن كل شئ، وطالما حاولت تأجيل هذا الموقف، وقد نجحت لفترة لا تعدو السنتين، ولكن لابد مما منه بد.

أما (أ) فقد كان الرجل الذى يواجه هذه الأنثى التى مازالت فى ثوب زفافها تتوسل وتبكى وتلتمس الصفح والغفران، وهو ينتمى إلى مجتمع يعطيه الكثير ويغفر له الكثير. مجتمع يعطي لأبناء نوعه حقوقا لا عديد لها

خصوصا تلك الحقوق التى تتعلق بالمرأة وإذا أخطأ السبيل أو تزيد بما لا ينبغى أن يتزيده على هذه الحقوق. فإنه لا يحاسب الحساب العسير، وكثيرا ما يضطر لأن يخفى شيئا من هذا القبيل، وقد نجده على العكس قد يظهر أحيانا الكثير المغالى فيه من هذا القبيل، مباهاة وتفاخرا، ومع ذلك فإن قيم المجتمع الذى يعيش فيه تقف به وبأمثاله من الرجال من أخطاء النساء عامة وزللهن خاصة موقف المحاسب القاسى، وفى بعض الأحيان وخصوصا إذا ما تحددت العلاقة بين الرجل والأنثى وأصبحت علاقة زوج وزوجة، يقف موقف المجروح فى كرامته الذى يعطى لنفسه كل الحقوق، فيؤدى أدوار الاتهام والتحقيق والحكم والقصاص جميعا.

ولكن (أ) إزاء الموقف الرهيب لم يسلك كل ما يمكن أن يتوقع من ألوان السلوك كان يحب (ر) حبا ملك عليه نفسه، وقد بدا له غمار هذا الحب أنها تبادله هذا الحب الكبير، وأن ما حدث قبل أن يتفتح هذا الحب فى قلبيهما وأن ما حدث كان نزوة عابرة لن تعكر صفو الحياة القادمة.

وأنه وقبل كل شئ يجب أن يكون رجلا شهما يغفر عند المقدرة، ويعفو عما سلف، فالله جل وعلا ستار، وهو غفور رحيم، وانتهى الأمر به أن اعتبر ما حدث كأنه لم يحدث، كتم عن الناس كل شئ، واعتبر ما حدث جريمة أخلاقية غير منظورة، أو ربما جريمة جنائية غير منظورة، وما أكثر الجرائم أخلاقية كانت أو جنائية، غير منظورة فى المجتمع.

عاش (أ) و(ر) كزوجين سعيدين، أو كزوجين يبدوان أنهما سعيدان، التأمت جروح كرامة (أ) مع الأيام، فهو من وجهة نظره يعيش فى ظلال الحب الوارفة فلا يرى إلا الجمال والخير والتفاؤل. أما (ر) فبعد أن استردت ثقتها بنفسها كاملة أخذت نفسها بالآمال والأمنيات، إنها شابة أهم ما توصف به أنها موضع اشتهاء الرجال، كل الرجال. الرجال الذين لهم مكانة زوجها الاجتماعية، فضلا عن الرجال ممن هم أعلى مكانة اجتماعية، وكانت (ر) تعتبر الزواج من (أ) صفقة ليست بالضرورة، من وجهة نظرها ، صفقة خاسرة، بل على العكس لقد كانت صفقة ضرورية، ساعدتها على بدء مرحلة جديدة من مراحل حياتها، ويسرت لها أن تؤمل كثيرا فى المستقبل الباسم

الذى سيملأ حياتها وسيمدها بما تشتهيه من متع. فأخذت تعلل نفسـها بالآمـال والأمنيات، كما أخذت تتحين الفرص وتتربص بها.

وجاءتها الفرصة السانحة. جاءت هذه الفرصة عندما نجحت زوجة (أ) السابقة فى الحصول على أحكام عديدة ضد زوجها السابق. فقد حكم لها ضده بمؤخر الصداق وبمبلغ كبير من المال نفقة شرعية تستحقها، فضلا عن بعض الديون التى كان زوجها السابق يدين بها لها.

والعجيب أن (ر) لم تكن تعلم عن هذه الأحكام شيئا. فقد أخفاها عنها زوجها (أ) معللا نفسه بأنه سيقوم بالسداد إن عاجلا وإن آجلا، ولكنه لم يستطع السداد فى الوقت المناسب فالمبلغ المطلوب، إزاء ظروفه الحالية، لا طاقة له بها، وفضل أن يدخل السجن ليقضى فيه شهرا وفاء للنفقة التى تستحقها مطلقته، واضطر (أ) ان يخترع قصة غير صحيحة للحصول على موافقة زوجته (ر) على غيابه لبضعة أسابيع. فأخبرها أن دواعى العمل تضطره إلى السفر بعيدا عن القاهرة، المدينة الكبيرة، لأنه على وش عقد صفقة جلود قد تدر عليه الربح الوفير.

وخيل لـ (أ) انه باختراعه هذا القصة الزائفة إنما يبغى إراحة زوجته من معرفة الحقيقة وتفاصيلها المؤلمة، كما يبغى الحرص على كرامتها وكرامته، فضلا عن أن ييسر امر غيابه شبه الطويل على نفسها، ولكن (ر) لم تناقشه طويلا أو قصيرا فى هذا الموضوع، ولم تبد أية معارضة موضوعية أو غير موضوعية، بل وافقت للتو والساعة، وبدأت تداعبها الآمال وتعلل نفسها بالأمنيات.

دخل (أ) السجن وفاء للنفقة التى تستحقها مطلقته، ولم يبال بالصعوبات التى ستواجهه فى المجتمع الجديد، مجتمع السجن، وأرجو ان يلاحظ القارئ أن السجن فى ضوء تعريف المجتمع لا يمكن أن يكون مجتمعا بل هو مؤسسة عقابية، ومهما يكن من الأمر فإن (أ) لم يبال بشئ فهو يرى أنه لم يرتكب جرما ما. لم يسرق مثلا أو يزور لم يفعل شيئا ما يشينه كرجل، ولكن المسألة هى عسر وقتى، ومن كان ذا عسرة فنظرة إلى ميسرة، وهو يعيش فى حب كبير، ويضحى فى سبيل هذا الحب الكبير، وكل ما يرجوه أن يحافظ على هذا الحب الكبير.

ولكن (ر) حاولت أن تصدق قصة زوجها، ولكنها فى الوقت ذاته أبت إلا أن ترفضها وقد ساعدها على هذا القرار ما كانت تعلل نفسها بالآمال والأمنيات، فأخذت تتحرى صدق هذه القصة ووصلت إلى الحقيقة، وهى أنها قصة مخترعة لاصدق فيها، وعرفت أن زوجها (أ) فى السجن، يقضى مدة شهر وفاء للنفقة التى تستحقها مطلقته.

وما أن عرفت (ر) هذه الحقيقة حتى أطمأن قلبها، واهتزت نفسها فرحا وحبورا فإن الأغلال التى تقيدها آن لها أن تتحطم، وأن الدنيا الآن تتسع أمامها ومن حولها ومن فوقها اتساعا يليق بشبابها الناضر يروح فى أجوائها ويجئ، يرشف من كل شئ، يروى ظمأه من كل نبع، يشبع نهمه دون مبالاة، فهى امرأة د نالت كل شئ، الجمال وبعض الاستقرار الاقتصادى، ولكن جمالها سلاح بتار تستطيع عن طريقه ان تتسلق السلم الاجتماعى حتى تنال استقرارا اقتصاديا ذا مستوى رافع، وقد يستمر ارتفاعه يعلو، فتنال ما تصبو إليه من آمال ومن أمانى ومن حياة مليئة بالمتع. حياة لا تغلو عليها فهى حياة ليس من العسير عليها أن تدفع ثمنها من جمالها وشبابها وأنوثتها.

وانتهى الأمر بـ (ر) إلى قرار لابد أن تزور (أ) فى السجن، وتفاجئه بهذه الزيارة حتى تحطم كبرياءه بل كيانه معرفتها بالحقيقة، ومعرفتها بمصيره، فهى لم تفكر قط بأن تكون زيارة مشتاقة إلى مشتاق ! أوزيارة وئام وتشجيع، بل زيارة سوء وقطيعة وتحطيم. يجب أن يتحطم زوجها (أ) ماديا ومعنويا. إن فى تحطيمه تحطيما لكل القيود، ولكل الأغلال التى تعيش فيها حياتها الحاضرة.

لم تتذكر (ر) موقفها الرهيب فى ليلة زفافها، وكيف كانت وهى فى ثوب الزفاف تتوسل وتبكى وتلتمس الصفح والغفران لم تتذكر أيضا موقف (أ) إزاء كل ذلك موقف الرجل الذى كان يحبها حبا ملك عليه نفسه، فكان لا يملك إلا أن يحب وأن يصفح وأن يلتمس العذر، وربما كانت (ر) قد ذكرت كل ذلك، وأحست بمرارة الذكرى، وقد آن ان تجعل زوجها وهو فى السجن، أن يستبدل بدوره دورها وهى فى ليلة الزفاف، ولم تكتف بذلك. بل أبت على نفسها أن تستبدل بدورها دوره. فالحياة والدنيا وكل المتع قد اصبحت ترنو

إليها والأمانى أمانيها، والأمنيات أمنياتها قد اصبح تحقيقها قاب قوسين أو أدنى منها.

لم يصدق (أ) عينيه عندما رأى زوجته (ر) وهى تزوره فى السجن، ولم يصدق ايضا أذنيه عندما سمعها تطلب الطلاق منه، وبدا له أن الأوضاع قد انقلبت رأسا على عقب، وأن القيم ذات الأهداف الحميدة قد توارت أو ذهبت وكأنها لم توجد قط، وعندما انصرفت (ر) انصرفت قبل انتهاء موعد الزيارة المحدد، وتركت وراءها (أ) وقد حطت على رأسه بلايا الدنيا وأصبحت الحياة لا معنى لها، حياتها وحياته جميعا، وبقى فى ذهول بقى طويلا جدا، وبقيت آثاره فى نفسه طويلا جدا كذلك.

لم يسمع (أ) لطلب (ر) بل عارضه بقوة، ولكنها أصرت على الطلب فملأت عينيه بدموع الاسى، وأختنق الكلام فى حنجرته، وماكان يستطيع أن يفعل إلا أن تتوسل ملامح وجهه إلى (ر) ولكنها كانت قد حزمت أمرها، وأصرت عليه. بدت له قاسية غير وفية وكأنها قالت الكلمة الأخيرة، وقبل أن يستجمع قواه ويهم بالكلام أو يتم ما بدأ أن يقوله تركته وذهبت لا تلوى على شئ.

ولكن (أ) كان يحب (ر) حبا كبيرا فحاول أن يلتمس لها الأعذار، وعلل نفسه بعد الخروج من السجن، ببعض الامال منها أن (ر) سوف تثوب إلى رشدها، أو يجب أن تثوب إلى رشدها، فهى كل شئ عنده فى هذه الدنيا، وهو لم يتوان عن فعل كل ما يحفظ عليها كرامتها، وكل ما يسعدها فى حدود طاقته كرجل وكعضو فى المجتمع.

ولكن يبدو أن (أ) كان يعيش فى سراب، فعندما خرج من السجن، وجد زوجته شخصا آخر لم يتصور وجوده قط. وجدها امرأة غير تلك التى عرفها من قبل. امرأة تصادق الرجال الأغراب، وتعيش على هواها ومن أجل هواها. وأصبحت سيرتها مضغة فى الأفواه. فلم يجد بدا من طلاقها، ولم يطل أمر الطلاق، فقد اعادها إلى عصمته مرة أخرى، بعد أن تدخل المعارف فى الأمر. وقد رضى حكم المعارف لنه حكم يتف مع حكم قلبه ومشاعره وعادت (ر) إلى سيرتها مرة أخرى، وأصبح (أ) يعب العذاب عبا ويشرب الهوان والمذلة شربا، ملأ قلبه اليأس، ولم تهن عليه كرامته، وعز

عليه أن يتنكر لقيمه ذات الأهداف الحميدة كرجل يعيش فى مجتمع معين، فانتهى أمره إلى طلاقها للمرة الثانية.

وكان طلاق (ر) هو ما تصبو إليه نفسها، فهو إطلاق لسراحها من القيود والأغلال وفرصة لها للانطلاق الذى ييسر لها أسلوبا معينا من الحياة، تبغيه وتطلبه وترجوه من كل قلبها، ولو كان على حساب القيم الاجتماعية ذات الهداف الحميدة أو على حساب قلب (أ) الكبير، وحبه لها، وتفانيه فى هذا الحب.

ولم يأت الطلاق الثانى بالراحة التى يرجوها (أ) لنفسه، فهو مازال يحب (ر) ومازال ينبض قلبه بحبها، حاول أن ينسى، فلم يستطع النسيان، واحتسى الخمر - وهام على وجهه، ولم يأت ذلك بفائدة، وانتهى الأمر به إلى أن يهمل أعماله، وعاش فى أفكار لونها ظلام، وحاول محاولة أخيرة، طلب من (ر) العودة، ولكنها رفضت فى أصرار، وبان على وجهها ومن حديثها ألوان من التشفى والسخرية والتهكم. وأخبرته فى سهولة ويسر، أنها ستتزوج من آخر.

وكم انتظرها (أ) فى غدوها وفى رواحها، وكم الح عليها فى العودة، وكم توسل إليها مرة، وكم هددها مرات، ولكن (ر) كانت ترفض وتمانع وتتشفى وتسخر وتتهكم.

وعندما تأكد ـ (أ) أن (ر) ستتزوج فعلا من غيره، هانت عليه الحياة واصبحت الدنيا لا تساوى فى نظره شيئا مذكورا، ولكنه لم يفكر فى الانتحار، أو فى أسلوب آخر كمهرب لما هو فيه، بل فكر فى حياته كلها، كيف نشأ، وكيف نما، وكيف تدرج اجتماعيا، وكيف وصل إلى ما وصل إليه. وحاول أن يتلمس التعرف على عوامل ما وصل إليه من حال لا ترضى رجلا مثله، اثبت رجولته يوما ما، وأثبت شهامته يوما ما، رجل كل ما يعيبه أن يحب، وانه يريد من صميم فؤاده أن يعيش لهذا الحب، بكل كيانه، وان يضحى فى سبيله بكل غال، ولكن الظروف تأبى ذلك، الظروف التى جعلت من يحب تقف، فى ضوء عناصر المناخ الثقافى التى نشأت عليها منذ أن مات أبوها، فى سبيل تحقيق ذلك. على الرغم، كما كان يرى، من تضحياته وبذله ورجولته وشهامته وتوسله.

وانتهى (أ) إلى وجوب إزالة هذا العائق. العائق الوحيد الذى يقف فى سبيل تحقيق ما كان يؤمل فيه، ليذهب هو إلـى الجحيم بعد ذلك، فقد كـانت الحياة، وأصبحت الدنيا فى تصوره لا تساوى شيئا.

وفى صباح يوم ٢٧ من شهر أغسطس عام ١٩٦٠ حمل (أ) بندقيتـه المرخصة المملوءة بالرصاص القاتل، وانتظر (ر) علـى محطـة الأوتوبيس تقـع فـى أحـد شـوارع القـاهرة المزدحمـة وهـى المحطـة التـى اعتـادت (ر) الركوب منها وهى فى طريقها إلى العمل.

وعلى الرغم من وجود النـاس مـن حولـه فلم يـر أحـدا. إنـه يعيش افكاره المظلمة فى كل شئ مـن التـردد، ويداعبه شـئ مـن الأمـل. فهـو أولا وقبل كل شئ، لم يأت للانتقام. كـان يـرى ذلـك، ولكنـه كـان يـرى أيضـا أن الظروف التى يواجهها فى حياته الخيرة ظروفها لم يصنعها ولكنـه يرجـو أن يغيرها. فإن استطاع ذلك وحده فبها. وإلا فليكن ما يكون.

ولم يستطع (أ) أن يغير الظروف التى لم يصنعها، فمـلأه اليـأس مـن كل إنسان، ومن كل شئ، فامتدت يده إلى البندقية المملوءة بالرصاص القاتل، وضغطت أصابعه على الزناد ٦ مـرات، وفوجـيء النـاس الذيـن كـانو حولـه بكل ذلك، ورأوا شابة، تبدو عليها آثار من ملامـح الوسـامة التـى كـانت، ولا يعدو عمرها الثانية والعشرين سنة، واقعة علـى الأرض تتخبـط فـى دمائهـا، وأصبحت فى لحظة، جثة هامدة لاحراك فيها، ويقـف علـى رأسـها رجـل، لا يزيد عمره على اثنتين وثلاثيـن سنة، حـاملا فـى يديـه بندقيـة مـازال دخـان البارود القاتل يخرج من فوهتها، وكان يبكى بكاء مرا يمزق نياط القلوب.

واسـتمعت هيئـة محكمـــة الجنايـات بالقـــاهرة [*] لاعـتـراف (أ) التفصيلى، وهو تارة يبكى واخرى وكأنه يهذى، وقبل أن ينتهى من اعترافـه طالب فى ختامه الحكم عليه بـالإعدام. فلـم يبـق لـه شـئ فـى الحيـاة يحـرص عليه. لم تبق له نفسه كإنسان وهى عزيزة دائما، ولم يبق له امـل فـى حياتـه المستقبلة، فلا أمل بغير حب وقد فقد هذا الحب.

ولم تلب المحكمة طلب (أ) وحكمت عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة.

(*) (انظر : سيد عويس، المجلة الجنائية القومية، مج٥، عدد٣، تاريخ نوفمبر ١٩٦٢. صفحات ٤٦٣-٤٧١)

- **السفاح محمود أمين سليمان :**

فى شهر سبتمبر عام "١٩٦٠"، أعطيت نسخة من تقرير اللجنة الدائمة للمباحث الجنائية بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية عن حالة "الشقى محمود أمين سليمان"، وقد وصف التقرير هذه الحالة بأنها "مأساة" هذا الشقى، وقد أطلقت الصحافة المصرية عليه فى ذلك الحين بدلا من المصطلح الشرطى "الشقى" اسم "السفاح".

وإذا كان التقرير المشار إليه أكد على أن وجود هذا الشخص يعتبر مأساة فإننى اتعمد أن استخدم مدلول "الشخص" عليه لأن كل شخص فى الحياة لديه الاستعدادلارتكاب الجرائم بأنواعها ولكنه لا يرتكبها إلا إذا دعته ظروفه الاقتصادية والثقافية والاجتماعية إلى ارتكابها وإننى أرى أن مأساة هذا "السفاح" هى مأساة المجتمع أو المجتمعات التى ولد وعاش فيها، ولكن التقرير يقول إن مأساة الشقى محمود أمين سليمان، على قصرها، قد أحدثت اثرا واضحا فى محيط الرأى العام (ويرجع ذلك فى رأيى طبعا إلى اهتمام الصحافة بالموضوع وكتابة الصفحات والمنشتات يوما بعد يوم عنه) وفى محيط أجهزة الشرطة المصرية على السواء. فقد اتسمت فترة ظهوره على مسرح الجريمة بسمات خاصة الجريمة أضفت عليه طابعا فريدا لم يعهد من قبل فى تاريخ الإجرام فى بلادنا الطيبة. إذ عرف هذا الشقى بالجرأة والدهاء والمباغتة كما عرف بالتجديد فى أساليب السرقة والسطو عل المنازل. غير أن موهبته الكبرى كانت فى ذكائه المفرط وقدرته الفائقة على تدبير وسائل الهرب وتضليل رجال الشرطة.

وقد ولد الشقى محمود أمين سليمان (كما يقول التقرير) فى عام "١٩٣٠" فى طرابلس من أعمال لبنان من أب "مصرى" هو أمين محمود سليمان الذى كان يقيم وقت كتابة التقرير بمدينة الإسكندرية، وقد جاوز ابوه فى ذلك الحين سن الخامسة والستين، وهو أى أب ينتمى إلى أسرة فقيرة ببلدة "الكعيمات" (بلاد المال قبلى) مركز "أبو طشت" محافظة قنا، ولما ضاق بالأب العيش نزح فى عام ١٩٢٠ تقريبا إلى تركيا والعراق وسوريا سعيا وراء الرزق حيث أقام فى لبنان وعمل حمالا فى المطارات ثم تطوع فى فرقة "الجندرمة" لمدة ثمانى سنوات تقريبا تزوج فى خلالها مرتين ثم طلق

زوجتيه بسبب عدم إنجابهما أطفالا، ولما انتهت مدة خدمته العسكرية التحق بوظيفة مخزنجى بإحدى محطات السكة الحديدية بخط طرابلس لبنان ثم عين رئيسا للحمالين بها، وكان يكسب يوميا حوالى ثلاثة جنيهات مصرية (يلاحظ أن الجنيه المصرى فى ذلك الحين كان يساوى جنيها ذهبيا + قرشين مصريين ونصف) إلى أن تزوج فى عام "١٩٢٨" من سيدة لبنانية أنجب منها محمود (موضوع هذه الدراسة) ثم رزق بأخوات له هن فاطمة وعلية ونادية وغادة وياخ اصغر احمد فى عام "١٩٤٦" وفى عام "١٩٥٠" رزق الأب بهدى، وإلى جانب هؤلاء تبنى ابنا لزوجته هذه واسماه محمد أمين وهو أكبر سنا من محمود، وكانت زوجته تساعده هلى مواجهة أعباء الحياة عن طريق حقن المرضى إذ كانت تعمل مساعدة لطبيب يدعى (رشاد يحيى) فى طرابلس، وما أن بلغ محمود سن السادسة حتى الحقه أبوه "بمدرسة الفرير" بطرابلس واشتهر عنه فى أثناء دراسته تزعمه لزملائه بالمدرسة، ونظرا لسوء سلوكه واختلاطه بمن هم أكبر منه سنا فقد أعتاد الهرب من المدرسة حتى فشل فى دراسته وتركها.

وبدأ يهيم محمود فى الشوراع يسرق البرتقال من بعض الحدائق بمدينة طرابلس وهو فى سن السابعة من عمره، وكانت والدته تعاقبه بقصد تأديبه بالضرب والكى والنار، وفى ذات مرة سرق نقودا من والده مما دعا هذا الوالد أن يعاقبه وذلك بوضع القيود الحديدية فى قدميه الصغيرتين!

وفى سن العاشرة كان محمود يقوم ومعه آخرون بالسطو على معسكرات الجيش البريطانى فى لبنان وقد سلمه ابوه لرجال الشرطة ولكنهم لصغر سنه اطلقوا سراحه وسلموه لأهله، واستمر محمود فى مخالطة الأشقياء وشاركهم فى ارتكاب جرائم السرقة حتى حصل على شهرة كبيرة فى مجال الإجرام، وقد عرفت عنه الجرأة والتهور حتى إن لداته اطلقوا عليه لقب "محمود البطل"، اعتاد كل من له خصوم الاستعانة به على إيذائهم، وتردد على ألسنة أعضاء أسرته أنه اشترك مع آخرين فى سرقة أحد المساكن مع استعمال السلاح وحكم عليه فى هذه الجناية بالسجن أربع سنوات أبعد بعدها إلى مصر حيث استوطن واسرته الحضرة بمحافظة الاسكندرية.

وقد ذكر أبوه أنه عندما قامت فلسطين فى عام "١٩٤٨"، كان محمود بلغت سنه حوالى الثامنة عشرة، وتطوع فى فرقة للفدائيين تحت قيادة احد القادة فى ذلك الحين (القاونجى) وكان لمحمود خال متزوج من سيدة يهودية تركها فى فلسطين عندما اندلعت الحرب وهرب ومعه أولاده إلى لبنان، وقد تمكن محمود، كما يذكر بعض أعضاء أسرته من تخليص زوجة خاله من أيدى اليهود فى اسرائيل وعاد بها إلى لبنان.

وقد ذكرت "السيدة نوال" التى كانت إحدى زوجات محمود انها فاتحته فى أمر حياته التى كانت ترى أنها تكتنفها الغموض بعد أن علمت من أحد اصدقائه اللبنانيين من الذين كانوا يترددون عليه بالإسكندرية فروى لها محمود مايلى :

"أن الجناية الملحقة به هى جناية أهله. فقد نشا بينهم فقيرا ولم يكن راضيا عن مستوى معيشتهم. وكان والده بخيلا ولا يتولى الانفاق على والدته كما ينبغى إذ كان يعطيها مصروفا يوميا ضئيلا ويصرف باقى دخله على النسوة والسهرات. فما أن بلغ أى محمود سن السابعة من عمره حتى دأب عل سرقة الفاكهة والخيار من الحدائق وتدرج إلى السطور على المعسكرات وسرقة السلاح، وبيعه وتسليم ثمنه إلى والدته واندمج فى عصابات اللصوص وعرف رجال الشرطة بلبنان عن الكثير فكان موضع مطاردتهم واضطهادهم، وذكر لها انه ضبط فى قضية سرقة مصوغات وحكم عليه بالحبس شهرا مما هيأ له فرصة الاختلاط بنزلاء السجن وهو حديث السن وتوطدت صلته بهم وواصل نشاطه معهم بعد ذلك حتى تمكن وهو فى السادسة عشرة من عمره من سرقات مصوغات أخفاها عند والدته وشقيقته وحكم عليهن بالحبس مدة شهر بينما حكم عليه بالحبس ثمانية شهور، وقد ذكرت الزوجة "نوال" ايضا أن محمود أخبرها بأنه تمكن من تكوين ثروة أعانته على شراء منزل ومقهى ومجموعة من سيارات الأجرة كما تقدم لاستئجار أرض جمرك بلبنان ولكن عرضه قد رفض، فما كان من محمود إلا أن اطلق مسدسه على من كان مصدر هذا الرفض، وأصابه، ثم أودع فى السجن وتظاهر بالمرض فنقل إلى المستشفى حيث تمكن من الهرب، ثم قبض عليه بعد سنوات عديدة وحكم عليه بالسجن أربع سنوات،

وفى أثناء محاكمته وجه محمود تهديدا حاسما للقاضى الذى قضى بإدانته وقام اعضاء العصابة التى كان يقودها فعلا باغتيال هذا القاضى :

وذكرت "نوال" أن والدة محمود، كما قال لها، كانت تشجعه علىالسرقة حتى تواجه نفقات الأسرة، كما ذكرت أن محمود قال إن خاله كان من المجرمين الخطرين بلبنان، كما كانت سيرة والدته وشقيقاته سيئة.

وعلمت "نوال" من أحد أصدقاء محمود وكان يعمل فى مهنة المحاماة أنه أى المحامى ذكر لها أن محمود عندما كان فى سن السابعة من عمره استيقظ فى اثناء نومه مع أمه على صوت حركة غير عادية وشاهد شخصا غريبا يواقعها، وان ذلك ترك أثرا فى نفسه لم تمحه الأيام من ناحية النساء قاطبة أو على حد قوله الشك فى "حواء" وكان يقول ذلك فى مناسبات عديد متباينة، وعندما كبر شخص محمود هذه الواقعة فارجعها إلى ضعف شخصية أبيه وسيطرة أمه عليه.

وفى ضوء ماذكرته الزوجة "نوال" نلاحظ أن محمود قد بدأ نشاطه الإجرامى فى لبنان وهو فى السادسة من عمره، وأنه تدرب على أيدى عصابات، وأنه كان شخصية قيادية فكون لنفسه عصابة تأتمر بأوامره وبخاصة فيما يتعلق بارتكاب الجرائم وكان معظمها جرائم القتل والسرقات ـ وأنه فعلا وحقا كان جرئيا فى ارتكاب الجرائم أو التخطيط لارتكابها.

وفضلا عن كل ذلك وغيره نلاحظ أن خيانة أمه لأبيه وهو فى سن غضة قد تركت فى نفسه عقدة لم تحل بمرورمراحل حياته من ناحية النساء، وفى قول إن محمود قد ولد فى أسرة متصدعة ولم تجد معه أجهزة التنشئة الاجتماعية السوية لأنه لم يجدها لا فى البيت أو فى الجيرة أو فى المدرسة أو فى غيرها من الأجهزة التى تكون المواطن الصالح.

وانتهى الأمر إلى إبعاد أسرة محمود إلى مصر فى عام ١٩٥٣ على حساب القنصلية المصرية بلبنان على أثر ما تكتشف لسلطات الأمن من خطورة محمود (كان محمود فى ذلك الحين مودعا فى السجن)، وقد ذهبت الأسرة إلى الإسكندرية ثم رحلت إلى بلدة الكعيمات (من بلاد المال قبلى) مركز أبو طشت مديرية قنا، ولم يستقر أعضاء الأسرة بالبلدة، طويلا نظرا

لتفاوت العادات والتقاليد التى يظللها المناخ الثقافى بهذه البلدة، عما اعتادوه فى لبنان فرحلوا منها إلى الإسكندرية حيث تناسبهم الظروف الحياتية بها.

وفى الإسكندرية كانت أسرة محمود بحى الحضرة بجوار أسرة كانت من بين أعضائها آنسة تدعى "عواطف" وتم التعارف بين الأسرتين، وكانت أم محمود تردد أن لها ابنا يدعى محمود، وكانت تكذب إذ تقول إنه تخلف بلبنان لبيع ممتلكات الأسرة.

وفى ذات يوم فوجئت أسرة "عواطف" بزيارة محمود، ووالدته بقصد خطبتها. ورفض ابوها فى بادئ الأمر ثم عاد فقبل وتم الزواج فى ١٣ من شهر مايو عام ١٩٥٦، وفى اثناء ذلك افتتح محمود "جراجا" بمنطقة سيدى بشر، وبعد فترة سافر ومعه زوجته إلى القاهرة بحجة حركة العمل بالإسكندرية شتاء، ثم افتتح ورشة للنجارة بدائرة قسم باب الشعرية بالاشتراك مع شخص آخر.

وقد لاحظت الزوجة "عواطف" تغير حال زوجها بعد وصوله إلى القاهرة وكثيرا ما دب الخلاف بينهما. إذ كان يصر على السكن مع أحد اصدقائه وأسرته فى مسكن واحد، وكانت الزوجة "عواطف" تعارض فى ذلك لما لمسته من سوء سلوك هذا الصديق حيث كان يتصل بإحدى الراقصات. وضاعف من هواجسها ما كانت تلاحظه من خروج زوجها (محمود) ليلا وفى قدميه حذاء من المطاط وفى يده مصباح كشاف ويعود فى ساعة متأخرة من الليل ومعه مبالغ كبيرة، ولم يتطرق إلى ذهنها فى ذلك الحين أن زوجها (محمود) لص او أن تلك المبالغ كانت فى حصيلة مايسرقه.

وفى خلال عام ١٩٥٦ أيام العدوان الثلاثى على مصر ترك محمود زوجته "عواطف" بالقاهرة وسافر إلى الإسكندرية حيث توجه إلى منزل شقيقته "غادة" التى كانت متزوجة فى ذلك الحين، فوجد بالمنزل إحدى شقيقات زوجته "عواطف" وكانت تبلغ من العمر خمس عشرة سنة وحاول اغتصابها وادى هذا الحادث المشين إلى طلاق زوجته "عواطف" فى شهر مارس عام ١٩٥٧ بعد أن رزقت منه بولد.

وفى أواخر عام ١٩٥٧ تعرف "محمود أمين سليمان" بسيدة تدعى "حميدة" وكان أسمها المشهورة به (ببيلا) وكان هذا التعارف عن طريق شخص يعمل فى مهنة المحاماة (وهو غير الشخص الذى ذكرته "نوال" من قبل) وعرض محمود على "حميدة" الزواج فقبلت، واستمرت حياتهما الزوجية أربعة أيام فقط، ثم هجرها دون طلاق.

وكان زوجته "نوال" التى سبق أن تحدثت عنها والتى صارحها بتاريخ حياته دون تفصيل حيث ألقى اللائمة على حياته التى صار إليها على أهله وظروف الحياة التى عاشها وهو صغير السن، وتم زواج محمود من زوجته "نوال" التى أصبحت خطيبته فى غضون شهر نوفمبر عام ١٩٥٧ وتم زفافها فى أوائل شهر أكتوبر عام ١٩٥٨، وبذلك أصبحت "نوال" الزوجة الثالثة لمحمود أمين سليمان، وأقام الزوجان "محمود ونوال" سويا بحى محرم بك بالإسكندرية ومرت ثلاثة شهور فإذا بـ "نوال" تلاحظ اجتماع زوجها بأحد المحامين وقضائهما سهرات طويلة فى إعداد ما يشبه المذكرات، وبعد ذلك أبلغ محمود زوجته بعزمه على السفر إلى القاهرة، ولم تتردد "نوال" فى سؤاله عن موضوع (المذكرات) أو مايشبه المذكرات فاضطر لاعتراف لها بأنه متهم بسرقة أحد المساكن فى مدينة القاهرة وصحبها معه حيث حضرت الجلسة الخاصة بمحاكمته، وقد ذكر محمود لـ "نوال" أن هذه القضية قد لفقت له، ومع ذلك كان يكثر من التردد على مدينة القاهرة إلى أن اصدر ضده حكم بالحبس فى تلك القضية، وكثيرا ما كان يرسل فى طلب حضور "نوال" من الإسكندرية لمقابلته فى أثناء التحقيق معه فى قضية تبديد أخرى، وبعد التحقيق نقل إلى سجن مصر ثم إلى سجن المرج ثم إلى مستشفى الدمرداش حيث أجريت له عملية الزائدة الدودية.

وفى فجر أحد الأيام فوجئت "نوال" بحضوره إلى الإسكندرية حيث ذكر لها أنه هب من المستشفى، وأقاما سويا بمنزل أحد الأصدقاء رغم معارضة أهلها الذين اضطروا أخيرا لإرشاد الشرطة عنه إلا أنه استطاع الهرب عن طريق (التخلص من سترته) واقتاد رجال الشرطة زوجته "نوال" إلى قسم باب شرقى لاشتباههم فى آلة تصوير ضبطت لديها. وقد بحث محمود فى ذلك الوقت عن احد المحامين لحضور التحقيق مع زوجته "نوال"

وقد أفرج عنها فى نفس الليلة. وقبض على محمود فى اليوم التالى ورحل إلى مدينة القاهرة وصحبته "نوال" وشقيقته "غادة" إلا أنه أى محمود استطاع الفرار فى أثناء ترحيله.

وقد ترددت "نوال" على مدينة القاهرة ومعها المحامى (نفس المحامى الذى حضر معها التحقيق والذى نجح فى الافراج عنها فى نفس الليلة) لحضور جلسات المعارضة الخاصة بهروب محمود فى أثناء ترحيله وقضى فيها ببراءة محمود. فضاعف ذلك من ثقته فى هذا المحامى.

وبعد الافراج عن محمود عاد إلى مدينة الإسكندرية إلا انه لم يلبث أن سافر وزوجته إلى مدينة القاهرة ونزلا فى أحد الفنادق بهذه المدينة بعد أن تركا ابنتهما "إيمان" بمدينة الإسكندرية مع والدته، وكان محمود يترك "نوال" بالفندق ليلا ثم يعود إليها عند الفجر ومعه مبالغ من النقود الكبيرة مدعيا أنه كان يدخن مخدر "الحشيش" مع بعض اصدقائه وانه استعاد بعض النقود التى كان يقرضها لآخرين.

ثم نزل محمود ونوال وابنتهما إيمان مع ابن عمه، ثم مالبث ان استأجر مسكنا بحدائق شبرا ظل به حوالى ستة شهور كان فى خلالها يغادره ومعه مصباح كشاف حوالى الساعة الثامنة مساء بحجة الذهاب إلى السينما ثم يعود حوالى الساعة الخامسة صباحا، وبعد ذلك استأجر مسكنا جديد بشارع المتحف الزراعى بالدقى.

وفى خلال فترة إقامة محمود وأسرته فى مدينة القاهرة كان المحامى الذى يثق فيه محمود والذى اصبح له صديقا حميما يحضر من مدينة الإسكندرية إلى محل إقامة اسرة محمود يومى الخميس والجمعة من كل أسبوع، وكانت ترافقه زوجته فى بعض تلك الزيارات، وقد ترك هذا المحامى الصديق زوجته ذات مرة فى ضيافة محمود وأسرته شهرا كاملا، وفى ذلك الوقت افتتح محمود محلا للبقالة وعهد إلى والده وابن عمه بإدارته إلا أنه مالبث أن باعه بعد حوالى أربعة شهور لشكه فى تلاعبهما بإيراده.

وفى أحد الأيام وصلت إلى محمود برقية من صديقه المحامى يطلب منه فيها الاتصال به فى مدينة الإسكندرية ولكن محمود آثر السفر إليه، وبعد

عودته اعتدى على زوجته "نوال بالضرب ونسب إليها أنها على علاقة بالمحامي وأنها كانت تقضي معه الليالي بمدينة القاهرة في أثناء وجوده بالسجن وحضورها معه جلسات المعارضة، وأخذ محمود يعذب "نوال" حوالي شهر وهددها بالقتل شنقا، وفي إحدى سهراته مع المحامي الصديق ابدى له شكه في وجود علاقة بينه وبين زوجته "نوال" وادعى أنها اعترفت له بذلك. فاعترض المحامي الصديق على ذلك في حضور صديق لهما الذي نسب إليه محمود أيضا أنه على صلة بزوجته "نوال".

ولما علم أقارب "نوال" بخبر تعذيبها انتهزوا وأخوتها فرصة زيارته لعديله وتكاثروا عليه واوثقوه ثم سلموه لرجال المباحث بقسم الوايلي، وعند تفتيش منزله بالدقي عثر فيه على سرقات كثيرة تبين أنه سرقها من عدة منازل بمدينة القاهرة وضواحيها واعترف محمود بالسرقات ولكنه ادعى بأن شقيقي "نول" وصديقه المحامي قد اشتركوا معه في تلك الجرائم، وأن المحامي يخفي بعض المسروقات لدى إحدى زملائه بحي المنيل، وقد ضبطت هذه المسروقات فعلا إلا أنه لم تثبت عليهما تهمة الاشتراك أو تهمة الإخفاء.

وفي أثناء التحقيق مع محمود في سرقاته العديدة، ادعى ابتلاع "دبابيس" ونقل إلى مستشفى ام المصريين بالجيزة تحت الحراسة المشددة ؟، وكان مكبلا بالقيد الحديدي ثم أعيد إلى سجن القاهرة حيث حاول الانتحار فنقل إلى مستشفى قصر العيني في أوائل شهر فبراير عام ١٩٦٠، وقد تمكن من الهرب منه في أواخر نفس الشهر، ثم بدأت سلسلة حوادثه ومطارداته التي انتهت بمصرعه.

وكانت من ضمن هذه الحوادث أن محمود هاجم منزل زوجته "نوال" التي تقيم فيه واستطاع أن يغافل رجال الشرطة المنبثين حول المنزل وتسلل إليه وأطلق الرصاص من كوة بباب الشقة والأسرة مجتمعة حول طعام "السحور" قاصدا إصابة زوجته "نوال" إلا ان الرصاص لم يصبها وأصاب ابنة شقيقها الطفلة.

والملاحظ أن محمود في ضوء الصور الفوتوغرافية التي أخذت له بعد مصرعه، تبين أنه انتحر، ونقف هنا لنتساءل هل حالة محمود حالة

انتحار ونتجاهل جرائم القتل التى ارتكبها في مراحل سنى حياته ؟ إنها فى رأيى حالة شخص قد مارس ارتكاب جرائم القتل منها والسرقات ولكنه لم يكن ليتورع فيقتل كل من كان يقف فى سبيل هدفه أو أهم أهدافه.

وتقرير اللجنة الدائمة للمباحث الجنائية بالمركز التومى للبحوث الاجتماعية والجنائية يذكر عبارة " مصرعه أى مصرع محمود أمين سليمان، ولم يذكر بل ولم يجرؤ أن يذكر من الذى صرعه إنه كما ذكرت قد صرع نفسه بنفسه. صيحيح لقد نجح رجال الشرطة فى أن يحكموا الحلقة عليه فاضطر إلى الاختباء بمغارة فى تلال المقطم بناحية قسم حلوان، ويبدو أنه علم أن مقاومته أصبحت غير مجدية وأن مصيره محتوم فما كان منه إلا أن اطلق على نفسه بضع رصاصات أثبت التقرير الطبى الشرعى أنها كانت كفيلة بالقضاء عليه، ومن ثم استطاع بعض رجال الشرطة أن يقتحموا عليه المغارة ويجدوه مقتولا (انظر : تقرير اللجنة الدائمة بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، (دراسة غير منشورة، شهر سبتمبر عام ١٩٦٠(.

والملاحظ أن إحدى الرصاصات بان فى الصور الفوتوغرافية أثرها فى ثقب فوق الأذن اليمنى فى رأس محمود الثانية الذى كان، والرصاصة الثانية بأن أثرها فى ثقب فى رأسه، وبعد ارتكاب جريمة القتل، أطلق رجال الشرطة رصاصات غير قاتلة بطريقة عشوائية بانت آثارها فى جثته!

٧-قوات الأمن المركزى :-

قمت بالإشراف على دراسة علمية عن موضوع أحداث الشغب والعنف التى وقعت فى يومى ٢٥، ٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦، وقد قام بهذه الأحداث المجندون الذين يطلق عليهم أفراد قوات الأمن المركزى، وكان المجال الجغرافى لهذه الأحداث جمهورية مصر وبخاصة فى المدن التى يعمل بها هؤلاء الجنود، وكان من بين هذه المدن بالضرورة مدينة القاهرة، والملاحظ أن هؤلاء المجندين يمثلون جانبا هاما من القوات التى تعتمد عليها الدولة ووزارة الداخلية فى الحفاظ على أمن البلاد ضد أعمال العنف والشغب.

ومن العجيب أن هؤلاء المجندين على عكس المتوقع منهم قاموا هم أنفسهم بأعمال العنف حيث انهالوا فى خلال يومى ٢٥، ٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦ على المنشآت المصرية ومؤسساتها تدميرا وتخريبا. أى أنه بدلا من أن يكونوا حماتها وحراسها أصبحوا رافعين لواء العنف والشغب ضد ما اؤتمنوا عليه والتزموا به من واجبات، ومن العجيب ايضا، ولا عجب فى ذلك، أن هؤلاء المجندين قد وجدوا من اعضاء المجتمع المصرى فى ذلك الحين من يسر لهم بل من عاونهم على القيام بأعمال العنف والتخريب المشار إليها.

والملاحظ أن مفهوم "المجند" فى الدراسة الحالية يعنى الشخص الذى وصل لسن التجنيد بالفعل وتم الحاقه بالشرطة عملا بالمادة الثانية أولا فقرة ب من قانون الخدمة العسكرية العسكرية والوطنية رقم ١٢٧ لسنة ١٩٨٠، والذى يؤدى الخدمة الإلزامية لمدة ثلاث سنوات طبقا للمادة الأولى من نفس القانون.

والحوادث التى اهتمت بها الدراسة المذكورة تعنى أى سلوك عدوانى إيجابى، بدنى، أو مادى، أو معنوى، ضد بعض ممثلى السلطة أو بعض أعضاء المجتمع أو الممتلكات العامة والخاصة - يوجهه بعض قوات الأمن والأمن المركزى بوزارة الداخلية يومى ٢٥ و٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦.

وقد لاحظت الدراسة بعض الملاحظات منها :

- أن المجند المتهم فى ارتكاب العنف وحوادث الشغب كان واقعا تحت تأثير الضغوط الاقتصادية أكثر من غيره، كانتمائه لأسرة هو عائلها الوحيد او كفقدان لمهنته التى كانت تد عليه دخلا كافيا له ولأسرته.

- أن المجند ينتمى إلى مجموعة من المجندين يكاد أن ينعدم الاشراف عليهم وتوجيههم.

- أن المجند واقع تحت تأثير بعض الأمور الاستفزازية بالنسبة له كآدمى يحس بإنسانيته وله آماله وطموحاته المشروعة.

- أن المجند ممن صادفته ظروف معينة صعبة داخل المعسكرات التى يعيش ويحيا فى ظلها.

- أن ما توقعه المجند من عملية التجنيد وما تحقق له بالفعل من هذه العملية يختلفان ولم يكن يخطر على باله.

وأننى أرجو أن يتذكر القارئ الكريم الدارسة عن مفهوم العنف عندما تحدثت عنه وعن مفهوم السلام من قبل، ولكنى أود أن أؤكد أن العنف المقصور هو العنف الإنسانى، وأن أعضاء الشعب المصرى بالطبع أعضاء مسالمون، ولكنهم يبغون السلام العادل، ولا يلجأون أبدا إلى العنف إلا إذا أجبروا عليه ووجدوه الوسيلة الوحيدة التى يدافعون بها عن كرامتهم.

وظاهرة العنف إن وجدت فى محيط المصريين، فهى توجد عادة من أجل الدفاع عن النفس والحرية والكرامة، وأن أهم المنافذ الاجتماعية، أو الأساليب التى يواجه الشعب المصرى بها صنوف القهر وألوانه هى فى معظم الأحوال، منافذ وأساليب غير عنيفة. فالمصريين لا يبدأون الهجوم بالعنف، ولكنهم إذا اتخذوا سبيل العنف سلاحا فإنهم يفعلون ذلك مدافعين عن أنفسهم ضد العنف الذى يصيبهم، إذ هم يرون بحق، فى ضوء حقائق التاريخ، أن العنف يولد العنف.

وقد يرى البعض أن مكافحة العنف ومواجهته مثل أية عملية من عمليات الشرطة الهامة، تخضع فى المقام الأول لاعتبارات الظروف الخاصة والملابسات المتصلة بكل حادث، وزمانه، ومكانه، وعدد الأشخاص المشتركين فيه، وأسلحتهم.. إلخ. ومن هنا، كما يرى هذا البعض، يصعب وضع قواعد ثابت ومحددة تكون قابلة وصالحة للتطبيق فى كل حادث، وأنه من ألزم الضرورات للشرطة أن تعد نفسها إعدادا تاما لمواجهة هذا العنف الجماهيرى، ولأنه جماهيرى، فهو فى العادة يكون مخططا وفى بعض الأحيان تلقائيا

وقد نشأت فكرة استخدام الأفراد المجندين بوزارة الداخلية فى مجال الأمن بعد قيام ثورة عام ١٩١٩، وذلك لوقوع اضطرابات كثيرة وشديدة فى

ذلك الوقت، ونظرا لعدم وجود احتياطى لقوات الشرطة فقد رؤى الاستعانة بأفراد مجندين من القوات المسلحة لاستخدامهم فى مقاومة الاضطربات.

ثم فكر المسئولون فى أفراد مجندين من بين المستدعين لتأدية الخدمة العسكرية للعمل بوزارة الداخلية بقصد مقاومة الاضطرابات وحفظ الأمن والنظام، وذلك بدلا من الاستعانة بأفراد القوات المسلحة وأطلق عليهم اسم "بلوكات الخفر" وقد بدئ فى إنشاء أول "بلوكات للخفر" بمحافظات القاهرة والإسكندرية والقناة وذلك فى عام ١٩٢٠.

وفى عام ١٩٣٠ أنشئ "بلوك خفر" فى بلدة قويسنا وسمى بلوكات خفر الأقاليم (وجه بحرى) لحفظ الأمن والنظام ومقاومة الاضطرابات فى مديريات الوجه البحرى، وآخر فى مدينة اسيوط وسمى ببلوكات الخفر الأقاليم (وجه قبلى) لحفظ الأمن والنظام ومقاومة الاضطرابات بالوجه القبلى.

وبعد قيام ثورة عام ١٩٥٢، أعيد تنظيم هذه القوات ولتوزيعها على جميع المحافظات، وسميت قوات الأمن. وقسمت هذه القوات إلى ثلاث مجموعات، وتم تعديل اسم بلوكات نظام الأقاليم وخصص "قشلاق" هذه البلوكات لتدريب المجندين الجدد.

وقد برز دور المجموعة الثانية (التى اصبحت تسمى قوات الأمن المركزى) : بروزا كبيرا وبخاصة منذ عام ١٩٩٦. وكان أهم واجباتها، كوحدات من قوات الأمن للعمل كاحتياطى مركزى، هو إيجاد قوة تحت تصرف الحكمدار لاستخدامها فى مقاومة حالات الاضطرابات أو اختلال الأمن العام التى لا يمكن لقوات الشرطة العادية وقوات الاحتياطى المحلى السيطرة عليها، واستخدمت هذه القوات (قوات الأمن المركزى) فى الأعمال الآتية :

- قمع الاضطرابات، وفض المظاهرات والتجمهر، وأعمال الشغب وما إليها فى حالات الطوارئ.

- حراسة المرافق والمنشآت الحيوية التى تؤثر على الحياة العامة، وذلك فى حالات الطوارئ.

- المعاونة فى حفظ النظام فى الاجتماعات العامة، عندما يتطلب ذلك قوات أكبر من المتيسر تدبيرها من رجال الشرطة العاديين وقوات الاحتياطى المحلى.

- الحالات التى يرى الحكمدار فى المحافظة أو المديرية، ضرورة الاستعانة فيها بقوات الاحتياطى المركزى.

- يجوز استخدام قوات الاحتياط المركزى، بأمر الحكمدار عند الضرورة على أن يخطر مدير مصلحة الأمن بتقرير عاجل بالظروف التى اقتضت ذلك.

وقد صدرت قوانين عديدة تتعلق بمعاملة هذه القوات، وكذلك لوائح خاصة لاستقبال القوات المسلحة للمجندين والكشف الطبى عليهم وتحديد مستوياتهم الثقافية.

وقد كان الاهتمام بوسائل الانتقال والاتصال كبيرا.وذلك لأن المسئولين يرون أن هذه الوسائل هى العصب الحيوى لإدارات وأقسام قوات الأمن، ويتطلب العمل سرعة انتقال القوات الذى يتوقف على مدى توفير وصلاحية وسائل الانتقال والسائقين، وبقصد التأكد، دائما، من إمكانية تحرك القوات بعدد كاف وفى أى وقت يتبع مايلى :

- يخصص لورى لكل فصيلة فض مظاهرات.

- تخصص سيارة ركوب قائد تشكيل.

- تخصص سيارات ركوب لمدير اقدارة او رئيس القسم ونائبه ولكل ضابط من ضباط الرئاسة.

- يتم تسليح هذه السيارات واللوارى بالشبك المسلح وتجهيزه باللاسلكى.

- يجهز لورى بدون صندوق لنقل ما يلزم المبنى من رمل وأدوات وأثاثات.

- يجوز تزويد الإدارة أو القسم بجرار زراعى وسيارة كسح وسيارة مقطورة مياة حسب الظروف.

ومع ذلك نلاحظ أنه يصرف للمجند ٧٥ مليما يوميا في حالات الطوارئ ويخصم مما يصرف الإجازات والغياب بدون إذن والحبس والحجز بالمستشفى. أما بدل التعيين النقدى فقدره ١٨٠ مليما يوميا (عدل إلى ٤٠٠ مليما) بعد أحداث يومى ٢٥ و٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦.

وأرجو أن يسمح لي القارئ الكريم بأن اكتفى بما ذكرت عن هذه القوات لكى أبرز بعض النتائج أهمها مايلى :

- أن قوات الأمن المركزى منذ إنشائها كانت اليد القوية لأصحاب السلطة والسلطان في الدولة، وقد اختير أعضاؤها وربوا لكى ينفذوا الأوامر فى ظل شعار المقولة المشهورة "النقمة تعم والنعمة تخص" ومنذ إنشاء هذه القوات وتحديد مهامها وواجباتها وإعدادها تتزايد على مر الأييام حتى بلغ عددها في الوقت الراهن (أوائل عام ١٩٨٦) حوالى ٣٠٠,٠٠٠ عضو.

- أن وجود هذه القوات يعنى وجود جماعات أو تنظيمات مهنية جديدة فى مجتمعنا المعاصر، وقد أتسم أعضاء هذه الجماعات بسمات إنسانية معينة.. منها بل ربما تكون أهمها أنهم فى مستوى عقلى معين وأنهم فى سن المراهقة المتأخرة. أى السن التى يكون المرء منا فيها أكثر حساسية وأقل نضجا. أو السن التى لم تتكون فيها المحددات التكوينية والثقافية الاجتماعية والنفسية العقلية لكل عضو من أعضاء هذه الجماعات، أى السن التى لم يكمل فيها تكوين شخصيته الاجتماعية.

- ويلاحظ أن وضوح تباين هذه الجماعات عن غيرها من جماعات المجتمع الأخرى يرجع إلى مظهر أعضائها المادى (الملابس مثلا) فضلا عن آثار سلوك هؤلاء الأعضاء في مواجهة أعضاء الجماعات الأخرى فى المجتمع، وهى آثار كانت فى الأغلب الأعم سلبية ويراها ويسمع عنها أعضاء المجتمع المصرى أفرادا وجماعات، وكان من هذه الآثار السلبية ميل أعضاء هذه القوات إلى الاعتداء على الاخرين حيث تزداد مكانة العضو فيها ارتفاعا كلما ازدادت مهارته فى استخدام الأسلحة المختلفة التى يعتدى بها على الآخرين ويحطم بها الأشياء.

- ومن ثم فإن جماعات قوات الأمن أصبحت منعزلة وغير مقبولة اجتماعيا، وأصبح التعامل مع أعضائها يولد الشعور بالعداوة بينهم وبين غيرهم من أعضاء المجتمع المصرى الأسوياء منهم وغير الأسوياء على السواء.

- وإذا كان بعض أعضاء المجتمع المصرى لم يبلغ شعورهم بالعداوة مستوى يجعلهم يستعملون العنف ضدهم، فإن أعضاء هذه القوات عاشوا فى قلق مرضى وفى حيرة من أمرهم. فهم قبل كل شئ من أبناء الوطن المفدى، هذا الوطن الذى يتعطر مناخه الثقافى الاجتماعى، فى ضوء تراثه، بالسلام وبالقيم الاجتماعية العديدة ذات الأهداف الحميدة التى منها الشعور بالمحبة، محبة الناس بعضهم لبعض، والتعاون على البر، والإيمان الخالص، وبذل النفس والنفيس فى سبيل شرف الوطن والتضحية من أجله.. إلخ.

- وإذا كان أعضاء قوات الأمن المركزى فى خلال الفترة الأخيرة (يومى ٢٥ - ٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦) قد ارتكبوا جنايات عديدة تتسم بالعنف الشديد (منها جنايات القتل والضرب الذى أفضى إلى الموت)، فإن هذه الجنايات كانت فى الغالب الأعم جنايات مقاومة السلطات والتجمهر. أى أنها جنايات يرتكبها عادة جماعات ولا يرتكبها أفراد (أرجو أن يتفضل القارئ بمراجعة ماذكرته عن مفهوم العنف وما يتعلق به من قبل)، والملاحظ أنه إذا صدر العنف عن الجماعات أو التنظيمات الاجتماعية أو الثقافية أو المدنية أو السياسية المنظمة كالجامعات والأحزاب والتنظيمات الدينية (المتطرفة) والتنظيمات المهنية (يلاحظ أن قوات الأمن المركزى تنظيم مهنى) يكون هذا العنف عادة مخططا له من قبل.

- وفى ظل بعض ألوان القهر التى يعيش فى ظلها أعضاء المجتمع المصرى المعاصر، وجد أن بعض هؤلاء الأعضاء قد اشتركوا فى ارتكاب بعض الجرائم، ولكن يلاحظ أن الأغلبية الساحقة من أعضاء هذا المجتمع وقفت موقف المتفرج وكأن لسان حالهم يقول إن : "السلطة تحارب ضد السلطة". ومع ذلك فإننا لاحظنا أن عددا كبيرا من أعضاء هذا الشعب قد تعاونوا مع بعض قوات الأمن المركزى الذين أرغموا على دخول السجون

ولم يصرف لهم طعام ولاماء ثم أفرج عنهم أو هربوا من السجون ومشوا فى الطرقات. على غير هدى، وكان العديد من المصريين البسطاء الكرماء يمدون لهم العون بالطعام والشراب والملبس (حيث تركوا فى السجن بملابسهم الداخلية فقط) والمأوى، وذلك لأنهم أى المصريين البسطاء رأوهم يأكلون ما يصادفهم من حشائش الأرض المزروعة، وكانت حالاتهم يرثى لها، ولعل هذا الموقف أقصد موقف المتفرج وكذلك موقف المصريين البسطاء الكرماء أن يكونا متوقعين.

وعلى العكس من ذلك فقد لوحظ أن بعض ساكنى حى الهرم وغيرهم من سكان العمارات التى حول حديقة الحيوانات قد تبرعوا لجنود الجيش المصرى وضباطه بالشاى الساخن وبعض الحلوى والكعك، وتعتبر هذه الأنماط السلوكية متوقعة أيضا من هؤلاء السكان، وإن كانت تعتبر استثناء.

- وأننى أرجو من القارئ الكريم أن يلاحظ ما لاحظته ولاحظه الكثيرون من أعضاء المجتمع، المكان، الذى بدأ فيه العنف وتوقيت حدوثه. فالمكان كان سياحيا والتوقيت كان فى الموسم السياحى حيث يكثر الأجانب من الجنسيات المختلفة وهم خير وسيلة إعلامية خارج حدود مصرنا الخالدة للنيل من النظام الذى يعيش أعضاء مجتمعنا تحت رايته.

- وقد اتخذت صور عنف المتمردين من أعضاء قوات الأمن المركزى، وبخاصة فى منطقة القاهرة الكبرى، صورا عديدة، وكانت تهدف هذه الصور فى الأغلب الأعم إلى إزهاق الأوراح وإلى ما يملكه ذوو اليسار من أبناء الوطن أو غيرهم، وإحراق الملاهى الليلية (الكاباريهات) والفنادق والمطاعم. ويرجع ذلك إلى شدة صور العنف وقسوتها وليس بالضرورة إلى وازع دينى. فى بعض الحيان (انظر : محمد إبراهيم حسنين عمران : أحداث الشغب والعنف يومى ٢٥ و٢٦ فبراير ١٩٨٦، إشراف سيد عويس، معهد القادة لضباط الشرطة، شهر ابريل عام ١٩٨٦).

أمثلة حية تاريخية

عن بعض أنماط العنف

٨- التفرقة اللاإنسانية :

من الوصمات اللامعة اجتماعيا، التي توجد في الكثير من المجتمعات البشرية المعاصرة، ما يطلق عليه التفرقة اللاإنسانية، وهي أنماط عديدة. منها التفرقة الطبقية والتفرقة الدينية والتفرقة العنصرية، والأمثلة على التفرقة الأخيرة وبخاصة في قارتنا الأفريقية عديدة، وهي واضحة وضوح الشمس وهي ساطعة في كبد السماء في المجتمعات الغربية وبخاصة في المجتمع الأميريكي، ونجدها في الوقت الراهن في معظم بلاد العالم أقصد في معظم القارات التي تكون كوكب الأرض. يقرأ الإنسان العادي عن ذلك في الصحافة ونسمع ونشاهد ألوانا من هذه التفرقة على الشاشة الكبيرة وعلى الشاشة الصغيرة أيضا.

ولاجدال فإن التفرقة العنصرية تسلم بوجودها، بالضرورة المبادئ غير الإنسانية بأنماطها. فهو أي وجود التفرقة العنصرية مهما كانت عوامله، لا يمكن أن تعترف به، أبدا مبادئ العدالة والإنصاف، والملاحظ إذا أمعنا النظر في البقاع التي توجد فيها هذه التفرقة الانسانية نجد أنها مصدر هام من مصادر الشعور بالعداوة الذي بدوره يؤكد الصراعات في المجتمعات التي تسمح بوجودها، وأرجو أن يذكر القارئ الكريم هذا الشعور أقصد الشعور بالعداوة، أنه وليد العنف بألوانه. ففي ضوء تجاربي الواقعية التي عشتها وأنا في الولايات المتحدة في خلال الفترة من عام ١٩٥٣ - ١٩٥٦، وعندما زرت هذه البلاد في خلال عام ١٩٧٠، كانت التفرقة العنصرية السائدة في المجتمع تنم عن ألوان مستمرة من الإحباط في صفوف الزنوج الأميريكيين، بل كانت مصدرا لا ينضب من مصادر هذه الألوان.

وكانت التجربة الأولى عندما تيسر لي السكن في "محلة نورفلك" الواقعة في ميدان "جون أليوت" بمدينة بوستن. واختار لي المدير غرفة من

غرف المحلة العديدة التى كان عددها حوالى مائة غرفة أو اكثر، وأننى أذكر أن هذا المدير قد قابلنى وكان بشوشا ويبدو على وجهة السرور ولم أعرف عوامل هذه البشاشة وهذا السرور إلا بعد هذه المقابلة، وقد ذكر المدير أنه نظير المبيت فى غرفتى والاستمتاع بحقوقى (استعمال المكان المخصص للراحة والمطبخ ومشاهدة برامج التليفزيون.. إلخ) أن أعطى من وقتى ست ساعات فى المساء أسبوعيا واخترت يومى الاثنين والأربعاء من كل أسبوع لأؤدى عملى كأخصائى اجتماعى متخصص فى طريقة خدمة الجماعة.

والملاحظ أن محلة "نورفلك" كانت تقع فى حى يسكنه سكان من الزنوج كثيرون وقد كانت نية مدير هذه المحلة أن يبدأ السماح لكى يلتحق بالمحلة بعض الشبان من الزنوج وبخاصة وقد وجد لونا جلديا مناسبا لريادة هؤلاء الشبان. وفى ضوء خبراتى المهنية وسمات وجهى رأى المدير أننى فى نظره صالح لقيادة هذه الجماعة من شبان الزنوج شكلا وموضوعا، وكانت نشاطاتى مع جماعة الأولاد الزنوج الذى أطلقوا على أنفسهم "ذافيبرز" أى "الأفاعى السود" متعدة، وقد لاحظت أن كل عضو من هؤلاء يلبس "جاكيت" سوداء اللون مكتوبا عليها باللون الأبيض اسم الجماعة.

وقد سعدت بمهمتى سعادة كبيرة لأننى أعمل بين الأولاد الزنوج الذين يعتبرهم "البعض" بعامة وحتى فى مدينة بوستن "مدينة الحرية والأحرار" حيث يجد الزائر لمجلس نواب هذه المدينة نصبا أقيم تخليدا لذكرى أول زنجى صرعه الإنجليز (المستعمرين) فى الحرب الثورية فى عام ١٧٧٠، أنصاف مواطنين. وأنا لا أقول هذا الكلام جزافا فقد ذكر إلى "جون جراى" الزنجى الوحيد الذى كان بيننا وهو طالب فى كلية الفنون الجميلة بمدينة بوستن، أنه لم يجئ إلى محلة نورفلك إلا بعد أن دار فى شوارع بوستن وحاراتها أياما لكى يسكن مع زميل له "أبيض" ولم يجد مكانا يؤويه إلا إحدى الكنائس التى وجهته إلى المحلة. كان أصحاب الشقق للإيجار يرحبون بزميله الأبيض ويرفضونه هو، وكانت صدمة عنيفة له لأنه كان يعتقد أن مدينة بوستن لها تاريخ وتعتبر مصدر الحرية والأحرار الذين فروا من أوربا إلى الأرض الجديدة ليعمروها بعيدين عن القيود التى كانت

مفروضة على آرائهم فى ذلك الحين، لا يمكن أن يجد فيها لونا من ألوان التفرقة.

ولن أنسى وسأذكر دائما وقع سقوط قلعة "ديان بان فو" فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٤، وهى التى حاصرها الفيتناميون الأحرار حصارا دام ٥٥ يوما على قادة الولايات المتحدة السياسين وغيرهم عندما استمعت إلى الرثاء الذى بثه المذيع يوم سقوط القلعة، كان رثاء "ندابة" مصرية، صدر عن قلب مكلوم حزين حقا، ولقد دهشت لأن هذه القلعة تقع فى الشمال الغربى من "إقليم فيتنام"، وأن الذين هزموا كانوا من جنود وضباط جيش الفرنسيين ولم يكونوا من جنود وضباط جيش الولايات المتحدة، ولكنه الغرب ومصالح الغرب ومستقبل الغرب، هى التى دفعت هذا المذيع المكلوم الحزين لأن يبث مرثيته على بنات وأبناء الشعب الأميريكى وغيرهم فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٤.

وسأذكر دائما انطباعات نزلاء محلة نورفلك (زميلاتى وزملائى) لما حدث فى خلال عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٦، عندما هبت على المجتمع الأميريكى زوابع "جوزيف مكارثى" الذى كان يظنه البعض من خارج الولايات المتحدة أنه القائد الأميريكى "دوجلاس ماك آرثر" الذى قاد القوات الأميريكية فى الشرق الأقصى فى الحرب العالمية الثانية، والقوات المتحالفة لليابان بعد هذه الحرب، أما جوزيف مكارثى فقد كان عضوا بمجلس الشيوخ الأميريكين عن ولاية "وسكونسن" وكان من أصل أيرلندى وكاثوليكى وينتمى إلى الحزب الجمهورى، كان هو وأتباعه فى تلك الفترة يتعقبون بالشبهة والشائعة العديد من المثقفين الأميريكيين (كأساتذة الجامعة ومن فى حكمهم مثلا) ويتهمونهم بالموالاة للشيوعية وإثارة الفتن، وكانت جلسات محاكمة الأخيرين تعقد وتبث وتشاهد فى التليفزيون يوميا تقريبا، وكانت مواعيد هذه الجلسات محددة ويجتمع فى خلال فترة بثها ملايين الأميريكيين حول التليفزيونات متتبعين ما يدور فيها، وكنت مع معظم نزلاء محلة نورفلك حريصين على أن نفعل ذلك ونرى أمامنا ما يحدث وكأننا نرى فيلما سينمائيا مخيفا، وقد تأكدت أن مكارثى وأعوانه ومن كانوا وراءهم كانوا يبغون ألا يلفتوا نظر أعضاء المجتمع الأميريكى إلى ما يهمهمن أمور عن عمد

بوساطة جذب انتباههم إلى ما كان يحدث فى هذه المحاكمات.إن مجتمع الولايات المتحدة كما كنت أراه ويراه غيرى من العلماء والمثقفين الأميريكيين كان مجتمعا يستشرى فيه الفساد فى نواح كثيرة، فقد كانت أكبر نسبة من الجرائم توجد فى هذا المجتمع وكانت أكبر نسبة من مرضى القلب توجد فى هذا المجتمع أيضا، وكانت من كل عشر آنسات أو سيدات أربع مريضات بمرض نفسي أو عقلي، وكان من كل ١٣ رجلا واحد يمارس بل يحترف الجنسية المثلية، وكان جناح الأحداث فى ذلك الحين يستشرى فى أكثر من مليون حدث. كل هذه الحقائق وغيرها مثلها قد عرفتها وعرفها غيرى فى ضوء نتائج بحوث علمية اجتماعية أجريت فى تلك المجالات فى ذلك الحين. صحيح أن مستوى الجانب الثقافى المادى فى المجتمع الأميريكى مستوى عال ما فى ذلك من شك، وأن مستوى المعيشة فى محيط الأميريكيين مستوى عال ما فى ذلك من شك أيضا. ولكن القارئ الكريم يعلم كما أعلم تماما أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، ومهما يكن من الأمر فإننا نجد فى ثنايا تاريخ الولايات المتحدة، طبقا لما ذكره "شارد بورزسميث" فى كتابه (اليانكيون والآلة)، ظواهر تشابه "ظاهرة المكارثية". أى أن ظاهرة المكارثية قد حدثت فى تاريخ هذا البلد مرات عديدة، والملاحظ أن مقومات هذه الظواهر كانت فى الأغلب الأعم متشابهة. فنجد أنها تستند إلى قيادة قوية ولكنها فى نفس الوقت قيادة غبية وأن غباءها مستحكم لدرجة أنها لا تستطيع نقد نفسها ذاتيا أو أن تكون فكرة أو تصورا عن ذاتها، وهى تستند أيضا إلى الاندفاع العصابى إما لتحقيق القوة أو للاحتفاظ بها، وهى تستند كذلك إلى ماتتزود به من شجاعة حيوانية وضحالة أخلاقية التى تيسر لها التبرير لما تقوم به من العنف أو النزوع إلى الحصول إلى المغانم غير المشروعة، فضلا عما تقوم به من أنواع الحقد وتعمد الأذى والرذيلة.

كانت هذه المقومات التى ذكرها "شارد بورزسميث" فى كتابه الذى نشر فى عام ١٩٥٤ كلها، تتحدث عن نفسها أمامنا، وأمام الملايين من أعضاء المجتمع الأميريكى، عندما كنا نشاهد ظاهرة المكارثية على الشاشة الصغيرة، وقد شهدنا قطعا أعضاء هذا المجتمع من قبل فى عام ١٦٥٠ عندما كانت الضحايا أعضاء "مذهب الكويكرز" وأعضاء "مذهب البابتستس" (المعمدون البروتستانتيون)، وما حدث فى عام ١٦٩٢ عندما طوردت

"الساحرات" وعذبن فى مدينة "سالم" بولاية ماساتشوسيت لمدة ستة شهور، وفى خلال الأعوام ١٨٤٠ - ١٨٥٠ عندما ظهرت الحركة المضادة للمذهب الكاثوليكى. (انظر شارد بورزسميث : اليانكيون والآلة باللغة الإنجليزية، نيويورك، عام ١٩٥٤، صفحة ١٠، وصفحة ٢٤٩ وصفحة ٤٦٤).

ولم أكن أدهش كثيرا عندما كنت أرى تابعا من أتباع مكارثى يدلى بشهادة فى المحكمة التى كنت أراها كما كان يراها الملايين غيرى على شاشة التليفزيون , كنت أرى فى هذا التابع ظلال الجهل الذى يعشش فى تلافيف دماغه، وكنت أرى فيه الشعور بالنقص واضحا، أما رغبته فى تحطيم من كان أفضل منه وأعظم فلم تكن تخفى على أحد، وكنت أرى فى هذا التابع كذلك محاولته التى كان يصر عليها لتظهر قدرته على إظهار كل ما هو غير ذى علاقة بموضوع اتهام ضحيته، وكانت تنتهى المحاكمة وأذكر أننا نزلاء محلة نورفلك كنا نمكث على مقاعدنا قليلا، وكان لا يتكلم منا أحد. ثم نتفرق واحدا وراء الأخر. لم يكن يتحدث معى عما رأيناه وسمعناه أحد، ولم أكن أنا أيضا أتحدث مع أحد حتى مع من كانت تجمعنى وإياهم النظرة نحو الحياة، لم يكن يجرؤ واحد منهم أن يقول لى شيئا أو يعلق على ما رآه وسمعه بشئ ولعل ذلك يرجع إلى أننى كنت فى حجرة المطبخ فى الساعة الواحدة صباحا فى يوم من أيام هذه الفترة وكان معى شاب "كندى" كنا نلتمس طعاما "نسكت به العصافير" التى كانت تزقزق فى بطن كل منا. فإذا بالنزيل الزنجى (الذى انضم معه إلى نزلاء المحلة آنستان زنجيتان فى تلك الفترة). كان فى الخارج وفى أثناء دخوله من باب المحلة ناداه أحد رجال الشرطة من الزنوج، وقال لنا جون أنه سأله عن النزلاء : ماذا يقولون وماذا يفعلون، فنفى جون أنه سمع شيئا غير عادى أو رأى فعلا استثنائيا. كان جون يقول لنا ذلك وهو ممتقع الوجه وكانت يداه ترتعشان، ولم نعلق بشئ ولكننا عرفنا أننا أى نزلاء المحلة تحت الرقابة، ومن كان تحت المراقبة وهو فى بلاد الغربة مثلى يصح له أن يعيش جبنا الاغتراب أى يعيش وهو موجود ويعيش وهو غير موجود فى أن واحد. إن المسألة، كما كنت أقول لنفسى، ليست جنبا أو خوفا أو خشية، لكن المسألة أهم من ذلك وأعظم وهى أن أحرص على حياتى أن تهدم بلا مبرر، وكانت لى تعاليم "أسبارتاكوس" العبد الثائر، الذى ثار على روما والدولة الرومانية وكانت فى عنفوانها

أو نقشها أو إعادة تبييضها أو نقشها، وكنت أرى أعضاء هذه الجماعة وقد حمل بعضهم على كتفهم "السلم الخشبى" "أو فى أيديهم الفرشاة" أو "جردل البوية". وأراهم وهم يسيرون فى الشارع بإصرار ودون ما وجل أو خشية من أحد وكنت ارى ذلك، وكان غيرى من سكان الحى يرونه، وكنت أرى الزهو أحيانا، وكنت أرى التواضع أو ما كان يبدو لى أنه تواضعة أحيانا أخرى.

ولأننى كنت من نزلاء محلة نورفلك، ولأن وقت الفراغ فى خلال فترة الصيف اطول منه فى فصل آخر، فقد كان المسئول عن نشاطات أعضاء جماعة الطالبات والطلبة المذكورين يوجه الدعوة إلى لحضور اجتماعها بعد أن يكونوا قد أدوا مهامهم اليومية، لم تكن هذه الدعوة توجه إلى يوميا بالطبع، فالجماعة لها نظامها وتقاليدها وقيمها الاجتماعية الحميدة منها فى رأيى وغير الحميدة منها فى رأيى أيضا. ولم أكن عضوا فيها، وكانت الجماعة تعيش فى محلة نورفلك في فترة الصيف حيث لا عمل فيها أو فى الجامعات التى ينتسبون إليها. إن أعضاءها فى حقيقة الأمر كانوا يقيمون فى المحلة إقامة فعلية لفترة لا تقل عن شهر، وفى الاجتماع الذى كنت أحضره أجد أن كل عضو يدلى في ورقة بشئ يشبه التقرير عما مر به من تجارب وما اكتسب من خبرات. وكان من بين أعضاء الجماعة من كانوا من ولايات الجنوب مثل "ولاية الباما" و "ولاية جورجيا".

وفى أحد الاجتماعات الذى دعيت إلى حضوره أدلى أحدهم وكان من احدى عائلات البيض الثرية تقريره اليومى وكان يسهم مع آخر فى تنظيف احدى الشقق لأسرة زنجية. كان هذا الشاب قد جاء من ولاية جورجيا وكان عضوا فى صفوف طلبة "جامعة هارفارد" فى منطقة "كامبردج" التى لا يفصلها عن جامعة بوستن إلا كوبرى صغير، وبدت على وجه هذا الشاب وهو يتحدث علامات التقزز والاشمئزاز والازدراء جميعا، وقال ضمن ما قاله أنه "لا يطيق رؤية أحد الزنوج يسير فى الشارع فكيف له أن يقوم بتنظيف شقة أسرة زنجية أو أن يسهم فى هذا التنظيف ؟. وكانت مشاعره تأبى عليه أن يواصل مابدأ، وبدا أن الموقف، إذ كنت حاضرا، حرجا، وكان رئيس الجماعة أو المسئول عنها لبقا فاقترح تأجيل النظر فى هذه الحالة إلى

جلسة مقبلة التى لم أحضرها لسبب بسيط لأننى لم أدع إلى حضورها أو إلى حضور غيرها من الجلسات.

وأننى أرى وأرجو من القارئ الكريم أن يرى ما أرى أن الظاهرة الاجتماعية بل إن أى شئ فى عالمنا شئ له تاريخ. كل له تاريخ هذا عنوان كتاب "بروفسور هولدين" الذى نشر فى عام ١٩٥١، وفى ضوء هذه العبارة الصادقة التى تذكرتها وأنا فى عرض المحيط الأطلنطى عائدا إلى مصرنا الخالدة بعد حصولى على درجة الدكتوراه فى عام ١٩٥٦. وفى هذه الأثناء تذكرت أيضا زنوج الولايات المتحدة وكيف كانوا يجلبون قسرا من بلادهم ومن أحضان ذويهم الحانية إلى القارة الأميريكية.

كان الإنجليز من أهم تجار "العبيد" كانوا يبزون الأسبانيين والفرنسيين والبرتغاليين والهولنديين فى هذه التجارة اللاإنسانية، وقد بدأت تجارة العبيد منذ عام ١٦٨٠ عندما رأى المستعمرون أن زنوج أفريقيا خير معين لهم فى القيام بالأعمال الشاقة فى مزارعهم الشاسعة.

وكان الإنجليز من المستعمرين يقومومن بهذه التجارة عن طريق ما أطلق عليها "تجارة المثلث" حيث كانت تخرج المراكب من ميناء "ليفربول" أو "ميناء" "برستل" وهى فارغة، ويقودها القراصنة من التجار الإنجليز، الذين كانوا يسولون لأنفسهم تجارة البشر (أصبح هؤلاء فيما بعد اللوردات الإنجليز الذى طالبوا بالحكم، وأحفادهم اليوم هم الساسة المرموقون فى المجتمع الإنجليزى)، وكانت المراكب الإنجليزية الفارغة تسير إلى أن تصل إلى مرساها عند ساحل أفريقيا المطل على المحيط الأطلنطى، وكانت بضاعة هؤلاء النخاسين التى يستبدلونها بها البشر من العبيد الأفريقيين من الذى كانوا يجوعون بعد أن يصطادهم الذئاب من التجار الذين كانوا يحشدونهم فى أماكن تقع على ما يعرف الآن بـ (ساحل غينيا). كانت هذه البضاعة الزجاجات المملوءة بأنواع الكحول الرديئة والأسلحة النارية الصغيرة وبعض المنسوجات القطنية والعديد من الحلى التافهة.

وتمثل هذه العمليات الضلع الأول من مثلث هذه التجارة اللعينة. ثم يحشد ما تم أستبداله من العبيد فى المراكب لكى يعبروا المحيط (الأطلنطى) مرة ثانية فى طريقهم إلى المستعمرات الأميريكية، وكان هدف أهداف هذه

العمليات مرجعه إلى الجشع والرغبة فى الربح عن طريق العنف والقسوة اللاإنسانية وكانت هذه الرغبة فى الربح تتغلغل فى أعماق نفوس تجار العبيد من البشر أو تجار البشر الذين أصبحوا عن طريق استخدام الإرهاب عبيدا.

وبتحقيق هذه العملية يكون قد استكمل الضلع الثانى من تجارة المثلث. ثم يبدأ الضلع الثالث وذلك بأن تكدس المواد المختلفة التى انتجتها المستعمرات الأميريكية ومن أهمها "عسل السكر" نظير ما بقى من العبيد المغلوبين على أمرهم حسب أعمارهم ونوعهم وما تبقى لهم من صحة وعافية. ثم تقلع المراكب بما حملت لتذهب من حيث أتت أى إلى ميناء ليفربول أو ميناء برستل. (الموسوعة البريطانية : عدد ٢٠، بتاريخ ١٩٦٨، صفحة ٦٣٥).

لم أكن فى ذلك الوقت الرهيب جئت إلى هذه الدنيا ولكننى قرأت الإعلان المواجه لصفحة رقم ١٩٦ فى الموسوعة البريطانية : عدد ١٦، بتاريخ ١٩٦٨، إذ يقول هذا الإعلان :

"للبيع على سطح مركب" بانسى : باند "يوم الأثنين ٦ من شهر مايو المقبل على "المعدية - ابليرى" حمولة منتقاة من ١٥٠ زنجيا أصحاء وصلوا فى الوقت الراهن من شاطئ ويندورد وريس"

والعناية التامة بهؤلاء الزنوج قد اتخذت، وستستمر هذه العناية حتى يتفادوا أى خطر من حيث العدوى بمرض "الجدرى". ولم يسمح لأى قارب ليكون على سطح المركب، وقد تم تحريم اتصال أى شخص آت من "مدينة شارلس".

(... ملاحظة :

نصف عدد الزنوج المذكورين أعلاه كانوا مصابين بمرض "الجدرى" عندما كانوا فى بلادهم).

وعشت فى هذه الدراما اللاإنسانية ساعات وساعات، وكنت أتصور أننى كنت واحدا منهم وأحاول أن أتخيل التجربة أو التجارب التى كان يواجهها هؤلاء التعساء من البشر، وقد تأكدت هذه المشاعر المظلمة عندما فى قرأت كتاب "الجذور" لمؤلفه "الكس هيلى" الذى نشر فى عام ١٩٧٧. كان

مضمون هذا الكتاب يفصح بوضوح عن أن الإنسان يمكن أن يكون وحشا كاسرا، وعندما ما شاهدت "الفيلم" الذى عكس الدراما اللاإنسانية التى تضمنها الكتاب المذكور زادت مشاعرى المظلمة ظلاما.

وتذكرت ما كتبته عن "رفاعة رافع الطهطاوى" نقلا عن كتاب الأخ الفاضل الأستاذ الدكتور "رفعت السعيد" وعنوان هذا الكتاب (المؤلفات الكاملة: المجلد الأول، الناشر دار الثقافة الجديدة، القاهرة، تاريخ ١٩٧٨). فإذا بى أعيد قراءة وثيقة بخط رائد الأجيال رفاعة رافع الطهطاوى وختمها بخاتمه فأجد إنسانية هذا الرجل ساطعة تؤكد اهتمامه بالمرأة واحترامه لها، وعلى الرغم من وجود "الجوارى" فى منزله حيث كان رجال الشريعة الإسلامية يبيحون التمتع بهؤلاء الجوارى (ملك اليمين). وليقرأ معى القارئ الكريم الوثيقة التى أشرت إليها.

"ألتزم كاتب هذه الأحراف رفاعة بدوى رافع لبنت خاله المصونة كريمة العلامة نالشيخ محمد الفرغلى الأنصارى أنه يبقى معها وحدها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى ولا جارية أيا كانت، وعلق عصمتها على أخذ غيرها من نساء، أو تمتع بجارية أخرى. فإن تزوج بزوجة أياما كانت.. كانت بنت خاله بمجرد العقد طالقة بالثلاثة وكذلك إذ تمتع بجارية ملك يمين، ولكنه أوعدها وعدها صحيحا لا ينتقض ولا يحل أنها مادامت معه على المحبة العهودة مقيمة على الأمانه والعهد لبيتها ولأولادها ولخدمها وجواريها. ساكنة معه فى محل سكناه، لا يتزوج بغيرها أصلا، ولايخرجها من عصمته حتى يقضى الله لأحدها بقضاء. (أنظر : رفعت سعيد) المؤلفات الكاملة المجلد الأول، القاهرة، دار الطباعة الحديثة، ١٩٧٨، صفحة ٣٤).

ومن نكد الدنيا أن نجد فى ضوء حقائق التاريخ أن الإنجليز بعد أن مر إثنا عشر عاما على احتلالهم لمصرنا الخالدة كما ذكر الاستاذ الصحفى "صلاح عيسى" فى كتابه"حكايات من مصر" الذى انتهى من كتابته فى شهر أبريل عام ١٩٧٢ وقد نشرته دار "الوطن العربى" بيروت - أن الرقيق كان قد ألغى من مصر بموجب معاهدة مصرية إنجليزية ابرمت فى عام ١٨٧٧ (قبل الاحتلال المشئوم)، تطبيقا لها صدر أمر عال من الخديو (اسماعيل) فى أغسطس من العام نفسه، ينص على فترة انتقال مدتها اثنا عشر عاما يسمح

فى خلالها للأسر التى تمتلك جوارى أو عبيدا أن تتاجر فى الرقيق مع غيرها"

"وبعد مضى المدة المحكى عنها إذا كان أحد من رعايا الحكومة المحلية يخالف الأمر ويتجرأعلى بيع الرقيق السودانى أو الحبشى تصير مجازاته بالأشغال الشاقة لمدة أقلها خمسة أشهر وأكثرها خمس سنوات" (انظر صفحة : ١٥٩).

والملاحظ أنه فى ضوء ما كتب من قبل أن دور الإنجليز فى تجارة العبيد التى بدأت منذ عام ١٦٨٠، وكان الزنوج خير معين لهم فى القيام بالأعمال الشاقة فى مزارعهم فى ذلك الحين. كانت الحالة الاقتصادية تقتضى وجود هؤلاء الزنوج أى الأيدى الإنسانية العاملة، ولما تطورت الحالة الاقتصادية، واخترعت الألة، اكتفى الإنجليز والمستعمرون الآخرون بما فعلوه من معاملة لا إنسانيية من قطاع الزنوج القطاع المستضعف. أقصد المستعمرين وهم على أبواب بناء الرأسمالية قد وجدوا أن تكاليف هؤلاء أصبحت باهظة ومن ثم ارتفعت الأصوات بإلغاء الرقيق فى العالم، ولعل بالإضافة إلى ذلك "قيام الحرب الأهلية" فى الولايات المتحدة التى ناضل فيها الذين كانوا ينادون بإلغاء الرق. وقد كسب هؤلاء الحرب ولكنهم خسروا السلم، وفى خلال الأعوام المضطربة من عام ١٨٦٥ إلى عام ١٨٧٧ وعن طريق انتهازية بناة الدولة الرأسمالية وجشعهم ونقص التخطيط وضعت أسس نظام التفرقة الذى يعانى منه زنوج الولايات المتحدة حتى وقتنا هذا.

ولم يكن "إبراهام لنكلن" الذى قاد الحرب الأهلية "يؤيد" إلغاء الرق، وكان يعتبر هذه الحرب ثورة من "مواطنى" الجنوب وليست من "ولايات" الجنوب، ومن ثم فإننا نراه بعد انتهاء الحرب كان من رأيه ان يدع ولايات الجنوب تعالج مشكلة الزنوج كما يروق لها (انظر كتاب ثورة الزنوج تأليف لويس لوماكس، ترجمة سيد عويس، فى كتب سياسية الدار القومية للطباعة والنشر، عام ١٩٦٦، صفحة : ١٩)

وقبل أن يمل القارئ الكريم أود أن أذكر أنه فى عام ١٩٦٤ قد حصل "جان بول سارتر" على جائزة نوبل، ولكنه رفضها. كما حصل "مارتن لوثر كنج" على نفس الجائزة ولكنه قبلها ولم يرفضها، ونلاحظ أن

مارتن لوثر كنج الذى كان نصيرا لعدم العنف قد صرع قتيلا فى عام ١٩٨٦، وذلك على الرغم من أن الزنوج الأميريكين، فى ضوء معاملة البيض فى كل مواقع الحياة التى يحيونها هم الذين لاصله لهم إلا استخدام العنف، فالمعروف أن "العنف يولد العنف".(المرجع السابق : صفحات، ٤٤ - ٤٧)

وقد شهد شاهد من أهلها إذ طالعتنا مجلة "تايم مجازين" (عدد رقم ١٢، شهر مارس عام ١٩٨١، صفحات ١٨ - ٢٣) بالمعلومات عن بعض جرائم العنف التى ترتكب فى المجتمع الأميريكى، فذكرت أن فى كل ٢٤ دقيقة ترتكب جريمة قتل فى مكان ما فى الولايات المتحدة (٢١٩٠٠ جريمة فى العام) وأنه فى كل عشر ثوان ترتكب جريمة سرقة فى أحد المساكن، وأن فى كل سبع دقائق ترتكب جريمة اغتصاب، وهناك أمر هام (كما ذكرت المجلة) ويعتبر جديدا بشأن جرائم القتل والسرقات والاغتصاب والإعتداء على الآخرين، وهذا الجديد يبرز أن لغة العنف فى ارتكاب الجرائم قد انتشرت وتنتشر ليس فقط فى أحياء الأقليات (ومنهم الزنوج بالضرورة) وبخاصة فى المدن التى ينتشر فيها الكساد حيث يسود الحقد، ولكن قد نجد هذا العنف منتشرا أيضا فى كل بقاع المناطق الحضرية وضواحيها وحتى فى أنحاء الريف (المسالم) ومن المهم أن نذكر (هذا ما تذكره المجلة المذكورة) أن أنواع الجرائم قد أصبحت أكثر وحشية وترتكب من وحى الغرائز دون ما منطق وبعشوائية، ومن ثم فهى بالضرورة مخيفة ومفزعة، ومن الجرائم التى تزعج الرأى العام يلاحظ أن كل أسرة من ثلاث أسر الولايات المتحدة كانت لها صلة مباشرة بنوع من أنواع الجرائم الخطيرة فى العام الماضى (أى عام ١٩٨٠)، ومن النادر أن نجد أميريكيا واحدا لا يعرف شخصيا ضحية واحدة على الأقل من ضحايا العنف فى المجتمع الأميريكى، ونجد أن الخوف والهلع يتسلطان على المجتمع الأميريكى : أعضائه وجماعاته ومؤسساته. وفى أسبوع واحد (من يوم ٨ من شهر مارس عام ١٩٨١ حتى يوم ١٤ من شهر مارس عام ١٩٨١)، وجد ٤٠٠ أمريكى مقتولين في الولايات المتحدة، ومعظم دوافع (وليس عوامل) ارتكاب هذه الجرائم يحدث فى أثناء مجرد عراك أو مناقشات الجيران أو فى حرب

المخدرات أو مناقشات العصابات، والملاحظ أن ثلث المجنى عليهم قد قتلهم أغراب، وفى الغالب دون أى مبرر واضح.

وقد نشرت إدارة F. B. I. (نسبا عن جرائم العنف (جرائم القتل والاغتصاب والاعتداء العنيف والسرقات). وقد تبين أن فى عام ١٩٧٠ كانت الجرائم ترتكب بنسبة ٣٦٣,٥ جريمة لكل ١٠٠,٠٠٠ نسمة، فى حين وجدت هذه النسبة ٥٣٥,٥ لكل ١٠٠,٠٠٠ نسمة فى عام ١٩٧٩. والملاحظ أن جرائم القتل ارتفعت بنسبة ٩,٧ لكل ١٠٠,٠٠٠ نمسه عام ١٩٧٩ وتأكد ان ثلث جرائم القتل قد ارتكبها مجرمون لم يقابل أحد من المجنى عليهم واحدا منهم فى حياته قط، ومن ثم فإن هؤلاء المجرمين، وهم فى الغالب يقتلون من اجل سلب الضحايا، هم الذين يسهمون فى خلق العنف فى المجتمع الأميريكى وفى إشاعة الخوف والهلع فى قلوب أعضائه، وقد تبين أن الجرائم الخطيرة التى ارتكبت فى "مدينة نيويورك" فى خلال ستة شهور من عام ١٩٨٠، قد زادت بنسبة نحو ٦٠٪ فوق المستوى القومى العام. والملاحظ أن جرائم السرقة كانت نسبتها فى هذه المدينة أعلى نسبة فى البلاد، وفى عام ١٩٨٠ بلغ عدد جرائم القتل فى هذه المدينة (نيويورك) ١٨١٤ جريمة.

٩- السجن كمؤسسة قمعية :-

يلاحظ أن "السجن" هو أحد الأساليب العقابية التى كانت توقع على المدانين فى أفعال يراها المجتمع ضارة، وهى قديمة ومتعددة، كان منها الجلد والعزل والنفى والكى لإحداث علامة تدل على المدان فى أفعال لا تقرها عادات المجتمع وقيم المجتمع، وكان منها أيضا التشهير به عن طريق إدخال يديه ورأسه فى آلة خشبية أو تعذيبه عن طريق أداة خشبية ذات ثقوب كانت تقيد فيها رجلاه ويداه أو مجرد رجليه فقط!

وقد تطورت هذه الأساليب العقابية بمرور الزمن عندما تغيرت نظرة قوانين العقوبات (المقصود الذين يشرعون هذه القوانين بالطبع) منذ أوائل القرن الثامن عشر وحتى الآن. وأصبحت المؤسسات العقابية تخصص

للمذنبين من الرجال والنساء والشبان والشابات والأحداث ذكورا كانوا أو أناثا. فنجد اليوم فى أغلب دول العالم السجون وأماكن الحجز لكبار المذنبين الرجال منهم والنساء، وللشبان وللشابات المذنبين، وفضلا عن ذلك نجد أيضا المؤسسات الخاصة بإيداع الأحداث الجانحين سواء أكانوا من الذكور أم من الإناث، كما نجد أماكن للكبار وللشبان وللشابات والأحداث المتهمين لحجزهم احتياطيا تحت التحقيق أو لحجزهم فى أماكن الحجز المركزى توطئة لمحاكمتهم.

وفى ضوء النظرة القانونية الاجتماعية نلاحظ أن المؤسسات العقابية (ومنها السجن) إن هى إلا مؤسسات اجتماعية، أى أن لكل منها نجد بناء أو نسقا معينا، كما نجد لها وظائف اجتماعية معينة، ولعل أبرز سمة من سمات بناء أو نسق هذه المؤسسات هى أن الأقلية فى شخص إدارة كل مؤسسة تكون بالضرورة أقلية قوية، والأغلبية فى شخص النزلاء تكون عادة، وليس بالضرورة، أقلية سلبية مستضعفة، وربما هذه الأقلية القوية، أيضا، حكيمة وعاقلة (وهذا نادر). وربما أصبحت الأغلبية، أى النزلاء، فى بعض الأحيان، أغلبية إيجابية متعاونة، ويرجع هذا كله إلى نوع الوظائف الاجتماعية التى تقوم المؤسسة بأدائها. فهى إما أن تكون وظائف هدفها العقاب لذاته (العنف الذى يولد العنف والشعور بالعداوة فى نفوس النزلاء)، أو أن يكون هدفها التنشئة الاجتماعية، أى تكوين نزلائها ليصبحوا مواطنين صالحين فى المجتمع الذى سيخرجون إليه بعد انتهاء مدة إيداعهم.

وأعضاء مجتمع السجن أناس شتى، وهم فى الواقع لا يكونون مجتمعا بل تجمعا، ويرى بعض الناس أن هؤلاء هم حثالة المجتمع، ويرى آخرون أنهم أناس غير محظوظين. وهم، أولاد وقبل كل شئ، نتاج المجتمع (الخارجى) الذى ولدوا فيه وعاشوا، وأغلب الناس الذين يدخلون السجن من الكبار، والكبار من الناس هم غير الأحداث، وهم بالضرورة ذكور أو إناث قد خالفوا نصا من نصوص قانون العقوبات. ومنهم من ثبتت هذه المخالفة عليهم، وهم المجرمون الكبار. ومنهم من ينتظرون ثبوت هذه المخالفة أو عدم ثبوتها، ولا يطلق على الآخيرين صفة المجرمين حتى تثبت المخالفة.

ويلاحظ أن المجرمين الذين يعيشون فى غياهب السجون قد يكونون من ساكنى الحضر أو من ساكنى الريف أو من ساكنى الحضر المتريف، ومنهم من كانوا يحيون قبل دخول السجن حياة البداوة، ولكل من هذه المجتمعات سماتها الاجتماعية المختلفة وظروف معاشها وثقافتها.

وهم (أى نزلاء السجون)، أيضا قد ينتمون إلى الأغلبية، أو إلى طائفة معينة من الناس، ينتمون إلى طبقة معينة أو يعيشون فى المجتمع فى المجتمع كأفراد منعزلين.

ويلاحظ أيضا أن المجرمين الكبار فئات، فمنهم الفلاحون، ومنهم العمال، ومنهم التجار، ومنهم الموظفون الصغار، ومنهم الموظفون الكبار، ومنهم الطلبة.. إلخ. ويلاحظ كذلك أن المجرمين الكبار قد يكون منهم الأميسون، ومنهم من يحظون بقسط كبير أو صغير من التعليم، وقد يكون منهم المتزوجون أو غير المتزوجين أو المطلقون أو المنفصلون أو الأرامل ومنهم من له أبناء، ومنهم من ليس له أبناء.

ونجد أن المجرمين الكبار يرتكبون، كما ذكرت من قبل، أنواعا متباينة من الجرائم، فمنهم من يرتكب جرائم الاعتداء على الأموال، ومنهم من يرتكب الأعتداء على الأشخاص (كالقتل مثلا) ومنهم من يرتكب الجرائم الجنسية (وهذه الجرائم مثل جرائم الرشوة والمخدرات والتهريب من الجرائم غير المنظورة التى قد لا تصل إلى رجال الشرطة أو إلى المحاكم)، ومنهم من يرتكب جرائم أمن الدولة.. ونجد أيضا أن من المجرمين الكبار من يرتكب الجريمة لأول مرة، ومنهم من يعتاد ارتكاب الجريمة (كجريمة السرقة بأسلوب النشل مثلا).

ونجد كذلك أن المجرمين الكبار الذين يعيشون فى السجون من يعتبرون مجرمين شواذ سواء كان هذا الشذوذ جنسيا أو عقليا أو نفسيا، ومنهم ذو والعاهات الجسمية، ومنهم الذين لا عاهة لهم، ومنهم أيضا غير المعتادين على العمل المنتج ويستمرئون البطالة والتعطل.

وقد حظيت الجريمة، على تباين تعاريف مفهومها، بالاهتمام الكبير فى كل المجتمعات الإنسانية على اختلافها (وبخاصة الجرائم الخطيرة كما

ذكرت ذلك من قبل). كانت الجريمة، ومازالت، شيئا مخيفا رهيبا وضارا، ثم أصبح الاهتمام بالمجرم أيضـا، واضحـا بعد ذلك، لأن الجريمـة مـا هـى إلا سلوك بشرى لا يرتكبها إلا إنسان، وأصبح من العلماء، اليوم (بل منذ الأربعينيات من القرن الحالى)، من لا يقصر اهتمامه على الجريمة والمجرم فقط، بل امتد هذا الاهتمام إلى المجنى عليه. فالجريمة يرتكبها بالضرورة مجرم (إنسان عاش فى ظروف اقتصادية اجتماعية غير مواتية فى العادة) ومعظم الجرائم التىيرتكبها مجرمـون ترتكب ضد مجنى عليهم، وإذا كان المجرم إنسانا فإن المجنى عليه فى معظم الحالات إنسان كذلك.

وفـى ضـوء كـل هـذه الاهتمامـات انبثـق مفهـوم معاملـة المجرميـن، وخصوصا الذين يدخلون السجون، وقد تغير هذا المفهوم على مر الأيام، وهذا شئ عادى، أى شئ متوقع و، فبرز فى أفق معاملة المجرم الدعوة إلى "تفريد العقوبـة" وظهر مفهوم "الدفـاع الاجتمـاعى" كمـا ظهـر أيضـا مفهـوم "السياسة الجنائية" ثم "قواعد الحد الأدنى لمعاملة المسجونين" (انظر سيد عويس : المعجـم العربـى فـى العلـوم الاجتماعيـة، المركـز الأقليمـى العربـى للبحوث، التوثيق فى العلوم الاجتماعيـة : مفـاهيم، "تفريد العقوبـة" و"الدفـاع الاجتماعى" و"السياسة الجنائية" و"قواعد الحد الأدنى).

ويلاحظ أن مفهوم "التفريد" يعنى تصنيف أعضاء المجتمع أو اعضاء بعض جماعاته حسب سماتهم الشخصية (السن والنوع والديانـة والمستوى التعليمى ومستوى الذكاء والمهنة والخلفية الاجتماعية مثلا).. والملاحظ أن هذه السمات تيسر التعرف على شخصيات أعضاء المجتمع أو أعضاء بعض جماعاته كلما دعت الحاجة إلى ذلك، كما تيسر معاملتهم بعضهم لبعض.

وإذا كان عضو المجتمع قد ارتكب احدى الجرائم وأديـن فيهـا وحكم عليه بالسجن مثلا، فإن السجن كمؤسسة اجتماعية يجب أن يضع النظم الكفيلة بمعاملة المذنبين الدين يودعون فيها. وفى ضوء "تفريد العقوبـة" نجد أن هذه النظم الكفيلة بمعاملـة المذنبين تهتم، أول ما تهتم، لكى تكون هذه المعاملة مثمرة بتقسيمهم إلى مجموعات متجانسة ليس فقط من حيث السن والنوع و. و. و. ولكن أيضا من حيث نوع الجريمة التى ارتكبها والعوالم التى أدت إلى مخالفته للقانون (قانون العقوبات).

ومن ثم يتيسر للمسئولين أن يضعوا أفراد كل مجموعة من المذنبين فى مؤسسة مستقلة تتوافر فيها جميع الإمكانات الضرورية التى تيسر إعادة تربيتهم لكى يصبحوا مواطنين صالحين بعد إطلاق سراحهم وخروجهم إلى المجتمع.

وإذ ألخص ما سبق فإننى أقول، إن معاملة المذنب فى ضوء تفريد العقوبة يجب أن تناسب المذنب كشخص له سمات معينة، وذلك لأن هذا النوع من التفريد أجدى من أن تناسب العقوبة الجريمة التى ارتكبها.

ومفهوم "الدفاع الاجتماعى" هو مفهوم قديم ومتجدد. إننا نجد بذوره منذ القرن الثامن عشر (مارشيزد. بيكارا)، ونجد صياغته شبه المتكاملة فى خلال الفترة عقب الحرب العالمية الثانية (جراماتيكا الفقيه الإيطالى) والمستشار الفرنسى (مارك آنسل) – ومنذ ذلك التاريخ تغير معنى مفهوم الدفاع الاجتماعى ومضمونه، وهذا أمر متوقع، تغيرا ملحوظا.

وفى ضوء ما يلاحظ فى هذا المجال نجد أن أهم أغراض الدفاع الاجتماعى المتفق عليها هى :

– وقاية أعضاء المجتمع من الانحراف (أى الجريمة والجناح بخاصة).

– وقاية المجتمع من أعضائه المنحرفين (أى من المجرمين والجانحين بخاصة).

وذلك بإعادة تنشئتهم اجتماعيا ليصبحوا مواطنين أسوياء أى أن وقاية أعضاء المجتمع ووقاية المجتمع فى ضوء الغرضين السابقين تعنى :

– جعل أرتكاب الجريمة أكثر صعوبة من غير أن تكتشف.

– وجود سماحة أكثر نحو السلوك الذى لا يمكن ضبطه بالقانون.

– انغماس الشباب انغماسا فعالا فى عمليات التنمية.

– وجود قيادات أفضل وإتاحة الفرص الخلاقة للأشخاص المعرضين للجريمة والجناح (الذين فى سن الشباب بخاصة).

- وضع ميزانيات خاصة للجماعات الأكثر خطورة كالمتعطلين والمتخلفين عن المدارس وصعاب المراس من المجرمين (أى المجرمين العدوانيين أو السيكوباتيين أو الذين يرتكبون الجرائم قهرا عنهم).

- تخطيط جنائى أفضل، وتقويم الاستثمارات المخصصة لمشروعات الدفاع الاجتماعى وبرامجها.

وإذا كان من أهم أغراض الدفاع الاجتماعى هو، كما ذكرت آنفا، تخطيط جنائى أفضل، فالملاحظ أنه لا يمكن وجود تخطيط جنائى أفضل إلا إذا توافرت بعض الشروط هى :

- وجود سياسة جنائية واضحة المعالم والأغراض والأهداف.

- إجراء بحوث ودراسات علمية عديدة فى محيط الجريمة والجناح.

- تعاون المخططين الجنائيين والباحثين العلميين فى ميدان الجريمة الجناح والعاملين فى ميادين الجريمة والجناح فضلا عن الجماهير.

والملاحظ أنه لن توجد سياسة جنائية واضحة المعالم والأغراض والأهداف، إلا إذا وجدت سياسة اجتماعية واضحة المعالم والأغراض والأهداف، ولن يتم وضع هذه السياسة إلا فى ضوء أيديولوجية المجتمع. ناميا كان أوغير نام، أى أن هذه السياسة يجب أن تسترشد بقيم هذا المجتمع وتقاليده وعاداته ومثله العليا.

والملاحظ أيضا أن وجود سياسة جنائية واضحة المعالم والأغراض والأهداف ييسر وضوح الرؤية أمام المخططين الجنائيين والباحين العلميين فى ميدان الجريمة والجناح، والعاملين الآخرين فى ميادين الجريمة والجناح فضلا عن جماهير المجتمع على اختلاف فئاتهم ومكانتهم الاجتماعية وثقافتهم. وأن تيسير وضوح الرؤية يعنى العمل الجاد وتحقيق الأهداف بأقل التكاليف.

ووجود سياسة جنائية واضحة المعالم والأغراض والأهداف يرتكز على أنواع موضوعات الدراسات والبحوث العلمية فى محيط الجريمة والجناح. ولكى تفى هذه الموضوعات بتحقيق أهداف السياسة الجنائية يجب أن تكون عديدة ومتنوعة ومتناسبة. أى تتناول على سبيل المثال حجم

الجريمة والجناح وأنماطها (ومنها الأنماط غير المنظورة) واتجاهاتهما وعوامل وجودهما وبخاصة أنماطهما غير المنظورة، كما تتناول مناطق الجريمة والجناح كمظهر من مظاهر النمو الحضرى، فضلا عن البحوث والدراسات التقويمية والتتبعية وأحكام السجن للمجرمين أول مرة، وآثار إعادة الدخل القومي وتكافؤ الفرص على زيادة أو نقص معدلات الجريمة والجناح فى المجتمع. ولعل البحوث والدراسات عن خطورة الجريمة والجناح تكون ضرورية سواء أكانت مجالاتهما تعنى بهذه الخطورة من وجهة نظر الجماهير أم من وجهة نظر المشرعين.

أما موضوع "قواعد الحد الأدنى لمعاملة المسجونين" فإننا في ضوء حقائق التاريخ نجد أن هذه القواعد قد أنشئت فى عام ١٩٢٩ ونوقشت فى المؤتمر الدولى الأول للأمم المتحدة الذى أقرها فى عام ١٩٥٥ ثم اعتمدها المجلس الاقتصادى الاجتماعى لمنظمة الأمم المتحدة فى عام ١٩٥٧. ومن ثم أصبحت بذلك ميثاقا دوليا أجمعت الدول الأعضاء على تطبيق نصوصه وأحكامه.

وتعنى قواعد الحد الأدنى بالاهتمام بمعاملة المسجونين من حيث عدم النزول بمستوى هذه المعاملة وتنظيم وإدارة مؤسساتهم إلى ما هو من المستوى الذى حددته هذه القواعد، ويعتبر هذا النزول ليس فقط خروجا على المبادئ الأولية لعلم العقاب الحديث وأمرا لا يقره رجال الاصلاح المعاصرون فحسب، ولكنه يعتبر بالمثل امتهانا صريحا لكرام الإنسان واعتداء صارخا على حقوقه الأساسية التى كفلها له ميثاق الأمم المتحدة.

وتتضمن قواعد الحد الأدنى لمعاملة المسجونين ٩٤ قاعدة، منها ما يتعلق ببعض الملاحظات الأولية، والقواعد العامة المتعلقة بالتطبيق من حيث المبدأ الأساسي الذي تطبق في ضوئه هذه القواعد بدون تحيز، ومن حيث السجلات الخاصة بالسجن وأبنيته، ومن حيث الصحة الشخصية والكساء والفراش والتغذية والرياضة البدنية والخدمات الطبية والنظام والتأديب وأدوات والإكراه ومن حيث إخطار المسجونين بالتعليمات وحقهم في الشكوى والاتصال بالعالم الخارجى، ومن حيث الكتب، ومن حيث أداء الفرائض الدينية، ومن حيث متعلقات المسجونين والاحتفاظ بها، ومن حيث

التبليغ عن الوفاة والمرض والنقل، ومن حيث موضوع النقل نفسه والحالة التى يتم بها، ومن حيث موظفو المؤسسات (اختيارهم وتدريبهم مثلا).

وقد اهتمت القواعد بتطبيقها على طوائف خاصة من المسجونين المحكوم عليهم بعقوبة وذلك بالنسبة للمبادئ الموجهة، ومن حيث معاملتهم وعلاجهم وتقسيم وتفريد معاملتهم وعلاجهم، ومن حيث الامتيازات التى تمنح تشجيعا لسلوك المسجونين الحميد، ومن حيث العمل وبعده عن أن يكون وسيلة للتعذيب، ومن حيث التعليم والترويح والصلات الاجتماعية والرعاية اللاحقة.

أما بالنسبة للمسجونين المصابين بالجنون (أو بالشذوذ العقلى) فقد كانوا موضع اهتمام القواعد، وكذلك الأشخاص المقبوض عليهم أو المحبوسين احتياطيا، واهتمت القواعد بالمسجونين المحكوم عليهم بسبب دين أو بالحبس المدنى.

وقبل أن أختم الموضوع الحالى أرجو أن يسمح لى القارئ الكريم بأن أذكر له تجربة واجهتها عندما كنت فى مدينة "نيش" وانا أزور "يوغسلافيا" فى خلال الفترة من يوم ٦ من شهر نوفمبر عام ١٩٦٣ إلى يوم ٦ من شهر فبراير عام ١٩٦٤، حيث يسرت لى هيئة الأمم المتحدة هذه الزيارة، إذ منحتنى "منحة الزمالة" لتتاح لى فرصة الاطلاع على الدراسات الاجتماعية والجنائية التى تقوم بها الهيئات المتخصصة فى المجتمع اليوغسلافى فى ذلك الحين.

ولاحظت أن المجتمع اليوغسلافى أو المسئولين عنه يرون أن المسجونين آدميون لكل واحد منهم طاقة بشرية، وهم أقصد المسجونين، كمجموعة، عبارة عن طاقة بشرية هائلة لا يجوز أن تضيع هباء، ولا يمكن أن تترك لتتبدد، وأن العمل الإنسانى هو طقس من الطقوس فى هذا المجتمع، وهو واجب وحق لكل عضو من أعضائه، والمسجونون مهما كانت ظروفهم فهم بعض أعضاء هذا المجتمع، ومعاملتهم يجب أن يكون أهم أهدافها القيام بعملية تنشئتهم اجتماعيا، والعمل، وحده كفيل بذلك، أى أن العمل هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه العملية، فإذا أعطى المسجون الفرصة ليعمل

العمل المناسب وينتج، استرد كرامته، وسترد ثقته فى نفسه، وأحس بكيانه الإنسانى، وأصبح مواطنا صالحا.

وقد لاحظت أن المسجونين فى المجتمع اليوغسلافى يعطون فرصة العمل المنتج مهما كانت صور جرائمهم ومهما اختلفت مكانتهم الاجتماعية ومهما تباينت أعمارهم، وهم يتعلمون ويتدرجون فى التعليم حتى يتخرج منهم العمال المهرة وغير المهرة : كل حسب قدراته وحسب مدة سجنه. ولا يقف مستوى التعليم فى السجون اليوغسلافية عند حد. ولعل هذا المستوى يصل إلى مستوى الجامعات والمعاهد العليا، وأهم مجالات العمل فى السجون المصانع، وهى مصانع حديثة إذا دخلت فى أحدها تجده مصنعا عاديا مثله مثل أى مصنع فى خارج السجن، وتجد القتلة والمزيفين والمزورين وغيرهم من المسجونين يعلمون كل حسب دوره. ولا يمكن أن تميزهم عن العمال العاديين وربما كان الكثير منهم من الأميين أو من أهل الريف قبل التحاقهم بالسجن، وانظر إليهم وهم يديرون الآلات الدقيقة، وانظر إلى وجوههم، وانظر إلى نظرات عيونهم تجد الإصرار والعزيمة والجد وملامح الثقة بالنفس والأمل، كما تجد صورا زاهية من الانتصار.

وظروف العمل فى السجون هى نفس ظروف العمل فى خارجها. فالمسجونون يحصلون على الأجور، كل حسب عمله، كما يحصلون على مكافآت تشجيعية مرتين او ثلاث مرات فى العام الواحد، وهم وإن كانوا لا يتمتعونه بعضوية النقابات فإن قواعد ونظم النقابات تطبق عليهم، والضمان الاجتماعى يشمل كل المسجونين العاملين، أيام العمل ستة أيام وهى نفس عدد أيام العمل فى خارج السجن (فى المجتمع اليوغسلافى فى ذلك الحين)، ويتمتع المسجونون بالأجازات الرسمية أسوة بغيرهم، وهم إن عملوا فى أيام الأجازات الرسمية يحصلون على أجورهم كاملة.

ولا تصرف الأجور كلها للمسجونين. فجزء منها يوفر للمسجونين وجزء آخر يرسل إلى أسر المسجونين وجزء ثالث يصرف للمسجون يشترى به ما يشبع به حاجاته الأساسية وغير الأساسية من "كانتين" السجن، وقد لاحظت أن هذا الكانتين مملوء بالسلع الاستهلاكية من المأكولات والمشروبات وغير ذلك، ولا يعرض الكانتين الخمور بأنواعها للبيع.

وفى ضوء الشعار القائل، إن العمل شرط الوجود الإنسانى، نجد أن المسجون لا يعطى أى عمل اعتباطا. فالسجن مزود بالمتخصصين فى العلوم الإنسانية، ومنهم من يستقبلون المساجين فى مركز خاص ملحق بالسجن لدراسة كل مسجون اجتماعيا وطبيا ونفسيا وعقليا، ويقوم بهذه الدراسات، عن وعى مهنى، الإخصائيون الاجتماعيون والتربويون والأطباء والأخصائيون النفسيون والأطباء النفسيون. وفى ضوء الدراسة يوجه كل مسجون إلى المهنة التى تتناسب مع شخصيته وقدراته وخبراته. فالمسجونون، هم أولا وقبل كل شئ، آدميون، لكل واحد منهم، كما سبق أن ذكرت، طاقة بشرية، وهم كمجموعة عبارة عن طاقة بشرية هائلة لا يجوز أن تضيع هباء ولا يمكن أن تترك لتتبدد.

والملاحظ أن المصانع التى يعمل بها المسجونون تكون جزءا من مصانع الدولة، أى إن إنتاج هذه المصانع يكون جزءا من الإنتاج القومى.

وقد وجدت وأنا أزور سجن نيش أنه يضم نحو ١٥٠٠ مسجون، وكلهم من المحكوم عليهم بثلاث سنوات أو أكثر. ويعمل نحو الألف منهم فى مصانع السجن ويصنعون "السخانات والأفران الكهربائية والموازين الدقيقة والبانيوهات وقطع الأثاثات.. إلخ" ويصدر معظم هذه المصنوعات إلى الخارج وتحصل الدولة عن طريق ذلك على العملات الأجنبية.

وهذا السجن وغيره تجده يحصل من بيع مصنوعاته العديدة التى يطلبها السوق الأجنبى على الأرباح سنويا، وتوزع هذه الأرباح وفقا لنظام معين بنسب معينة على الميزانية والاحتياطى ورأس المال والأعمال الجديدة والبرنامج الثقافى والمساعدات.

ويتبرع سجن نيش من أرباحه سنويا بجزء من أرباحه على مؤسسات رعاية الأحداث والشباب فى المدينة. أى أن سجن نيش، ومؤسسة اجتماعية هدفها الدول معالجة الجريمة بصورها المتعددة فى محيط الكبار، يقوم بدوره، عن وعى، فى ميدان الوقاية من الجريمة وفى ميدان التنمية الاجتماعية، فى محيط الأحداث وفى محيط الشباب، فى أن سجن نيش، كمؤسسة اجتماعية، يحس إحساسا واعيا بالمسائل الاجتماعية المتعلقة بالسلوك البشرى، السوى وغير لسوى، فى المجتمع الذى يحيط به، ويسهم

إسهاما واعيا فى مواجهة هذه المسائل. أى أنه يعيش واقعه، فى ميدان تخصصه الواسع، ويرفض العزلة والسلبية، ويؤمن بالتفاعل الاجتماعى من مجتمعه (انظر كتاب سيد عويس : "مذكرات يوغسلافية"، القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة، صفحات ٨٧ - ٩٤)

وأننى أعترف للقارئ الكريم بعجزى عن القيام بالمقارنة بين السجون فى مصرنا الخالدة والسجون التى ذكرت عن بعضها شيئا. فالملاحظ أن تقارير مصلحة السجون على الرغم من أنها تتضمن إحصاءات، فهى لا تشفى غليل الباحث الجاد. فعدد السجون بالجمهورية أصبح ٢٦ سجنا بما فيها ما يسمى "سجن ك (٢) ٩٧ والسجن العسكرى، وعدد المسجونين فى أوائل عقد الثمانينيات فى يوم ٣١ ديسمبر حوالى ٢٥٠٠٠ مسجون منهم نحو ٣٢٪ من النساء ويجب ألا ننسى نزلاء المعتقلات وعددهم غير معروف.

طاقة بشرية هائلة أليس من الممكن أن تكون فى ضوء بحث حالة كل مسجون اجتماعيا وطبيا ونفسيا وعقليا وطبيا أن يكونوا من المنتجين الذين يرفعون شعار الإنتاج وهو شعار الدولة فى الوقت الراهن ؟ إن ما يقومون به يعتبر ليس فقط خسارة بشرية بل خسارة مالية كذلك.

وفى ضوء خبرتى عندما كنت "عضوا فى المجلس الأعلى للسجون" كنا أقصد أعضاء المجلس ورئيسه نجتمع ثم ننفض ولا نقرر شيئا رشيدا كان ذلك فى خلال عامى ٧٣ - ١٩٧٤، وكان جدول الأعمال يهتم بتطبيق التشريعات الخاصة بالمعاملة الناجحة للمسجونين، ولكن لا تطبيق يحدث وبخاصة ما تعلق منها بـ "قواعد الحد الأدنى" التى سبق أن ذكرتها وكنت أتحدث عن سجن نيش في دولة يوغسلافيا وما يقوم به نزلاؤه من أعمال تدر الأرباح التى تيسر الحصول على العملات الأجنبية والتى تسهم أيضا ليس فقط فى معالجة النزلاء معالجة علمية ولكن فى وقاية أحداث وشباب المجتمع الخارجى وفى بعض الأحيان فيما يحدث فإنه حوادث أو كوارث فيه (كإعادة بناء مدينة "سكوبيا" التى أصيبت فى صيف عام ١٩٦٣).

وإذا كان من الواجب ألا ننسى نزلاء المعتقلات فإنه من الوجب أن نذكر نزلاء "تخشيبات" أقسام الشرطة التى تشهد كما يقول الأستاذ ("مصطفى

طيبة" فى كتابه "رسائل مسجون سياسى إلى حبيبته، الجزء الأول"، بغداد، دار العربى للنشر والتوزيع، عام ١٩٧٧ صفحة رقم ٢٦).

"نشاطا كبيرا وأعداد من رجال الشرطة الذين يحملون القيود الحديدية التى توضع فى المعصمين فى أيدى الخطرين، أو جنزيرا طويلا يربطون به عددا من المتهمين "غير الخطرين"، ومع إشراقة صباح كل يوم عندما يسمع نزلاء التخشيبة صوت القيود والسلاسل الحديد مختلطة بأصوات رجال الشرطة تنادى عليهم يستعدون جميعا للرحيل.."

وفى ضوء ما نشر من مؤلفات بعد إطلاق المعتقلين من الإخوان المسلمين فى عام ١٩٧١، ما يدل على ألوان العنف الذى لم يحقق إلا إهدار كرامتهم، ويكفى أن نطالع عناوين بعض هذه المؤلفات لنؤكد هذه النتيجة، ومن هذه العناوين نجد مثلا :

- فى الزنزانة (على جريشة عام ١٩٧٥)

- المذبحة : فى الذكرى العشرين التى تعرض لها الإخوان المسلمون بليمان يوم السبت ١٩٥٧/٦/١ (مصطفى المصيلحى، عام ١٩٧٧).

- الأسرار الحقيقية لاغتيال حسن البنا، (جابر رزق، عام ١٩٧٨).

- يوميات الشهيد محمد يوسف هواش : مجزرة القرن العشرين (محمد يوسف هواش عام ١٩٧٨).

- من المذبحة إلى ساحة الدعوة (عباس السيسى، عام ١٩٧٨).

- عشت هول المذبحة : أقسمت أن أروى (روكس مكرون، عام ١٩٧٨).

- مذبحة الإخوان فى ليمان طرة (جابر رزق، عام ١٩٧٩).

- خواطر مسجون : ديوان أزجال (سعد سرور كامل، عام ١٩٧٩).

- قال الناس ولم أقل فى حكم عبد الناصر (عمر التلمسانى، عام ١٩٨٠).

هذا بعض ما نشرته المطابع الذى صادفنى وصادفته. ومالم ينشر ربما كان أكثر، ومهما قيل فى قيمة المادة التى تضمنتها هذه المؤلفات المنشورة، فإن تأثيرها على قرائها من أبناء وبنات من تناولهم وواجهوا العذاب والتعذيب أو من أقاربهم المقربين وغير المقربين أو من الغرباء، تأثير لا جدال فيه، ولن يكون تأثيرا حسنا ابدا وبخاصة على من عاش منهم الخبرة المريرة عندما كان المعتقلون مازالوا فى المعتقلات وعندما رأوا الأحياء منهم بعد إطلاق سراحهم. فقد مات قبل صدور الأمر بإطلاق السراح من هؤلاء المعتقلين من مات، وتضمنت سجلات مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية منهم أسماء العشرات (انظر : سيد عويس، "دراسة : عن العوامل التى أدت إلى ظهور الجماعات الدينية المتطرفة، المركز الإقليمى العربى للبحوث والتوثيق فى العلوم الاجتماعية فى عام ١٩٨٢).

وقد كان من حظى العلمى أن تناولت الدراسة العلمية عن "ظاهرة التسول وحياة المتسولين فى مدينة الإسكندرية". وقد أجرى هذه الدراسة الأستاذ محمود إبراهيم حسين للحصول على درجة الماجستير قسم الانثروبولوجيا - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية فى عام ١٩٨٣، وقد أشرف على هذه الرسالة المغفور له أستاذ جليل فى العلوم الاجتماعية والانثروبولجية - الأستاذ الدكتور على أحمد عيسى، وكان تناولى لموضوع هذه الرسالة بوصفى ناقدا حتى يتاح للتقرير الذى أضعه عنها لكى ينشر فى المجلة الجنائية القومية بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية (انظر : سيد عويس، المجلة الجنائية القومية، م ٢٨، ع ٢، يوليو عام ١٩٨٥).

وكان من النتائج الهامة التى وصل إليها الباحث عن طريق دراسته الميدانية ما يلى :

- أن العاهات التى ينتحلها بعض المتسولين قد انقرضت وحلت محلها العاهات المصطنعة.

- وجود نظام سرى فى داخل جماعات المتسولين الذين عايشهم وتقمص شخصية واحد منهم سواء كان يمتهن التسول فى شوارع مدينة الإسكندرية وبعض مناطقها أو عندما كان أحد نزلاء "ملجأ الهداية" يعيش فيه

كنزيل من نزلائه ليلا ونهارا فترة غير قصيرة (استطاع الباحث القيام بهذا الدور لضعف نظره الشديد ولأنه كان يضع على عينيه نظارة سوداء).

- إن مؤسسات الإيداع سواء أكانت تستقبل الأحداث المتسولين أم البالغين المتسولين، لا تؤدى أدوارها التربوية بل على العكس تكسب نزلاءها وبخاصة الأحداث منهم أنماطا إجرامية جديدة.

إن المتسولين يتخذون من "الملجأ" الذى يودعون فيه "لوكاندة" ويجعلون منهم وكرا للجريمة بأنماطها أو يتخذونه سوقا تجاريا لتحقيق المكاسب المادية حيث يعرضون فيها شتى السلع ومنها المخدرات بأنواعها وما سيصنعونه من أنواع الخمور وغيرها من السلع التى قد يحتاجها بعض النزلاء غير القادرين على الخروج لعجزهم عن ذلك بسبب العاهات الجسمية التى تعوق حركتهم. ويحصل الأخرون على السلع التى يحتاجون إليها نظير الثمن الذى يفرض عليهم فرضا، والذى يدفعونه من النقود التى فى حوزتهم التى تكون قد وصلت إليهم من الأقارب أو من المحسنين الذين يأتون إلى الملجأ فى المواسم والأعياد من أجل ذلك.

وكنت حين أقرأ الرسالة المذكورة أتذكر روايات "شارلز ديكنز" وبخاصة رواية "اوليفرتوست" التى قرأتها وشاهدت فيلما عنها، وكأن ملاجئ مصرنا الخالدة فى العصر الحالى، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين، هى صورة تكاد أن تكون طبق الأصل من ملاجئ البلاد الإنجليزية فى خلال القرن التاسع عشر وما قبله.

10-الحرب العالمية الثانية وآثارها :

حالة الحرب هى ذروة الشعور بالعداوة، والملاحظ أن الحرب بين الدول هى ظاهرة إنسانية يعرفها الناس جميعا على مر الزمان، كما يعرفونها فى كل بقاع العالم المعاصر، وهى شر مستطير تعانى منه الإنسانية ولا تزال، والحرب أنواع ويمكن أن نقسمها إلى نوعين رئيسيين، النوع الأول :

"هو الحرب التى تهدف إلى الاستعمار والاستغلال، استغلال الإنسان لأخيه الإنسان".؟

أما النوع الثانى :

"فهو الحرب التى تهدف إلى الدفاع عن النفس وإقرار السلام القائم على العدل"

والنوعان يتضمنان نوعين من الشعور بالعداوة الإنسانى الجماعى. أحدها الشعور بالعداوة غير المشروع، وهو الشعور الذى يدعمه الحقد والبغض والاستغلال والجشع. وهذا الشعور يولد مافى ذلك شك.. النوع الثانى أى الشعور بالعداوة المشروع الذى يهدف إلى إقرار الحق وإقرار السلام القائم على العدل ويمثل إرادة الحياة الفاضلة فى مجتمعنا الإنسانى.

ومهما يكن من الأمر بالحرب كذروة من ذرا الشعور بالعداوة الإنسانى الجماعى : الحرب التى تهدف إلى الاستعمار والاستغلال، لا يقرها إنسان عاقل، ولا تسلمك بوجودها، بالضرورة المبادئ الإنسانية : مبادئ العدالة والإنصاف : مبادئ السلام القائم على العدل، وهى شر مستطير إذا لاحظنا بعض آثارها المعنوية السلبية. كسيادة قوانين الغاب أو محاولة ذلك، وهى شر مستطير لاحظنا بعض آثارها المدمرة، ولعل الحرب العالمية الثانية تكون مثلا واضحا على ذلك.

وقبل أن اتحدث عن الحرب العالمية الثانية، أرجو أن يسمح لى القارىء الكريم أن أذكر شيئا عن انطباعاتى وبعض الحقائق عن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨). فقد اندلعت هذه الحرب وكنت فى السنة الأولى من حياتى، لا أدرى عنها شيئا كثيرات أو قليلا. ولكننا نلاحظ فى المجتمع المصرى وفى بعض المجتمعات الأخرى أنه قد يموت الإنسان فى فراشه فيسأل الناس عن السبب، ويموت الإنسان فى ساحة الحرب فيقولون : قضاء وقدرا، ويموت الإنسان فى ساحة الحرب فيقولون : شهيدا يستحق الجنة، ويموت الإنسان مناضلا عن عقيدة أو قيمة ذات هدف حميد أو مبدأ فيقولون : شهيد يستحق الخلود، ويموت الإنسان إذا قتله آخر فيمسكون بتلابيب القاتل ويقتصون منه وقد يقتلونه فى بعض الأحيان، وقد لا يقتلونه أبدا، بل قد يكرمونه.

فالقاتل الذى ينفذ حكم الإعدام موظف مسئول يأخذ مرتبا، والقاتل الذى يقتل الجاسوس الذى يعمل ضد بلده تنهال عليه المكافآت من دولته، والقاتل الذى يمارس القتل الجماعى فى أثناء الحرب بأن يقذف بالقنابل المدمرة بأنواعها على مدن العدو وقراه الآمنة ويقتل الرجال والنساء والأطفال ينال الأوسمة والنياشين.

والأغلبية الساحقة من قتلى الإنسانية فى الحروب لا يخفون على أحد، سواء أكانوا من القتلى العسكريين أو من القتلى المدنيين، وكل جانب يدعى استشهاد قتلاه ! الظالم يفعل ذلك والمظلوم يفعل ذلك على السواء، وتغرق الإنسانية فى الدماء والخراب والتدمير فى ظل بعض الشعارات التى يشترك فى رفعها الظالم والمظلوم معا ! واتباع كل تائهون مبلبلون متعصبون ! ويترك كل لحكم التاريخ ينصف من ينصف ويدين من يدين ويستخلص العبرة والدرس، ومع ذلك فإن عدد الضحايا بمرور الوقت يتضاعف والتفنن فى القتل والتقتيل يزداد وحشية.

وإذا كنت طفلا صغيرا عندما نشبت الحرب العالمية الأولى، فقد استطعت عندما شببت عن طوق ثقافيا أن أطلع على "الموسوعة البريطانية، مجلد رقم ٢٣، عام ١٩٦٨" فهالنى ما قرأته من ارقام عن القتلى من الجنود (كانوا عشرة ملايين جندى)، وعدد القتلى من المدنيين (كانوا عشرة ملايين مدنى أيضا)، أما عدد الجرحى، كنتيجة مباشرة لهذه الحرب، فقد كان عشرين مليونا، وفضلا عن ذلك فإننا نجد أن عدد الموتى بسبب الأوبئة والمجاعات التى انتشرت فى خلال هذه الحرب كان عشرين مليونا! .

وقد هالنى الدمار الذى لحق بالبشرية فى هذه الحرب، وعندما علمت عما لحق بالعالم فى الحرب العالمية الثانية التى عشت أيامها منذ ان اندلعت فى عام ١٩٣٩ وانتهت فى عام ١٩٤٥، وجدت أن الأعداد قد تضاعفت، وذلك للتقدم الهائل فى أساليب الدمار والعنف والقسوة الذى حققته الدول واتساع رقعة هذه الحرب التى شملت القارات التى كان، ومازال، يعيش فيها بنو البشر.

لقد سجل التاريخ عن الحرب العالمية الثانية الشئ الكثيرعن الجيوش التى لم يكن لها نظير، والقوات المسلحة التى لم يسبق بها وجود التى عبئت

فـى البر وفـى البحـر وفـى الجو، وقـد سـجل التـاريخ عـن القـوة الصـناعيـة الضخمة التى استخدمت فى هذه الحرب. هذه القوة التى لم تستخدم فى حـرب قبل ذلك. كانت هذه الحرب أعظم الصراعات التى سجلها التاريخ منذ ٧٠٠٠ عام، أى منذ أن بدأ الإنسان يسجل تـاريخ البشـرية. لقد كـانت أقـدار سـبعين دولة فى هذه الحرب فى خطر، كما كان مصير نحو ٢٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مـن أعضاء البشر فيها فى خطر كذلك. لقد مس لهيب هـذه الحـرب العاتيـة بـلادا تكون أكثر مـن ثلاثـة أربـاع السـكان فـى العـالم. وقـد اشـترك فـى القـوات المحاربة نحو ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مـن البشـر، أى شـخص واحـد مـن كـل ٢٠ شخصا من سكان الكرة الرضية. أن سجل القتلى والجرحى فى هـذه الحـرب سجل رهيب،وإيضاح مفجع لحضارتنا، فقد تبين من الإحصاءات الرسمية أن ضحايا هـذه الحـرب مـن القتلـى أكـثر مـن ٢٠,٠٠٠,٠٠ قتيـل، وأن نحـو ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ من الرجال والنساء والأطفـال قـد شـردوا مـن ديـارهم، وأن نحو ١٠,٠٠٠,٠٠٠ من هؤلاء قد عذبـوا وذبحـوا، وأن مئـات الآلـوف مـن المساكن قد دمرت وصارت خرابا.

وقد قدر البعض لتكاليف الحرب العالمية الثانية ثمنـا، أقصـد تكـاليف مـا دمـرت واتلفت وتسببت فـى خسـائر اقتصـادية، وكـان هـذا التقديـر نحـو ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولا أمريكى. وقد شمل الدمـار والخـراب ثـروات العالم العظيمة ومـوارده الماليـة والصـناعيـة وطاقاتـه وقدراتـه البشـرية علـى السواء، وتراكمت على الدول الديون، وهى ديون تزيد فى جملتها على جميع الأموال التى كانت موجودة فى العـالم فـى ذلـك الحيـن، وقـد تركـت للأجيـال التالية، بالضرورة، تبعة سداد هذه الديون.

والملاحظ أن الأموال الكبيرة التى التهمتهـا الحـرب العالميـة الثانيـة، وحدها، كانت تكفى لبناء مسكن لكل أسرة فـى العـالم، أو كـانت تكفـى لتعليـم كل طفل على وجه الأرض. ومقادير هذه الأموال أعظم من كل الأموال التى أنفقت فعلا على المدارس والمعابد والمستشفيات منذ أن وجدت البشرية علـى كوكب الأرض.

وإذا اعتبرنا الحرب العالمية الثانيـة أول وأعظـم حـرب جويـة. فهـى أيضا أول وأعظم حرب جندت لها القوات المسلحةفى البر والبحـر، إنهـا فـى

الواقع "حرب العلماء" أسهمت فيها بقسط وافر المخترعات والاكتشافات والعبقرية الإنسانية الآلية والإنتاج الكبير، ومن خلال عصر الراديو الجديد والتسلط على الزمان والمكان أصبح العالم كله فى هذه الحرب متصلا بعضه ببعض اتصالا وثيقا، ومن خلال التصوير القتال والمعارك أن تدخل البيوت فى التو واللحظة. إن الحرب العالمية الثانية قد مرت حوادثها أما أعين الذين عاشوها على الستار الفضى، وقد حفظت أفلام هذه الحوادث لتراها أعين الذين سيأتون من بعدها من الأجيال القادمة. وكلها تنطق بالرهبة والعنف والقسوة والدمار (انظر كتاب :

, Histry of world II , conada,:(m, Francis Trevelgan
.VI)- V. p. 1945, p.Toronto, Dominion Book and Bible

وإننى لا أجادل فى المكانة الرفيعة للعلم والعلماء فى الحروب الحديثة، ولكن يجب أن نلاحظ إنه كان العلم يدمر العدو، فإنه يحمى، أيضا، من يقاتل هذا العدو، وليس بالضرورة أن يكون هذا العدو الإنسان فحسب فقد يكون فيروسا أوميكروبا أو أثرا من آثار الطبيعة العاتية، وإذا كان العلم يستخدم فى وقت الحرب كسلاح رهيب فتاك، فإن بعض آثاره التى وصل إليها العلماء فى أثناء الحرب تنقذ الأرواح فى وقت السلام، وإذا كان معظم العلماء فى المجتمع الراسمالى الاحتكارى يكدحون فى سبيل حفنة من الناس، يملأون جيوبهم بالأرباح الوفيرة، فإن كل العلماء فى المجتمع الذين يناصرون الكادحين يعملون مخلصين فى سبيل كل الناس. فبالعلم يوضع الأساس الإنسانى الاقتصادى الثقافى. لتزدهر فضائل الإنسان، وروحانية الإنسان، وذلك لأن إنسانية الإنسان تؤمن بأن الجائع أو الجاهل أو العاطل أو القلق عاديا أو حتى مرضيا، لن يستطيع أن يفكر ويتأمل ويعبد الله، عن رضا وإيمان لا عن خوف أو عن ذل وحاجة (انظر كتاب : سيد عويس، الخدمة الاجتماعية ودورها القيادى فى مجتمعنا المعاصر، دار المعارف بمصر، عام ١٩٦٦، صفحتا ١٩ - ٢٠).

وإذا كنا نبغض الحروب فحرى بنا أن ألا نرضى أبدا ان يسود قانون الغاب، وإذا كانت الحروب الاستغلالية، وعلى رأسها الحروب

الامبراليـة، بآثارها المعنوية وآثارها المادية شرا مستطيرا، فإن السكوت على الحقد والكراهيـة والجشـع والاستغلال التـى تمدهـا بـالوقود أكـثـر شـرا. إن الحروب تحمل عـادة فـى طياتهـا التوتـرات الاجتماعيـة الرهيبـة، ولكـن هـذه التوترات ليست فى ذاتها أشياء سيئة، وذلك لأن بعض هذه التوترات قد يخدم التقدم البشـرى، وقـد يسـاعد البنـاء الاجتمـاعى حتـى لـو تطلـب ذلـك تقديـم التضحيات ! فالحروب المشروعة، أى تلك التـى تشـتعل للدفـاع عـن النفس وللدفاع عن الوجود الإنسانى : الحروب التى تهدف إلى إقرار الحـق وإقـرار السلام القائم علـى العدل (كحروب السـود وهـم الأغلبيـة ضـد البيض وهـم الأقلية فى جنوب أفريقيا والفلسطينين ضد اليهود فى الشـرق الأوسـط مثـلا). إن هذه الحـروب ومـا تحمـل فـى طياتهـا مـن توتـرات تخـدم التقـدم البشـرى وتساعد على تحرير إنسان، وفضلا عن ذلك فإنها تمحـو مـن الواقـع الحـى المؤلم استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وعلى العكس من ذلـك فـإن الحـروب الاستغلالية، وعلى راسها الحروب الامبريالية تهدف إلى تحقيق بعض صـور العبودية. ومن الواجب على كل محب للإنسان لكى يحيا حياة الأمن والأمـان أن يدين جميع أشكال العبودية، كمـا يديـن كـل الحـروب الامبرياليـة، القديمـة منها والمعاصرة تعنى تقسيم وجـه الأرض بيـن الـدول الكبيـرة واحتكاراتهـا، وذلك للحصول على أكبر ربـح مـن العمـل، العمـل الرخيص لشـعوب البـلاد النامية (المستعمرات بمعناها الحديث). أى البلاد التى أصبحت أمـاكن للنهـب الحر وبيع البضائع بأسعار خيالية، فضلا عن أنهـا الأمـاكن التـى تربـح فيهـا الاستثمارات الرأسمالية أكثر مما تربح فى موطنها الأصلى، ومـن ثـم نـزداد الديـون علـى مـر الزمـان وهـذه الحالـة تؤكـد التبعيـة الاقتصاديـة والسياسـية والثقافية جميعا.

وإننى كمصرى أعيش فى بلد عريـق وأصيـل أدعـو دعـوة صريحـة إلـى رفـض هـذه الألـوان مـن الاسـتغلال. إن أعضـاء المجتمـع المصـرى المعاصر يجب ان يحاربوا هذه الحروب الخفية بكل طاقاتهم، بشرف وأمانـة، وبعزة وإرادة هى إرادة الحياة الفاضلة فى هذا المجتمع.

وإننى أرجو أن ألا يتهمنـى أحـد مـن أبنـاء وطنـى العزيـز بـالمثالية، وذلـك لأن القضـاء علـى الامبرياليـة، الاسـتعمار الحديـث، وعلـى أذنابـه فـى

الداخل والخارج يعنى القضـاء علـى التوترات الخطيرة الحاليـة التـى تكلف الشعوب الحرة المناضلة فى سبيل الحق وفى سبيل السلام القـائم علـى العدل الشئ الكثير.

ولعل الشعوب الحرة، ومنها شعبنا المصرى المجيد، أن تعلم جيدا أن النضال فى سبيل هذه الأهداف الإنسانية. سيستمر حتما إلى حين، ومهما يكن من الأمر فهو نضال شريف وإنسانى وأهدافه نبيلة. بعكس ما يهدف إليه أعداء السلام العادل الذين يرون :

"أن حضارتنا يجب أن تبنى حتما على جبال من الجثث، وعلى محيطات من الدموع، وعلى حشرجات الموت لأعداد لا تحصى من الناس".

كل ذلك فى سبيل تحقيق أطماعهم وجشعهم، وفى سبيل فرض الألوان العديدة من الاستغلال (انظر كتاب : سيد عويس، محاولة فى تفسير الشعور بالعداوة، القاهرة، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، ١٩٦٨، صفحتا ٦٨ - ٩٦).

ومهما يكن من الأمر فإن قوة أعداء السلام القائم على العدل لن تشيع الخوف فى نفوسنا وذلك فإنه لا حاجة لنا إلى هذا الخوف. فإن كل ما نحتاجه هو معرفة الوسائل للتغلب عليهم،وفى ضوء حقائق التاريخ منذ الزمن القديم وحتى الآن سننتصر، حتما، حتى يصنع أعضاء الشعب المصرى العظيم : حياة السلام العادل والسلام الروحى.

وأود أن اؤكد هنا ماذكره "قداسة الباب بول السادس" فى رسالته التى تفضل بإلقائها بمناسبة الاحتفال بيوم السلام العالمى فى أول شهر يناير عام ١٩٧٨ :

"يجب أن يسود السلام فالسلام ليس مطلبا مستحيلا بل ميسورا!"

11-بعض المؤامرات السياسية

أود أن أصارح القارئ الكريم أن الفضل كل الفضل فى إننى أتجاسر وأكتب فى هذ الموضوع يرجع إلى المؤرخ الكبير "محمد عبد الله عنان"

كنت أقرأ مقالاته الرائعة فى "مجلة الرسالة" التى كان يصدرها الأستاذ الكبير "أحمد حسن الزيات"، فضلاً عن مقالاته الثرية فى جريدة "السياسة الأسبوعية" التى كان يرأس تحريرها الأستاذ الكبير "محمد حسين هيكل" ومقالاته التي لا تبارى التى كان يكتبها فى مجلة "الثقافة" التى كان يرأس تحريرها الأستاذ الكبير "أحمد أمين".

فمنذ أن كنت شابا وأنا أقرأ فى هذه الينابيع من الثقافة الرفيعة وأحاول أن استوعب ما فى مقالاتها من أفكار وأتمثلها. وكنت أنجح فى معظم الأحيان، ولما تفضل المغفور له الأستاذ محمد عبد الله عنان وجمع معظم مقالاته التى كتبها سواء فى هذه المناهل العذبة أو فى غيرها من كتب، وكان من حظى أن اشترى معظم هذه الكتب، وبدأت بكتاب "الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مارس عام ١٩٣٧" وكتاب "تراجم إسلامية : شرقية وأندلسية، يناير عام ١٩٤٧" وكتاب "نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، أغسطس ١٩٥٨" وكتاب "مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، أغسطس ١٩٦٢" وكتاب "لسان الدين بن الخطيب" حياته وتراثه الفكرى، مايو عام ١٩٦٨" وكتاب "ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب لذى الوزارتين لسان الدين الخطيب، المجلد الأول، ١٩٨٠، والمجلد الثانى، ١٩٨١".

وكان من حسن حظى أن وقع فى يدى كتاب الأستاذ محمد عبد الله عنان، بعد أن قرأت كتبه الأولى (أى حتى عام ١٩٤٧) الذى اقتبست عنوانه للدراسة الحالية وهو :

"تاريخ المؤامرات السياسة وتطوراتها الاجتماعية والقانونية. من اقدم العصور إلى أحدثها، التى نشرته إدارة الهلال بمصر فى سنة ١٩٢٨".

وأرجو أن يلاحظ القارئ الكريم أن المؤامرات السياسية قديمة أقدم الدهر، وسأتحدث عن بعض هذه المؤامرات فى اختصار،وسأفعل ذلك أيضا عنها فى العصور الوسطى، وسيكون اهتمامى بما حدث ويحدث فى مصرنا الخالدة وبخاصة فى الفترة الراهنة.

ولعلنى فى ضوء خبراتى المحدودة أحاول التحدث عن أهم العوامل التى عرفتها من قراءاتى فى التاريخ أو تلك التي استخلصها على مسئوليتى وحدى.

إذا استعرضنا تاريخ مصرنا الخالدة وجدنا المؤامرات السياسية فى معظم مراحله إن لم تكن فى كل مراحله حتى وقتنا الراهن، كان ملوك البلاد مقدسين أو شبه مقدسين، وكانوا أصحاب امتيازات مطلقة و، وكانت سلطاتهم لاحد لها، وكانوا فى الأغلب الأعم كل شئ، والشعب كل لاشئ باسم الدين كانوا يحكمون سواء كان هذا الدين وثنيا أو سماويا نجد ذلك كما ذكرت فى وقائع التاريخ، كما نجده فى الأساطير. ولنا فى أسطورة "إيزيس وأزوريس وحورس" دلالة واضحة. فقد تآمر "ست" أخ "اوزوريس" كما تذكر السطورة ليحل محله ويصبح ذا سلطان وامتيازات، وكان من نصيب أوزوريس أن قطع إربا إربا حتى نجحت أخته "إيزيس" وزوجته فى الوقت نفسه فى لم أشلائه حتى قام ولدها "حورس" الذى حارب عمه "ست" وتوج ملكا على عرش أبيه المسلوب.

وعلى الرغم مما تذكره هذه الأسطورة فإننا نجد في ضوء ما سجله التاريخ عنها أن "ست" قد أحاط عرشه الذى سلبه من أخيه بعصابة من المداهنين المرتزقة. على أنه بالرغم من ذلك نلاحظ أن أصحاب المؤامرات لا يلبثون أن يواجهوا عشاق الحرية، فى أى عصر، وأى مكان وأى ظروف، الذين يواجهون الطغيان من أجل السلام ويعملون فى سبيل تحقيق ذلك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وأننى لا أرى أبدا أن ما يفعلونه يعتبر تآمرا على الطاغى المستبد الذى لا يحكم إلا بحواسه، وذلك لأن الباعث على سلوك هذا السبيل الخطر هو التماس العدل والإصلاح وسيادة الحرية والسلام.

والملاحظ أن أسطورة "أوزوريس وإيزيس وحورس" قد بقيت،و لاتزال، فى وجدان المصريين حتى وقتنا هذا. فإن "أوزوريس" يعتبر فى رأيى "أول الشهداء"، وإذا كان هو كذلك فإن "الإمام الحسين بن على" رضى الله عنهما يعتبر كما يقول "العقاد" عندما تحدثت عن بعض الشهداء من قبل، "أبا الشهداء"، وإن كان يرى الكثير أن الإمام الحسين هو "سيد الشهداء"

وأرجو القارئ الكريم أن يسمح لي بالتحدث عن موضوع بقاء الأسطورة القديمة في وجدان المصريين عندما أتحدث عن القديسين "مرقس الرسول" و"مارمينا" و"القديسة دميانة" الذين واجهوا الطغيان والعنف إلى الدرجة التى قتلوا وقطعت جثثهم إربا إربا كما حدث للإمام الحسين بن على (انظر كتاب سيد عويس : "الإبداع الثقافى على الطريقة المصرية : دراسة عن بعض القديسين والأولياء فى مصر، القاهرة، دار الطباعة الحديثة، ١٩٨١، صفحات ٢٤ - ٧٤).

والملاحظ، ايضا أنه على الرغم من أن عصور الاستقرار فى ربوع مصر كانت طويلة، وخاصة العصر الأساسى الأول (الدولة القديمة)، فإنه منذ عام ٥٢٥ ق. م وحتى عام ١٩٥٣ ميلادية، أى منذ حوالى ٢٤٧٨ عاما كان حكام مصر من الأجانب، وكان الحاكم منذ عام ٥٢٥ ق. م هو "قمبيز بن كورش" ملك فارس، الذى زحف بالجيوش والعساكر لافتتاح مصر بسبب عصيان "بساماتيكوس" بن أماسيس (من أعيان المصريين الذين استخلفته الدولة الفارسية من قبل ثم تمرد عليها) وقد قبض قمبيز على بساماتيكوس بعد حروب طاحنة وألزمه أن يشرب مقدارا كبيرا من دم الثيران ففعل ذلك به كالسم ومات وخضعت لقمبيز بعد ذلك كل بلاد مصر وصارت مقاطعة فارسية وتوالى عليها نواب ملوك فارس واستمرت مملكة مصر خاضعة للفرس إلى أن افتتحها "أسكندر ذو القرنين" فى عام ٣٣٢ ق. م وبعد أن مات أسكندر تولى زمام مصر "الدولة البطليموسية" (انظر كتاب : يوحنا أبكاريوس : "قطف الزهور فى تاريخ الدهور" طبع فى بيروت سنة ١٨٧٣، صفحات : ١٨٥ - ١٨٧).

وبهذه المناسبة أود أن أذكر أن "هيرودوت" جاء إلى مصر فى عهد قمبيز من بلاد اليونان ليدرس عادات أهلها وتقاليدها وليعرف مواضع القوة فيهم ومواضع الضعف، توطئة لإتاحة الفرصة لليونان لكى يضموها إلى مملكتهم، وقد نجح فى ذلك، كجاسوس أكثر منه مؤرخا، تماما كما حدث بعد ذلك فى البلاد العربية وفى مصر، من أمثال عملاء خبراء المستعمرين "لورنس" و"فيلبى" و"جوردون" و"لين (منصور أفندى) و"دى لسبس" وحتى وقت قريب، وحتى وقتنا هذا، ومن هؤلاء "ويندل كيلاند" و"جون بادو"

ومخابرات الدول وبخاصة الولايات المتحدة ودول أوروبا المتقدمة الغربية والشرقية وإسرائيل.. وغيرها.

وانقرضت دولة اليونان فاستولى على مصر "الرومان" فى عام ٣٢ ق. م، وقامت البلاد تحت تصرف حكامهم نحو سبع مائة سنة، وكانت البلاد المصرية تحسب ولاية من الولايات الرومانية. ثم كرس "الرسول مرقص" "اينيانيوس" المصرى أسقفا، وكان أول أسقف مصرى مسيحى، وذلك فى عام ٦٤ ميلاديا، وباسم "المقوقس عظيم القبط" سادت الديانة المسيحية بعد أن امتحن معتنقوها فى "عهد الاضطهاد الأعظم" وكان عدد الاضطهادات التى أثارها القياصرة الرومانيون على المسيحيين عشرة أولها عام ٦٤ ميلادية فى زمن "نيرون" وأخرها أى عاشرها عام ٣٠٣ ميلادية فى أيام "ديوكليتيان".

وبعد أن تولى الملك "قسطنطين" امتازت أيامه عن باقى القياصرة بأمرين عظيمين أولهما : نقل كرسى السلطنة إلى "القسطنطينية"، والثانى : اعتناقه فى عام ٣١٢ ميلادية الديانة المسيحية.

وكان "عهد الاضطهاد الأعظم" فى البلاد المصرية فى زمن الامبراطور "دقلديانوس" (٢٨٤ - ٣٠٥ ميلادية) وقيصره "جاليريوس" ثم هذا الأخير منفردا (٣٠٥ - ٣١١ ميلادية) و"ماكسيمين دازا" (+ ٣١٣ ميلادية) وقد سيق عدد كبير من المصريين المسيحيين إلى الموت زمرا،ففر كثيرون بعقيدتهم إلى الصحراء. كانت فيافى مصر وقفارها حصنا أمينا لهؤلاء الفارين بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وشهدت صحارى مصر من "النطرون" إلى "طيبة" جموعا هائلة من المصريين المسيحيين الذين أفلتوا بدينهم من قبضة الأباطرة الوثنيين. وعاش بعض من هؤلاء متوحدا تحتويه صومعة كانت أصلا أطلال قبر أو فجوة كهف، وآخرون آثروا عيش الجماعة فكانت الأديار (انظر : كتاب رأفت عبد الحميد : ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى"، القاهرة كتاب روز اليوسف، يناير عام ١٩٧٤، صفحتا ٤١ - ٤٢).

وفى ضوء بعض حقائق التاريخ نجد أنه كان من جملة النازحين الفارين من الطغيان والعنف اللذين كانا وليدى الشعور بالعداوة ضد الوثنيين من الحكام، رجل يقال له "بولس" من مدينة طيبة انفرد بذاته وعكف على

العبادة والصيام فحسب أول من ظهر فيه روح الرهبنة، ولكنه ظهر فى أوائل الجيل الرابع من معتنقى الديانة المسيحية رجل آخر يدعى "انطونيوس" فبنى ديرا وجمع أناسا فيه ممن كانوا يميلون للاعتزال عن العالم، ونظم لهم قوانين للسلوك بموجبها ولذلك سمى بأبى الرهبان، ثم أن هذه الطريقة أخذت فى الامتداد حتى وصلت إلى فلسطين وسوريا بواسطة خلفاء أنطونيوس، وبالتدريج عمت أكثر البلاد المسيحية.

(انظر : كتاب قطف الزهور فى تاريخ الدهور، صفحتا ١٧١ - ١٧٢)

وفى خلافة أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" أى فى عام ٦٤٠ ميلادية غزا عمرو بن العاص مصر، ومنذ ذلك التاريخ بدأ فيها دين الإسلام فى الانتشار كما بدأت اللغة العربية تجد طريقها فى حديث المصريين بدلا من اللغة القبطية التى كانت سائدة، واستمرت مصر يحكمها الخلفاء الراشدون. ثم عندما أسس "معاوية بن أبى سفيان" دولة بنى آمية، أرسل إلى مصر عمالا موالين لهم مدة خلافتهم. وكان جملة من ولى بالنيابة عن هذه الدولة ستة وعشرين عاملا فى خلال فترة زمنية تقدر بمائة وإحدى عشرة سنة وكان هؤلاء العمال يسمون عمال خراج مصر، وأصبحت مصر عند هؤلاء مجرد "ضيعة" عندهم.

والمعلوم أن معاوية بن أبى سفيان كان قبل تأسيس دولة الأمويين واليا على الشام منذ خلافة ابن عمه "عثمام بن عفان"، وعندما ولى "على بن طالب" الخلافة أراد أن ينزل كل ولاة عثمان الحكم وأن يولى مكانهم نفرا من صحبه ممن يثق فى ولائهم له، فبعث عاملا جديدا إلى الشام فرده أهلها، واظهر معاوية الخلاف، ووجد فى المطالبة بدم عثمان حجة يستمر بها معاوية فى الخلافة والملك (لقد قتل الخليفة عثمان فى عام ٣٥ هـ).

ودبرت المؤامرة حيث اجتمع نفر من "الخوارج" (هم نفر من أهل العراق ممن غضبوا لأن الخليفة على بن أبى طالب رفض أن يمضى فى الحرب ضد العصاة من أمثال معاوية بن أبى سفيان) فى موسم الحج سنة ٣٩ هـ، وهم عبد الرحمن ابن ملجم المرادى والحجاج بن عبد الله التميمى الصريمى، وعمرو بن بكر التميمى - وتحدثوا فى أمر "الحرب الأهلية" التى

يثيرها، فى رأيهم، جشع الرؤساء، واستبداد الولاة. واتفقوا على أن الرؤساء الثلاثة أقصد "علي ومعاوية وعمرو بن العاص" هم المسئولون عن وقوع هذه المصائب، وأنه يجب قتلهم وإراحة الأمة الإسلامية من شرهم وجشعهم، وتعاهدوا على أن يقوموا بتلك المهمة، وان يهبوا أنفسهم رخيصة فى سبيل تحقيقها. واتفقوا على أن يتولى عبد الرحمن بن ملجم قتل على، والحجاج الصريمى قتل معاوية، وعمرو بن بكر قتل عمرو بن الاص. على أن يكون التنفيذ فى الكوفة والشام ومصر فى وقت، واحد هو ليلة ١٧ من شهر رمضان سنة ٤٠ من الهجرة.

ويرى "الأستاذ محمد عبد الله عنان" أنه يعتقد أن منشأ تلك المؤامرة الشهيرة يرجع إلى ما وراء ذلك، وان زعماء الخوارج أنفسهم هم الذين دبروها، وأن "ابن ملجم" وزميليه كانوا رجال التنفيذ فقط، ولم يكن اجتماعهم بمكة وتدبرهم لطرق تنفيذها إلا مرحلة أخيرة للمؤامرة (انظر كتاب : محمد عبد الله عنان "تاريخ المؤامرات السياسية"، القاهرة، ١٩٢٨، صفحات ٩٩ - ١٠١).

وصرع "على" أمير المؤمنين فى عام ٤٠ من الهجرة - ٦٤٠ ميلادية. ونجا معاوية وعمرو بن العاص، وقبض الناس على ابن ملجم وعلا الصياح واشتد الاضطراب. واجتمعت شيعة الخليفة الجريح حوله فقال : إن هلكت فاقتلوه كما قتلني، وإن أعش فأنا ولى دمى إما عفوت وأما اقتصصت. ولكنه توفى بعد يومين، وقتل ابن ملجم بعد أن عذب وقطعت أطرافه، وفقد الإسلام بمقتل "على" زعيما من أكبر زعمائه (المرجع السابق : صفحة ١٠١).

ولعل الحديث بعد مقتل "الخليفة على" أن يملى علينا ذكر بعض الأمور عن الإمام الحسين. الذى سبق أن تحدثنا عنه عند ذكر أسطورة "أوزوريس وإيزيس وحورس" من قبل. والإمام الحسين هو "الإمام عبد الله الحسين بن على رضى الله عنه"، وهو اسم ملأ فى عصره وبعده كل مكان فى البلاد العربية والإسلامية وغيرها من المعمورة، وقد أصبح "للحسين" بعد مأساة كربلاء وبنسبه الشريف وخلقه الكريم وورعه وتقواه ورعايته لأحكام الدين، مكانة فى قلوب الناس لا تدانيها مكانة، وقد تواترات الروايات على أن

"الحسين" كان يقول الشعر وبخاصة فى أغراض الحكمة وأنه كان خطيبا بما أوتى من طلاقة للسان والفصاحة وحسن البيان.

وقد شهد الحسين مع أبيه موقعة الجمل ثم صفين ثم قتال الخوارج، وكانت له فى كل منها مواقف مشهودة، وبقى مع والده حتى قتل، وبعد وفاة الخليفة "على" بقى الحسين مع أخيه "الحسن" رضوان الله عليهما، إلى أن أسلم الأمر إلى "معاوية"، وكان الحسين غير راض على ما فعله أخوه "الحسن" من تسليم أمر الخلافة إلى معاوية. فلم يوافقه عليه أولا وأشار بالقتال، ولكنه نزل بعد ذلك على رأى أخيه الأكبر.

وقد صحب الحسين رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى أن توفى وهو عنه راض. ثم كان "الصديق أبو بكر" يكرمه ويعظمه وكذلك الخليفة "عمر" والخليفة "عثمان".

وفى "كربلاء" تكاثر الجيش على "الحسين" وصحبه وكانوا اثنين وثلاثين فارسا وأربعين راجلا. وقد استشهد كل صحبه وانفرد وحده بجيش "عبيد الله بن زياد"، وكان يحمل عليهم فيتفرقوا تحرجا من قتله وكان منهم من يخشى أن يصاب على يديه حتى صاح فيهم "شمر بن ذى الجوشن" :ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم. فحملوا عليه من كل جانب وضربه "زرعة بن شريك التميمى" على يده اليسرى فقطعها، وضربه غيره على عاتقه فخر على وجه فأخذ يقوم ويكبر وهم يطعنونه بالرماح ويضربونه بالسيف حتى لفظ نفسه الأخير. ووجد بجسده ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية بالنبل والسهام. ونزل "سنان بن أنس النخعى" "فاجتز راسه وقيل فى رواية أخرى أن شمر بن ذى الجوشن هو الذى ذبحه واجتز رأسه. ثم عمدوا إلى سلب ما كان عليه من كساء فأخذ قميصه "إسحاق بن حيوة الحضرمى" وأخذ سراويله "بكحر بن كعب" وأخذ "قيس بن الأشعث" قطيفته وهى من خز، فكان يسمى بعد "قيس قطيفة" واخذ عمامته "اخنس بن مرثد الحضرمى"وأخذ نعليه "السود الأودى" وأخذ سيفه رجل من "درام" وترك الحسين يكاد أن يكون عاريا.. ثم وطأت الخيل جثته كما أمر "ابن زياد" حتى رضوا صدره وظهره (انظر كتاب : الابداع الثقافى

على الطريقة المصرية : دراسة عن بعض القديسين الأولياء فى مصر، صفحات : ٦٤ - ٦٨).

ولابد لى من كلمة عن موقعة كرباء، فقد ذكرت "سعاد ماهر محمد" فى كتابها "مساجد مصر وأولياؤها الصالحون : الجزء الأول، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٧١" تحت عنوان "خروج الحسين ومقتله". صفحتا : ٣٥٥ - ٣٥٦).

"لما توفى معاوية سنة ٦٠هـ كان على المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان وعلى مكة يحيى بن حكم بن صفوان بن أمية، وعلى البصرة عبد الله بن زياد، وعلى الكوفة النعمان ابن بشير الأنصارى، فكتب يزيد بن معاوية إلى الوليد بن عتبة (من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة، أما بعد فإن معاوية كان عبدا من عباد الله أكرمه الله واستخلفه وخوله ومكن له فعاش بقدر ومات بأجل، فرحمه الله فقد عاش محمودا ومات برا تقيا والسلام) ثم أضاف (أما بعد فخذ حسينا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام). فلما قرأ الوليد، وإلى المدينة فى ذلك الحين، للحسين الكتاب ونعى إليه معاوية، فقال الحسين" إنا لله وإنا إليه راجعون ورحم الله معاوية، أما البيعة فإن مثلى لا يعطى بيعته سرا ولا أراك تقنع بها سرا قال أجل، فقال الحسين فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا معهم فكان الأمر واحدا"، وكان الحسين رضوان الله عليه قد عول على ترك المدينة إلى مكة، كما تركها قبله بليلتين ابن الزبير دون مبايعة يزيد، فخرج منها ومعه جل أهل بيته وأخوته وبنو أخيه، فلما بلغ أهل الكوفة وفاة معاوية وعلموا امتناع الحسين عن بيعة يزيد ونزوله مكة، أجتمعت الشيعة وكتبوا إليه كتبا جاء فيها "إنه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق"، ثم سرحوا عدة رسائل بالكتاب إليه، وتلاقت الرسل كلها عند الحسين فكان يقرأ الكتب ويسأل الرسل عن الناس، ولبث فى مكة على هذه الحال أربعة أشهر، ثم دعا ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب فأمره بالمسير إلى الكوفة، فإن رأى الناس مجتمعين مستوثقين عجل إليه بذلك، وكتب إلى أهل الكوفة.

قبل ذلك أرسل كتابا قال فيه : "أما بعد فقد أتتني كتبكم وفهمت ما ذكرت من محبتكم بقدومي عليكم، وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب إلي أنه قد أجمع رأى منكم وذوى الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت علي به رسلكم وقرأت في كتبكم، أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله، فلعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله والسلام".

ولما علم يزيد بخبر مسير مسلم بن عقيل إلى الكوفة كتب إلى عبيد الله بن زياد، وكان واليا على البصرة، يأمره بالمسير إلى الكوفة وتولى إمارتهم وأخذ شيعة الحسين بالشدة وبالقضاء على مسلم بن عقيل، وكان مسلم قد نزل بالكوفة وتلقى البيعة للحسين من ألوف الناس، قال عنهم ابن كثير ثمانية عشر ألفا وقال ابن قتيبة ثلاثين ألفا.

وما قدم ابن زياد إلى الكوفة حتى عمل على تحويل الناس عن مسلم، وسرعان ما قضى عليه وعلى من انضم إليه من أهل الكوفة وبعث برأسه ورؤوس من قتل معه من صحبه إلى يزيد.

وفي اليوم الثامن من ذى الحجة جمع الحسين رايه على الخروج، فجاءه عبد الله بن العباس يناشده في المقام ويعظم عليه القول في ذم أهل الكوفة وقال له : إنك تأتي قوما قتلوا أباك وطعنوا أخاك وماأراهم إلا خاذليك" فقال له : "هذه كتبهم معي وهذا كتاب مسلم باجتماعهم (قتل مسلم بن عقيل لتسع خلون من ذى الحجة، أى بعد خروج الحسين من مكة بيوم واحد) فقال له ابن عباس "إن كنت لابد فاعلا فلا تخرج أحد من ولدك ولا حرمك ولا نسائك".

وبلغ الحسين نبأ مقتل مسلم وهو في طريقه إلى الكوفة فدب الخلاف بين من معه من المناصرين ونصح فريق منهم بعدم مخاصمة يزيد بن معاوية، ونصح فريق آخر بإصرار على مقاتلة يزيد والفريق الثالث وقف موقفا وسطا، وانتهى بأنه لا مناص من المضى قدما في محاربة يزيد ومواجهة الموت وإباء التسليم أو النزول على حكم الطغاة المتآمرين.

وسار الحسين حتى وصل به مناصروه إلى "كربلاء" وهكذا كانت النتيجة المحتومة تكاثر الجيش على الحسين وصحبه وكانوا كما سبق أن ذكرت اثنين وثلاثين فارسا وأربعين راجلا، وكلهم مشهود له بالشجاعة وسداد الرمى ومضاء الضرب بالسيف وهم على قتلهم كفء لمبارزة فرسان جيش عبد الله بن زياد واحدا بعد واحد لو جرى القتال على سنة المبارزة، ولكن هؤلاء الفرسان أقصد فرسان جيش عبيد الله بن زياد خشوا مغبتها فعدلوا عنها (المرجع السابق (صفحات . ٣٥٦ - ٣٥٩).

وأرجو من القارئ الكريم أن يوافقنى على أن رسوخ "أسطورة أوزوريس وإيزيس وحورس" فى وجدان المصريين المسلمين، يؤكد الاهتمام الذى يرقى إلى التقديس أو شبه التقديس عندما يزور المصريون المسلمون، السنيون منهم والشيعيون على السواء ضريح "الإمام الحسين" أو ضريح شقيقته "السيدة زينب" أو ضريح ابنه "على زين العابدين" ويرجع ذلك إلى أن مكانة الآلهة المصرية القديمة قد انتقلت فى فترات التحول فى تاريخ مصرنا الخالدة، بعملية توفيقية إلى الأنبياء والقديسين ثم الأولياء.

وقبل أن أتحدث عن وقائع التاريخ المصرية التالية أرانى مضطرا لكى أتحدث عن أهم الصراعات الفكرية التى حدثت وبخاصة بين الأئمة الفقهاء : أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وبين حكام البلاد فى أزمانهم الذين كانوا يحكمون باسم الدين والسلطة والسلطان فى أيديهم وحدهم فقد كانوا كل شئ والشعوب المحكومة لاشئ.

والملاحظ إننى تحدثت من قبل عن الشهداء وذكرت من بينهم أبا حنيفة النعمان بن ثابت، وقد آن الأوان أن اذكر حق القارئ الكريم فى التعرف على عوامل استشهاد هذا الفقيه الكبير، فالتاريخ يذكر أنه لم تكن حياة أبى حنيفة وإن طالت إلا معركة واحدة سلخ فيها الفكر الإنسانى سبعين عاما بين التحضير والتدبير والملحمة، ولم تكن لبطلها غاية ولا وسيلة إلا الحرية والتسامح فى كل أطوارها".

وإننى أرى وأرجو أن يرى القارئ الكريم ما أرى أن العالم الذى يقوم على التسامح هو وحده العالم الجدير بالحياة، والوجود المنبعث من

نفوس حرة هو حده السبيل إلى عمارة الدنيا بالنشاط الفكرى والرخاء المادى حتى يعم السلام ويتبدد العنف الذى يكون عادة وليد الشعور بالعداوة.

وقد قيل إن حبس أبى حنيفة النعمان كان لسبب سياسى وهو تشيعه لـ"محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب" المسمى بالنفس الزكية" أو لأخيه إبراهيم ويرد عبد الحليم الجندى فى كتابه : "أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، ١٩٦٦" قائلا :

إن من المسلم أن محمدا وأخاه إبراهيم قتلا فى سنة ١٤٥هـ حين خرج محمد بالمدينة على أبى جعفر وبعد أن خرج عليه إبراهيم فى البصرة وإن كان من المسلم به أن الأجل وافى أبا حنيفة عقب حبسه بأيام فى سنة ١٥٠هـ فإنه يكون عجيبا أن يتشيع أبو حنيفة للموتى بعد إذ ماتوا بخمس سنين وأعجب منه أن يرتاع رجل شديد البأس قوى المراس، كأبى جعفر من العطف على ذكريات الموتى.. لو جاز أن يتشيع الناس لهم ذلك التشيع الذى يخرج الفقيه الأعظم عن حكمة السبعين عاما (صعدت روحه الزكية وهو ساجد فى شهر رجب سنة ١٥٠هـ (انظر صفحة ٢٠٨ وصفحة ٢٢٢).

وقد جاءت أبا حنيفة الدعوة إلى لقاء الله وهو بين يدى الله يصلى وبين يدى التاريخ وهو سجين وبين يدى الفكر الإنسانى الداعى إلى إنسانية الإنسان وهو يتلقى العذاب من جرانه.

وأخرج من مكان حبسه فحمله خمسة أنفس فأتوا به إلى مكان غسله فغسله الحسن بن عمارة قاضى بغداد، وكان من أصحاب الحديث وزهادهم فلما فرغ من غسله قال :

"رحمك الله لم تفطر منذ ثلاثين سنة ولم تتوسد يمينك بالليل منذ أربعين سنة. كنت أفقهنا وأعبدنا وأجمعنا لخصال الخير وقبت إذ قبت إلى خير وسنة وأتعبت من بعد" (المرجع السابق : صفحة ٢٢٢).

وفى ضوء ما سبق أرجو أن يوافقنى القارئ الكريم على أن أبا حنيفة قد مات فى قضية القضايا، ألا وهى قضية الحرية أو قضية القضاء. أو قضية تسخير العلماء فى خدمة الخلفاء ! فاظهر أن الزهد والعلم ليسا غاية

الحياة وإنما العمل الذى هو شرط الوجود الإنسانى هو الغاية فى الدنيا والوسيلة للآخرة.

وأبدأ حديثى عن "مالك بن أنس" صاحب "الموطأ" بمقولة قرأتها للأستاذ الجليل "زكى نجيب محمود" عندما اضطر إلى الذهاب بالقرب من مسجد الليث بن سعد" الفقيه المصرى، قال زكى نجيب محمود "ويل للمعاصرين من المعاصرين" وذلك لأن الليث كان أفقه من مالك إلا أن أصحابه أبوا عليه ان يعترفوا بذلك (لم يقوموا به).

وقد ذكر المغفور له الشيخ ابو زهرة فى كتابه الشافعى : حياته وعصره - آراؤه وفقهه - القاهرة دار الفكر العربى، الطبعة الثانية، عام ١٩٤٨، صفحات ٢٨، ٣٠".

"لما بلغ الشافعى أن مالكا تقدس آثاره وثيابه فى بعض البلاد الإسلامية ثارت نفسه ونقد آراء مالك وأعلن الزيف منها وألف كتابا "خلاف مالك" وفى هذا المقام يروى الفخر الرازى : "أن الشافعى إنما وضع الكتاب على مالك لأنه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالك يستقى بها. وكان يقال لهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون قال مالك. فقال الشافعى : إن مالكا آدمى قد يخطئ ويغلط فصار ذلك داعيا إلى الشافعى إلى وضع الكتاب على مالك، وكان يقول : كرهت أن أفعل ذلك ولكنى استخرت الله تعالى فيه سنة.."

وعلى الرغم من عدم ميل "مالك" للنضال فقد امتحن بالسياسة وهى الاعتداء المادى على أمثاله من أصحاب العلم الدينى، بالضرب على شكل ما، وبالحبس أحيانا، فالعلماء الفقهيون فى ذلك العهد يمثلون سلطة الشعب، راضين أو كارهين، منتبهين فى وعى أو غير منتبهين لأنهم لابد متحدثون عن الحقوق والواجبات لكل من الحاكمين والمحكومين.. ومن ثم فإن صفحات تاريخ السلطة الشعبية ضد الحكم المستبد الطاغى العنيف المتفرد وهى بذلك صفحات فى تاريخ الحرية الفكرية.

وكان امتحان "مالك" فى الحجاز الذى يبدو أنه لم يبرحه طوال حياته، وقد حدث هذا الامتحان فى سنة ١٤٦هـ على عهد المنصور. إذ الجو

كان مكفهرا، أقصد الجو السياسى، وكان الناس مهتاجى الأعصاب بما تفعل الدولة الجديدة (الدولة العباسية) فى تثبيت سلطانها والمخالفون ينتهزون الفرص لزعزعة مركزها.

وقد ارتكب محنة مالك العباسيون بتوجيه خليفتهم وبيد عاملهم على المدينة، والخليفة هو المنصور والوالى هو جعفر ابن سلمان.

وكانت نفس مالك تنطوى على ميل للأموية وقد بدت منه بوادر لسانية، فى الثناء على الأمويين بالأندلس، وكان مالك يحدث بحديث " ليس على مستكره يمين" ومنه أفتى الناس بالخروج مع "محمد الشبه" الذى هو بسبب ما فى الجو من تلبد، و"مالك" رغم كل مداراة الناس لا ينجو من حسد منافس حاقد ينتهز الفرصة، وكل أولئك مجتمعا يصور سبب المحنة العام، وظروف إثارتها الخاصة دون قصرها على جزئية واحدة.

وقد جرد مالك من الثياب إلا ما يستر العورة، عقابا له، ثم مد جسمه على الأرض، وربطه بالحبال تكتيفا، ووضعت اليدان فى آلة تمسكها، وبعد ان مد مالك يديه فى العقابين وضرب بالسياط على الظهر حتى خلع كتفه الأمر الذى لم يستطع معه أن يسوى رداءه، والملاحظ أن الأثر المعنوى لمثل هذا الصنيع بعالم، هو ما يكون دائما، من أن يخسر بها الطاغية الظالم القاسى وتسوء سيرته حين يعظم المعتدى عليه ويرتفع شأنه وكذلك يقول الأولون أنفسهم : أفتى بحق، وضرب بباطل فكانت هذه السياط عليه حليا حلى بها. (انظر : كتاب أمين الخولى "مالك، تجارب حياة" أعلام العرب رقم ١١، وزارة الثقافة والإرشاد القومى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، صفحات ٢٨٤ - ٣٠٦).

ويجدر بى أن أختم هذه الدراسة عن "مالك بن أنس" بما سطره يراع الأستاذ الكبير "أمين الخولى" تحت عنوان : التجربة الأخيرة، اذ يقول :

أبا عبد الله.. إمض راضيا مرضيا.

أشفقت من الفتوى، وكنت إذا سئلت فكأنما أشرف عليك الموت وقد أمضيت عمرك تفتى.. ويشرف عليك الموت كلما سئلت وفزعت من السياط.. ولكن ناشتك السياط على كبره وضعف وقد أحللتهم رغم ما أحلوا

بك مما لم تبرأ منه.. حتى أغمضت عينيك بشيبة صالحة.. وثقة صافة.. شارفت بروحك عفو الله.. وخبرت عوادك الذين سألوك : كيف تجدك ؟ أفهم سيعانون من عفو الله مالم يكن فى حساب.

غدوت إلى الروضة ورحت.. مصليا متبتلا.. ودارسا متعلما وراويا معلما، واليوم تغدو إلى الروضة مسجى محمولا.. "يصلى عليك" ويشهد الناس لك - وصاحب الدعوة خير شاهد - إنك تأخذ منه ولا ترد عليه..

وفى ثرى "المدينة" الذى اشفقت أن يطأه حافر تركبه لأن محمدا ثاو فيه.. فى هذا الثرى اليوم مثواك.. وأكرم به جوارا..

وفى روضة من رياض الجنة علمت وتعلمت.. فإلى روضة من رياض الجنة ثويت حتى يدعو الخلق داعيها فتلقى ربك وقد أوفيت.

وسلام عليك يوم ولدت.. ويوم مت.. ويوم تبعث حيا.

ومات "مالك بن انس" سنة ١٧٩هـ ودفن بالبقيع (المرجع السابق : صفحتا ٤٢٦ - ٤٢٧).

والإمام الشافعى هو : أبو عبد الله محمد بن أدريس بن العباس ابن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم ابن المطلب بن عبد مناف، أى انه عربى قرشى هاشمى وطلبى ويلتقى مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى جده عبد مناف.

وقد ولد الإمام الشافعى بغزة سنة ١٥٠هـ وهى نفس السنة التى مات فيها الإمام أبو حنيفة كما سبق أن ذكرنا وكان مولده بمدينة غزة من أرض فلسطين، ومات أبوه وهو صغير فانتقلت به أمه إلى مكة لتحافظ على شرف نسبة.

شب الشافعى فقيرا ضيق العيش وحفظ القرآن الكريم وهو صغير، وأخذ يحفظ الأحاديث النبوية ويكتبها ورحل إلى الباديةوعاشر قبيلة "هذيل" قرابة عشر سنين ليأخذ منها قواعد اللغة العربية وكلماتها، فحفظ الشافعى أشعار هذيل وأخباها وكانت هذيل أفصح العرب قاطبة.

ثم تعلم الشافعى الفقه على يد مسلم بن خالد الزنجى مفتى مكة ونبغ فيه على حداثة سنه وأذن له أستاذه فى الافتاء ولكن همة الإمام الشافعى لم تقنع بما وصل إليه، إذ بلغته أخبار إمام المدينة "مالك رضى الله عنه" وكان ذلك فى وقت ارتفع فيه اسم مالك فى الآفاق وتناوله الركبان وبلغ شأنا عظيما فى العلم والحديث.

وقد جذبت هذه الأخبار اهتمام الشافعى وعول على الهجرة إلى المدينة فى طلب العلم وأعد لذلك عدته بأن استعار كتاب (موطأ مالك) من رجل فى مكة وقرأه وحفظه ثم أخذ خطاب توصية من "أمير مكة" إلى "أمير المدينة" ليتوسط عند مالك حتى يقبله تلميذا عنده.

وسافر الشافعى إلى المدينة وقابل مالكا. ثم أخذ يقرأ ومالك يستزيده فى القراءة وظل معه يروى عنه ويتفقه عليه ويدارسه المسائل التى يفتى فيها الإمام الجليل إلى أن مات الإمام مالك سنة ١٧٩هـ.

ولم يقعد شرف "نسب" الإمام الشافعى عن العمل والسعى فى طلب الرزق ليأكل من كد يمنيه وعرق جبينه، وتصادف ان قدم إلى الحجاز أحد ولاة اليمن فحادثه بعض القرشيين فى أن يولى الشافعى على عمل فى اليمن فقبل ورهن الشافعى دارا ليجهز نفسه للسفر، ثم تولى عملا فى "نجران" ظهر فيه ذكاؤه وعدله وترفعه عن الظلم فرفض التملق والرشوة التى كانت تقدم لمن سبقه من الحكام وكان الإمام الشافعى يذم الحكام الظالمين وينقدهم ويذكر ما أعده الله من العقاب للحاكم الظالم ثم ولى على اليمن ومن أعمالها "نجران"، وال ظالم مستبد فكان الشافعى يأخذ على يديه ويمنع مظالمه أن تصل إلى ممن تحت ولايته.

فلما بلغ ذلك والى اليمن، كتب إلى "هارون الرسيد" كتابا يتهم فيه الشافعى بالتشيع لعلى وآل بيته واتهمه بأن يسعى سرا لنقل الخلافة من العباسيين إلى العلويين واتهم معه تسعة آخرين، وكتب فى الخطاب إلى الرشيد (أن تسعة من العلوية تحركوا وأن هاهنا رجلا من ولد شافع المطلبى يعمل بلسانه مالا يقدر عليه المقاتل بسيفه فأرسل هارون الرشيد إلى اليمن يأمره بأن يحضر أولئك النفر التسعة من العلوية ومعهم الشافعى.

أمر هارون الرشيد بضرب أعناق التسعة ثم جاء دور الشافعي فقال للخليفة : "مهلا يا أمير المؤمنين فإنك الداعي وأنا المدعو أنت الاقدر على ماتريد مني ولست القادر على ما اريده منك. يا أمير المؤمنين، ما تقول في رجلين، أحدهما يراني أخاه والآخر يراني عبده، أيهما أحب إلي؟

قال الرشيد : الذي يراك أخاه

قال الشافعي : فذاك أنت يا أمير المؤمنين.

قال الرشيد : كيف ذاك ؟

قال الشافعي : يا أمير المؤمنين، إنكم ولد العباس، وهم ولد علي، ونحن بنو المطلب فأنتم ولد العباس ترونا إخوتكم وهم يروننا عبيدهم.

فانشرح الرشيد لذلك، وقال للشافعي : يا ابن إدريس، كيف علمك ؟ فقال الشافعي : عن أي علومه تسألني ؟ عن حفظه ؟ فقد حفظته ووعيته بين جنبي، وعرفت وقفه وابتداءه وناسخه ومنسوخه وليله ونهاره، ووحشيه وأنسيه، وما خوطب به العام يراد به الخاص وما خوطب به الخاص يراد به العام.

فقال هارون : فكيف علمك بالنجوم ؟ فقال : إني أعرف منها البري والبحري والسهلي والجبلي، والمغبق والمصبح وما تجب معرفته.

فقال الرشيد : فكيف علمك بأنساب العرب ؟ فأجاب الشافعي إني لأعرف أنساب اللئام وأنساب الكرام ونسبي، ونسب أمير المؤمنين.

قال الرشيد : فهل من موعظة تعظ بها أمير المؤمنين ؟ فوعظه بموعظة مؤثرة لطاووس اليماني، فبكى الرشيد وأمر للشافعي بمال كثير وهدايا ففرقها عند الباب. (انظر كتاب سعاد ماهر محمد : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون الجزء الثاني المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، عام ١٩٧٣، صفحات ١٤٠ - ١٤٤).

وفي ضوء وقائع التاريخ، وفي ضوء بعض ما سبق، نجد أن الإمام الشافعي بدأ دراساته الأولى في الحجاز درس أولا على "مسلم بن خالد

الزنجى" مفتى مكة ثم رحل إلى المدينة حيث تفقه على الإمام "مالك بن انس".

وأكمل الإمام الشافعى دراساته فى العراق، حيث قدم إليه وهو فى نحو الرابعة والثلاثين من عمره قدمته الأولى واتصل بمحمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة وناشر مذهبه.

وكان الإمام الشافعى كثير الأسفار فى البلاد الإسلامية ليعلم أحوال الناس وأخبارهم وشئونهم الاجتماعية، فضلا عن طلب الحديث، وقد انتهت أسفاره ورحلاته إلى القدوم إلى مصر فىعام ١٩٩هـ (٨١٤ - ٨١٥ ميلادية) وقيل بعد ذلك بسنتين. أى أنه مكث فى مصر نحو خمس سنوات وقيل نحو ثلاث سنوات، ولم يزل بمصر ناشرا العلم ملازما للاشتغال بجامع عمرو إلى أن تآمر عليه حساده فضربه جمع من السوقة بعد أن انتهى من إلقاء درسنه واصيب بضربة شديدة مرض بسببها أياما ثم مات فى يوم الجمعة سلخ رجب سنة أربع ومائتين من الهجرة (٨١٩ ميلادية) وله من العمر نحو أربع وخمسين سنة (انظر كتاب سيد عويس : من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة إرسال الرسائل إلى ضريح الإمام الشافعى : القاهرة عام ١٩٦٥، صفحات ٥٣ - ٥٥).

ولعلنى لا أبعد كثيرا عن الموضوع الذى أنا بصدده وقد ذكرت ما جرى بين "الإمام الشافعى" وبين "الخليفة هارون الرشيد" أن يسمح لى القارئ الكريم بالحديث عن المؤامرة السياسية الكبرى، اقصد كما ذكرت فى كتاب (تاريخ الطبرى، الجزء الثامن، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة منقحة، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، صفحات ٢٨٧ - ٢٩٤) تحت عنوان "ذكر الخبر عن إيقاع الرشيد بالبرامكة" والملاحظ أن هذه المؤامرة دبرها الخليفة نفسه او اشترك فى تدبيرها ليسترد سلطات مغتصبة وليدعم هيبة محتضرة.

والبرامكة أسرة فارسية نابهة، ظهرت إلى ميدان الحوادث بقيام الدولة العباسية وكان عميدها ومؤسس سؤددها "خالد بن برمك" من كبار الشيعة ولاه المنصور على الموصل وأذربيجان وولى "ابنه يحيى" على أرمنية، ثم عهد إليه المهدى بتربية ولده الرشيد. فلما ولى لرشيد استوزر يحيى، وفوض إليه فى مهام الحكم، وكان بنو يحيى وهم : جعفر والفضل

ومحمد وموسى جميعا من أولى العزم والنباهة، فظهروا جميعا بين رجـالات الدولـة، وشـغلوا أعظـم مناصبهـا. فولـى الرشـيد جعفـر حكومـة مصـر ثـم خراسـان، واسـتوزر الفضـل أخـاه مـن الرضـاع، ثـم اسـتوزر جعفـر وبذلـك اجتمعت السلطة كلها فى يد يحيى وولديه، وآلت إليهم مصائر الشئون العامة، وغلب نفوذ البرامكة على كل نفوذ فى الدولة.

وكان البرامكة أصحـاب فضـل وجـود وذكـاء وعـزم فلبثـوا يديـرون شئون الدولة فترة من الزمن (١٧ عاما) وكـان نفوذهـم فـى ازدهـار والدولـة على أيديهم فى تقدم وكـانت سـلطة الخلافـة راسـخة متمكنـة، ورضـى عنهـم الشعب المحكوم، ومع ذلك فقد كـانت لهـم المكانـة العليـا فـى كـل ناحيـة مـن نواحى الأمور سواء كانت عامة أو خاصة، وكـانت الحـال التـى صـار إليهـا أصحاب السلطة الحقيقة لـم تلبـث أن آثـارت جـزع الرشـيد وتوجسـه. وكـان خصومهم لا ينقطعون فى نفس الوقت عن الكيد والسعاية فـى حقهـم، وأحـس الرشيد بأن بهاء البرامكة يكاد يغشـى بهـاءه وسـلطانهم يكـاد يمحـو سـلطانه، وفـى ضـوء هـذه الظـروف والعوامـل نشـأت فكـرة تحطيـم البرامكـة وسـحق دولتهم التى كادت أن تكون صنوا للدولة الشرعية بل أقوى.

وكـان للخليفـة الرشـيد اليـد الطولـى فـى تدمير هـذا السـلطان غـير الشرعى، بل كان روح فكرة هذا التدبير.

والروايات عن نكبة البرامكـة فـى طوايـا التـاريخ عديدة منهـا قصـة العباسية ابنة "المهدى وأخت الرشيد" ومنها أن الرشـيد عهـد بيحيـى بـن عبـد الله وهو من ولد علـى بـن أبـى طـالب وكـان قـد خـرج بـالديلم ودعـا لنفسـه فحاربه جند الرشيد وأسروه - إلى جعفر ليسهر على اعتقالـه، فـأطلق جعفـر سراحه خفية.

وإذا رجعنا إلـى مـاذكره "العلامـة ابـن خلـدون" فـى هـذا الموضـوع، وربما يستحوذ علينا الاقتناع بما ذكر :

"وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم علـى الدولـة واحتجـابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليـه فغلبـوه على أمره وشاركوه فى سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف فـى أمـور ملكـه،

فعظمت أثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم، فأورث عند مخدويهم نواشى الغيرة والاستنكاف من الحجر والأنفة، وكامن الحقود التى بعثتها منهم صغائر الدالة، وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبار المخالفة كقصتهم فى يحيى بن عبد الله"

(انظر كتاب : محمد عبد الله عنان، تاريخ المؤامرات السياسية وتطوراتها الاجتماعية والقانونية، صفحات : ١٠٨ - ١١١)، (انظر أيضا كتاب : يوحنا اكباريوس، قطف الزهور فى تاريخ الدهور، صفحتا ١٠٩ - ١١٠)

واستأنف حديثى عن صراع "أحمد بن حنبل" الفكرى الذى قضى عليه كما قضى على الأئمة ممن سبقوه : أبى حنيفة النعمان ومالك بن انس وأبى عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف. الذين كعلماءللإسلام قد سجلوا الأسوة الحسنة لم يأت من بعدهم، فقد امتحنوا جميعا من اجل أرائهم.

وقد سجل فى كتاب "تاريخ الطبرى" الذى سبق أن ذكرته فى الحديث عن محنة البرامكة (انظر : صفحات ٦٣١ - ٦٤٥) تحت عنوان "ذكر خبر المحنة بالقرآن" وكان ذلك فى عهد "الخليفة المأمون" الذى مكر بأخيه "محمد الأمين" على الرغم بما كان أخذ عليه لهما والدهما (الرشيد) من العهود والمواثيق.

وفى عام ٢١٨هـ كتب الخليفة المأمون إلى إسحق بن إبراهيم فى امتحان القضاة والمحدثين، وأمر بأشخاص جماعة منهم إليه إلى "الرقة" وكان ذلك أول كتاب كتب فى ذلك.

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحق بن إبراهيم فى أشخاص سبعة نفر، منهم محمد بن سعد كاتب الواقدى، وأبو مسلم مستملى يزيد بن هارون، ويحيى بن معين، وزهير بن حرب أبو خيثمة، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبى مسعود، وأحمد بن الدورقى، فأشخصوا، فأمتحنهم وسألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعا أن القرآن مخلوق فأشخصهم إلى مدينة

السلام فأحضرهم إسحق بن إبراهيم داره فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث، فاقروا بمثل ما أجابوا به المأمون، فخلى سبيلهم، وكان ما فعل من ذلك إسحق بن إبراهيم بأمر المأمون.

وكتب المأمون مرة أخرى إلى بن إبراهيم آمرا إياه بأن يقرأه على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضى، ويعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شئ من أمور المسلمين إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده، وأنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق فإن قالا بقول أمير المؤمنين فى ذلك، فتقدم إليهما فى امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق...

فأحضر إسحق بن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين، وأحضر أبا حسان الزيادى وبشر بن الوليد الكندى وعلى بن أبى مقاتل والفضل بن غانم والذيال بن الهيثم وسجادة والقواريرى وأحمد بن حنبل وقتيبة وسعدوية الواسطى وعلى بن الجعد وإسحق بن أبى إسرائيل وابن الهرش وابن عليه الأكبر ويحيى بن عبد الرحمن العمرى وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطاب - كان قاضى الرقة - وأبانصر التمار وأبا معمر القطيعى ومحمد بن حاتم بن ميمون ومحمد بن نوح المضروب وابن الفرخان، وجماعة منهم النضر ابن شميل وابن على بن عاصم وأبو العوام بن البزاز وابن شجاع وعبد الرحمن بن إسحق، فأدخلوا جميعا على إسحق ابن إبراهيم، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين حتى فهموه، ثم قال لبشر بن الوليد : ما تقول فى القرآن ؟ فقال : قد عرفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة، قال : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى، فقال : أقول : القرآن كلام الله، قال : أسألك عن هذا، أمخلوق هو ؟ قال : الله خالق كل شئ قال : ما القرآن شئ ؟ قال : هو شئ، قال : فمخلوق ؟ قال : ليس بخالق قال : ليس أسألك عن هذا، أمخلوق هو ؟ قال : ما أحسن غير ما قلت لك، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه، وليس عندى غير ما قلت. فأخذ إسحق بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه فقرأها عليه، ووقفه عليها فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحدا فردا لم يكن قبله شئ ولا بعده شئ، ولا يشبه

شئ من خلقه فى معنى من المعانى، ولا وجه من الوجه، قال : نعم : وقد كنت أضرب الناس على دون هذا فقال للكاتب : اكتب ما قال...

ثم دعا إسحق بن إبراهيم "أحمد بن حنبل" فقال له : ما تقول فى القرآن ؟ قال : هو كلام الله، قال : أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله لا أزيد عليها، فامتحنه بما فى الرقعة، فلما أتى على "ليس كمثله شئ" قال " (ليس كمثله شئ وهو السمع البصير) وامسك عن ألا يشبهه شئ من خلقه فى معنى من المعانى، ولا وجه من الوجوه، فقال إسحق بن إبراهيم لأحمد بن حنبل : فما معنى قوله : (سميع بصير) ؟ قال : هو كما وصف نفسه، قال : فما معناه ؟ قال لا ادرى هو كما وصف نفسه.

وقد ورد كتاب المأمون جواب إسحق بن إبراهيم فى أمر من استجوابهم بعد أن مكثوا تسعة أيام، وقد تضمن كتاب المأمون ضمن ما تضمن :

"... وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها، واستدل على جهله وآفته بها"

وفى سنة مائتين وثمانى عشرة أعاد إسحق بن إبراهيم القول عليهم إلى أن القرآن مخلوق. فأجاب القوم إلا أربعة نفر، منهم أحمد بن حنبل وسجادة والقواريرى ومحمد بن نوح المضروب. فأمر به إسحق بن إبراهيم فشدوا فى الحديد، فلما كان من الغد دعا بهم جميعا يساقون فى الحديد، فأعاد عليهم المحنة، فأجابه سجادة إلى أن القرآن مخلوق، فأمر بإطلاق قيده وخلى سبيله، وأصر الآخرون على قولهم فلما كان من بعد الغد عاودهم أيضا، فأعاد عليهم القول، فأجاب القواريرى إلى أن القرآن مخلوق، فأمر بإطلاق قيده وخلى سبيله وأصر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما، ولم يرجعا، فشدا جميعا فى الحديد، ووجها إلى طرسوس، وهكذا كان من نصيب أحمد بن حنبل أن يذوق بعض الموت فى خلق القرآن، دفاعا عن فكره وإصراره على رأيه فى قضية أثارها الخليفة دون مامبرر. ولكن يبدو لى أن الأذى الذى يصدر عن الطغاة هو الغذاء المستمر لمواهب الرجل الحر.

ومن الملاحظ أننا نجد فى ضوء كحقائق التاريخ قد حكم مصر منذ عام ٥٢٥ ق.م حتى عام ١٩٥٣ ميلادية حكام أجانب، وقد أنقرضوا جميعا وبقيت مصر الخالدة لا تزال، انقرضت دولة اليونان ثم دولة الرومان التى أقامت البلاد تحت تصرف حكامهم نحو سبع مائة سنة فكانت تحسب ولاية من الولايات الرومانية، وفى روة الاضطهاد الوثنى كما سبق أن ذكرت بقيت مصر المسيحية صامدة حتى فتحها "عمرو بن العاص" فى خلافة "عمر بن الخطاب" سنة ٦٤٠ ميلادية وتولى بعد عزله غيره من العمال إلى أن انتهت خلافة الخلفاء الراشدين (وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى) إلى بنى أمية. فكانوا يرسلون لها عمالا من طرفهم مدة خلافتهم، وكانوا يسمون كما ذكرت من قبل عمال خراج مصر، ثم جاءت بعدهم الدولة العباسية واستمرت تابعة لها إلى سنة ٨٦٨ ميلادية حينما قام فيها "أحمد بن طولون" وصار سلطانا، وخلفته ذريته من بعده واستمر الحكم فى أيديهم ٣٨ سنة، وانقرضت الدولة الطولونية بعد حدوث فتن عندما عصاه ابنه العباس - وقد نصح احمد بن طولون وليه فلم يذعن، وانتهى الأمر بقتل عدد كبير من اتباع العباس الذى شاهد مقتلهم وتعذيبهم على يد ابن طولون، ثم حبس العباس بامر أبيه، وظل فى الحبس حتى مات (فى عهد أخيه خمارويه)، وفى عهد "خمارويه" تزوجت ابنته "قطر الندى" من ابن الخليفة العباسى، ولكن الخليفة المعتضد اختارها لنفسه، وكان الإسراف فى جهاز العروس داعيا إلى إفقار خمارويه وحكومة مصر، وقد قتل بدمشق.

وبعد سقوط الطولونيين سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥م) عادت مصر إلى التبعية المطلقة للعباسيين، ولكن الوالى أصبح من الضعف بحيث استبد به الجند، ولم تستفد مصر فى خلال الفترة التى تلت سقوط الطولونيين حتى وليها الأخشيديون. واستمرت هذه الدولة فى خلال الفترة ٣٢٣ - ٣٥٨هـ = ٩٤٣ - ٩٦٩ ميلادية، وأسس الدولة الأخشيدية "محمد أبو بكر بن طغج" وعهد "الخلفة المتقى" لابن طغج بولاية مصر سنة ٣٢٣ هـ - ٩٣٥ ميلادية. على اثر انتصاره على الفاطميين حين حاولوا غزو الديار المصرية سنة ٣٢١هـ. ومن الغريب ولا غرابة فى ذلك أن علاقة الإخشيد الفاطميين فى المغرب قد تجلت فى الحملات التى بعث بها الخلفاء الفاطميون لأخذ مصر وجعلها مقر خلافة فاطمية وطلبوا إليه نشر الدعوة الفاطمية فى مصر!

وقد اشترى محمد بن طغ الخشيد "كافورا" الذى كان مجرد مملوك دميم الخلقة، وحكم كافور مصر فى خلال الفترة ٣٥٥ - ٣٥٧هـ - ٩٦٦ = ٩٦٨ ميلادية.

ويكفينى أن أذكر بهذه المناسبة قصيدة الشاعر "أبو الطيب المتنبى" أشعر شعراء عصره ومنها :

عيد بأية حال عدت ياعيد	بما مضى ام لأمر فيك تجديد
جود الرجال من الأيدى وجودهم	من اللسان فلا كانوا ولا الجود
لا تشتر العبد إلا والعصا معه	ان العبيد لأنجاس مناكيد
من علم الأسود المخصى مكرمة	أقوامه البيض أم أباؤه الصيد
من كل رحو وكاء البطن منفتق	لا فى الرجال ولا السنوان ومدود
أكلما اغتال عبد السوء سيده	أو خانه فله فى مصر تمهيد
صار الخصى إمام الآبقين بها	فالحر مستعبد والعبد معبود
العبد ليس لحر صالح بأخ	لو انه فى ثياب الخز مولود
ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن	يسئ بى فيه كلب وهو محمود

(انظر كتاب : على إبراهيم حسن، "مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى، القاهرة مكتبة النهضة، الطبعة الخامسة، ١٩٦٤، صفحات ٦٥ - ٩٨)

واستولت الدولة الفاطمية (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ ٩٦٩ - ١٧٧١ ميلادية) على الديار المصرية بعد إشعال المؤامرات وانتشار المجاعة فى البلاد، ومكث خلفاؤهم حوالى ١٩٩ عاما حاولوا فى خلالها نشر الدعوة الشيعية،

ولكنهم ما أن انقرضوا وذهب ريحهم عاد المصريون إلى المذهب السنى كما كانوا منذ عام ٦٤٠ ميلادية، وكان عدد هؤلاء الخلفاء أربعة عشر بمصر منهم ثلاثة أنفار ظهر وما توفى بلاد المغرب وأحد عشر بمصر، وأول الآخرين المعز لدين الله بن المهدى عبيد الله المغربى، ومن هؤلاء الخلفاء "الحاكم بأمر الله" وهو الخليفة الثالث.

ولى "الحاكم بامر الله" الخلافة حدثا دون الثامنة عشرة. وكان مولده بالقصر الفاطمى بالقاهرة المعزية فى الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٧٥هـ (١٤ من شهر أغسطس سنة ٩٨٥ ميلادية) وأمه أم ولد، وقد كانت حسبما تقول الرواية الكنسية المعاصرة جارية رومية نصرانية من طائفة الملكية (الأقباط الكاثوليك) وكان لها أيام "العزيز" (أبى الحاكم بأمر الله) نفوذ عظيم فى الدولة، وكان لهذا النفوذ أثره ولا ريب فى سياسة التسامح الواضح التى اتبعها العزيز نحو النصارى وفى تقوية جانبهم ونفوذهم.

ومنح "الخليفة العزيز" ولاية عهده لابنه الحاكم منذ كان طفلا فى الثامنة (شعبان سونة ٣٨٣هـ) وبويع بالخلافة فى "بلبيس" يوم وفاة أبيه : وأوصى الخليفة قبل موته بولده ثلاثة من أكابر رجال الدولة هم : برجوان الصقلبى خادمه وكبير خزائنه، والحسن بن عمار الكتامى زعيم كتامة أقوى القبائل المغربية وعماد الدولة الفاطمية منذ نشأتها، محمد بن النعمان قاضى القضاة

وكانت أم الحاكم، تشهد ولدها ينمو ويترعرع فى ظل هذه الوصاية.. الخطرة حيث كان التنافس بين الأوصياء يبدو صراعا علـى السلطة.. وانتصر "برجوان" على منافسيه أو بالأحرى على مصارعيه، واستمر يعامل الحاكم (الذى أشرف على الخامسة عشرة) معاملة الطفل المحور عليه. ومن ثم أضمر الحاكم التخلص منه أى من برجوان الوصى الطاغية، ودبر مكيدة أودت بحياة "برجوان" حيث أوعز لبعض مخلصينه فانقضوا عليه طعنا بالخناجر واجتزوا رأسه ودفنوه حيث قتل (ربيع الثانى ٣٩٠هـ - أبريل سنة ٩٩٩ ميلادية).

وكان الحاكم بامر الله صبيا فى نحو السادسة عشرة حينما بدأ يضطلع بمهام الدولة، وعلى الرغم من صغر سنه فإنه كان حاكما حقيقيا

يقبض على السلطة بيديه القويتين، وتقدم الرواية الإسلامية إلينا الحاكم فى صور مروعة مثيرة، وقلما كان يغادر الحكم وزير أو كبير من كبراء الدولة إلا مسفوك الدم وفى الأحوال النادره التى كان ينجو المعزول فيها بحياته كانت تلازمه نقمة الحاكم حتى يهلك، ومن حوادث القتل والسفك التى امعن فيها الحاكم : فى سنة ٣٩٩هـ قبض الحاكم على جماعة كبيرة من الغلمان والكتاب والخدم الصقالبة بالقصر - وقطعت أيديهم من وسط الذراع ثم قتلوا. وهكذا استمر الحاكم فى الفتك بالزعماء ورجال الدولة والكتاب والعلماء حتى أباد معظمهم، هذا عدا من قتل من الكافة فى خلال هذه الأعوام الرهيبة وهنا نجد أوضح مثال للإرهاب فى نظر الحاكم كوسيلة للحكم، وكان القتل المنظم دعامة هذا الإهاب الشامل. فإذا زعيم أو رجل من رجال الدولة وصل إلى مدى خطر من السلطان والنفوذ، فإن القتل أنجح وسيلة لسحقه وسحق نفوذه، وإذا بدرت من فريق من الناس بادارة تذمر أو تمرد على أمر من الأوامر أو قانون من القوانين، فإن إزهاق عدد منهم يكفل عودتهم إلى السكينة والخنوع، وكانت هذه السياسة التى كانت تحيط الحاكم بسياج منيع من الرهبة.

ولعنى إذ أذكر للقارئ الكريم أنى لا أبرر شيئا من إجراءات الحاكم بأمر الله وتصرفاته الدموية، إذا لاحظنا فى عصرنا الراهن وفى أرقى الأمم، أقصد الأمم المتقدمه غربية كانت أو شرقية إذا لاحظنا مايحدث فى الأمم المتخلفة بأنواعها - أنها فى الأغلب الإعم تعتمد على النظم الطاغية حيث ترتكب المذابح باستعمال أحدث الوسائل المدمرة باسم سلامة الدولة وسلامة النظم القائمة (لعل ما يحدث فى العراق وإيران وفى إسرائيل وفى معظم بقاع المعمورة فى زماننا الحالى خير دليل وشاهد على ما أقول).انظر كتاب محمد عبد الله عنان : "الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، القاهرة مارس سنة ١٩٣٧، صفحات ٤١ - ٥٨).

واختفى الحاكم بأمر الله، أو فى قول آخر قتل، وكان ذلك سنة ٤١١هـ ٩٩٦ ميلادية ويرجع ذلك إلى أن الحاكم وقع تحت تأثير جماعة من النفعيين أقنعوه بأن روح الله قد حلت فى جسده حتى أمر الناس بعبادته، وقد حاولت أخته "ست الملك" أن ترد أخاها إلى الصواب فلم تستطع ونظرت إلى

الدولة فوجدت الشعب متذمرا والحكم منحلا، والدولة مشرفة على الانهيار، وقد اختلفت الروايات فى كيفية قتل الحاكم بأمر الله، ولكن يقال إن أخته ست الملك كانت لها يد فى قتله.

(انظر كتاب : "مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى" صفحتى ١٤٣ - ١٤٤)

وعبر القرون فى عهد المماليك البحرية (١٢٥٠ - ١٣٨٤ ميلادية) والمماليك البرية (١٣٨٢ - ١٥١١٧ ميلادية) مرورا بالفتح العثمانى فى عام ١٥١٧ وحتى مذبحة القلعة فى يوم ٢ من شهر مارس عام ١٨١١ ميلادية، كانت أعمال العنف سائدة وكان معظمها بين الحكام بعضهم البعض، ومع ذلك فإن حكمهم كان قاسيا جافيا من غير قاعدة وكانوا يظلمون الرعية ولا يبالون بنجاح البلاد، واستمروا فى الظلم والطغيان إلى سنة ١٧٨٩ ميلادية حين حضر "نابليون بونابرت" بأربعين ألفا من الجيوش الفرنسية إلى مصر وقهرهم وفرقهم فى أقطار الصعيد والحجاز، واستمرت أحكام البلاد فى قبضته مدة ثلاث سنوات إلى أن استخلصتها الدولة العثمانية (بالاتحاد مع الإنجليز) سنة ١٨٠١ ميلادية وأقامت عليها واليا وبقيت على تلك الحالة نحو ثلاث سنوات حتى تولى عليها "محمد على" وتسلم مقادير حكم البلاد فى عام ١٨٠٥ ميلادية.

وبعد أن استتب الحكم محمد على، أى فى عام ١٨١١ ميلادية، أقام حفلة لتناول القهوة فى سراى القلعة احتفالا بخروج "طوسون باشا بن محمد على باشا" لمقاتلة الإرهابيين فى شبه جزيرة العرب، وغدر محمد على بقتل من حضر من هؤلاء المماليك بقصد تصفيتهم حيث كان يرى أنهم أعداؤه الحقيقيون وكان عدد ممن قتل فى هذه المذبحة ما يربو على أربعمائة مملوك، ولم يكتف محمد على بذلك بل قطع دابر كل من وقف فى وجهه حتى الذين ساندوه من المصريين وعلى رأسهم "عمر مكرم".

وقد علق "الجبرتى" على هذه المذبحة ذاكرا :

"وختم الله للجميع (من ذبحوا) بالخير - فإنه بلغنى ممن عاينهم بالحبوس، وفى حالة القتل أنهم كانوا يقرأون القرآن، وينطقون بالشهادتين

والاستغفار، وبعضهم طلب ماء وتوضأ وصلى قبل أن يرمى عنقه، ومن لم يجد تيمم "

(انظر كتاب : عبد الرحمن الجبرتى : تاريخ الجبرتى" القاهرة مطابع الشعب، الجزء السابع، عام ١٩٥٩، صفحة ٨١٤).

والملاحظ أنه فى ضوء تاريخ المجتمع المصرى الحديث والمعاصر نجد بعض الأيام التى غيرت إلى حد كبير وجه تطور هذا المجتمع، ومن هذه الأيام حادثة الإسكندرية فى ١١ من شهر يونيو عام ١٨٨٢ (هزيمة الثورة العرابية) ويوم ٤ من شهر فبراير عام ١٩٤٢ (الذى هدد فيه الملك فاروق بالتنازل عن العرش) ويوم ٢٦ من شهر يناير عام ١٩٥٢ (الذى احترقت فيه مدينة القاهرة).

وكان حريق القاهرة فى يوم ٢٦ من شهر يناير عام ١٩٥٢ حادثا بالغ الخطورة فى مجال التآمر على الشعب المصرى، فقد كانت الحركة الوطنية المصرية فى ذلك الحين مشتعلة ضد الاحتلال الإنجليزى، وكان الفدائيون المصريون يحيلون معسكرات الإنجليز فى القنال إلى جحيم، وكانت حكومة "النحاس" قد أعلنت إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦ ووقفت فى وجه الاحتلال موقفا وطنيا صريحا. من هنا بدأت المؤامرة لتصفية حركة الفدائيين، ولإشعال فتنة طائفية بين المسلمين والمسيحيين المصريين كان إبراهيم فرج الوزير المسيحى فى وزارة الوفد قد رفض الاستقالة على الرغم من طلب بعض المسيحيين المصريين المتعصبين بإيعاز من المستعمرين الإنجليزى، ذلك منه وانتهى الحريق إلى جانب ما أحدثه من خسائر اقتصادية فادحة وخسائر أخرى فى الأرواح إلى إسقاط الحكم الوطنى بالفعل وإقالة وزارة النحاس بعد يوم واحد من الحريق، ثم محاولة فرض حكم إرهابى على الشعب لتنفيذ خطط الاستعمار والملك فاروق، وانتهى الأمر كله فى العام نفسه بقيام ثورة ٢٣ من شهر يويو عام ١٩٥٢.

وقد كنت فى مدينة لندن عندما احترقت مدينة القاهرة فى يوم ٢٦ من شهر يناير عام ١٩٥٢، وكنت اقرأ عن هذا الحادث الرهيب وما حدث بعده من حوادث فى جرائد لندن المختلفة الاتجاهات. وإننى أذكر أنه عندما

تولى "على ماهر" الوزارة بعد إقالة "النحاس" أننى قرأت فى إحدى الصحف "مانشت" يملأ نصف الصفحة الأولى يصفه "على ماهر" بـ "رجل الساعة".

ويقول "محمد ونيس" فى كتابه "حوادث القاهرة" بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر شهر سبتمبر عام ١٩٧٢ مايلى :

وان الاستعمار الإنجليزى وبه "مخابراته" معروف بالتجائه إلى مثل هذه الأساليب من حرق وقتل واتخاذها ذريعة لإحداث ثورة مضادة وإخماد الحركة الوطنية ومن المسلم به تماما أن مصر عاشت فترة الثورة المضادة (القصيرة الآن) منذ يوم ٢٦ من شهر يناير عام ١٩٥٢ حتى يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢.

وجدير بالذكر أن بيانات "الضباط الأحرار" عقب حريق القاهرة فى يوم ٢٦ من شهر يناير كانت تتضمن فى تحليلها "أن الإنجليز والمخابرات الإنجليزية" بصفة خاصة هى التى تقف وراء الحريق... (انظر صفحتى : ٥٢ و٥٣).

وقبل أن أختم الموضوع الذى اهتمت به هذه الدراسة عن "بعض المؤامرات السياسية" وبخاصة بعد حدوث بعض الوقائع الخطيرة التى كادت تودى بالقتل والدمار للسادة : اللواء (حسن أبو باشا) واللواء (محمد النبوى إسماعيل) والصحفى الكبير الأستاذ (مكرم محمد أحمد) - أجد أنه من واجبى أن أدلى بدلوى فى موضوع الجرائم التى ارتكبت تحت تاثير المعتقدات الدينية. إننى لن أتحدث عن الوقائع الخطيرة السابقة فهى فى يد القضاء ولا يمكن أن أتجاسر وأخوض فيها أو فى وقائعها حتى يقول القضاء كلمته.

ولكننى أهتم فى هذه الدراسة من الوجهة الاجتماعية بجماعتى "الفنية العسكرية" و " التكفير والهجرة" اللتين قد تم البت فيهما قضائيا فعلا وحقا وأرجو أن يعذرنى القارئ الكريم إذ إننى لم أتحدث عن "تنظيم الجهاد" الذى صرح بعض أعضائه الرئيس أنور السادات وآخرين فى يوم ٦ من شهر أكتوبر عام ١٩٨١، وذلك لأن المعلومات عن هذا الحادث لا أعرف عنها شيئا لأنها ليست فى متناول يدى بدافع السرية التى فرضتها السلطات الرسمية عليها.

ومع ذلك فإنه كان من حظى أن اشترك فى إحدى الندوات التى قامت بإعدادها وحدة من وحدات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى عام ١٩٨٠ عن "الحركات الاجتماعية المتطرفة" فإننى أذكر أن تقرير هذه الندوة قد تبين أن الجماعتين من أولى الجماعات التى وصل فيها العنف الدينى إلى أقصاه فلقد ذهب ضحية هذا العنف فى "قضية الفنية العسكرية" نحو أربعة عشر فردا من طلبة وحرس الكلية الفنية العسكرية، ويبدو هذا العنف أيضا جليا فى قتل "الشيخ محمد حسين الذهبى" فى القضية "التكفير والهجرة".

وقد تبين أن لأعضاء "جماعة الفنية العسكرية" صفات مشتركة تتمثل فى أن عددا كبيرا منهم فى مرحلة الشباب، وأن القلة القليلة منهم قد تجاوزت هذه المرحلة، وتبين أيضا أن أغلبيتهم من الطلبة الملحقين بمراحل التعليم الجامعى والعسكرى، وأن عددا قليلا منهم ملتحقون بمراحل التعليم المتوسط، وأن القلة غير ملتحقين بالتعليم وإن كانوا يتمتعون بقدر لا بأس به من الاستيعاب لمبادئ التعليم وقد تبين كذلك أن أعضاء الجماعة الملتحقين بمراحل التعليم العالى من المتفوقين.

أما "جماعة التكفير والهجرة" فأعضاؤها ممن لم يتجاوزوا مرحلة الشباب وتبين أن مستوياتهم التعليمية فى نطاق مرحلتى التعليم الجامعى والمتوسط، وأنه لا يوجد بينهم أميون ويتميز أعضاء هذه الجامعة بوجود روابط قربى أو مصاهرة أو جيرة أو زمالة سابقة بينهم وقد أسهمت هذه الروابط فى توثيق روابط العقيدة وفى تجنب المخاطرة فى تجنيد أشخاص غرباء لا تكتمل عوامل الثقة بهم.

ويشترك أعضاء جماعة "الفنية العسكرية" فى الاهتمام والاستزادة من الثقافة الدينية معتمدين فى ذلك على الكتب والمجلات الدينية الشائعة، وخاصة ما يصدر منها عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ومجمع البحوث الإسلامية بعض الكتابات الدينية الأخرى كتابات "أبو الأعلى المودودى" فضلا عن الخطب التى تلقى ببعض المساجد والمناقشات الدينية التى تتم فى رحابها، وخاصة ما تعلق منها بنقد الأحوال الاجتماعية والسياسية للمسلمين (حكومات وشعوبا) والمطالبة بإصلاحها.

وقد نشئ أعضاء جماعة "التفكير والهجرة" في بيئات تتسم بالالتزام الديني أصلا، ويتمتعون بقدر من الثقافة الدينية، وهم يهتمون ثقافيا ودينيا، في دعم العقائد والأحكام التي تؤيد فكر جماعتهم الذي يتضمن ضمن ما يتضمن الحماسة بالآيات والأحاديث التي يدعو إلى الجهاد وتفكير من يعارض هذا الفكر، وتراهم يدعون إلى الانعزال عن المجتمعات الراهنة لأنهم يرفضون أنظمتها وتشريعاتها. وتلعب المناقشات بين أعضاءها فضلا عن التوجيهات التي تصدر من "أمراء" الجماعة، دورا ملموسا في بلورة فكر أعضاء هذه الجماعة وفي تكوينهم الثقافي، ومن ثم نجد المسئولين عن هذه الجماعة يوصون أعضائها بترك لكليات والمعاهد التي ينتمون إليها بحجة عدم جدوى ما يتلقون فيها من علوم فضلا عن مخالفتها لأحكام الدين، وهم أي أعضاء هذه الجماعة يقرأون أيضا الكتب والمجلات الدينية الشائعة، وبوجه خاص تراهم يقبلون على مؤلفات "ابو الأعلى المودودي".

ويبرر أحد امراء "جماعة الفنية العسكرية" ما اتخذته الجماعة من رسائل العنف الذي اتبعه أعضاء هذه الجماعة بأن الحوار مع السلطة كان قد فشل ويرجع ذلك إل أن الذي كان يدير هذا الحوار ضباط الشرطة، ويتساءل الأمير قائلا : كيف يأتي اللقاء الفكري بين عقلية ضباط الشرطة أي عقلية الموظف الروتيني السلطوي وبين عقلية المفكر المثقف العقائدي ؟ ثم أكمل حديثه قائلا : إن الجماعة (جماعة الفنية العسكرية) تطرح هذا التساؤل لتثبيت أن هدفها لم يكن العنف وإنما هو توصيل الأمانة (يقصد الدين الإسلامي) إلى الناس وإنها ليست مجموعة من الشباب المضلل أو المغرور الذي ينساق وراء شخص معين نجح في الاستخفاف بها ! ودلالة ذلك، كما يقول هذا الأمير، وجود المد السلامي رغم أن حسن البنا وسيد قطب وصالح سرية وشكري قد قتلوا وانتهوا ويكرر قائلا : خلاصة القول إن فشل الحوار مع السلطة أدى بالجماعة إلى العمل "تحت الأرض" وإلى استخدام العنف كبديل لحرية الكلمة وللوصول المعلن.

وأرجو من القارئ الكريم أن أقف عند هذا الحد، وأرجو أن أكون قد أبرزت فيما ذكرت بعض الملامح الموضوعية التي وصل فيها العنف

الدينى، من وجهة النظر الاجتماعية إلى أقصاه فى نطاق "جماعة الفنية العسكرية".

وإننى اذكر أنه عندما ظهرت "جماعة التكفير والهجرة" فى المجتمع المصرى ظننت أن التاريخ يعيد نفسه وهذا ما لا أعتقده، ظننت أن الاضطهاد الوثنى الذى نكب به المصريون المسيحيون فى خلال الفترة من عام ٢٨٤ - ٣١٣ ميلادية واضطرهم إلى الفرار بعقيدتهم إلى صحراء (وقد ذكرت ذلك من قبل) وكانت فيافى مصر وقفارها حصنا أمينا وملاذا لهؤلاء الفارين بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ولكننى وأنا المسلم الذى أخبر عن جده "سيدى عويس القرنى" أو " سيدى أويس القرنى" النبى صلى الله عليه وسلم سيدنا عمر بن الخطاب بأنه سيظهر فى زمانه أى فى زمان سيدنا عمر، فأطلب منه أن يدعو لى، وظهر هذا الجد الكبير لى ودعا للنبى صلى الله عليه وسلم (كما ذكر لى جدى لأبى).. اللهم آت محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه مكانا محمودا الذى وعدته.

ومن ثم فإننى استبعدت أن تكون "جماعة التفكير" التى يكفر أعضاؤها المسلمين من الناس فى المجتمع ويفرون إلى الصحراء قد فعلوا "أو يفعلون" ما فعله أجدادنا المصريون المسيحيون من قبل وقلت لعل هذه الجماعة إحدى الفرق الإسلامية المتطرفة وقد تأكد لى ذلك عندما استعملوا العنف بألوانه فى قتل أحد رجال الأزهر، اقصد "الشيخ محمد حسين الذهبى".

وليعذر لى القارئ الكريم إذا اكتفيت بالحديث عن فكر هذه الجماعة فيما يلى :

- تضع الجماعة قاعدة خطيرة تزعم فيها أن أية معصية يقع فيها المسلم هى بمثابة وقوع فى الشرك، وفى رأيها أن المعاصى شرك بالله تعالى ويتساوى فى ذلك عند أعضائها أى معصية سواء أكانت صغيرة أم كبيرة فكلاهما شرك بالله تعالى.

ويدعى أعضاء الجماعة ان عدم أداء طاعة واحدة مفروضة تسقط بقية الطاعات الأخرى التى يؤديها المسلم، إذ لابد أن تؤدى جميع الطاعات المفروضة مجتمعة وإلا فكأنها لم تكن. ويقولون إن الإسلام ربط الطاعة

المفروضة كشرط فيه. ففريضة الصلاة والزكاة والحج وفريضة الجهاد والتوكل على الله وكذلك فريضة إكرام الضيف وإكرام الجار (لم تذكر فريضة صوم شهر رمضان العظيم)... كل هذه الطاعات المفروضة شرط فى الإسلام وغياب أى طاعة منها محبط للجميع وكأنها لم تكن.

- وتقول الجماعة إن الإصرار على معصية واحدة كفر بالله العظيم ومحبط لكل أعمال البر وإن كانت كجبال تهامة.

- تحكم الجماعة بالكفر على كل مسلم تبلغه دعوتهم ثم لا ينضم إليهم.

- وقد وصل الأمر بالجماعة أن رفضوا الإقرار بأن الإمامين مسلم والبخارى من المسلمين وذلك ما تعتقده الجماعة أن مدار نقل الخبر - أى خبر - يبنى على الصدق وليس على الإسلام.

- وترى الجماعة أن الكافر أصل الحكم فيه أنه حلال الدم والمال والعرض وان اكافرين مستحقون للقتل سواء أكانوا جماعة أم أفرادا.

وفى صدد الحديث عن الهجرة نجد أن جماعة "التكفير والهجرة" تدعى أن أرض مصر هى أرض كفر وأرض حرب. وأنه تجب الهجرة منها إلى الجبال والكهوف للإعداد لمقاتلة أهلها من أجل إقامة الإسلام أى أن خطة الجماعة تتمثل فى ضرورة الهجرة ثم يبدأ القتال دفاعيا ثم هجوميا تبعا للواقع. أما الدليل الذى تعتمد عليه الجماعة فى ضرورة وجوب هذه الهجرة فهو قوله تعالى :

"إن الذين توفاه الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا" (٤ م سورة النساء : أية رقم ٩٧)

وهم أى أعضاء جماعة التكفير والهجرة يرون أن هذه الآية تعنى أن وجود الإنسان فى أرض الكفار يدفعه إلى الوقوع فى المعصية وممارسة الفحشاء فيكون مأواه جهنم. ولهذا فإن الهجرة واجبة عليه تجنبا لذلك.

(انظر كتاب : حامد حسان وآخرون : "مواجهة الفكر المتطرف فى الإسلام : مناقشة موضوعية لأفكار جماعة التكفير والهجرة من واقع سجلات المحكمة"، (الطبعة الثانية) القاهرة، مطبعة الجبلاوى، عام ١٩٨٠، صفحات ٢٠ - ٢٢ و٤١).

١٢- دور القادة الثقافيين

يقصد بالقادة الثقافيين فى الدراسة الحالية أعضاء المجتمع.. أى مجتمع الذين يؤهلون تأهيلا مقصودا لكى يؤدوا دورهم أو أدوارهم الثقافية فى هذا المجتمع. أى لذين اتخذوا العمل الثقافى (بمعناه العلمى) مهنة لهم فى المجتمع الذى يعيشون فيه والملاحظ أن هؤلاء القادة هم بعض أعضاء المجتمع الذين يعملون بالضرورة من أجل أعضائه وبهم، والملاحظ أيضا أن ميادين العمل الثقافى فى المجتمع تكون بالضررو، أيضا ميادين شتى، وأهم هذه الميادين هى ميادين الإعلام والخدمة الاجتماعية والوعظ الدينى والتعليم والتربية. فالصحفى والإذاعى ومن يعمل فى مجالات التليفزيون والمسرح والشاشة الكبيرة هم من القادة الثقافيين والإخصائى الاجتماعى الذى يعمل فى ميادين الخدمة الاجتماعية العديدة ومجالاتها، وإمام المسجد وواعظ الكنيسة ومن فى حكمهما، والمدرس والمربى هو ايضا من القادة الثقافيين.

إن كل هؤلاء من أعضاء المجتمع الذين يؤهلهم هذا المجتمع تأهيلا مقصودا لكى يؤدوا دورهم أو أدوارهم الثقافية فيه. أى الذين قد يسمون أحيانا "بالعقلانيين" وأحيانا أخرى "بالانتليجنسيا" وأحيانا ثالثة "بالمفكرين" الذين يعلمون "بالقلم أو مافى حكمه بعقولهم وبأحاسيسهم ووجدانهم وخيالاتهم أكثر من أيديهم وفئوسهم هم حملة الأقلام وهم الممثلون والإذاعيون وهم حملة الفرشاة من الفنانين ومن هؤلاء أقصد الفنانين نجد الفنانين التشكيليين والمصورين والفنانين الموسيقين وغيرهم وغيرهم.

والقادة الثقافيون في المجتمع.. أى مجتمع الذين ذكرتهم ليسوا بالضرورة هم القادة الثقافيون الوحيدون فى هذا المجتمع إنهم بعض القادة الثقافيين فحسب. فالآباء والأمهات ورجال الحكم والرؤساء وكبار السن فى المجتمع وبخاصة فى الريف، ورجال الطرق الصوفية وأمثالهم هم أيضا قادة ثقافيون و هم فى الأغلب الأعم فى حكم هؤلاء القادة (بالمعنى العام) ومع ذلك فإننى أولى اهتماما كبيرا بالقادة الثقافيين الذين اتخذوا العمل الثقافى مهنة

لهم. فهم عندى القدوة التى يجب أن تكون حسنة وهم إذا كانوا صادقين أقصد أعمالهم تكون صادقة نتوقع التعرف على الواقع الراهن، بحلوه ومره، كما نتوقع التعرف على المستقبل القريب أوالبعيد ولا يعنى هذا عندى أننى لا أهتم.فالأخيرون رجال الحكم منهم لأهميتهم القصوى يجب أن يكونوا مجالات بشرية لدراسة أو دراسات خاصة.

ومهمما يكن من الأمر فالملاحظ أن فئة القادة الثقافيين فى المجتمع.. أى المجتمع.. فئة تؤدى بالضرورة واجبات خطيرة فى هذا المجتمع. فأعضاؤها هم، كما سبق أن أوضحت فى حقيقة الأمر، الذى يقودون كل ما يعمل فى المجتمع من يعمله وكل ما يقال فيه ومن يقوله، وكل ما يصنع فيه ومن يصنعه، ويحددون وقت حدوث هذا العمل وهذا القول وهذه الصناعة كما يحددون الظروف التى تحدث فى ظلها. أى هم فى حقيقة الأمر بعض رموز النظام الاجتماعى المجتمع وهم أيضا لسان حاله، وهم بفضل ذلك يكونون جزءا من شخصيات أعضاء المجتمع الذى يعيشون فيه ويعملون إذا كانوا صادقين من أجل أعضائه وبهم. (انظر كتاب : سيد عويس : "عطاء المعدمين : نظرة القادة الثقافيين المصريين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى" بيروت، ١٩٧٣، صفحة ١٥٦)

وإذا درسنا المهام التى يجب على القادة الثقافيين المصريين أن يأخذوها على عاتقهم كواجب أو واجبات من الضرورة أن يقوموا لها من أجل مصر وبخاصة فى الوقت الراهن، فإننى اتساءل ومن حق القارئ أن يتساءل كما أتساءل : هل هذه المهام تعنى مواجهة المشاكل العديدة التى تواجهها البلاد وبخاصة المشاكل الاقتصادية التى تواكبها عادة مشاكل اجتماعية وثقافية وسياسية وتحتاج إلى حلول تتفق مع ظروف المجتمع المصرى النامى مع تميزه حيث إنه مجتمع له أصالة ومراحل تاريخية لا ينكرها إلا مكابر - هل هذه المهام تعنى أن المناخ الاجتماعى لهذا المجتمع يجب أن يتغير تغيرا مقصودا ؟ (يقصد بمفهوم "المناخ الاجتماعى" السمات العامة للاتجاهات الاجتماعية الشائعة وخصوصا تلك التى ثبتت منها نسبيا، فتبلورت فى عادات اجتماعية مرعية : أعراف وقوانين) أو يجب أن يتغير بعض نواحيه ؟ وهل ذلك يقتضى بالضرورة وجود الاستعداد لهذا التغيير

عند أعضاء المجتمع ؟ وكيف يوجد هذا الاستعداد عند أعضاء المجتمع أو حتى عند قادته إذا لم يكن موجودات ؟ وهل يأتى الاستعداد عن طريق القهر؟ وهل يحتاج تكوين الاستعداد للتغيير إلى مدة ؟ وهل يحتاج تكوين الاستعداد إلى ممارسة ؟ هل يحتاج تكوين الاستعداد إلى توعية معينة مستمرة ؟

وهل يكفى وجود الاستعداد للتغيير عند أعضاء المجتمع المصرى أو حتى عند قادته، أو الذين فى حكم هؤلاء القادة، وحده ؟ وإذا كان الجواب عن هذا التساءل بالنفى فهل لابد من وجود الإمكانات التى تحقق مطالب الاستعداد ؟ وما هى هذه الإمكانات ؟

ولكن لماذا غير المصريون، على مدى تاريخهم الطويل الكثير من العناصر الثقافية المادية وغير المادية ؟ لماذا جدد الزارع المصرى فى الحقل لأدواته فى الزراعة والرى ونوع فيها على مر الزمن ؟ لماذا جدد أنواع الحيوان المستأنس وأضاف إليها مالم يكن معروفا من قبل ؟ ولماذا غير المصريون لغتهم التى يتكلمون والتى يكتبون بها أكثر من مرة فى خلال تاريخهم ؟ ولماذا استبدلوا بدينهم دينا آخر مرة أو مرتين ؟ هل الاستعمار الطويل الذى عاناه المصريون مسئول عن قهر وجود الاستعداد للتغير أو فى محيط بعض العناصر الثقافية ؟ هل كانت رواسب الظلم والقهر والاستبداد الناتجة عن هذا الاستعمار الطويل المستمر مسئولة عن معاناة الكثير من المصريين المستمرة من مواجهة المجهول ؟ ومن ثم نجدهم متمسكين بمواجهة الانتظار فى صوره المختلفة ؟

(انظر كتاب : "من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة إرسال لرسائل إلى ضريح الإمام الشافعى" صفحات : ٣٨٥ - ٣٨٧.

إن محاولة الخوض فى هذه الموضوعات كانت ولا تزال همى الأول، كما كانت حافزا لى لكى أنشر العديد من الكتب عنها، وخاصة ما وصلت إليه حتى كتابة هذه السطور إن المجتمع المصرى على الرغم من كل شئ، سواء أكان هذ الشئ ظلما أم ظلاما، قد عاش أعضاؤه لا يزالون وتجد الخريطة المصرية بين خرائط بلدان لعالم باقية لا تزال. صحيح أن الكثير من العناصر الثقافيه المصرية بعثه لا يزال مستمرا معنا (أقصد مع

المصريين المعاصرين) فى نفوسنا وفى وجداناتنا حتى الان لكن المجتمع المصرى بقدر ما أعطى إلى الدنيا أخذ منها مايرى الإفادة من ضرورية وغير ضارة فمصر كما أوضحت فى البحوث والدراسات العلمية التى قمت بإجرائها والتى أشرفت على إجرئها والتى نشرت على الملأ أو تلك لتى لما تنشر حتى الان - قد أعطت وكانت تأخذ، أعطت اليونان والرومان قبل أن تأخذ منهما وفى أثناء نير استعمارها لها. فقد عب الأغرقيون من فروع العلم المقدس المصرى ونقلوا غلى بلادهم ما كانوا يرون أنها تحتاج إليه من علوم ومعارف، وقد أعطت مصر فى خلال حكم الرومان حيث غزت الرومان بثقافتها فى عقر عقولهم، وحتى فى للغة التى نتحدث بها ونكتبها نحن المصريين نجد العديد من الألفاظ الفارسية.

وقد ينسى البعض أو يتناسى، ماسبق أن ذكرته ونشرته من ان العناصر الثقافية التى أتى الذين الإسلامى الحنيف بها إلى مصر لم تكن غريبة عن العناصر الثقافية المصرية القديمة تماما مثلها مثل العناصر الثقافية التى أتت بها الديانة المسيحية، وأرجوا أن يتذكر القارئ الكريم ما ذكرته من قبل حول هذا الموضوع من حيث إنه عندما دخلت الديانة المسيحية ثم الديانة الإسلامية إلى مصر لم يجدا فى شعب مصر أرضا بكرا أو صحراء جرداء.

ويشهد التاريخ بأن مصر فى ضوء اقتناع أبنائها، قد احتفظت بالدين الإسلامى وتعاليمه وحفظته من الشوائب فى معظم الأحيان، وعلى الرغم من معاناة اللغة القبطية المصرية وكفاحها ضد تسلط اللغة العربية حتى القرن الثامن عشر ميلادية، فإن مصر قد حافظت على اللغة العربية من الشوائب كذلك، ومع ذلك فإننى أعترف بأن الدين الإسلامى دين متغير زمانا ومكانا. فالواقع يؤكد أن الإسلام الخلفاء الراشدين غير إسلام العصر الحاضر، وأن الإسلام فى المجتمع المصرى غير الإسلام فى المجتمع الاندونوسى وأن الإسلام فى السعودية غيره فى إيران.

وقد أثبت فى بعض بحوثى ودراساتى العلمية أنصرنا الخالدة تمتاز تاريخيا بالاستمرارية ليس فقط فى العناصر الثقافية المادية (أدوات الزراعة بكل أنواعها من عهد "مينا" إلى عهد "محمد على" بخاصة مثلا) وفى

العناصر الثقافية غير المادية (التى لا يمكن فى رأيى وضع فاصل بينهما وبين العناصر الثقافية المادية) وذلك لأن العنصر الثقافى المادى يؤثر فى العنصر الثقافى غير المادى والعكس صحيح. والأمثلة فى الواقع الحى فى المجتمع.. أى مجتمع شاهدة على ما أقول. فجهاز "التليفزيون" (عنصر ثقافى مادى) فى المجتمع المصرى يختلف ما يبثه اختلافا بينا عما يبثه التليفزيون فى المجتمع الغربى (عناصر ثقافية غير مادية) مثلا. (انظر دراسة سيد عويس عن موضوع "حول موضوع الهوية والتراث وجهة ثقافية اجتماعية مصرية" بحوث ومناقشات ندوة "تكنولوجيا تنمية المجتمع العربى فى ضوء الهوية والتراث" المركز الإقليمى العربى للبحوث والتوثيق فى العلوم الاجتماعية، العربية للدراسات والنشر، ٩ - ١٠ من شهر نوفمبر ١٩٨٥، صفحات : ٢٢١ - ٢٢٣ و٢٢٧ - ٢٢٩)..

وأرجو من القارئ الكريم ألا يمل إذا حاولت أن أحدد فى حدود قدراتى وخبراتى المحدودة بعض مهام القادة الثقافيين المصريين المعاصرين، ومن حق القارئ الكريم ان يوافق على ما وصلت إليه ومن حقه أيضا أن لا يوافق. وأننى بكل تواضع صادق أذكر مايلى :

- أن المجتمع المصرى المعاصر يواجه مشاكل عديدة منها وأهمها المشاكل الاقتصادية، والملاحظ أن المجتمع المصرى ليس فريدا فى مواجهة هذه المشاكل بل إن العالم الغربى وبخاصة البلاد الرأسمالية المتقدمة اقتصاديا تعيش فى وجل منذ فترة طويلة حتى وقتنا الراهن من أن تحدث كارثة الركود أو الكساد الاقتصادى كما حدث ذلك فى أوائل الثلاثينيات من القرن الحالى، صحيح أن التنبؤات بهذا الخصوص متضاربة ولكن لا يخفى على المتتبع الواعى النظرة المتشائمة التى يحس بها المتخصصون فى ظل المناخ الاقتصادى، فى الوقت الحاضر.

- والمعلوم أن المشاكل الاقتصادية إذا لم تحل حلا مواتيا يواكبها عادة مشاكل اتماعية عديدة منها بل أهمها مشاكل الانحراف بأنواعه : فقد يكون هذا الانحراف سياسيا أو دينيا أو اجتماعيا.

- وإذا كان مجتمع مصرنا الخالدة، كما ذكرت ذلك مرارا مجتمعا قديما (عجوز) فإن هذا المجتمع فى الوقت الحاضر أصبح مجتمعا شابا، فهو

يموج بالشباب والأطفال. والأخيرون (أى الأطفال) من سن ١٥ سنة فأقل يكونون مايزيد على خمسى أعضاء هذا المجتمع. وإننى أرى أن هؤلاء الأطفال فى مسيس الحاجة إلى اهتمام القادة الثقافيين المصريين.

– أن اهتمام القادة الثقافيين المصريين بهؤلاء الأعضاء، ذكورا كانوا أو إناثا، يعنى الاهتمام بتكوينهم لكى يصبحوا مواطنين صالحين، أى ليكونوا مواطنين يعرفون حقوقهم فيطلبوا تحقيقها، كما يعرفون واجباتهم فيؤدوتها فى ضوء مبادئ المجتمع المصرى وقيمه ومثله العليا، وأرجو أن يلاحظ القارئ أننى طالبت فى الفقرة السابقة بالتعرف، أقصد تعرف أطفال المجتمع على حقوقهم قبل التعرف على واجباتهم، وذلك لأنهم كما ذكر غيرى مرارا وكما ذكرت أيضا مرارا وتكرارا ليسوا فقط فى حاجة إلى الاهتمام الواعى ولكنهم أيضا يكونون تربة صالحة لتغرس فيها الاتجاهات القويمة التى ينبغى أن يشبوا عليها لكى يستطيعوا أن يواجهوا نتائج العلم العصرى فيستوعبوها والتكنولوجيا الحديثة فيطبقوها.

– وإننى أؤكد على غرس الاتجاهات القويمة لمن هم فى سن ١٥ فأقل عن طريق أجهزة التنشئة الاجتماعية المختلفة التى توجد فى كل المجتمعات : البدائية منها والمتحضرة على السواء – لأن أعضاء هذه الفئة من أعضاء المجتمع المصرى المعاصر سريعو الإيحاء ومايرونه أو يمارسونه يكون لديهم اتجاهات وليس مجرد آراء وذلك لأنهم مازالوا يواجهون مشكلة تكوين شخصياتهم بمحدداتها التكوينية والثقافية الاجتماعية فضلا عن النفسية والعقلية على عكس أعضاء المجتمع الكبار الذين قد اكتملت شخصياتهم ويقومون فعلا بتأدية أدوارهم الاجتماعية التى نشئوا على ممارستها سلبا أو إيجابيا فى المجتمع.

١٣– غرس القيم ذات الأهداف الحميدة فى نفوس المواطنين : –

لا يمكن أن نغرس قيما ذات أهداف حميدة أو غير حميدة فى نفوس المواطنين إلا بالتربية الخلقية (بمعناها العلمى) وحق القارئ الكريم على الكاتب أن يعرف أول ما يعرف "معنى مفهوم التربية ومعنى مفهوم الأخلاق"

فالملاحظ أن المفهومين من المفاهيم الإنسانية التى تكون فى الأغلب الأعم مفاهيم غامضة أى لها معان عديدة وهى أيضا مفاهيم فضفاضة أى لها صور متعددة وقد تستخدم فى بعض الأحيان فى مواقف متناقضة.

ومفهوم "التربية" قد تعددت معانيه ودلالاته ومع ذلك فإننى أرى أنه ينبغى أن نفهم التربية على أنها عملية تغيير بواسطتها ينمو الإنسان وهو يبدأ دورة حياته (أدوار الطفولة والشباب والرجولة والكهولة والشيخوخة) : أى وهو فى دور الطفولة. ثم ينمو الإنسان ويزدهر وتتفتح ملكاته وقدراته فى مراحل دورة حياته، وهو أى الإنسان إذ يفعل ذلك فإنه يكون نفسه ويتحول هوذاته، مع تكوينه وتحويله الآخرين والبيئة التى يعيش فيها. إن عملية التغيير هذه تهدف أولا وقبل كل شئ إلى إعداد المواطن (الإنسان) لكى يستطيع أن يؤدى أدواره الاجتماعية التى يتوقعها منه المجتمع الذى ولد فيه ويعيش. إنها عملية تكوين الشخصية، أى عملية جعل "الفرد" "شخصا" أى فردا له شخصية اجتماعية، أى يكون المواطن شخصا ذا اتجاهات فكرية نحو من يحيط به بة من الناس سواء كانت هذه الاتجاهات مما يفيد أو يضر المجتمع وجماعاته، وتكون فائدته للمجتمع وجماعاته فى ضوء قيم هذا المجتمع، ويكون ضرره فى نفس هذا الضوء. أى أن قيم المجتمع قد تكون قيما إيجابية (أى أهدافها حميدة) قيما بناءة تكون من وراء أفكار أعضاء المجتمع ومن وراء اتجاهاتهم ونظرتهم نحو الأمور والأشياء والأشخاص أى نحو الحياة التى يعيشونها أو التى يصنعونها أو التى يكحاولون صنعها على السواء، وهى قيم بناءة (بالمعنى السابق) لأنها تدعو إلى "الخير" ولا تدعو إلى "الشر" وأعنى بالخير هنا كل ما يعين على العمل الصالح من أجل الآخرين، أى كل ما يعين على التغيير إلى الأفضل وإلى الأقوى وإلى الأعظم. ومن ثم فهى قيم حميدة تدعم الروح المعنوية فى صفوف أعضاء المجتمع أى مجتمع "وترتفع" بهذه الروح وتثبتها وتقويها، وقد تكون قيم المجتمع وجماعاته على العكس ذلك - قيما سلبية - أى قيم أهدافها غير حميدة لا تدعو إلى الخير العام بل تدعو إلى الشر العام، أى تدعو إلى ما يعين على العمل غير الصالح من أجل الآخرين. (انظر : أولا، "من مفاهيم الدراسة الحالية"، رقم ٢).

وفى ضوء ما نكر عن القيم الاجتماعية سابقا، أجد من واجبى شرح مفهوم هذه القيم إنها فى بساطة الأشياء التى تكون ذات قيمة معينة عند جماعة من الناس، مجتمعين أو موزعين، وتنبت القيم الاجتماعية، عادة عن طريق الرأى الجمعى لهذه الجماعة. أى أن هذه القيم لا يمكن أن تفرض من الخارج على الجماعة فرضا، ولكنها تتولد من الظروف المعاشية التى تحياها وتكون مقبولة ومعترفا بها عندها.

ويلاحظ أن الأشياء المادية تمثل أنواعا متباينة من القيم. ذلك لأن هذه الأشياء هى فى الواقع موضوع اهتمامات إنسانية متباينة قد تكون اهتمامات مادية أو اقتصادية أو معنوية فقطعة الخشب إذا صنعها نجار صارت مكتبا تمثل قيمة مادية، أى تصبح ذات قيمة نفعية، والمكتب ذاته كنتاج للعمل الإنسانى يحتوى على قيمة اقصادية، وإذا عالج قطعة الخشب ذاتها فنان أصبحت قطعة فنية ذات قيمة جمالية. ونجد قطعة الخشب، فى كل العلاقات السابقة، ليست فقط شيئا ماديا بل ظاهرة اجتماعية كذلك، أى أنها شئ ذو منفعة وسلعة ونتاج عمل فنى جميعا. أى هى موضوع اهتمامات إنسانية.

ويلاحظ أيضا أن ظواهر الوعى الاجتماعى وتتمثل فى الأفكار لها كذلك قيم، وعن طريقها يعبر الناس عن اهتماماتهم فى أسلوب أيديولوجى معين. فأفكار الكفاية والعدل والوسائل التى تحققها تتضمن فى الواقع اهتمامات فئات من أعضاء الشعب كما تتضمن أعمالهم ورغباتهم وإرادتهم، فضلا عن الأهداف العلمية للمؤسسات السياسية أو الاجتماعية التى تضمهم. ثم نجد أن هذه الأفكار كهدف لهذه الفئات من أعضاء الشعب أو كموضوع آمالهم أو كحلم يهدى أعمالهم هى.. أى هذه الأفكار فى الواقع فى الواقع مثل عليا أو قيم من القيم المعنوية.

ويلاحظ كذلك أنه بالإضافة إلى القيم المادية والاقتصادية والجمالية نجد أيضا القيم الأخلاقية، ونجد المجتمع أى مجتمع لكى يوجه أنماط سلوك أعضائه أو ينظم هذه الأنماط، يخلق عادة جهازا من المفاهيم الأخلاقية والمثل العليا وأساليب تقييم هذه الفعال، وهذه كلها من قبل القيم الأخلاقية.

وإذا كان "مفهوم التربية" يعنى كما سبق أن أوضحت، أنه عملية تغيير الفرد فى المجتمع لكى يكون شخصا أو فردا ذا شخصية له أدواره الاجتماعية التى يؤديها فى المجتمع. فإن مفهوم "الأخلاق" هو أنماط السلوك التى تصدر عن أنماط الشخصية الاجتماعية عندما تواجه الحياة بظروفها ومواقفها الاجتماعية.

والملاحظ أن أنماط السلوك البشرية عديدة ومتباينة ومتناقضة جميعا، وقد تكون أنماطا فاضلة أو أنماطا غير فاضلة، والخلق الفاضل هو ذلك الذى يرمى إلى أفضل الحالات الاجتماعية وفى الوقت نفسه يسعى ويعمل بعقل وروية على تخير الوسائل التى يدرك هذا الغرض الأسمى. والخلق غير الفاضل يرمى إلى العكس. أى يرمى إلى أسوأ الحالات الاجتماعية التى ترمى بدورها إلى السلبية والهدم، أى إلى الشر، أى ترمى إلى ما يعين على غير الصالح من الآخرين أى أننى لا أرى مايراه البعض أى أن الخلق شئ داخلى أو هو الدافع الذى يحرك الإنسان للفعل وأما الفعل نفسه فهو السلوك. أى أن الخلق هو شئ باطنى فى الإنسان لا علاقة له بالبيئة الاجتماعية إلا عن طريق شئ آخر هو السلوك. أى أن الناظر إلى الإنسان لا يرى الأخلاق وإنما يشاهد العمل أو الفعل أو بعبارة أخرى أن أحد هذين الأمرين هو سبب والآخر نتيجة له. فالأخلاق هى السبب، والسلوك أو العمل هو النتيجة – إن هذه فلسفة ثنائية – ولكن فلسفة الدين الإسلامى الحنيف هى التوحيد، وهذا بخلاف ما يقبله أهل الغرب الذين وجدوا متسعا فى بيئتهم لجميع الفلسفات من توحيدية وثنائية وحتى جمعية. فالملاحظ أننا أمعنا النظر لوجدنا أن الأمر بخلاف ذلك. فمثلا قد توجد حالة تطلب من الكائن الحى (الشخص) أن يعمل أو ينشط فترى هذا الشخص يأخذ فى التفكير – أى فى "غربلة" اختباراته السابقة بقصد امتشاف الصلة أو المشابهة بين هذه الحالة التى تستدعى عملا ونشاطا وبين ما مر عليه فى عهده السابق. وعندما يكتشف المتشابهة فى الحالتين يشرع فى البحث عما عمله فى الحالة الأولى أى أن يراجع استجابته السابقة لتلك الحالة – تلك الاستجابة التى أتت بالغرض فى الدفعة الأولى، ثم يتخيل أنه عمل فى هذه الحالة الراهنة ما عمله فى الأولى، وبالطبع يقدر لفعله الحالى نتيجته التى قد تترتب عليه وبعد أن يفرغ من كل هذا يشرع فى العمل المادى الظاهر، ويتحول مجرى التفاعل فى نفسه من تفاعل نفسانى

داخلى مستتر إلى فعل ظاهر صريح (سلوك بشـرى) وكـل هـذه العمليـة هـى عملية متصلة ليس لهـا انقطـاع وليس لجزئياتهـا انفصـال. (انظـر : يعقـوب فـام : "التربيـة والأخـلاق" القـاهرة : مطبعــة المجلـة الجديـدة، عــام ١٩٣٠ صفحتى : ٢٦ - ٢٧).

وفى ضوء ما سبق يمكن القول بأنه إذا كان السلوك البشـرى يصـدر عـن الشـخصية الإنسـانية فـى ضـوء محدداتهـا ومنهـا خبراتهـا الثقافيـة الاجتماعيـة، فـالملاحظ أن القيـم الاجتماعيـة تـؤدى فـى هـذه العلميــات دورا خطيرا، والملاحظ أيضا أن مصادر هذه القيم الاجتماعيـة بأنواعهـا العديـدة، عديدة كذلك منها وأهمها التراث الدينى (وبخاصة التراث المسيحى والـتراث الإسلامى) والتراث التـاريخى (التـاريخ القديم والمتوسط والحديث جميعـا)، والتراث الأدبى والفنـى (بكـل أنواعهمـا وصورهمـا مـن شـعر وأدب وفنـون تشكيلية وتصويرية ومسرحية وسينمائية وما تعلق بها) ومنها المثال الشـعبية (سـواء كـانت مكتوبـة أو غير مكتوبـة تحيـا فــى نفـوس أعضــاء المجتمـع ووجداناتهم).

١٤ - الوعى باستغلال مفهوم الوطنية فى سبيل مصالح تجار الحروب : -

عندما تحدثت عـن موضـوع "مفهـوم الضـمير الإنسـانى فـى الـتراث الثقـافى الاجتماعى المصرى" من قبل تحدثت عن مفهـوم "التربيـة" كمـا تحدثـت عـن مفهوم "القيم الاجتماعية" (انظر أولا - من مفاهيم الدراسة الحاليـة، بنـد رقـم ٢) كان حديثى فى هذا البند مقتضبا ولكنى توسعت فى شرح مفهـوم التربيـة وأضفت إليه مفهوم "الأخلاق" فضلا عن مفهوم "القيـم" سـواء أكـانت أهدافهـا حميـدة أم غير حميـدة. (انظـر : خامسـا - العمـل مـن أجـل السـلام، بنـد رقم ١٣).

وابـدأ حديثـى الآن عـن "مفهـوم الوطنيـة" علـى أسـاس أنـه مـن القيـم الاجتماعيـة الأولـى حيث نجد أن "ظـاهرة الوطنيـة" تتضمـن حـب الوطــن، والشعور بالانتماء إليه والولاء له والوفاء بحقوقه، وقد تعمـدت ذكـر "ظـاهرة الوطنية" علـى أسـاس أنهـا فـى رايـى (المتواضـع) تعتبـر "قيمـة مركبـة" ذات

أهداف إيجابية (حميدة) أحيانا أو أهداف سلبية (غير حميدة) أحيانا أخرى، أى أنها صور عديدة من القيم ذات الأهداف الحميدة أو الهداف السلبية فظاهرة الوطنية ليست فقط قيم حب الوطن والشعور بالانتماء إليه والولاء له والوفاء بحقوقه، بل هى أيضا لكى تتحقق كل هذه القيم بالإضافة إلى قيمة الإيمان وقيمة العطاء وقيمة البذل وقيمة التضحية فضلا عن قيمة التعاون. أى أن هذه القيم إذا كانت أهدافها حميدة لابد أن تكون من وراء سلوك المواطن الصالح.

والملاحظ أن معنى ظاهرة الوطنية الذى أقصده فى هذه الدراسة لا يعنى فقط مجرد حب مكان إقامة الإنسان ومقره وإليه انتماؤه ولد به أو لم يولد وإنما يعنى كذلك حب وطن الأسلاف والإخلاص لأرضه وتقاليده والدفاع عن سلامته. وأن ظاهرة الوطنية ترتكز على التجارب التى تنمو بمرور السنين منذ الطفولة وعهد الشباب، كما ترتكز أيضا على الارتباط بالأرض والبيئة وهى أقصد ظاهرة الوطنية تثير عادة مشاعر عميقة فى نفس المواطن.

وفى ضوء وقائع التاريخ نلاحظ ان ظاهرة الوطنية ترتبط ارتباطا كبيرا بالحروب القومية وبالحروب الامبريالية، ونجد أن هذه الحروب تبرر باسم الوطنية ما تقوم به من استغلال باسم الوطنية التى يغرس قيمتها فى نفوس المواطنين من أبنائه الذين يستعملون أدوات الدمار والعنف والقسوة ضد المواطنين المستضعفين الذين لايستطيعون مواجهة هذه الأدوات المدمرة ليس فقط لأنهم لايملكونها ولكن أيضا إذا ملكوها لايستطيعون الإفادة منها، وذلك لأن التدريب عليها يكون عادة قاصرا وقد يرجع ذلك إلى أن مستوى العلم يكون أيضا قاصرا فضلا عن المستوى العام لتطبيقاته من ثم يكون منخفضا.

إن الطرفين القوى والمستضعف قد غرست فى نفوس أعضاء مجتمعاتهم قيم ظاهرة الوطنية ولكن الأقوى (وهم المستعمرون فى كل زمان ومكان) يستغلون مفهوم الوطنية فى محيط اعضاء مجتمعاتهم، جنودا كانوا أو مواطنين عاديين، ليزدادوا قوة على قوة، وليستغلوا ثروات المستعضعفين وإذ أقول المواطنين العاديين فإننى أعنى ما أقول. فقد يكون هؤلاء عمالا

فيعملوا أكثر واكثر، وقد يكون هؤلاء رجالا تحتاجهم ساحة الوغى فتحل محلهم النساء لكى يعملوا ما كان الرجال يعملونه وقت السلام.. إلخ كل ذلك يحدث أمام أعيننا فى الوقت الراهن، كما حدث فى الماضى، باسم الوطنية وحتى يستطيع بائعو الأسلحة أن يبيعوا أكثر وأكثر ليربحوا أكثر وأكثر ذلك إجابة أحد سفراء جمهورية الصين عندما عاتبه أحدهم للسماح ببيع الأسلحة لإيران فقال له إن ٤٠ دولة أخرى تبيع لإيران الأسلحة!

والدمار الذى هو وليد العنف يكون من نصيب كبار السن وغير القادرين وغير القادرات على خوض غمار الحرب أو العمل فى المصانع تماما كما ذكر "قداسة البابا بول السادس" فى رسالته التى ألقاها بمناسبة الاحتفال بيوم السلام العالمى فى أول شهر يناير عام ١٩٧٨.

"... والسلام ماهو إلا معادلة أو موازنة تحيا بالحركة وتعطى دائما الطاقة الروحية وطاقة العمل، إنه الذكاء والشجاعة الحية ومن ثم ونحن على مشارف عام ١٩٧٨ نرجو أعضاء المجتمعات الإنسانية، الرجال منهم والنساء وبخاصة أصحاب النيات الطيبة من القادة ذوى أنماط السلوك السوية الجماعية الذين يعملون من أجل حياة المجتمعات الإنسانية سواء أكانوا من رجال السياسة أم من المفكرين أم من الناشرين أم من الفنانين أم الذين يعملون فى مجالات الرأى العام والإعلام أم من المدرسين فى مدارسهم، أم من مدرسى الفن والدعاة إلى الصلاة فضلا عن "المخططين وعمال أسواق الأسلحة فى العالم" - نرجو الجميع بلا استثناء أن يبدأوا مرة ومرات فى التأمل الأمين الكريم من أجل سيادة السلام فى عالم اليوم".

١٥- دور الجماهير :-

مفهوم "الجماهير" لغة هو من الناس جلهم، ومن كل شئ معظمه ويقال جمهر الشئ أى أخذ جمهوره وهو معظمه. (انظر كتاب : حسين يوسف مرسى وعبد الفتاح الصعيدى : الافصاح فى فقه اللغة، الطبعة الثانية، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٦٧، صفحتى ١٣٢ و١٣٧).

وفى ضوء تراث "علم الاجتماع" و" علم النفس الاجتماعى" توجد مفاهيم أخرى عديدة حول المعنى السابق. مثل مفهوم "طبقات العامة" أو "عامة الشعب" أو "التكتلات البشرية (The Masses) "ومفهوم التجمعات (Oggre gates)ومفهوم الحشد (Crowd) ومفهوم "الدهماء" أو "الرعاع" (Mobs)ومفهوم "الشعب" أو "الجمهور (The Pulblic) "والملاحظ أن هذه المفاهيم هى، فى معظم الأحيان، مفاهيم غامضة وفضفاضة.

ومنذ استخدام "ليبون (Le Bon) "لمفهوم طبقات العامة أو "عامة الشعب" أو التكتلات البشرية (The Masses) نلاحظ استخدام هذا المفهوم فى عمليات وظواهر عديدة. فقد استخدم هذا المفهوم كل من "اورتيجاى جاسيت" (Orte gy gasset) "اميل ليدور (Emil Lederer) "روس(E. A. Rass). "وكارل مانهايم (Rarl Mannheim) "وغيرهم من الكتاب – فى أشكال مختلفة وبتعديلات مختلفة فنلاحظ ورود مفاهيم "مجتمع التكتل(Mass " Soeity)يقصد بمفهوم "مجتمع التكتل" المجتمع الغربى الحديث وبخاصة مجتمع الولايات المتحدة. حيث يتميز هذا المجتمع بالتصنيع الضخم، وبالتطورات الحضارية الضخمة وبانتشار الإدارة البيروقراطية، وبازدياد الشكال والنماذج الموحدة، بالتوسط وبالتحرر من الأوهام وبالأغتراب ويتميز هذا المجتمع فضلا عن ذلك، أو بسبب ذلك، بضياع الحريات ووهن بالملامح التقليدية (انظر: A, Dietenary of Socialag, 198,. G. Dunean M. G: 116.P)

كما نلاحظ أيضا ورود مفاهيم "حركة الكتلة العامة(Mass " Movement)و"وسائل الاتصال الجمعى (Mass media) "– و"جماهير الشعب (mass publics) "و"البيع الإجمالى (Mass SALE) "و"مظاهرات الشعب (Mass Demonstrations) "و"العرض أو المشاهد الجماهيرية (Mass Specta cles) "– وغيرها – وهى تعبر عن المدى العريض للظواهر التى يغطيها هذا المفهوم.

والملاحظ أن مفهوم "طبقات العامة" أو"عامة الشعب" أو "التكتلات البشرية" يعنى فى حقيقة الأمر أعدادا ضخمة من الناس.

أما مفهوم "التجمعات" فيتضح معناه عندما نلاحظ الناس في أحد الشوارع، فهم مجرد ناس يوجدون في منطقة معينة ولكنهم يتصلون بعضهم ببعض، ولا يعيشون حياة مباشرة، ولا تجمعهم أهداف أو قيادة مشتركة، ولا تربطهم مشاعر تماسك معينة، ويدل مفهوم "التجمعات - على سبيل المثال - على جماعات الناس الذين يذهبون زرافات وهم يسوقون سياراتهم أو يمشون على الأقدام إلى أعمالهم عند الصباح، كما يدل على جماعات النساء اللاتي يذهبن إلى محلات البيع في المواسم. إن كل واحد من هؤلاء يعيش مع نفسه ولنفسه، وتراه ينافس الآخر في الحصول على مكان مناسب في "الأتوبيس" يجلس فيه أو في ركن من أركان الشارع يوقف فيه سيارته، أو في الحصول على سلعة من السلع بثمن أرخص، ومع ذلك فإننا نلاحظ أن هؤلاء الناس يتفقون - على الرغم من اختلافهم - في بعض أنماط السلوك مثل الاستجابة إلى أوامر رجل المرور مثلا!

وإذا وجدت هذه التجمعات موضوع اهتمام مشتركا أصبحت "حشدا" أو أصبحت "رعاعا" فالحشد من النظارة الذين يجتمعون حول حادث من حوادث المرور مثلا، هم بعض الناس الذين قد لفت أنظارهم وانتباههم هذا الحادث. إنهم يقفون حول الحادث ينظرون دون أن يحدثوا شيئا. أما إذا أحدثوا هذا الشئ بأن تظاهروا مثلا، أى أصبحوا ينشطون نوعا معينا من النشاط فإن "حشدهم" يصبح "رعاعا" والحشد يطلق على الناس الذين يلتفون حول أحد الخطباء أو حول أحد الوعاظ، أو الذين يشاهدون حادثا ما او منظرا ما، أو الذين يلاحظون أناسا آخرين ينشطون نشاطا معينا كأن يمثلون أو يرقصون أو يغنون أو يتظاهرون ساخطين أو غير ساخطين.

وفي كل هذه المواقف نجد أن موضوع الاهتمام المشترك عند الحشد من الناس يؤدى إلى استجابات ذاتية (أى ليست جماعية مشتركة) قد تكون استجابات مشجعة أو ساخطة أو قد تكون مجرد الصمت الغاضب.

والملاحظ أن الناس في الحشد يكونون على اتصال بعضهم ببعض ولكنه اتصال عشوائي. على عكس "الدهماء" أو "الرعاع" فالأخيرون ينشطون في ضوء شعارات معينة تدعو إلى تحقيق أهداف معينة وهم يعملون تحت قيادة غير رسمية معينة، وقد ينشطون أمام حشود صديقة

تشجعهم أو أمام حشـود غير صديقة تعـاديهم، وفـى كلتـا الحـالتين فـإن دور الحشد يكون مجرد دور المشاهد الذى لاينشط نشاطا جماعيا مشتركا.

وكما تتحول "التجمعات" من الناس فى الشارع تحت ظـروف معينـة إلى "حشـود" مشاهدة فإن هذه التجمعات والحشود قد تتحـول إلـى "دهمـاء" أو "رعاع" إذا نشطت فى سبيل تحقيـق أهـداف اجتماعيـة أو سياسية معينـة فـى ظل قيادة منظمة.

وإننـى لا أرى مطلقـا أن يطلـق مفهـوم "الدهمـاء" أو "الرعـاع" (MoBS)اعتباطـا علـى كل جماعـة من النـاس منظمـة ولهـا أهـداف معينـة وتحت قيادة معينة. فإن بعض هذه الجماعات ضرورى للغاية إذا كـانت هـذه الأهداف إنسانية تحقق التقدم فى محيطها أو فى محيط المجتمـع الـذى تعيش فيـه، وإذا كـانت القيـادة رشيدة مخلصـة فـى سـبيل تحقيـق هـذه الأهـداف، والملاحظ فى ضوء التجارب والخبرات أقصـد تجـاربى وخـبراتى أن أعـداء الحرية والذين يقفون فى سبيل تقدم الشعوب، يعمدون إلى إطلاق اسم الدهماء أو الرعاع على الكثـير مـن الشـرفاء الذيـن لا يعيشـون فـى أوطـانهم فحسـب ولكن أوطـانهم تعيش فى وجداناتهم وكياناتهم.

ويتكون "الجمهور (The Publis) "عـادة مـن أنـاس لا يعيشـون حيـاة الوجه للوجه، ولكنهم مع ذلك يظهرون عيانـا اهتمامـات متشـابهة. أو يتكـون من أناس يتعرضـون إلى مؤشرات متشابهة علـى الرغـم مـن أنهـا قـد تكـون مؤشرات بعيدة إلى حد ما.

وجمهور القائد قد يكون القرينة الوحيدة على قيادته. فالقائد يقدم نفسه نموذجا رمزيا للجمهور، أو يكون كذلك على أية حال.

وفى المجتمع الإنسانى توجد أنواع عديدة من الجمهور. وفـى ضـوء هذا التعدد يتحدد مضمـون خـاص نـوع. فهنـاك علـى سبيل المثـال "جمهـور الشباب" و "جمهور الطلبة" و "جمهور المسرح" و"جمهور السينما" و"جمهـور القراء" و"الجمهور السياسى".. إلخ ويوجد الجمهور الأخير عادة عندما يكـون للناس خارج الحكومـة الحق فـى اسداء النصيحـة إلـى الحكومـة أو فـى نقد أعمالها.

وتتكون أنواع الجمهور حسب أنواع الناس وأعمارهم واهتماماتهم وقياداتهم وما يتعرضون إليه من مؤثرت متشابهة. فقد ينتظم بعض الناس فى جماعات اختيارية اجتماعية أو علمية أو ثقافية أو ترفيهية، وقد تخلق وسائل الاتصال الجمعى أنواعا عديدة من الجمهور، وفى هذه الحالة تكون القيادة فى العادة قيادة رسمية، أى قيادة لم يتفق أعضاء الجمهور على اختيارها، وقد ترى الدولة أن تجعل من الجماعات الاختيارية السابقة جماعات منظمة تقوم هى (أى الدولة) بالإشراف عليها. (انظر كتاب: Hans gerth and I. Wright Mills, (Character and and Social Stra cture) New yark, Hartcourt, Brace And Co, 1953, P.P. 433 -436.

والملاحظ أن أعضاء المجتمع أى مجتمع لا يعيشون فى فراغ أى أنه لا يتصور وجود فرد أو شخص (عادى) لا يعيش فى علاقات اجتماعية دائمة. فهو يعيش فى جماعة أو فى جماعات، وهذه كلها تعيش فى المجتمع، بل هى قوام المجتمع. كل واحد منا يبدأ ظهوه في المجتمع، أول ما يبدأ، فى الأسرة التوجيهية (أى أسرة أبيه وأمه وأبنائهما) أو فى اسرة بديلة أى فى جماعة، وهذه الأسرة تعيش فى حى أو فى جيرة، أى فى مجتمع محلى، أو تعيش فى ناحية من نواحى القرية، وهذا الحى أو هذه الجيرة أو هذا المجتمع المحلى يرتبط بغيره من الأحياء أو الجيران أو المجتمعات المحلية فى المدينة (يلاحظ أن الجيرات فى مجتمع القاهرة الالى كادت أن تتلاشى معالمها أو سماتها).والملاحظ أن القرى قد تتصل بغيرها من القرى وأن بعضها أصبح اتصاله بالمدينة (المراكز والمدن الأخرى) فى الوقت الراهن ميسرا.

وإننى أرى أن كل جماعة من الجماعات التى توجد فى المدينة أو المركز أو الكفر أو النجع، إن هى إلا جمهور كل عضو فيها، أى أن مفهوم "الجمهور" فضلا عن المعنى العام السابق ذكره عندى معنى أخر خاص، والمعنى الأخير هو، بالضرورة كل جماعة من جماعات المجتمع الإنسانى. ولعل أهم الجماعات الاجتماعية الأساسية التى يكون عضو المجتمع فى ضوء الضروة الاجتماعية، عضوا فيها، هى الجماعات التى تقوم بعمليات التنشئة الاجتماعية لأعضاء المجتمع ليؤدوا أدوارهم الاجتماعية كما يتوقعها المجتمع الذى ولدوا فيه ويعيشون.

وأهم الجماعات الأساسية التى تقوم بعمليات التنشئة الاجتماعية لأعضاء المجتمع يمكن أن نوجزها فيما يلى :

- الأسرة.
- الجيرة.
- المنظمة التربوية.
- المنظمة الدينية.
- منظمة شغل أوقات الفراغ.

وقد نلاحظ أحيانا أن البعض يرى أن مفهوم الجمهور لا يمكن أن ينطبق معناه على الأسرة فالجمهور يتكون عادة من أناس لا يعيشون حياة الوجه للوجه - والجمهور يتضمن العمومية، والأسرة تتضمن الخصوصية، والعمومية ضد الخصوصية، ويرى هذا البعض أن الجمهور هو الجماعة التى تتكون من أفراد خارج دائرة الأسرة الأليفة والدراسة الحالية فى ضوء طبيعتها لا ترى هذا الرأى الملاحظ أن الدراسة الحالية لا تهتم بأسرة معينة، بل بالأسرة كإحدى الجماعات (المنظمات) الأساسية فى المجتمع. وأن أطفال المجتمع الإنسانى العادى فى الأغلب الأعم جمهور الأسر فى هذا المجتمع، وهم أهم جمهور فيه، وأن الأسر فى المجتمع لا يمكن أن تعيش كلها حياة الوجه للوجه فى المجتمع وأن الأسرة موجودة فى كل مجتمع ويندر أن يلفت منها الطفل العادى فى أى جزء من أجزاء العالم، وذلك على الرغم من تعدد أشكالها وأحجامها وعلى الرغم من اختلاف التقاليد والعادات والقيم وحتى العقائد التي يمارسها أعضاء هذه الوحدة الأساسية (أقصد الأسرة) من مجتمع لآخر، وحتى الطفل غير العادى (أقصد الطفل غير الشرعى) فقد يعيش فى كنف أسرة بديلة وبالإضافة إلى ذلك فإن أطفال المجتمع ككل، لا يعيشون حياة الوجه للوجه وإن كانوا قد يعيشون هذا النمط من الحياة فى كل أسرة على حدة.. ومع ذلك فإننا نلاحظ فى الكثير من المجتمعات وبخاصة المجتمعات المتقدمة (Developed Societies) أو التى تسير نحو التقدم أن الأسرة لم تعد وحدها تقوم بعمليات تنشئة أطفال المجتمع، بل أصبح العديد من المنظمات والأجهزة الاجتماعية (من خارج الأسرة) تسهم فى هذه

العمليات. وأذكر فى ضوء خبرتى المحدودة على سبيل المثال لا الحصر، جماهير الأطفال التى خلقتها اجهزة الإعلام، الإذاعة المسموعة والمرئية المسموعة ودور الحضانة والسينما والمسرح والملعب فضلا عن المدرسة وغيرها، ومن ثم أصبح أطفال المجتمع من وجهة نظر هذه المجتمعات (وهى وجهة نظر الدراسة الحالية) يعرضون فى معظم الأحيان إلى مؤثرات متشابهة بعيدة إلى حد ما (أى من خارج الأسرة الخاصة).

ولكى نتحدث عن مفهوم "الجيرة" توطئة للحديث عن جمهورها، نعود إلى الوراء إلى عام ١٩٢٣. عندما صاغ "كلارنس يرى Clarence) " Perry)مفهوم الجيرة (NEIGHBOURH OOD) وعندما اقترح أهمية وجود وحدة محلية مخططة تتميز بالميزات المحلية المرضية، حيث يعتنى بتخطيط طرقها ويعنى بصحة ساكنيها وراحتهم. وأصبح بمرور الزمن لمفهوم الجيرة تعريفان : الأول وهو "تعريف مادى" يشير إلى جزء من البلدة أو المدينة الذى يتميز بحدود معينة مثل الشوارع الرئيسية، أو السكة الحديدية، أو الأنهار، أو الترع، أو الفضاء المفتوح، كما يتميز أيضا بتشابه مبانيه، ويوجد فيه عادة مركز للحوانيت وبعض المؤسسات المحلية كالمنظمة الدينية والمقاهى والحانات والمكتبات.. إلخ.

أما التعريف الثانى لمفهوم الجيرة فهو "تعريف اجتماعى" يرى أن الجيرة تتميز بوجود سكان متشابهين اجتماعيا، ويكون هذا التشابه بخاصة فى الطبقة الاجتماعية أو فى السلالة.

والملاحظ أنه فى ضوء درجة التحضر التى يصل إليها مجتمع المدينة، تفاوت حياة سكان الجيران فى هذا المجتمع. فقد تكون هذه الحياة حياة الوجه للوجه أحيانا. وإذا بلغ التحضر فى جيرة من الجيرات درجة عالية من التعقيد تنمو فى محيط سكانها العلاقات الثانوية أحيانا أخرى (انظر كتاب :P) . 124, Dictionary of SOEIOLGY).

ومهما يكن من الأمر فسكان كل جيرة هم جمهورها. فهم وإن عاشوا حياة الوجه للوجه أحيانا تراهم يتعرضون، فى الغالب، وبخاصة فى المجتمعات المعاصرة إلى مؤثرات متشابهة عديدة من خارج الجيرة.

والمنظمة التربوية بأنواعها ومراحلها من الأجهزة الهامة التى تسهم فى القيام بعمليات التنشئة الاجتماعية لأعضاء المجتمع (أطفاله وفتيانه وفتياته وشبانه) أى أن هذه المنظمة، فى الوقت الراهن، لا يمكن أن تكون بناء يحتجز العديد من جماهير المجتمع من التلاميذ والطلبة والطالبات داخل إطاره بغرض تلقينهم بعض الدروس فحسب. بل إن هذه المنظمة يجب أن تكون بالضرورة إلى جانب ذلك ومسايرة منها لتطورات الحياة الاجتماعية وما فيها من تيارات تستدعى تنمية الجوانب الاجتماعية والنفسية لأعضاء جماهيرها لكى يكونوا أقدر على مواجهة الحياة السوية – مؤسسة تربوية قبل أن تكون مؤسسة تعليمية تلقينية.

ولعل الهدف الأول من عمليات التربية بين جدران هذه المنظمة يكون الإسهام فى عمليات التنشئة، وذلك بقصد صياغة كل عضو من أعضاء جمهورها أو جماهيرها فى قالب جديد يدرك عن طريقه قيمة الحياة الاجتماعية وقداستها حتى يكون قادرا على تفهمها بروح مرنة غير متجمدة وهو فى ذلك يسعى إلى الانسجام الاجتماعى بصورة طليقة.

أى أن دور المنظمة التربوية يكون أو يجب أن يكون الإسهام فى تكوين المواطن الصالح، وفى استمراره اليكون صالحا، وذلك لأن هذه المنظمة تضم جماعات بشرية كبيرة نسبيا، ويكون جماهير التلاميذ والطلبة والطالبات بالضرورة أعضاء فيها، وهم كأعضاء فى هذه الجماعات يحاولون وهم يمارسون الحياة فى المنظمة أن يوفقوا بين تحقيق حاجاتهم الشخصية الأساسية وبين كسب ثقة هذه الجماعات وموافقتها، حتى يتمتعوا بالحياة الطيبة الخالية من العنف الذى يولد الشعور بالعداوة التى تكفلها لهم المنطقة ويؤدوا فى الوقت نفسه لها وللمجتمع الكبير خارج المنظمة أحسن ما يستطيعون أداءه.

أما "المنظمة الدينية" فهى تمثل فى أغلب الأحيان "الكنيسة" أو "المسجد" وما يتصل بكل منهما من نشاطات. والملاحظ أن جماهير المنظمة الدينية أناس شتى، منهم الأحداث ومنهم الفتيان والفتيات ومنهم الشباب ومنهم الرجال والنساء، وأدوار المنظمة الدينية فيما يتعلق بجماهيرها التعاون الأكيد من أسر الحى "الجيرة وجماهيرها" وأن تسهم هذه الأدوار فى التعاون

مع جماهير "المنظمة التربوية" وفضلا عن ذلك فإنها تتعاون تعاونا وثيقا مع أجهزة الإعلام فى المجتمع ومن ثم تكون المنظمة الدينية مكانا صالحا للقادة الثقافيين الحقيقيين من اعضاء المناطق التيتوجد فيها، حيث تتاح لهم الفرصة ليتدرسوا المشاكل الثقافية والاجتماعية التى توجد فى كل منطقة توطئة لإيجاد الحلول المواتية لمواجهتها. أى أن تكون المنظمة الدينية فضلا عن أنها مكان للعبادة مركزا اجتماعيا يقوم، فى جد وإخلاص مع جماهيرها ومن تتعاون معه من جماهير المجتمع، بالإسهام فى عمليات التنمية الاجتماعية فى محيط المادة البشرية فى محيط هذه الجماهير، وفى عمليات وقاية هذه المادة البشرية وفى عمليات علاجها على السواء.

"ومنظمة شغل أوقات الفراغ" كإحدى الجماعات الاجتماعية الأساسية جهاز اجتماعى يسهم مع الأسرة والجيزة والمنظمة التربوية والمنظمة الدينية فى تكوين المواطنين، ومن ثم فهى تكون، بالضرورة مؤسسة تربوية قبل أن تكون مؤسسة رياضية ترويحية أو حتى ثقافية. والملاحظ أن هذه المنظمة تعتبر مجالا هاما لعاية الشباب فى المجتمع فالشباب فى الأغلب الأعم هم جمهورها، والملاحظ أيضا أن رعاية الشباب فى كل مجتمع لها اتجاهات ولها أساليب تحقق هذه الاتجاهات، ولكى نقى من الانحرافات بأنواعها (ومنها بالضرورة الجريمة والجناح) فإن هذه الاتجاهات يجب أن تؤكد الرعاية المتكاملة، كما تؤكد الرعاية الشاملة، أى تهتم بجميع الفئات ويكون اهتمامها بالقاعدة الشعبية أول الاهتمامات، وأن تؤكد هذه الاتجاهات أيضا على أن تكون الرعاية على أسس علمية سليمة، والتى تهتم بالخدمات الإنشائية (التنموية) والوقائية اكثر من اهتمامها بالخدمات العلاجية فى ضوء تخطيط علمى سليم. كل ذلك بقصد إعداد المواطن الصالح (حسب ما عرف من قبل) فى كل القطاعات وفى محيط كل الجماعات، مع استمراره مواطنا صالحا.

ولعل القارئ الكريم قد شعر بنفورى من الرياضة كهدف لأنها عندى مجرد وسيلة وعن طريقها يمكن أن تسهم تربويا في تزويد الأغلبية الساحقة من أعضاء الشعب (لا مجرد بعض الأعضاء) ليس فقط باللياقة البدنية بل أيضا بالأخلاق القويمة التى تيسر لهم القدرة على التكيف الاجتماعى إزاء

المواقف الاجتماعية التى يواجهونها حيثما يكونون، والتى تيسر لهم ايضا القدرة على التفاعل الإيجابى فى سبيل المصلحة العامة والخدمة العامة مسلحين بالقيم ذات الهداف الإيجابية التى تتفق مع ظروف المجتمع المصرى فى الوقت الراهن. (انظر : خامسا، البند رقم ١٣ من الكتاب الحالى) (انظر ايضا : سيد عويس "الدراسة التى قدمتها للمؤتمر الذى عقد فى جمهورية ليبيا فى ١١ - ١٥ أكتوبر عام ١٩٧١، وموضوعها" دور الجمهور فى الوقاية من الجريمة والجناح".

وأرجو أن يلاحظ القارئ الكريم أن هذه الدراسة قد طلب منى إعدادها على أساس أن أذهب إلى هذا المؤتمر لعرضها حتى يناقشها أعضاؤه - ولكن إدارة المركز القومى البحوث الاجتماعية والجنائية أبت على الذهاب دون ذكر الأسباب.

١٦- دور رجال الشرطة : -

لا يمكن إلا أن أتذكر المغفور له "اللواء عبد العزيز مفرح" فقد كان رجلا شرطيا يعرف واجباته فى العمل الشرطى إلى الدرجة التى يضحى من أجل واجباته نحو أسرته. ذكر لى هذا الرجل ذات مرة وسمات وجهه تنم عن خليط من الأسى والاهتمام بالواجب أن ابنة له كانت فى غرفة العمليات تجرى لها عملية جراحية عندما استدعى لأداء واجبه الشرطى. فما كان منه إلا أن لبى نداء واجب عمله تاركا ابنته فى غرفة العمليات.

ربما كان من حظى أن اعلم ذلك منه شخصيا، فقد كان عملى هذا دافعا لى لأن أكتب هذه الدراسة أقصد "دور رجال الشرطة" التى تعنى فى حقيقة الأمر الشخصية الاجتماعية لرجل الشرطة وما يجب أن تكون عليه. وإننى لا يمكن أن ادعى فى ضوء خبراتى ومعاملاتى معهم فى مواقع أعمالهم، أن كل رجال الشرطة مخلصون فى أعمالهم العديدة (والخطيرة أيضا) التى هدف أهدافها الأمن والأمان للملايين من المصريين. فهناك بالضرورة آخرون لا يفعلون ذلك تماما، كما نجد فئة من الأطباء أو اساتذة

الجامعة أو المدرسين أو رجال الإعلام والثقافة وغيرهم من أعضاء الصفوة فى البلاد، من لا يؤدون واجباتهم كما ينبغى أن تؤدى.

وإننى أرى أن الإنسان فى ضوء شخصيته الاجتماعية هو خلق تاريخى، ويمكن فهمه بوضوح إذا عرفنا الأدوار الاجتماعية المعترف بها والمندمجة فى ذاته، وهذه الأدوار الاجتماعية محددة بحكم الأنساق الاجتماعية التى حدث أن ولد وترعرع وصار بالغا فى كنفها. فذاكرته وفهمه لمعنى الوقت والمكان، وإدراكه الحسى، والبواعث التى تدفعه، وحتى الفكرة المجردة عن نفسه ووظائفها النفسية.. كل ذلك تشكلها وتوجهها، فى نسق معين، الأدوار الاجتماعية التى استوعبها وتمثلها الإنسان من مجتمعه.

وعلى هذا فكون الواحد منا له "شخصية اجتماعية" يعنى أنه بحكم كونه عضوا فى جماعات تتكون له أدوار اجتماعية يؤديها، وعلى هذا يمكن القول إن الشخصية الاجتماعية لأى شخص فى مجتمع من المجتمعات هى مجموع الأدوار الاجتماعية التى يؤيدها هذا الشخص فى هذا المجتمع.

ورجل الشرطة هو شخص يعيش فى مجتمع. أى أنه عضو فى جماعات وبحكم هذا الوضع الاجتماعى له، تكون له أدوار اجتماعية يؤديها، وشخصيته الاجتماعية يحددها العددالوفير لهذه الأدوار الاجتماعية. فهو فى مجتمع كالمجتمع المصرى "رجل" وبحكم كونه عضوا فى عائلة يكون ابنا، وقد يكون أخا أوعما أو خالا أو صهرا وقد يكون ربا لأسرة فهو زوج وهو أب وفضلا عن كل ذلك هو مواطن وجار وهو ابن من أبناء مدينة معينة أوقرية معينة أو إقليم معين، وقد يكون عضوا فى ناد أو أكثر أو فى هيئة اجتماعية معينة أو هيئة ثقافية معينة وهو فى الوقت نفسه رجل شرطة، وكونه رجل شرطة فهو يقوم بأداء أدوار اجتماعية متعددة. منها على سبيل المثال لا الحصر قيامه بمنع المجرمين من ارتكاب جرائم أو مخالفات قانونية، والقبض على من ارتكب منهم جرائم أو خالفات قانونية، والعثور على الأطفل الضالين، وتنظيم المرور ومراقبة الأندية وصالات "الرقص" ومنع وإطفاء الحرائق وتنفيذ لوائح الرفق بالحيوان وغيرها من الأدوار الاجتماعية الهامة التى لا يستطيع القيام بها غير رجل الشرطة.

ورجل الشرطة ككل إنسان يعيش فى مجتمع إنسانى يهمه جدا معرفة صورته عن نفسه والفكرة التى يكونها عن شخصه. وإننى أرى أن تحقيق هذا الهدف هو عبارة عن عملية البحث عن النفس (أقصد الذات)، وهى عملية يشترك فيها رجل الشرطة مع غيره من الناس، وينعكس عليه كيانها الأساسى من استحسان ونقد الأشخاص المحيطين به والذين يقيم لارائهم وزنا.

إن ما نظنه فى أنفسنا متأثر حتما بما يظنه غيرنا فينا. فابداء موافقتهم أو عدم موافقتهم على تصرفاتنا يرشدنا ويعلمنا كيفية أداء الأدوار الاجتماعية المكلفين بأدائها أو التى نأخذ على أنفسنا القيام بها، ونحن إذ نتأثر بآراء الناس ووجهات أنظارهم فينا وفى سلوكنا لا نكسب فقط أدوارا اجتماعية جديدة ولكن نكسب بمرور الوقت صورة عن أنفسنا. ومن المسلم به أن هذه الصورة قد تكون انعكاسا حقيقيا أو مشوها للنفس ذاتها، وعلى هذا فإن الناس الذين يسعى الشخص منها باستمرار إلى إرضائهم هم أناس لهم أهميتهم فى حياتنا ويتحكمون فى مصير أشخاصنا.

وكذلك رجل الشرطة يسعى باستمرار إلى إرضاء من لهم أهميتهم فى حياته أو يتحكمون فى مصيره، وهؤلاء يكونون عادة رؤساءه. فرجل الشرطة الحديث العهد بوظيفته يحس بالغبطة من رضاء رئيسه عليه، وإذا كانت كلمات الثناء التى يصف بها الرئيس سلوك رجل الشرطة الناشئ تهمه كثيرا، فإنه فى هذه الحالة يكون (أى رجل الشرطة الناشئ) تحت تأثير عملية توجيه نحو أدوار اجتماعية جديدة لنفسه وتصبح القيم الرئيسية للرئيس بمرور الوقت قيما أخلاقية لرجل الشرطة الناشئ الذى سيقوم بتطبيقها لا على غيره من الناس فقط، فى هذه الحالة الجمهور بل على أعماله الشخصية كذلك وقد قيل : "إن النفس مصنوعة من التقديرات المنعكسة من الناس الأخرين".

والملاحظ أنه كان الشخص الواحد يؤدى أدوارا اجتماعية مختلفة فإن كل دور اجتماعى يكون جزءا من الأنساق الاجتماعية المختلفة والمواقف الاجتماعية المختلفة التى يتحرك الشخص بينها. فنرى أن تصرف رجل الشرطة مع زملائه يختلف عن تصرفاته مع عملائه، ويختلف عن تصرفاته

مع من هم أقل منه رتبة، ويختلف عن تصرفاته مع أبنائه فى المنزل، ونجد أن تصرف الفتاة وهى فى حفل بين قريناتها يختلف عن تصرفها بين ذويها وهى على مائدة الطعام.

وحتى فرصة التعبير عن العواطف والإحساس بها تختلف باختلاف مراكز الناس الاجتماعية والطبقية. لأن التعبير عن العواطف الذى نتوقعه من الأخرين ويتوقعه الآخرون منا يكون أوصافا مميزة للكثير من الدوار الاجتماعية. فالتعبير عن العواطف بين أبناء وبنات طبقة الكادحين غيره بين أبناء وبنات الطبقة الوسطى، وهو بين أبناء وبنات الفلاحين غيره، بين أبناء وبنات البدويين وهو بين رجال الشرطة غيره بين الأغلبية الساحقة من عملائهم

والأدوار الاجتماعية التى يؤديها أعضاء المجتمع ويتوقعونها، وما تسبب من صور الأعضاء عن أنفسهم، وتأثير هذه الأدوار الاجتماعية والصور النفسية على أعضاء المجتمع - كل ذلك راسخ فى نسق اجتماعى معين، وعلى هذا فإن التعبيرات النفسية الداخلية ونظم الضبط الاجتماعى فى المجتمع مرتبطة بعضها ببعض.

وإذا سلمنا بأن أى نسق اجتماعى هو عبارة عن منظمة مكونة من أدوار اجتماعية، ويعنى هذا أن الأدوار الاجتماعية تحمل فى ثناياها درجات متفاوتة من السلطة نجد أن الأدوار الاجتماعية المتعلقة بوظيفة رجل الشرطة وهى احدى وظائف الضبط الاجتماعى تحمل فى ثناياها درجة كبيرة من السلطة يجب أن يفهمها ويقبلها باقى أعضاء الأدوار الاجتماعية الأخرى كضمان للدوام النسبى الخاص بالنماذج السلوكية الكلية للنسق الاجتماعى.

وإننى أرى أن مهمة تفهيم باقى أعضاء الأدوار الاجتماعية الأخرى فى أى نسق اجتماع للأدوار الاجتماعية المتعلقة بوظيفة رجل الشرطة، بل بشخصية رجل الشرطة الاجتماعية المتكاملة وما تحمل فى ثناياها من سلطة ضرورية اجتماعية، ولكن المهم أن تكون عمليه التفهم هذه بقصد تقع على عاتق رجال الشرطة أنفسهم، ومجرد التفهيم هو خطورة هامة بل ضرورة تقبل باقى أعضاء الأدوار الاجتماعية لها.

وتلعب الشخصية الاجتماعية لرجل الشرطة فى أى نسق اجتماعى دورا هاما فى الحياة ةالنفسية للأعضاء الآخرين فى النسق الاجتماعى. فرجل الشرطة فى مجتمع كالمجتمع المصرى وخاصة فى المناطق الريفية يجب أن يكون بمثابة الرئيس فى جماعة. فما يظنه الرئيس بأعضاء جماعته، كل فى دوره الاجتماعى الخاص، أو حتى ما يتصورون ظنه بهم، يعتبر جزءا منهم، وشخصية رجل الشرطة الاجتماعية يجب أن يكون لها ما للشخصية الاجتماعية للأب "الرئيس" فى الأسرة يتطلع عادة إليه كنموذج ولا يخفى ما لنظرة الأب إلى "طفله، من الأهمية وتتوقف على هذه النظرة نظرة الطفل إلى أبيه وإلى سلوكه وربما إلى نفس الطفل ذاتها. فباتخاذ هذه النظرة يبنى الطفل "آخر" فى كيان ذاته، وإدراكه لنظرة هذا نحوه شرط لنظرته نحو نفسه، وللأشخاص "الآخرين" فى أدوارهم الاجتماعية الأخرى نظرات معينة إلى الطفل ويحتمل أن تكون كل من هذه النظرات جزءا منه، وتكون فى النهاية أجزاء من صورته مع نفسه، ولكن نظرة الرئيس فى النسق الاجتماعى الذى فيه تؤدى دورا اجتماعيا هى نظرة حاسمة فى نضجنا الاجتماعى.. فإن قال "هذا فعل محمود" فإننا نشعر بالأمن والطمأنينة فيما نفعل وفيما نتصوره لأنفسنا. ويصبح الرئيس إذا ما قدرت نظرته إلى نفس العضو حق قدرها "آخر خاص" وليس معنى هذا أنه ينظر إليه على أنه شخص آخر، بل هو ولسان حال النسق الاجتماعى بأسره فهو البؤرة التى تجمع فيها النظرات النهائية لأدوارنا الاجتماعية الرئيسية ولأنفسنا فى نطاق النسق الاجتماعى فهو يحمل هذه النظرات جميعا، وعندما نعتنق هذه النظرات ويتبع ذلك ما يتوقعه الآخرون منا وما نتوقعه نحن من الآخرين فإننا بذلك نتحكم باسم هذه النظرات فى أمر سلوك النسق الاجتماعى، وهكذا عن طريق جعل هؤلاء "الآخرين" جزءا منا يصبح سلوكنا وأداء أدوارنا الاجتماعية فى حدود النسق الاجتماعى محكوما حكما ذاتيا. (انظر : سيد عويس : الدراسة التى نشرت فى مجلة البوليس وموضوعها "الشخصية الاجتماعية لرجل البوليس" عام ١٩٥٧، صفحات : ٣٨ - ٤١).

ولعله إذا تضمنت الدراسة الراهنة موضوع "السلطة" التى يتمتع بها الشرطة وهو يؤدى أدواره الاجتماعية المتعلقة بوظيفته التى هى إحدى وظائف الضبط الاجتماعى، أرجو أن يتذكر القارئ الكريم الشعار القائل :

"من الذى يستطيع أن يسيطر على رجال الشرطة(Who can PoLice) " فرجال الشرطة وبخاصة فى المجتمع المصرى هم حكام هذا المجتمع الحقيقيون، وهم يعملون ذلك ويعرفونه حق المعرفة، كما أرجو القارئ الكريم، أيضا، أن يتذكر بعض ما تضمنه تقرير اللجنة الدائمة للمباحث الجنائية الذى نشر فى شهر سبتمبر عام ١٩٦٠ عن حالة "الشقى" محمود أمين سليمان الذى اشتهر فى محيط أعضاء المجتمع المصرى فى ذلك الحين باسم "السفاح" (انظر ثالثا "أمثلة حية معاصرة عن بعض أنماط العنف، بند رقم ٦ من الكتاب الحالى).

وقد تعمدت الدراسة المشار إليها أن أذكر بعض جهود رجال الشرطة المصريين وهم يؤدون واجباتهم ويتفرغون لهذا الأداء، لكى أبين للقارئ الكريم بعض ما تعكسه هذه الجهود على الشخصية الاجتماعية لرجال الشرطة فضلا عن أهمية تعاون أعضاء الجمهور معهم حتى يسود الأمن والأمان فى المجتمع المصرى الذى ولدوا فيه ويعيشون.

وأود أن أؤكد للقارئ الكريم ما سبق أن ذكرته وأذكره دائما حتى كتابة هذه السطور، من حيث إن رجل الشرطة كإنسان فى ضوء شخصيته الاجتماعية هو "خلق تاريخى" أى أنه يأخذ من المجتمع ويعطى ما يأخذه إلى المجتمع الذى فى ضوء سلطته وسلطانه قد يتحكم فى أعضاء هذا المجتمع كأحد موظفى الضبط الاجتماعى فيه.

وهذا التحكم فى ضوء ظروف المجتمع أى مجتمع سواء كانت ظروفا اقتصادية أو سياسية أو ثقافية أو اجتماعية قد يكون ظالما قاسيا وعنيفا فى بعض الأحيان، وقد يكون عادلا إنسانيا مسالما فى أحيان أخرى، والمعروف أن المجتمع المصرى فى ضوء تاريخه الطويل وخصوصا فى مراحل استعماره الطويلة، لا يعتبر رجل الشرطة صديقا فى معظم الأحوال، وأنا لا ألقى الكلام على عواهنه، ففى ضوء خبراتى فى التدريس لكبار رجال الشرطة وصغارهم كنت أسأل سؤالا فى أول حصة أحضرها عن العدو اللدود لرجل الشرطة فيكون الجواب عن هذا السؤال فى كل مرة : إنه المتهم : وإن وسيلتى "المنع والقمع" اللتين يستخدمهما عادة أو فى بعض الأحيان

تؤكدان هذا الشعور بالعداوة وبخاصة عند استجواب المتهم وقبل ذلك لأن أكبر ما يتهم به رجل الشرطة هو أن تتحول التهمة إلى إدانة.

والملاحظ أن ردود الفعل عند أعضاء المجتمع المصرى المتهمين ومن يلوذبهم ردود تشع، بالحق أو بالباطل، الكراهية لرجل الشرطة المصرى ويضرب بها الأمثال، وربما يرجع ذلك إلى ما يراه رجل الشرطة "باطلا" يرونه "حقا" وأن مايرونه "حقا" يراه رجل الشرطة "باطلا" ففى ضوء المنهج العلمى "لاشئ مطلق" وحتى فى الحياة التى يحياها الناس نجد ظاهرة الازدواجية الثقافية سائدة فى كل المجتمعات وإن تباينت عواملها، باسم الدستور وباسم القانون، وباسم الوطنية (كما ذكرت ذلك من قبل انظر : خامسا، الوعى باستغلال الوطنية فى سبيل تحقيق مصالح تجار الحروب : بند رقم ١٤ من الكتاب الحالى).

الخـاتمـة

أود أن أعترف للقارئ الكريم بأننى مجرد شخص مصـرى يحـب أن يحيا الناس فى ربوع مصر بل فى ربوع العالم قاطبة حياة السلام، وأعترف اعترافا لا لبس فيه ولا إيهام بأننى لست أهلا، فى ضوء كتابة الدراسات التى يضمها الكتاب الحالى، إلا أن أدعو إلى سيادة الخير فـى محيط بنـى البشـر. أى إلا أن أدعو إلى السـلام العـادل وأن أنفر مـن العنـف والظلـم والاستبداد والاستعباد.

وإذا كان هذا هدف أو أهم أهداف الكتاب الحالى، فـإننى لا يمكـن أن أدعى أننى "رسول" أو "نبى" أو "فيلسوف" ولكنى اظن أن من حقى ألا أعيش فى رهبة مستمرة لانتشار الأسلحة النووية التى تملأ "ترسانات" الدول الغربية والشرقية وخاصة الاتحاد السوفيتى والولايات المتحـدة الأمريكيـة وتتملكنـى الرهبة أيضا إذا نظرت إلى مناطق المعمورة حيث توجد الـدول التـى تنظـر إلى بعضها البعض كـأعداء محتلين ولا تدعـم رسـميا عـدم انتشـار الأسلحة (بلدان شرق آسيا وبخاصـة الصـراع بيـن الهنـد والباكستان مثـلا) وتتملكنـى الرهبة كذلك إذ كما يجد غيرى إدخال الصواريخ المتطورة فى حرب الخليج، ومـا يـرى كـل ذى بصـيرة، بـالفعل بـوادر سباق التسليح الخطـير الـذى قـد يعرض للخطر بلدانا بعيدة جدا عن منطقة الخليج.

وفضلا عن كل ذلك، فإننـا نلاحـظ اسـتخدام الأسـلحة الكيمائيـة فـى خـلال السـنوات الأخيـرة الأمـر الـذى يشـكل انتهاكـا لاتفاقيـة جنيـف لعـام (١٩٢٥)، كما نلاحظ أن الدول النامية استوردت فـى خـلال الفـترة مـن عـام ١٩٧٧ إلى عام ١٩٨١ أسلحة قيمتها حوالى ١٢٨ مليار دولار أمريكـى وأن البعض ذكر أن هذا الرقم سوف يرتفع فى السنوات الخمس التالية التى انتهت فى عام ١٩٨٦ إلى ١٨٠ مليار دولار أمريكى بزيادة قدرها ٤٠٪.

ونجد فى ضوء الواقع المر أن البلاد الصناعية أو المتقدمة هى أكـبر مصدر للسلاح بأنواعه إلى البلاد النامية وغيرها وحتى التى لم تلتزم باتفاقية الانتشار النووى.

وإذا كنت لا أدعى أننى "رسول" أو "نبى" أو "فيلسوف" فأننى لا أدعى أيضا أننى أدعو إلى "يوتوبيا" ذات أيديولوجية، ومع ذلك فإننى أدعى بحق أنني واحد من أبناء مصر دون ماتعال أو غرور هولاء الأبناء الذين يعيشون فى أواخر القرن العشرين حيث توجد الظروف التى أوضحتها من قبل، وينظرون بلهفة إلى القرن الواحد والعشرين وما سيأتى به من معجزات قد تمهد لألوان العنف والظلم والاستبداد والاستبعاد أو قد تحد من هذا العنف حتى لا يتفشى وتيسر فى ضوء ما وصلت إليه البلاد الصناعية ما يعين على سيادة السلام العادل والحياة السوية، وذلك لأننى أرى أنه لاشئ مطلق، وأن ما يصل إليه العلماء على اختلاف مشاربهم فى أثناء الحروب يفيد حتما البشر فى مراحل السلام وقد تكون رؤيتى هذه وهما ولكنى أجد نفسى مع المتفائلين من بنى البشر، وذلك لأننى أنظر بفرح إنسانى إلى التجارب الإنسانية التى نحس بها ونراها بأعيننا فى علوم الفيزياء والكيمياء وفى مجالات الطب والهندسة الوراثية والتحكم فى الظاهرة الفلكية والتطبيقات العلمية التى توفر عناء الإنسان وتقرب المسافات والتى تنمى ذاكرة الإنسان وتفكر من أجله (الكمبيوتر المفكر مثلا).. إلخ.

وإذا كنت أحد أبناء مصرنا الخالدة، التى صنعت الحضاة الإنسانية الأولى، والتى أدركت منذ الماضى السحيق أن الحياة تمنح للمسالم (الذى يحمل السلام) ويحيق الموت بالمجرم (الذى يحمل الجريمة) والتى عرف مفكروها القدامى أن "المسالم" هو الذى يفعل ما هو "محبوب" وأن المجرم هو الذى يفعل ما هو "مكروه" وأن كل ما هو محبوب "ممدوح" وكل ما هو مذموم "مكروه" ومن ثم استطاع الإنسان المصرى منذ الماضى السحيق، التمييز بين "الخلق الحسن" و "الخلق السيئ" ثم بين قيمة "الحق" التى يكون هدفها حميدا وقيمة "الباطل" التى يكون هدفها أيضا حميدا - فإننى فى ضوء خبراتى المحدودة أجدنى منساقا لكى أدعو دعوة السلام العادل وأرجو ألا يدهش القارئ الكريم إذ أقول إن أهداف كل من قيمة الحق وقيمة الباطل يجب أن تكون بالضرورة حميدة. فالملاحظ أن من يرى الحق لا يراه على وجه الإطلاق فقد تكون قيمة الباطل حقا عند بعض الناس وقد تكون قيمة الحق باطلا عند آخرين فأنا أرى وقد ذكرت ذلك فى بعض البحوث والدراسات العلمي التى أجريتها أو قمت بالإشراف على إجرائها المنشورة

منها وغير المنشورة. وإننى أكرره الآن وأرجو ألا يمل القارئ الكريم هذا التكرار.

ومصرنا الخالدة، كما يعلم القارئ الكريم، فى ضوء مراحل تاريخها الطويل هة مهد العقائد بأنواعها، وهى أيضا مهد الديانات السماوية ومن قبل كانت جامعة الجامعات التى عب العلم المقدس فيها فلاسفة اليونان وغيرهم ممن نقلوا المناهج المتعددة لهذا العلم إلى الدنيا بأسرها على الرغم من مكابرة المبطلين والمزيفين.

وأرجو أن يلاحظ القارئ الكريم ماتجاسرت وأطلقت عليه "متصل السلوك العدوانى" (انظر : ثانيا دراسة عن السلوك الإنسانى بند رقم ٣ فى الكتاب الحالى). إن هذا المتصل كما ذكرت، هو أحد مفاهيم "علم الاجتماع الحضرى" وقد شرحت هذا المفهوم فى مكانه المناسب فى الكتاب الحالى، وإذا كنت قد استعرته كيما أطبقته على "السلوك العدوانى" فإننى رغبت فى شرح تدرج هذا السلوك فى محيط البشر، أقصد السلوك العدوانى، ولعل ذلك أم سكون أمرا جديدا لم يفعله أحد من قبل ورجائى الحار أن يتقبله القارئ المدقق فى سهولة ويسر وإذا عن له أن يرفع لواء النقد فحبا وكرامة. وذلك لأننى إذ فعلت ما فعلت لا أقصد سوى الاجتهاد فى هذا المجال وأرجو ان أكون قد وفقت.

ولعل ما كتبته فى صدر هذه الخاتمة يؤكد على أن "منظمة الأمم المتحدة" وبخاصة "مجلس الأمن" لم يؤديا واجبهما الأداء الكامل وذلك بمكافحة العنف الأنسانى والعمل على نشر السلام، وتقارير "لجنة لحقوق الإنسان" وتقاريره "منظمة العفو الدولية" شاهدة على ذلك. ويبدو لى أن الخير والشر فى حياتنا البشرية باقيان وتجدهما فى صراع دائم، وقد ينتصر الخير أحيانا وقد ينتصر الشر أحيانا أخرى. إن كل ما نرجوه هو أن نحيا حياة مطمئنة وأن يسود السلام فى كيان البشر.

وإننى أعترف للقارئ الكريم بأننى لا أملك صيغة تحقق هذا الهدف الكبير أو حتى تحد من أضرار العنف وشروره غير الإنسانية فأنا لا أدعى بأننى "غاندى" أو "جيفارا" أننى فى وضوء مهمتى أعرض أفكارى للسادة المنفذين كل فى موقعه. صحيح أن التاريخ قد سجل المهام الرائعة التى حققها

"المهاتما غاندى" كما سجل المثل العليا التى ضحى من أجلها "جيفارا" ولكن التاريخ قد سجل أيضا سطورا تبدو ناصحعة لكل من "تابليون بونابرت" و "ادولف هتلر" وهما كما يعلم القارئ كانا المحرضين لاستعمال أدوات الدمار فى الحروب التى اندلعت وقتل فيها الملايين من الخلق محاربين كانوا أو غير محاربين من الرجال والنساء والشباب والطفال، وقد أصبح الجميع مجرد ذكرى وبمرور الزمن وضعوا فى كفة واحدة فى تقدير شعوبهم وربما فى تقدير غير شعوبهم فى الوقت الراهن.

وإننى إذ قلت إن مهمتى هى مجرد عرض أفكارى وبخاصة ما تضمنتها دراسات الكتاب الحالى، أعترف وأنا لا أتواضع بأننى فى ضوء خبراتى المحدودة، مجرد "ياء" المفكرين المصريين الحاليين.

لقد تضمن الكتاب الحالى : "لا" للعنف و "نعم" للسلام : دراسة علمية فى تكوين الضمير الإنسانى" موضوعات شتى ويخرج منها القارئ المتشائم بأن "القوة هى الحق" وليس "الحق هو القوة" وقد تعمدت أن أتبين هذه الموضوعات الشعور بالعداوة الذى هو وليد "العنف والظلم والقسوة والاستبداد" كما أتبين الشعور بالأمن والأمان والاستقرار النفسى التى هى وليدة "السلام" وأكدت على أن السلام بألوانه يجب أن يسود فهو ليس مطلبا مستحيلا بل ميسورا. وإننى وقد انتهيت من كتابة هذه الموضوعات أسائل نفسى وقد قلت إننى لا أملك "صيغة" لمواجهة العنف الإنسانى بألوانه وأشكاله وإننى أعرض أفكارى للسادة المنفذين، رموز السلطة والسلطان فى المجتمع، كل فى موقعه، وإننى مجرد "ياء" المفكرين المصريين الحاليين - أسائل نفسى هلى أنا واهم ؟ أو أنا جبان ؟ أو أنا عاجز عن أفعل شيئا لتحقيق هدف أهداف الكتاب الذى كتبه عن وعى بقلمه، وكانت الإجابة عن هذه الأسئلة بالنفى، وذلك لأن الذى يقوم بالتغيير هم شباب مصرنا الخالدة.

فالملاحظ أننى أكتب للشباب المصرى العربىدائما. فهم العدة والعتاد والحاضر حاضرهم، والمستقبل مستقبلهم، وهم صرعى الحروب وقتلاها، وهم آباء وأمهات المستقبل القريب أو البعيد ! وهم فضلا عن ذلك، الذين قد خدعوا فى الماضى القريب فأعطو المكانات الاجتماعية الرفيعه دون ضرورة بقصد درء ماقد يصدر عنهم من آثار القلق المرضى من أجل

مصالح حفنة من المنفذين أصحاب السلطة والسلطان (رموز السلطة والسلطان) فى المجتمع المصرى فى ذلك الحين.

وقد تضمن الكتاب الحالى على وجه الخصوص الصراعات الفكرية، وما نتج عنها من عنف وقتل وتدمير. لقد اهتممت بالصراعات الفكرية التى حدثت فى وجود "الإمام أبو حنيفة ابن النعمان" و "الإمام مالك بن أنس" و "الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى" و"الإمام أحمد بن حنبل" ويبدو أن هذا الموضوع قد أخذ بلبى لما حدث فى ثناياه من صراع ليس فقط بين المفكرين ومفكرين، ولكن بين المفكرين وأصحاب السلطة والسلطان - صحيح لقد شاهدت وقرأت النقد اللاذع بين المفكرين والكتاب المصريين فى العشرينيات وما بعدها من القرن الحالى، ولكن كان هناك من صارعوا السلطة وصرعوها أحيانا وصرعتهم أحيانا أخرى.

ومن هؤلاء اذكر الإمام محمد عبده وعبد الله النديم ومحمد فريد والغاياتى وسعد زغلول وصحبه وطه حسين وسلامة موسى وأحمد لطفى السيد وعبد الرازق السنهورى وعلى عبد الرازق ومصطفى لطفى المنفلوطى وعباس العقاد، والشيخ حسن البنا وبيرم التونسى وغيرهم وغيرهم.

وأرجو أن يلاحظ القارئ الكريم أن بعض من ذكرت قد حكم عليه بالنفى أو السجن أو النقل إلى وظيفة غير الوظيفة التى أهل لها وكان يشغلها أو سحبت منه الشهادة العالمية أو ضرب وأهين أو الذى اضطر لكى يعيش فى المنفى وعاد إلى أرض الوطن أو توفاه الله فى منفاه أو من نجح التدبير لقتله.

وصحيح أيضا أننى شاهدت وقرأت المذكرة التى قدمها نخبة من المفكرين والكتاب المصريين وعلى رأسهم "توفيق الحكيم" إلى "محمد أنور السادات" الذى كان يتربع على كرسى الرئاسة ويقول عن نفسه إنه "وجمال عبد الناصر" آخر الفراعنة ! ثم كيف انتقم من بعض هؤلاء المفكرين والكتاب وغيرهم واعتقلهم ولم يفرج عنهم إلا بعد أن صرعه أعضاء "تنظيم الجهاد" فى يوم ٦ من شهر أكتوبر عام ١٩٨١.

ويبدو لي وهذا مجرد رأى يلاحظه القارئ المدقق لدراسات هذا الكتاب أن الغنى الفاحش والفقر المدقع لا يمكن الانحرافات الدينية والانحرافات الاجتماعية وأقصد بمفهوم الانحرافات هنا مفهوم "التطرف" والتطرف الاجتماعى نجده أن يكون على وئام أن يؤكد أن السلام فالملاحظ أن الغنى الفاحش وبخاصة إذا كان غنى غير مشروع (من تجارة المخدرات بأنواعها أو الاتجار فى الأعراض مثلا) وظاهرة البطالة وبخاصة فى محيط القادرين من أعضاء المجتمع لها علاقة متينة بظاهرة الشعور بالعداوة وظاهرة الشعور بالعداوة تعنى ردود أفعال أهمها الانحرافات السياسية واضحا فى محيط الحصول على عمل فنجد ألوانا من الجرائم المنظورة وغير المنظورة ترتكب فى سبيل تحقيق هذا الهدف. وكل قارئ لأية جريدة أو مجلة يجد ذلك مؤكدا.

كما يبدو لى كذلك أن التفرقة اللاإنسانية، فى ضوء خبراتى الواقعية التى عشتها فى مجتمع الولايات المتحدة مصدرها إن لم يكن من أهم عواملها لمستوى المنخفض التى يعيش فى ظله زنوج الولايات المتحدة وقد سجلت هذه الخبرات فى الكتاب الحالى (انظر رابعا : أمثلة حية تاريخية عن بعض أنماط العنف بند رقم ٨) ولعل ذلك أيضا يوجد فى محيط زنوج جنوب أفريقيا. علما بأن زنوج الولايات المتحدة الأمريكية يمثلون أقلية فى المجتمع وأن زنوج جنوب أفريقيا يمثلون الأغلبية فى مجتمع جنوب أفريقيا.

والعمل من أجل السلام له نصيب فى الكتاب الحالى (انظر : خامسا بنود ١٢ و١٣ و١٤ و١٥ و١٦) وقد تعمدت أن أذكر دور القادة الثقافيين، وأقصد بهم المفكرين حملة الأقلام والفنانين والموسيقيين وذلك لأننى أرى أن أدوار هؤلاء جميعا هامة فى أى مجتمع إنسانى فهم فى الأغلب الأعم أقرب إلى الوصول إلى الحق إن كانوا صادقين أى أنهم يعسكون واقع حياة الناس ويرنون إلى ما يجب أن يكون عليه مستقبلهم المشرق. فهم بصدقهم يغرسون فى نفوسهم الحب والخير والجمال وفى ضوء ظروف مجتمعنا المصرى المعاصر أعتقد أن تحقيق كل ذلك أمر ضرورى ولا ينكر إلا معتوه.

ولذلك خصصت بندا سميته "غرس القيم ذات الأهداف الحميدة في نفوس المواطنين" ولن يغرس هذه القيم إلا القادة الثقافيون الواعون الصادقون غير المتلونين.

أما البند الذى يلي ذلك فهو يتعلق باستغلال الناس المحاربين وغير المحاربين باسم الوطنية أى يتعلق بتجار الحروب والذين لا هم لهم إلا أن يربحوا بالضرورة ويزيدوا من أرباحهم بكل أنواع الأساليب غير المشروعة، وهؤلاء التجار ليسوا بالضرورة ان يكونوا أفرادا، بل هم الدول التي يعتنق حكامها وساستها الذين يؤمنون بأن "القوة حق" فتراهم يستعبدون الشعوب الضعيفة المستضعفة بقوتهم، أقصد عدتهم وعتادهم اختراعاتهم التي تشيع العنف والدمار لكى يفرضوا تبعية الشعوب كل الشعوب لهم. ويبقى أمامه فرض المذلة عليهم فهم القوى والأغنى، والآخرون هم الأضعاف والأفقر، ولن أنسى ما حييت الشعار الذى ملأ آفاق مجتمع الولايات المتحدة الأميريكية يوما من الأيام الذى يقول : "كل مايفيد شركة (جنرال موتورز) يفيد أميريكا" وليس كما يجب أن يكون العكس وذلك لأن أصحاب هذه الشركة وغيرها هم أصحاب المصالح الحقيقيين الذين يقفون من وراء الساسة والحكام، وكأن الأخيرين مجرد خيالات مآته فى هذا المجتمع أو ذاك، ونحن نلاحظ في الوقت الحاضر ظاهرة وجود الشركات العملاقة متعددة الجنسيات وفروعها عبر القارات. وفى ضوء مراحل التاريخ البشرى نجد أن الاستعمار يتبع رءوس الأموال، والاستعمار يعني العنف ولا يمكن أن يعني السلام.

ويبقى بندان آخران وهما بند ١٥ وبند ١٦. والبند الأول يهتم بدور الجماهير، اما البند الثانى فيتعلق بدور رجال الشرطة وقد تعمدت أن أتحدث عن دور الجماهير قبل أن أتحدث عن دور رجال الشرطة، وذلك لأن الجماهير الواعين اى الذين يحرصون على أخذ حقوقهم ويحرصون على أداء واجباتهم هم صمام الأمان في مجتمع كالمجتمع المصرى ذى التاريخ القديم قدم الدهر والمستمر استمرار الحياة، ويؤكد ذلك أن الشعب المصرى على الرغم مما بذل وضحى وعاني، نجح في إبقاء خريطة مصرنا الخالدة على خريطة الحياة ولن يتأتى ذلك إلا إذا عاشت هذه الجماهير الأساليب الديمقراطية بأنوعها سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو علمية. لقد رأينا في

ثنايا دراسات الكتاب الحالى كيف يهدر حكم الفرد آدمية الإنسان، وكيف يشيع ضروب العنف والفوضى، وكيف يقف حائلا بين أعضاء المجتمع وبين ازدهارهم وتحقيق نضجهم السياسى والاجتماعى والعلمى.

والقارئ الكريم المتتبع لبحوثى ودراساتى التى أجريتها أو أشرفت عليها المنشور منها بخاصة يتخلى له هذا الرأى الذى لايمكن أن أحيد عنه وبخاصه فى ضوء ظروف المجتمع المصرى الراهنة أننى إذ ادعو لا أدعو إلى الحرية المطلقة ولكنى أدعو إلى التربية التى تيسر للإنسان المصرى أن يثق فى نفسه ويحترم ذاته ويعرف حقوقه وواجباته ويؤديها عن طواعية وأن يكون واعيا بالأمور التى تدور من حوله وأن يسمع الأحاديث أو الخطب من رموز المجتمع على اختلاف مواقعهم من السلطة والسلطان فيصدقها لأن مضمون هذه الأحاديث وهذه الخطب ينفذ فعلا ولا يضيع فى الهواء سواء صدر هذا المضمون عن طريق أجهزة الإعلام بأنواعها أو صدر فى جلسات خاصة فى جلسات عامة. إن ظروف المجتمع المصرى تنفر حتما من المثقفين المصريين (بالمعنى العام) الذين لديهم القدرة على التكيف فى كل عصر وأوان. أقصد الذين يتلونون كالحرباء فى سبيل تحقيق مصالحهم التى تنتهى حتما بمرور الوقت إلى زوال.

وفى بند ١٦ وهو البند الأخير من دراسات هذا الكتاب تحدثت عن "رجال الشرطة" وإننى أرى أن رجال الشرطة هم فى حقيقة الأمر الحكام الحقيقيون فى مجتمعنا وإننى أقول مجتمعنا وذلك فى ضوء تجاربى وخبراتى معهم وبخاصة فى قاعات المحاضرات أو فى الاشتراك فى القيام ببعض البحوث والدراسات مثل جرائم المخدرات وجرائم الأحداث أو جرائم السرقة عن طريق أسلوب النشل أو جرائم المرور.. إلخ. ومن ثم فإن واجباتهم كبيرة بل هى أيضا خطيرة.

ومع ذلك فإننا نجد أنهم بشر يخطئون ويتجنبهم الصواب أحيانا سواء كانوا يعملون فى المطافىء وفى السجون وفى الأقسام أو فى طرقات المدن أو فى غيرها. وإننى مع ذلك التمس لهم الأعذار أحيانا، وذلك لأنهم من الفئات اللامعة اجتماعيا، وفى أيديهم السلطة هذا صحيح، ولكن أعضاء الفئات الأخرى الذين على شاكلتهم ليسو ملائكة. أى أنهم يرتكبون الأخطاء

ضد المواطنين أيضا، وقد ينبذونهم فـي الكثير مـن الأحيـان فينشـروا الذعـر والهلع فى نفوس الآمنين باسم الوطنية أو باسم أمن الدولة وأمانهـا نجـد ذلـك فى محيط الذين تكون مواقع أعمالهم "المخابرات" أو "المباحث" ونجد المجنـى عليهم وهم مظلومون حقا، كما ذكرت من قبل رهـن السـجون والاعتقـالات والملاحظ أن المجنى عليهم هؤلاء ليسوا فقـط مـن سـجنوا أو اعتقلـوا وغنمـا يضاف إليهم ذووهـم المقربـون مـن الاباء والأمهـات والأبنـاء وربمـا بعـض الأصدقاء أو بعض الجيران.

وإذا كنت قد ذكرت أن واجبات رجـال الشـرطة فـي معظـم الحـالات خطيرة لأنهم يواجهون الأخطار الجسيمة فى معظـم الأحيـان، فإننـا يجـب أن نتعـرف بـأن رجـال الشـرطة علـى اختـلاف رتبهـم هـم مـن أعضـاء الشـعب المعاصر. أى أنهم يتأثرون بالضرورة بالعناصر الثقافية وغـير الماديـة التـى توجد فى مناخ هذا المجتمـع إنهـم عنـدى مثـل المجرميـن تمامـا. اى أنـه إذا كـانت لديهم الاستعدادات للقيـام بأعمـال القمـع والمنـع فـإن ذلـك يرجـع إلـى الظروف الاجتماعية الثقافية والسياسية والاقتصادية التـى عاشـوا فـى كنفهـا. كلنـا لدينـا الاستعداد لارتكـاب الجرائـم العنيفـة وغـير العنيفـة جميعـا، ولكـن البعض منا وبخاصة الذين عوملوا فى بيئتهم الصغيرة (الأسرة) أو فى بيئتهم الكبيرة (المجتمع) بأساليب التربية السوية قد ينفرون من ارتكاب الجرائـم أيـا كان نوعها.

وقد ذكـرت فـى البنـد المشـار إليـه فـى مضمونـه مـالى ومـا لرجـال الشرطة وما عليهم فى صراحة وفى صدق. ذكـرت مـاحدث لأحـد اللـواءات عندما ترك ابنته فـى المستشـفى لإجـراء عمليـة لهـا مـن أجـل تلبيـة واجباتـه الشرطية وأذكر الآن أحدهم وكانت رتبته رتبة "الرائد" ويشـغل وظيفـة "كـاتم أسرار وزارة الداخلية" التى يشغلها عـادة شـرطى تكـون رتبتـه "اللـواء" كـان يجلس هذا الرائد وبجواره تليفونـات عديدة تتصل بكل أركان الجمهورية. كان الكرسى الذى يجلس عليـه وثيرا وكـانت الغرفـة التـى يحتلهـا واسـعة مؤثثـة بأفخر الأثاث، وكنت أجلس بجواره كي اترجم له خطابا من اللغـة لإنجليزيـة إلى اللغة العربية، فيجئ اللواءات والعمـداء تلـو اللـواءات والعمـداء ويحيونـه "التحية العسكرية" وهو جالس على كرسيه لا يتحـرك. كـان هـؤلاء اللـواءات

والعمداء يدخلون عليه نفاقا أحيانا أو كانوا يطلبون من مطالب خاصة أحيانا أخرى وكانت المطالب الأخيرة تحدث عادة، فى أثناء وضع حركة التنقلات أو حركة الترقيات إلى مناصب أعلى. كان هذا الرائد يحس وكأنه ملء السمع والبصر وكان يجد الاحترام والتقدير المزيفين فى كل مكان وكان يجالس الوزراء والكبراء فى عهده الذى كان. وتراه عضوا فى لجان عديدة ليس لأن لديه ما يفيد ما يعرض عليها ولكن لأنه "كاتم أسرار وزارة الداخلية".

وكنت أسافر فى مؤتمر من المؤتمرات خارج الجمهورية فى صحبة عدد من رجال الشرطة ورجال القضاء والمتخصصين فى علوم الإجرام والنفس. كنا ندخل المطار فلا تفتح حقائبنا سواء كان ذلك ونحن فى طريقنا إلى المؤتمر أو فى أثناء عودتنا "بالسلامة" من هذا المؤتمر. كان المسئولون لا يرون داعيا إلى فعل ذلك أى إلى أداء واجباتهم ما دمنا فى صحبة عدد من رجال الشرطة بل كنت أجد من يرفع يديه بالتحية لهؤلاء الرجال.

إنهم كما ذكرت آنفا من الفئات اللامعة اجتماعيا فى المجتمع المصرى، وبحكم وظائفهم ومستوى رتبهم يعتبرهم العديد من أعضاء هذا المجتمع "الشومة" المسلطة على أعناقهم من أجل تحقيق مصالح أصحاب السلطة والسلطان.

ومع كل ما ذكرت أنظر إلى الواحد منهم بعد أن يحال إلى "المعاش" أو إلى "الاستيداع" نجد أن هيلمانه الذى كان يسقط "كجلمود صخر حطه السيل من عل" وأنا لا أبالغ فيما أقول أو أذكر. وذلك لأن كبار رجال الشرطة لهم "مراسلة" أو أكثر من "مراسلة" وتحت أيديهم عربات المصلحة التى يعملون فيها، والتليفونات تحت إمرتهم يتحدثون منها إلى من يشاءون وقت ما يشاءون فضلا عن الصحافة والمجلات الصادرة يوميا أو أسبوعيا تكون فى حوزتهم دائما ولا يدفعون من ثمنها دانقا.

وأرجو من القارئ الكريم ألا يستهين باعمال "المراسلات" فهم يعملون لرؤسائهم كل مايطلبون أن يعمل. ولا يمكن إلا أن أذكر ما قاله لى أحد اللواءات الذى يشغل منصبا كبيرا وهو يعد السنين التى بقى فيها منذ الترقية إلى رتبة اللواء. قال مستنكرا : أفرض أننى خرجت من الخدمة اليوم

أو غدا فمن يأتيني بالتموين مثلا، هل عندئذ اقف في الطابور كما يفعل الآخرون ؟ إن أعمال المراسلة والمراسلات قد تكون في ساحة العمل وقد تكون في ساحات بيوت الرؤساء ومن ثم فإننا نجد أن اختيار المراسلة يعتبر من سيادة الرئيس اللواء، لن لا يعمل شيئا إلا مايطلبه هذا الرئيس وتراه مميزا عن غيره من المجندين الذين ليس لديهم "الشرف" للعمل كمراسلة.

وقد تحدثت كثيرات عن واجبات رجال الشرطة عندما كنا نبحث "مشكلة المخدرات" بأنواعها وكنت أقول إن الفئات التي يجب أن نهتم بها هي المهرب والتاجر والموزع والمستهلك وإن مكافحة المخدرات بأنواعها في مسيس الحاجة إلى رجال الدين وإلى الاخصائيين الاجتماعيين وإلى رجال القانون وإلى رجال علم النفس الطبي وإلى علم النفس الاجتماعي وإلى رجال الشرطة والعبرة أننا لا يجب أن نتخذ سياسة المنع والقمع فحسب. ربما تصلح هذه السياسة مع المهربين والتجار والموزعين، ولكننا لكي نقضي على هؤلاء جميعا فإنه يجب أن نبحث عن عوامل الطلب أو خلق هذا الطلب، على المخدرات بأنواعها وإن هذه العوامل ستكون بالضرورة عديدة، ولكننا يجب التعرف عليها موضوعيا، وذلك لأنه إذا لم يوجد طلب لا يوجد عرض، والطلب على المخدرات في رأيي يرجع إلى الظروف التي يحياها أعضاء المجتمع المستهلكين لهذه الآفات.

وأرجو أن يغفر لي القارئ الكريم إذا استعرت زجل "بيرم التونسي" عن رجال الشرطة الذين كان يسميهم "العساكر" إذ يقول :

أربع عساكر جبابرة يفتحوا برلين
ساحبين بتاعة حلاوة جاية من شربين
شايلة على كتفها عيل عنيه وارمين
الصاج على مخها يرقص شمال ويمين
أية الحكاية يابيه ؟ جال خالف الجوانين
اشمعنى مليون حرامي في البلد سارحين ؟
يمزعوا الجيوب ويفتحوا الدكاكين
أسأل وزير الشئون ولا أكلم مين ؟

ومهما يكن من الأمر فإننى لم أحاول فى هذه الخاتمة أن ألخص مضمون دراسات الكتاب الحالى، ولكن رأيت أن أختار عينة منها فتحا لشهية القراء الكرام لكى يقرأوا هذا المضمون فى تؤده وفى روية، ولعل ذلك يثير فى نفوس هؤلاء القراء بعض الانتقادات أو بعض التساؤلات وذلك لأن هدف أهداف هذا الكتاب أن يجعل هؤلاء القراء الكرام يفكرون معى لا من أجل القضاء على العنف الإنسانى قضاء مبرما ولكن للحد من هذا العنف حتى يتغلب السلام عليه لا لكى يسود على قضاء مبرما ولكن لكى يسود، وهذا الرأى لا يعنى أبدا عدم قدرة الإنسانية على التغلب على العنف الإنسانى على وجه الإطلاق ولكننى أبديه فى ضوء الظروف العالمية التى نشاهدها ونسمع عنها فى كل لحظة فى هذه الأيام، وعلى ذلك فإننى جد متفائل فى المستقبل أقصد مستقبل الإنسانية. وإذ كان القارئ الكريم متفائلا مثلى على الرغم ومن كبر سنى فإننى أرى كما كان يرى المغفور له الأستاذ الكبير أحمد أمين عندما كان يحاضرنا فى معسكر "جماعة الرواد" فى منتصف الأربعينيات من هذا القرن بأن الحاجة ماسة إلى خلق "حكومة عالمية" تضم شتات البلدان على وجه المعمورة التى هى فى واقع المر مجرد قرية صغيرة. كنا فى مدينة الإسكندرية فى ذلك الحين وكان المغفور له أستاذنا الكبير يدعو هذه الدعوة وكان الحماس يملأ كيانه وكنا نحن الحاضرين المستمعين لمحاضرته نأمل فى ذلك، وفى ضوء الظروف الإنسانية القائمة مازال الأمل يداعبنا ! لعل ذلك أن يرجع إلى ماكتبه المغفور له "الأستاذ سلامة موسى" فى كتابة (هؤلاء علمونى) عن الأديب الكبير "هـ. ج ويلز" الذى ألف فى عام ١٩١٩ تاريخا للعالم كله يقول فيه :

"إننا أمة واحدة وإن هذه الدنيا قريتنا الكبرى التى يجب أن ننظمها وأن نخطط حركة المرور فيها، وأننا يجب أن نتهيأ لإيجاد حكومة مع إدارة عامة موحدة للتعليم فى دول الدنيا" وكان ويلز كما يذكر الأستاذ سلامة موسى فى كتابه المشار إليه يدعو : "إلى ارتباطات ونظم عالمية لا تزال فى نمو وارتقاء حتى تتقلص الحكومات العديدة القائمة وتزول فى حكومة عالمية واحدة، وهو يدعو إلى إيجاد قانون عام لصيانة الثروات العامة باعتبارها ملكا مشاعا للأمم، للبشر. أى يجب أن يحافظ على مناجم الفحم فى انجلترا أو عيون البترول فى إيران، وغابات أفريقيا والهند، ووحوش الغابات

باعتبار أن كل هذه الكنوز إنما هى ملك عام مشاع للبشر وليس لأمة أن تستأثر بواحد منها"

وإيمان وديانة ويلز كما يراها (*) "الأستاذ سلامة موسى" فى ضوء مؤلفاته العديدة، هما : العالمية البشرية. وكانت النبرة العالية فى صوته هى : هذا العالم هو عالمنا هو قريتنا هو حديقتنا. وعلينا أن نصلحه وننظمه.

ويقول الأستاذ سلامة موسى إذ يختم الحديث عن ويلز ما يلى :

"وإنى أكتب هذه الكلمات فى صبيحة أول يناير من عام ١٩٥١ اليوم الأول من النصف الثانى من القرن العشرين فأحس كلمات ويلز بل أحس قوة الصدق فيها. ذلك أننا قبل أربعين أو خمسين سنة كنا نقول إن حربا تقع بين دولتين أو ثلاث دول لا شأن لنا بها، ولكن هذا القول لم يعد يصدق فى أيامنا فإن حربا تقع بين روسيا وأمريكا هى حرب أهلية للعالم كله، "هى قتال جنوبى يشتبك فيه جميع سكان هذه القرية، هذا العالم، فى تشنجات دموية تزلزل وتحطم... هذه هى عبرة ويلز وهذه هى رسالته".

(*)(انظر كتاب : سلامة موسى "هؤلاء علمونى" اقرأ ٣٤٩ - دار المعارف - شهر يناير عام ١٩٧٢، صفحات ٢٢٢ و٢٢٥ و٢٢٧ و٢٢٨).

تجربة فى التنمية الحضرية المحلية

جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق فى ثلاثين عاما

دكتور سيـــــــــد عويس

١٩٧٨

"الإهــــــــداء"

إلــــى أطفـــال المجتمع البولاقــــى..
بنات وأبنـــاء مصرنـــا الخالــــدة"
وأملهـــا المرتقـــب
وصناع مستقبلها المشرق،،



(فهرس الموضوعات)

التصديـــــــــر

في ضوء أهداف الجمعية التي يحاول العاملون فيها، بإصرار، القيام بتحقيقها، يسرني أن أقدم الدراسة الحالية وموضوعها "تجربة في التنمية الحضرية المحلية : جمعية الخدمات الاجتماعية بحي بولاق في ثلاثين عاما" إلى السادة القراء، المتخصصين وغير المتخصصين، على السواء. وهذه الدراسة، في بساطة دراسة علمية، تهدف أول ما تهدف، إلى إلقاء بعض الأضواء على أوجه نشاط الجمعية كمؤسسة اجتماعية، منذ إنشائها في عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٧٧، وتحاول هذه الدراسة على وجه الخصوص أن تبين بوضوح بعض أدوار الجمعية في المجتمع البولاقي : لما تعمل ؟ ولمن تعمل ؟ وكيف تعمل ؟ أى أن الدراسة الحالية تحاول توضيح أهداف الجمعية ومجالات عملها، فضلا عن الأساليب التي انتهجتها لتحقيق أهدافها.

والدراسة الحالية ليست أولى الدراسات العلمية عن جمعية الخدمات الاجتماعية بحي بولاق ولن تكون الأخيرة كذلك فالتعرف باستمرار على ما هو كائن، في ضوء العلم، أمر ضروري، حتى نستطيع أن نغيره، في ضوء العلم أيضا، إلى ما يجب أن يكون، أى نغيره إلى الأفضل وإلى الأعظم وإلى الأقوى.

وإني انتهز الفرصة وأنوه بالجهود المخلصة التي بذلها ويبذلها السادة أعضاء الجمعية العمومية والسادة أعضاء مجلس الإدارة والسادة موظفو الجمعية، وأرجو، من الصميم، أن تثمر نتائجها الثمرات المرجوة في سبيل النهوض بالمجتمع البولاقي.

مديرة الجمعية

آلزا ثابـــــت

القاهرة في مارس ١٩٧٨

(المقدمـــــــــة)

لـم يكـن سـهلا علـى كتابـة هـذه الدراسـة. فأنـا بعـض مـن الجمعيـة والجمعية بكل تواضع ودون ما إدعاء بعض منى. وأساس مثل هذه الدراسـة يجب أن يكون موضوعيا فكيف إذن أكون موضوعيا وأنا أتحدث عن الـذات ؟ حاولت جاهدا أن أفعل ذلك أقصد أن أكون موضوعيا. فالتاريخ يرصد كـل حركة من حركاتى وسوف يحاسبنى إذا أنا حدت عن جادة الصواب ورجائى الحار أن أكون قد وفقت. فـالهدف الأول والأخير لهـذه الدراسـة هـو ضـرب المثل أو هو تأكيد القدوة الحسنة لمن يأتى من بعد.

ولعل هذا الهدف أن يكون صحيحا أولا ثم أن يتحقق ثانيا. وانـى أعـوذ باللـه من الغرور مرات ومرات.

سيد عويس



"الفصـــــل الأول"

نبذة عامـــة عن حــــى بـــولاق

دراسة ثقافية اجتماعيـــــة

"الفصـــــل الأول"

نبذة عامة عن حى بـــــولاق

دراسة ثقافية اجتماعيــــة

حى بولاق حى قديم، ترجع نشـأته إلـى عصـر الفـاطميين. كـان هـذا الحى، فى فترة من الفترات، عبارة عن جزيرة تسمى جزيرة الفيـل، وعندمـا انحسر الماء عن هذه الجزيرة خلال عام ٥٧٠ هـ، ثم استمر المـاء ينحسـر عاما بعد عام، وأصبحت الجزيرة صالحة للسكنى، بدأ الناس فـى عـام ٧١٣ هـ يسكنون فى الرقعة التى انحسر الماء عنها. وبـدأوا يبنـون فيهـا المسـاكن، وكان من الذين بدأوا هذا البناء السلطان والأمراء والجند والتجار والكتاب ثـم أعضاء المجتمع الآخرون.

وعندما انحسر ماء النيل عن ساحل بولاق، امتـدت العمـارة فيـه إلـى أبعد مدى على شاطئ النيل، وأصبـح المكـان يجتـذب كل راغـب فـى البنـاء بعيدا عن الأماكن المزدحمة فى القاهرة.

يقع هذا الحى فى الجزء الغربى من محافظة القاهرة، يحده من الجهة الشمالية خط سكك حديد الوجه القبلى الذى يبدأ من نهاية كوبرى إمبابة علـى الضفة الشرقية لنهر النيل وينتهى إلى بداية السبتية، ويحده من الشـرق بدايـة السبتية وشارع خط السكك الحديد مارا بسـوق الخضـار إلـى شـارع الجـلاء، ويحده من الجنوب شارع الجلاء حتى يلتقـى مـع كورنيـش النيـل، عنـد اخـر مترو مصـر الجديدة. ويحده من الغرب الكنيسة الإنجليزية، ويسير شمالا فـى طريق الكورنيش إلى أن ينتهى عند كوبرى إمبابة.

وقد لمع اسم حى بولاق فى التاريخ، فقد اشترك أبناؤه فى كثـير مـن الحركات الوطنية، نجد أنهم قد دافعوا عن الوطـن خـلال الحملـة الفرنسـية، ونجد أنهم شاركوا الشعب ثورته فى عام ١٩١٩. وقد تميز هذا الحى بـانفراد أبنائـه بإشـعال ثـورة عـام ١٩٣٠، حيث اندلعت هـذه الثــورة مـن مدرســة الصناعات الزخرفية وكان وقودها عمال الورش الأميرية (العنابر)..

وقد سكن حي بولاق فى فترة من حياته التجار. ونجد حتى الآن فيه آثار "الوكالات" الكبيرة التى كانت مراكز التجارة فى خلال هذه الفترة، نجد، مثلا، وكالات الأرز والبلح والسكر والمشنات والذهب والخروب. وكانت تعلو هذه الوكالات "أربع" سكنية تحمل اسم هذه الوكالات. أما هذه الأربع فقد كانت مقسمة من الداخل إلى ممرات وحوارى، وبها منازل. ومن الغريب – ولعله، فى ضوء ظروف الحى التاريخية والاجتماعية والاقتصادية، ألا يكون غريبا – ان بعض أبناء الحى، فى الوقت الحاضر، لا يزالون يمتلكون هذه الوكالات، وأن أناسا آخرين يمتلكون المنازل التى تعلوها. وتعرف الملكية الأخيرة بملكية الهواء، ولا يزال حتى الآن بعض هذه الأربع موجودة وبها من يسكنها.

وقد تغير التركيب السكانى فى حى بولاق، فى خلال حياته، مرات، ومن هذه المرات ما حدث فى عهد (محمد على) عندما أنشئت المطبعة الأميرية. وعلى أثر ذلك ظهرت فئة العمال. وازداد عدد هذه الفئة عندما أنشئت الترسانة البحرية وورش عنابر السكك الحديدية.

وبمرور الزمن بدأت كثافة سكان الحى فى الازدياد. وإذا رجعنا إلى الاحصاءات الرسمية عن سكان حى بولاق فى التعدادات المتتالية نلاحظ اتجاها عاما نحو زيادة السكان فيه. فقد بلغ عدد سكان الحى ٩١,٨٦٣ نسمة فى عام ١٨٩٧، وارتفع هذا الرقم إلى ٢٣٢,٤٢٣ نسمة فى عام ١٩٤٧، وربما كانت هذه الزيادة الكبيرة من العوامل الرئيسية فى انخفاض المستوى الاقتصادى وبالتالى المستوى الصحى والاجتماعى للسكان. وفى عام ١٩٦٠ بلغ عدد سكان الحى ٢٠٢,٠٢٣ نسمة. ويرجع انخفاض عدد السكان فى عام ١٩٦٠ إلى أن عدد شياخات حى بولاق كان ٢٨ شياخة ثم استقطع منها قبل تعداد ١٩٦٠ ست شياخات، وأصبح الحى يضم الآن ٢٢ شياخة. ويلاحظ أن أكثر الشياخات ازدحاما بالسكان هى شياخة العدوية وتليها شياخة الشيخ على، كما يلاحظ أن نسبة المسلمين فى الحى نحو ٩٣٪ ونسبة المسيحيين نحو ٦,٧٦٪، ونسبة الديانات الأخرى نحو ٠,٢٤٪ ويلاحظ أن كثافة سكان الحى ظلت من أكبر الكثافات فى محيط أحياء محافظة القاهرة، فهى تبلغ ٧٤٨٢٣,٣ نسمة، فى حين نجد كثافة قسم باب الشعرية، وهى أكبر كثافة

تبلغ ١٣٩٢١٠ نسمة، وكثافة قسم روض الفرج ٩٨١٩٩,٦ نسمة، وكثافة محافظة القاهرة ١٥٦٣٣,٩ نسمة. ويلاحظ أنه يوجد بعض الأجانب ضمن سكان حي بولاق، وهى نسبة ضئيلة من سكانه. وأكثر الشياخات ازدحاما بالأجانب هى شياخة الفرنساوى تليها شياخة الشيخ على، بينما خلت شياخات الترجمان والجلادين والسندبيسى ودرب الشيخ فراج ودرب نصر وسنان باشا وعشش النخل تماما من وجود أجانب [1].

ويعتبر حى بولاق أحد أحياء القاهرة الشعبية، يسكنه أناس شتى من العمال والتجار وصغار الموظفين والباعة المتجولين، وغيرهم. ومعظمهم قد هاجروا من الريف، من الوجه البحرى، ومن الوجه القبلى، وبخاصة بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، وقد تركزت هذه الفئات وبخاصة أبناء الوجه القبلى فى شياخة الترجمان، وبدأوا يتكدسون فى هذه الشياخة حتى أن الحجرة الواحدة قد يسكنها أكثر من عشرة أشخاص فى بعض الأحيان، وبلغت نسبة التزاحم فى هذه الشياخة نحو ٣,٤ . (بولاق ٣,١ والقاهرة ٢,٣)[2].

ومع استمرار زيادة سكان الحى وازدحامه، سواء كان ذلك عن طريق الهجرة الداخلية أو عن طريق التناسل، ومع ملاحظة انخفاض المستوى الاقتصادى لسكان الحى، حيث نجد أن نسبة العمال غير الفنيين (أى الذين يمتهنون أعمال البيع وأصحاب الحرف والصناع والعمال المشتغلين فى عملية الإنتاج والفعلة والعتالين والمشتغلين بالخدمات والترفيه والرياضة) الذين بلغوا سن ١٥ سنة فأكثر نحو ٣٨٪ بالنسبة إلى جملة السكان من نفس فئة العمر. ويلاحظ أن نسبة العمال الذكور من هؤلاء تبلغ نحو ٧٠,٢٪ إلى جملة الذكور من فئة نفس العمر، وأن نسبة العاملات منهم تبلغ ٢,٦٪ بالنسبة إلى جملة الإناث من نفس فئة العمر. وهى تبلغ نحو ٤٦,٨٪ بالنسبة إلى جملة العاملات من سكان الحى من نفس فئة العمر، ويلاحظ أيضا، أن نسبة النساء غير العاملات بالنسبة لجملة الإناث من السكان من نفس فئة العمر هى نحو ٩٤,٢٪، وأن نسبة الذكور الذين ليست لهم مهنة بالنسبة إلى جملة الذكور من نفس فئة العمر هى نحو ١٢,٢٪ فى حين أن نسبة الذكور والإناث الذين لا مهنة لهم بالنسبة إلى جملة السكان من نفس فئة العمر هى

نحو ٥٢٪ – فقد بدأ يظهر العديد من المشكلات الاجتماعية، وأصبح الحى مسرحا للعديد من الجرائم وبخاصة الاتجار فى المخدرات وبيعها والدعارة. ومما يلاحظ أن عدد ذوى العاهات فى حى بولاق أكبر عددا فى أى حى من أحياء القاهرة بعد حى الوايلى وحى السيدة زينب وحى شبرا. وأن نسبة ذوى العاهات فى الحى هى نحو ٧,٦٪ بالنسبة لجملة ذوى العاهات فى القاهرة. فى حين أن هذه النسبة فى حى الوايلى نحو ٧,٨٪ وأنها فى حى السيدة زينب نحو ٧,٨٪ أيضا، وفى حى شبرا نحو ٧,٦٪. ويكثر من ذوى العاهات فى الحى ذوو العين الواحدة ويليهم العمى ثم الصم والبكم وفاقدو إحدى اليدين أو كلتيهما أو إحدى الرجلين أو كلتيهما. ويلاحظ أن نسبة الأميين من الجنسين بالنسبة لسكان الحى من سن عشر سنوات فأكثر نحو ٦٠,٨٪، وأن نسبة الأميين الذكور إلى جملة الذكور فى الحى فى نفس فئة العمر نحو ٤٤,٤٪، وأن نسبة الأميات إلى جملة الإناث فى الحى فى نفس فئة العمر نحو ٧٥,٣٪، وأن نسبة جملة الأميين وأشباه الأميين (يقصد بالأخيرين من يقرأ فقط ومن يقرأ ويكتب فقط) من الجنسين بالنسبة لسكان الحى فى نفس فئة العمر نحو ٩١,٧٪، وأن نسبة الأميين وأشباه الأميين من الذكور إلى جملة الذكور فى الحى من نفس فئة العمر نحو ٨٦,٩٪، وأن نسبة الأميات وأشباه الأميات من الإناث، إلى جملة الإناث فى الحى من نفس فئة العمر نحو ٩٣,٧٪ (٣).

ومما ساعد على استمرار تخلف الحى أن العديد من أبنائه الذين يصلون إلى مستوى اقتصادى معين أو مستوى تعليمى معين أو مستوى وظيفى معين لا يلبثون أن يهجروه إلى أحياء أخرى يعيشون فيها، وهى أحياء تشتهر، عادة بالمستوى المادى العالى والمستوى الثقافى العالى. وقد بدأ هذا الاتجاه، اتجاه ترك أبناء الحى السكنى فيه إلى أحياء أخرى أكثر تقدما منذ القدم، ويعتبر امتدادا للاتجاه العام الذى اجتاح هذا الحى فى العهود السابقة، عندما وجدت رغبة التطلع الملحة عند بعض أبناء الحى، ووجدت الفرص والإمكانات لديهم للتشبه بالطبقات الأعلى أو بالفئات الأعلى وبخاصة الطبقات أو الفئات التى كانت فى يديها الحكم والسلطان.

ومن أهم معالم حى بولاق، فى الوقت الحاضر، وجود بعض المؤسسات العامة مثل مؤسسة التليفزيون ومؤسسة الإذاعة بشارع ماسبيرو، ومثل المطبعة الأميرية والورش الأميرية ومثل مجوعة بولاق الصحية بشارع المطبعة الأهلية، كما يوجد، أيضا، عدد من الجمعيات الاجتماعية والهيئات الاجتماعية مثل الوحدتين الاجتماعيتين بحى بولاق، ومستشفى الجلاء، وجمعية الأسعاف، ومحلة الرواد بالقللى، فضلا عن جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق.. إلخ.

وبالإضافة إلى ذلك نجد العديد من المؤسسات والمحلات التجارية وبخاصة فى وكالة البلح، مثل محلات قطع غيار السيارات ومخلفات الجيش.. إلى جانب المحلات الكثيرة المنتشرة فى هذه المنطقة، التى تبيع الأقمشة، حتى أصبحت الآن، سوقا كبيرا يفد إليها الناس من كل أنحاء محافظة القاهرة، وبالحى كذلك حوانيت تجارية عديدة تعمل فى محيط النشاط التجارى العادى، وبخاصة نشاط بيع السلع الاستهلاكية، وتكثر هذه الحوانيت فى شارع بولاق الجديد.

وتوجد بحى بولاق مدرستان للحضانة : احداهما تتبع الكنيسة المرقصية، والأخرى تتبع الكنيسة الأسقفية، وبه احدى عشرة مدرسة مرحلة أولى (بنين)، وست مدارس مرحلة أولى (بنات)، و٢٩ مدرسة مرحلة أولى (مشتركة). وتوجد، أيضا، بالحى أربع مدارس إعدادية عامة، ومدرسة إعدادية صناعية، وثلاث مدارس ذات برنامج خاص، وخمس مدارس إيطالية، وتوجد، كذلك، مدرستان ثانويتان للبنات فقط ولا توجد مدرسة ثانوية كاملة للبنين بل يوجد فصلان ثانويان فقط، وتوجد مدرستان ثانويتان صناعيتان كما يوجد معهدان عاليان للبنات.

وبحى بولاق داران للسينما. هما : دار سينما على بابا[1] ودار سينما فؤاد بشاع ٢٦ يوليو وهما من دور السينما من الدرجة الثالثة، ولا يوجد بالحى مسرح على الإطلاق. ولا يوجد بالحى أندية اجتماعية رياضية ثقافية سوى الأندية التابعة لجمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق. ومع ذلك يوجد بالحى عدد كبير من المقاهى (حوالى ١٠١ مقهى) أغلبها مقسم، من حيث روادها، حسب أنواع مهن سكان الحى. فنجد، مثلا، مقهى المنجدين، ومقهى

آخر للقراء، وثالثا للعربجية. ونجد مقاهى أغلب روادها من عمال المؤسسات أو الشركات الحكومية، ومقاهى أغلب روادها من صغار الموظفين والطلبة. ويلاحظ أن أغلب أجهزة التليفزيون بالحى، موجودة ببعض المقاهى الرئيسية أوعند بائعى الحلوى وفى بعض المساكن التى تطل على شارع ٢٦ يوليو أو شارع كورنيش النيل.

والملاحظ أنه اذا كان بالحى عدد كبير من المقاهى، فإن به عددا أقل من المساجد والزوايا (حوالى ٤٥ مسجدا وزاوية)، وأنشىء أقدم المساجد فى عام ١٤٤٨م وهو مسجد المحكمة (القاضى يحيى) وتوجد بالحى خمس كنائس، أقدمها أنشئت فى عام ١٩٠٠م.

وشوارع حى بولاق منها الشوارع الرئيسية ومنها الشوارع غير الرئيسية. ومن الأولى نجد شارع ٢٦ يوليو ويقطع جزءا من الحى حتى التقائه بشارع الجلاء.. ومنها شارع السبتية وشارع بولاق الجديد وبه نشاط تجارى ملحوظ، ومنها شوارع تل النصر وسليمان الخادم وعشش النخل والصحافة والوابور الفرنساوى وسوق العصر.

ومن شوارع حى بولاق غير الرئيسية ما يعتبر مجرد حوارى ودساكر أغلبها ضيق غير نظيف. وتضاء بالفوانيس ليلا، وبعضها أزقة مظلمة ومسدودة، ونجد من هذه الأزقة ما يطلق عليه أسماء عطفة أو درب أو حوش.

ومنازل حى بولاق لا يضاء معظمها بالكهرباء. ومنها مالم تدخله المياه (بالحى ٣٨ حنفية مياه عمومية) ولم يتصل الكثير من هذه المنازل بشبكة المجارى. والروائح الكريهة الخانقة تنبعث عادة حول هذه المنازل وتملأ جو الحى العام. ويؤكد ذلك ما يلاحظه المار فى حوارى الحى وأزقته ليلا، من البقايا الآدمية التى يتركها الكثير من أبناء الحى فى الطريق ٦٠٠٠ آملين فى أنها ستجف حتما، عندما تطلع شمس النهار.!!

ونتيجة حتمية لكل ذلك أو حتى لبعض ذلك، نلاحظ انتشار البعوض والذباب فى حى بولاق، وبالتالى نلاحظ انتشار الأمراض المتباينة فى محيط الأطفال والصبيان والشباب والشابات والرجال والنساء.. على السواء [٥].

ونظرة إلى الحى ككل، نلاحظ أنه حى شعبى بمعنى الكلمة. أى أنه حى يعيش فيه بنات البلد وأبناء البلد. وعلى الرغم من وجود جيوب ثقافية يعيش فيها أعضاء من الوجه القبلى ومن بلاد النوبة ومن الوجه البحرى، فإن المناخ الثقافى الاجتماعى الذى يعيش فيه بنات وأبناء حى بولاق فى ظله، يتميز بوجود العناصر الثقافية التقليدية. فظاهرة التدين على الرغم من كل شئ تعطر هذا المناخ. ونلاحظ أيضا انتشار المساكن على الطراز القديم، والشرفات ذات الأسياخ أو القضبان الحديدية، على الرغم من الاستغلال السئ لهذه الشرفات فالمفروض أن تكون الشرفة هى المتنفس الوحيد الذى يمكن أن يرى سكان المنزل النور من خلاله وينظروا إلى الدنيا حولهم عن طريقه. ومع ذلك فإننا نجد أن العكس صحيح. أى أن وظيفة الشرفة الحالية غير الوظيفة المتوقعة. فهى أى الشرفة، بمثابة "الكرار"، أى هى عبارة عن مخزن يوضع به خزين المنزل من بصل وثوم وجبنة قديمة، وصفائح فارغة... إلخ. أو يوضع بها كل "الكراكيب" التى لا تلزم المنزل. أو توضع به أنواع شتى من الطيور والدواجن التى تجتذب فضلاتها الذباب والحشرات.. وانتشار الباعة المتجولين فى حى بولاق ظاهرة لا تخفى على أحد. ومعظم ما يتاجر به هؤلاء الباعة سلع تعتبر قناعا للتسول مثل : "الأمشاط"، "السكر النبات"، "الدبابيس"، "مشابك الغسيل" وغيرها من السلع التافهة. وهناك من الباعة المتجولين الذين يتجرون فى سلع تجلب الضرر الأكيد مثل أنواع المأكولات المختلفة التى يعرضها هؤلاء دون اهتمام ظاهر بالنظافة فتتعرض هذه السلع إلى الذباب وإلى ضروب شتى من الحشرات، ويتسبب عن ذلك العديد من المشاكل الصحية ومنها حالات التسمم الشائعة فى الحى. وشوارع الحى لها مظاهرعديدة، منها كثرة الأطفال والصبية والشباب الذين يملئون حواريه وأزقته وهم يلعبون "كرة الشراب" ومنها المياه القذرة ذات الرائحة الكريهة التى لا تخلو منها حارة أو زقاق، ومنها انتشار أكوام القمامة، ومنها استيطان الذباب والحشرات لمعظم بقاع الحى، ومنها الأتربة المتنوعة التى تملأ جو المنطقة وتنبعث من الأرض ومن المداخن ومن دكاكين الحدادة والسباكة.

وإذا كانت ظاهرة التدين تعطر المناخ الثقافى الاجتماعى الذى يعيش فى ظله حى بولاق. فهناك بعض الظواهر الأخرى التى تلوث هذا المناخ.

منها العبارات النابية التى تصدر عن الرجال والنساء والشبان والشابات والفتيان والفتيات وحتى الأطفال، وبخاصة العبارات التى تمس قداسة الدين أو تسب الأم والأموات. ومنها لعب القمار الذى يعتبر من وسائل شغل أوقات الفراغ فى الحى سواء كان يمارس فى المقهى أو فى الحارة، ومنها الجرائم العديدة كما سبق أن أوضحنا، مثل تعاطى المخدرات وشرب الخمور وبعض الجرائم الجنسية.

وعلى ذلك فالملاحظ أن أعضاء حى بولاق ذكورا كانوا أو أناثا يعملون، وبخاصة الذكور من أجل الحصول على لقمة العيش فى أغلب الأحيان. ويعتبرون "الجرى ورا لقمة العيش" عبادة. فهم من أعضاء مصرنا الخالدة المنتجين، يعطون دائما أكثر مما يأخذون ولعل المرأة فى حى بولاق تؤكدهذا الإنتاج حتى فى أعمالها كربة بيت. فهى تنتج الأطفال، وهى تهتم بتربيتهم، وحتى إذا استهلكت ما يعطيه زوجها من "عرق جبينه" (أى ما يحصل عليه من دخل)، فهى، أى المرأة البولاقية تصرف ما تعطى فى سبيل اطعامها واطعام زوجها وأبنائهما. ويلاحظ أن هذا النوع من الاستهلاك هو فى حقيقة الأمر استثمار، مثله مثل الصرف على الملبس والمأوى، وإن كان الإطعام فى نظر أعضاء حى بولاق أولى وأهم. فهم يقولون عن أطفالهم مثلا "أكلهم تجارة ولبسهم خسارة "، وهم يقولون أيضا على وجه العموم "يا واخد قوتى يا ناوى على موتى".

والمرأة البولاقية على وجه العموم هى "بنت بلد" تعمل منذ أن تستيقظ فى الصباح المبكر طوال النهار وحتى ينتصف الليل. ويلاحظ أنه على الرغم من أن نسبة النساء العاملات فى الحى اللاتى فى نطاق قوة العمل نسبة ضئيلة، فإن عمل المرأة البولاقية كربة بيت عمل فى معظم الأحيان منتج ولا يمكن الاستغناء عنه. وإذا كان لا يمكن الاستغناء عن عمل ربة البيت فى حى بولاق، فالملاحظ انه عمل شاق، وهو أيضا عمل متنوع، وهو كذلك عمل متواصل. والملاحظ أن المسئولية الكبيرة التى تحملها على كتفيها المراة فى حى بولاق مسئولية ينوء بحملها بعض الرجال، فالدخول فى هذا الحى ضئيلة وعدد الأبناء كثير، وربما لا يمكن أن نتصور ما تعانى منه المرأة فى حى بولاق التى تلبس فى معظم الأحيان الجلباب الأسود والطرحة

السوداء، والتى تحمل الاثقال المادية، تارة بيديها، وتارة أخرى على رأسـها، وهى تسير فى الشارع، لا تئن ولا تتعب وتظل فـى خدمـة الـزوج والأبنـاء حتى ترحل عن دنياهـا التـى لـم تعـرف فيهـا إلا الكثير مـن القهـر والشـقاء. وفضلا عن ذلك تحمل التراث الثقافى المصرى وتنقلـه مـن جيـل إلـى جيـل. وتراها تستعذب العذاب، وتراها مع أخواتها الحزينات وقت الحزن، ومع ذلك فهن أيضا المزغردات وقت الفرح. وتجدها وكأن لسان حالها يقول "النهـارده قهر وبكره قهر هو العمر فيه كام شهر".

هوامش الفصل الأول

(١) يلاحظ أن هذه الكثافات فى الكيلو المربع وهى كلها فى ضوء تعداد عام ١٩٦٠.

(٢) تعداد عام ١٩٦٠.

(٣) يلاحظ أن نسبة جملة الأميين من الجنسين، فى نفس فئة العمر، لسكان محافظة القاهرة نحو ٤٦,٤٪، وأن نسبة جملة الأميين وأشباه الأميين بينهم نحو ٧٩,٦٪. وفى ضوء دراسة قام بها قسم البحوث الاجتماعية بالجمعية عن حجم الجريمة وأنماطها فى الحى فى خلال عام بين أول يناير ١٩٧٥ حتى آخر ديسمبر ١٩٧٥ اتضح أن حجم الجريمة فى خلال هذه المدة حسب أنماطها هى كما يلى :

عدد	
١٢٧٢	مخالفات
١٣٥٦	جنح عادية
١١٤١	جنح أمن الدولة
٨١	جنح عسكرية
٩٨	مخدرات
٢٣	جنايات
٨٩٧١	المجموع

(٤) دار سينما الكورسال الجديدة حاليا.

(٥) يقوم قسم البحوث الاجتماعية، فى الوقت الحاضر، بدراسة علمية عن الأمراض التى تنتشر فى محيط أعضاء المجتمع البولاقى.

"الفصـــل الثانـــــى"

أهداف الجمعية ومجالات عملها والأساليب التى انتهجتها لتحقيق أهدافهـــــا



"الفصل الثانى"

أهداف الجمعية ومجالات عملها والأساليب التى انتهجتها لتحقيق أهدافـــها

يتضمن الفصل الحالى بعض الموضوعات التى تبرز دور الجمعية القيادى فى حى بولاق منذ نشأتها، أى فى ضوء الظروف الاجتماعية الثقافية والاقتصادية فضلا عن السياسية التى نشأت الجمعية فى ظلها. وفى ضوء نظرة الذين أخذوا على عاتقهم الاضطلاع بمسئولية إنشائها بقصد تغيير المجتمع البولاقى إلى الأفضل.

وتتضمن هذه الموضوعات ما يلى :

أولا : نشأة الجمعية وأهدافها.

ثانيا : أهم مجالات عمل الجمعية.

ثالثا : أساليب تحقيق الأهداف.

....

أولا – نشأة الجمعيـــة وأهدافهـــا

يرجع تاريخ إنشاء هذه الجمعية إلى شهر يونيو من عام ١٩٤٧. عندما كانت بلادنا خلال هذه الفترة، لا تزال فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. وكانت ترسف فى اغلال من الفساد السياسى، وكان الجهاز الحاكم لا يمثل الشعب ولا يهتم بمواجهة الحقيقة، كما كان الاهتمام السطحى بمشكلات التخلف الذى تعيش فيه الغالبية العظمى من أعضاء الشعب هو المظهر الذى تلجأ إليه الحكومات المتعاقبة المتناحرة على كراسى الحكم تغطية لأغراضها البعيدة كل البعد عن الاهتمام الأصيل الضرورى، وحتى المشروعات الاجتماعية التى نشأت عن هذا الاهتمام السطحى لم تكن جادة على الإطلاق، ولم تكن تتسم بالعمق أو الشمول، وإنما كانت متضاربة متعددة، عادة، ومتماثلة الأغراض أحيانا، وتتسم بالارتجال.

وفى خلال هذه الفترة، وقبل هذا التاريخ بسنوات، بدأ بعض رواد الإصلاح الاجتماعى فى ميادين الخدمة الاجتماعية ومجالاتها، وكان لبعض سيدات المجتمع فى تلك الحقبة نشاط فى مواجهة المشكلات الاجتماعية فى البلاد، ولم يكن هؤلاء ولا أولئك من الاخصائيين الاجتماعيين، وإنما كانت جهودهم كلها جهودا متطوعة وتمثل، فى ذلك الحين، نشاط القطاع الأهلى فى نطاق الخدمات الاجتماعية التى كانت حديثة العهد بالمجتمع المصرى. ولاح، فى هذه الفترة، الاخصائيون الاجتماعيون كقيادات مهنية جديدة فى هذا المجال.

وفى خلال هذه الظروف وسط حرمان الشعب من الخدمات الحقيقية حيث كان يعيش فى ظروف قاسية من التخلف، ورغبة فى تأدية خدمات اجتماعية على أساس علمى سليم، بدأ لفيف من الاخصائيين الاجتماعيين، لأول مرة، التفكير فى إنشاء مؤسسة اجتماعية فى أحد الأحياء الشعبية المتخلفة لتكون تجربة رائدة للخدمة العامة فى المدن، وكان نتيجة لهذا التفكير ظهور جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق لتكون تجربة رائدة للعمل الاجتماعى فى المدن ويقوم عليها اخصائيون اجتماعيون متخصصون.. تجربة تنهج الأسلوب العلمى فى فهم المشكلات وفى التفاعل معها ومواجهتها. وفى ضوء هذه المفاهيم كانت الجمعية مؤسسة اجتماعية فى نظر مؤسسيها اختير لها حى بولاق نظرا لكونه من أكثر الأحياء الشعبية ازدحاما بالسكان وكان نصيبه من المؤسسات الاجتماعية أقل من غيره. وبدأ العمل فى ٢ من يونيو من عام ١٩٤٧ وكان اسم الجمعية "جمعية المرأة والطفولة" ثم تحول فى ١٥ من مارس ١٩٤٩ إلى الاسم الحالى ليكون أكثر اتساقا مع أغراضها والعمل الذى تقوم به فى حى بولاق. وتحددت أغراضها فيما يلى:

١- العمل على دراسة ومعالجة المشكلات الاجتماعية.

٢- بذل المساعدات الاجتماعية للأسر التى تحتاج إلى مساعدة.

٣- إثارة الوعى الاجتماعى والثقافى والصحى بين الأهالى.

٤- الإسهام فى المشروعات الاجتماعية العامة.

وقد حرصت الجمعية منذ نشأتها على اتخاذ الأسلوب العلمى منهجا لها فى عملها. وكان رائدها محاولة فهم المشكلات عن طريق دراستها دراسة علمية سليمة، وإثارة الوعى بين الأشخاص والجماعات لمعرفة مشكلاتهم وكيفية التغلب عليها. وحرصت دائما على القيام بعمليات تنمية الأشخاص كى ما يتغلبوا على متاعبهم فى حى بولاق، وهى العمليات التى يعتبرها المتخصصون فى مهنة الخدمة الاجتماعية فى الوقت الحاضر بأنها "عمليات التنمية الحضرية المحلية".

(The Local Urban Development Processes).

وبدأت الجمعية عملها بالتعرف على مشكلات أهالى الحى واستصدرت تصريحا من وزارة التربية والتعليم "المعارف العمومية" فى ذلك الوقت لدراسة أحوال تلاميذ إحدى مدارس الحى وأسرهم للتعرف على مشكلاتهم ومساعدتهم على مواجهتها. وبالفعل بدأ قسم البحوث والرعاية الاجتماعية بدراسة ١٤٧ حالة منذ اللحظة الأولى لإنشاء الجمعية، وقدمت الخدمات اللازمة لهم فى ضوء ما أسفرت عنه هذه الدراسة وكانت تلك هى الخطوة الأولى التى ما لبثت ان تبعتها خطوات، وخطوات، كانت عبارة عن مشروعات الجمعية للعمل فى هذا الحى، وليس من قبيل المصادفة أن يبدأ عمل الجمعية بدراسة علمية وإنما كان ذلك هو منهاج الجمعية فى عملها دائما، وأعقب هذه الدراسة – التى أوضحت أهمية المشكل الاقتصادى فى حياة الأسر المبحوثة – مشروع التعاون الاقتصادى للمرأة الذى كان يهدف إلى تدريب بعض الإناث من أعضاء هذه الأسر على عمل يستطعن بعد اتقانه ان يمارسنه فيدر عليهن دخلا يخفف من وطأة التخلف المادى الذى تعيش أسرهن فيه فضلا عن البرامج الأخرى لرفع المستوى الاجتماعى. وكان هذا المنحى العلمى رغم صعوبته أجدى على الأعضاء والجمعية والمجتمع عامة من صرف مساعدات مادية لهذه الأسر، واستمر هذا المشروع حتى الآن وقد تناولته تعديلات متعددة حسبما أوجبتها ظروف العمل وحاجة المستفيدين كما سنرى فيما بعد.

كما اتضحت من الدراسة السابقة مشكلة وقت الفراغ والحاجة إلى كيفية استغلاله بطريقة مفيدة، وبدأت الجمعية على الفور إنشاء الأندية

الاجتماعية الشعبية، بدأتها فى عام ١٩٤٩ بنادى الشباب، وفى عام ١٩٥٠ أنشأت قسما للفتيان ثم توالت أندية الفتيات والشابات والسيدات بعد ذلك وما زالت الجمعية سائرة فى هذا الاتجاه.

وأوضحت الدراسة السابقة حاجة حى بولاق كمنطقة من المناطق الثقافية (Cultural Area) فى مدينة القاهرة إلى مزيد من البحوث والدراسات العلمية. فتكونت لجنة من أعضاء الجمعية لإجراء بحث عن "حالة موارد المياه وطرق صرفها فى حى بولاق" برز موضوع هذا البحث كحاجة ملحة عند بعض أعضاء الجمعية فى خلال عام ١٩٤٨، فقد لاحظوا التأثير البالغ لموارد المياه وطرق صرفها على صحة أعضاء حى بولاق. وهو الحى الذى تسكنه طبقة كبيرة من العمال والذى لم تمسه يد الإصلاح الاجتماعى إلا فى القليل. وقد كان لهذا البحث آثاره الكبيرة على الباحثين وأعضاء الجمعية وموظفيها، فضلا عن آثاره الكبيرة الأخرى على أعضاء الحى، صغيرهم قبل كبيرهم. فالآثار الأولى أكدت ثقة الباحثين وأعضاء الجمعية وموظفيها فى أنفسهم وعززت فهمهم للواقع الحى للمجتمع البولاقى وحفزتهم إلى العمل على التغيير إلى الأفضل. أما الآثار الثانية فقد أكدتها نتائج هذا البحث ومنها، بل وأهمها، الحاجة الماسة إلى الاهتمام بحى بولاق، الاهتمام بأموره جميعا وخاصة بمرافقه العامة.

وقد بدأ العمل فى هذا البحث فى ١٥ من فبراير سنة ١٩٤٩، وانتهى البحث وكتب تقريره النهائى وطبع فى أول يناير عام ١٩٥١. وقد تضمن البحث دراسة ألف أسرة من ألف منزل فى خمس شياخات هى : شياخة الشيخ فراج وشياخة الترجمان وشياخة العدوية وشياخة القلاية ثم شياخة السندبيسى. وقد روعى فى اختيار هذه الشياخات أنها أكثر تمثيلا للبيئة الشعبية فى حى بولاق.

ولعل من المفيد أن نذكر هنا بعض الصعوبات التى اعترضت سبيل الباحثين الاجتماعيين فى أثناء قيامهم بعملية البحث فهذا البحث غير البحث السابق الذى أجرى فى محيط تلاميذ إحدى مدارس الحى وأسرهم بناء على تصريح رسمى من وزارة التربية والتعليم (المعارف العمومية). إن هذا البحث يحتم على الباحثين الاجتماعيين وهم الغرباء عن المجتمع البولاقى،

أن يواجهوا أعضاء هذا المجتمع وجها لوجه ويعتمدوا فى ذلك على لا شئ سوى شخصياتهم وحدها. وكان حبهم للعمل وخبرتهم المهنية وثقتهم فى أنفسهم والتأكد من الفائدة التى ستعود من هذا البحث ضمانات لنجاحهم، وقد بدأوا فى التجول فى كل شياخة من الشياخات المختارة داخل شوارعها الرئيسية وحاراتها وأزقتها لدراسة الشياخة على الطبيعة جيدا، حتى لا يكون السير فى المنطقة بعد ذلك متعسرا أو تشوبه مظاهر الجهل بالمنطقة وطبيعتها الجغرافية والثقافية الاجتماعية من حيث نوع السكان ومهنهم وعاداتهم وأحوالهم المعيشية، وقد عنى الباحثون بدراسة المرافق فى الشياخات التى بحثت وأهمها حنفيات المياه العامة التى يشرب منها أهالى الحى والمراحيض والحمامات الشعبية العامة إن وجدت، وكذا دراسة المنشآت الأخرى كالمدارس والمستشفيات والمستوصفات إلخ.. ومن ثم تيسر لكل باحث من الذين اشتركوا فى هذا البحث أن يتعرف على المنطقة ويألفها من كثرة التجوال والترحال فى حدودها وأن يألف سكان الحى ويألفوه ويبدو لهم الشخص العارف بأحول حيهم الملم بضروب عاداتهم وتقاليدهم. وعلى الرغم من ذلك فقد واجهت الباحثين الصعوبات التى تعكس ما فى ذلك من ظروف المجتمع البولاقى منذ حوالى ٢٨ عاما سواء كانت هذه الظروف ثقافية اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية. ومن هذه الصعوبات ما يلى :

١- ظن بعض الأهالى أن البحث خاص بناحية التعليم الإلزامى أو نظام الملاجئ للأطفال. (أى أنهم كانوا يستبشرون خيرا بأن أطفالهم قد وجدوا أخيرا السبيل إلى الالتحاق بمدارس التعليم الإلزامى أو الملاجىء".

٢- تشكك بعض البالغين من أبناء الحي (الشبان الذكور على وجه الخصوص) فى كون البحث خاصا بالخدمة العسكرية الإجبارية !

٣- تشكك بعض الأهالى فى نية الحكومة فى هدم حى بولاق بأكمله وإزالة المساكن القديمة وإحلال المساكن الجديدة بدلا منها وبخاصة فى شياخة الترجمان وذلك لقيام الحكومة بهدم بعض منازل هذه الشياخة فى أثناء عملية البحث.

٤- خوف بعض الأهالى من أن الباحث الاجتماعى قد يكون مندوب الحكومة ممثلا لبعض المصالح مثل التنظيم والعوايد وإدارة النور والكهرباء وشركة مياه القاهرة والمجارى. وذلك على الرغم من تصريحه بأنه لا يمثل السلطة الحكومية فى شئ من هذا القبيل.

٥- خوف بعض الأهالى من إعطاء المعلومات الصحيحة عن المنزل الذى يقيمون به اتقاء غضب مالك المنزل وإصرار هذا البعض على استدعاء ملاك المنازل لمقابلة الباحث ليتولوا هم أنفسهم الإجابة عن الأسئلة التى يوجهها الباحث.

وفى أثناء عملية البحث لاحظ الباحثون أن أعضاء مجتمع البحث يتهربون من الإجابة الصريحة عن الأسئلة الخاصة بالمرض، وأن الأمراض فى المنازل المحرومة من المياه تقرب من ضعف عددها فى المنازل المجهزة بالمياه الجارية، فالنسبة كانت ٩/١٦. وإذا كان لا يمكن الجزم بصحة هذه المقارنة فالملاحظ أن أنواع الأمراض كانت عديدة مثل أمراض العيون والروماتزم والقراع والقروح وأمراض الأنف والاستسقاء والشلل النصفى والعاهات وأهمها عجز اليد والساق وفقد البصر والصمم.. إلخ.

وقد لاحظ الباحثون أن كثيرا من السكان لا يعرفون رقم المنزل ولكنهم يعرفون منازلهم باسم ملاكها.

والشكاوى من المياه القذرة وفضلات المنازل فى الأزقة والحوارى وطفح خزان المنزل المجاور (غير الأصم) وانبعاث الروائح الكريهة كانت على ألسنة الكثير من الأهالى.

ومع ذلك فقد لاحظ الباحثون اهتمام معظم السكان وجلهم من الفقراء بتعليم أبنائهم والشكاوى من الصعوبات التى يجدونها في الحاق هؤلاء الأبناء بالمدارس كانت مكررة. وقد تأكدت رغبة هؤلاء الأهالي في أن تقوم جمعية الخدمات الاجتماعية بحي بولاق بمساعدتهم في هذا الشأن.

وكان أهم نتائج هذا البحث، أن متوسط عدد أفراد الأسرة هو خمسة أفراد، وأن المعدل العام لعدد الشقق بالمنازل المبحوثة هو ٥,٥، مع ملاحظة ان الغالبية العظمى لمساكن الأسر فى حى الترجمان مثلا لا يزيد على غرفة

واحدة. وقد تبين أن نحو ٦٧٪ من المنازل ليس بها مواسير مياه أى أن ثلثى المنازل محرومة من المياه الجارية والثلث توجد به مواسير مياه فى جميع الشقق بنسبة نحو ٢٧٪ والباقى بنسبة نحو ٦٪، يستخدم السكان حنفية واحدة فى المنزل، وكانت الأسباب المعطاة لعدم توصيل مواسير المياه لجميع الشقق فى المنازل التى بها حنفية واحدة هى التكاليف وصغر الحجم وقدم المنزل، ثم عدم وجود مجارى فى الشارع. وكان أهم موارد المياه للمنازل التى ليست بها حنفيات هى الحنفيات العمومية ثم الجيران. أما طرق صرف المياه المتخلفة فهى الخزان الأصم بنسبة نحو ٥٢٪ ثم الشارع بنسبة نحو ٣٥٪ وأخيرا المجارى بنسبة نحو ١٣٪. ومن جهة المراحيض فقد تبين أن جميع المنازل تحتوى على مراحيض، مع ملاحظة أن معظم المنازل التى لا توجد بها توصيلة للمجارى العامة لا تحتوى على أكثر من مرحاض واحد مشترك لجميع السكان بالمنزل مهما بلغ عدد الأفراد ! وقد وجد فى أحد المنازل على سبيل المثال (بشياخة العدوية) مرحاض واحد مشترك وكان عدد الأسر التى تقيم فيه ١٧ أسرة، وإذا عرفنا أن متوسط عدد أفراد الأسرة الواحدة فى هذه الشياخة هو خمسة أفراد يكون عدد أفراد هذا المنزل حوالى ٨٥ فردا.

ثانيا : أهم مجالات عمل الجمعية

فى ضوء نتائج البحثين السابقين وملاحظات أعضاء الجمعية وانطباعاتهم عن الحى، واجهت الجمعية منذ أول وهلة مشاكل اجتماعية ثقافية واقتصادية وصحية عديدة يعيش فى ظلها أعضاء حى بولاق الأطفال منهم والشباب فضلا عن السيدات والرجال. هذه المشاكل كانت تواجه أعضاء الأسرة البولاقية جميعا. وهى مشاكل تتعلق بمجالات التنمية الشاملة والوقاية الاجتماعية ثم العلاج الاجتماعى. وقد أخذت الجمعية على عاتقها العمل فى هذه المجالات وأصبحت فى هذا الضوء جمعية متعددة المجالات والأغراض، أى جمعيات عادية متعددة فى جمعية واحدة.

كانت مجالات التنمية الشاملة التى اهتمت بالتنمية الاجتماعية عديدة منها إنشاء الأندية الاجتماعية التربوية مثل نادى الشباب (أنشئ فى عام ١٩٤٩) ونادى الفتيان (أنشئ فى عام ١٩٥٠) ونادى الفتيات (انشئ فى عام

١٩٥٢) ونادى الشابات (انشئ فى عام ١٩٥٣) ونادى السيدات "أنشئ فى عام ١٩٥٦" ومكتب الثقافة الشعبى (أنشئ فى عام ١٩٥٩).

أما المجالات التى اهتمت بالتنمية الاقتصادية فكانت فى محيط الأعضاء الإناث وهى عديدة أيضا منها مشروع التعليم المهنى (انشئ فى عام ١٩٤٨) ومشروع إنتاج أشغال الخياطة والتطريز (انشئ فى عام ١٩٥٨) والمشروع الإنتاجى للتريكو (أنشئ فى عام ١٩٦٣).

والملاحظ أن أهداف مجالات التنمية الشاملة التى اهتمت بالتنمية الاجتماعية والتى اهتمت بالتنمية الاقتصادية كانت كلها أهدافا تحقق تكوين القادة من الذكور والإناث من أعضاء حى بولاق لكى يؤدوا ما عليهم من واجبات نحو أنفسهم ونحو الحى ونحو الوطن الكبير مصرنا الخالدة، أى لكى يكونوا مواطنين صالحين، ولم تقتصر هذه الأهداف على ذلك بل اهتمت بأن يبقى هؤلاء المواطنون الصالحون دائما صالحين، أى اهتمت بوقايتهم اجتماعيا من الانحراف بكل صوره التكوينية والاجتماعية الثقافية والنفسية والعقلية.

وقد تعددت مجالات العلاج الاجتماعى فى الجمعية منذ نشأتها كذلك. وكان أهم هذه المجالات الخدمات الاجتماعية الفردية التى تقدم لأهالى حى بولاق، أو للذين يحولون من مؤسسات أخرى. والملاحظ أن هذه الخدمات كانت ولا تزال تقدم فى ضوء الشعار القائل : "ساعد العميل لكى يساعد نفسه"، أى أن كرامة كل فرد يتقدم بطلب الخدمة يجب أن تكون مكفولة. فهو قبل كل شئ شخص له كيانه وله قدراته وله آماله ومن حقه أن يعرف كل ذلك وأن يفيد من كل ذلك تحت إشراف الخبرة الواقعية الرشيدة التى تقدمها له الجمعية لكي يساعد نفسه بنفسه. وكان يشرف على هذه الخدمات قسم البحوث والرعاية الاجتماعية (انشئ فى عام ١٩٤٨).

وبالإضافة إلى ذلك اهتم هذا القسم بالناحية الصحية. وعمد فى هذا المجال إلى التوعية الصحية لرفع المستوى الصحى. فقد حرصت الجمعية دائما على أن يزورها طبيب بصفة مستمرة مرة فى كل أسبوع لتوقيع الكشف الطبى على الأعضاء الجدد والكشف الطبى الدورى على الأعضاء القدامى ومن يمرض منهم وتيسير علاجهم. وعندما توسعت مجالات

الخدمات الطبية استصدرت الجمعية ترخيصا بافتتاح وحدة علاجية لمعالجة المرضى من أهالى الحى نظير رسم رمزى. وذلك بقصد توفير الخدمات الاجتماعية الطبية إيمانا منها بجدوى العلاج الاجتماعى الطبى فى ضوء الخبرة الحية لمجتمع حى بولاق، حيث يكون الأصل فى معظم أمراض أعضاء هذا الحى هو الظروف الاجتماعية التى يعيشون فيها (انشئت هذه الوحدة فى عام ١٩٦٣).

ثالثا : أساليب تحقيق الأهداف

إن قارئ التقرير الحالى فى ضوء كل ما سبق يلاحظ بعض الأمور التى تلقى الضوء على أهم الأساليب التى اتخذتها جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق نبراسا لكى تحقق أهدافها. ولعل أهم هذه الأساليب أن يكون ما يلى :

١- الاعتماد على العاملين المهنيين سواء كانوا من الاخصائيين الاجتماعيين أو من الأطباء أو من المدرسين. فالجمعية منذ اللحظة الأولى تؤمن بالمثل الشعبى المصرى القائل " ادى عيشك لخبازه ولو ياكل نصه". ان الاعتماد على التطوع وارد فى حسبان الجمعية ولكن أى نوع من التطوع ؟ هذه هى المسألة. ان الجمعية إذ تؤمن بالاحتراف وبخاصة فى محيط التنمية الاجتماعية الشاملة والوقاية الاجتماعية والعلاج الاجتماعى تؤمن أيضا بالتطوع. أنها تؤمن بالاحتراف المشرف وهى تؤمن أيضا بالتطوع غير المشرف. والجمعية ترى ان الزمن الذى كان فيه التطوع المشرف سائدا قد ولى فى ضوء روح العصر وفى ضوء وجود معاهد عليا وكليات للخدمة الاجتماعية منذ عام ١٩٣٧. أن الجمعية التى انشئت فى الماضى وبخاصة قبل عام ١٩٣٧، كان لابد لها عندما انشئت من الاعتماد على المتطوعات والمتطوعين فى معظم الأحيان. ولكن الزمن الآن غير الزمن فى الماضى، والعصر الحالى غير العصر الذى ولى.

٢- الاعتماد على الأسلوب العلمى فى مواجهة تحقيق الأهداف. منذ الوهلة الأولى رأت الجمعية بحق أن الارتجال فى تحقيق هذه الأهداف غير

ذى موضوع، وأن تطبيق الأسلوب العلمى أولى وأجدى. فقد رأت الجمعية أن استخدام هذا الأسلوب يعنى الفهم الموضوعى للظواهر الاجتماعية التى تواجهها فى المجتمع البولاقى. والفهم الموضوعى أولى بأن تبذل فى سبيل الحصول عليه الطاقات كل الطاقات. وذلك لأن الجمعية إذا فهمت ظاهرة اجتماعية معينة فهما موضوعيا تيسر لها أن تغيرها إلى الأفضل، لأن هذا الفهم ييسر لها الحرية إزاء هذه الظاهرة، أى ييسر لها التسلط عليها ومواجهتها وتوجيهها.

٣- الاعتماد على ولاء السادة أعضاء الجمعية العمومية. ويتجلى هذا الولاء واضحا فى استمرار عضوية أغلبيتهم أعضاء منذ عشر سنوات فأكثر (٣٨ عضوا من ٦٢ عضوا)، ومنذ خمس عشرة سنة فأكثر (٢٢ عضوا من ٦٢ عضوا)، ومنذ عشرين سنة فأكثر (١٧ عضوا من ٦٢ عضوا)، ومنذ خمس وعشرين سنة فأكثر (عشرة أعضاء من ٦٢ عضوا). ان الاستمرار فى جماعة من الجماعات أو فى مجتمع من المجتمعات يعنى الأصالة والتقاليد السليمة والخط الواضح فضلا عن قيم التعاون الإيجابى والتكافل الاجتماعى والتسامح والاستمرار فى محيط جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق يعنى كل ذلك كما يؤكد الاستقرار [١].

ويتجلى الاستقرار فى محيط الجمعية فى أن رئاسة الجمعية منذ يونيو عام ١٩٤٧ حتى الآن قد تولاها ثلاثة أشخاص فقط : السيدة/ آلزا ثابت (من يونيو عام ١٩٤٧ حتى أكتوبر عام ١٩٥٧) والمستشار محمد فتحى (من أكتوبر عام ١٩٥٧ حتى ٣٠ يناير عام ١٩٦٧) و السيدة الأستاذة كريمة أحمد السعيد (من فبراير عام ١٩٦٧ حتى الآن). وان إدارة الجمعية قد تولاها شخصان فقط هما الأستاذ محمد كمال الدين عبد السلام (من ابريل عام ١٩٥٠ حتى أكتوبر عام ١٩٥٧) والسيدة آلزا ثابت (من أكتوبر عام ١٩٥٧ حتى الآن) مع ملاحظة أن السيدة آلزا ثابت فى أثناء توليها رئاسة الجمعية كانت تقوم بإدارتها أيضا [٣].

وفى ضوء هذا الاستقرار واجهت جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق كل الظروف منذ نشأتها وحتى الآن، سواء كانت هذه الظروف مواتية أو غير مواتية. وفى ضوء هذا الاستقرار أيضا تبلورت أهداف الجمعية

ووضحت الرؤية وتأكدت لدى العاملين بها، كل العاملين، صحة ما دعوا إليه ولا يزالون يدعون إليه، ونمت الجمعية نموا صحيا.

٤- الاعتماد على تكوين الكوادر القيادية من أعضاء الجمعية (وهم من أعضاء المجتمع البولاقى) ليعملوا بها ويديروا بعض شئونها. وقد بدأت الجمعية فعلا فى تعيين عشرة أعضاء (خمس سيدات فى مجال التعليم الفنى وثلاث انسات فى المجال الإدارى وآنسة فى مجال الإنتاج الاقتصادى وشاب فى مجال الأندية الشعبية). وذلك لتحقيق أحد المبادئ التربوية التى يسير على هديها العمل بالجمعية ألا وهو مبدأ الحكم الذاتى الذى يسود كل جماعات الأعضاء بالجمعية، والخروج بهذا المبدأ من حيز التدريب إلى الحيز العملى الواقعى. ولكى تضمن الجمعية كلما زاد العدد، زاد ولاء العاملين بها لها ومن ثم تحقيق أهدافها.

وفضلا عن هؤلاء الأعضاء اهتمت الجمعية عندما أتيحت الفرصة لها اختيار تسعة من العاملين بالجمعية من الذين يسكنون فى حى بولاق التى تعمل الجمعية من أجله منذ ثلاثين عاما. وبذلك أصبح العاملون من حى بولاق تسعة عشر عاملا من ستة وخمسين عاملا بالجمعية فى الوقت الحاضر، يعمل بعضهم كل الوقت ويعمل البعض الآخر بعض الوقت.[٣].

٥- محاولة تحقيق الاستقلال الاقتصادى الذاتى للجمعية. وذلك بالقيام بالتجارب تلو التجارب لإقامة مشروعات إنتاجية تدر عائدا، دون ما استغلال، ييسر للجمعية فى المستقبل القريب الاعتماد على ذاتها اقتصاديا حتى تضمن استمرار وجودها. فالجمعية ترى أن تكوين الكوادر القيادية التى تعمل من أجل التيسير لأعضاء الحى البولاقى القيام تحت اشرافهم بعمليات التنمية الحضرية فى هذا الحى، وحده، لا يكفى، وأنه من الضرورى أن تحقق الجمعية لهذه الكوادر إن عاجلا وإن آجلا الاستقلال الاقتصادى الذاتى لكى يستمر القيام بهذه العمليات جيلا بعد جيل.

هوامش الفصل الثانى

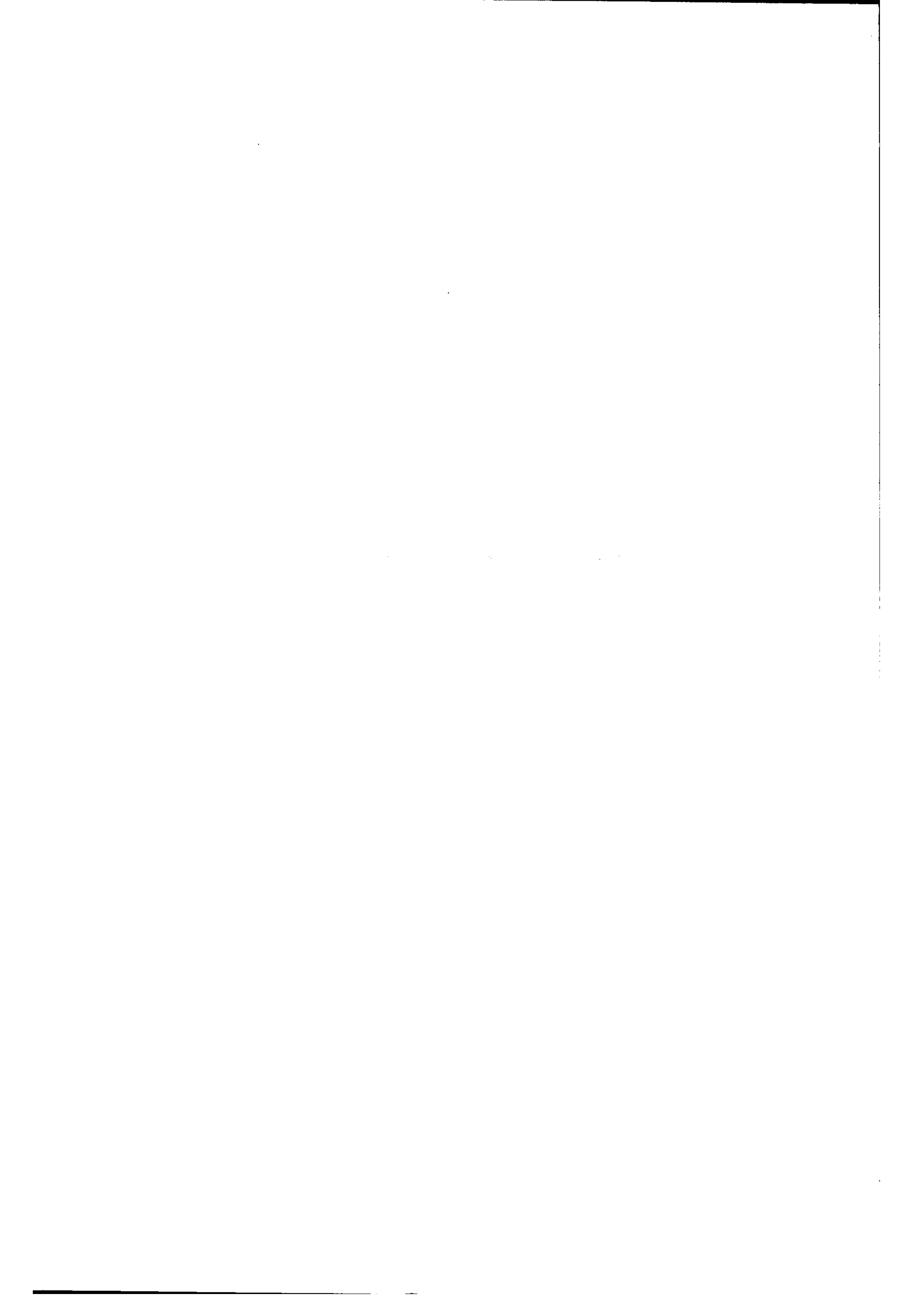
(١) انظر الملاحق

(٢) انظر الملاحق

(٣) كان عدد عاملى الجمعية عند إنشائها أربعة فقط (انظر تقرير مجلس الإدارة عام ١٩٤٨). (انظر الملاحق).

"الـفصل الثالـــث"

(من مشروعـــــات الجمعيـــة الحاليـــــة)



"الفصل الثالث"

"من مشروعات الجمعية الحالية"

إن الزائر للجمعية فى الوقت الراهن قد لا يستطيع أن يتخيل ما كانت عليه هذه الجمعية من ثلاثين عاما، أى عندما انشئت فى عام ١٩٤٧، عندما كان مقرها فى شارع قطب الدين موسى بحى بولاق (شياخة الفرنساوى) فى شقة صغيرة مكونة من ست غرف إيجارها الشهرى خمسة جنيات. كانت الجمعية فى ضوء مصروفات لم تزد فى عام ١٩٧٢ على ٥٤٩٨ جنيها مصريا [١] فى ذلك الحين تعمل جاهدة فى ظل مبادئها غير آبهة بالعقبات وتؤدى نشاطاتها فى النواحى الصحية والاقتصادية والثقافية لأعضاء الحى من هذا الحيز الضيق إلى أن تم مبناها الجديد، بنفس الحى (شياخة الرملة) الذى افتتح فى ١٢ فبراير من عام ١٩٧٥، والذى تبلغ مساحته بالملاعب ٣٠٠٠ متر مربع، وبلغت تكاليف بنائه حتى الآن مبلغا قدره ٦٥٥١٨,٨٤٥ مليم جنيه (فقط وقدره خمسة وستون ألفا وخمسمائة وثمانية عشر جنيها مصريا وثمانمائة وخمسة وأربعون مليما). وذلك عدا التعلية الجارى العمل بها لكى يصبح ثلاثة طوابق لمقابلة التوسع فى الخدمات والمشروعات التى تقوم بها الجمعية فى الوقت الحاضر. وقد أصبحت الأصول التى تمتلكها الجمعية ١٤٦٦٧٩,٠٤٩ جنيها (فقط وقدره مائة وستة وأربعون ألفا وستمائة وتسعة وسبعون جنيها مصريا وتسعة وأربعون مليما) وبلغت مصروفات الجمعية فى عام ١٩٧٧ حوالى ٣٠٥٠٠ جنيه (فقط ثلاثون ألفا وخمسمائة جنيه مصرى) منها نحو ٦٠٪ من موارد محلية كالإعانات الحكومية وحصيلة السوق الخيرية والاشتراكات وإيرادات برامج النشاط، والباقى وهو نحو ٤٠٪ عبارة عن تبرعات موقوتة من الخارج أمكن الحصول عليها لتغطية متطلبات المرحلة الانتقالية بعد الانتقال إلى مبنى الجمعية الجديد. [٢] وترجو الجمعية أن يصبح التمويل محليا بصفة أساسية بعد التوسع فى تنفيذ المشروعات التى سوف تسهم بقدر وافر فى تغطية المصروفات.

وتتضمن مشروعات الجمعية فى آخر عام ١٩٧٧ المشروعات التالية:

١- الأندية الشعبية :

وتضم عشر أسر قوامها ٤٠٠ عضو من الذكور والإناث ويشرف عليها اخصائيون اجتماعيون ورياضيون. والهدف العام للأندية يتركز حول الإسهام فى حمل ومتابعة الرسالة الأساسية للجمعية من حيث "تنمية المجتمع المحلى". وذلك بالعمل على خلق وإرساء عناصر "المواطنة الصالحة" بين أعضاء الأندية من أبناء حى بولاق ويسير العمل قدما لتحقيق هذه الأهداف عن طريق.

أ- توجيه الطاقات المتدفقة لدى الأعضاء إلى ألوان محببة من النشاط المنظم والموجه، بما يعود عليهم وعلى مجتمعهم بالنفع.

ب- توفير كافة عوامل النمو المتكامل للأعضاء، وتدبير عناصر التنشئة السليمة.

٢- نادى الشارع :

وهو مشروع جديد بدأ فى شهر يونيو ١٩٧٦. ويهدف هذا المشروع أساسا بجانب استيعاب أعداد أكثر من الأشبال والفتيان والفتيات والشباب للإفادة من الخدمات الترويحية، إلى الوصول إلى الأسرة عن طريق أعضاء النادى للإفادة من خدمات الجمعية المختلفة والإفادة من جهود الأعضاء التطوعية لخدمة البيئة المحلية. وقد تم فعلا فتح فصول تقوية للتلاميذ وفصول محو أمية فضلا عن حملات نظافة وتوعية صحية. وأصبح عدد الأعضاء فى آخر ديسمبر سنة ١٩٧٧، ٢٢٣ عضوا.

٣- التدريب المهنى للفتيات والسيدات :

يشمل هذا المشروع ١٢ فصلا قوامها أكثر من مائتى سيدة وفتاة فوق سن الرابعة عشرة يتعلمن فنون التفصيل والحياكة. ويلتحق بفصول محو الأمية غير الحاصلات منهن على شهادات دراسية من التعليم العام.

٤- النشاط الجماعى :

لا يقتصر نشاط الدارسات بقسم التدريب المهنى على الناحية الفنية ومحو الأمية، بل تعنى الجمعة بتنمية مقومات الشخصية للدارسات بالعمل معهن تحت إشراف اخصائية اجتماعية فى أنشطة وتنظيمات مختلفة تعمل على اكسابهن خبرات ومهارات جديدة وتعديل فى السلوك كلما دعا الداعى إلى ذلك فضلا عن التركيز على الأهداف الإيجابية والتعاون على البر وتحمل المسئولية.

٥- الإنتاج الاقتصادى لأشغال التريكو والحياكة :

وهو مشروع إنتاجى بالدرجة الأولى. ويتضمن إنتاج ملابس الأطفال من التريكو والملابس الأخرى من الأقمشة العادية وتوريدها إلى المحلات الكبرى (مثل محلات صيدناوى وعمر أفندى وغيرهما). وتعمل فى هذا المشروع خريجات مشروع التدريب المهنى وعدد من أسر حى بولاق بهدف رفع المستوى الاقتصادى لكل.

٦- الخدمات الفردية :

ويعنى هذا المشروع بدراسة الحالات التى تواجه المشكلات سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية بقصد محاولة مساعدة كل حالة لكى تساعد نفسها وتتغلب على مشكلاتها.

٧- رعاية الأسرة :

ويضم هذا المشروع تنظيم الأسرة وأمراض النساء، والرعاية الطبية عن طريق عيادات الأمراض الباطنية والاطفال بجانب معمل للتحاليل الطبية.

٨- البحوث الاجتماعية:

يزود هذا المشروع إدارة الجمعية ومشروعاتها بالأساس العلمى الذى تقدم الجمعية عن طريقه خدماتها لأعضاء المجتمع البولاقى حتى تعكس هذه الخدمات الحاجات الفعلية التى يحتاجها هؤلاء الأعضاء كى تتحقق التنمية البشرية لهم فعلا وحقا. ويهتم هذا المشروع أيضا بالبحوث الشاملة لحى بولاق بقصد الكشف عن الظواهر الاجتماعية التى يتميز بها وذلك للتعرف عليها موضوعيا حتى يمكن تغييرها أو تعديلها إلى الأفضل.

٩- دار الحضانة :

بدأت الجمعية فى شهر ديسمبر ١٩٧٧ فى تنفيذ هذا المشروع الهام. وقد قررت وزارة الشئون الاجتماعية إعانة خاصة له.

وبإتمام هذا المشروع تصبح خدمات الجمعية شاملة ومتكاملة. فهى تبدأ بالطفل قبل الولادة عن طريق خدمات تنظيم الأسرة ورعاية الأم والطفل صحيا بخدمات وحدة الرعاية الطبية لأمراض النساء والأطفال. ثم تستقبل الطفل فى دار الحضانة (عندما يتم تنفيذ المشروع) حتى يصل إلى سن المرحلة الابتدائية للدراسة. ثم تتناول الاطفال ذكورا وإناثا بالتربية والصقل فى الأندية الشعبية تحت إشراف الاخصائيين التربويين إلى أن يبلغوا سن الشباب والعمل ثم تمد الجمعية يد المساعدة إلى من تخلف عن الدراسة أو تعثر فيها فتستقبله فصول محو الأمية او فصول التدبير المنزلى بقسم التدريب المهني للفتيات والسيدات، على وجه الخصوص، حيث يتعلمن فنون التفصيل والحياكة والتطريز والتريكو، ومن ثم تتاح لهن فرص الكسب بعد

التخرج للعمل فى المشروعات الإنتاجية التى تديرها الجمعية أو فى سوق العمل الحر.

وفى جميع هذه المراحل تقدم الرعاية الصحية عن طريق العيادات الطبية ومعمل التحاليل برسوم رمزية. كما يستقبل مشروع الخدمات الفردية الحالات التى تواجه المشكلات سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية بقصد محاولة مساعدة كل حالة لكى تساعد نفسها وتتغلب على مشكلاتها.

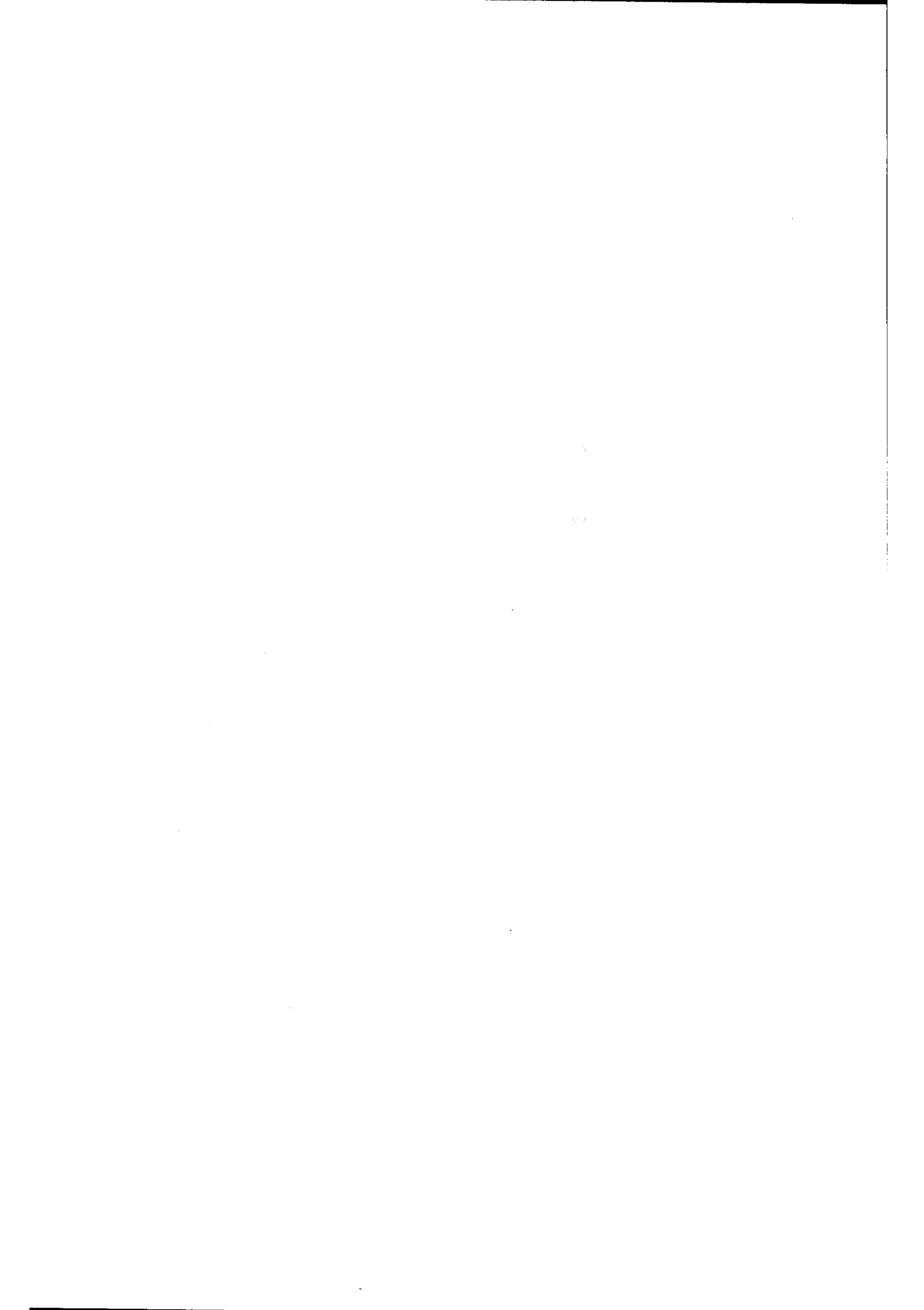
هوامش الفصل الثالث

(١) كـانت مصروفـات الجمعيـة مـن أول ينـاير ١٩٤٨ حتـى ٣١ ديسـمبر ١٩٤٨ حوالـى ٣٥٨,٨١٥ جنيه (ثلاثمائة ثمانية وخمسون جنيها وثمانمائة وخمسة عشر مليما).

(٢) يرجع الفضل فى جمع هذه التبرعات إلى هيئة أيبير وإدارة التعاون الفنى بسويسرا.

"الفصل الرابع"

(نظرة نحو المستقبل)



"الفصل الرابع"

(نظرة نحو المستقبل)

إذا كان قد مر ثلاثون عاما منذ إنشاء الجمعية حتى الآن، فإن الأمل أن تستمر وتبقى تؤدى - وهى واثقة - وظائفها الاجتماعية الثقافية على الدوام، والرجاء أن يكون استمرار الجمعية فى ضوء أساليب تحقيق أهدافها التى مارستها، والتى ظلت عن طريق هذه الممارسة تعيش شامخة حتى وقتنا الراهن. وهذه الأساليب كما يذكر القارئ، فى ضوء حقائق الفصل الثانى، بسيطة غير معقدة وتتضن ما يلى :

١- الاعتماد على العاملين المهنيين مع الإيمان بالتطوع غير المشرف.

٢- الاعتماد على الأسلوب العلمى فى مواجهة تحقيق الأهداف.

٣- الاعتماد على ولاء السادة أعضاء الجمعية العمومية وذلك باستمرار عضويتهم. ومن ثم يتحقق الاستقرار لكى تؤدى الجمعية دورها الفعال.

٤- الاعتماد على تكوين الكوادر القيادية من أعضاء الجمعية للخروج منه مبدأ الحكم الذاتى من حيز التدريب إلى الحيز العملى الواقعى.

٥- محاولة تحقيق الاستقلال الاقتصادى الذاتى للجمعية لضمان استمرار وجودها،أى لكى يستمر القيام بعمليات التنمية الحضرية فى حى بولاق جيلا بعد جيل.

وإذا كان من أهم أهداف الجمعية هو خلق وإرساء عناصر "المواطنة الصالحة" بين أعضائها، فإن الأمل معقود أن يتم ذلك فى ضوء قيم التراث الثقافى المصرى التى عاش بها ومن أجلها المجتمع المصرى العريق مثل قيم المحبة من أجل الحياة والتسامح من أجل رفعة الإنسان والمشاركة من أجل البناء والتضامن من أجل فعل الخير وغيرها وغيرها. وتحقيق هذه القيم ومثيلاتها من أجل توطيد المجتمع المصرى هو الرجاء الذى نسعى إليه، ومن أجل الإنسان على وجه العموم فإن تحقيق هذه القيم ومثيلاتها يؤكد الأصالة المصرية وهو ما نرنو إليه. أى أن الأمل فى المستقبل القريب هو توطيد الصلة الإنسانية بين أعضاء المجتمع المصرى على وجه العموم

وأعضاء المجتمع البولاقى على وجه الخصوص وبين أعضاء المجتمعات الإنسانية فى شخص جمعيات أصدقاء لحى بولاق على وجه العموم وفى شخص جمعية أصدقاء بولاق بسويسرا "على وجه الخصوص" (١).

ولعل القارئ فى ضوء قراءة هذه الدراسة أن يصل إلى حقيقة واضحة ألا وهى أن جمعية الخدمات بحى بولاق هى إحدى الجمعيات النموذجية فى المجتمع المصرى المعاصر. أنها رائدة فى التنمية الحضرية المحلية ما فى ذلك من شك، وهى كنموذج فى هذا المجال تستحق أن تحتذى فى المستقبل القريب أو فى المستقبل البعيد. أن تحقيق هذا الهدف هو الأمل المنشود الذى يعيش فى أحلام القائمين على الجمعية فى الوقت الراهن.

والرجاء التوفيق والسداد،،

---

(١) تأسست "جمعية أصدقاء بسويسرا" فى جنيف فى عام ١٩٧٣.

"الملاحـــــق"



(مدد عضوية بعض أعضاء الجمعية العمومية)

أولا عدد السادة أعضاء الجمعية المشتركين لأكثر من ٢٥ عاما

م	الأسم
١	الأستاذ/ إبراهيم محمد المنوفى
٢	الأستاذ/ الدكتور إبراهيم محمد شاهين
٣	الأستاذة / آلزا ثابت
٤	الأستاذ / الدكتور سيد عويس محمد
٥	الأستاذة/ صفية شحاته
٦	الأستاذ/ عبد العزيز فتح الباب سيد
٧	الأستاذة / عطيات محمد قناوى
٨	الأستاذ/ المستشار محمد فتحى
٩	الأستاذ / محمد كمال الدين عبد السلام
١٠	الأستاذة/ وفيقة زكريا غنيم

ثانيا عدد السادة أعضاء الجمعية المشتركين لأكثر من ٢٠ عاما

م	الاسم
١	الأستاذ/ أحمد سيد عويس
٢	الأستاذة / عائشة محمد فتحى
٣	الأستاذ/ فهمى محمد حسن
٥	الأستاذ/ محمد حسن كامل
٦	الأستاذة/ منيرة حسن عاصم
٧	الأستاذة/ الدكتورة هيلانة سيداروس

ثالثا عدد السادة أعضاء الجمعية المشتركين لاكثر من ١٥ عاما

م	الاسم
١	الأستاذ/ الدكتور سعد المغربى
٢	الأستاذ / الدكتور عبد العزيز سامى
٣	الأستاذة / كاميليا أحمد عبد الصمد
٤	الأستاذ / محمد إبراهيم خليل نبهان
٥	الأستاذ/ محمد حلمى محمد

رابعا عدد السادة أعضاء الجمعية المشتركين لأكثر من ١٠ أعوام

م	الاسم
١	الأستاذ/ الدكتور إبراهيم جميل
٢	الأستاذة/ إقبال حجازي
٣	الأستاذ/ أمين محمد الجمال
٤	الأستاذة/ بثينة الشاذلى
٥	الأستاذ/ تادرس حنا

٤	الأستاذة / كريمة أحمد السعيد	٦	الأستاذة/ تيسير سيد عويس

م	الأسم
٧	الأستاذ/ حسن سيد على كحلة
٨	الأستاذ/ حسن طه أبو الفضل
٩	الأستاذ/ حسينى سند إسماعيل
١٠	الأستاذة/ صوفى عازر جبران
١١	الأستاذة/ الدكتورة عايدة السقا
١٢	الأستاذ/ عيد محمد سعد
١٣	الأستاذ/ الدكتور مسعد سيد عويس
١٤	الأستاذ/ مصطفى محمود المصرى
١٥	الأستاذة/ نظيرة نقولا عبد الملك
١٦	الأستاذة/ نفيسة نعمت الله حسين

(رؤساء الجمعية منذ إنشائها فى عام ١٩٣٧)

١- السيدة الأستاذة آلزا ثابت : من يونيوم عام ١٩٤٧ حتى أكتوبر عام ١٩٥٧.

٢- المستشار محمد فتحى : من اكتوبر عام ١٩٥٧ حتى ٣٠ يناير عام ١٩٦٧.

٣- السيدة الأستاذة كريمة أحمد السعيد : من فبراير ١٩٦٧ حتى الآن.

(أول مجلس إدارة للجمعية فى عام ١٩٤٧)

السيدة الأستاذة / آلزا ثابت	رئيسة المجلس
الأستاذ واصف يوسف	السكرتير العام
الأستاذ سيد عويس	أمين الصندوق
صاحب العزة محمد فتحى بك -	
المستشار القانونى	عضوان
الآنسة وفيقة زكريا غنيم	

(مجلس إدارة الجمعية فى عام ١٩٧٧)

السيدة الأستاذة كريمة أحمد السعيد	رئيس المجلس
السيدة الأستاذة منيرة حسن عاصم	نائبة رئيسة المجلس
السيد الأستاذ محمد إبراهيم خليل نبهان	أمين الصندوق
السيد الأستاذ الدكتور سيد عويس	السكرتير العام
السيد الأستاذ محمد حسن كامل	
السيدة الأستاذة بثينة الشاذلى	أعضاء
الدكتور عبد الجليل مصطفى البسيونى	

(موظفو الجمعية فى عام ١٩٤٧)

الآنسة / فتنة مجلى

السيدة / خيرية ياور

الآنسة / زينب حافظ

الآنسة / إحسان سيد على

(موظفو الجمعية فى عام ١٩٧٧)

الإدارة:

السيدة/ آلزا ثابت	مديرة الجمعية
السيد / زهيان حنا بخيت	السكرتير الفنى
السيد / محمد عزمى صالح	عضو فنى
السيد / حسينى سند إسماعيل	رئيس قسم الشئون المالية والإدارية
الآنسة / برلنته عز الدين محمد	مشرفة
السيد / مصطفى محمود المصرى	السكرتير الإدارى
السيد / كمال محمد ميهوب	أمين مخزن
السيد / حسن عبد الرازق محمود	أمين خزينة
السيد / رزق الغريب إبراهيم	كاتب شئون العاملين
السيد / الليثى إبراهيم الليثى	كاتب حسابات

الأندية الشعبية :

السيد / منير محمد عبد العزيز	المستشار
السيد / محمود محمود حسن	رئيس القسم
آنسة / درية محمد أمين	رائدة
السيد / محمد محمود لاشين	رائد
آنسة / محفوظة محمود عبد السلام	رائدة
السيد / رمضان أمام محمد	رائد
آنسة / سعيدة محمد عبد القادر	رائدة
السيد / عادل أبو المجد توفيق	رائد
السيد / سعيد يونس حسن	رائد
السيد / محسن عبد الحليم على	رائد
السيد / عبد الحليم بدوى منصور	مشرف رياضى
السيد / حسن على حسن عاشور	مدرب رياضى
السيد / أمين محمد الجمال	مدرس موسيقى
السيد / عبد الغنى محمد ناصر	مدرس تمثيل

التعليم الفنى :

السيدة / ليلى إسماعيل صالح	رئيسة القسم
السيدة / نفيسة عبد الغنى العشرى	مدرسة
السيدة / فردوس شوقى	مدرسة
السيدة / سعدية محمد السيد	مدربة خياطة

آنسة / بلانش صموئيل خير	مدرسة
آنسة / كريمة أحمد عيسى	مدرسة
السيدة / اعتماد بدوى السيد	مدرسة

محو الأمية :

السيد / إبراهيم محمد حسن	
السيد / حلمى أحمد جمعة	
السيد / سيد محمد قنديل	
السيدة / زينب عبد الخالق محمد	
السيدة / زينب محمود عبد الله	**مدرسون**
السيدة / سعاد السيد حلمى	
آنسة / لوسيه رمزى عبد الملك	
آنسة / ليلى يوسف على مهارة	
السيدة / رضا محمود عبد الله	

الإنتاج الاقتصادى :

آنسة / سعدية أحمد حسين	المشرفة الفنية
آنسة / ابتسام أمين الجمال	كاتبة

الخدمات الفردية :

السيد / فهمى محمد حسن	رئيس القسم

آنسة / وفاء إسماعيل محمد	اخصائية اجتماعية
آنسة / كريمة محمود محمد	اخصائية اجتماعية

رعاية الأسرة :

السيد / أحمد سيد عويس	رئيس القسم

أ) وحدة تنظيم الأسرة :

السيد / دكتور محسن حسنى أحمد	طبيب
السيدة / بثينة صالح	اخصائية
السيدة / عواطف سيد على	حكيمة

ب) وحدة الرعاية الطبية :

السيد دكتور عبد القوى حماد محمد	طبيب باطنى
السيدة الدكتورة/ نادية حسن البدراوى	طبيبة أطفال
آنسة / سوسن محمد عزيز	اخصائية
آنسة / حسنة أحمد سيد	اخصائية المعمل
السيد / محمود محمد سالم	ممرض

البحوث الاجتماعية :

تحت إشراف السيد الدكتور سيد عويس (سكرتير عام الجمعية)

السيد / عبد الصبور محمد بخيت	باحث
السيد / حسن على إسماعيل	باحث

طبع هذا الكتاب بدعم من
صندوق التنمية الثقافية

